فرانز كافكا



الآثار الكاملة

مع تفسيراتها

٣

(المجتمع الصناعي)

المفقود

رواية

ترجمها عن الالمانية ابراهيم وطفي

فرانز كافكا

الآثار الكاملة

مع تفسيراتها

٣

(المجتمع الصناعي)

المفقود

رواية

ترجمها عن الألمانية ابراهيم وطفي

المفقود



منشورات وطفي

ibrahim_watfe@yahoo.com

www.kafka-in-arabic.de.vu

Herausgeber

Ibrahim Watfe
P.O.Box 20 1406
D 53144 Bonn
Germany

التوزيـــــــــــع:
دار الكلمة ودار الحصاد
سورية ـ دمشق ـ برامكة
kalemah@aloola.sy
هـاتــف: ٢١٣٤٦٩٢
فاكـس: ٢١٢٦٣٢٦

الطبعـــــــة الأولـــــــى

عام ٢٠١٠

م. و. إ. ع. ط: ١٠٤٢٦٢
تاريخ: ٢٠ ـ ١٢ ـ ٢٠٠٩

على الكتاب أن يكون الفأس التي تكسر البحر المتجمد فينا

كافكا

إن كتابات كافكا هي ضربة فأس ضد البحر المتجمد فينا

ناقد

الى

كاتارينا جبرانا

وزكية ميلينا

وجبران خليل

وأنّي

الفهرس

المفقود

I
الوقاد

حين دخل كارل روسمان ذو الستة عشر عاماً، الذي أرسله والداه الفقيران إلى أمريكا لأن خادمةً كانت قد أغوته وأنجبت منه طفلاً، على ظهر السفينة، التي أصبحت تسير ببطء، إلى ميناء نيويورك، رأى تمثال إلهة الحرية، الذي كان قد لاحظه مدّة طويلة، في ضوء شمس زادت قوته فجأة. وكان ذراع التمثال الذي يحمل سيفاً يرتفع وكأنه رفع حديثاً، تلفّه نسائم طليقة.

«ما أشد ارتفاعه!»، قال في ذات نفسه، وإذ لم يفكر أبداً بمفارقة مكانه، فقد راح حشد الحمالين المتزايدين باستمرار والمارّين أمامه يدفعونه شيئاً فشيئاً حتى وصل إلى حافة ظهر السفينة.

ومرّ أمامه شاب كان قد تعرف إليه بشكل عابر خلال الرحلة، وقال: «نعم، أليس لديك رغبة في النزول؟» «إنني مستعد»، قال كارل وهو ينظر إليه ضاحكاً، ورفع حقيبته على كتفه، اغتراراً بنفسه ولأنه كان فتى قوياً. لكنه فيما كان ينظر إلى ما وراء الشاب الذي راح يبتعد مع الآخرين وهو يلوّح عصاه بعض الشيء، لاحظ مذهولاً أنه نسي مظلته في أسفل السفينة. وعلى عجل رجا الشابَ الذي لم يكن يبدو في غاية السعادة أن يتكرم وينتظر لحظة عند حقيبته، ثم شمل الموقف بنظرة لكي يجد طريقه عند عودته، وانطلق مسرعاً. وفي الأسفل وجد مع الأسف ممراً كان خليقاً أن يقصّر طريقه كثيراً، مغلقاً لأول مرة، الأمر الذي يتعلق على الأرجح بإنزال جميع الركاب؛ وتوجب عليه أن يبحث في عناء عن طريقه عبر عدد كبير من الغرف الصغيرة وعلى سلالم قصيرة راحت تتبع بعضها بعضاً وعبر ممرات متعرجة باستمرار وعبر غرفة خالية تحوي طاولة مكتب مهجورة، حتى أضاع طريقه فعلاً وبالكلية، إذ إنه لم يكن قد سار في هذا الطريق سوى مرة أو مرتين ودائماً برفقة آخرين. وفي حيرته، ولأنه لم يلق إنساناً ولم يعد يسمع سوى وقع آلاف الأقدام فوقه، التي راح حفيفها يستمر، ولاحظ من بُعد الأعمال الأخيرة للآلات، التي كانت قد توقفت، وكأنها تلفظ أنفاسها، فقد شرع، دون تفكير، في قرع باب صغير توقف أمامه في هيامه وتخبّطه.

ونادى صوت من الداخل: «الباب مفتوح.» وبارتياح صادق فتح كارل الباب. «لماذا

تضرب الباب بشكل جنوني هكذا؟» سأل رجل عملاق وهو لا يكاد ينظر إلى كارل. ومن خلال كوّة منوَر علوية سقط ضوء خابٍ مستهلَك منذ مدّة طويلة في أعلى السفينة في القمرة البائسة التي كان ينتصب فيها سرير وخزانة وكرسي كبير والرجل إلى جانب بعضها بعضاً وكأنها مخزَّنة. وقال كارل: «أثناء الرحلة لم ألاحظ الأمر أبداً، لكنها سفينة ضخمة بشكل مخيف» «نعم، هذا صحيح»، قال الرجل بشيء من الفخر، دون أن يتوقف عن معالجة قفل حقيبة صغيرة راح يضغط عليه بكلتا يديه لكي يتنصّت على فتح وإقفال المزلاج. وواصل الرجل كلامه قائلاً: «ادخل! لماذا لا تدخل! إنك لن تقف خارج الباب!» فسأله كارل: «ألا أزعج؟» «آه، كيف ستزعج إذاً؟» باحثاً عن أن يطمئن نفسه، إذ كان قد سمع الكثير عن المخاطر التي تهدد القادمين الجدد إلى أمريكا ولا سيما من قبل الإيرلنديين، سأل كارل: «هل أنت ألماني؟» وأجاب الرجل: «نعم، نعم، أنا ألماني.» وظل كارل متردداً. وهنا أمسك الرجل مقبض الباب على حين غرة، ومع الباب الذي أغلقه بسرعة دفع كارل إليه في الداخل. «لا أحتمل أن ينظر المرء إليّ من الممر»، قال الرجل الذي عاد إلى العمل بحقيبته، «يمرّ كل امرئ وينظر إلى الداخل. ما من أحد يحتمل هذا!» «لكن الممر خال كلياً»، قال كارل الذي وقف معصوراً إلى قائمة السرير. «نعم الآن»، قال الرجل. ففكر كارل: «الموضوع هو موضوع الآن. مع الرجل يصعب الحديث.» وقال الرجل: «استلق على السرير، فلديك مكان أكثر.» اندسّ كارل ما استطاع وضحك بصوت عال على المحاولة الأولى غير المجدية للقفز على السرير. لكنه ما كاد يكون في السرير حتى نادى: «العياذ بالله، لقد نسيت حقيبتي كلياً!» «أين هي؟» «فوق، على سطح السفينة. وثمة أحد المعارف ينتبه إليها. ما اسمه يا ترى؟» وسحب بطاقة زيارة من كيس سري كانت والدته قد خاطته له في بطانة سترته. «بوتّرباوم، فرانز بوتّرباوم» «هل أنت بحاجة ماسّة إلى الحقيبة؟» «طبعاً» «لماذا سلّمتها إذاً إلى إنسان غريب؟» «كنت قد نسيت مظلتي في الأسفل وجريت كي أحضرها، لكنني لم أشأ أن أحمل الحقيبة معي. ثم إنني، بالإضافة إلى ذلك، أضعت الطريق» «هل أنت وحيد؟ دون مرافقة؟» «نعم. إنني وحيد.» وعبرت فكرة رأس كارل، «ربما كان عليّ أن أتمسك بهذا الرجل، أين أجد قريباً صديقاً أفضل» «والآن فقدت الحقيبة أيضاً. ولا أتحدث عن المظلة.» وجلس الرجل على الكرسي وكأن قضية كارل كسبت بعض اهتمامه. «لكنني أعتقد أن الحقيبة لم تُفقد بعد» «الاعتقاد يقرّ العين»، قال الرجل وحكّ بشدة شعره الأسود القصير الكثيف، «على السفينة تتبدل العادات بتبدل المرافئ. في هامبورج كان من شأن بوتّرباوم ربما أن يحرس الحقيبة، أما هنا فلا أثر للاثنين على الأرجح جداً» «يجب عليّ إذاً أن أرى على الفور في الأعلى»، قال كارل وتطلع حوله كي يعرف كيف يمكنه أن يخرج. «ابق وكفى»، قال الرجل ودفعه بيده على صدره بخشونة، فوقع على السرير. «لماذا إذاً؟» سأل كارل بامتعاض. «لأنه لا فائدة من ذلك»، قال الرجل، «بعد برهة قصيرة سأذهب أنا أيضاً، فنذهب إذاً معاً. إما أن تكون الحقيبة قد سرقت، فما من

عون، وإما أن يكون الرجل قد تركها في مكانها، فنجدها بشكل أفضل عندما تفرغ السفينة كلياً، كما نجد مظلتك أيضاً» «هل تعرف السفينة جيداً؟» سأل كارل مرتاباً وبدا له أن ثمة شيئاً ما خفياً خلف الفكرة المقنعة في الحالة العادية بأنه من شأن العثور على حاجاته أن يكون أكثر سهولة على السفينة الفارغة. «إنني وقّاد سفينة»، قال الرجل. «أنت وقّاد سفينة!» هتف كارل فرحاً وكأن هذا يتجاوز كل توقع، وأنعم النظر، وهو يتكئ على مرفقيه، إلى الرجل. «تماماً أمام القمرة التي كنت أنام فيها مع السلوفاكي كان ثمة كوة يمكن للمرء أن ينظر من خلالها إلى غرفة الآلات» «نعم، هناك كنت أعمل»، قال الوقّاد. «كنت دائماً أهتم بالأمور التقنية»، قال كارل الذي ظل في نسق تفكير محدد، «ويقيناً كنت خليقاً أن أصبح مهندساً فيما بعد لو لم يتوجب عليّ أن أسافر إلى أمريكا» «لماذا توجب عليك أن تسافر إذاً؟» «لا عليك!» قال كارل وطرح القصة كلها بإشارة من يده. ونظر إلى الوقّاد مبتسماً وكأنه يرجوه عدم المؤاخذة حتى على ما لم يحدثه به. «لا بد أنه كان هناك سبب»، قال الوقّاد، ولم يُعرف فيما إذا كان يريد أن يطلب قصة هذا السبب أم أن يتفادى سماعها. «في مقدوري الآن أنا أيضاً أن أصبح وقّاداً»، قال كارل، «عند والديّ سيّان الآن ماذا أصبح» «مكان عملي سيصبح شاغراً»، قال الوقّاد، وفي وعي كامل لما قاله وضع يديه في جيبي سرواله وألقى ساقيه، اللتين ترتديان سروالاً مجعّداً وكأنه من جلد ذي لون رمادي مثل لون الحديد، على السرير كي يمددهما. وتوجّب على كارل أن يتحرك أكثر نحو الحائط. «ستغادر السفينة؟» «نعم، سوف نغادر السفينة اليوم» «لماذا؟ ألا يعجبك الأمر؟» «هذه هي الظروف، وما يقرر ليس دائماً فيما إذا كان الأمر يعجب أم لا. وللمناسبة، أنت على صواب، إن الأمر لا يعجبني أيضاً. وعلى الأرجح لا تفكر جدياً أن تصبح وقّاداً، لكن في هذه الحالة بالذات يمكن للمرء أن يصبحه بسهولة أكثر. من ناحيتي أنصحك بشكل قاطع أن لا تصبح وقّاداً. إذا كنت تريد أن تدرس في أوروبا، فلماذا لا تريد ذلك هنا؟ فالجامعات الأمريكية هي أفضل من الأوروبية بشكل لا يقارن» «ممكن حقاً»، قال كارل، «لكنني لا أكاد أملك مالاً للدراسة. صحيح أنني قرأت عن شخص ما كان يعمل نهاراً في متجر ويدرس ليلاً، حتى أصبح دكتوراً وعمدة مدينة على ما أظن، لكن ذلك يحتاج إلى قدر كبير من المثابرة، أليس كذلك؟ وأخشى أن ذلك ينقصني. وبالإضافة إلى ذلك، فإنني لم أكن تلميذاً جيداً بشكل خاص، وفراق المدرسة لم يكن صعباً عليّ فعلاً. وربما تكون المدارس هنا أكثر صرامة. ولا أعرف شيئاً تقريباً من اللغة الانكليزية. وأظن أن الناس هنا متحاملون على الأجانب بصورة عامة» «هل مررت أنت أيضاً بهذه التجربة؟ نه، حسناً. إنك تناسبني إذاً. انظر، إننا على سفينة ألمانية، وهي تابعة لخط هامبورج - أمريكا الملاحي. لماذا لا نكون كلنا من الألمان؟ لماذا يكون كبير الميكانيكيين رومانياً؟ اسمه شوبال. إنه أمر يدعو للدهشة. وهذا الكلب القذر ينهكنا نحن الألمان على سفينة ألمانية! لا تظن»، - وتقطعت أنفاسه، وتراقصت يده - «أنني أشكو من أجل الشكوى. أدري أنك لا

تملك نفوذاً وأنك نفسك صبيّ مسكين. لكن الأمر في غاية السوء.» وضرب بقبضته على الطاولة عدة مرات دون أن يحيد نظره عن قبضته أثناء الضرب. «لقد خدمت على سفن كثيرة» ـ وسمّى عشرين اسماً وراء بعضها بعضاً وكأنها كلمة واحدة، فارتبك كارل كل الارتباك ـ «وبرعت في عملي، وأثني عليّ، كنت عاملاً أروق لقباطنة السفن التي أعمل عليها، حتى إنني بقيت عدة سنوات على السفينة الشراعية التجارية نفسها» ـ ونهض وكأن هذه هي ذروة حياته ـ «وعلى هذه السفينة العتيقة، حيث كل شيء منظّم على الصراط المستقيم، وحيث لا تُطلب نكتة، هنا لا أصلح لشيء، هنا أقف دائماً في طريق شوبال، أكون تنبلاً، أستحق الطرد. وأحصل على أجري رأفةً بي. هل تفهم هذا؟ أنا لا أفهمه» «لا يجوز لك أن تقبل هذا»، قال كارل بانفعال. وكاد يفقد الشعور أنه كان على أرضية غير ثابتة لسفينة ترسو على ساحل قارة مجهولة، هكذا كان وهو على سرير الوقّاد هنا يحس بالاطمئنان وكأنه في بيته. «هل كنت لدى القبطان؟ هل بحثت لديه عن حقك؟» «آه، اذهب، من الأفضل أن تنصرف. لا أريدك هنا. إنك لا تسمع ما أقوله وتعطيني نصائح. كيف يمكنني أن أذهب إلى القبطان!» وعاد الوقّاد إلى الجلوس وهو متعب، ووضع وجهه بين راحتيه.

«لا أستطيع أن أعطيه نصيحة أفضل»، قال كارل في ذات نفسه. وبصورة عامة وجد أنه كان من الأحسن له أن يحضر حقيبته، بدلاً من أن يقدم نصائح لا تعتبر سوى نصائح سخيفة. عندما كان والده قد سلّمه الحقيبة بشكل دائم، سأل مازحاً: «كم من الوقت ستبقى معك؟» والآن ربما تكون هذه الحقيبة غالية الثمن قد ضاعت حقاً. وكان العزاء الوحيد هو أنه بالكاد يمكن للوالد أن يعلم شيئاً عن وضعه الحالي، حتى لو تحرّى عنه. ولا يمكن لشركة الملاحة أن تقول أكثر من أنه وصل إلى نيويورك. لكن ما ساء كارل هو أنه لم يكن قد استخدم، أو كاد، الأشياء التي كانت في الحقيبة، مع أنه مثلاً كان بحاجة إلى تبديل قميصه منذ مدة طويلة. كان إذاً قد اقتصد في المكان غير الصحيح؛ والآن، حيث من شأنه، في بداية حياته العملية بالذات، أن يكون بحاجة إلى الظهور بلباس نظيف، سوف يتوجب عليه أن يظهر في قميص متسخ. أما ما عدا ذلك، فإنه ليس من شأن فقدان الحقيبة أن يكون في غاية السوء، إذ إن الحلّة التي يرتديها كانت أفضل من الحلّة الموجودة في الحقيبة، والتي لم تكن في الواقع سوى حلة للطوارئ، كانت والدته قد اضطرت إلى رتقها قبيل الرحيل مباشرة. كما أنه تذكّر الآن أن الحقيبة تحوي قطعة من السجق المدخّن الايطالي كانت الوالدة قد وضعتها في الحقيبة كهدية خاصة، ولم يكن قد تمكن من أكل سوى الجزء الأصغر منها، وذلك لأنه أثناء الرحلة كان دون شهية كلياً، ولأن الحساء الذي كان يوزَّع على السطح السفلي للسفينة كان يكفيه جداً. لكنه كان بودّه الآن أن يكون السجق في متناول يده لكي يكرّم الوقّاد به. إذ إنه يمكن كسب أمثال هؤلاء الناس بسهولة، إذا ما دسّ المرء في يدهم أيّ شيء زهيد. وكان

كارل يعرف ذلك من والده، الذي كان يكسب جميع المستخدمين الصغار الذين يتعامل معهم من الناحية التجارية بتوزيع السيجار عليهم. والآن لم يعد كارل يملك شيئاً للإهداء سوى نقوده، وهو لا يريد أن يمسّ هذه النقود الآن، إذ إنه من الجائز أن يكون قد أضاع الحقيبة. ومرة أخرى عادت أفكاره إلى الحقيبة، ولم يقدر الآن فعلاً أن يدرك لماذا كان قد حرسها أثناء الرحلة بكل انتباه، بحيث كادت هذه الحراسة تكلّفه نومه، حتى يترك الآن هذه الحقيبة نفسها تنتزع منه بسهولة. وتذكّر الليالي الخمس التي كان يشتبه فيها بلا توقف في أمر سلوفاكيّ صغير، كان على بُعد مكانيّ نوم يساراً، بأنه كان يطمع بحقيبته. كان هذا السلوفاكيّ يترقب فحسب أن يغفى كارل أخيراً برهة بعد أن ينتابه الضعف، حتى يتمكن من سحب الحقيبة إليه بعصا طويلة كان أثناء النهار يلعب بها دائماً أو يتمرن. نهاراً كان هذا السلوفاكي يبدو بريئاً بشكل كاف، لكن ما يكاد الليل يحلّ، حتى ينهض من وقت لآخر وينظر في وجوم إلى حقيبة كارل. وبكل وضوح تمكّن كارل أن يرى ذلك، إذ كان دائماً أحد ما يشعل أحياناً، وهو يشعر بقلق المهاجر، شمعة صغيرة، رغم أن نظام السفينة يمنع ذلك، ويحاول فهم نشرات غير مفهومة صادرة عن وكالات الهجرة. وعندما يكون مثل هذا الضوء على مقربة من كارل، فقد كان في مقدور هذا أن يأخذ غفوة، أما إذا ابتعد أو ساد الظلام، فإنه كان يتوجب على كارل أن يُبقي عينيه مفتوحتين. وقد أتعبه هذا الجهد حقاً، وربما كان، إذاً، على غير جدوى كلياً. هذا البوتّرباوم، لو يقابله مرة في مكان ما!

في هذه اللحظة دوّت في الهدوء الكامل الذي كان يسود حتى الآن طَرَقاتٌ قادمة من بعيد، وكأنها ناشئة من أقدام أطفال، واقتربت بطنين متزايد، وكانت وقع أقدام رجال هادئ. وعلى ما يبدو كانوا يسيرون في صف، كما كان من الطبيعي في الممر الضيق. وسُمع صوت ارتطام وكأنه صليل أسلحة. وكان كارل على وشك أن يضطجع في الفراش كي يأخذ قسطاً من النوم خالياً من كل الهموم المتعلقة بالحقيبة والسلوفاكي، فنهض فزعاً ووكز الوقّاد لكي يلفت نظره أخيراً، إذ بدا أن الموكب قد وصل الآن بمقدمته إلى الباب. قال الوقّاد: «هذه هي فرقة السفينة الموسيقية. لقد عزفوا في الأعلى ويذهبون الآن لحزم أمتعتهم. الآن انتهى كل شيء، وفي مقدورنا أن ننصرف. هيا بنا!» وأمسك كارل من يده، وانتزع في آخر لحظة من على الجدار صورة لمريم العذراء كانت معلقة في إطار فوق الفراش، ودسّها في جيب سترته العلوي، وأمسك حقيبته وغادر القمرة مع كارل على عجل.

«سأذهب الآن إلى المكتب وأقول رأيي للسادة. لم يبق أحد من الركاب، ولم يعد من الواجب على المرء أن يراعي.» وقد أعاد الوقّاد هذا القول بأشكال متباينة، وأراد أثناء سيره، برفسات جانبية من قدمه، أن يدعس فأرة كانت تعترض الطريق، لكنه دفعها بسرعة أكبر ليس إلا إلى الثقب الذي وصلت إليه في الوقت المناسب. وكان، بصورة عامة، بطيئاً في حركاته، إذ وإن كانت ساقاه طويلتين، فقد كانت ولا شك ثقيلة.

مرّا بقسم من المطبخ، حيث كانت بعض الفتيات بمآزر متسخة ـ كن يرشرشن بعضهن عمداً ـ تغسلن أدوات المطبخ في أحواض كبيرة. واستدعى الوقّاد فتاة تدعى لينه، وطوق خصرها بذراعه، وقادها معه بضع خطوات وهي تلتصق دائماً بذراعه في دلال، وسألها: «الآن يدفعون الأجور. هل تريدين أن تأتي معي؟» «لماذا أجهد نفسي، اجلب لي النقود»، أجابت وانسلّت من تحت ذراعه وجرت. «وأين اصطدت الولد الجميل»، نادت وهي تبتعد، لكنها لم تكن تريد أن تسمع جواباً. وسمعا ضحك جميع الفتيات اللواتي كن قد توقفن عن العمل.

لكنهما واصلا سيرهما وبلغا باباً فوقه جملون أمامي صغير تحمله أعمدة صغيرة مذهبة منحوتة على شكل امرأة. وبدا ذلك بَذَخاً بالنسبة لأثاث سفينة. وكما لاحظ كارل، لم يكن قد أتى قط إلى هذه المنطقة، التي كانت على الأرجح أثناء السفر مخصصة لركاب الدرجتين الأولى والثانية، في حين أن الأبواب الفاصلة قد قلعت الآن قبل تنظيف السفينة تنظيفاً شاملاً. وفعلاً التقيا أيضاً بعض الرجال الذين كانوا يحملون مكانس على أكتافهم وألقوا التحية على الوقّاد. ودُهش كارل من الحركة الكبيرة. وطبعاً لم يكن وهو على ظهر السفينة قد علم شيئاً كثيراً عن ذلك. وعلى طول الممرات امتدت أيضاً أسلاك توصيلات كهربائية، وكان هناك جرس صغير يُسمع رنينه باستمرار.

طرق الوقّاد الباب باحترام، وإذ نوديَ «ادخل»، دعا كارل، بحركة من يده، أن يدخل دون خوف. ودخل كارل، لكنه ظل واقفاً إلى جوار الباب. أمام نوافذ الغرفة الثلاث رأى أمواج البحر، وعند تأمل حركتها الطروب، خفق قلبه وكأنه لم ير البحر طوال خمسة أيام بلا انقطاع. وكانت سفن كبيرة تتقاطع طرقها مع بعضها بعضاً، ولا تستجيب لتلاطم الأمواج إلا بالقدر الذي يسمح به ثقلها. وإذا ضيّق المرء حدقتي عينيه، بدت هذه السفن تتمايل لمجرد ثقلها. وكانت تحمل على صواريها رايات ضيقة العرض لكنها طويلة، ترفرف يمنة ويسرة رغم كونها مشدودة من السرعة. ودوّت طلقات تحية عسكرية أُطلقت على الأرجح من سفن حربية، ومرّت مثل هذه السفينة على مسافة غير بعيدة جداً، وكانت فوهات مدافعها، المتألقة بتأثير انعكاسات ضوء الشمس على سطحها المعدني، كأنها مدلّلة من السفرة الآمنة والسويّة ولكن غير الأفقية. ولم يكن بوسع المرء مشاهدة السفن الصغيرة والزوارق، من الباب على الأقل، سوى من بُعد، كيف كانت تدخل الميناء، في عدد كبير، في الفجوات بين السفن الكبيرة. ولكن وراء كل شيء كانت نيويورك تنتصب وتنظر إلى كارل بمئات آلاف النوافذ من ناطحات السحاب فيها. أجل، في هذه الغرفة كان المرء يعرف أين هو.

كان ثلاثة من السادة يجلسون حول طاولة مستديرة، الأول ضابط سفينة في زي بحري أزرق، والآخران موظفان من موظفي إدارة المرفأ في زي أمريكي أسود. وعلى الطاولة تكدست عالياً وثائق ومستندات متنوعة راح الضابط، وهو يمسك قلماً بيده، يلقي أولاً نظرة عابرة عليها

ثم يناولها إلى الآخرين، اللذين راحا يقرآن حيناً أو يكتبان نقلاً عنها، أو يضعان شيئاً منها في محظفتيهما، عندما لا يكون الأول، وهو الذي كان يحدث بلا انقطاع صوتاً خافتاً بأسنانه، يملي على زميله شيئاً ما في محضر.

وإلى جوار النافذة كان سيد قصير القامة يجلس إلى طاولة مكتب وقد أدار ظهره للباب، وراح يقلّب دفاتر حسابات ضخمة مصفوفة فوق رف كتب متين أمامه على ارتفاع رأسه. وإلى جانبه كان ثمة صندوق نقود مفتوح يبدو فارغاً، من النظرة الأولى على الأقل.

وكانت النافذة الثانية خالية تقدم المنظر الأفضل. لكن بقرب النافذة الثالثة كان سيدان يقفان وهما يتحدثان بصوت غير مرتفع. كان أحدهما يستند جانب النافذة، مرتدياً أيضاً زي السفينة، ويعبث بمقبض سيفه. وذلك الذي كان يتحدث معه كان يولّي وجهه صوب النافذة، ويكشف بين الفينة والأخرى، بحركة، جزءاً من سلسلة الأوسمة على صدر الآخر. كان يرتدي ملابس مدنية، ويحمل قضيب خيزران صغيراً رفيعاً انتصب جانباً مثل سيف أيضاً، إذ كان حامله يضع كلتا يديه على خاصرتيه.

ولم يكن لدى كارل متسع من الوقت ليشاهد كل شيء، إذ سرعان ما اقترب منهما خادم وسأل الوقّادَ عما يريد، وذلك بنظرة تعني أن مكان هذا ليس هنا. وأجاب الوقّاد بصوت منخفض، كما سئل، أنه يريد التحدث مع السيد كبير أمناء الصندوق. وفيما يخصه، رفض الخادم هذا الطلب بحركة من يده، لكنه ذهب رغم ذلك إلى السيد صاحب دفاتر الحسابات وهو يسير على رؤوس أصابعه، متجنباً في دورة كبيرة الطاولة المستديرة. وتجمّد هذا السيد ـ بدا ذلك واضحاً ـ تحت كلمات الخادم، لكنه استدار أخيراً صوب الرجل الذي يرغب في الحديث إليه، وراح يلوّح بيديه، صادّاً في صرامة، ضد الوقّاد، وبدافع السلامة أيضاً ضد الخادم. فعاد الخادم إلى الوقّاد وقال له بنبرة كأنه يأتمنه شيئاً ما: «انصرف على الفور وبأقصى سرعة!»

بعد هذا الردّ نظر الوقّاد إلى كارل وكأن هذا هو قلبه يشكو له ألمه بصمت. وبدون طويل تفكير انطلق كارل وجرى عبر الغرفة حتى إنه كاد يمسّ كرسي الضابط مسّاً خفيفاً؛ وجرى الخادم، منحنياً، بذراعين جاهزين للاحتواء، وكأنه يطارد حشرة، لكن كارل كان أول من بلغ طاولة كبير أمناء الصندوق، حيث تمسّك بها استعداداً فيما لو حاول الخادم أن يجذبه.

وطبعاً دّبت الحياة في الغرفة كلها على الفور. فقد قفز ضابط السفينة من على كرسيه. وتطلع السيدان من إدارة المرفأ بهدوء لكن بانتباه، واقترب السيدان الواقفان إلى النافذة من بعضهما بعضاً، وتراجع الخادم الذي رأى أنه لم يعد في المكان الصحيح، حيث أبدى كبار السادة اهتماماً، وراح الوقّاد الواقف إلى جانب الباب ينتظر متوتراً اللحظة التي قد تصبح فيها

معونته ضرورية. وأخيراً قام كبير أمناء الصندوق في كرسيه المريح بحركة دوران كبيرة إلى اليمين.

ومن جيبه السري، الذي لم ير بأساً في تعريضه لنظرات هؤلاء الناس، نبش كارل جواز سفره، ووضعه، بدلاً من أي تقديم آخر لنفسه، مفتوحاً على الطاولة. وبدا أن كبير أمناء الصندوق انما يعتبر هذا الجواز شيئاً ثانوياً، إذ نفضه جانباً بأصبعين، الأمر الذي دفع كارل إلى إعادة الجواز إلى جيبه وكأن هذه المسألة الشكلية قد سوّيت بشكل مُرضٍ.

ثم بدأ قائلاً: «أسمح لنفسي أن أقول إن السيد الوقّاد قد لحقه جور حسب رأيي. ثمة شخص هنا يدعى شوبال يقوم بمضايقته. وهو نفسه خدمَ على سفن كثيرة، في مقدوره أن يسمّيها كلها لكم، خدمةً لاقت رضى كاملاً، وهو مجدّ يبغي مصلحة عمله، ولا يمكن فعلاً فهم لماذا يقال إنه يؤدي عمله بشكل سيء على هذه السفينة بالذات، حيث الخدمة ليست صعبة بشكل مفرط كما هي مثلاً على السفن التجارية. لذا لا يمكن أن يكون الأمر سوى مجرد افتراء، هذا الذي يمنع تقدمه ويحرمه من الاعتراف الذي هو خليق بكل تأكيد ألا يعدمه في ظروف أخرى. وأنا لم أقل حول هذا الموضوع سوى ما هو عامّ. أما متاعبه الخاصة، فسوف يعرضها عليكم بنفسه.» وكان كارل قد توجه بهذا الحديث إلى جميع السادة، وذلك لأن جميعهم أيضاً كانوا يستمعون فعلاً، ولأنه بدا على الأرجح أن يكون بينهم جميعاً شخص عادل، أكثر بكثير من أن يكون كبير أمناء الصندوق هو بالذات هذا الشخص العادل. وشطارةً منه كان كارل، بالإضافة إلى ذلك، قد أخفى كونه لا يعرف الوقّاد سوى منذ فترة قصيرة. وللمناسبة، كان خليقاً أن يتحدث بشكل أفضل كثيراً لو لم يكن الوجه الأحمر للسيد الذي يحمل قضيب الخيزران الصغير قد أثار الارتباك في نفسه، هذا الوجه الذي رآه لأول مرة من مكان وقوفه الحالي.

«كل شيء صحيح، كلمة كلمة»، قال الوقّاد قبل أن يسأله أحد، لا بل قبل أن يلقي أحدهم نظرة إليه إطلاقاً. وكان من شأن هذا التسرّع من قبل الوقّاد أن يكون خطأً كبيراً، لو لم يكن السيد حامل الأوسمة، الذي كان، كما برق الآن في ذهن كارل، القبطان على كل حال، قد اتفق مع نفسه فيما بدا على الاستماع إلى الوقّاد. إذ إنه مدّ يده ونادى الوقّاد: «تعال إلى هنا!» وذلك بصوت، ثابت، مثل صوت مطرقة. والآن أصبح كل شيء متعلقاً بسلوك الوقّاد، إذ فيما يخص عدالة قضيته، فإن كارل لم يكن يساوره أي شك.

ومن حسن الحظ تبين لدى هذه المناسبة أن الوقّاد كان قد تجول كثيراً في العالم. فبهدوء نموذجي أخذ من حقيبته الصغيرة، ومن المسكة الأولى، حزمة صغيرة من الأوراق ومفكرة، وذهب بها، وكأن الأمر بديهي، وبتجاهل كامل لكبير أمناء الصندوق، إلى القبطان، ونشر مستنداته على حافة النافذة. ولم يسع كبير أمناء الصندوق إلا أن يسعى بنفسه. قال موضحاً:

«الرجل مشاكسٌ معروف، وهو في غرفة المحاسبة أكثر مما يكون في غرفة الآلات. لقد أثار اليأس كلياً في نفس شوبال، هذا الإنسان الهادئ.» وتوجه إلى الوقّاد قائلاً: «اسمع! انك تبالغ في صفاقتك فعلاً. كم طُردت من أمكنة صرف الأجور، وذلك كما تستحق بمطالبك غير المحقّة أبداً وبشكل كامل وبلا استثناء! كم جئت من هناك مهرولاً إلى غرفة الصندوق الرئيسية! كم قيل لك بحسن نية إن شوبال هو رئيسك المباشر ينبغي عليك وحدك أن ترتضي به بصفتك مرؤوساً له! والآن تأتي حتى إلى هنا، في حضور القبطان، ولا تخجل حتى من إزعاجه، لا بل لا تتورع عن اصطحاب هذا الصغير كلسان حال متدرب ينشر اتهاماتك السخيفة، والذي أراه لأول مرة أصلاً على السفينة!»

وتمالك كارل نفسه بقوة حتى لا يقفز إلى الأمام، لكن القبطان أيضاً كان هنا، وقال: «دعونا نسمع الرجل مرة. كما أن شوبال أخذ يستقل كثيراً مع الزمن. لكنني بهذا لا أريد أن أكون قد قلت شيئاً لصالحك.» وكان الوقّاد هو المقصود بالجملة الأخيرة، وكان من البديهي أنه لم يكن في وسع القبطان أن يدافع عنه في الحال، لكن كل شيء بدا في طريقه الصحيح. وبدأ الوقّاد إيضاحاته، وحمل نفسه منذ البداية على قول ما يكره، إذ أطلق على شوبال لقب «سيد.» وكم سرّ كارل وهو يقف إلى جانب طاولة مكتب كبير أمناء الصندوق المهجورة، وراح يضغط على ميزان رسائل وهو في غمرة اغتباطه. ـ السيد شوبال ظالم! السيد شوبال يؤثر الأجانب! السيد شوبال أخرج الوقّاد من غرفة الآلات وتركه ينظف دورات المياه، ويقيناً ليس هذا من عمل الوقّاد! ـ بل جرى التشكيك مرة بكفاءة السيد شوبال، هذه الكفاءة الظاهرية قبل أن تكون حقيقية. وعند هذا الموضع حدّق كارل بكل قوته في القبطان بألفة وكأنه زميل، وذلك فقط كي لا يدع نفسه يتأثر لغير صالحه بطريقة تعبير الوقّاد غير اللبقة. وعلى كل حال لم يعلم المرء من الكلام الكثير شيئاً جوهرياً، وإن راح القبطان ينظر أمامه وفي عينيه تصميم على الاستماع إلى الوقّاد حتى النهاية في هذه المرة، فقد نفد صبر السادة الآخرين، ولم يعد صوت الوقّاد يسيطر في المكان بشكل مطلق، الأمر الذي يخشى منه بعض الأشياء. وكأولهم حرك السيد ذو الملابس المدنية قضيب الخيزران ونقر على الأرضية، وإن كان نقراً خفيفاً. وطبعاً تطلع السادة الآخرون أحياناً، وعاد السيدان من إدارة المرفأ، اللذان كانا في عجلة من أمرهما على ما يبدو، إلى إمساك الملفات وبدآ بمراجعتها، وإن كانا ما زالا شاردي الذهن بعض الشيء، واقترب ضابط السفينة من طاولته، وكبير أمناء الصندوق الذي ظن أنه ربح اللعبة تنفس الصعداء سخرية وتهكّماً. ومن الشرود الذي حلّ بصورة عامة لم يأمن سوى الخادم، الذي شارك الرجل المسكين الواقع بين الكبار عواطفه إلى حد ما، وأومأ برأسه جادّاً إلى كارل، وكأنه يريد بهذا إيضاح شيء ما.

وفي هذه الأثناء استمرت حياة المرفأ أمام النوافذ؛ فقد مرّت سفينة شحن مسطّحة تحمل

جبلاً من البراميل التي لا بد أن تكون مرصوصة بشكل بديع حتى لا تتدحرج، وأحدثت ظلاماً تقريباً في الغرفة؛ وانطلقت قوارب ذات محركات في خط مستقيم تبعاً لحركات أيدي رجل يقف منتصباً إلى المقود ـ كان في مقدور كارل أن يدقق الآن النظر فيها لو كان يملك متسعاً من الوقت ـ؛ وأجسام طافية غريبة ظهرت بين الفينة والأخرى بشكل مستقل من المياه المضطربة، ثم غمرت على الفور ثانية وغرقت أمام نظرة الدهشة؛ وزوارق بواخر المحيط تُجدّفت إلى الأمام من قبل بحارة يعملون بهمة شديدة، وكانت مليئة بركاب يجلسون، كما كانوا قد حشروا فيها، بهدوء وتشوق، وإن لم يستطع بعضهم أن يتخلوا عن إدارة رؤوسهم نحو المشاهد المتبدلة. حركة بلا نهاية، حركة تنتقل من العنصر المتحرك إلى البشر العاجزين وأعمالهم!

لكن كل شيء كان يلفت النظر إلى ضرورة السرعة، والوضوح، والى عرضٍ في منتهى الدقة؛ لكن ماذا فعل الوقّاد؟ لقد أجهد نفسه حقاً بالحديث، ولم يعد يتمكن من إمساك الأوراق التي كانت على حافة النافذة بيديه المرتعشتين؛ ومن كل حدب وصوب تدفقت منه الشكاوى على شوبال التي من شأن كل شكوى منها أن تكون كافية حسب رأيه لدفن شوبال بشكل كامل، لكن ما استطاع أن يقدمه للقبطان لم يكن سوى دوّامة مبلبلة كئيبة من هذه الشكاوى كلها. ومن مدّة طويلة كان السيد الذي يحمل قضيب الخيزران قد صفّر تصفيراً خفيفاً باتجاه السقف، واحتفظ السيدان من إدارة المرفأ بالضابط إلى طاولتهما ولم يحركا ساكناً لتركه ثانية، وكان واضحاً أن ما من شيء يمنع كبير أمناء الصندوق من التدخل سوى هدوء القبطان، وكان الخادم ينتظر، وهو في موقف الاستعداد، في كل لحظة أمراً يصدره القبطان بخصوص الوقّاد.

وهنا لم يسع كارل أن يظل مكتوف الأيدي بعد. فتقدم من ثم ببطء نحو المجموعة وفكر بسرعة، وهو سائر، كيف يمكنه أن يمسك المسألة في كياسة إن أمكن. كان الوقت في آخر دقيقة فعلاً، وبعد برهة قصيرة فحسب يمكن أن يُطردا كلاهما من المكتب. من الجائز أن يكون القبطان رجلاً طيباً، وفوق هذا أن يكون لديه الآن بالذات، كما بدا لكارل، أي سبب خاص لإظهار نفسه رئيساً عادلاً، لكنه في النهاية ليس أداة يمكن استخدامها كلياً ـ وهكذا بالذات عامله الوقّاد، لكن ولا شك انطلاقاً من داخله الساخط بلا حدود.

قال كارل للوقّاد إذاً: «يجب عليك أن تحكي على نحو أكثر بساطة وأكثر وضوحاً، إن السيد القبطان لا يستطيع أن يقدّر الأمر كما ترويه له. هل يعرف إذاً كل الميكانيكيين والصبيان السعاة بأسمائهم أو حتى أسماءهم الأولى، حتى يعرف، عندما تنطق فقط أحد هذه الأسماء، صاحب هذا الاسم على الفور؟ نظّم شكاويك، وقل أهمها أولاً ثم التي تليها في الأهمية، وقد لا يعود من الضروري ذكر معظمها مجرد ذكر. لي أنا عرضتَ الأمور دائماً

بوضوح!» وفكر قائلاً في ذات نفسه، على سبيل التبرير، إذا كان المرء في أمريكا يستطيع أن يسرق حقيبة، فإنه يستطيع أيضاً أن يكذب بين الفينة والأخرى.

لكن لو كان الأمر قد ساعد! وفيما إذا لم يكن قد جاء متأخراً؟ صحيح أن الوقّاد قاطع نفسه على الفور، إذ سمع الصوت المعروف، لكن بعينيه المبلّلتين كلياً بدموع الرجل الغاضب والذكريات الرهيبة وأقصى درجات الشدة الراهنة لم يستطع حتى إن يتعرف على كارل جيداً. كيف سيكون في مقدوره ـ لقد أدرك كارل هذا بصمت أمام الصامت الآن ـ أن يبدّل الآن أيضاً طريقة كلامه فجأة، إذ كان قد بدا له كأنه قد تقدم بكل شيء دون أن يلقى أدنى اعتراف وكأنه من طرف آخر لم يقل أي شيء ولا يقدر أن يثقل الآن على السادة ويكلّفهم سماع كل شيء مرة أخرى. وفي مثل هذا الوقت يخطر كارل، نصيره الوحيد، يريد أن يعطيه دروساً ينتفع بها، لكنه بدلاً من ذلك يبيّن له أن كل شيء، كل شيء قد ضاع وخُسر.

«ليتني كنت قد حضرت قبل الآن، بدلاً من النظر من النافذة»، قال كارل في ذات نفسه، وخفض وجهه أمام الوقّاد، وضرب يديه إلى موضع خياطة السروال، دلالةً على نهاية كل أمل.

لكن الوقّاد أساء فهم هذا، وتنسّم في كارل اتهامات خفية ضده، وفي قصد حَسَن لدفعه إلى العدول عنها، بدأ بتتويج أفعاله في التشاجر الآن مع كارل. الآن، حيث كان الرجال الجالسون إلى الطاولة المستديرة غاضبين منذ مدّة طويلة من الضجة عديمة الجدوى التي عطلت أعمالهم المهمة، وحيث أصبح كبير أمناء الصندوق يجد تدريجياً صبر القبطان أمراً غير مفهوم، ويميل إلى الانفجار الفوري، وحيث راح الخادم، الذي عاد كلياً إلى جو أسياده، يقيس الوقّاد بنظرة وحشية، وحيث كان أخيراً السيد حامل قضيب الخيزران، الذي راح حتى القبطان يرمقه بين الحين والآخر بنظرات ودية، قد فتر اهتمامه كلياً بالوقّاد، بل نفر منه، فأخرج مفكرة صغيرة، وراح، وهو مشغول على ما يبدو بمسائل مغايرة كلياً يردد بصره بين المفكرة وكارل.

«أدري، أدري»، قال كارل، الذي كان قد وجد مشقة في صدّ سيل كلام الوقّاد الموجه الآن إليه، لكنه رغم كل خلاف بقيت لديه ابتسامة ودية له، «معك حق، حق، إنني لم أشك في ذلك قط.» كان بودّه خوفاً من ضربات أن يمسك يديه التي كان يلوّح بها، بل كان يفضّل ولا شك أن يدفعه إلى ركن ما كي يهمس له بضع كلمات خافتة مهدِّئة ليس على أحد آخر أن يسمعها. لكن الوقّاد كان مضطرباً أيّما اضطراب. وبدأ كارل يستمد الآن عزاءً حتى من فكرة أنه في مقدور الوقّاد عند الضرورة وبحكم يأسه أن يغلب الرجال السبعة الحاضرين. لكن كان على طاولة المكتب، كما بيّنت نظرة ألقاها إلى هناك، ثمة لوحة بكثير جداً من أزرار

الضغط للتوصيلات الكهربائية، ويد تضغط عليها ببساطة في مقدورها أن تدفع كل السفينة بكل ممراتها المليئة بالبشر المعادين إلى العصيان.

وهنا تقدم السيد ذو قضيب الخيزران، وغير المهتم، من كارل وسأله، بصوت ليس مرتفعاً غاية الارتفاع، لكنه واضح فوق كل صراخ للوقّاد: «ما اسمك حقاً؟» وفي هذه اللحظة قرع الباب، وكأن أحدهم خلفه كان ينتظر هذه الكلمة. ونظر الخادم إلى القبطان الذي أومأ برأسه. فذهب الخادم إلى الباب وفتحه. وفي الخارج كان ثمة رجل متوسط الحجم يرتدي زياً قيصرياً قديماً، ولا يبدو من هيئته مناسباً للعمل، على الآلات بصورة خاصة، ورغم ذلك كان هو... شوبال. ولو لم يعرف كارل الأمر من جميع العيون التي عبّرت عن ارتياح ما لم يخل منه حتى القبطان، فإنه كان عليه، الأمر الذي هاله، أن يراه من هيئة الوقّاد، الذي كوّر قبضتيه على ذراعيه المشدودتين وكأن هذا التكوير هو أهم شيء فيه، وهو مستعد لضخ كل ما يملكه من حياة في هذا التكوير. هنا كانت تكمن كل قوة له، حتى القوة التي كانت تحافظ عليه عموماً.

وهنا إذاً كان العدو، حراً ونظيفاً في لباس العيد، وتحت ذراعه سجل يحوي على الأرجح قوائم الأجور ووثائق العمل التابعة للوقّاد، ونظر في جميع العيون على التوالي نظرة توحي بأنه إنما يجود بتنازل غير هيّاب ويريد أولاً معرفة حالة كل فرد. كما أن السبعة كانوا جميعاً أصدقاءه، إذ ولو كان لدى القبطان سابقاً بعض الاعتراضات عليه أو ربما كان قد تظاهر بذلك مجرد تظاهر، فإنه بعد الظلم الذي ألحقه به الوقّاد بدا أن القبطان لم يعد على الأرجح يأخذ على شوبال أي مأخذ. ومع رجل مثل الوقّاد لم يكن في مقدور المرء أن يكون صارماً بشكل كاف، وإذا كان يؤخذ شيء على شوبال، فهو كونه لم يستطع مع مضي الزمن كبح جموح الوقّاد إلى درجة لا يجرؤ هذا معها على الظهور أمام القبطان.

وربما كان في وسع المرء أن يفترض الآن أن مواجهة الوقّاد بشوبال لن تعدم أثرها أمام الناس أيضاً، هذا الأثر النابع من قيامها أمام منبر أعلى، إذ ولو استطاع شوبال التظاهر جيداً بمظهر آخر، فإنه لن ينبغي عليه أن يتمكن من الاستمرار في هذا التظاهر إلى النهاية. إن ومضة قصيرة لسوئه تكفي لكشف هذا السوء أمام السادة، وهذا ما أراد كارل أن يعمل على حدوثه. فقد أصبح يعرف عَرَضاً حدة ذكاء كل فرد من السادة ونقاط ضعفه وأمزجته، ومن وجهة النظر هذه لم يكن الوقت الذي أمضاه هنا وقتاً ضائعاً. فقط لو كان الوقّاد في المكان بشكل أفضل، لكنه بدا عاجزاً كلياً عن الكفاح. لو قُدّم له شوبال، كان في مقدوره أن يقرع جمجمته الكريهة بقبضتيه. لكن لم يكد يكون قادراً على التقدم إليه بضع خطوات. لماذا لم يتنبأ كارل، إذاً، بما كان سهل التنبؤ به، وهو أنه لا بدّ لشوبال من أن يأتي، وإن لم يكن بدافع

ذاتي، فبدعوة من القبطان. لماذا لم يتحدث مع الوقّاد، بينما كانا في طريقهما إلى هنا، عن خطة حرب مُحكمة، بدلاً من أن يدخلا ببساطة، وبدون أي استعداد بشكل فادح، حيث وجدا باباً، كما فعلا في الواقع؟ هل ما زال في مقدور الوقّاد أن يتكلم إطلاقاً، أن يقول نعم ولا، كما هو من شأن الحال أن يكون ضرورياً لدى الاستجواب، الذي يجري في هذه الحالة إلا في أحسن تقدير؟! كان يقف هنا، مباعداً بين ساقيه، وقد اضطربت ركبتاه، ورفع رأسه بعض الشيء، والهواء يدخل إلى فمه المفتوح ويخرج منه، وكأنه لم يعد في الداخل رئتان تستخدمانه.

أما كارل، فقد كان يشعر أنه قوي ومتّزن، ربما كما لم يكن قط في بلاده. ليت والداه شاهداه كيف دافع عن الحق، في بلاد غريبة وأمام شخصيات مرموقة، وإن كان لم ينتصر بعد، فإنه قد أعدّ نفسه على أتمّ وجه للفتح الأخير! هل هما خليقان أن يغيّرا رأيهما فيه؟ يجلسانه بينهما ويثنيان عليه؟ ينظران مرة، مرة في عينيه الممتثلتين لهما؟ إنها أسئلة حائرة، وهذه أبعد لحظة عن أن تكون مواتية لطرحها!

«جئت لأنني أعتقد أن الوقّاد يتهمني بأي تصرف غير نزيه. لقد قالت لي فتاة من المطبخ أنها رأته في طريقه إلى هنا أيها السيد القبطان وأنتم سادتي جميعاً، إنني على استعداد لدحض كل تهمة، وذلك بما دوّنته، وعند الضرورة من خلال أقوال شهود منزّهين عن الغرض ولا يمكن التأثير عليهم، يقفون خارج الباب.» هكذا تحدث شوبال. غير أن هذا كان حديثاً واضحاً تحدث به رجل، وكان في وسع المرء أن يعتقد، تبعاً للتغيير الذي طرأ على ملامح المستمعين، أنهم إنما يسمعون ثانية، لأول مرة بعد مدّة طويلة، صوتاً بشرياً. ولم يلاحظوا طبعاً أن حتى هذا الحديث الجميل إنما يحوي ثغرات. لماذا كانت أول كلمة في الموضوع خطرت له: «تصرف غير نزيه»؟ هل كان ينبغي على الاتهام أن يبدأ هنا ربما؟ بدلاً من تحيّزه القومي؟ فتاة من المطبخ شاهدت الوقّاد في طريقه إلى المكتب، وشوبال فهم على الفور؟ ألم يكن الشعور بالذنب هو الذي شحذ ذهنه؟ وشهوداً جلبهم معه رأساً، ووصفهم بالإضافة إلى ذلك أنهم منزّهون عن الغرض ولا يمكن التأثير عليهم؟ نصب واحتيال، ولا شيء سوى النصب والاحتيال! والسادة احتملوا هذا واعترفوا به تصرفاً سليماً؟ لماذا ترك، دون أدنى شك، وقتاً طويلاً جداً يمضي بين نبأ فتاة المطبخ ووصوله إلى هنا؟ هذا لا لغرض آخر أبداً سوى لكي يقوم الوقّاد بإثارة الملل في نفوس السادة وإرهاقهم حتى يفقدوا تدريجياً قدرتهم على الحكم، هذه القدرة التي ينبغي على شوبال قبل غيره أن يخشاها. ألم يقرع الباب، هو الذي وقف خلفه مدّة طويلة بالتأكيد، فقط في اللحظة التي أمل فيها أن يكون الوقّاد قد انتهى، نتيجة سؤال ثانوي ألقاه ذلك السيد؟

كان كل شيء واضحاً، كما أنه عُرض هكذا من قبل شوبال على غير إرادته؛ لكن

يجب إظهار الأمر إلى السادة بشكل مغاير، على نحو محسوس أكثر. إنهم بحاجة إلى هزّ. إذاً اسرع يا كارل، استغل على الأقل الوقت قبل أن يظهر الشهود ويغمرون كل شيء!

لكن القبطان أشار بيده في هذه اللحظة إشارة الرفض إلى شوبال، الذي تنحّى على الفور جانباً - إذ إن موضوعه بدا لبرهة أنه قد تأجل - وشرع في حديث خافت مع الخادم، الذي كان قد انضمّ إليه في الحال، لم يخل من نظرات جانبية صوب الوقّاد وكارل ومن إشارات بالأيدي واثقة كل الثقة. وبدا أن شوبال إنما يتمرن هكذا على خطابه العظيم القادم.

«ألم تكن تريد سؤال الشاب شيئاً ما، أيها السيد ياكوب؟» قال القبطان، وقد ران صمت عام، إلى السيد الذي يحمل قضيب الخيزران.

«لا شك»، قال هذا وهو ينحني انحناءة صغيرة معبّراً فيها عن شكره لأجل هذه اللفتة. ثم سأل كارل مرة أخرى: «ما اسمك تماماً؟»

واعتقد كارل أنه من مصلحة الموضوع الرئيسي الكبير إذا ما تمّ قريباً انهاء هذا الحادث العرضي للسائل الملحّ، لذا وبدون تقديم نفسه، كما كانت عادته، بإبراز جواز السفر، الذي كان عليه في هذه الحالة أن يبحث عنه، فقد أجاب في اقتضاب: «كارل روسمان.»

«حقاً»، قال المخاطَب باسم ياكوب مندهشاً، وتراجع أولاً مبتسماً وغير مصدِّق تقريباً. وكذلك القبطان وكبير أمناء الصندوق وضابط السفينة، وحتى الخادم أظهروا بوضوح دهشة بالغة بسبب اسم كارل. أما موظفا المرفأ وشوبال، فقد ظلوا وحدهم غير مبالين.

«حقاً»، كرر السيد ياكوب مندهشاً، وتقدم بخطوات ثقيلة إلى كارل، «إذاً أنا خالك ياكوب وأنت ابن أختي العزيز. لقد كنت أحدس الأمر طوال الوقت!» قال ذلك صوب القبطان، قبل أن يحتضن ويقبّل كارل، الذي ترك كل شيء يحدث وهو صامت.

«ما اسمك؟» سأل كارل، بعد أن شعر أنه تُرك. صحيح أنه سأل بكل لطف، لكن دون أي تأثر، وأجهد نفسه لتقدير النتائج التي قد يتمخض عنها هذا الحدث الجديد بالنسبة للوقّاد. في الوقت الحاضر لم يكن ثمة شيء يشير إلى أنه في مقدور شوبال أن يستفيد من هذه المسألة.

«أدرك حظك السعيد، أيها الشاب»، قال القبطان الذي اعتقد أن سؤال كارل إنما جرح كرامة شخص السيد ياكوب، الذي كان قد وقف إلى جانب النافذة، كي لا يضطر، فيما يبدو، إلى إظهار وجهه المنفعل للآخرين، والذي راح يمسحه فوق هذا بمنديل. «انه السناتور ادوارد ياكوب، الذي عرّف نفسه خالاً لك. والآن أصبح ينتظرك، على عكس توقعاتك من قبل، مستقبل باهر. حاول أن تدرك هذا، بالقدر الممكن في اللحظة الأولى، وتمالك نفسك!.»

«لديّ حقاً خال في أمريكا يدعى ياكوب»، قال كارل ملتفتاً إلى القبطان، «لكن ياكوب هو مجرد اسم كنية السيد السناتور، إذا كنت قد فهمت بشكل صحيح.»

«هكذا هو الحال»، قال القبطان باهتمام شديد.

«لكن ياكوب هو اسم التعميد، الاسم الأول لخالي، الذي هو شقيق والدتي والذي لا بد له طبعاً أن يحمل اسم الكنية نفسه الذي تحمله والدتي، وهذا الاسم هو بندلماير.»

«سادتي!» نادى السناتور، الذي عاد بحيوية من مكان راحته قرب النافذة، مشيراً إلى تصريح كارل. انفجر الجميع ضاحكين، باستثناء موظفَي المرفأ، بعضهم في تأثر وبعضهم في كيفية لا يدرى كنهها.

وفكر كارل في ذات نفسه: «لم يكن ما قلته مضحكاً هكذا أبداً.»

وردد السناتور: «سادتي، انكم تشاركون ضد إرادتي وضد إرادتكم في مشهد عائلي صغير، ولذا لا يسعني إلا أن أقدم لكم إيضاحاً، إذ، كما أعتقد، أن السيد القبطان وحده ـ هذا الذكر أدى إلى انحناءة متبادلة ـ هو الذي يحيط علماً بالموضوع بشكل كامل.»

«أما الآن فإنه يجب عليّ فعلاً أن أنتبه إلى كل كلمة»، قال كارل في ذات نفسه، وسرّه حين لاحظ لدى نظرة جانبية أن النشاط بدأ يدبّ في كيان الوقّاد.

«إنني أعيش منذ كل الأعوام الطويلة لإقامتي الأمريكية ـ لكن كلمة إقامة لا تناسب جيداً المواطن الأمريكي الذي أنا هو بكل روحي ـ منذ كل الأعوام الطويلة أعيش إذاً منفصلاً كل الانفصال عن أقاربي الأوروبيين، وذلك لأسباب أولاً مكانها ليس هنا، وثانياً من شأن سردها أن يأخذ مني وقتاً كثيراً فعلاً. بل إنني لأخشى اللحظة التي سأكون مرغماً فيها، ربما، على أن أرويها لابن أختي العزيز، علماً أنه لن يمكن مع الأسف تفادي قول كلمة صريحة عن والديه وعائلتيهما.»

«إنه خالي، لا ريب في ذلك»، قال كارل في ذات نفسه وراح يصغي، «وقد غيّر اسمه على الأرجح.»

«إن ابن أختي العزيز ـ ولنقل الكلمة وحدها التي تصف الأمر وصفاً حقيقياً ـ قد أُبعد جانباً ببساطة من قبل والديه، كما يُلقي المرء قطة خارج الباب عندما تسبّب إزعاجاً. وأنا لا أريد بأي حال التهوين من شأن ما فعله ابن أختي حتى عوقب هكذا، لكن ذنبه هو من النوع الذي يتضمن مجرد ذكره عذراً كافياً.»

«يمكن سماع هذا»، فكر كارل، «لكنني لا أريد أن يروي الأمر للجميع. وللمناسبة، إنه لا يستطيع أن يعرفه أيضاً. ومن أين له أن يعرفه إذاً؟.»

«إذ إنه»، تابع الخال حديثه، وقد استند مائلاً قليلاً إلى قضيب الخيزران المركَّز أمامه،

وبهذه الحركة تمّ له فعلاً أن يزيل عن الموضوع المهابةَ غير الضرورية التي كان لا بد له أن يأخذها فيما عدا ذلك، «إذ إنه أُغوي من قبل خادمة، يوهانّا برومّر، يبلغ عمرها نحو خمسة وثلاثين عاماً. وأنا لا أريد بكلمة (أغوي) أن أغيظ ابن أختي بأي حال، لكنه من الصعب إيجاد كلمة أخرى مناسبة تعادلها.»

وكان كارل قد اقترب من الخال إلى حد ما، وهنا استدار كي يقرأ الانطباع الذي تركته القصة على وجوه الحاضرين. لم يضحك أحدهم، وكان الجميع يستمعون بصبر وجدية. كما أن ما من أحد يضحك على ابن أخت سناتور في أول مناسبة تقدم نفسها. بالأحرى كان في مقدور المرء أن يقول إن الوقّاد إنما ابتسم لكارل، وإن كان في قدر ضئيل جداً، الأمر الذي كان أولاً سارّاً لكونه بادرة حياة وثانياً معذوراً، إذ إن كارل في القمرة كان يريد أن يحوّل هذه المسألة، التي شاعت الآن هكذا، إلى سرّ خاص.

واستأنف الخال حديثه قائلاً: «لقد أنجبت برومّر هذه من ابن أختي طفلاً، صبياً في صحة جيدة جرى تعميده باسم ياكوب، تيمّناً ولا ريب بشخصي المتواضع الذي لا بد أن يكون قد أحدث أثراً كبيراً في الفتاة، وإن لم يكن ابن أختي قد ذكرني بالتأكيد سوى بشكل ثانوي. ومن حسن الحظ، أقول. إذ لأن الوالدين، تجنباً لدفع النفقة أو تفادياً للفضيحة الأخرى التي تصل إليهما لتقع بهما أنفسهما ـ وأخصّ بالذكر أنني لا أعرف القوانين السائدة هناك ولا ظروف الوالدين الأخرى ـ لأنهما إذاً تجنباً لدفع النفقة وتفادياً للفضيحة تركا ابنهما، ابن أختي العزيز، ينقل إلى أمريكا، وهو يحمل متاعاً غير كاف بشكل معيب كما ترون. ولولا الآيات والمعجزات التي ما زالت بالكاد حية في أمريكا، لكان على الصبي أن يعتمد على نفسه وحده، ولهلك حالاً في زقاق صغير من أزقة مرفأ نيويورك، لو لم تعلمني تلك الخادمة في رسالة موجهة إليّ وصلت إلى حوزتي، بعد سفر جوّال، يوم أمس الأول، القصةَ بكاملها مع أوصاف ابن أختي و ـ عن حكمة ـ اسم السفينة أيضاً. سادتي، لوكنت قد وضعت نصب عيني أن ألهيكم، لكنت خليقاً أن أقرأ عليكم بعض الفقرات من تلك الرسالة» ـ وسحب من جيبه ورقتين كبيرتين مكتوبتين بخط دقيق ولوّح بهما ـ «ومن شأن هذه الرسالة أن تحدث أثراً بالتأكيد، إذ إنها كتبت بخبث ساذج بعض الشيء وإن كان خبثاً ذا غرض حميد وبحب كثير لأب الطفل. إلا أنني لا أريد إلهاءكم أكثر مما هو ضروري للتوضيح ولا أن أجرح مشاعر ابن أختي التي قد يكون ما زال يكنّها، وسوف يكون في وسعه إذا أراد أن يقرأ الرسالة في هدوء في الغرفة التي تنتظره، كي يتعلم منها.»

لكن كارل لم يكن يكنّ مشاعر إزاء تلك الفتاة. في زحمة ماض راح يبتعد دائماً أكثر كانت تجلس في مطبخها إلى جانب خزانة المطبخ وتستند بمرفقيها إلى لوح الخزانة. كانت تنظر إليه عندما يدخل إلى المطبخ بين وقت وآخر، كي يحضر لوالده كأساً لشرب الماء أو

يبلغها طلباً لوالدته. وكانت أحياناً وهي تجلس في الوضع المعقَّد إلى جانب خزانة المطبخ تكتب رسالة وتستجلب الأفكار من وجه كارل. وأحياناً كانت تغطي عينيها بيديها، فلا يعود يبلغها أي كلام. وأحياناً كانت تركع في حجيرتها الضيقة الملاصقة للمطبخ وتصلي إلى صليبها الخشبي. فكان كارل يشاهدها من خلال فتحة الباب المفتوح قليلاً، وذلك أثناء مروره وعلى استحياء فحسب. وأحياناً كانت تجري مهتاجة في المطبخ من مكان إلى آخر، وتعود ضاحكة مثل ساحرة عندما تصادف كارل. وأحياناً كانت تغلق باب المطبخ عندما يدخل كارل وتظل تمسك بأكرة الباب حتى يطلب الخروج. وأحياناً كانت تحضر أشياء لا يريدها أبداً وتدسّها له في يديه بصمت. لكنها قالت ذات مرة «كارل»، وقادته في لهفة، وهو ما زال مندهشاً من المخاطبة غير المتوقعة، وهي تتنهّد وقد تقلصت عضلات وجهها، قادته إلى غرفتها وأغلقت بابها. طوقت عنقه على نحو خانق، وفي حين طلبت منه أن يعرّيها، قامت هي في الواقع بتعريته وأرقدته في فراشها، وكأنها تريد ألا تتركه بعد الآن لأحد وتداعبه وترعاه حتى نهاية العالم. «كارل، أوه أنت كارلي!» نادت وكأنها تراه وتؤكد ملكيته، في حين أنه لم يكن يرى أي شيء وشعر بالانزعاج وهو غارق في بياضات السرير الكثيرة الدافئة التي بدا وكأنها كانت قد كوّمتها له بالذات. ثم استلقت إلى جواره وأرادت أن تعلم أية أسرار منه، لكنه لم يستطع أن يقول لها شيئاً، فانزعجت على سبيل المزاح أو جدّياً، وهزّته، وتسمّعت إلى دقات قلبه، وقدمت له صدرها كي يتسمّع مثلها، لكنها لم تستطع أن تدفع كارل إلى ذلك، فضغطت بطنها العاري على جسده، وتلمّست بيدها بين ساقيه على نحو تعافه النفس بحيث إن كارل نفض رأسه وعنقه خارج الوسادات، وألقت بطنها عليه وضغطته عدة مرات. وشعر كأنها كانت جزءاً منه، وربما لهذا السبب تملكه شعور مخيف بالحاجة إلى مساعدة. وبعد تمنيات كثيرة باللقاء ثانية من قبلها جاء أخيراً إلى فراشه وهو ينتحب. كان هذا كل شيء، لكن الخال عرف كيف يحوّل ذلك إلى حكاية كبيرة. والطباخة فكرت به أيضاً وأعلمت الخال عن وصوله. كان تصرفها جميلاً، وهو خليق أن يجازيها مرة أخرى.

«والآن»، صاح السناتور: «أريد أن أسمع منك بصراحة، فيما إذا كنت خالك أم لا؟»

«إنك خالي»، قال كارل وقبّل يده وتلقى لقاء ذلك قبلة على جبينه. «يسرني جداً أنني التقيتك، لكنك تخطئ إذا كنت تظن أن والديّ لا يتحدثان عنك سوى بسوء. وبغض النظر عن ذلك، فإن كلامك تضمن أيضاً بعض الأخطاء، وهذا يعني أنني أقصد أن ليس كل شيء قد حدث هكذا في الواقع. كما أنه ليس في مقدورك فعلاً، انطلاقاً من هنا، أن تحكم على الأشياء بشكل جيد، وفوق ذلك فإنني أعتقد أن الأمر لن يجلب ضرراً خاصاً عندما يطّلع السادة على نحو مخالف للحقيقة بعض الشيء على تفاصيل موضوع لا يمكن فعلاً أن يهمّهم كثيراً.»

«حسناً تحدثت»، قال السناتور، وقاد كارل إلى القبطان الذي كان ظاهر الاهتمام وسأله: «أليس لديّ ابن أخت رائع؟»

«إنني سعيد»، قال القبطان وهو ينحني انحناءة لا يستطيع أن يقوم بها سوى الناس الذين تلقّوا تدريباً عسكرياً، «بالتعرف على ابن أختك أيها السيد السناتور. وانه لشرف خاص بالنسبة لسفينتي أن تكون مكاناً لمثل هذا اللقاء. لكن السفر في السطح السفلي كان سيئاً جداً ولا ريب، أجل، من يمكنه أن يعرف من يحمله معه. حسناً، إننا نفعل كل ما هو ممكن لتيسير الرحلة، إن أمكن، على الناس في السطح السفلي، أكثر مثلاً من الخطوط الأمريكية، لكننا ما زلنا لم نوفق في تحويل مثل هذه الرحلة إلى متعة.»

«لم يضيرني الأمر»، قال كارل.

«لم يضيره الأمر!» كرر السناتور وهو يضحك بصوت عال.

«أخشى فقط أن أكون قد فقدت حقيبتي»، وبهذا تذكّر كل شيء، كل ما حدث وكل ما يجب فعله بعد، وتطلع حوله ورأى جميع الحاضرين يقفون صامتين احتراماً ودهشةً في أماكنهم السابقة، وهم يوجهون أنظارهم إليه. وبدا على موظفي المرفأ وحدهما، بقدر ما يسمح وجهاهما، اللذان كانا ينمّان عن صرامة ورضى عن النفس، بتكوين فكرة، بدا عليهما الأسف لمجيئهما في مثل هذا الوقت غير المناسب؛ وكانت ساعة الجيب التي كانا قد وضعاها أمامهما هي على الأرجح أكثر أهمية بالنسبة لهما من كل شيء حدث في الحجرة وما زال قد يمكن أن يحدث.

ومن عجب أن أول من عبّر عن اهتمامه، بعد القبطان، كان الوقّاد: «أهنئك بحرارة»، قال وصافح كارل وهو يريد أن يعبّر أيضاً عن شيء مثل الاعتراف. وإذ أراد أن يتوجه إلى السناتور بالكلمات نفسها، تراجع هذا وكأن الوقّاد إنما يتجاوز بذلك حقوقه؛ وعلى الفور عدل الوقّاد أيضاً عن نيته.

لكن الآخرين أدركوا الآن ما كان يجب فعله وازدحموا في الحال حول كارل والسناتور دون انتظام. وهكذا حدث أن كارل حصل على تهنئة من شوبال وتقبلها وشكره من أجلها. وفي الهدوء الذي عاد، انضم أخيراً موظفا المرفأ إلى المجموعة، وقالا كلمتين بالانكليزية، الأمر الذي أعطى انطباعاً مضحكاً.

وكان السناتور في مزاج طيب للغاية كي يتذوق المتعة كاملة، ويعيد إلى الأذهان لحظات أقل أهمية، الأمر الذي لم يحتمل طبعاً من قبل الجميع فحسب، وإنما قُبل باهتمام. وهكذا فقد لفت النظر إلى أنه كان قد دوّن في مفكرته علامات كارل المميزة البارزة، المذكورة في رسالة الطباخة، من أجل استخدامها السريع الذي قد يصبح ضرورياً. والآن كان أثناء ثرثرة الوقّاد

التي لا تطاق، ولغير ما غرض سوى إلهاء نفسه، قد سحب المفكرة وحاول أن يلهو ويربط ملاحظات الطباخة، هذه الملاحظات غير الدقيقة كل الدقة طبعاً، مع ملامح كارل. «وهكذا يعثر المرء على ابن أخته!» أنهى كلامه كما لو كان يرغب في تلقي التهاني مرة أخرى.

«ماذا سيحدث الآن للوقّاد؟» سأل كارل متجاهلاً حكاية الخال الأخيرة. في وضعه الجديد أصبح يعتقد أنه يستطيع أن يعبّر عن كل ما يفكر به.

«سيحدث للوقّاد ما يستحقه»، قال السناتور، «وما يراه السيد القبطان ملائماً. وأظن أننا ضقنا ذرعاً بالوقّاد بما فيه الكفاية وأكثر من الكفاية، الأمر الذي سيوافقني عليه ولا شك كل من السادة الحاضرين.»

«ليس هذا هو المهمّ في مسألة من مسائل العدالة»، قال كارل. كان يقف بين الخال والقبطان ويعتقد، ربما متأثراً بهذا الوضع، أنه إنما يملك القرار بيده.

ورغم ذلك بدا الوقّاد أنه لا يأمل أي شيء لنفسه بعد الآن. كان يضع يديه إلى منتصفهما في حزام سرواله، الذي كان قد برز نتيجة حركاته المهتاجة بشريط قميص منقوش. ولم يهمّه هذا أقل اهتمام. كان قد شكا كل همّه، والآن عليهم أن يروا أيضاً الخِرَق التي تكسو بدنه، ثم يحملونه بعيداً. وتصور أنه على الخادم وشوبال، الأقل هنا مرتبة، أن يسديا له هذا المعروف. وسوف يكون من شأن شوبال أن يهدأ ولا يعود ينفد صبره، على حد تعبير كبير أمناء الصندوق. أما القبطان فسوف يكون في ميسوره أن يعيّن رومانيين فقط، ولن يجري الحديث سوى باللغة الرومانية، وربما ستسير كل الأمور بشكل أفضل فعلاً. ولن يعود وقاد إلى الثرثرة في غرفة أمانة الصندوق، وسوف يحتفظ المرء بذكرى ثرثرته الأخيرة، ذكرى لطيفة إلى حد ما، إذ إنها، كما كان السناتور قد أعلن في وضوح، كانت قد سبّبت بشكل مباشر التعرف على ابن الأخت. وللمناسبة، كان ابن الأخت هذا قد حاول مراراً قبل ذلك أن يفيد الوقّاد، ولذا فقد قدّم له شكراً كافياً على خدمته في تعرّف خاله عليه. ولم يخطر في بال الوقّاد أن يطلب منه الآن شيئاً. هذا وإن كان ابن أخت السناتور، فإنه ما زال بعيداً عن أن يكون قبطاناً، لكن من شأن الكلمة السيئة أن تقع أخيراً من فم القبطان. وهكذا طبقاً لرأيه، لم يحاول الوقّاد أن ينظر إلى كارل، لكن مع الأسف لم يبق في غرفة الخصوم هذه مكان راحة آخر بالنسبة لعينيه.

«لا تُسئ فهم الوضع»، قال السناتور لكارل، «قد يكون الموضوع موضوع عدالة، لكنه في الوقت نفسه موضوع نظام. وكل منهما، ولا سيما الأخير، يخضع هنا لحكم السيد القبطان.»

«هكذا هو الأمر»، تمتم الوقّاد. ومن لاحظ وفهم، ابتسم مستغرباً.

«لكننا نحن، بالإضافة إلى ذلك، أعقنا السيد القبطان في أعماله الرسمية، التي تزداد بالتأكيد بشكل لا يصدق بالذات لدى الوصول إلى نيويورك، أعقناه إلى درجة كبيرة بحيث إنه آن لنا أن نغادر السفينة، وذلك كي لا نقوم بالإضافة إلى ذلك من خلال أي تدخل غير ضروري أبداً بتحويل هذا الشجار التافه بين عاملين ميكانيكيَّين إلى حدث. إنني أفهم طريقة تصرفك فهماً كاملاً يا ابن أختي العزيز، لكن هذا بالذات يعطيني الحق لاقتيادك من هنا بأسرع ما يمكن.»

«سوف آمر على الفور بإعداد قارب لكما»، قال القبطان دون أن يقدم ـ الأمر الذي أثار الدهشة في نفس كارل ـ أقل اعتراض على كلمات الخال، هذه الكلمات التي يمكن ولا شك أن تعتبر إهانة ذاتية للخال. ومن غير روية أو تفكير أسرع كبير أمناء الصندوق إلى طاولة المكتب وأبلغ أمر القبطان إلى المراكبيّ هاتفياً.

«لقد ضاق الوقت»، قال كارل في ذات نفسه، «لكنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً دون أن أهين الجميع. فأنا لا أقدر الآن على ترك الخال بعد أن لم يكد يعثر عليّ. وصحيح أن القبطان مهذب، لكن هذا هو كل شيء أيضاً. فتهذيبه ينتهي عندما يتعلق الأمر بالنظام. ولا شك أن الخال عبّر تماماً عما يشعر به القبطان. ومع شوبال لا أريد أن أتحدث، بل يؤسفني أنني صافحته. وكل الناس الآخرين هنا ضئيلو الشأن.»

وذهب ببطء، وهو في مثل هذه الأفكار، إلى الوقّاد، وسحب يده اليمنى من حزامه وأبقاها في يده على نحو عابث، وسأله: «لماذا لا تقول شيئاً؟ لماذا تقبل كل شيء؟»

ولم يفعل الوقّاد شيئاً سوى أن قطّب حاجبيه، وكأنه يبحث عن العبارة التي تعبّر عما ينبغي عليه أن يقوله. ثم نظر إلى يديه ويدي كارل.

«لقد لحق بك جور، كما لم يلحق بأي إنسان آخر على السفينة. إنني أعرف هذا تمام المعرفة.» وراح كارل يسحب أصابعه بين أصابع الوقّاد الذي راح ينظر بعينيه المتألقتين من حوله وكأن غبطة أصابته يرجى ألا يؤاخذه عليها أحد.

«لكن عليك أن تدافع عن نفسك، وتقول نعم ولا، وإلا فلن يكون لدى الناس أدنى فكرة عن الحقيقة. ويجب عليك أن تعدني بأنك سوف تتبعني، إذ إنني أنا نفسي، وهذا ما أخشاه لأسباب عديدة، لن أستطيع مساعدتك بعد الآن.» وهنا انتحب كارل، في حين قبّل يد الوقّاد، وتناول اليد الضخمة الجامدة تقريباً وضغطها على وجنتيه وكأنها كنز يضطر المرء أن يستغني عنه. لكن الخال السناتور كان قد تقدم حتى أصبح إلى جانبه، وجذبه بعيداً، وإن كان ذلك في قسرٍ يسيرٍ للغاية.

«يبدو أن الوقّاد قد سحرك»، قال وهو ينظر، من فوق رأس كارل، إلى القبطان بتفهّم

كامل. «كنت تشعر بالوحدة، فوجدت الوقّاد، وأنت ممتنّ له الآن، وهذا أمر حميد للغاية. لكن، حتى إكراماً لي، لا تتمادَ وتعلّم أن تفهم منزلتك.»

ارتفعت جَلَبة أمام الباب، وسُمعت نداءات، حتى بدا وكأن أحدهم يُصدم بالباب بعنف، ودخل بحار مشعث بعض الشيء وكان يرتدي مئزر فتاة. «ثمة أناس في الخارج»، صاح ودفع حوله مرة بمرفقه وكأنه ما زال في الزحام. وأخيراً ثاب إلى رشده وأراد أن يؤدي التحية أمام القبطان، وهنا لاحظ المئزر، فانتزعه وألقاه على الأرض وصاح: «إنه لأمر مقرف، لقد ألبسوني مئزر فتاة.» لكنه، من ثم، دق عقبيه معاً وأدى التحية. وحاول أحدهم أن يضحك، لكن القبطان قال بحزم: «هذا ما أسميه مزاجاً طيباً. من في الخارج إذاً؟»

«انهم شهوديي»، قال شوبال وهو يتقدم، «بكل تواضع أرجو المعذرة لتصرفهم غير اللائق. عندما يقطع الناس رحلة بحرية، يكونون وكأنهم جَنّوا.»

«ادخلهم على الفور»، أمر القبطان والتفت حالاً إلى السناتور وقال في أدب، لكن في عجلة: «هلّا تكرّمتم أيها السيد السناتور الموقر بأن تتبعوا مع ابن أختكم هذا البحار الذي سوف يوصلكم إلى الزورق. ولا حاجة بي للقول أية مسرّة وأي شرف قدّمهما لي التعرف الشخصي عليكم، أيها السيد السناتور. ولا أتمنى سوى أن تتاح لي قريباً فرصة أتمكن فيها أن أتابع معكم، أيها السيد السناتور، حديثنا، الذي انقطع، عن أحوال الأسطول الأمريكي، ثم ربما يقطع حديثنا بطريقة طيبة مثلما قطع اليوم.

«حالياً يكفيني ابن الأخت الواحد هذا»، قال الخال وهو يضحك. «وتقبّلوا جزيل شكري لمؤانستكم، ووداعاً. وللمناسبة، قد لا يكون من المستحيل أن نلتقي» ـ وضغط كارل إليه بحرارة ـ «بكم ربما لفترة طويلة في رحلتنا القادمة إلى أوروبا.»

«سوف يسرني كل السرور»، قال القبطان. وتصافح السيدان، أما كارل فإنه لم يستطع أن يمدّ يده إلى القبطان سوى بصمت وبشكل عابر، إذ إن هذا كان قد شغل نفسه بالناس البالغين ربما خمسة عشر شخصاً، الذين دخلوا بقيادة شوبال مضطربين بعض الشيء لكنهم دخلوا في صخب. وطلب البحار من السناتور أن يسمح له في السير في المقدمة، ثم قسّم الجمع له ولكارل، اللذين شقّا طريقهما في يسر بين الناس الذين انحنوا لهما. وبدا أن هؤلاء الناس، طيبي القلوب، إنما كانوا يعتبرون نزاع شوبال مع الوقّاد هزاراً لم تتوقف صفته المضحكة حتى أمام القبطان. ولمح كارل بينهم فتاة المطبخ لينه، التي غمزت له بمرح وهي ترتدي المئزر الذي ألقاه البحار إليها، إذ إنه كان مئزرها.

وتبعا البحار، وغادرا المكتب، وانعطفا إلى ممر صغير أوصلهما بعد بضع خطوات إلى باب صغير هبط منه درج قصير يؤدي إلى الزورق الذي كان معدّاً لهما. ونهض البحارة في

الزورق الذي قفز إليه على الفور رئيسهم قفزة واحدة، وأدوا التحية. ولفت السناتور نظر كارل إلى الهبوط بحذر، تماماً عندما انفجر هذا، وهو ما زال على الدرجة العليا، في بكاء شديد. ووضع السناتور يده اليمنى تحت ذقن كارل، وشدّه إليه وربت عليه بيده اليسرى. وهكذا نزلا في بطء درجةً درجة ودخلا وهما متلاصقان إلى القارب حيث اختار السناتور مكاناً جيداً لكارل في مواجهته تماماً. وبإشارة من السناتور دفع البحارة بالقارب بعيداً عن السفينة، وانهمكوا في العمل على الفور. وما أن ابتعدوا بضعة أمتار عن السفينة، حتى اكتشف كارل على نحو غير متوقع أنهم يتواجدون على ذلك الجانب من السفينة الذي تطل عليه نوافذ غرفة أمانة الصندوق. وكانت النوافذ الثلاثة مزدحمة بشهود شوبال الذين راحوا يحيّون بكل ودّ ويلوّحون، وحتى الخال شكر، وقام أحد البحارة بحركة بارعة بأن أرسل إلى الأعلى قبلة يد، دون أن يقطع التجديف المنتظم. وكان الحال حقاً كأنه لم يعد ثمّة وقّاد. وبدقة أكثر ثبّت كارل نظراته في عيني الخال، الذي كانت ركبتاه تكادان تمسّان ركبتيه، وساوره شك فيما إذا كان هذا الرجل سيستطيع في أي وقت كان أن يعوّضه عن الوقّاد. كما أن الخال تجنب نظرته وراح يتطلع إلى الأمواج التي كانت تتماوج حول القارب.

II
الخال

في بيت الخال ألفَ كارل بعد قليل الظروف الجديدة. كما أن الخال كان ينزل على رغبته برفق في كل صغيرة وكبيرة ولم يكن يتعيّن على كارل قط أن يتعلم أول ما يتعلم من تجارب سيئة، كما يحدث في الغالب ويجعل الحياة الأولى في الخارج مريرة.

كانت حجرة كارل تقع في الطابق السادس من مبنى كانت طوابقه الخمسة السفلى، التي تتبعها في العمق ثلاثة طوابق أخرى تحت الأرض، تشغلها شركة الخال. وكان الضوء الذي يدخل إلى حجرته عبر نافذتين وباب شرفة يثير الدهشة في نفسه مراراً وتكراراً عندما كان يدخل إلى هنا في الصباح قادماً من غرفة نومه الصغيرة. أين كان يجب عليه أن يسكن لو كان قد وصل إلى البلاد بصفته مهاجراً صغيراً مسكيناً؟ لا بل ربما لم يكن ليسمح له بالدخول إلى الولايات المتحدة قط، الأمر الذي كان الخال، حسب معرفته لقوانين الهجرة، يعتبره أمراً مرجّحاً جداً، وإنما كان من شأنه أن يعاد إلى بلاده، ودون اهتمام بأنه لم يعد لديه وطن. إذ لم يكن يجوز للمرء أن يأمل هنا بشفقة وعطف وكان صحيحاً كل الصحة ما كان كارل قد قرأه من هذه الناحية عن أمريكا؛ السعداء وحدهم بدوا هنا أنهم يتمتعون متعة صحيحة بسعادتهم بين الوجوه الساهية في محيطهم.

كان ثمة شرفة ضيقة تمتد أمام غرفته بطولها كله. غير أن ما كان خليقاً أن يكون أعلى مكان للنظر في مدينة موطنه، لم يسمح هنا بأكثر من نظرة شاملة على شارع يمتد بين صفين من المنازل المقطوعة على نحو واضح، يمتد باستقامة ولذا كأنه يمتد هارباً إلى البُعدْ، حيث ارتفعت من بين ضباب شديد الكثافة معالم كاتدرائية ارتفاعاً هائلاً. وفي الصباح كما في المساء وفي أحلام الليل كانت في هذا الشارع حركة مرور في ازدحام متزايد، كانت تبدو من الأعلى مزيجاً من بدايات جديدة دائماً متناثرة متداخلة لأشكال بشرية مشوهة ولأسطح السيارات من كل نوع، كما ارتفع من هذا المزيج مزيج جديد مستنسخ أكثر توحشاً من ضجيج وغبار وروائح، وشمل وملأ كل هذا ضوء قوي راحت كمية الأجسام والأشياء تبدده مراراً وتكراراً وتجرفه بعيداً ثم تعيده بنشاط، والذي بدا جسمانياً للعين المفتتنة، وكأن لوحاً

زجاجياً يغطي كل شيء فوق هذا الشارع سينكسر مراراً وتكراراً في أية لحظة وبكل قوة.

في حرص وحذر كما كان الخال في كل شيء، نصح كارل بأن لا ينخرط مؤقتاً على نحو جدي مطلقاً. عليه أن يتأمل كل شيء ويفحصه، لكن لا أن يدع نفسه يؤسر ويُستأثر به. إن الأيام الأولى لأوروبي في أمريكا يمكن مقارنتها بولادة، وعندما يعتاد المرء هنا أيضاً، حتى لا يستشعر كارل خوفاً غير ضروري، بسرعة أكثر مما يعتاد عندما يدخل من الغيب إلى العالم البشري، فإنه يتعيّن على المرء أن ينتبه إلى أن الحكم الأول إنما هو حكم واه يقف دائماً على دعائم ضعيفة، وأنه لا يجوز للمرء أن يدع هذا الحكم يفسد ربما الأحكام المقبلة التي يريد المرء أن يتابع حياته هنا بمعونتها. هو نفسه تعرّف على قادمين جدد بدلاً من أن يتصرفوا طبقاً لهذه المبادئ السليمة، فقد كانوا يقفون على شرفاتهم طوال أيام وينظرون من أعلى إلى الشارع مثل خراف ضائعة. لا بدّ لهذا أن يثير ارتباكاً! هذا التعطّل الوحداني الذي يغرق في يوم نيويوركي حافل بالعمل، يمكن أن يُسمح به لسائح وربما يكون تهلكة، وإن كان لا يُنصح به بغيرتحفظ، لمن سوف يبقى هنا، ويمكن للمرء في هذه الحالة أن يستخدم هذه الكلمة، وإن كانت أيضاً مبالغة. وفعلاً كان الخال يلوي وجهه بانزعاج دائماً عندما كان في واحدة من زياراته، التي كان يقوم بها مرة واحدة فقط في اليوم ودائماً في شتى الأوقات المختلفة، يلتقي كارل على الشرفة. وسرعان ما لاحظ كارل هذا فتخلى من ثم عن متعة الوقوف على الشرفة ما أمكن.

كما أن هذا لم يكن على كل حال التسلية الوحيدة التي كان يقوم بها. كان في حجرته ثمة مكتب أمريكي من أفضل نوع كما كان والده يتمناه لنفسه ويبحث عنه في شتى المزادات العلنية لكي يبتاعه بسعر رخيص في المتناول، دون أن يفلح قط بسبب قلة نقوده. وطبعاً لم يكن هذا المكتب قابلاً للمقارنة مع تلك المكاتب الأمريكية المزعومة التي تعرض في المزادات العلنية الأوروبية. كان هذا المكتب يحوي على سبيل المثال في جزئه المركّب فوقه مئة رفّ ذات أحجام شتّى وحتى رئيس الاتحاد خليق أن يجد مكاناً مناسباً لكل ملف من ملفاته، ولكن بالإضافة إلى ذلك كان في الجانب ثمة منظّم وكان بإمكان المرء، بتدوير الذراع، الوصول حسب الرغبة والحاجة إلى مختلف التحويلات والتغييرات والتقنيات الجديدة للرفوف. كان ثمة جدران جانبية غير سميكة تهبط ببطء وتشكّل رفوفاً ترتفع مجدداً من الأسفل أو تهبط من الأعلى؛ وبعد دورة واحدة كان الجزء المركّب يصبح ذا شكل مغاير تماماً وكل شيء يسير ببطء أو بسرعة جنونية حسبما تدار الذراع. كان ذلك أحدث ابتكار، لكنه ذكّر كارل بتمثيليات مولد المسيح التي كانت تقدم في سوق عيد الميلاد في بلاده للأطفال المبهورين وكذلك كارل كان يقف غالباً أمام التمثيلية متدثراً ملابسه الشتوية ويروح يقارن بلا انقطاع تدوير الذراع، الذي كان يقوم به رجل كبير السن، بالتأثيرات في التمثيلية، بتقدم القديسين الثلاثة المتعثر، بسطوع النجم وبالحياة المعروفة في المذود المقدس. وكان دائماً يبدو له

كما لو أن الأم، التي كانت تقف وراءه، لم تكن تتابع كل الأحداث بدقة كافية، وكان يسحبها إليه حتى يشعر بها على ظهره ويبيّن لها بنداءات بصوت عال ظواهر أكثر خفاء، ربما أرنب صغير كان يقف مرة على رجليه الخلفيتين في العشب في المقدمة ومرة يجهّز نفسه للجري، حتى تغطي فم كارل بيدها وتعود على الأرجح إلى إهمالها السابق. طبعاً لم يكن المكتب قد صنع لكي يذكّر بمثل هذه الأمور، لكن في تاريخ الابتكارات كان ثمة سياق غير جليّ على نحو يماثل ذكريات كارل. على خلاف كارل لم يكن الخال بلا ريب موافقاً على هذا المكتب، لكنه كان يريد أن يشتري لكارل مكتباً مرتّباً وكانت مثل هذه المكاتب جميعها مجهزة الآن بهذه التقنية الجديدة الذي كانت ميزته أنه يمكن تثبيته على مكاتب قديمة دون كلفة كبيرة. على كل حال لم يغفل الخال أن ينصح كارل بأن لا يستخدم المنظّم أبداً قدر الإمكان؛ ولزيادة تأثير النصيحة ادعى الخال بأن الآلة إنما هي شديدة الحساسية، سهلة التلف وإصلاحها باهظ التكاليف. ولم يكن من العسير إدراك أن مثل هذه الملاحظات إنما هي مجرد ذرائع، وإن كان يتعيّن على المرء أن يقول لنفسه من طرف آخر أنه من السهل تثبيت المنظّم، الأمر الذي لم يفعله الخال.

في الأيام الأولى التي كانت تجري فيها طبعاً بين الخال وكارل أحاديث كثيرة، روى كارل أيضاً أنه، كان يعزف على البيانو في منزل أهله بسرور، وإن لم يكن كثيراً، لكن الأمر الذي كان يفعله فقط بالمعارف الأولى التي كانت الأم قد لقّنته إياها. وكان كارل يعي أن مثل هذه القصة إنما كانت في الوقت نفسه رجاء بالحصول على بيانو، غير أنه كان قد رأى ما يكفي لكي يعرف أن الخال ليس بحاجة بأي حال لأن يقتصد. ورغم ذلك لم يُستجب لهذا الرجاء على الفور. لكن بعد نحو ثمانية أيام قال الخال على شكل إقرار على مضض بأن البيانو قد وصل وأنه يمكن لكارل إذا أراد أن يشرف على النقل. وكان هذا عملاً سهلاً حقاً، لكنه لم يكن حتى أكثر سهولة كثيراً من النقل نفسه، إذ كان في المبنى مصعد خاص لنقل الأثاث يمكن لشاحنة أثاث كاملة أن تجد فيه مكاناً دون ازدحام وفي هذا المصعد صعد البيانو أيضاً إلى حجرة كارل. وكان يمكن لكارل أن يصعد في المصعد نفسه مع البيانو ومع عمال النقل، لكن إذ كان في الجوار تماماً مصعد للأشخاص جاهز للاستخدام، انتقل به وترك نفسه بواسطة رافعة على ارتفاع واحد مع المصعد الآخر وراح يتأمل، دون أن تتحول عيناه، عبر الجدار الزجاجي الآلة الجميلة التي كانت الآن ملكه. وعندما أصبح البيانو في حجرته وعزف النغمات الأولى استخفّه فرح جنوني بحيث إنه بدلاً من مواصلة العزف قفز ووقف على مبعدة واضعاً يديه في وسطه وراح ينظر إلى البيانو مندهشاً. كما أن الحجرة كانت تتميز بصلاحية فائقة لسماع الموسيقى وساهمت في أن يختفي كلياً انزعاجه اليسير في البداية من السكن في مبنى من الصلب. في الحقيقة لم يكن المرء ليلاحظ في الحجرة أيضاً، مهما بدى المبنى من

الخارج حديدياً، أية أجزاء بناء حديدية لا في قليل أو كثير ولم يكن في مقدور أحد أن يكشف عن أي شيء صغير في الأثاث خليق أن يعكر على نحو من الأنحاء الجو المريح الأكثر اكتمالاً وكمالاً. كان كارل في الفترة الأولى يأمل الكثير من عزفه على البيانو ولم يخجل على الأقل قبل أن يغشاه النوم من أن يفكر بإمكانية ممارسة تأثير مباشرعلى الظروف الأمريكية من خلال هذا العزف على البيانو. لكن الأمر كان يقع موقعاً غريباً على السمع عندما كان يعزف أمام النوافذ المفتوحة على الهواء المشبع بالضجيج أغنية جنود قديمة من أغاني بلاده كان الجنود يغنّونها لبعضهم من نافذة إلى نافذة وهم يستندون في نوافذ الثكنات وينظرون إلى الفناء المعتم. لكنه عندما كان ينظر من ثم إلى الشارع، كان هذا كما هو ولم يكن سوى جزء صغير من دورة كبيرة لم يكن في مقدور المرء إيقافها مبدئياً دون معرفة كل القوى التي تؤثّر في مداره. الخال تحمّل العزف على البيانو، كما أنه لم يقل شيئاً ضده، لا سيما أن كارل لم يكن يسمح لنفسه بمتعة العزف سوى في النادر حتى بدون تنبيه، لا بل جلب له نوتات مارشات عسكرية أمريكية وطبعاً النشيد الوطني أيضاً، لكن لم يكن حباً بالموسيقى وحده ما يفسر حين سأل كارل ذات يوم دون أي دعابة في ما إذا كان يريد أن يتعلم أيضاً العزف على الكمان أو على النفخ في البوق.

طبعاً كان تعلم الإنكليزية مهمة كارل الأولى والأكثر أهمية. كان أستاذ شاب من أساتذة مدرسة التجارة العليا يحضر في الساعة السابعة صباحا إلى حجرة كارل ويجده جالساً إلى مكتبه أمام الدفاتر أو يروح ويجيء في الغرفة وهو يذاكر. وقد أدرك كارل أن اكتساب الإنكليزية يحتاج إلى سرعة فائقة وبالإضافة إلى ذلك أن لديه هنا أفضل فرصة ليسرّ خاله سروراً عظيماً بتحقيق تقدم سريع. في حين كانت الإنكليزية في الأحاديث مع الخال تقتصرفي البداية على كلمات التحية والوداع، تمّ فعلاً بعد فترة وجيزة إجراء أجزاء كبيرة من الأحاديث بالإنكليزية، وبهذا بدأت في الوقت نفسه أحاديث أكثر شخصية. والقصيدة الأمريكية الأولى، تصوير لحرائق مدمرة، التي تمكن كارل من إلقائها على خاله ذات مساء، جعلت هذا رزيناً جاداً سروراً وارتياحاً. كانا يقفان آنذاك إلى نافذة في حجرة كارل، وكان الخال ينظر إلى الخارج حيث كان كل ضياء للسماء قد تبدد وراح في تفهمه لأبيات الشعر يصفق بيديه ببطء وانتظام، في حين كان كارل يقف منتصباً إلى جانبه بعينين جامدتين منتزعاً نفسه من القصيدة الصعبة.

كلما كانت إنكليزية كارل تتحسن، كان الخال يُظهر رغبة أكبر في أن يجمعه مع معارفه وكان فقط يرتّب في كل حالة أن يكون أستاذ الإنكليزية في أول الأمر دائماً بالقرب من كارل في مثل هذه اللقاءات. وكان أول المعارف الذي قُدّم لكارل ذات ضحى شاباً أهيف القامة ليّن العريكة على نحو مذهل قاده الخال وهو يسبغ عليه عبارات مديح متميزة إلى حجرة

كارل. كان على ما يبدو واحداً من أبناء أصحاب الملايين أولئك الخائبين من وجهة نظر الوالدين، الذي كانت حياته تسير على نحو لا يستطيع إنسان عاديّ أن يتابع دون ألم أي يوم في حياة هذا الشاب. وكأنه يعرف هذا أو يحدسه وكأنه يواجه هذا بقدر ما يقع في سلطته، كان حول شفتيه وعينيه ابتسامة حظ لا تنقطع تبدو أنها موجهة له نفسه وللشخص الآخر وللعالم كله.

مع هذا الشاب، سيد ماك، جرى الحديث مع موافقة الخال المطلقة على ركوب الخيل معاً في الساعة الخامسة والنصف صباحاً سواء في مدرسة الركوب أم في الخلاء. صحيح أن كارل تردد أولاً في إعطاء موافقته، إذ إنه لم يكن قد اعتلى صهوة جواد في الخلاء ويريد أولاً أن يتعلم الركوب قليلاً، لكن لأن الخال وماك شجّعاه كل التشجيع وقدّما الركوب على أنه مجرد تسلية وتمرين مفيد للصحة وليس فناً أبداً، وافق أخيراً. لكن بات عليه الآن أن ينهض من الفراش في الساعة الرابعة والنصف وكان هذا يسوؤه في الغالب كثيراً، فقد كان هنا يعاني حقاً من قلة النوم، لكن في الحمام سرعان ما زال أسفه. كانت ثمة رشاشة تمتد عبر طول الحوض وعرضه ـ أي تلميذ زميل في بلاده مهما كان غنياً كان يملك مثل هذا وحتى له وحده ـ وهنا كان كارل يستلقي متمدداً، في هذا الحوض استطاع أن يفرد ذراعيه على امتدادهما وترك سيول الماء الدافئة، الحارة، الدافئة مرة أخرى، وأخيراً الباردة برودة الجليد، تسيل عليه كما يطيب له جزئياً أو فوق كامل جسده. كما في لذة النوم كان يتمدد هنا وراح يتلقى بأجفان عينيه المغلقة وبسرور خاص آخر القطرات المفردة المتساقطة التي راحت من ثم تنفتح وتسيل على الوجه.

في مدرسة ركوب الخيل، حيث كانت سيارة الخال الفارهة تنزله، اعتاد أستاذ الإنكليزية أن يكون بانتظاره، في حين كان ماك يأتي متأخراً دائماً. لكنه كان في مقدوره أن يأتي متأخراً دون أن يشغل باله، إذ إن الركوب الحقيقي الحيوي لم يكن يبدأ إلا عند حضوره. ألم تكن الخيول تشبّ من وسنها التي كانت غارقة فيه حتى الآن، عندما كان يدخل، ألم يكن السوط يفرقع عبر المكان بصوت أعلى، ألم يكن يظهر فجأة على الرواق الدائري أشخاص مفردون، متفرجون، معتنون بالخيول، تلاميذ ركوب أو مهما كان يمكن أن يكونوا عدا ذلك؟ غير أن كارل كان يستخدم الوقت قبل وصول ماك بأن يمارس الركوب قليلاً وإن كان بالتمارين الأكثر بدائية. كان ثمة رجل مديد القامة يصل بذراعه إلى أعلى ظهر حصان دون أن يرفعها بالكاد والذي كان يعطي كارل هذا الدرس الذي كان بالكاد يستغرق ربع ساعة. ولم يكن النجاح الذي يحققه كارل هنا كبيراً جداً وكان في مقدوره أن يتعلم باستمرار العديد من نداءات الشكوى الإنكليزية، التي كان يطلقها لاهثاً أثناء هذا التعلم إلى أستاذ الإنكليزية، الذي كان يستند دائماً إلى قائمة الباب نفسها والحاجة إلى النوم بادية عليه في الغالب. لكن

كل عدم رضى تقريباً من الركوب كان يتوقف عندما يحضر ماك. كان الرجل الطويل يُرسل ولم يكن يعود يُسمع في الصالة، التي كانت لا تزال غارقة في ظلمة وانية، سوى حوافر الجياد الرامحة، ولم يكن المرء ليرى بالكاد شيئاً آخر سوى ذراع ماك المرفوعة التي كان يعطي بها ماك أمراً من الأوامر. بعد نصف ساعة من مثل هذه المتعة التي تمر مرور النوم، كان يُعطى أمر التوقف. كان ماك يستعجل جداً، يودع كارل ويربت أحياناً على وجنته عندما يكون راضياً بشكل خاص على تعلمه الركوب، ثم ينصرف على عجل دون أن يخرج حتى من الباب مع كارل. كان كارل يأخذ الأستاذ من ثم معه في السيارة ويذهبان إلى درس الإنكليزية غالباً على طريق أطول، إذ كان من شأن الذهاب عبر زحام الشارع الكبير، الذي كان يؤدي في حقيقة الأمر من منزل الخال إلى مدرسة الركوب مباشرة، أن يهدر وقتاً كثيراً. هذا، وللمناسبة، سرعان ما توقفت على الأقل هذه المرافقة لأستاذ الإنكليزية، إذ إن كارل الذي راح يلوم نفسه لأنه يحضر الرجل المتعب إلى مدرسة الركوب على غير جدوى، ولا سيما أن التفاهم الإنكليزي مع ماك إنما كان تفاهماً يسيراً جداً، طلب من الخال أن يعفي الأستاذ من هذا الواجب. بعد بعض التفكير لبّى الخال هذا الطلب أيضاً.

كان الأمر يستغرق مدة طويلة نسبياً قبل أن يقرر الخال أن يسمح لكارل بالاطلاع ولو اطلاعاً طفيفاً على أعمال شركته، رغم أن كارل كان قد طلب ذلك مراراً عديدة. كانت نوعاً من شركة سمسرة وشركة نقليات، كما لم تكن ربما توجد في أوروبا قط، بقدر ما استطاع كارل أن يتذكر. إذ إن الشركة كانت شركة تجارة وسيطة، غير أنها لم تكن تنقل السلع مثلاً من المنتجين إلى المستهلكين أو ربما إلى التجار، بل كانت تؤمّن جميع السلع والمنتوجات الأصلية من أجل كارتلات المصانع وبينها. لذا كانت شركة تشمل شراءات وتخزينات ونقليات ومبيعات بأحجام هائلة وتقيم ولا بدّ اتصالات هاتفية وتلغرافية دقيقة للغاية ومتواصلة مع الزبائن. كانت صالة التلغراف أكبر وليس أصغر من مكتب التلغراف في مدينة كارل، حيث كان ذات مرة قد دخل إليه وهو يمسك يد أحد معارفه هناك من التلاميذ. في صالة الهواتف كانت أبواب أكشاك الهاتف أينما نظر المرء تفتح وتغلق والرنين كان يربك الذهن. فتح الخال الباب الأقرب من هذه الأبواب ورأى المرء هناك في النور الكهربائي المتألق موظفاً غير مبال بأي صرير للأبواب وقد وضع رأسه في شريط صلب كان يضغط السماعتين على الأذنين. كان يضع ذراعه الأيمن على طاولة صغيرة وكأنه ثقيل الوزن بشكل خاص، وراحت الأصابع وحدها التي كانت تمسك القلم ترتعش بانتظام وسرعة على نحو غير إنساني. في الكلمات التي كان يقولها في المُرسل كان مقتصداً للغاية، بل حتى كان المرء يرى في الغالب أنه ربما كان يعترض شيئاً ما على المتحدث ويرغب في أن يسأله شيئاً ما بدقة أكثر، غير أن كلمات معينة سمعها أرغمته، قبل أن يتمكن من تنفيذ مراده، أن يغلق عينيه وأن

يكتب. كما أنه لم يكن عليه أن يتكلم، كما أوضح الخال لكارل بصوت منخفض، حيث إن الإخبارات نفسها التي استقبلها هذا الرجل استقبلت في الوقت نفسه من قبل اثنين من الموظفين الآخرين، ثم جرت مقارنتها بحيث أصبح وقوع أخطاء أمراً محالاً ما أمكن. في اللحظة نفسها التي خرج فيها الخال وكارل من الباب، اندس متمرن إلى الداخل وخرج وهو يحمل الورقة المكتوبة في هذه الأثناء. في وسط الصالة كان ثمة زحام دائم لناس مسرعين ذهاباً وإياباً. وما من أحد كان يلقي تحية، كان تبادل التحية قد تمّ إلغاؤه، وكل امرئ كان يقفو أثر خطوات السائر أمامه وينظر إلى الأرضية التي كان يريد أن يتقدم عليها بسرعة إن أمكن، أو أنه راح يلتقط بنظراته بعض الكلمات أو الأعداد المفردة من الأوراق التي كان يمسكها في يده وراحت تتطاير لدى سيره المسرع.

«لقد حققتَ الكثير فعلاً»، قال كارل ذات مرة وهو في إحدى هذه الجولات عبر المؤسسة التي كان يتعيّن على المرء أن ينفق أياماً عديدة للتعرف عليها، حتى لو لم يشأ المرء أن يفعل شيئاً سوى أن يشاهد كل قسم من الأقسام مجرد مشاهدة.

«كل شيء أنشأته بنفسي قبل ثلاثين عاماً، عليك أن تعلم. آنذاك كان لديّ في منطقة المرفأ محل صغير، وعندما كان يجري هناك تنزيل خمسة صناديق في اليوم، كان الأمر كثيراً وكنت أذهب إلى البيت متغطرساً. اليوم لديّ ثالث أكبر مستودع في المرفأ وذلك المحل هو غرفة الطعام وحجرة الآلات للمجموعة الخامسة والستين من الحمّالين الذين يعملون لديّ.»

«هذا يقارب السحر»، قال كارل.

«كل التطورات تجري هنا بسرعة»، قال الخال وهو ينهي الحديث.

ذات يوم حضر الخال قبيل وقت الطعام الذي كان كارل يهمّ بتناوله وحده كالعادة وطلب منه أن يرتدي على الفور حلّة غامقة ويأتي معه لتناول الطعام الذي سيشارك فيه صديقان من أصدقاء العمل. في حين راح كارل يغيّر لباسه في الحجرة المجاورة، جلس الخال إلى طاولة المكتب وتفحص وظيفة الإنكليزية، التي كان كارل قد انتهى من كتابتها لتوّه، ضرب بيده على الطاولة وصاح قائلاً: «ممتاز حقا!.» ولا ريب أن ارتداء الملابس تمّ على نحو أفضل حين سمع كارل هذا الإطراء، لكنه كان أيضاً واثقاً حقاً من لغته الإنكليزية.

في غرفة طعام الخال، التي كان لا يزال يتذكرها من المساء الأول لوصوله، نهض للتحية رجلان طويلا القامة بدينان، أحدهما يدعى غرين والثاني بولوندر، كما تبيّن أثناء الحديث على الطاولة. إذ كان من عادة الخال بالكاد أن ينطق كلمة عابرة عن أي من معارفه وكان دائماً يترك لكارل أن يعثر بملاحظته نفسه على الضروري أو الجدير بالاهتمام. بعد أن كان الحديث قد جرى أثناء تناول الطعام عن مسائل عمل شخصية فقط، الأمر الذي شكّل بالنسبة لكارل

درساً طيباً فيما يخص تعابير تجارية، وتركوا كارل ينشغل بطعامه بهدوء وكأنه طفل يتعيّن عليه قبل كل شيء أن يأكل ويشبع كما ينبغي، انحنى السيد غرين نحو كارل وسأل، ساعياً على نحو جليّ أن ينطق إنكليزية واضحة قدر الإمكان، بعامة عن الانطباعات الأمريكية الأولى لكارل. في سكون مطبق وبعدة نظرات جانبية إلى الخال أجاب كارل بتفصيل لا يستهان به، وتعبيراً عن الشكر حاول أن يعطي انطباعاً إيجابياً من خلال طريقة حديث مصبوغة بلهجة نيويوركية. وحتى لدى أحد تعابيره ضحك الثلاثة جميعهم في هرج وخشي كارل أن يكون قد اقترف خطأ كبيراً، لكن لا، حتى إنه قال شيئاً موفقاً للغاية، كما أوضح السيد بولوندر. وبدا هذا السيد بولوندر عموماً معجباً إعجاباً خاصاً بكارل، وفي حين عاد الخال والسيد غرين مرة أخرى إلى أحاديث العمل، دعا السيد بولوندر أن يدفع كارل مقعده نحوه، وسأله أولاً شتّى الأسئلة عن اسمه وأصله وسفرته، ثم تركه أخيراً يستريح ثانية، وراح، وهو يضحك ويسعل، يحدثه على عجل عن نفسه وعن ابنته التي يقيم معها في مزرعة صغيرة على مقربة من نيويورك، لكن حيث لا يستطيع أن يمضي سوى ساعات المساء، إذ إنه صاحب بنك ومهنته تبقيه في نيويورك طوال اليوم. ودُعي كارل في الحال وبكل ودّ للخروج إلى هذه المزرعة، أمريكي طازج مثل كارل لا شك أن لديه حاجة إلى أن يستريح من نيويورك في بعض الأحيان. وعلى الفور طلب كارل إذناً من الخال بأن يسمح له قبول هذه الدعوة، والخال أعطى أيضاً هذا الأذن بسرور على ما يبدو، لكن دون أن يذكر موعداً محدداً أو حتى إن يأخذه في الاعتبار كما كان كارل والسيد بولندر قد توقعا.

لكن في اليوم التالي استدعي كارل إلى أحد مكاتب الخال ـ كان لدى الخال عشرة مكاتب متنوعة في هذا المبنى وحده ـ حيث وجد الخال والسيد بولوندر مسترخيين في المقعدين الوثيرين قلما يجود أحدهما بكلمة إلى حد ما. «السيد بولوندر»، قال الخال الذي كان بالكاد يُتبيّن في غسق المساء، «السيد بولوندر جاء لكي يأخذك معه إلى مزرعته، كما تحدثنا عن الأمر يوم أمس» «لم أكن أعلم أن علي ذلك أن يكون اليوم»، أجاب كارل، «وإلا كنت قد أعددت نفسي.» «إذا لم تكن مستعداً، فإنه من الأفضل ربما أن نؤجل الزيارة إلى وقت قريب عاجل»، قال الخال. «أية استعدادات!» نادى السيد بولوندر، «الشاب يكون دائماً مستعداً.» «ليس لأجله»، قال الخال متوجهاً إلى ضيفه، «لكن لا بدّ له على كل حال من أن يصعد إلى غرفته، ويكون قد جرى تأخيرك» «ثمة أيضاً وقت كثير لذلك»، قال السيد بولوندر، «كما أني كنت قد حسبت حساب تأخير وأنهيت العمل باكراً. «إنك ترى»، قال الخال، «ما تسبب زيارتك من مضايقات منذ الآن.» «يؤسفني»، قال كارل، «لكنني سأعود في الحال»، وأراد أن يقفز ناهضاً. «لا تسرع»، قال السيد بولوندر، «إنك لا تسبب لي أية مضايقات، على العكس من ذلك فإن زيارتك تسرني سروراً خالصاً.» «إنك تفوّت غداً ساعة

الركوب، هل قمت بإلغائها؟» «كلا»، قال كارل، هذه الزيارة التي كان ينتظرها بسرور، بدأت تتحول إلى عبء، «لم أعرف ـ.» «ورغم ذلك تريد أن تسافر؟»، سأل الخالُ. السيد بولوندر، هذا الإنسان اللطيف، قام بالمساعدة. «سوف نتوقف في الطريق لدى مدرسة الركوب وندبر الأمر.» «يمكن الاستماع إلى هذا»، قال الخال. «لكن ماك سوف ينتظرك ولا شك.» «لن ينتظرني»، قال كارل، «لكنه سوف يحضر.» «إذاً»، قال الخال وكأن جواب كارل لم يكن أدنى تبرير. ومرة أخرى قال السيد بولوندر الأمر الحاسم: «لكن كلارا ـ كانت ابنة السيد بولوندر ـ تنتظره أيضاً، ومساء اليوم ولها الأفضلية على ماك؟» «لا ريب»، قال الخال. «إذاً اجرِ إلى غرفتك»، وراح يضرب بيديه كأنما دون إرادة على مسند المقعد. كان كارل لدى الباب حين أوقفه الخال بالسؤال: «من أجل درس الإنكليزية ستكون هنا صباح غد؟» «لكن!»، نادى السيد بولوندر واستدار على قدر ماسمحت بدانته في مقعده من الدهشة. «ألا يجوز له أن يبقى في الخارج يوم غد على الأقل؟ من شأني أن أعيده من ثم بعد غد صباحاً» «لا أستطيع أن أدع دراسته تصاب باضطراب. في ما بعد عندما سيكون في حياة مهنية منتظمة مبدئياً، سوف يطيب لي بكل سرور أن أسمح له بأن يلبّي، حتى لمدة طويلة، مثل هذه الدعوة الودية والمشرّفة» «أية تناقضات هذه!»، فكر كارل. السيد بولوندر أصبح حزيناً. «لكن ما من شيء تقريباً يؤيد حقاً تمضية مساء وليلة فقط.» «هذا كان رأيي أيضاً»، قال الخال. «على المرء أن يأخذ ما يُعطى»، قال السيد بولوندر وضحك مرة أخرى. «إني أنتظر إذاً»، نادى بكارل، الذي انصرف مسرعاً، إذ لم يقل الخال شيئاً. وعندما عاد بعد قليل وهو جاهز للسفر، لم يجد في المكتب سوى السيد بولوندر وكان الخال قد انصرف. صافح السيد بولوندر كارل وهزّ كلتا يديه بسعادة غامرة، وكأنه أراد أن يتأكد بكل قوة ممكنة من أن كارل سيسافرمعه. كان كارل ما زال محموماً من السرعة وهزّ أيضاً من طرفه يدي السيد بولوندر، كان مسروراً من أنه يستطيع أن يقوم بالنزهة. «ألم يتضايق الخال من أني أسافر؟» «لا، أبداً! لم يكن يقصد كل هذا على نحو جدّيّ. إن تنشئتك بالذات هي محل اهتمامه.» «هل قال لك بنفسه أنه لم يكن يقصد على نحو جدّيّ ما كان قد قاله؟» «أوه نعم»، قال السيد بولوندر مادّاً صوته ومدللاً على أنه لم يستطع أن يكذب. «من الغريب كم أعطاني الإذن كارهاً رغم أنك صديقه.» وكذلك السيد بولوندر لم يستطع، رغم أنه لم يعترف بهذا صراحة، أن يجد تفسيراً لذلك، وعندما كانا مسافرين بسيارة السيد بولوندر في المساء الدافئ كان كل منهما يمعن الفكر في ذلك، رغم أنهما كانا يتحدثان عن أمور أخرى.

كانا يجلسان ملتصقين ببعضهما وكان السيد بولوندر يمسك يد كارل بيده وهو يتحدث. كان كارل يريد أن يسمع الكثير عن الآنسة كلارا، وكأنه كان نافد الصبر من السفرة الطويلة ويمكنه بمعونة القصص أن يصل قبل أن يصل في الواقع. ورغم أنه لم يكن قد

سافر عند المساء عبر شوارع نيويورك، ورغم أن الضجيج كان يعلو الشارع والرصيف مغيّراً الاتجاه في كل لحظة كما الحال في عاصفة دوارة لم يحدثها بشر وإنما عنصر غريب، لم يكن كارل يهتم بشيء آخر، وهو يحاول أن يتلقى كلمات السيد بولوندر بدقة، سوى بصديريّ السيد بولوندر الغامق الذي كانت تتعلق به أفقياً سلسلة ذهبية. من الشوارع، حيث كان الجمهور يسير بخطوات طائرة بخوف كبير غير مستتر من التأخير وفي سيارات كانت تقاد بأقصى سرعة ممكنة، متدافعاً إلى المسارح، اجتازا مناطق أطراف ووصلا إلى الضواحي، حيث كان رجال شرطة على صهوات جيادهم يحوّلون عربتهما مرة بعد مرة إلى شوارع جانبية، حيث كانت الشوارع الكبيرة مليئة بعمال الصناعة المعدنية المتظاهرين الذين كانوا في إضراب، حيث لم يكن بالإمكان السماح في مواضع التقاطع سوى لأكثر حركة مرور ضرورة. وعندما كانت العربة تعبر، قادمة من شوارع أكثر عتمة تنبعث منها جلبة عميقة، من ثم أحد هذه الشوارع التي تماثل ميادين كاملة، ثم ظهرت من الجانبين في منظورات، لا يمكن لأحد أن يتابعها حتى النهاية، الأرصفة مزدحمة بجمهور يتحرك بخطوات مهرولة كان غناؤه موحّداً أكثر مما هو صوت بشري واحد. لكن في وسط الشارع المخلى كان المرء يرى بين الفينة والأخرى شرطيّاً على صهوة جواد واقفاً لا يتحرك أو حاملاً أعلاماً أو يافطات مكتوبة مرفوعة فوق الشارع أو زعيماً عمالياً يحيط به أعوان ومنظمون أو عربة ترام كهربائي لم تهرب بسرعة كافية ووقفت الآن فارغة ومظلمة، في حين كان السائق والجابي يجلسان في مكان الوقوف. وكانت مجموعات صغيرة من الفضوليين تقف بعيدة من المتظاهرين الفعليين ولم تغادر أماكنها رغم أنها بقيت غير مطلعة على الأحداث الصحيحة. غير أن كارل ركن مسروراً في الذراع التي كان السيد بولوندر قد أحاطه بها، وقناعته بأنه سيكون قريباً ضيفاً مرحّباً به في منزل ريفيّ مضاء تحيط به أسوار وتحرسه كلاب، أثلجت صدره بما يفوق الحدّ، وإذا كان أيضاً، جرّاء حاجة للنوم بدأت تظهر، لم يعد يفهم بلا خطأ أو على الأقل بلا انقطاع كل ما كان السيد بولوندر يقوله، فإنه راح يستجمع قواه بين الفينة والأخرى ويمسح عينيه كي يعرف لبرهة في ما إذا كان السيد بولوندر قد لاحظ نعاسه، فهذا هو ما أراد تجنبه بأي ثمن.

III

فيلاّ في ريف نيويورك

«لقد وصلنا»، قال السيد بولوندر تماماً في لحظة من لحظات شرود ذهن كارل. وقفت السيارة أمام فيلاّ ريفية كانت، طبقاً لنوع فيلاّت الأغنياء في محيط نيويورك، أكبر وأكثر ارتفاعاً مما هو ضروريّ لفيلاّ ريفية تقطن فيها أسرة واحدة فقط. وإذ لم يكن مضاء من المنزل سوى القسم السفلي، لم يستطع المرء أن يقيس مدى ارتفاعه. في المقدمة كان ثمة أشجار كستناء تحفّ، وبينها ـ كان الباب الحديديّ مفتوحاً ـ كان يمتدّ درب قصير يؤدي إلى الدرج الخارجي للمنزل. من تعبه أثناء نزوله من السيارة ظن كارل أنه لاحظ أن السفرة إنما كانت قد استغرقت مدة طويلة نوعاً ما. في ظلمة شارع الكستناء سمع صوت فتاة إلى جانبه يقول: «هذا هو أخيراً السيد ياكوب.» «أنا أدعى روسمان»، قال كارل وأمسك يداً مدّتها له فتاة تبيّنت له الآن ملامحها. «إنه فقط ابن أخت ياكوب»، قال السيد بولوندر موضحاً، «وهو نفسه يدعى كارل روسمان.» «هذا لا يغيّر شيئاً في سرورنا من أن يكون لدينا هنا»، قالت الفتاة التي كانت لا تهتم كثيراً بأسماء. ورغم ذلك سأل كارل وهو يخطو بين السيد بولوندر والفتاة نحو المنزل. «أنت الآنسة كلارا؟» «نعم»، قالت وهنا سقط ضوء مميز قادم من المنزل على وجهها الذي أمالته نحوه، «لكنني لم أشأ أن أقدم لك نفسي في الظلام هنا.» هل انتظرتنا إذاً لدى الباب؟ فكر كارل، الذي راح يستفيق تدريجياً أثناء المشي. «للمناسبة، لدينا ضيف آخر مساء اليوم»، قالت كلارا. «غير ممكن!» نادى السيد بولوندر متضايقاً. «السيد غرين»، قالت كلارا. «متى حضر؟» سأل كارل وكأنه يحدس. «قبل لحظة. ألم تسمعا سيارته قبل سيارتكما؟» تطلع كارل إلى بولوندر كي يعلم كيف يحكم على الأمر، لكن هذا كان يضع يديه في جيبي بنطاله ويدقّ في سيره الأرض بقدميه بقوة أكثر قليلاً ليس إلا. «لا يفيد الأمر شيئاً أن يسكن المرء على مقربة من نيويورك، لا يسلم من إزعاجات. سوف يتعيّن علينا أن ننقل مقر سكننا بالضرورة إلى أبعد. ولو اضطررت إلى السفر طوال نصف الليل حتى أصل إلى البيت.» ومكثوا واقفين على الدرج الخارجي. «لكن السيد غرين لم يكن هنا منذ مدة طويلة جداً»،

قالت كلارا، التي كانت فيما بدا على وفاق تام مع والدها، لكنها أرادت تهدئته. «لماذا يأتي إذاً مساء اليوم بالذات»، قال بولوندر وتدحرج الكلام بغضب فوق الشفة السفلى الغليظة التي راحت تتحرك بيسر حركات كبيرة كقطعة لحم ثقيلة منفصلة. «حقاً!»، قالت كلارا. «ربما سوف يذهب قريباً»، علّق كارل قائلاً وتعجب بنفسه من التوافق الذي صار يجد نفسه فيه مع هؤلاء الناس الذين كانوا حتى يوم أمس غرباء عليه كل الغربة. «أوه كلا»، قالت كلارا، «لديه صفقة كبيرة ما لبابا سيطول الحديث عنها مدة طويلة على الأرجح، فقد هددني مازحاً بأنه يتعيّن عليّ، إذا كنت أريد أن أكون مضيفة مهذبة، أن أصغي حتى الصباح.» «إذاً هذا أيضاً، هذا يعني أن يقضي ليلته هنا»، نادى بولوندر وكأنه تمّ الوصول بهذا أخيراً إلى الأسوأ. «لديّ رغبة حقاً»، قال وقد أصبح أكثر ودّاً من خلال الفكرة الجديدة، «لديّ رغبة حقاً، أيها السيد روسمان، في أن آخذك مرة ثانية إلى السيارة وأعيدك إلى خالك. لقد تعكّر مساء اليوم منذ البداية ومن يدري متى يتركك السيد خالك لنا في القريب العاجل. لكن إذا قمت بإعادتك اليوم، فلن يستطيع أن يحرمنا منك في القريب العاجل.» وأمسك يد كارل لكي ينفذ خطته. غير أن كارل لم يتحرك، ورجت كلارا أن يبقيه هنا، إذ على الأقل هي وكارل لا يمكن أن ينزعجا من السيد غرين أقل إنزعاج، وأخيراً لاحظ بولوندر أيضاً أن حتى قراره نفسه لم يكن القرار الأكثر رسوخاً. وعلاوة على ذلك ـ وربما كان هذا هو الأمر الحاسم ـ سمع المرء فجأة السيد غرين وهو ينادي من أعلى الدرج في الحديقة: «أين أنتم إذاً؟» «تعالا»، قال بولوندر وانعطف إلى الدرج الخارجي. ومشى وراءه كارل وكلارا اللذان راحا الآن يدرسان بعضهما بعضاً في الضوء. «الشفتان الحمراوان اللتان لها»، قال كارل لنفسه وفكر بشفتي السيد بولوندر وكيف تحولا في الابنة على نحو جميل. «بعد طعام العشاء»، هكذا قالت، «سوف نذهب إلى حجرتي على الفور إذا كان هذا يناسبك، لكي نتخلص على الأقل من هذا السيد غرين، عندما يتعيّن على بابا أن ينشغل به، ومن ثم سوف تكون ودوداً وتعزف لي على البيانو، إذ إن بابا روى كم تتقن ذلك، أما أنا فإني عاجزة كلياً مع الأسف عن العزف ولا أمسّ البيانو رغم أنني في الحقيقة أحب الموسيقى جداً.» كان كارل موافقاً كلياً على اقتراح كلارا، مع أنه كان يريد أن يسحب برغبة السيد بولوندر أيضا إلى مصاحبتهما. لكن أمام هيئة غرين الضخمة ـ كان كارل قد تعوّد على ضخامة بولوندر ـ التي راحت تنمو ببطء أمامهما وهما يصعدان الدرج، زال كل أمل بانتزاع السيد بولوندر من هذا الرجل مساء هذا اليوم.

استقبلهما السيد غرين في عجلة كبيرة وكأنه يتعين استدراك أمور كثيرة، أمسك ذراع السيد بولوندر ودفع كارل وكلارا أمامه إلى غرفة الطعام، حيث بدا الجو احتفالياً جداً، لا سيما بوجود الزهور على الطاولة، هذه الزهور التي كانت تنتصب نصف انتصابة بين شرائط أوراق نضرة، والذي دعا حضور السيد المزعج غرين يثير الأسف على نحو مضاعف. كان

كارل، الذي ينتظر لدى الطاولة حتى أخذ الآخرون أماكنهم، قد فرح لتوّه كون الباب الزجاجي الكبير المؤدي إلى الحديقة سيبقى مفتوحاً، إذ إن عبيراً قوياً كان يسري إلى الداخل كأنه ينتشر في عريشة، قام السيد غرين في هذه اللحظة، وهو يلهث، بإغلاق هذا الباب الزجاجي، انحنى نحو المزلاج الأسفل وشبّ نحو الأعلى وكل شيء بسرعة شاب، بحيث إن الخادم الذي دخل بسرعة لم يعد يجد شيئاً يفعله. وكانت الكلمات الأولى للسيد غرين أثناء تناول الطعام تعابير عن دهشته من أن كارل قد حصل على إذن الخال للقيام بهذه الزيارة. وهو يرفع ملعقة حساء بعد الأخرى إلى فمه راح يشرح لكلارا يميناً وللسيد بولوندر يساراً لماذا يعجب هكذا وكيف يرعى الخال كارل وكيف أن حب الخال لكارل هو أكبر من أن يمكن للمرء أن يسميه حب خال. «لا يكفيه أن يتدخل هنا بغير موجب، يروح يتدخل في الوقت نفسه بيني وبين الخال»، فكر كارل في ذات نفسه ولم يقدر أن يبلع جرعة من الحساء بلون الذهب. غير أنه من ثم لم يشأ أن يُلاحظ عليه كم يشعر بأنه قد تمّ إزعاجه، وراح يتجرّع الحساء وهو يلوذ بالصمت. ومضى الطعام مثل بلاء. فقط السيد غرين بالإضافة إلى كلارا على الأكثر كانا حيويين ويجدان أحيانا سانحة مناسبة لضحكة قصيرة. ولم يدخل السيد بولوندر في الحديث سوى مرات قليلة عندما كان السيد غرين يبدأ الحديث عن أعمال. لكنه سرعان ما انسحب من مثل هذه الأحاديث، وكان على السيد غرين أن يفاجئه بعد بعض الوقت بهذا الحديث وعلى نحو غير متوقع مرة أخرى. للمناسبة، كان يقيم وزناً ـ وهنا لفتت كلارا انتباه كارل، الذي كان يرهف أذنيه كأن ثمة خطراً محدقا، إلى أن اللحم المقلي أمامه وأنه على طعام عشاء ـ على أنه منذ البداية لم يكن ينوي أن يقوم بهذه الزيارة غير المتوقعة. إذ حتى لو كان الشأن الذي ما زال سيجري الحديث عنه ملحّاً على نحو خاص، فإنه كان بالإمكان أن يُبحث الأمر المهم فيه في المدينة اليوم وأن يتم تأجيل الثانوي إلى يوم غد أو لاحقاً. وهكذا كان فعلاً لدى السيد بولوندر مدة طويلة قبل انتهاء العمل، لكنه لم يجده، وهكذا كان مرغماً على أن يخابر إلى البيت ويقول إنه سيغيب هذه الليلة، وعلى أن يسافر إلى هنا. «في هذه الحالة يتعين عليّ أن أرجو المعذرة»، قال كارل بصوت عال وقبل أن يكن لدى أحدهم وقت للرد، «فأنا السبب في أن السيد بولوندر إنما قد غادر عمله اليوم قبل الأوان، والأمر يؤسفني كل الأسف.» غطى السيد بولوندر القسم الأكبر من وجهه بالمنشفة، في حين أن كلارا ابتسمت لكارل، صحيح، لكنها لم تكن ابتسامة تنمّ عن مشاركة، وإنما ابتسامة ترمي إلى أن تؤثر فيه بطريقة ما. «لا يحتاج الأمر إلى اعتذار»، قال السيد غرين الذي كان في هذه اللحظة يقطّع حمامة تقطيعاً حاداً، «على العكس تماماً، يسرني أن أمضي الأمسية في صحبة مريحة كهذه، بدلاً من تناول طعام العشاء وحدي في البيت، حيث تخدمني مدبرة منزلي العجوز إلى درجة أن الطريق من الباب إلى طاولتي يصعب عليها وأنا أستطيع أن أتكئ بظهري في مقعدي المريح إذا كنت أريد أن أراقبها على هذا الطريق. فقط مؤخراً فرضت أن

يُحضر الخادم الأطعمة حتى باب غرفة الطعام، لكن الطريق من الباب إلى طاولتي هو لها، بقدر ما أفهمها.» «يا إلهي»، نادت كلارا، «إن هذا لوفاء!» «نعم ما زال يوجد وفاء في العالم»، قال السيد غرين ووضع لقمة في فمه حيث، كما لاحظ كارل بالمصادفة، أمسكها اللسان بحركة دائرية. كادت نفس كارل تغثو فنهض. في وقت واحد تقريباً مدّ السيد بولوندر وكلارا أيديهما نحو يديه. «عليك أن تظل جالساً»، قالت كلارا. وإذ عاد إلى الجلوس، همست له: «سوف نختفي معاً قريباً. تحلّ بالصبر.» في هذه الأثناء كان السيد غرين يشغل نفسه بطعامه بهدوء، كأن المهمة الطبيعية للسيد بولوندر ولكلارا أن يهدئا كارل إذا كان هو قد سبّب له غثيانات.

امتد الطعام لا سيما بسبب الدقة التي كان السيد غرين يعامل بها كل صحن، وإن كان مستعداً دائماً أن يستقبل كل صحن جديد دون كلال، فإن الأمر بدا فعلاً وكأنه يريد أن يرتاح من مدبرة منزله العجوز. بين الفينة والأخرى كان يطري على فن الآنسة كلارا في إدارة شؤون المنزل، الأمر الذي جاملها على نحو جليّ، في حين كان كارل يحاول أن يصدّه وكأنه يهاجمها. غير أن السيد غرين حتى لم يكتفِ بها، بل أبدى أسفه أكثر من مرة، دون أن يرفع نظره عن الصحن، على فقدان كارل للشهية اللافت للنظر. ودافع السيد بولوندر عن شهية كارل، رغم أنه كان عليه بصفته مضيفاً أن يشجع كارل على الطعام. وفعلاً كان كارل يحس نفسه، تحت الإلزام الذي كان يعانيه طوال العشاء كله، حساساً هكذا بحيث إنه، على عكس رأيه الأفضل، فسر تعبير السيد بولوندر على أنه خشونة. وهكذا توافق مع حالته هذه فقط أنه أكل مرة بسرعة لا تناسب بتاتاً وأكل كمية كبيرة ثم ترك متعباً الشوكة والسكين مرة أخرى لمدة طويلة وكان الأقل حركة بين الآخرين، والذي غالباً لم يعرف الخادم، الذي كان يقدم الأطعمة، ماذا يعمل له.

«سوف أروي غداً للسيد السناتور كيف كدّرتَ الآنسة كلارا بعدم تناولك الطعام»، قال السيد غرين واقتصر على التعبير عن المرمى المازح لهذه الكلمات بالطريقة التي لعّب بها الشوكة والسكين. «انظر فقط إلى الفتاة، كم هي حزينة»، تابع قائلاً وأمسك بذقن كلارا من الأسفل. قبلتْ ذلك وأغلقت عينيها. «أيتها الفتاة»، نادى وهو يتكئ بظهره إلى الوراء وضحك وقد احمرّ وجهه احمراراً فاقعاً بقوة المتخم. وعبثاً حاول كارل أن يفسر تصرف السيد بولوندر. كان يجلس أمام صحنه وينظر إليه وكأن المهم حقاً إنما يحدث فيه. لم يسحب مقعد كارل ويقرّبه إليه، وعندما كان يتحدث ذات مرة، كان يتحدث إلى الجميع، لكن لم يكن لديه شيء مخصوص يتحدث به إلى كارل. على العكس من ذلك، احتمل أن غرين، هذا العازب كبير السن النيويوركي المجرب، لمس كلارا بقصد واضح، وأنه أهان كارل، ضيف بولوندر، أو على الأقل عامله كطفل ومن يدري إلى أية أفعال أنعش نفسه وتقدم.

بعد رفع المائدة ـ عندما لاحظ غرين المزاج العام، كان أول من نهض وإلى حد ما رفع معه الجميع ـ ذهب كارل على انفراد إلى إحدى النوافذ الكبيرة المقسّمة بكنارات رفيعة بيضاء، التي تؤدي إلى الشرفة، هذه النوافذ التي هي في الحقيقة، كما لاحظ لدى اقترابه منها، أنها أبواب حقيقية. ماذا تبقّى من النفور الذي كان يشعر به السيد بولوندر وابنته إزاء غرين في البداية، هذا النفور الذي كان قد بدا لكارل آنذاك غير مفهوم بعض الشيء. والآن كانا يقفان مع غرين ويومئان لكارل برأسيهما. والدخان المنبعث من سيجار السيد غرين، هدية من بولوندر، الذي كان من تلك الضخامة التي اعتاد الوالد في البيت أن يحكي عنها بين الحين والآخر كحقيقة لم يكن على الأرجح أن رآها بعينيه قط، هذا الدخان انتشر في القاعة وحمل أثر غرين أيضاً إلى زوايا وأركان ليس من شأنه أن يدخل إليها شخصياً قط. ورغم أن كارل كان يقف بعيداً، فإنه أحس من الدخان حكة خفيفة في الأنف وسلوك السيد غرين، الذي لم ينظر إليه انطلاقاً من مكانه سوى مرة واحدة وبسرعة، بدا له سلوكاً خبيثاً. والآن بات يعتبر أنه ليس من غير الممكن أن الخال لم يمانع طويلاً في إعطائه إذناً للقيام بهذه الزيارة سوى لأنه كان يعرف الخلق الضعيف للسيد بولوندر وبالتالي كان يرى إساءة لكارل، وحتى لو لم يكن يتوقعها تماماً، إنما هي في مجال الممكن. وكذلك الفتاة الأمريكية لم تعجبه، رغم أنه لم يكن قد تصورها مثلاً أكثر جمالاً بكثير. منذ أن بدأ السيد غرين يهتم بها، فوجئ بالجمال الذي كان وجهها قادراً على أن يتحلى به، وخاصة ببريق عينيها المتحركتين على نحو زائد. جونلة من شأنها أن تلف جسدها بهذا الإحكام لم يكن قد رأى قط، ثنيات صغيرة في القماش المائل للصفرة الناعم والمتين بيّنت قوة التوتر. ورغم ذلك لم يهمه أمرها في شيء وكان من شأنه أن يستغني عن طيب خاطر عن أن يؤخذ إلى غرفتها، لو كان بدلاً من ذلك يجوز له أن يفتح الباب الذي كان قد وضع يده على قبضته لكل حالة، أن يصعد إلى السيارة أو إذا كان السائق قد نام أن يسير متنزهاً وحده إلى نيويورك. كان الليل الصافي مع القمر البدر المائل إليه يخص كل امرئ، وأن يشعر ربما بخوف في الخارج في الهواء الطلق بدا له غير ذي جدوى. وتصور ـ وهو يشعر لأول مرة براحة في هذه القاعة ـ كيف أراد أن يفاجئ الخال في الصباح، حيث لن يصل قبل ذلك سيراً على الأقدام. صحيح أنه لم يكن في أية مرة من المرات في غرفة نومه، حتى إنه لا يعرف أين تقع، غير أنه كان يريد أن يسأل عنها. ثم أراد أن يطرق الباب ويجري إلى داخل الغرفة بناء على كلمة «ادخل!» الرسمية ويفاجئ الخال العزيز، الذي لا يعرفه حتى الآن إلا مرتدياً ثيابه كاملة ومزرّرة، يفاجئه منتصباً في الفراش في ملابس النوم موجهاً نظراته مندهشاً نحو الباب. ربما لم يكن هذا بحد ذاته شيئاً كثيراً، لكن لابد للمرء من أن يتصور ماذا يمكن أن يترتب على هذا من نتائج! ربما يكون من شأنه أن يتناول طعام الفطور مع خاله لأول مرة، الخال في الفراش، هو على كرسي، وطعام الفطور على طاولة صغيرة بينهما، وربما يصبح هذا الفطور المشترك شيئاً دائماً، ونتيجة لهذا النوع من الفطور، ربما يلتقيان، الأمر الذي حتى

لا يكاد يُتجنب، أكثر مما كانا يلتقيان حتى الآن مجرد مرة واحدة خلال اليوم، ويصبح في مقدورهما أن يتحادثا طبعاً بصراحة أكثر أيضاً. إن غياب هذه المحادثة الصريحة هو وحده السبب في أنه كان اليوم غير مطيع بعض الشيء إزاء الخال أو معانداً بتعبير أفضل. وإذا ما اضطر اليوم إلى تمضية الليلة هنا ـ هذا ما كان يبدو عليه الأمر كلياً مع الأسف، رغم أنهم تركوه واقفاً عند النافذة يتكفل بنفسه على مسؤوليته الخاصة ـ ربما تصبح هذه الزيارة غير الموفقة نقطة التحول نحو الأفضل في العلاقة مع الخال، وربما كانت تخالج الخال أفكار مماثلة وهو في غرفة نومه مساء اليوم.

استدار متعزياً بعض الشيء. كانت كلارا تقف أمامه وقالت: «ألا يعجبك الأمر لدينا أبداً؟ ألا تريد أن تشعر هنا قليلاً أنك في بيتك؟ تعال، أريد أن أقوم بآخر محاولة.» قادته عبر القاعة بالعرض إلى الباب. إلى طاولة جانبية كان السيدان يجلسان وأمامهما كأسان طويلان مليئان بمشروبات ذات رغوة خفيفة لم يكن كارل يعرفها وكان من شأنه أن تكون لديه رغبة في تذوقها. كان السيد غرين يستند بمرفقيه على الطاولة ويقرّب وجهه بالكامل من السيد بولوندر أقرب ما يمكن، وكان من شأن المرء لو كان لا يعرف السيد بولوندر أن يستطيع الافتراض كل الافتراض أن الحديث إنما يجري هنا عن أمر إجرامي وليس عن أعمال. في حين راح السيد بولوندر يتابع كارل إلى الباب بنظرة ودية، فإن السيد غرين، رغم أن المرء معتاد على أن يتابع نظرات الشخص المقابل له من غير عمد، لم يلتفت أقل التفاتة نحو كارل، الذي بدا له في هذا السلوك التعبير عن نوع من القناعة لدى غرين أنه على كل منهما أن يحاول أن يدبر أموره هنا بقدراته، إن الاتصال الاجتماعي الضروري بينهما سوف ينشأ مع الزمن من خلال انتصار أحد الاثنين أو هلاكه. «إذا كان يعني هذا»، قال كارل في ذات نفسه، «فإنه مجنون. حقاً أنا لا أريد شيئاً منه وعليه هو أيضاً أن يتركني وشأني.» وما كاد يدخل إلى الممر حتى خطر له أنه إنما قد تصرف على الأرجح تصرفاً غير مهذب، إذ إنه كان بنظراته التي حدج بها غرين قد ترك كلارا تسحبه من الغرفة. والآن سار إلى جانبها وهو أكثر انقياداً. في الطريق عبر الممرات لم يصدق عينيه في بادئ الأمر عندما كان يرى كل عشرين خطوة خادماً بملابس خدم رسمية يقف حاملاً شمعداناً ذا ساق ضخمة يطوقها ذاك بكلتا يديه. «الخط الكهربائي الجديد لم يدخل حتى الآن سوى إلى حجرة الطعام»، شرحتْ كلارا. «لقد ابتعنا هذا المنزل قبل مدة وجيزة وأعدنا بناءه كلياً بقدر ما يمكن إعادة بناء منزل قديم بطراز بنائه المميز.» «في أمريكا أيضاً بيوت قديمة إذاً»، قال كارل. «طبعاً»، قالت كلارا ضاحكة وسحبته. «لديك مفاهيم غريبة عن أمريكا.» «لا تضحكي عليّ»، قال ممتعضاً. إنه ليعرف أوروبا وأمريكا، أما هي فإنها لاتعرف سوى أمريكا.

وهما سائران فتحت بيد ممدودة قليلاً باباً وقالت دون أن تتوقف: «هنا سوف تنام.» أراد

كارل طبعاً أن يرى الغرفة في الحال، لكن كلارا شرحت نافدة الصبر وصارخة تقريباً أن ثمة وقت ولا ريب وليس عليه سوى مرافقتها. وسحبا بعضهما بعضاً في الممر قليلاً من جهة إلى أخرى، وفي النهاية رأى كارل أنه لا ينبغي عليه أن يتبع كلارا في كل شيء، انتزع نفسه ودخل إلى الغرفة. عتمة مفاجئة تبيّن سببها في قمة شجرة كانت تتمايل هناك بكاملها. كانت تُسمع زقزقة عصافير. لكن في الغرفة نفسها التي لم يكن ضوء القمر قد وصل إليها بعد، لم يكن بالإمكان تمييز أي شيء تقريباً. وأسف كارل على أنه لم يجلب معه مصباح الجيب الكهربائي الذي كان قد حصل عليه هدية من الخال. في هذا المنزل لا يُستغنى عن مصباح جيب، لو كان لدى المرء بضعة مصابيح، كان من الممكن إرسال الخدم إلى النوم. جلس على حافة النافذة وراح ينظر ويستمع نحو الخارج. وبدا عصفور جرى إفزاعه يحاول الدخول بين أوراق الشجرة الشائخة. تناهى صوت صفارة قطار ضواحي نيويوركي في مكان ما من الإقليم. ما عدا ذلك كان ثمة هدوء يسود.

لكن ليس طويلاً، فقد دخلت كلارا مسرعة. مستاءة على نحو جليّ نادت: «ما هذا إذاً؟» وصفقت على جونلتها. أراد كارل أن يجيبها فقط بعد أن تكون أكثر تهذيباً. غير أنها تقدمت إليه بخطوات كبيرة ونادت: «هل تريد إذاً أن تأتي معي أم لا؟» وصدمته في صدره عمداً أو انفعالاً وحسب، صدمته بقوة إلى درجة أنه كان من شأنه أن يسقط من النافذة لو لم يمس في اللحظة الأخيرة أرضية الغرفة بقدميه وهو ينزلق من حافة النافذة. «كدت أسقط الآن»، قال معاتباً. «خسارة أن هذا لم يحدث. لماذا أنت غير مؤدب هكذا. سأرميك مرة أخرى إلى تحت.» وفعلاً احتضنته وحملته، هو المندهش الذي نسي أن يثقل نفسه، بجسمها القوي من الرياضة حتى النافذة تقريباً. لكنه هناك عاد إلى نفسه، انتزع نفسه بحركة من ردفيه واحتضنها هو الآن. «آخ، إنك تؤلمني»، قالت على الفور. لكنها ظنت الآن أنه لا يجوز لها أن تترك كارل بعد الآن. صحيح أنه ترك لها حرية أن تقوم بخطوات كما يطيب لها، لكنه لحق بها ولم يتركها. كما أنه كان من اليسير احتضانها وهي في لباسها الضيق. «اتركني»، همست قائلة ووجهها المنفعل يلاصق وجهه، حتى إنه كان عليه أن يجهد نفسه كي يراها، هكذا كانت قريبة منه، «اتركني، سوف أعطيك شيئاً جميلاً.» «لماذا تتنهد هكذا»، فكر كارل، «لا يمكن للأمر أن يؤلمها، إني لا أضغط عليها»، ولم يتركها بعد. لكن على حين غرة، بعد لحظة من وقوف غافل صامت أحس مرة أخرى قوتها المتنامية على جسده، انتزعت نفسها منه، أمسكت به من أعلى مسكة قوية استفادت منها استفادة تامة، ردّت ساقيه بأوضاع قدمين من تقنية قتال غريبة ودفعته أمامها إلى الجدار وهي تتنفس بعمق بانتظام عظيم. لكن هناك كان ثمة أريكة وضعت عليها كارل وقالت، دون أن تنحني إليه كثيراً: «الآن تحرك إذا استطعت.» «قطة، قطة مسعورة»، استطاع كارل أن يقول وهو في بلبلة بين الغضب والخجل. «إنك

مجنونة، أيتها القطة المسعورة.» «انتبه إلى كلماتك»، قالت وتركت يدها تنزلق إلى رقبته وشرعت في خنقها بقوة إلى درجة أن كارل كان عاجزاً كلياً عن أن يفعل شيئاً آخر سوى أن يلتقط أنفاسه اللاهثة، في حين وضعت يدها الأخرى على وجنته ولمستها كأنها تفعل ذلك على سبيل التجربة، ثم سحبتها بعيداً في الهواء وكان يمكنها في كل لحظة أن تنزل بصفعة. «كيف يكون الحال»، سألتْ لدى ذلك، «إذا أردتُ أن أرسلك إلى البيت بصفعة شديدة عقاباً على سلوكك إزاء سيدة. قد يكون هذا مفيداً لك في طريق حياتك المقبل، وإن لم يكن من شأنه أيضاً أن يترك ذكرى جميلة. إنك لتبعث الأسف وأنت فتى جميل إلى حد ما ولو كنت قد تعلمت المصارعة اليابانية، كنت خليقاً أن توسعني ضرباً. رغم ذلك، رغم ذلك - إنه ليغريني بالذات كل الإغراء أن أصفعك وأنت تستلقي هنا. سوف أندم على ذلك على الأرجح، لكنني إذا صفعتك، فاعلم منذ الآن أنني سوف أفعل ذلك خلاف رغبتي تقريباً. وطبعاً لن أكتفي بصفعة واحدة، وإنما سوف أضرب يميناً ويساراً، حتى يتورّم خدّاك. وربما تكون رجلاً شريفاً - أودّ أن أعتقد ذلك تقريباً - ولا تعود تريد مع الصفعات أن تستمر في العيش وتُخرج نفسك من العالم. لكن لماذا كنت أيضاً هكذا ضدي. ألا أعجبك؟ أليس من المجدي أن تأتي إلى غرفتي؟ حذار! الآن كدت أصفعك تقريباً من حيث لا تدري. إذا تيسر لك اليوم إذاً أن تُغرب، فعليك أن تتصرف بتهذيب أكثرفي المرة القادمة. أنا لست خالك الذي تستطيع أن تتحداه. للمناسبة، أريد أيضاً أن ألفت انتباهك أنه لا ينبغي عليك أن تظن، إذا تركتك دون أن أصفعك، أن وضعك الحالي والصفع الحقيقي هما الشيء نفسه من وجهة نظر الشرف، وإذا أردت أن تظن ذلك، فسوف يكون من شأني أن أوثر أن أصفعك حقاً. ماذا سيقول ماك عندما أحكي له كل هذا.» لدى ذكر ماك تركت كارل، في أفكاره المشوشة بدا له ماك مثل مخلّص. كان ما زال لبرهة يحس يد كلارا على رقبته، لذا استدار قليلاً ثم مكث راقداً بهدوء.

طلبت منه أن ينهض، لم يجب ولم يحرك ساكناً. أشعلت شمعة في مكان ما، وتلقت الغرفة ضوءاً، وظهر نقش تعاريج على السقف، لكن كارل كان يرقد ورأسه على وسادة الأريكة كما كانت كلارا قد وسّدته ولم يحرك رأسه قيد أنملة. وجالت كلارا في الغرفة، وحفّت جونلتها حول ساقيها، وعلى الأرجح لدى النافذة وقفت مدة طويلة. «هل انتهيت من الحَرَد؟»، سُمعت تقول من ثم. وأحس كارل الأمر صعباً أنه لا يستطيع أن يحصل على هدوء في هذه الغرفة التي خصصها له السيد بولوندر لهذه الليلة. كانت هذه الفتاة تتجول، تقف وتتحدث، لقد سئمها على نحو لا يمكن التعبير عنه. نوم بسرعة وانصراف من هنا كانت رغبته الوحيدة. لم يعد يريد الذهاب إلى الفراش، وإنما البقاء فقط هنا على الأريكة. وراح يترقب أن تنصرف فحسب، لكي يقفز وراءها إلى الباب ويقفله ويعود يلقي نفسه من ثم على

الأريكة. كان يستشعر حاجة ماسّة إلى أن يتمطى ويتثاءب، لكنه لم يشأ ان يفعل هذا أمام كلارا. وهكذا ظل راقداً وراح يحدق إلى أعلى وأحس أن وجهه يصبح دائماً أكثر جموداً، وراحت ذبابة تحوم حوله وتومض أمام عينيه دون أن يعرف ماذا كانت.

اقتربت منه كلارا مرة أخرى، انحنت في اتجاه نظراته ولو لم يملك زمام نفسه لاضطر إلى النظر إليها. «أنا ذاهبة الآن»، قالت، «ربما يصبح لديك فيما بعد رغبة في أن تأتي إليّ. باب غرفتي هو الرابع اعتباراً من هذا الباب، على هذا الجانب من الممر. تمرّ إذاً على ثلاثة أبواب أخرى، والباب الذي تصل إليه بعد ذلك هو الباب الصحيح. لن أنزل إلى القاعة بعد الآن، وإنما سأبقى في غرفتي. لكنك أيضاً أتعبتني جدا. لن أنتظرك عمداً، لكن إذا أردت أن تأتي فتعال. تذكر أنك وعدت أن تعزف لي على البيانو. لكن ربما أكون قد حطمت أعصابك ولم تعد تستطيع الحراك، في هذه الحالة ابقَ وعليك أن تنال قسطاً كافياً من النوم. للوالد لن أقول حالياً كلمة عن عراكنا؛ أقول هذا إذا كان من شأنه أن يثير قلقك.» بعد ذلك جرت من الغرفة بقفزتين رغم تعبها المزعوم.

على الفور جلس كارل منتصباً، لقد كان هذا الاضطجاع أمراً لا يطاق. ولكي يقوم بحركة بعض الشيء، ذهب إلى الباب وتطلع إلى الممر. لكن يا لها من عتمة! وانشرح صدره إذ أغلق الباب بالمفتاح ووقف إلى طاولته في ضوء الشمعة. وكان قراره هو أن لا يبقى في هذا المنزل أكثر من ذلك، بل أن يذهب إلى السيد بولوندر ويقول له بصراحة كيف عاملته كلارا ـ الاعتراف بهزيمته لم يكن يهمه قط ـ وبهذا التعليل الكافي جداً يرجوه السماح له بالسفر أو بالذهاب إلى البيت. وإذا كان لدى السيد بولوندر ما يعترض به على هذه العودة الفورية، فإن كارل أراد أن يرجوه على الأقل أن يدع خادماً يأخذه إلى أقرب فندق. صحيح أن المرء لا يتعامل عادة مع مضيفين ودّيين بهذه الطريقة التي خططها كارل، غير أنه من النادر أكثر أن يتعامل المرء مع ضيف كما فعلت كلارا. بل حتى إنها اعتبرت وعدها بأن لا تقول حالياً للسيد بولوندر شيئاً عن العراك كرماً منها، لكن هذا كان أمراً فاضحاً. نعم، كان كارل إذاً قد دعي إلى مصارعة، وقد كان من المخجل بالنسبة له أن تطرحه أرضاً فتاة أمضت على الأرجح القسم الأكبر من حياتها في تعلم خدع المصارعة. وفي النهاية تلقت دروساً حتى من ماك. فلتقل له كل شيء، يقيناً كان حكيماً، كان كارل يعرف هذا، مع أنه لم تتح له أية فرصة أن يعلم الأمر بالتفصيل. غير أن كارل كان يعرف أيضاً أنه كان خليقاً أن يحرز تقدماً أكبر بكثير من كلارا فيما لو كان من شأن ماك أن يعلّمه؛ من ثم كان من شأن كارل أن يأتي إلى هنا ذات يوم، على الأرجح دون دعوة، وطبعاً يفحص أولاً المكان، الذي كانت معرفته الدقيقة ميزة كبرى لكلارا، يمسك هذه الكلارا نفسها وينفض معها الأريكة ذاتها التي كانت قد طرحته عليها اليوم.

الآن لم يعد الأمر يتعلق إلا بالعثور على الطريق المؤدي إلى القاعة، حيث كان على الأرجح في الارتباك الأول قد وضع أيضاً قبعته في مكان غير مناسب. وطبعاً أراد أن يأخذ الشمعة معه، لكن لم يكن من السهل إيجاد الطريق حتى في الضوء. لم يكن يعرف مثلاً حتى فيما إذا كانت هذه الغرفة في الطابق نفسه الذي تقع فيه القاعة. كانت كلارا في الطريق إلى هنا تسحبه دائماً بحيث لم يكن في مقدوره أن يجول بناظريه فيما حوله، كما أنه كان يفكر بالسيد غرين والخدم الحاملين الشمعدانات، وبإيجاز، لم يكن يعرف الآن فعلاً حتى فيما إذا كانا قد اجتازا درجاً مرة أم مرتين أوربما لم يجتازا درجاً قط. من المنظر يُستنتج أن الغرفة تقع في طابق عال نوعاً ما، لذا حاول أن يتصور أنهما كانا قد جاءا عبر درج، لكن للوصول إلى مدخل المنزل كان يتوجب صعود درج، لماذا كان لا يمكن لهذا الجانب أيضاً من المنزل أن يكون عالياً. لكن لو كان يمكن على الأقل رؤية شعاع ضوء ينبعث من أحد الأبواب في مكان ما على الممر أو سماع صوت آت من بعيد مهما كان خافتاً.

كانت ساعة جيبه، هدية الخال، تشير إلى الحادية عشرة، تناول الشمعة وخرج إلى الممر. وترك الباب مفتوحاً لكي يستطيع العثور على غرفته مرة أخرى في حال يكون بحثه بلا طائل وبعد ذلك العثور على باب كلارا في الحالة الضرورية القصوى. وللتأكد لكي لا يغلق الباب من ذاته، سدّه بكرسي. في الممر تبيّن وجود عائق سيء، هو أن تيار هواء هبّ على كارل - الذي اتجه طبعاً مبتعداً عن باب كلارا نحو اليسار - صحيح أنه كان تياراً ضعيفاً جداً، لكن كان خليقاً به على كل حال أن يطفئ الشمعة بيسر، بحيث توجب على كارل أن يحمي الشعلة بيده ويتوقف بالإضافة إلى ذلك مرات عديدة، حتى تعود الشعلة الذاوية إلى حالها. كان تقدماً بطيئاً والطريق بدا بهذا طويلاً على نحو مضاعف. مشى كارل مسافات كبيرة بحذاء جدران بلا أبواب أبداً، ولم يكن في مقدور المرء أن يتصور ماذا كان وراء ذلك. ثم جاء باب إلى جانب باب، وحاول أن يفتح عدة أبواب، كانت مغلقة والغرف غير مسكونة على ما يبدو. كان تبذيراً في الغرف لا نظير له، وفكر كارل بالمساكن في شرق نيويورك، التي كان الخال قد وعده بأن يريه إياها، حيث تقطن عدة أسر في غرفة صغيرة كما يقال ويقوم بيت الأسرة في زاوية غرفة يتجمع فيها الأطفال حول والديهم. وهنا كان ثمة غرف كثيرة خالية، وليست سوى لكي تطن جوفاء عندما يقرع المرء الباب. وبدا لكارل أن السيد بولوندر مغرّر به من قبل أصدقاء غير مخلصين وأن ولعه بابنته قد أفسده. لا ريب أن الخال قد حكم عليه حكماً سديداً، ومبدأه بأن لا يمارس نفوذاً على كارل كان وحده ذنب هذه الزيارة وهذا التجوال في الممرات. وكان كارل يريد غداً أن يقول هذا للخال في سهولة ويسر، إذ إن الخال خليق، طبقاً لمبدئه، أن يستمع بسرور وهدوء أيضاً إلى حكم ابن الأخت عليه. زد على ذلك أن هذا المبدأ كان ربما الأمر الوحيد الذي لم يعجب كارل لدى خاله وحتى عدم الإعجاب هذا لم يكن أمراً مطلقاً.

على حين غرّة انتهى الجدار على أحد جانبي الممر وبرز مكانه درابزين رخاميّ بارد كالثلج. وضع كارل الشمعة إلى جانبه وانحنى بحذر نحو الأسفل. فراغ معتم هبّ نحوه. إذا كانت هذه هي قاعة المنزل الرئيسية - في ضوء الشمعة الشاحب بدت قطعة سقف مقوّس - فلماذا لم يدخل المرء عبر هذه القاعة؟ ماذا كان الغرض من هذا الفضاء الكبير العميق؟ إن المرء كان ليقف هنا في الأعلى مثلما يقف على رواق كنيسة. وكاد كارل يأسف أنه لا يستطيع البقاء في هذا المنزل حتى الغد، كان خليقاً أن يدع بسرور السيد بولوندر يقوده في ضوء النهار في كل مكان ويشرح له كل شيء.

لم يكن الدرابزين طويلاً وبعد قليل استقبل ممر مغلق كارل مرة أخرى. ولدى انعطافة مفاجئة للممر اصطدم كارل بالجدار بكل قوة، والعناية المتواصلة وحدها التي أمسك بها الشمعة بشدة حماها من السقوط والانطفاء. وإذ لم يشأ الممر أن يأخذ نهاية له، ولم يكن ثمة نافذة تتيح إلقاء نظرة إلى الخارج، ولم يكن يتحرك شيء لا في العلوّ ولا في العمق، فكر كارل أنه إنما يدور على الدوام في الممر الدائري نفسه وراح يأمل بأن يعثر مرة أخرى ربما على باب غرفته، لكنها لم تعد لا هي ولا الدرابزين. حتى الآن كان كارل قد أحجم عن أن يصدر نداء عالياً، فهو لم يشأ أن يثير ضوضاء في منزل غريب في ساعة متأخرة هكذا، غير أنه رأى الآن أنه ما من حيف في هذا المنزل غير المضاء واستعد لكي يصرخ هالو عالية نحو كلا جانبي الممر، عندما لاحظ ضوءاً صغيراً يقترب في الاتجاه الذي كان قد جاء منه. والآن فقط استطاع أن يقدّر طول الممر المستقيم، كان المنزل قلعة لا فيللا. وكانت فرحة كارل بهذا الضوء كبيرة إلى درجة نسي معها كل حذر وراح يجري نحوه، ومنذ القفزات الأولى انطفأت الشمعة. لم يلق إليها بالاً، إذ إنه لم يعد بحاجة لها، هنا جاء إليه خادم متقدم في السن مع مصباح خليق أن يدلّه على الطريق الصحيح.

«من أنت؟» سأل الخادمُ وقرّب المصباح من وجه كارل، الأمر الذي أضاء به وجهه هو في الوقت نفسه. وبدا وجهه جامداً بعض الشيء من خلال لحية كبيرة بيضاء انتهت على الصدر بخصلات مجعّدة حريرية النوع. لا بدّ أن يكون خادماً وفياً من يسمح له أن يحمل مثل هذه اللحية، فكر كارل وراح ينظر إليها طولاً وعرضاً دون أن تتحول عيناه عنها، دون أن يعيقه الشعور بأنه هو نفسه يُراقَب. وللمناسبة، أجاب على الفور أنه ضيف السيد بولوندر وأنه يريد أن يذهب من غرفته إلى غرفة الطعام ولا يجدها. «آه إذاً»، قال الخادم، «إننا لم نُدخل الضوء الكهربائي بعد» «أدري»، قال كارل. «ألا تريد أن تشعل شمعتك من مصباحي؟» سأل الخادمُ. «رجاء»، قال كارل وفعل ذلك. «هنا ثمة تيار هواء في الممرات»، قال الخادم، «الشمعة تنطفئ بسهولة، لذا أحمل مصباحاً.» «نعم، المصباح عمليّ أكثر»، قال كارل. «عليك أيضاً قطرات كثيرة من الشمعة»، قال الخادم وهو يسلط الضوء على حلة كارل. «هذا ما لم ألاحظه

قط»، نادى كارل وأسف أسفاً كبيراً إذ إنها كانت حلة سوداء كان الخال قد قال عنها بأنها أفضل حلة تناسبه من بين الحلل الأخرى. كما أن العراك مع كلارا لم يعد بفائدة على الحلة على الأرجح، تذكر الآن. وكان الخادم لطيفاً بما فيه الكفاية لينظف الحلة جيداً ما أمكن في العجلة؛ راح كارل يدور أمامه ويريه هنا وهناك لطخة يقوم الخادم بإزالتها بطاعة. «لماذا يمرّ هنا في الأصل تيار هواء هكذا إذاً» سأل كارل وقد تابعا سيرهما. «هنا الكثير مما يجب بناؤه»، قال الخادم، «لقد بدأ المرء بإعادة البناء، صحيح، لكن الأمور تسير ببطء. والآن يضرب عمال البناء عن العمل أيضاً، كما تعلم ربما. هذا البناء يسبب مضايقات كثيرة. والآن عملوا عدة فتحات كبيرة لا يغلقها أحد، وتيار الهواء يملأ المنزل كله. ولو لم أملأ أذنيّ بالقطن الطبي لما عشت.» «فينبغي عليّ أن أتحدث بصوت عال ولا ريب؟» سأل كارل. «كلا، لديك صوت واضح»، قال الخادم. «لكن للعودة إلى هذا البناء، خاصة هنا بالقرب من الكنيسة الصغيرة، التي يجب بالضرورة أن تفصل في ما بعد عن بقية المنزل بحاجز، لا يمكن تحمّل التيار الهوائي أبداً.» «الدرابزين الذي يمرّ به المرء في هذا الممر يخرج إذاً إلى كنيسة؟» «نعم.» «لقد فكرت بهذا في الحال»، قال كارل. «إنها تستحق المشاهدة»، قال الخادم، «لو لم تكن موجودة، لما كان من شأن السيد ماك أن يبتاع المنزل.» «السيد ماك؟» سأل كارل، «كنت أعتقد أن المنزل إنما يخص السيد بولوندر.» «لا شك»، قال الخادم، «لكن السيد ماك هو الذي حسم هذا الشراء. ألا تعرف السيد ماك؟» «أوه نعم»، قال كارل، «لكن ما الصلة التي تربطه بالسيد بولوندر؟» «إنه خطيب الآنسة»، قال الخادم. «لم أكن أعلم هذا طبعاً»، قال كارل وظل واقفاً. «هل يدهشك هذا مثل هذه الدهشة؟» سأل الخادمُ. «أريد فحسب أن أفهم الأمر وأعدّه كي يناسبني. عندما لا يعرف المرء مثل هذه العلاقات، يمكن للمرء أن يقترف أكبر الأخطاء»، أجاب كارل. «أعجب فحسب من أن المرء لم يقل لك شيئاً من هذا»، قال الخادم. «نعم حقاً»، قال كارل في خجل. «على الأرجح فكر المرء أنك تعرف الأمر»، قال الخادم، «إنه ليس خبراً جديداً. على فكرة، ها نحن هنا»، وفتح باباً تراءى وراءه درج يؤدي عمودياً إلى الباب الخلفي لغرفة الطعام المضاءة بنور ساطع كما كانت لدى الوصول. وقبل أن يدخل كارل إلى غرفة الطعام التي كان المرء يسمع منها صوتي السيد بولوندر والسيد غرين كما كانا يسمعان قبل ساعتين تقريباً، قال الخادم: «إذا كنت ترغب، أنتظرك هنا وأقودك من ثم إلى غرفتك ثانية. إنه من الصعب على كل حال أن يألف المرء الوضع هنا فوراً منذ أول مساء.» «لن أعود إلى غرفتي مرة أخرى»، قال كارل دون أن يدري لماذا لدى هذه المعلومة بات حزيناً. «لن يصبح الأمر سيئاً هكذا»، قال الخادم وهو يبتسم بشيء من التعالي وربَتَ على ذراعه. لقد فسّر لنفسه كلمات كارل على الأرجح بأن كارل إنما كان ينوي أن يمكث في غرفة الطعام طوال الليل ويتحادث ويشرب مع السيدين. ولم يشأ كارل الآن أن يعترف، وبالإضافة إلى ذلك فكر أن الخادم، الذي أعجبه أكثر من الخدم الآخرين هنا، يستطيع أن يبيّن له من ثم اتجاه الطريق نحو نيويورك

ولذا قال: «إذا أردتَ أن تنتظر هنا، سيكون ذلك ولا شك لطفاً كبيراً منك وأنا أقبل هذا اللطف شاكراً. على كل حال سوف أخرج بعد برهة قصيرة وأقول لك من ثم ماذا سوف أفعل. وأظن أن عونك سيكون ضرورياً.» «حسناً»، قال الخادم ووضع المصباح على الأرض وجلس على قاعدة واطئة، يُرجّح أن لفراغها علاقة أيضاً بإعادة بناء المنزل، «سأنتظر هنا إذاً.» «والشمعة أيضاً يمكنك أن تتركها لديّ»، قال الخادم إذ أراد كارل أن يذهب إلى القاعة وهو يحمل الشمعة المشتعلة. «لكنني مشتت الفكر»، قال كارل وناول الشمعة للخادم، الذي أومأ إليه برأسه فحسب، دون أن يعرف المرء في ما إذا كان قد فعل ذلك عمداً أم أن ذلك جاء نتيجة كونه قد تحسس لحيته بيده.

فتح كارل الباب، الذي صرّ صريراً عالياً دون ذنب منه، إذ كان يتألف من لوح زجاجي واحد يكاد ينثني عندما كان الباب يُفتح بسرعة ولا يُمسك إلا بالقبضة. ترك كارل الباب وقد أصابه فزع، فقد كان يرغب في أن يدخل بهدوء على وجه خاص وعمداً. ودون أن يدور، لاحظ كيف نزل الخادم وراءه على ما يبدو عن قاعدته وأغلق الباب بحذر ودون أدنى صرير. «اعذراني أنني أزعج»، خاطب كلا السيدين اللذين راحا يتطلعان إليه بوجهيهما الكبيرين المندهشين. غير أنه في الوقت نفسه مرّ بنظرة واحدة مروراً سريعاً على القاعة في ما إذا كان يستطيع أن يعثر بسرعة على قبعته في مكان ما. لكنها لم تظهر في أي مكان، وكان قد رُفع ما كان على المائدة كلياً، ربما كانت القبعة قد نُقلت بطريقة غير مريحة إلى المطبخ. «أين تركت كلارا إذاً؟» سأل السيدُ بولوندر، الذي بدا أن الإزعاج قد أرضاه، إذ إنه سرعان ما غيّر جلسته في أريكته وواجه كارل بالكامل. وقام السيد غرين بدور غير المشارك، سحب محفظته، التي كانت هائلة في حجمها وسماكتها، بدا أنه يبحث في الجيوب العديدة عن ورقة معينة، لكنه راح أثناء البحث يقرأ أوراقاً أخرى أيضاً وقعت في يده. «عندي رجاء لا يجوز لكما أن تسيئا فهمه»، قال كارل وتوجه بأسرع ما يمكن إلى السيد بولوندر ووضع، لكي يكون قريباً منه، اليد على مسند الأريكة. «أي رجاء يمكن أن يكون هذا؟» سأل السيدُ بولوندر ونظر إلى كارل نظرة صريحة مخلصة. «طبعاً جرى على الفور تلبية الطلب.» ووضع ذراعه حول كارل وسحبه إليه بين ساقيه. احتمل كارل هذا بسرور، رغم أنه كان يشعر بعامة أنه يافع أكثر من اللازم بالنسبة لمثل هذه المعاملة. لكن الجهر بطلبه بات أكثر صعوبة طبعاً. «هل يعجبك الحال لدينا؟» سأل السيدُ بولوندر. «لا يبدو لك أيضاً أن المرء إنما يتحرر في الريف على نحو ما إذا جاء من المدينة. بصورة عامة» ـ وبنظرة جانبية غير قابلة لسوء الفهم مغطّاة من قبل كارل بعض الشيء وقعت على السيد غرين ـ «بصورة عامة يمتلكني هذا الإحساس دائماً كل مساء.» «يتحدث»، فكر كارل، «وكأنه لا يعرف شيئاً من المنزل الكبير، الممرات اللانهائية، الكنيسة الصغيرة، الغرف الفارغة، العتمة في كل مكان.» «الآن!» قال

السيد بولوندر. «الرجاء!» وراح يهز ودّياً كارل، الذي كان يقف صامتاً. «أرجو»، قال كارل ومهما خفض صوته، لم يكن بالإمكان تفادي أن يسمع غرين الجالس إلى جانبه كل شيء، والذي كان بودّ كارل أن يخفي عنه الرجاء الذي يحتمل أن يفهم كإهانة لبولوندر. «أرجو، دعني، الآن، في الليل، أذهب إلى البيت.» ولأن الأسوأ قد قيل، فإن كل شيء آخر راح يتدافع بسرعة أكبر، قال، دون أن يستخدم أقل كذبة، أموراً لم يكن قبل ذلك حقاً قد فكر بها. «أحب أن أذهب إلى البيت بأي ثمن. سوف أعود عن طيب خاطر، إذ حيث تكون يا سيد بولوندر، أحب أن أكون. إلا أنني اليوم لا أستطيع أن أبقى هنا. إنك تعلم أن الخال لم يعطني إذناً للقيام بهذه الزيارة عن رضى. لا ريب أنه كان يملك أسبابه الوجيهة لهذا كما لكل ما يفعله، وأنا أبَحثُ لنفسي، عكس إدراكه الصحيح، أن أحصل على الإذن فيما يشبه القوة. ببساطة، لقد قمت باستغلال حبه لي. أية شكوك كانت لديه ضد هذه الزيارة، هو الآن سواء، إني أعلم علم اليقين فحسب أنه لم يكن ثمة شيء في هذه الشكوك ما يمكنه أن يجرح شعورك أيها السيد بولوندر، أنت الذي أفضل صديق، الأفضل لخالي. ما من أحد آخر يمكنه أن يقارن نفسه في صداقة خالي معك مجرد أدنى مقارنة. هذا هو أيضاً الاعتذار الوحيد لعدم طاعتي، لكنه ليس كافياً. قد لا تكون على اطلاع دقيق على العلاقة بين خالي وبيني، لذا لا أريد أن أتحدث سوى عن الأكثر إقناعاً. ما دامت دراساتي الإنكليزية لم تنته وما دمت لم أطلع على الأمور العملية على نحو كاف، أعتمد كل الاعتماد على طيبة خالي، التي يجوز لي أن أتمتع بها بصفة قرابة الدم فقط. لا يجوز لك أن تعتقد أنه يمكنني ـ وقبل كل شيء ليحمني الله ـ أن أكسب الآن رزقي كما ينبغي على نحو من الأنحاء. في هذا الشأن كانت تربيتي مع الأسف غير عملية بتاتاً. لقد اجتزت أربعة صفوف في مدرسة ثانوية أوروبية كتلميذ متوسط، وهذا يشكّل بالنسبة لكسب الرزق أقل من اللاشيء، إذ إن مدارسنا الثانوية متخلفة فيما يتعلق ببرامج الدراسة. ستضحك إذا قلت لك ما درسته. إذا تابع المرء الدراسة، وأنهى المدرسة الثانوية، ودخل الجامعة، فإن هذا يعوّض كل شيء على الأرجح بطريقة من الطرق، وفي النهاية يكون المرء قد حصّل تعليماً حسناً يمكن أن يعمل به شيئاً ما ويعطي المرء العزم على كسب المال. أما أنا فقد انتزعت مع الأسف من هذه الدراسة المترابطة، وأعتقد أحياناً أنني لا أعرف شيئاً، وفي نهاية الأمر كان من شأن كل ما كنت خليقاً أن أعرفه أن يكون قليلاً جداً بالنسبة لأمريكا. الآن يجري في وطني في المدة الأخيرة بين الحين والآخر تأسيس مدارس ثانوية إصلاحية يتعلم فيها المرء لغات حديثة وربما أيضاً علوماً تجارية، وهذا ما لم يكن موجوداً عندما أنهيت المدرسة الابتدائية. صحيح أن والدي كان يريد أن يدعني أتعلم الإنكليزية، لكن أولاً لم يكن في مقدوري آنذاك أن أحس أية مصيبة ستصيبني وكم سأحتاج إلى الإنكليزية، وثانياً كان يتوجب عليّ أن أذاكر كثيراً للمدرسة الثانوية، بحيث لا يتبقى لديّ وقت كثير

أنفقه في أعمال أخرى. ـ أذكر كل هذا لكي أبيّن لك كم أنا مرتبط بخالي، وبالتالي كم أنا ملزَم إزاءه. يقيناً سوف تُقرّ بأنه لا يجوز لي في هذه الظروف أن أفعل أدنى شيء ضد إرادته حتى لو لم أعرفها إلا حدساً. ولذا يجب عليّ، كي أصلح إلى حد ما فحسب الخطأ الذي ارتكبته حياله، أن أذهب على الفور إلى البيت.» أثناء هذا الحديث الطويل لكارل كان السيد بولوندر يستمع إلى كارل باهتمام، ومراراً، ولا سيما عندما كان يُذكر الخال، كان يضغط كارل نحوه على نحو غير ملحوظ أيضاً، وفي بعض المرات كان يتطلع جاداً وبشيء من التشوق إلى غرين، الذي كان ما زال مشغولاً بمحفظته. لكن كارل بات أكثر اضطراباً، كلما كان موقفه من الخال يدخل إلى وعيه في سياق حديثه، وحاول من غير عمد أن يخرج من ذراع بولوندر، كل شيء كان يضايقه هنا، إن الطريق إلى الخال عبر الباب الزجاجي، على الدرج، في الشارع العريض ذي الأشجار، على الطرقات في الريف، عبر الضواحي إلى الشارع العام الكبير منتهياً إلى بيت الخال، بدا له شيئاً متلازماً على نحو دقيق، شيئاً شاغراً مستوياً قائماً هنا أعدّ له ويطلبه بصوت قوي. وغامت طيبة السيد بولوندر وسماجة السيد غرين ولم يكن يريد لنفسه من هذه الحجرة المعبأة بالدخان شيئاً آخر سوى السماح له بالوداع. كان يشعر أنه صموت إزاء السيد بولوندر ومتحفز للعراك مع السيد غرين ورغم ذلك ملأه خوف من حوله غير محدد عكّرت دفعاته عينيه.

تراجع خطوة إلى الوراء ووقف الآن بعيداً مسافة واحدة عن السيد بولوندروالسيد غرين. «ألم تكن تريد أن تقول له شيئاً؟» سأل السيدُ بولوندر السيدَ غرين وأمسك يد السيد غرين وكأنه يرجوه. «لا أعرف ماذا يجب أن أقول له»، قال السيد غرين، الذي كان قد سحب أخيراً رسالة من جيبه ووضعها أمامه على الطاولة. «إنه لأمر جدير بالثناء أنه يريد أن يعود إلى خاله وطبقاً للحدس البشري على المرء أن يعتقد أنه سوف يُسرّ خاله بهذا سروراً خاصاً. إذ لا بدّ أنه بعدم طاعته إنما قد أساء إلى خاله إساءة كبيرة، الأمر الذي هو ممكن أيضاً. وفي هذه الحالة من الأفضل أن يبقى هنا. إنه لمن الصعب القول شيئاً محدداً، صحيح أن كلينا صديقان للخال ومن الصعب إيجاد فروق مرتبات بين صداقتي وصداقة السيد بولوندر، غير أنه ليس في مقدورنا أن ننظر إلى باطن الخال وعلى نحو خاص جداً ليس على بعد كيلومترات عديدة تفصلنا هنا عن نيويورك.» «رجاء أيها السيد غرين»، قال كارل واقترب في جهد وغير راغب في ذلك من السيد غرين، «أستنتج من كلماتك أنك أنت أيضاً ترى أنه الأفضل أن أعود في الحال.» «هذا ما لم أقله ولا ريب»، قال السيد غرين وراح يمعن النظر في الرسالة التي راح يتحرك على طرفيها بأصبعين ذهاباً وإياباً. وبدا أنه يريد أن يُلمح إلى أنه قد سئل من قبل السيد بولوندر، وأنه أجابه أيضاً، في حين أنه لا علاقة له بكارل في حقيقة الأمر.

في هذه الأثناء كان السيد بولوندر قد اقترب من كارل وسحبه برفق بعيداً عن السيد

غرين وأخذه إلى واحدة من النوافذ الكبيرة. «عزيزي السيد روسمان»، قال منحنياً إلى أذن كارل ومسح تأهباً وجهه بمنديل الجيب ومتوقفاً لدى الأنف تمخّط، «لا ريب أنك لن تظن أنني أريد أن أبقيك هنا ضد إرادتك. لا حديث عن هذا. لا أستطيع، صحيح، أن أضع السيارة تحت تصرفك، إذ إنها في مرآب عام بعيد من هنا، وذلك لأنه لم يتوفر لي هنا، حيث كل شيء في طريق الصيرورة، الوقت بعد كي أنشئ مرآباً. كما أن السائق لا يبيت هنا في المنزل، وإنما بالقرب من المرآب، وأنا نفسي لا أعرف فعلاً أين. ثم إنه ليس من واجبه أبداً أن يكون الآن في بيته، واجبه فقط هو أن يحضر السيارة إلى هنا باكراً في الوقت الصحيح. لكن كل هذا ليس خليقاً أن يكون عائقاً أمام رجوعك العاجل إلى البيت، فإذا كنت تصرّ على ذلك، فإنني أرافقك في الحال إلى أقرب موقف لقطار المدينة، لكنه بعيد ومن المفروض أن لا تصل إلى البيت في وقت أبكر مما تصله إذا أردت في الصباح - إننا نسافر منذ الساعة السابعة - السفر معنا في سيارتي.» «هنا أوثر، أيها السيد بولوندر، أن أسافر بقطار المدينة»، قال كارل، «بقطار المدينة لم أفكر قط. تقول بنفسك إنني أصل بقطار المدينة قبل أن أصل صباحاً بالسيارة.» «لكنه فرق ضئيل للغاية.» «رغم ذلك، رغم ذلك أيها السيد بولوندر»، قال كارل، «متذكراً كرمك سوف أعود إلى هنا دائماً، طبعاً على فرض أنك بعد تصرفي اليوم ما زلت تريد أن تدعوني، وربما سوف أتمكن في المرة القادمة أن أفصح على نحو أفضل لماذا تكون اليوم كل دقيقة تقربني من خالي هي مهمة بالنسبة لي.» وكأنه قد حصل على إذن بالانصراف، أضاف قائلاً: «لكن لا يجوز لك بأي حال أن ترافقني. كما أن هذا غير ضروري بتاتاً. بالباب يقف خادم سوف يرافقني إلى المحطة بسرور. والآن ليس عليّ سوى أن أبحث عن قبعتي.» ولدى الكلمات الأخيرة كان قد بدأ يجول في الغرفة في محاولة أخيرة على عجل للعثور ربما على قبعته. «يمكنني أن أمدّك بطاقية»، قال السيد غرين وهو يسحب طاقية من جيبه، «ربما تناسبك بالمصادفة.» مندهشاً توقف كارل وقال: «لن أنتزع منك طاقيتك. أستطيع أن أذهب على خير وجه دون غطاء رأس. إنني لا أحتاج إلى أي شيء.» «الطاقية ليست لي. خذها فحسب!» «أشكرك إذاً»، قال كارل لكي لا يتوقف وأخذ الطاقية. وضعها على رأسه وضحك بادئ الأمر، لأنها ناسبت بدقة تامة، تناولها ثانية بيده وراح يتأملها، غير أنه لم يعثر فيها على الشيء الخاص الذي بحث عنه؛ كانت طاقية جديدة كل الجدة. «إنها تناسب على نحو جيد هكذا!» قال. «إذاً، إنها تناسب!» نادى السيدُ غرين وضرب على الطاولة.

ذهب كارل إلى الباب كي يحضر الخادم، هنا نهض السيد غرين وتمطى بعد الوجبة الوافية والاستراحة الكثيرة، دق صدره بيده بشدة وقال بلهجة بين النصيحة والأمر: «قبل أن تنصرف يتعيّن عليك أن تودّع الآنسة كلارا.» «هذا ما يتوجب عليك أن تفعله»، قال أيضاً

السيد بولوندر الذي كان قد نهض كذلك. كانت لهجته تنمّ على أن الكلمات لم تأت من قلبه، وبوهن ضرب بيديه على موضع خياطة البنطلون وراح مراراً وتكراراً يفتح ويغلق سترته، التي كانت طبقاً للموضة الراهنة قصيرة للغاية لا تكاد تصل إلى الخاصرتين، الأمر الذي يُظهر عدم أناقة الناس البدينين مثل السيد بولوندر. وللمناسبة، كان المرء، إذا كان واقفاً هكذا إلى جانب السيد غرين، يأخذ الانطباع الواضح أن الأمر لدى السيد بولوندر ليس بدانة صحية، كان الظهر في كامل ضخامته مقوساً بعض الشيء، والبطن بدا رخواً غير متين، عبئاً حقيقياً، والوجه لاح شاحباً ومتعباً. لكن السيد غرين كان يقف هنا، ربما أكثر بدانة بعض الشيء من السيد بولوندر، غير أن بدانته كانت بدانة مترابطة تتبادل حمولة بعضها، القدمان كانتا مضمومتين عسكرياً، والرأس كان يحمله منتصباً ومتمايلاً، لقد بدا رياضياً كبيراً، رياضياً يحتذى به.

«اذهب إذاً أولاً إلى الآنسة كلارا»، تابع السيد غرين قائلاً. لا شك أن هذا سوف يسرّك وهو يناسب أيضاً تقسيمي للوقت. فلديّ شيء مثير بعض الشيء أقوله لك قبل أن تنصرف من هنا، ما قد يمكنه أن يكون على الأرجح أمراً حاسماً بالنسبة لعودتك أيضاً. إلا أني مقيد مع الأسف من خلال أمر من فوق بأن لا أبوح لك بشيء قبل منتصف الليل. يمكنك أن تتصور أن هذا يؤسفني، إذ إنه يزعج هدوء ليلي، لكنني ألتزم بمهمتي. الساعة الآن هي الحادية عشرة والربع، أستطيع إذاً أن أكمل الحديث عن أعمالي مع السيد بولوندر، علماً أن وجودك خليق أن يزعج فحسب، ويمكنك أن تمضي فترة وجيزة جميلة مع الآنسة كلارا. في تمام الثانية عشرة احضر إلى هنا، حيث ستعلم اللازم.

هل كان في مقدور كارل أن يرفض هذا الطلب الذي لا يكلفه سوى أقل القليل من التهذيب والامتنان إزاء السيد بولوندر، والذي فوق هذا قدّمه رجل فظ غير مشارك في ما عدا ذلك، في حين أن السيد بولوندر، الذي كان الأمر يخصه، كان يمسك نفسه بالكلمات والنظرات؟ وماذا كان ذلك الأمر المثير الذي لا يجوز له أن يعلمه سوى عند منتصف الليل؟ إذا لم يكن من شأن هذا الأمر أن يعجّل عودته إلى البيت على الأقل مدة ثلاثة أرباع الساعة التي تأجلتها عودته الآن، فإنه لا يهمه كثيراً. لكن شكّه الأكبر كان في ما إذا كان في مقدوره أن يذهب إطلاقاً إلى كلارا، التي كانت عدوّته. ليته كان يحمل معه القطعة المعدنية التي كان خاله قد أهداها له لوضعها فوق الرسائل. غرفة كلارا يمكنها أن تكون كهفاً خطراً للغاية. لكن الآن كان من المحال هنا القول أقل شيء ضد كلارا لأنها ابنة بولوندر، لا بل، كما كان الآن قد سمع، خطيبة ماك. لو كانت قد تصرفت بعض الشيء على نحو غير ما تصرفت معه، لكان خليقاً أن يعجب بها بصراحة بسبب علاقاتها. كان لا يزال يتأمل كل هذا، لكنه سرعان ما لاحظ أن المرء لا يطلب منه تأملات، إذ إن غرين فتح الباب وقال للخادم، الذي قفز من القاعدة: «أوصل هذا الشاب إلى الآنسة كلارا.»

«هكذا ينفذ المرء أوامر»، فكر كارل عندما سحبه الخادم وهو يجري تقريباً، متأوهاً تحت وهن الشيخوخة، على طريق قصير على نحو خاص إلى غرفة كلارا. وعندما مرّ كارل بغرفته، التي كان بابها ما زال مفتوحاً، أراد أن يدخل لحظة، ربما من أجل تهدئة نفسه. لكن الخادم لم يسمح بهذا. «كلا»، قال، «يجب عليك أن تذهب إلى الآنسة كلارا. لقد سمعت الأمر بنفسك.» «لن أمكث في الداخل سوى لحظة واحدة»، قال كارل وفكر بأن يلقي بنفسه قليلاً على الأريكة تغييراً للجو، حتى يمضي الوقت إلى منتصف الليل بسرعة أكبر. «لا تصعّب عليّ تنفيذ مهمتي»، قال الخادم. «يبدو أنه يرى الأمر عقوبة بأنه يجب عليّ أن أذهب إلى كلارا»، فكر كارل وتقدم بضع خطوات، لكنه توقف مرة أخرى عناداً. «تعالَ أيها السيد الشاب»، قال الخادم، «فأنت الآن هنا. أعرف أنك كنت تريد أن تنصرف في الليل، لا تسير كل الأمور حسب الرغبة، لقد قلت لك على الفور بأن الأمر لا يكاد يكون ممكناً.» «نعم، أريد أن أنصرف وسوف أنصرف»، قال كارل، «ولا أريد الآن سوى أن أودّع الآنسة كلارا.» «هكذا»، قال الخادم ورأى كارل عليه أنه لم يصدّق كلمة، «لماذا تتردد إذاً في الوداع، تعال.»

«من في الممر؟» دوّى صوت كلارا وظهرت تنحني من باب قريب، وهي تحمل بيدها مصباحاً يدوياً كبيراً ذا مظلة حمراء. أسرع الخادم إليها وبلّغها النبأ، كان كارل يتبعه متمهلاً. «إنك تأتي متأخراً»، قالت كلارا. دون أن يجيبها في الحال، قال كارل للخادم بصوت منخفض، لكن، إذ كان يعرف طبيعته، بلهجة أمر صارم: «تنتظرني أمام هذا الباب ليس بعيداً!» «كنت أريد أن أذهب إلى النوم»، قالت كلارا وهي تضع المصباح على الطاولة. كما في غرفة الطعام أغلق الخادم هنا أيضاً الباب من الخارج بحذر. «لقد تجاوزت الساعة الحادية عشرة والنصف.» «الحادية عشرة والنصف»، كرر كارل متسائلاً، وكأنه ذعر من هذين الرقمين.

«لكن في هذه الحالة يجب أن أستأذنك في الانصراف على الفور»، قال كارل، «فينبغي عليّ أن أكون في غرفة الطعام في تمام الساعة الثانية عشرة.» «أية أعمال مستعجلة لديك»، قالت كلارا وهي ترتّب شاردة الفكر ثنيات ثوب نومها، كان وجهها متوهجاً وابتسامتها متواصلة. واعتقد كارل أنه أدرك عدم وجود خطر وقوع في شجار مع كلارا مرة أخرى. «ألا يمكنك أن تعزف قليلاً على البيانو، كما وعد بابا أمس وكما وعدتَ بنفسك اليوم؟» «لكن ألم يصبح الوقت متأخراً كثيراً؟» سأل كارل. كان يتمنى أن يقدم لها معروفاً، فقد كانت غير ما كانت عليه سابقاً، وكأنها صعدت بطريقة ما إلى دائرة بولوندر ثم إلى دائرة ماك. «أجل لقد تأخر الوقت»، قالت وبدا أن رغبتها في سماع موسيقى قد زالت. «من ثم يتردد هنا صدى كل نغمة أيضاً، وأنا على قناعة بأن الخدم في العلّيات يستيقظون إذا عزفت.» «أترك العزف إذاً، وأنا لآمل يقيناً أنني سأعود، وللمناسبة، إذا لم يكلفك الأمر جهداً مخصوصاً، قومي

بزيارة لخالي ذات مرة وألقي أيضاً نظرة على غرفتي في هذه المناسبة. لديّ بيانو رائع، هدية من خالي. فأعزف لك، إذا كان الأمر يناسبك، كل قطعي، ليست كثيرة مع الأسف، كما أنها لاتناسب آلة موسيقية كبيرة هكذا، من المفروض أن لا يعزف عليها سوى موسيقيين عباقرة. لكن هذه المتعة أيضاً يمكنك أن تحصلي عليها إذا أعلمتني موعد زيارتك قبل ذلك، حيث إن الخال سوف يعيّن لي قريباً معلماً مشهوراً ـ يمكنك أن تتصوري كم أنتظر هذا بسرور ـ ولكن عزفه سيكون سبباً لأن أقوم بزيارة أثناء الدرس. يسرني، إذا كان عليّ أن أكون صادقاً، أن الوقت قد أصبح متأخراً بالنسبة للعزف، فأنا لا أعرف شيئاً قط، من شأنك أن تعجبي من مدى ضآلة ما أستطيعه. والآن اسمحي أن أستأذن منصرفاً، وبعد، لقد حان وقت النوم أيضاً.» ولأن كلارا نظرت إليه بطيبة وبدت أنها لا تؤاخذه أبداً بسبب العراك، أضاف مبتسماً وهو يناولها يده: «في بلادي اعتاد المرء أن يقول: نوماً هنيئاً وأحلاماً حلوة.»

«انتظر»، قالت دون أن تتناول يده، «ربما كان عليك أن تعزف رغم ذلك.» واختفت عبر باب جانبي صغير يقع البيانو إلى جانبه. «ما الأمر إذاً؟» فكر كارل، «لا أستطيع أن أنتظر طويلاً، مهما كانت لطيفة أيضاً.» قُرع باب الممر والخادم الذي لم يجرؤ على أن يفتح الباب كلياً، همس عبر فتحة صغيرة: «المعذرة! لقد استدعيت لتوّي ولا أستطيع أن أنتظر بعد الآن.» «اذهب فحسب»، قال كارل الذي بات يجرؤ على إيجاد الطريق إلى غرفة الطعام وحده، «اترك لي فقط المصباح أمام الباب. كم أصبحت الساعة؟» «تكاد أن تبلغ الثانية عشرة إلا ربعاً»، قال الخادم. «كم يمرّ الوقت بطيئاً»، قال كارل. وإذ أراد الخادم أن يغلق الباب، تذكّر كارل أنه لم يعطه بعد إكرامية، أخذ شلناً من جيب بنطاله ـ كان الآن يحمل دائماً قطع نقود معدنية ترنّ في جيبه حسب العادة الأمريكية، أما النقد الورقي ففي جيب الصديري ـ وناوله إلى الخادم مع الكلمات: «من أجل خدماتك الطيبة.»

كانت كلارا قد دخلت في هذه الأثناء، وهي تضع يديها على تسريحتها الثابتة، عندما خطر ببال كارل لأنه كان عليه أن لا يرسل الخادم، إذ من سيكون من شأنه أن يوصله إلى محطة قطار المدينة؟ حسنا، لا ريب أنه سيمكن للسيد بولوندر أن يدبّر خادماً، وربما استدعي هذا الخادم إلى غرفة الطعام ثم سيكون تحت التصرف. «أرجوك إذاً أن تعزف قليلاً. من النادر أن يستمع المرء هنا إلى موسيقى، بحيث إنه لا يريد أن يدع أن تفلت منه فرصة لسماعها.» «لكن إذاً لقد حان الوقت جداً»، قال كارل دون تفكير آخر وجلس على الفور إلى البيانو. «هل تريد نوتات؟» سألت كلارا. «شكراً، لا أستطيع حتى إن أقرأ نوتات قراءة كاملة»، أجاب كارل وقد بدأ العزف. كانت أغنية صغيرة يجب أن تعزف على مهل إلى حد ما كما كان كارل يعرف، لكي تكون مفهومة للغرباء، لكنه عزف دون إتقان وبسرعة أسوأ مارش عسكري. وبعد انتهائه عاد الهدوء، الذي كان قد أخلّ به، إلى المنزل دفعة واحدة. كانا

يجلسان وكأنهما دائخان ولم يبديا حراكاً. «جميل جداً»، قالت كلارا، لكن بعد هذا العزف لم يكن ثمة صيغة مجاملة من شأنها أن تقدر على تملّق كارل. «كم هي الساعة؟» سأل. «الثانية عشرة إلا ربعاً.» «ما زال لديّ برهة من الوقت إذا»، قال وهو يفكر في ذات نفسه: «إما أو. لا ينبغي عليّ أن أعزف كل الأغاني العشر التي أستطيع عزفها، لكن في مقدوري أن أعزف واحدة منها عزفاً جيداً.» وبدأ في عزف أغنية الجنود التي يحبها. عزف ببطء شديد بحيث إن مطلب المستمعة المبلبَل امتد إلى النوتة التالية، التي استبقاها كارل لديه ولم يعطها إلّا بصعوبة. وكان يتوجب عليه فعلاً مثلما في كل أغنية أن يبحث بعينيه عن ملامس البيانو الضرورية، لكنه بالإضافة إلى ذلك أحس كآبة تنشأ في نفسه، راحت تبحث، متجاوزة نهاية الأغنية، عن نهاية أخرى دون أن تجدها. «لا أستطيع شيئاً»، قال كارل بعد اختتام الأغنية وتطلع إلى كلارا والدموع تترقرق في عينيه.

هنا دوّى في الغرفة المجاورة تصفيق حاد. «هناك شخص آخر يستمع!» نادى كارل وقد اهتزّ. «ماك»، قالت كلارا بصوت منخفض. وسرعان ما سُمع ماك ينادي: «كارل روسمان، كارل روسمان!»

قفز كارل بكلتا قدميه في وقت واحد فوق مقعد البيانو وفتح الباب. رأى هناك ماك يجلس مستلقياً نصف استلقاء في سرير كبير بمظلة، وكان اللحاف ملقى فوق الساقين على نحو سائب. وكانت المظلة من الحرير الأزرق الشيء الوحيد ذو الرونق البناتي في السرير البسيط في ما عدا ذلك المصنوع من خشب ثقيل. وعلى منضدة الليل الصغيرة كان ثمة شمعة واحدة فقط تضيء، لكن البياضات وقميص ماك كانت بيضاء هكذا بحيث إن ضوء الشمعة الذي يقع عليها كان يشعّ منها في ضوء منعكس يكاد يخطف البصر؛ كما أن المظلة كانت تلمع في أطرافها على الأقل بحريرها المتموج قليلاً غير المشدود على نحو ثابت كلياً. لكن خلف ماك مباشرة كان السرير وكل شيء غارقاً في ظلام كامل. استندت كلارا إلى قائمة السرير ولم يعد لديها عينان سوى لماك.

«مرحبا»، قال ماك وهو يمدّ يده إلى كارل. «إنك تعزف عزفاً حسناً. حتى الآن عرفت فقط فن ركوبك الخيل.» «لا أتقن لا هذا ولا ذاك»، قال كارل، لو كنت أعلم أنك تستمع، لما عزفت بالتأكيد. لكن آنستك» ـ قاطع نفسه، وتردد في أن يقول «خطيبة»، وذلك لأن ماك وكلارا ينامان مع بعضهما فيما يبدو. «كنت أحدس ذلك»، قال ماك، «لهذا كان يجب عليها أن تغريك للقدوم من نيويورك إلى هنا، وإلا ما كان في مقدوري أن أسمع عزفك قط. واضح أنه عزف مبتدئين، وحتى في هذه الأغاني التي كنت قد تمرنت على عزفها والتي وضعتها على نحو بدائي جداً، ارتكبت بضعة أخطاء، لكن على كل حال سرّني عزفك غاية السرور، بغض النظر كلياً عن أني لا أزدري عزف أي إنسان. لكن ألا تريد أن تجلس وتمكث لدينا برهة.

كلارا اعطه كرسياً.» «شكراً»، قال كارل متلعثماً. «لا أستطيع البقاء، مهما يطيب لي أن أبقى هنا. في وقت متأخر أعلم بوجود غرفة مريحة هكذا في هذا المنزل.» «إنني أعيد بناء كل شيء بهذا الشكل»، قال ماك.

في هذه اللحظة دوت اثنتا عشرة دقة ساعة بسرعة وراء بعضها، وكل دقة تضرب داخل ضجيج الأخرى، واستشعر كارل هبوب الحركة الكبيرة لهذه الدقات على وجنتيه. ما هذه القرية التي تملك مثل هذه الأجراس!

«لقد حان الوقت»، قال كارل وهو يمدّ يديه إلى ماك وكلارا دون أن يمس يديهما وجرى خارجاً إلى الممر. هناك لم يجد المصباح وأسف أنه أعطى الخادم إكرامية بسرعة أكثر من اللازم. وأراد أن يسير إلى جانب الحائط ويتحسس طريقه إلى باب غرفته، غير أنه ما كاد يصل إلى منتصف الطريق، حتى رأى السيد غرين يقترب متمايلاً في عجلة وهو يرفع شمعة. في اليد التي كان يمسك الشمعة بها كان يحمل رسالة.

«روسمان لماذا لا تأتي إذاً؟ لماذا تدعني أنتظر؟ ماذا عملت إذاً عند الآنسة كلارا؟» «أسئلة كثيرة!» فكر كارل، «والآن يضغطني على الحائط»، إذ إنه فعلاً وقف مباشرة أمام كارل، الذي استند إلى الحائط بظهره. اتخذ غرين في هذا الممر حجماً مثيراً للسخرية وتساءل كارل في ذات نفسه على سبيل المزاح في ما إذا لم يكن غرين ربما قد التهم السيد بولوندر الطيب.

«إنك فعلاً لست رجل كلمة. تعدُ بأن تنزل في الساعة الثانية عشرة وبدلاً من ذلك تتسلل حول باب الآنسة كلارا. أما أنا فقد وعدتك لمنتصف الليل بشيء مثير وأنا هنا أحمله.»

وبهذا ناول كارل الرسالة. كان على المغلف «إلى كارل روسمان. تسليمه شخصياً عند منتصف الليل في أي مكان يُلتقى به.» «أخيراً»، قال السيد غرين في حين كان كارل يفتح الرسالة، «أظن أنه جدير بالاعتبار أنني بسببك قد سافرت من نيويورك إلى هنا، بحيث إنه ليس عليك ولا ريب أن تدعني أجري وراءك في الممرات.»

«من الخال»، قال كارل وهو بالكاد نظر إلى داخل الرسالة. «لقد كنت أتوقع ذلك»، قال متوجهاً إلى السيد غرين.

«الأمر سيّان لديّ على نحو هائل في ما إذا كنت تتوقع الأمر أم لا. اقرأ فحسب»، قال هذا وهو يمسك الشمعة لكارل.

قرأ كارل في ضوء الشمعة: ابن أختي المحبوب! كما ستكون أثناء عيشتنا المشتركة القصيرة جداً مع الأسف قد أدركتَ أنني ولا ريب رجل مبادئ. هذا ليس بالنسبة لمحيطي فحسب وإنما بالنسبة لي أيضاً هو أمر غير مريح أبداً ومحزن، لكنني مدين لمبادئي بكل ما

أكون ولا يجوز لأحد أن يطلب أن أنكر نفسي وأبعدها عن الأرض، لا أحد، ولا أنت أيضاً، يا ابن أختي المحبوب، حتى لو كان من شأنك أن تكون أنت بالذات الأول في المجموعة، إذا خطر في بالي ذات يوم أن أسمح بذلك الهجوم العام ضدي. في هذه الحالة سيكون الأحب إليّ أن ألتقطك أنت بالذات بهاتين اليدين اللتين أمسك بهما الورق وأكتب بهما عليه وأرفعك عالياً. لكن إذ إن لا شيء حالياً يشير إلى أن هذا قد يمكن أن يحدث، يتعيّن عليّ بعد واقعة اليوم أن أبعدك عني على أي حال وأنا أناشدك بأن لا تأتي إليّ لا بنفسك، ولا أن تحاول الإتصال بي لا مراسلة ولا عن طريق وسطاء. لقد قررتَ ضد إرادتي أن تغادرني مساء اليوم، فابقَ إذاً لدى هذا القرار طوال حياتك أيضاً، في هذه الحالة وحدها كان قرارك جديراً برجل. لقد اخترتُ حاملاً لهذا الخبر السيد غرين، صديقي الأفضل، الذي ولا شك سوف يجد لك ما يكفي من الكلمات المخفِفة، التي لاتقع فعلاً في هذه اللحظة تحت تصرفي. إنه رجل ذو نفوذ وسوف يدعمك قولاً وفعلاً، حباً بي، في خطواتك المستقلة الأولى. لكي تفهم فراقنا، هذا الفراق الذي يبدو لي الآن في ختام هذه الرسالة غير معقول، ينبغي عليّ أن أقول مؤخراً لنفسي مراراً وتكراراً: من أسرتك يا كارل لا يأتي خير. إذا نسي السيد غرين أن يسلّمك حقيبتك وشمسيتك، فذكّره بذلك. مع أفضل التمنيات من أجل خيرك القادم في المستقبل

خالك الوفيّ ياكوب.

«هل انتهيت؟» سأل غرين. «نعم»، قال كارل، «هل جلبت لي معك الحقيبة والشمسية؟» سأل كارل. «هذه هي»، قال غرين وهو يضع إلى جانب كارل على الأرض حقيبة السفر الخاصة بكارل، التي كان قد أخفاها حتى الآن بيده اليسرى وراء ظهره. «والشمسية؟» تابع كارل سائلاً. «كل شيء هنا»، قال غرين وسحب أيضاً الشمسية التي كان قد علقها في جيب بنطاله. «الحقيبة والشمسية أحضرهما شخص يدعى شوبال، كبير ميكانيكيّ سفينة تابعة لخط هامبورج ـ أمريكا الملاحي، وقد ادعى أنه وجدهما على السفينة. يمكنك في فرصة سانحة أن تشكره.» «ها إني على الأقل أملك حاجياتي مرة أخرى»، قال كارل وهو يضع الشمسية على الحقيبة. «لكن عليك في المستقبل أن تنتبه إليها، يقول لك السيد السناتور»، قال السيد غرين وسأل من ثم بدافع فضول شخصي فيما بدا: «أية حقيبة غريبة هذه؟» «إنها حقيبة يستخدمها الجنود في وطني عندما يذهبون إلى الجيش»، أجاب كارل، «إنها حقيبة والدي العسكرية. ما عدا ذلك إنها عملية كلياً.» وأضاف مبتسماً: «بشرط أن لا يتركها المرء في مكان ما.» «لقد جرى تعليمك بما فيه الكفاية»، قال السيد غرين، «وليس لديك خال ثان في أمريكا أبداً. هنا أعطيك بطاقة درجة ثالثة إلى سان فرانسيسكو. لقد قررتُ هذه السفرة لك، أولاً لأن إمكانيات العمل لك في الشرق أفضل بكثير، وثانياً لأن لخالك هنا

يد في كل الأشياء التي تأتي في الاعتبار بالنسبة لك ومن الواجب بالضرورة تجنب لقائه. في فريسكو يمكنك أن تعمل دون إزعاج، ابدأ بهدوء من تحت تماماً وحاول أن تصعد تدريجياً.»

لم يسع كارل أن يستنتج سوء نية من هذه الكلمات، النبأ الأسوأ، الذي كان يقبع في غرين طوال المساء، تمّ نقله ومن الآن فصاعداً بدا غرين رجلاً غير خطر يمكن الحديث معه ربما بصراحة أكثر مما يمكن مع أي إنسان آخر. أفضل إنسان يجري اختياره دون ذنب له ناقلاً لهكذا قرار سرّيّ ومؤلم، لابدّ أن يبدو موضع ريبة ما دام يحمله لديه. «سوف»، قال كارل متوقعاً مصادقة رجل مجرّب، «أغادر هذا المنزل على الفور، فأنا لم أستقبل سوى بصفتي ابن أخت خالي، في حين أني بصفتي غريباً ليس لديّ ما أبحث عنه هنا. أرجو أن تتكرم وتبيّن لي المخرج ومن ثم أن تقودني إلى الطريق الذي يؤدي إلى أقرب نزْل» «لكن أسرع»، قال غرين. «إنك لا تسبب لي متاعب قليلة.» عند رؤية الخطوة الكبيرة، التي كان غرين قد خطاها على الفور، توقف كارل، لقد كان ذلك سرعة مريبة ولاشك، وأمسك غرين من سترته في الأسفل وقال في إدراك مفاجئ للوضع الحقيقي: «ما زال ثمة شيء يتعيّن عليك أن توضحه لي. على غلاف الرسالة، التي كان عليك أن تسلمها لي، جاء فحسب أنه عليّ أن أستلمها في منتصف الليل، في أي مكان يُلتقى بي. لماذا أبقيتني هنا إذاً استناداً إلى هذه الرسالة، عندما أردت أن أنصرف من هنا في الحادية عشرة والربع؟ بهذا تجاوزت مهمتك.» افتتح غرين جوابه بحركة من يده صوّرت على نحو مبالغ فيه عدم فائدة ملاحظة كارل وقال من ثم: «هل جاء على الغلاف ربما أنه ينبغي عليّ أن أنهك نفسي بسببك وهل يُستنتج ربما من مضمون الرسالة أنه من اللازم فهم الغلاف هكذا؟ لو لم أستبقِك كان يتوجب عليّ أن أسلمك الرسالة في منتصف الليل على الطريق.» «كلا»، قال كارل وهو لا يلوي على شيء، «ليس الوضع هكذا تماماً. على الغلاف جاء 'للتسليم بعد منتصف الليل'. إذا كنتَ متعباً، لما كان في مقدورك ربما أن تلحق بي، أو كنتُ خليقاً، لكن الأمر الذي أنكره حتى السيد بولوندر، أن أصل إلى عند خالي في منتصف الليل أو كان من واجبك في آخر المطاف أن تأخذني بسيارتك، التي أصبحت فجأة غير موضع حديث، إلى عند خالي، حيث إني كنت قد طلبت ذلك. ألا يعني العنوان بكل وضوح أنه على منتصف الليل أن يكون آخر موعد بالنسبة لي؟ وأنت ذلك الذي يتحمّل الذنب في أني تخلفت عنه.»

تطلع كارل إلى غرين بنظرات حادة وأدرك بجلاء كيف كان الخجل نتيجة هذا الانكشاف يتصارع مع السرور بنجاح مقصده. أخيراً استجمع قواه، وقال بلهجة كأنه قاطع كارل في منتصف الحديث، رغم أن كارل كان صامتاً مدة طويلة: «لا كلمة أخرى!» ودفعه إلى الخارج عبر باب صغير فتحه، وكان كارل قد أخذ الحقيبة والشمسية مرة أخرى.

وقف كارل في العراء وهو مندهش. كان ثمة درج ملحق بالمنزل دون درابزين يقوده إلى

أسفل. لم يكن عليه سوى أن يهبط ويتجه قليلاً نحو اليمين إلى الشارع الذي يؤدي إلى الطريق العام. في ضوء القمر الساطع لم يكن بالإمكان أن يضلّ المرء طريقه قط. في الحديقة في الأسفل سمع النباح المتعدد للكلاب السائبة التي كانت تجري في عتمة الأشجار. في السكون السائد في ما عدا ذلك كان يُسمع تماماً كيف كانت بعد قفزاتها الكبيرة ترتطم بالعشب.

دون أن يُضايق من قبل هذه الكلاب، خرج كارل من الحديقة سعيداً. لم يستطع أن يعلم علم اليقين في أي اتجاه تقع نيويورك، لم يكن أثناء السفر إلى هنا قد انتبه كثيراً إلى التفاصيل، التي كان في مقدورها الآن أن تكون مفيدة له. أخيراً قال لنفسه إنه لا ينبغي له مطلقاً أن يسافر إلى نيويورك، حيث لا ينتظره أحد بل حتى إن هناك أحداً من المؤكد أنه لا ينتظره. وهكذا اختار اتجاها لا على التعيين وانطلق على الطريق.

IV

المسير إلى رمسيس

في النزْل الصغير، الذي أتى إليه كارل بعد مسير قصير، والذي لم يكن في الحقيقة إلّا مجرد محطة صغيرة أخيرة لعربات نقل نيويورك ولذا كان بالكاد يُستخدم للمبيت، طلب كارل أرخص سرير يمكن الحصول عليه، إذ كان يعتقد أنه يجب عليه أن يبدأ بالتوفير على الفور. لبّى صاحب النزل مطلبه بإشارة له، وكأن كارل كان مستخدماً، أن يصعد الدرج، حيث استقبلته امرأة عجوز مشعّثة الشعر ممتعضة من جراء النوم المكدَّر، ودون أن تستمع إليه تقريباً وبتحذيرات لا تنقطع بأن يتصرف في هوادة، قادته إلى غرفة وأغلقت بابها ليس دون أن تهمس له نافخة نَفَسها في وجهه ب هسّ!

لم يعرف كارل في بادئ الأمر فيما إذا كانت ستائر النافذة مسدلة فحسب أو ربما كانت الغرفة بدون نوافذ إطلاقاً، هكذا كانت العتمة تامة، وأخيراً لاحظ كوّة صغيرة تغطيها قطعة قماش، سحبها فدخلِ بعض الضوء. كان في الغرفة سريران، لكن كلاهما مشغولان. رأى كارل فيهما شابين يغطّان في نوم عميق ولهذا السبب قبل كل شيء بدوا غير أهل للثقة كثيراً، إذ كانا نائمين بملابسهما دون سبب مفهوم، بل إن أحدهما كان ينتعل حذاء ثقيلاً.

في اللحظة التي كشف فيها كارل عن الكوة، رفع أحد النائمين ذراعيه وساقيه إلى الأعلى قليلاً، الأمر الذي أعطى منظراً دعا كارل رغم همومه ومخاوفه إلى أن يضحك في قرارة نفسه.

وسرعان ما أدرك أنه، بغض النظر عن عدم وجود إمكانية نوم أخرى، لا صوفا ولا كنبة، لن يستطيع أن ينام، حيث لا يجوز له أن يعرض للخطر حقيبته التي استردّها قبل قليل والنقود التي يحملها. كذلك لم يشأ أن ينصرف، إذ لم يجرؤ على أن يغادر النزل حالاً ماراً بصاحبه والعجوز. وأخيراً قد لا يكون الحال هنا أقل أماناً مما هو الحال على الطريق العام. ومما كان يلفت النظر حقاً أنه لم يكن بالإمكان، بقدر ما يمكن التأكد من ذلك في نصف الضوء، اكتشاف حقيبة واحدة في كل الغرفة. لكن ربما وعلى أكثر تقدير كان الشابان الخادمين اللذين كان يجب عليهما أن ينهضا بسبب الضيوف ولذا كانا ينامان بملابسهما. من ثم فإن

النوم لديهما لم يكن حقاً أمراً مشرّفاً على نحو خاص. لكنه يكون أقل خطراً. فقط لا يجوز له بأي حال، حتى يصبح هذا على الأقل خارج كل شك، أن يرقد لينام.

تحت أحد السريرين كان ثمة شمعة مع عود ثقاب، استرق كارل الخطى وجلبهما. لم يكن يرى بأساً في أن يضيء النور، إذ إن الغرفة تخصه حسب قرار صاحب النزل تماماً كما تخص الآخرَين، اللذين فوق هذا كانا قد تمتعا بالنوم نصف الليل وكانا بامتلاكهما السريرين في وضع أفضل بكثير من وضعه على نحو لا يقارن. وللمناسبة، لقد بذل طبعاً كل جهد من خلال حذره في حركته وعمله، لكي لا يوقظهما.

أراد في بادئ الأمر أن يفحص حقيبته لكي يحيط علماً بحاجياته التي يتذكرها على نحو غير واضح فحسب والتي يُفترض أن الأثمن فيها قد ضاع ولا ريب. إذ عندما يضع شوبال يده على شيء، فإن ثمة أملاً قليلاً أن يستعيده المرء سليماً. غير أنه كان يستطيع أن يتوقع من الخال هبة كبيرة، لكن في حين من طرف آخر كان في مقدوره لدى نقصان ممتلكات مفردة أن يحتجّ بالحارس الحقيقي للحقيبة، السيد بوتّرباوم.

عند النظرة الأولى لدى فتح الحقيبة ذعر كارل. كم ساعة كان قد أنفق أثناء الرحلة البحرية لترتيب الحقيبة والآن كان كل شيء معبّأً في فوضى وغير انتظام، فقفز الغطاء إلى الأعلى من نفسه لدى فتح القفل. لكن سرعان ما اكتشف كارل، الأمر الذي أثار فرحاً في نفسه، أن سبب هذه الفوضى هو أن حلّته قد وضعت لاحقاً، تلك الحلّة التي كان يرتديها أثناء الرحلة والتي لم يكن طبعاً يحسب حسابها للحقيبة. لا شيء البتة كان ناقصاً. في جيب السترة السري لم يكن جواز السفر فحسب، بل أيضاً النقود التي جلبها معه من البيت، بمعنى أن كارل كان، إذا أضاف ما كان يحمله، كان مزوداً بنقود تكفي حالياً. كذلك الملابس الداخلية التي كان يرتديها لدى وصوله، كانت موجودة، مغسولة ومكويّة. وعلى الفور وضع الساعة والنقود في الجيب السري الذي ثبتت صلاحيته. الشيء الوحيد الذي يؤسف له كان أن قطعة السجق المدخّن من نتاج فيرونا، التي أيضاً لم تكن مفقودة، كانت قد نقلت رائحتها إلى كل الحاجيات. وإذا لم يمكن إزالة هذا بوسيلة من الوسائل كان على كارل أن يتنقل طوال أشهر تغشاه هذه الرائحة.

لدى إخراجه بعض الحاجيات التي كانت في الأسفل، كان ذلك إنجيل جيب، ورق رسائل وصور الوالدين، سقطت طاقيته من على الرأس إلى داخل الحقيبة. في محيطها القديم عرفها في الحال، لقد كانت الطاقية التي كانت أمه قد أعطته إياها كطاقية سفر. لكنه احتراساً لم يكن قد ارتداها على السفينة، إذ إنه كان يعرف أن المرء في أمريكا يرتدي بصورة عامة طاقيات بدل قبعات، لذا لم يشأ أن يستهلك طاقيته قبل الوصول. ولكن ها إن السيد غرين استخدمها لكي يتسلّى على حساب كارل. فيما إذا كان الخال ربما كان قد كلّفه بهذا أيضاً؟ وبحركة غاضبة غير مقصودة أمسك غطاء الحقيبة الذي أغلق بصوت عال.

والآن لم يعد ثمة معونة، النائمان أوقظا. أولاً تمطى أحدهما وتثاءب، وسرعان ما تبعه الآخر. أثناء ذلك كانت كل محتويات الحقيبة تقريباً على الطاولة، ولو كانا لصّين لما كانا يحتاجان سوى إلى أن يقتربا ويختارا. وليس فقط لكي يستبق هذه الإمكانية، وإنما لإيضاح الأمر في الحال، ذهب كارل وهو يحمل الشمعة بيده إلى السريرين وأوضح بأي حق هو هنا. وقد بدا عليهما أنهما لم يكونا يتوقعان هذا الإيضاح، إذ إنهما تطلعا إليه بوجهين ناعسين وبدون أثر لأية دهشة. كانا كلاهما شابين صغيري السن جداً، بيد أن عملاً شاقاً أو ضيق ذات يد كان قد أبرز العظام من وجهيهما قبل الأوان، وكانت لحى مهمَلة تتدلى من ذقنيهما، وشعر كل منهما غير المقصوص منذ مدة طويلة يقف على الرأس مشعثاً، والآن راحا يدعكان أعينهما الغائرة ويضغطان عليها من النعاس بيراجم أصابعهما.

أراد كارل أن يستغل حالة ضعفهما الراهنة ولذا قال: «اسمي كارل روسمان وأنا ألماني. أرجو أن تقولا لي، إذ إن لنا غرفة مشتركة، اسميكما وجنسيتكما. وأعلن على الفور أني لا أطالب بسرير، وذلك لأني أتيت في وقت متأخر جداً ولا أنوي بعامة أن أخلد إلى النوم. وبالإضافة إلى ذلك لا ينبغي عليكما أن تستكرها حلّتي الجميلة، إنني فقير على نحو تام وبدون آمال.»

أشار الأصغر من بين الاثنين - كان ذلك الذي ينتعل الحذاء - بالذراعين والساقين وتعابير الوجه، أن كل هذا لا يهمه في شيء وأن الآن بعامة لا وقت لمثل هذه الأقوال، استلقى ونام في الحال؛ والآخر، أسمر اللون، عاد أيضاً إلى الاستلقاء، بيد أنه قال قبل أن يستغرق في النوم وقد مدّ يده بتراخ: «هذا هنا يدعى روبنسون وهو إيرلندي، اسمي دِلامارش وأنا فرنسي، والآن أرجو الهدوء.» ما كاد يقول هذا، حتى نفخ نفخة قوية شمعة كارل وسقط إلى الوراء على الوسادة.

«هذا الخطر صُدّ حالياً»، قال كارل في ذات نفسه وعاد إلى الطاولة. كان كل شيء حسناً إذا لم يكن نعاسهما ذريعة. الأمر غير المريح فقط هو أن أحدهما كان إيرلندياً. لم يعد كارل يعرف بدقة في أي كتاب كان قد قرأ ذات مرة في البيت أنه على المرء أن يحتاط في أمريكا من الإيرلنديين. أثناء إقامته لدى الخال كان لديه طبعاً أفضل فرصة لتقصّي حقيقة الأمر فيما يتعلق بخطر الإيرلنديين، بيد أنه أهمل ذلك كلياً لأنه كان يعتقد بأنه كان دائماً مشمولاً برعاية. والآن أراد على الأقل بالشمعة التي أشعلها ثانية، أن يرى هذا الإيرلندي بدقة أكثر، فوجد أن هذا بالذات بدا مقبولاً أكثر من الفرنسي. بل إن كان ما زال لديه أثر من وجنتين ممتلئتين وكان يبتسم في النوم ابتسامة رقيقة للغاية، بقدر ما كان في مقدور كارل أن يتثبت من ذلك وهو يقف على رؤوس أصابعه بعيداً بعض الشيء.

رغم ذلك مقرراً بحزم أن لا ينام، جلس كارل على الكرسي الوحيد في الغرفة، أجّل

حزم الحقيبة، إذ ما زال أمامه طوال الليل للقيام بذلك، وراح يقلّب في الإنجيل قليلاً دون أن يقرأ شيئاً. ثم تناول صورة الوالدين، التي يقف فيها الوالد قصير القامة منتصباً، في حين كانت الوالدة تجلس غائرة بعض الشيء في الفوتيل أمامه. كان الوالد يضع إحدى يديه على المسند الخلفي للفوتيل وقبضة الأخرى على كتاب مصور، كان مفتوحاً على طاولة زينة صغيرة إلى جانبه. كان هناك أيضاً صورة تضمه مع والديه، كان الوالد والوالدة ينظران إليه نظرة حادة، في حين كان عليه بناء على طلب المصور أن ينظر إلى آلة التصوير. بيد أنه لم يكن قد حصل على هذه الصورة لاصطحابها في السفر.

بدقة أكثر راح ينظر إلى الصورة التي أمامه ويبحث من جوانب متعددة أن يلتقط نظرة الوالد. لكن الوالد لم يشأ أن تدبّ الحياة فيه، مهما غيّر النظر من خلال تغييرات متعددة لوضع الشمعة، وكان شاربه الكثيف المعقوف لا يبدو مماثلاً للواقع قط، لم تكن صورة جيدة. أما الوالدة فقد كانت صورتها أفضل، كان فمها مزموماً كما لو كانت تعاني ألماً وكأنها ترغم نفسها على الابتسام. وقد بدا لكارل أن هذا لا بدّ أن يلفت نظر كل من يشاهد الصورة، وقد بدا له في اللحظة التالية أن وضوح هذا الانطباع شديد أكثر من اللازم ولا يقبله العقل تقريباً. كيف يمكن للمرء أن يحصل من صورة على القناعة الثابتة كل الثبات بشعور بكنّه الشخص المصوَّر. ورفع بصره عن الصورة برهة طويلة. وإذ عاد بنظراته، لفت نظره يد الأم التي كانت تتدلى في الأمام كلياً من مسند الفوتيل، قريبة من التقبيل. وفكر في ما إذا لم يكن من المستحسن ربما أن يكتب للوالدين، كما كانا قد طلبا منه فعلاً، والوالد في النهاية على نحو صارم للغاية في هامبورج. آنذاك، عندما أعلنت له الأم، وهما يقفان إلى النافذة في مساء مرعب، عن سفرة أمريكا، أقسم لنفسه حقاً يميناً مبرماً أن لا يكتب أبداً، لكن ما قيمة مثل هذا اليمين الذي أقسمه فتى غير مجرب هنا في الظروف الجديدة. هكذا بالمثل كان في مقدوره آنذاك أن يحلف يميناً بأنه سوف يصبح جنرالاً في الميليشيا الأمريكية بعد إقامة مدة شهرين في أمريكا، في حين أنه في الواقع يجلس في حجرة صغيرة تحت السقف مع وغدين، في نزل على طرف نيويورك وعليه أن يعترف بالإضافة إلى ذلك أنه هنا في مكانه حقاً. وعلت وجهه ابتسامة وهو يفحص وجهي الوالدين، وكأن في مقدور المرء أن يتبيّن منهما في ما إذا كانا ما زالا يرغبان في أن يحصلا على خبر من ابنهما.

في هذا النظر سرعان ما لاحظ أنه كان متعباً للغاية ولن يقدر على أن يظل ساهراً طوال الليل. سقطت الصورة من يديه، ثم وضع وجهه على الصورة التي أراحت برودتها وجنته وبشعور مريح غشيه النوم.

أوقظ باكراً بدغدغة تحت إبطه. كان الفرنسي هو الذي سمح لنفسه بهذه الصفاقة. غير أن الإيرلندي أيضاً كان يقف أمام طاولة كارل وكان كلاهما ينظر إليه باهتمام لا يقلّ عن

الاهتمام الذي كان قد أبداه إزاءهما في الليل. ولم يعجب كارل من أن نهوضهما لم يكن قد أوقظه؛ لا ريب أنهما لم يتحركا في هدوء على نحو خاص بسوء قصد، فقد كان مستغرقاً في نوم عميق، وعلاوة على ذلك فإن ارتداء الملابس والاغتسال لم يكلفا أيضاً عملاً كثيراً على ما يبدو.

والآن تبادلوا التحية على نحو صحيح وبشيء من الرسمية علم كارل أن الاثنين كانا ميكانيكيي آلات لم يكونا خلال مدة طويلة في نيويورك قد تمكنا من الحصول على عمل ومن ثم كانت أحوالهما قد ساءت إلى حد ما. وكدليل على ذلك فتح روبنسون سترته فأمكن رؤية عدم وجود قميص، لكن الأمر الذي كان يمكن للمرء أن يعرفه من الياقة المفكوكة التي كانت مثبتة على مؤخرة السترة. كانا قد عقدا النيّة على أن يذهبا سيراً على الأقدام إلى المدينة الصغيرة باترفورد التي تبعد عن نيويورك مسيرة يومين، وهناك أماكن عمل شاغرة كما يقال. ولم يكن لديهما أي اعتراض على أن يأتي كارل معهما ووعداه أولاً أن يحملا حقيبته بين الحين والآخر وثانياً، في ما إذا حصلا على عمل، أن يهيئا مكان تدريب له، الأمر الخليق أن يكون في غاية السهولة في حال وجود عمل بعامة. وما كاد كارل يوافق على ذلك حتى قدّما له على نحو ودّيّ النصيحة بأن ينزع السترة الجميلة، إذ ستكون عائقاً لدى كل طلب لمكان تدريب. بالذات في هذا النزل ثمة فرصة طيبة للتخلص من هذه السترة، حيث إن المرأة تقوم بشراء الملابس وبيعها. ساعدا كارل، الذي كان أيضاً ما زال لم يحزم أمره كلياً بخصوص السترة، على نزعها وانطلقا وهما يحملانها. وعندما ارتدى كارل ببطء، وقد تُرك وحيداً وكان ما زال مثقلاً بالنعاس بعض الشيء، ثوبه العتيق المخصص للسفر، لامَ نفسه على بيعه السترة، التي كان يمكنها ربما أن تعود عليه بضرر لدى طلب مكان تدريب، لكن التي لا يمكنها سوى أن تفيده لدى طلبه عملاً أفضل وفتح الباب كي ينادي الاثنين أن يعودا، غير أنه اصطدم بهما ووضعا على الطاولة نصف دولار كإيراد، لكنهما كانا مبتهجي الوجه بحيث إنه كان من المحال أن ينتهي المرء إلى الاقتناع بأنهما لم يحققا لنفسهما أيضاً عائداً من المبيع بل عائداً كبيراً على نحو مزعج.

لم يكن ثمة وقت للتحدث عن ذلك، فقد دخلت الخادمة، وكانت ناعسة تماماً كما كانت في الليل، وطردت الثلاثة إلى الممر مع الإيضاح بأنه يجب ترتيب الغرفة لضيوف جدد. غير أن هذا لم يكن صحيحاً طبعاً، فلم تفعل ذلك سوى لؤماً. وكان على كارل، الذي كان يريد الآن أن يرتّب حقيبته، أن يراقب كيف أمسكت المرأة حوائجه بكلتا يديها وألقتها في الحقيبة بقوة وكأن هذه الحوائج هي حيوانات ما، يجب دفعها إلى الانكماش. صحيح أن الميكانيكيين راحا يشدّان جونلتها ويدقّان على ظهرها، لكنهما إذا كانا يقصدان بهذا مساعدة كارل، فإن هذا كله كان في غير محله. وإذ أغلقت المرأة الحقيبة، دسّتْ المقبض في يد كارل،

نفضت الميكانيكيين وأخرجت الثلاثة من الغرفة مهددة إياهم بأنهم لن يحصلوا على قهوة إذا لم يخرجوا. لا بدّ أن المرأة قد نسيت كلياً على ما يبدو أن كارل لم يكن مع الميكانيكيين منذ البداية، إذ إنها عاملتهم كعصابة واحدة. غير أن الميكانيكيين كانا قد باعاها سترة كارل ودلّلا بهذا على وحدة ما.

في الممر كان عليهم أن يروحوا ذهاباً وإياباً مدة طويلة، ولا سيما الفرنسي، الذي كان قد تأبط كارل، راح يشتم بلا انقطاع، وهدد صاحب النزل بلكمه وطرحه أرضاً إذا ما تقدم إليه، وبدا أنه تهيئة لذلك راح يفرك قبضتيه المكوّرتين بغضب. أخيراً حضر صبي صغير بريء كان عليه أن يشبّ على قدميه حين ناول الفرنسي إبريق القهوة. مع الأسف لم يكن ثمة سوى إبريق ولم يمكن إفهام الصبي أنه ينبغي إحضار أقداح أيضاً. وهكذا كان في مقدور واحد فقط أن يشرب في حين كان الآخران يقفان أمامه وينتظران. ولم يكن لدى كارل رغبة في أن يشرب، غير أنه لم يشأ أن يزعج الآخَرين، وهكذا كان يقف عندما يأتي دوره دون أن يفعل شيئاً سوى أن يضع الإبريق على شفتيه.

للوداع ألقى الإيرلندي الإبريق على البلاط الحجري، وغادروا النزل دون أن يراهم أحد ودلفوا إلى الضباب الصباحي الكثيف المائل للصفرة. ساروا بهدوء بصورة عامة إلى جانب بعضهم بعض على حافة الطريق، كان على كارل أن يحمل حقيبته، ولم يكن من شأن الآخرين على الأرجح أن يحملاها إلا بناء على طلبه، وبين الفينة والأخرى كانت سيارة تنطلق من الضباب فيدير الثلاثة رؤوسهم نحو السيارات الضخمة في الغالب، والتي تلفت النظر هكذا في بنيتها وفي قصر ظهورها، بحيث إنه لم يكن ثمة وقت لملاحظة مجرد وجود ركاب فيها. فيما بعد بدأت طوابير السيارات، التي كانت تحمل مواد غذائية إلى نيويورك، والتي كانت تسير على نحو متصل في خمسة أرتال تملأ الطريق بعرضه الكامل، بحيث لم يكن في مقدور أحد أن يقطع الطريق. ومن وقت لآخر كان الطريق يتسع حتى يصبح ساحة يخطو في وسطها على مرتفع شرطيّ ذهاباً وإياباً لكي يستطيع أن يشمل بنظرته كل شيء ويوجّه بعصا صغيرة حركة المرور على الطريق الرئيسي كما حركة المرور التي تصبّ هنا من الطرق الجانبية، هذه الحركة التي تظل دون مراقبة حتى الساحة التالية والشرطي التالي، لكنها تظل منظّمة على نحو كاف من قبل الحوذية وسائقي السيارات المنتبهين. وأكثر ما أثار دهشة كارل هو الهدوء العامّ. ولولا أصوات الذبائح، لما سمع المرء ربما شيئاً سوى طقطقة الحوافر وطنين وسائل حماية الدواليب من الانزلاق. علماً أن سرعة السفر لم تكن طبعاً دائماً واحدة. فعندما كان يجب إجراء تغييرات كبيرة في ساحات مفردة نتيجة زحام كبير جداً من الجوانب، كانت أرتال كاملة تتعثر وتروح تتحرك خطوة خطوة فحسب، لكن كان يحدث أيضاً أن كل شيء يسير لوهلة بسرعة البرق، حتى يعود إلى الهدوء وكأن فرملة واحدة تحدده. علماً أن أقل غبار لم

يكن يتصاعد من الطريق، كان كل شيء يتحرك في الهواء الأكثر شفافية. ولم يكن ثمة مشاة، وهنا لم تكن بعض نساء سوق يتجولن، كما هو الحال في وطن كارل، لكن كانت تظهر بين الفينة والأخرى سيارة مسطحة تقف عليها عشرون امرأة يحملن سلالاً على ظهورهن، أي نساء سوق على الأرجح ويشرئبنّ بأعناقهن لكي يشملن حركة المرور بنظراتهن ويأملن بسفر أكثر سرعة. ثم كان المرء يرى سيارات مشابهة يتمشى فوقها بعض الرجال وهم يضعون أيديهم في جيوبهم. على إحدى هذه السيارات التي كانت تحمل لافتات متنوعة، قرأ كارل وقد صدرت عنه صرخة صغيرة «عمال مرفأ قُبلوا لنقليات ياكوب.» كانت السيارة تسير الآن ببطء شديد ورجل صغير محنيّ الظهر حيويّ يقف على سلّم السيارة دعا المتجولين الثلاثة للصعود. تخفّى كارل وراء الميكانيكيين، وكأن الخال يمكن أن يكون على السيارة ويراه. وفرح لأن الاثنين أيضاً رفضا الدعوة، وإن كان قد أزعجه إلى حد ما تعبير التكبّر الذي ارتسم على وجهيهما وهما يفعلان ذلك. لا ريب أنه لا ينبغي عليهما أن يعتقدوا أنهم أفضل من أن يدخلوا في خدمة الخال. وعلى الفور أفهمهم هذا، وإن لم يفعل ذلك صراحة طبعاً. هنا طلب منه دِلامارش أن لا يتدخل من فضله في أمور لا يفهمها، فقبول مثل هذا النوع من الناس هو احتيال مشين وسمعة شركة ياكوب سيئة في كل الولايات المتحدة. لم يجب كارل، غير أنه أصبح من الآن فصاعداً يتمسك بالإيرلندي، كما أنه طلب منه الآن أن يحمل الحقيبة عنه قليلاً، وهذا ما فعله هذا بعد أن كرر كارل رجاءه عدة مرات. لكنه راح يشكو بلا انقطاع من ثقل الحقيبة، حتى تبيّن أنه كان ينوي فحسب أن يخفف ثقل الحقيبة من وزن قطعة السجق الفيروني، التي كانت قد لفتت نظره على نحو لذيذ منذ كانوا في الفندق. كان على كارل أن يخرجها، تناولها الفرنسي لكي يعالجها بمديته التي تشبه سيفاً ويلتهمها كلها وحده تقريباً. وكان روبنسون يحصل بين الفينة والأخرى على شريحة، أما كارل، الذي كان عليه أن يحمل الحقيبة مرة أخرى، إذا لم يشأ أن يتركها على الطريق، فإنه لم يحصل على شيء، وكأنه كان قد أخذ نصيبه سلفاً. وبدا له أنه من الصغائر أن يتسول قطعة صغيرة، لكن الغضب تملّكه.

كان الضباب كله قد اختفى، في البُعد كانت تتألق جبال عالية يعلو قممها المتموجة ضباب خفيف. إلى جانب الطريق كان ثمة حقول مزروعة على نحو رديء، تحيط بمصانع كبيرة كانت تنتصب في الأرض الواسعة وقد اسودّت من الدخان. في المساكن الشعبية المتناثرة دونٍ تمييز كانت النوافذ الكثيرة تهتز في شتى الحركات والإضاءة وعلى جميع الشرفات غير المتينة كانت النساء وكان الأطفال يقومون بشتى الأعمال، في حين كانت مفارش وقطع غسيل معلقة وموضوعة حولهم، تخفيهم وتكشفهم، ترفرف في نسيم الصباح وتمتلئ بالهواء. وإذا ما انزلقت النظرات عن المنازل، رأى المرء قبّرات تطير في السماء عالياً وفي الأسفل السنونوات ليس بعيداً جداً فوق رؤوس الركاب.

كان ثمة أمور كثيرة تذكّر كارل ببلاده ولم يكن يدري فيما إذا كان يفعل خيراً بأن يغادر نيويورك ويذهب إلى داخل البلاد. في نيويورك كان البحر وفي كل وقت إمكانية العودة إلى الوطن. وهكذا توقف وقال لكلا مرافقَيه إن لديه رغبة مرة أخرى في أن يبقى في نيويورك. وإذ أراد دلامارش أن يدفعه للتقدم، لم يترك نفسه يُدفع وقال إنه يملك الحق ولا ريب في أن يقرر عن نفسه. وتوجب على الإيرلندي أن يتوسط أولاً ويشرح أن باترفورد هي أجمل من نيويورك بكثير وتوجب على كليهما أن يرجواه جداً قبل أن تابع المسير. وحتى هذا ما كان من شأنه أن يسير لو لم يقل لنفسه إنه قد يكون من الأفضل له أن يأتي إلى مكان لا تكون فيه إمكانية العودة إلى الوطن سهلة للغاية. يقيناً سوف يعمل هناك ويتقدم على نحو أفضل، حيث لن تعيقه أفكار غير ذات نفع.

والآن كان هو الذي سحب الآخَرين وقد ابتهجا غاية الابتهاج بحماسته، وراحا، دون أن يُطلب منهما، يحملان الحقيبة بالتناوب ولم يفهم كارل قط بأي شيء سبّب لهما حقاً هذا الابتهاج الكبير. وصلوا إلى منطقة بدأت ترتفع وعندما كانوا يتوقفون، كان في مقدورهم إذا نظروا إلى الوراء أن يروا بانوراما نيويورك وميناءها يتسعان أكثر وأكثر. وكان الجسر الذي يربط نيويورك ببوسطن يتدلى برفق فوق الهدسون ويهتز إذا ما صغّر المرء عينيه. بدا وكأنه يخلو كلياً من حركة مرور وتحته كان يمتدّ شريط الماء الأملس غير المتحرك. وبدا كل شيء في المدينتين الضخمتين فارغاً ووُضع على غير جدوى. بين المنازل لم يكن بالكاد فرق بين الكبيرة والصغيرة. في عمق الشوارع غير المرئيّ كانت الحياة تدبّ علىالأرجح حسب طريقتها، لكن فوق الشوارع لم يكن يُرى شيء سوى سديم خفيف لم يكن ليتحرك حقاً، لكنه بدا قابلاً للإبعاد بلا جهد. حتى في الميناء، الأكبر في العالم، كان الهدوء قد عاد وفقط بين الفينة والأخرى كان المرء يظن، متأثراً ولا ريب بذكرى منظر سابق عن قُرب، أنه يشاهد سفينة تتقدم مسافة قصيرة. لكن لم يكن المرء يستطيع أن يتابعها طويلاً، كانت تضيع عن الأعين ولا تعود تُرى.

غير أن دِلامارش وروبنسون كانا يريان أكثر على ما يبدو، كانا يشيران يمينا ويساراً ويقوّسان بالأيدي الممدودة ميادين وحدائق يسمّونها بأسمائها. ولم يستطيعا أن يفهما أن كارل كان طوال أكثر من شهرين في نيويورك وبالكاد رأى شيئاً آخر من المدينة سوى شارع واحد. ووعداه، عندما يكسبان في باترفورد ما يكفي، أن يذهبا معه إلى نيويورك ويريانه كل ما يستحق المشاهدة وعلى وجه الخصوص جداً طبعاً تلك الأمكنة التي يتسلى فيها المرء إلى درجة الرضى. وإثر ذلك بدأ روبنسون يغني بفم مليء أغنية راح دِلامارش يرافقها تصفيقاً، والتي عرفها كارل كلحن أوبريت من بلاده أعجبته هنا بالنص الإنكليزي أكثر مما كانت قد

أعجبته في بلاده. وهكذا كان ثمة عرض صغير في الهواء الطلق شارك فيه الثلاثة، والمدينة وحدها في الأسفل، التي تتسلى مع هذا اللحن كما يقال، بدت أنها لا تعرف شيئاً عن ذلك.

ذات مرة سأل كارل أين تقع شركة نقليات ياكوب، وعلى الفور رأى سبّابتي دِلامارش وروبنسون موجهتين إلى ربما النقطة نفسها وربما إلى نقطتين تبعدان عن بعضهما مسافة أميال. وإذ تابعوا المسير، سأل كارل عن أقرب وقت قد يستطيعون فيه العودة إلى نيويورك بدخلٍ كاف. قال دِلامارش إن هذا يمكنه جداً أن يكون خلال شهر، حيث هناك نقص عمال في باترفورد والأجور عالية. وطبعاً سوف يضعون مالهم في صندوق واحد، وذلك لكي تزال الفروق العرضية في مداخيلهم بصفتهم رفقاء. الصندوق المشترك لم يعجب كارل، رغم أن من شأنه بصفته متدرباً أن يكسب طبعاً أقل مما يكسبه عمال تعلموا العمل. بالإضافة إلى ذلك ذكر روبنسون أنه سوف يتوجب عليهم طبعاً، إذا لم يجدوا عملاً في باترفورد، أن يتابعوا المسير، إما لكي يعملوا كعمال زراعيين في مكان ما، أو ربما يذهبون إلى مناجم الذهب في كاليفورنيا، الأمر الذي كان، استنتاجاً من قصص روبنسون المستفيضة، خطته المفضّلة. «لماذا أصبحت ميكانيكياً إذا كنت تريد الآن الذهاب إلى مناجم الذهب؟» سأل كارل، الذي لم يكن يحب أن يسمع عن ضرورة مثل هذه السفرات غير الآمنة. «لماذا أصبحت ميكانيكياً؟» قال روبنسون، «بالتأكيد ليس لكي يجوع ابن أمي. في مناجم الذهب مدخول عظيم.» «كان فيما مضى»، قال دِلامارش. «ما زال»، قال روبنسون وحدّث عن معارف كثيرين أثروا وما زالوا هناك، طبعاً دون أن يحركوا إصبعاً بعد الآن، لكنهم انطلاقاً من صداقة قديمة سوف يساعدونه ومعه بطبيعة الحال رفاقه لكي يثروا. «في باترفورد سوف نحصل على عمل بالقوة»، قال دِلامارش وبهذا تحدث من أعماق كارل، بيد أن ذلك لم يكن طريقة تعبير مطمئنة.

لم يتوقفوا طوال اليوم سوى مرة واحدة في مطعم وتناولوا أمامه على طاولة حديدية، كما بدا لكارل، لحماً نيئاً تقريباً لم يكن بالإمكان تقطيعه بالشوكة والسكين بل تمزيقه. وكان للخبز شكل أسطواني وفي كل رغيف كان ثمة سكين طويلة. مع هذا الطعام جرى تقديم سائل أسود يحرق الحنجرة. لكنه طاب لدِلامارش وروبنسون، وكثيراً ما كانا يرفعان كأسيهما ويقرعانها نخب تحقيق أمانٍ شتى، ويبقيان الكأسين متلاصقين في الأعلى لوهلة. إلى الطاولات المجاورة كان يجلس عمال يرتدون بلوزات ملطخة بالكلس ويتناولون جميعهم السائل الأسود نفسه. وكانت السيارات التي تمرّ بكثرة تلقي موجات غبار على الطاولات. وكانت أوراق جرائد توزع ويُتحدث بانفعال عن إضراب لعمال البناء، وذكر اسم ماك مرات عديدة، واستفهم كارل عنه وعلم أن هذا هو والد ماك الذي يعرفه وأنه كان أكبر مقاول بناء في نيويورك. الإضراب يكلفه ملايين ويهدد ربما عمله. ولم يصدق كارل كلمة من هذه الثرثرة الصادرة عن ناس مسيئين ذوي إطلاع سيئ.

بالإضافة إلى ذلك أصبح الطعام بالنسبة لكارل مريراً بأنه لم يكن معروفاً أبداً كيف سيُدفع ثمنه. من شأن الأمر الطبيعي أن يدفع كل حصته، لكن دلامارش كما روبنسون كانا قد قالا بين الحين والآخر بأنهما قد أنفقا آخر نقودهما أجراً لمبيتهما الليلة الأخيرة. ولم يكن يُرى لديهما ساعة أو خاتم أو شيء قابل للبيع. ولم يكن في مقدور كارل أن يعيّرهما بأنهما ربحا شيئاً من بيع ثيابه، من شأن هذا أن يكون ولا ريب إهانة ووداعاً نهائياً. لكن الأمر العجيب كان أنه لم يكن لدى دِلامارش ولا لدى روبنسون أية هموم بسبب الدفع، بل كانا في مزاج طيب يكفي لأن يحاولا أكثر ما يمكن من المرات التحدث مع النادلة، التي كانت تتنقل بخيلاء بين الطاولات في خطوات متراخية. كان شعرها سائباً من الجانبين بعض الشيء على الجبين والوجنتين وكانت تعيده إلى الوراء مراراً وتكراراً، بأن تُدخل يديها تحته. وأخيراً إذ توقّع المرء منها ربما أول كلمة لطيفة، تقدمت إلى الطاولة، وضعت كلتا يديها عليها وسألت: «من سيدفع؟» ولم يحدث قط أن انطلقت أيد بأسرع مما فعلت الآن أيدي دِلامارش وروبنسون، التي أشارت نحو كارل. لم يُذعر كارل، إذ إنه كان يتوقع الأمر ولم ير شيئاً سيئاً بأن الرفيقين، اللذين كان يتوقع منهما أيضاً منافع، أن يدعاه يدفع بعض الأمور الصغيرة، وإن كان من التهذيب أكثر لو جرى الحديث بوضوح عن هذا الأمر قبل اللحظة الحاسمة. كان الأمر المحرج فقط هو أنه كان على كارل أن يُخرج النقود من جيبه المخفيّ. كانت نيّته الأصلية أن يحتفظ بالنقود من أجل الحاجة الماسّة وأن يضع نفسه إذاً حالياً في صف واحد نوعاً ما مع رفيقيه. كانت الفائدة التي حصل عليها من خلال هذه النقود وقبل كل شيء من خلال الصمت عن الملكية إزاء الرفيقين قد وازنها أكثر من كثير كونهما كانا في أمريكا منذ طفولتهما، وأنهما كانا يملكان معارف وخبرات كافية لكسب مال وأنهما أخيراً لم يكونا معتادين على ظروف حياة أفضل من ظروفهما الحالية. ولم يكن على هذا الدفع أن يخلّ مبدئياً بهذه المقاصد السابقة لكارل في ما يتعلق بماله، إذ كان في مقدوره أن يستغني عن ربع جنيه ولذا أن يضع إذاً قطعة ربع جنيه على الطاولة ويعلن أن هذا هو كل ما يملكه وأنه على استعداد للتضحية به في سبيل السفرة المشتركة إلى باترفورد. ومن أجل سير على الأقدام يكفي أيضاً مثل هذا المبلغ على أتمّ وجه. غير أنه لم يكن يعرف فيما إذا كان لديه ما يكفي من العملة الصغيرة وبالإضافة إلى ذلك كانت هذه العملة كما أوراق النقد المطويّ في مكان ما في عمق الجيب المخفيّ، الذي يجد المرء فيه شيئاً على أحسن وجه إذا أفرغ محتوياته كلها على الطاولة. وعلاوة على ذلك كان من غير الضروري بتاتاً أن يعلم الرفيقان أمر هذا الجيب المخفيّ إطلاقاً. والآن بدا من حسن الحظ أن الرفيقين كانا ما زالا مهتمّين بالنادلة أكثر من اهتمامهما في كيف يجمع كارل النقود من أجل الدفع. أغرى دِلامارش النادلة بأن طلب منها أن تكتب الفاتورة بينه وبين روبنسون ولم تستطع صدّ صفاقات الاثنين سوى بأن تضع يدها كلها على وجه أحدهما أو وجه الآخر وتدفعه بعيداً. في هذه الأثناء جمع كارل تحت قرص المنضدة

النقود في يد واحدة وبالأخرى اصطادها قطعة قطعة في الجيب الخفيّ وأخرجها وهو يتصبب عرقاً. وأخيراً اعتقد، رغم أنه ما زال لا يعرف النقود الأمريكية بدقة، أنه أصبح لديه، على الأقل بناء على كمية القطع، مبلغ يكفي ووضعها على الطاولة. وعلى الفور قطع رنين النقود الدعابات. ومما أثار غيظ كارل ودهشة عامة أنه تبيّن أن النقود تبلغ جنيهاً كاملاً تقريباً. صحيح أن لا أحد سأل لماذا لم يقل كارل سابقاً أي شيء عن النقود التي كان من شأنها أن تكفي لسفرة مريحة بالقطار إلى باترفورد، لكن كارل كان في حَرَج كبير. بعد أن دُفع ثمن الطعام أودع النقود جيبه، ومن يده تناول دِلامارش قطعة نقدية احتاجها بخشيشاً للنادلة التي طوّقها وضغطها إليه، ليعطيها من ثم القطعة من الجانب الآخر.

كان كارل ممتنّاً لهما أنهما لم يبديا أثناء المسير ملاحظات حول النقود بل إنه فكر بعض الوقت أن يعترف لهما بكامل ثروته، غير أنه أمسك عن ذلك إذ لم توجد فرصة سانحة. عند المساء وصلوا إلى منطقة ريفية خصبة. كان المرء يرى على مدّ النظر حقولاً غير مقسّمة تكتسي بخضرتها الأولى على روابٍ منخفضة، وكانت منازل ريفية غالية الثمن تحيط بالطريق العام وطوال ساعات سار المرء بين أسيجة مذهّبة للحدائق، وعدة مرات قطعوا النهر نفسه الذي كان يسيل بطيئا ومرات كثيرة سمعوا فوقهم القطارات الحديدية ترعد على الجسور المقوسة عالياً.

كانت الشمس قد غربت لتوّها على الحافة المستوية لغابات نائية، عندما ألقوا أنفسهم في العشب وسط مجموعة أشجار تقع على رابية، لكي يستريحوا من المشاق. رقد دِلامارش وروبنسون وتمددا ما استطاعا، في حين جلس كارل منتصباً وراح يتطلع إلى الطريق المنخفض عدة أمتار والذي كانت تمرق عليه السيارات، مثلما كان الحال طوال اليوم، متقاربة من بعضها بعض، وكأنها تُرسل من بعيد مراراً وتكراراً بعدد دقيق، وتُنتظر بالعدد نفسه في البُعد الآخر. أثناء اليوم بكامله منذ الصباح الباكر لم يشاهد كارل سيارة تقف ولا راكباً يهبط.

قدّم روبنسون اقتراحاً بتمضية الليلة هنا، لأنهم جميعهم متعبون على نحو كاف، ولأنهم من ثم يستطيعون متابعة المسير في وقت باكر أكثر، ولأنهم أخيراً بالكاد يستطيعون العثور قبل حلول الظلام الدامس على مبيت أرخص وأفضل مكاناً. كان دِلامارش موافقاً وكارل وحده اعتقد بأنه لزام عليه أن يقول إنه يملك نقوداً تكفي ليدفع أجر مبيت الجميع في فندق أيضاً. قال دلامارش بأنهم سوف يحتاجون النقود وليس عليه سوى أن يحتفظ بها. ولم يخفِ دِلامارش إطلاقاً أن المرء يضع في حسابه ولا ريب نقود كارل. ولأن اقتراحه الأول أُخذ به، فقد أعلن روبنسون الآن أنه لكن يتعيّن عليهم، من أجل تقوية أنفسهم للغد، أن يتناولوا طعاماً مغذياً وعلى أحدهم أن يجلب الطعام للجميع من الفندق القريب جداً الذي يقع على الطريق العام ويضيء باللافتة «فندق أوكتسيدنتال.» بصفته الأصغر سناً ولأن أيضاً ما من

أحد آخر قدّم نفسه، لم يتردد كارل في أن يعرض أن يشتري الطعام وذهب إلى الفندق بعد أن حصل على طلبية لحم بدهن مع خبز وبيره.

لا بدّ أن ثمة مدينة كبيرة في الجوار، إذ إن قاعة الفندق الأولى مباشرة التي دخل إليها كارل كانت مليئة من قبل جمهور صاخب وفي البوفيه، التي كانت تمتد إلى جدار طولاني وإلى جدارين جانبيين، كان نُدُل كثيرون يجرون بلا انقطاع وهم يرتدون مآزر بيضاء تصل إلى صدورهم دون أن يتمكنوا من إرضاء الضيوف غير الصبورين، إذ كان المرء يسمع مراراً وتكراراً في شتى المواضع لعنات وقبضات أيدي تضرب على الطاولات. لم ينتبه أحد لكارل؛ كما أنه لم يكن هناك خدمة في القاعة نفسها، كان الضيوف الذين يجلسون إلى الطاولات الصغيرة عملياً بين ثلاثة جيران طاولة، يُحضرون كل ما يرغبونه من البوفيه. كان على كل طاولة من الطاولات ثمة قنينة كبيرة من الزيت أو الخلّ أو ما شابه وكل الأطعمة التي كانت تُحضرمن البوفيه كان يُصبّ عليها قبل تناولها من هذه القنينة. إذا أراد كارل عموماً أن يأتي أولاً إلى البوفيه، حيث من شأن الصعوبات أن تبدأ هنا على الأرجح، لا سيما لدى طلبية كبيرة، فإنه كان يتعيّن عليه أن يشقّ طريقه بين طاولات كثيرة، الأمر الذي لا يمكن تحقيقه طبعاً رغم كل حذر وحيطة دون مضايقة الضيوف مضايقة كبيرة، غير أنهم تحمّلوا كل شيء دون أن يتأثروا، حتى عندما صدم كارل ذات مرة طاولة صغيرة، لكن بدفعة من أحد الضيوف، وكاد يقلبها. صحيح أنه اعتذر، غير أنه لم يُفهم على ما يبدو، كما أنه لم يفهم أقل شيء مما كان يقولونه له بصوت عال.

لدى البوفيه عثر بجهد على مكان صغير شاغر، وطوال مدة كان المنظر مسدوداً أمامه بواسطة مرافق جيرانه المتكئة. وبدا عموماً أن هنا ثمة عادة أن يتكئ المرء بمرفقيه ويضغط قبضة يده على الصدغين؛ ووجب على كارل أن يفكر كيف كان أستاذ اللغة اللاتينية د. كرومبال يكره هذه الوضعية بالذات وكيف كان يقترب دائماً خلسة وبغتة وبمسطرة تظهر فجأة وبدفعة موجعة يُنزل المرفقين من على الطاولة.

وقف كارل ملاصقاً للبوفيه، إذ ما كاد يصطفّ حتى وُضعت وراءه طاولة، وأحد الضيوف الذين جلسوا إليها كان، عندما ينحني إلى الوراء قليلاً لدى الحديث، يمسّ بقبعته الكبيرة ظهر كارل. ولم يكن هناك ثمة أمل بالحصول على شيء من النادل، حتى عندما ذهب الجاران الثقيلان راضيين. بعض المرات كان كارل يمسك عبر الطاولة أحد النُدُل من مئزره، لكن كان هذا دائماً ينتزع نفسه وهو يقلص وجهه. ولم يكن بالإمكان إيقاف أحد، كانوا يجرون ويجرون فحسب. لو كان ثمة على الأقل بالقرب من كارل شيء مناسب للأكل والشراب، لكان أخذه واستعلم عن الثمن ووضع النقود وانصرف مسروراً. لكن لم يكن أمامه سوى صحون تحوي أسماكاً من نوع الرنجة كانت قشورها السوداء تلمع بلون ذهبي. يمكن

لهذه أن تكون باهظة الثمن ولن يكون من شأنها على الأرجح أن تشبع أحداً. وبالإضافة إلى ذلك كان في المتناول أكواز صغيرة من مشروب الروم، لكنه لم يكن يريد أن يجلب روماً لرفيقيه، على كل حال كانا لدى كل مناسبة لا يرغبان سوى الكحول الأكثر تركيزاً ولم يكن يريد أن يساعدهما في هذا أيضاً.

لم يبق أمام كارل إذاً سوى أن يبحث عن مكان آخر ويبدأ جهوده من جديد. لكن الوقت كان أيضاً قد تأخر. وكانت الساعة في طرف القاعة الآخر التي أمكن استبانة عقاربها بصعوبة بإمعان النظر عبر الدخان تشير إلى ما بعد التاسعة. لكن الزحام في مواضع أخرى من البوفيه كان أكبر منه في المكان السابق البعيد بعض الشيء. فضلاً عن ذلك كانت القاعة تمتلئ دائماً أكثر كلما تأخر الوقت. مراراً وتكراراً كان يدخل من الباب الرئيسي ضيوف جدد وهم يلقون هالو كبيرة. في بعض المواضع أخلى ضيوف ما كان على البوفيه على نحو استبداديّ وجلسوا على المنصة وراحوا يشربون نخب بعضهم بعض؛ وكانت تلك أفضل الأماكن، منها ترى القاعة بكاملها.

صحيح أن كارل تابع شقّ طريقه غير أنه لم يعد لديه أمل أن يصل إلى شيء. ولامَ نفسه لأنه، وهو الذي لا يعرف الظروف المحلية، قد عرض نفسه لإحضار الطعام. خليق برفيقيه أن يوبّخاه بكل حق وحتى أن يفكرا أنه لم يجلب شيئاً كي يوفر مالاً. والآن كان يقف حتى في منطقة يجلس فيها ناس إلى طاولات من حوله ويتناولون أطعمة لحوم مطبوخة إلى جانب بطاطا صفراء جميلة، وكان من غير المفهوم بالنسبة له كيف حصل الناس على هذا.

هنا رأى على بُعد بضع خطوات أمامه امرأة متقدمة في السن يبدو أنها من العاملات في الفندق كانت تتحدث ضاحكة مع أحد الضيوف، وهي تدير أثناء ذلك مشبك شعر في تسريحتها على نحو متواصل. وعلى الفور عزم كارل على أن يتقدم بطلبيته إلى هذه المرأة، وذلك لأنها المرأة الوحيدة في القاعة التي كانت تعني له استثناء من الضجيج العام والمطاردة ومن ثم أيضاً لسبب بسيط هي أنها مستخدمة الفندق الوحيدة التي يمكن الوصول إليها، لكن بشرط أن لا تولّي هاربة إلى أعمال لدى الكلمة الأولى التي يوجهها لها. لكن العكس حدث. كان كارل لم يخاطبها بعد، وإنما فقط راقبها قليلاً، إذ، كما ينظر المرء أحياناً جانباً وهو في وسط الحديث، تطلعت إليه، قطعت حديثها، وسألت بلطف وبإنكليزية واضحة مثل قواعد النحو عما إذا كان يبحث عن شيء. «فعلاً»، قال كارل، «لا أستطيع هنا أن أحصل على شيء.» «إذاً تعالَ معي أيها الصغير»، قالت، وودّعت محدّثها الذي رفع قبعته، الأمر الذي بدا هنا تهذيباً يفوق الوصف، أمسكت كارل من يده، ذهبت إلى البوفيه، دفعت أحد الضيوف جانباً، فتحت باباً يُطوى في المنصة، اجتازت مع كارل الممر وراء المنصة، حيث كان يجب

الاحتراس من النُدُل الجارين بلا كلل، فتحت باباً مزدوجاً عليه كسوة جدران وحالاً أصبحا في مخازن كبيرة باردة. «على المرء أن يعرف الآلية»، قال كارل في ذات نفسه.

«ماذا تريد إذاً؟» سألت وانحنت نحوه مستعدة للخدمة. كانت بدينة للغاية، كان بطنها يتأرجح، غير أن وجهها كان، نسبياً طبعاً، ذا تكوين رقيق تقريباً. نظراً لكثرة المأكولات التي كانت هنا منضدة بعناية في رفوف وعلى طاولات، فكر كارل لحظة أن يختار بسرعة لطلبيته عشاء أكثر لذة، لاسيما أنه كان يتوقع أن تخدمه هذا المرأة ذات النفوذ بثمن رخيص، غير أنه أخيراً طلب، إذ لم يخطر على باله شيئاً مناسباً، شحماً وخبزاً وبيره. «لا شيء آخر؟»، سألت المرأة. «لا، شكراً»، قال كارل، «لكن لثلاثة أشخاص.» جواباً على سؤال المرأة عن الاثنين الآخرَين حدّثها كارل عن رفيقيه ببضع كلمات مقتضبة، كان يسرّه أن يُسأل بعض الشيء.

«لكن هذا طعام مساجين»، قالت المرأة وهي تتوقع على ما يبدو طلبات أخرى من كارل. لكن هذا بات يخشى أنها سوف تريد أن تهديه ولا تقبل مالاً ولهذا لاذ بالصمت. «سوف نكون في الحال قد جمّعنا هذا»، قالت المرأة، ذهبت، بحركة تثير الإعجاب قياساً إلى بدانتها، إلى طاولة، قطعت بسكين طويلة رفيعة تشبه نصل منشار قطعة كبيرة من الشحم عليها لحم كثير، تناولت من أحد الرفوف رغيف خبز كبيراً، رفعت من على الأرض ثلاث قناني بيره ووضعت كل شيء في سلة قشّ خفيفة وناولتها إلى كارل. بين هذا وذاك كانت تشرح لكارل أنها قادته إلى هنا لأن الأطعمة في البوفيه إنما تفقد دائماً طزاجتها في الدخان وفي الإفرازات الكثيرة رغم الاستهلاك السريع. لكن كل شيء هو جيد بما فيه الكفاية بالنسبة للناس في القاعة. ولم يقل كارل شيئاً بعد الآن، إذ لم يكن يعرف بما استحق هذه المعاملة المميزة. وفكر برفيقيه، اللذين ربما، مهما كانا أيضاً خبيرين بأمريكا، لم ينفذا حتى إلى هذه المخازن، وكان عليهما أن يكتفيا بالأطعمة الفاسدة على البوفيه. هنا لم يكن صوت يُسمع من القاعة، لابدّ أن تكون الجدران سميكة للغاية لكي تحفظ هذه المخازن ذات السقف المقوس باردة على نحو كاف. كان كارل قد حمل سلة القش طوال مدة في يده، غير أنه لم يفكر بدفع كما أنه لم يتحرك. فقط عندما أرادت المرأة لاحقاً أن تضع في السلة قنينة مماثلة للقناني التي على الطاولات في القاعة، شكرَ وهو يحس بقشعريرة.

«هل ما زال لديك مسير بعيد؟» سألت المرأة. «حتى باترفورد»، أجاب كارل. «هذا بعيد جداً»، قالت المرأة. «مسير يوم»، قال كارل. «ليس أبعد؟» سألت المرأة. «أوه كلا»، قال كارل.

رتّبت المرأة بعض الأشياء على الطاولات، دخل نادل، تطلع باحثاً، أشارت له المرأة إلى صحفة طعام كبيرة فيها كومة من السردين نُثر عليها بعض البقدونس، وحمل من ثم هذه الصحفة بين يديه المرفوعتين وخرج بها إلى القاعة.

«لماذا تريد أن تنام في العراء أصلاً؟» سألت المرأة. «لدينا مكان كاف. نم لدينا في الفندق.» كان هذا مغرياً جداً بالنسبة لكارل وخاصة أنه كان قد أمضى الليلة الفائتة على نحو سيء. «حقيبتي في الخارج»، قال متردداً وليس دون زهو. «احضرها إلى هنا فحسب»، قالت المرأة، «هذا ليس مانعاً.» «لكن رفيقيّ!، قال كارل ولاحظ على الفور أنهما إنما كانا عائقاً فعلاً. «يجوز لهما أيضاً أن يبيتا هنا»، قالت المرأة. «تعال فحسب، لا تدع نفسك تُرجى هكذا.» «على فكرة، رفيقاي شخصان طيبان»، قال كارل، «لكنهما ليسا نظيفين.» «ألم تر إذاً الوسخ في القاعة؟» سألت المرأة وهي تقلص وجهها. «إلينا يستطيع أن يأتي الأسوأ. سوف أدع إذاً ثلاثة أسرّة تُعدّ. لكن فقط في غرفة تحت السقف، إذ إن الفندق مشغول بالكامل، أنا أيضاً انتقلت إلى غرفة تحت السقف، لكن الوضع أفضل على كل حال من العراء.» «لا أستطيع إحضار رفيقيّ»، قال كارل. لقد تصوّر أي ضجيج من شأن الاثنين أن يسبّباه في ردهات هذا الفندق الراقي، وروبنسون خليق أن يوسّخ كل شيء ودلامارش لا يعدم أن يزعج حتى هذه المرأة. «لا أعرف لماذا يكون على هذا أن يكون غير ممكن»، قالت المرأة، «لكنك إذا كنت تريد هذا، إذاً اترك رفيقيك في الخارج وتعالَ وحدك إلينا.» «هذا لا يصير، هذا لا يصير»، قال كارل، «إنهما رفيقاي ويجب عليّ أن أبقى معهما.» «إنك عنيد»، قالت المرأة وحوّلت نظرها عنه، «يريد المرء الخير لك وأن يسدي لك خدمة وأنت تقاوم بكل قوة.» أدرك كارل كل هذا، غير أنه لم يعرف مخرجاً، وهكذا قال فحسب: «جزيل شكري على لطفك»، ثم تذكر أنه لم يكن قد سدد الثمن بعد، وسأل عن المبلغ المطلوب. «لا تدفع حتى تعيد لي سلة القش»، قالت المرأة. «يجب أن أحصل عليها صباحاً باكراً كحد أقصى.» «موافق»، قال كارل. فتحت باباً كان يؤدي إلى الخارج مباشرة وقالت، وهو يخرج بانحناءة: «طابت ليلتك. لكنك لا تتصرف على نحو صحيح.» كان قد ابتعد بضع خطوات عندما نادته: «إلى اللقاء غداً!»

بالكاد كان في الخارج، تناهى إلى سمعه مرة أخرى الضجيج القادم من القاعة الذي لم يخفت وباتت تتخلله نغمات أوركسترا تعزف بآلات بالنفخ. وكان فرحاً لعدم اضطراره للخروج عبر القاعة. كان الفندق مضاء الآن في جميع طوابقه الخمسة وقد أضاء الشارع الطريق العام أمامه في كامل عرضه. وكانت السيارات ما زالت تسير، وإن بتتابع متقطع، بسرعة أكبر متكاثرة من بعيد أكثر مما كانت في النهار، وكانت الأشعة البيضاء لمصابيحها تتحسس أرضية الطريق، وتتجول بأضواء شحبتْ على منطقة ضوء الفندق وتسرع مضيئة في الظلمة الأخرى.

وجد كارل الرفيقين في نوم عميق، لكنه كان قد غاب طويلاً. إذ أراد أن يضع ما جلبه بطريقة تثير الشهية على أوراق وجدها في السلة، لكي يوقظ الرفيقين بعد أن يصبح كل شيء جاهزاً، شاهد مذعوراً حقيبته، التي كان قد تركها مغلقة والتي كان يحمل مفتاحها، مفتوحة

على نحو كامل، في حين كان نصف محتوياتها منثوراً حولها على العشب. «انهضا!»، نادى، «تنامان واللصوص كانوا هنا.» «هل ينقص شيء؟» سأل دِلامارش. لم يكن روبنسون قد استيقظ تماماً ورغم ذلك أمسك البيره. «لا أدري»، نادى كارل، «لكن الحقيبة مفتوحة. هذا طيش أن تناما وتتركا الحقيبة هنا دون حراسة.» ضحك دِلامارش وروبنسون وقال الأول: «لا يجوز لك في المرة القادمة أن تغيب طويلاً هكذا. يبعد الفندق عشر خطوات وأنت تحتاج للذهاب والعودة ثلاث ساعات. شعرنا بالجوع، وفكرنا بأنه يمكن أن يكون لديك في الحقيبة شيء يؤكل فدغدغنا القفل حتى فتح. لكن لم يكن ثمة شيء في الداخل ويمكنك أن تحزم كل شيء بهدوء مرة أخرى.» «هكذا»، قال كارل، وهو يحدق في السلة التي راحت تفرغ بسرعة وأنصت للصوت الغريب الذي كان روبنسون يحدثه أثناء الشراب، وذلك لأن السائل كان يتسرب أولاً إلى داخل البلعوم بعيداً، لكنه من ثم يقذف عائداً مرة أخرى بنوع من الصفير، لكي ينحدر الآن فقط بدفق كبير في العمق. «هل انتهيتما من الطعام؟» سأل، إذ استردّا أنفاسهما واستراحا. «ألم تأكل في الفندق؟» سأله دِلامارش، الذي ظن أن كارل إنما يطالب بحصته. «إذا كنت تريد أن تتابع الأكل، فأسرع»، قال كارل وذهب إلى حقيبته. «يبدو أن لديه نزوات»، قال دِلامارش لروبنسون. «ليس لديّ نزوات»، قال كارل، «لكن هل ربما من الصحيح فتح حقيبتي في غيابي ورمي حوائجي. أدري أنه على المرء بين الرفاق أن يتحمّل بعض الأمور، وقد أعددت نفسي لذلك، لكن هذا هو أكثر من اللازم. سوف أبيت في الفندق ولن أذهب إلى باترفورد.» «هل ترى يا روبنسون، هكذا يتكلم المرء»، قال دلامارش، «هذه هي طريقة الحديث الراقية. إنه لألماني. لقد حذرتني منه باكراً، غير أني كنت مجنوناً طيباً وأخذته معنا. لقد منحناه ثقتنا، سحبناه معنا طوال يوم كامل، بهذا خسرنا نصف يوم على الأقل والآن ـ لأن أحدهم في الفندق أغراه ـ ينصرف، ينصرف ببساطة. لكن لأنه ألماني ذو وجهين، لا يفعل ذلك بصراحة، وإنما يبحث لنفسه عن الذريعة بالحقيبة ولأنه ألماني غليظ، لا يستطيع الانصراف بدون أن يهيننا في شرفنا ويسمّينا لصوصاً لأننا مزحنا مع حقيبته مزحة صغيرة.» وهو يحزم حوائجه قال كارل دون أن يلتفت: «تابع الحديث هكذا وسهّل عليّ الانصراف. أعرف تماماً ما هي الرفقة. كان لديّ في أوروبا أصدقاء أيضاً ولا أحد يستطيع أن يلومني بأني تصرفت إزاءه تصرفاً خاطئاً أو خبيثاً. إننا الآن بلا اتصال طبعاً، لكن إذا ما قدّر لي أن أعود مرة أخرى إلى أوروبا، فإنهم سوف يستقبلونني جميعهم استقبالاً حسناً ويعترفون بي على الفور صديقاً لهم. وأنتما دِلامارش وروبنسون تتهمانني بأنني غدرت بكما، بعد أن كنتما لطيفين، الأمر الذي لن أخفيه قط، اهتممتما بي وأمّلتماني بمكان تدريب في باترفورد. لكن الوضع هو أمر آخر. إنكما لا تملكان شيئاً، وهذا لا يقلل من قيمتكما في عينيّ لا في كثير أو قليل، لكنكما تستكثران عليّ ملكيتي الصغيرة وتحاولان لهذا إذلالي، هذا لا أستطيع أن أطيقه. والآن بعد أن كسرتما قفل حقيبتي، لا تعتذران بكلمة واحدة، وإنما

تشتمانني إضافة إلى ذلك وتشتمان شعبي. لكنكما بهذا تأخذان مني كل إمكانية أيضاً للبقاء لديكما. للمناسبة، هذا لا ينطبق عليك حقيقة يا روبنسون. إني لا أعترض على طبيعتك سوى أنك مرتبط بدلامارش أكثر من اللازم.» «ها نحن نرى»، قال دِلامارش بأن تقدم إلى كارل ودفعه دفعة خفيفة، كما للفت انتباهه، «ها نحن نرى كيف تنكشف. طوال اليوم وأنت تسير ورائي، تمسك بسترتي، تقلد كل حركة من حركاتي وكنت في ما عدا ذلك هادئاً على نحو كامل. لكن الآن إذ تحس في الفندق سنداً ما، بدأت تلقي خطباً كبيرة. إنك مكّار صغير وما زلت لا أدري في ما إذا كنا سنقبل الأمر هكذا بهدوء. في ما إذا لن نطلب ثمن ما تعلمته منا. يا روبنسون، يرى أننا نحسده على ملكيته. يوم عمل في باترفورد ـ ولا نتحدث عن كاليفورنيا ـ ويصبح لدينا عشرة أضعاف ما أريتنا إياه وما قد تكون ما زلت تخفيه في بطانة سترتك. إذاً فقط انتباه دائماً على لسانك!» كان كارل قد نهض من عند الحقيبة ورأى الآن أيضاً روبنسون يتقدم نحوه والنعاس يبدو عليه، غير أنه نشيط بعض الشيء من البيره. «إذا بقيت هنا طويلاً»، قال، «يمكنني ربما أن ألقى مفاجآت أخرى. يبدو أن لديك رغبة في أن تبرحني ضرباً.» «لكل صبر نهاية»، قال روبنسون. «من الأفضل أن تصمت يا روبنسون»، قال كارل، دون أن يدع دِلامارش يغيب عن ناظريه، «في داخلك تعطيني حقاً، لكن في الظاهر يجب عليك أن تساند دِلامارش.» «هل تريد ربما أن ترشوه؟» سأل دِلامارش. «لا يخطر ببالي»، قال كارل. «يسرني أن أنصرف ولا أريد أن يكون لي علاقة بعد مع أحد منكما. فقط أريد أن أقول شيئاً آخر. لقد اتهمتني بأني أملك مالاً وأخفيته عنكما. لنفترض أن هذا حقيقي، ألم يكن صحيحاً جداً تصرفي إزاء ناس لا أعرفهم سوى بضع ساعات وألا تؤكد بسلوكك الحالي صحة مثل طريقة التصرف هذه؟» «ابقَ هادئاً»، قال دلامارش لروبنسون، رغم أن هذا لم يحرك ساكناً. ثم سأل كارل: «إذ إنك صادق على نحو لا يُصدّق، استمر في هذا الصدق، إذ نقف إلى جانب بعضنا براحة، واعترف لماذا تريد أن تذهب إلى الفندق.» واضطر كارل أن يخطو خطوة فوق الحقيبة، إذ كان دلامارش قد اقترب منه كثيراً. لكن دلامارش لم يتأثر بهذا، دفع الحقيبة جانباً، تقدم خطوة، حيث وضع قدمه على جزء من قميص أبيض كان قد ظل على العشب، وكرر سؤاله.

وكأنه قادم لكي يجيب، صعد من الطريق رجل يحمل مصباحاً يدوياً يضيء إضاءة قوية. كان نادلاً من الفندق. ما كاد يلمح كارل حتى قال: «أبحث عنك ما يقرب من نصف ساعة. لقد فتشت كل المنحدرات على جانبي الطريق. ذلك أن السيدة كبيرة الطباخين تقول لك إنها بحاجة ماسّة إلى سلة القش التي أعارتك إياها.» «هذه هي»، قال كارل بصوت غير واثق نتيجة الانفعال. كان دلامارش وروبنسون قد تنحيا جانباً في تواضع مفتعل، كما كانا يفعلان دائماً أمام ناس غرباء ذوي أحوال جيدة. تناول النادل السلة وقال: «ثم إن السيدة

كبيرة الطباخين تسألك في ما إذا كنت لم تفكر بالأمر وتريد ربما أن تبيت في الفندق. كذلك كلا السيدين الآخرين خليق أن يُرحَّب بهما، إذا كنت تريد اصطحابهما. الأسرّة أعدّت. هذه الليلة دافئة، لكن النوم هنا على المنحدر ليس دون خطر، غالباً ما توجد ثعابين.» «لأن السيدة كبيرة الطباخين ودودة هكذا، سوف أقبل دعوتها»، قال كارل وانتظر كلمة من رفيقيه. غير أن روبنسون كان يقف ببلادة وكان دِلامارش يضع يديه في جيبيه وينظر إلى النجوم. كان الاثنان يحسبان على ما يبدو أن كارل سوف يصطحبهما معه هكذا ببساطة. «من أجل هذه الحالة»، قال النادل، «أحمل المهمة بأن أقودك إلى الفندق وأحمل حقيبتك.» «إذاً انتظر لحظة من فضلك»، قال كارل وانحنى لكي يضع بضعة الأشياء التي كانت متناثرة في الحقيبة.

فجأة انتصب. الصورة لم تكن موجودة، كانت تقع في الأعلى تماماً في الحقيبة ولم تكن في أي مكان. كان كل شيء مكتملاً، فقط الصورة كانت مفقودة. لا أستطيع العثور على الصورة»، قال لدِلامارش راجياً. «أية صورة؟» سأل هذا. «صورة والديّ»، قال كارل. «لم نر صورة»، قال دِلامارش. «لم يكن هناك صورة، يا سيد روسمان»، أكد أيضاً روبنسون من ناحيته. «لكن هذا غير ممكن»، قال كارل وقرّبت نظراته الباحثة عن عون النادلَ. «كانت تقع في الأعلى والآن راحت. «لو لم تعبثا بالحقيبة.» «كل خطأ مستحيل»، قال دِلامارش، «في الحقيبة لم يكن صورة.» «كانت بالنسبة لي أكثر أهمية من كل ما لديّ في الحقيبة غيرها»، قال كارل للنادل، الذي كان يدور ويبحث في العشب. «إذ إنها لا تعوَّض، لن أحصل على صورة ثانية.» وعندما توقف النادل عن البحث الميئوس منه، أضاف قائلا: «كانت الصورة الوحيدة لوالديّ التي كانت في حوزتي.» ردّاً على ذلك قال النادل دون أي تبرير: «قد يمكننا فحص جيوب السيدين.» «نعم»، قال كارل على الفور، «يجب عليّ أن أجد الصورة. لكن قبل أن أفتش الجيوب، أقول بأن من يعطيني الصورة طوعاً، يحصل على كامل الحقيبة المليئة.» بعد لحظة من الهدوء العام قال كارل للنادل: «رفيقاي يريدان إذاً على ما يبدو تفتيش الجيوب. لكن الآن أيضاً حتى إني أعد الذي توجد الصورة في جيبه بالحقيبة كاملة. أكثر من ذلك لا أستطيع أن أفعل.» في الحال بدأ النادل في تفتيش دِلامارش، الذي بدا له أن معاملته أكثر صعوبة من معاملة روبنسون، الذي تركه لكارل. ولفت انتباه كارل أنه يجب تفتيش الاثنين في الوقت نفسه، إذ إنه يمكن لأحدهما دون مراقبة أن يضع الصورة جانباً. لدى المسكة الأولى عثر كارل في جيب روبنسون على ربطة عنق تخصه، غير أنه لم يأخذها ونادى النادل: «مهما وجدت لدى دِلامارش، اترك له كل شيء رجاء. لا أريد شيئاً سوى الصورة، الصورة وحدها.» لدى تفتيش جيبي السترة العلويين وصل كارل بيده إلى صدر روبنسون الحارّ المدهن وهنا أدرك أنه ربما يظلم رفيقه ظلماً كبيراً. والآن أسرع حسب الإمكان. وكان كل شيء بلا جدوى، لم يمكن العثور على الصورة لا لدى روبنسون ولا لدى دِلامارش.

«لا يفيد شيئاً»، قال النادل. «أغلب الظن قاما بتمزيق الصورة وإلقاء القطع بعيداً»، قال كارل، كنت أظن أنهما صديقاي، لكن في الخفاء لم يكونا يريدان سوى أذيّتي. ليس روبنسون في الواقع، ما كان من شأنه أن يرد في خاطره أن يكون للصورة مثل هذه القيمة بالنسبة لي، لكن دلامارش بالأكثر.» لم ير كارل سوى النادل أمامه، الذي كان مصباحه يضيء دائرة صغيرة، في حين أن كل شيء ما عدا ذلك، أيضاً دِلامارش وروبنسون، كان في ظلمة دامسة.

طبعاً لم يعد الحديث عن أنه يمكن اصطحاب الاثنين إلى الفندق. رفع النادل الحقيبة على كتفيه، أخذ كارل السلة، وذهبا. كان كارل قد وصل إلى الطريق عندما توقف قاطعاً تفكيره وصاح في الظلام: «اسمعا! إذا قدّر لأحدكما أن تكون الصورة لديه ويريد أن يحضرها لي إلى الفندق، فإنه ما زال يحصل على الحقيبة، ولا يُبلّغ عنه. إني أقسم على هذا.» لم يتلقَ جواباً صريحاً، أمكن فقط سماع كلمة مقطوعة، بداية نداء من روبنسون، لكن الذي يبدو أن دلامارش قد سدّ فمه على الفور. وانتظر كارل مدة وجيزة فيما إذا كان من شأنهما في الأعلى أن يقررا أمراً آخر. صاح مرتين متباعدتين: «ما زلت هنا.» لكن ما من صوت أجاب، مرة واحدة فقط تدحرج حجر على السفح، ربما مصادفة، ربما كانت ضربة أخطأت هدفها.

V
في فندق أوكتسيتندال

في الفندق اقتيد كارل حالاً إلى نوع من مكتب، كانت فيه كبيرة الطباخين تُملي وبيدها دفتر ملاحظات رسالة على شابة طابعة على الآلة الكاتبة. كان الإملاء الدقيق للغاية، والضرب المتقن والمرن على لوحة المفاتيح يطغيان على تكتكة ساعة الحائط التي لم تكن تُسمع سوى بين الحين والآخر، والتي كانت تشير إلى الحادية عشرة والنصف تقريباً. «هكذا!» قالت كبيرة الطباخين، أغلقت دفتر الملاحظات، نهضت طابعة الآلة الكاتبة وقلبت الغطاء الخشبي على الآلة، دون أن تحيد نظرها لدى هذا العمل الآليّ عن كارل. كانت تبدو مثل صبية مدرسة، كانت مريلتها مكويّة بعناية فائقة، على الكتفين مثلاً متموجة، التسريحة عالية حقاً والمرء يعجب بعض الشيء عندما يرى بعد هذه التفاصيل وجهها الجادّ. بعد انحناءات أولاً إزاء كبيرة الطباخين ثم إزاء كارل ابتعدت وتطلع كارل من غير عمد إلى كبيرة الطباخين بنظرة فاحصة.

«لكن هذا جميل، أنك حضرت»، قالت كبيرة الطباخين. «ورفيقاك؟» «لم أجلبهما معي»، قال كارل. «لا ريب أنهما ينطلقان باكراً في المسير»، قالت كبيرة الطباخين، وكأنها توضح الأمر لنفسها. «أليس عليها أن تفكر بأن أسير أنا أيضاً معهما؟» تساءل كارل ولذا قال لكي يستبعد كل شك: «لقد افترقنا ونحن على خلاف.» وبدت كبيرة الطباخين أنها تفهم الأمر كنبأ مريح. «إذاً أنت حر؟» سألت. «نعم، أنا حر»، قال كارل وما من شيء بدا لها أقل قيمة. «اسمع، ألا تريد أن تقبل عملاً هنا في الفندق؟» سألت كبيرة الطباخين. «بسرور كبير»، قال كارل، «لكن درايتي قليلة بشكل مخيف. لا أقدر حتى إن أكتب على الآلة الكاتبة مثلاً.» «ليس هذا هو الأهم»، قالت كبيرة الطباخين. «من شأنك أن تحصل في البداية على عمل صغير جداً فقط ويكون عليك أن ترى كيف ترتقي بالجدّ والاهتمام. بيد أني أعتقد على كل حال أنه من الأفضل لك ويناسبك أكثر أن تستقرّ في مكان ما بدلاً من أن تتجول عبر العالم. تبدو لي أنك لم تُخلَقْ لذلك.» «من شأن الخال أن يوقّع على كل هذا»، قال كارل وهزّ رأسه بالموافقة. في الوقت نفسه تذكّر أنه، وهو المهتَمّ به، لم يُعرِّف بنفسه بعد. «المعذرة رجاء»، قال،

«إنني ما زلت لم أعرّف بنفسي بعد، اسمي كارل روسمان.» «أنت ألماني، أليس كذلك؟» «نعم»، قال كارل، «لم يمض عليّ مدة طويلة في أمريكا.» «من أين أنت إذاً؟» «من براغ في بوهيميا»، قال كارل. «عجباً»، نادت كبيرة الطباخين بلغة ألمانية ذات نبرة إنكليزية قوية ورفعت تقريباً ذراعيها، «فنحن إذاً من وطن واحد، اسمي غرته ميتسلباخ وأنا من فيينا. وبراغ أعرفها معرفة ممتازة، عملت طوال نصف عام في مطعم الوزّة الذهبية في ميدان فنتسل. لكن تصوّر مرة واحدة فقط!» «متى كان ذلك؟» سأل كارل. «مضى على ذلك سنوات طويلة.» «الوزة الذهبية القديم»، قال كارل «هُدم قبل عامين.» «نعم، طبعاً»، قالت كبيرة الطباخين وهي غارقة كلياً في زمن مضى.

بيد أنها نادت فجأة، وقد عادت إلى حيويتها، وأمسكت يدي كارل: «الآن وقد تبيّن أنك من بلادي، لا يجوز لك بأي ثمن أن تذهب من هنا. لا يجوز لك أن تسيء لي بهذا. هل لديك رغبة مثلاً بأن تصبح صبي مصعد؟ قل نعم فتصبحه على الفور. عندما تكون قد تجولت قليلاً، سوف تعرف أن الحصول على مثل هذه الأعمال ليس أمراً يسيراً على نحو مخصوص، فهي أفضل بداية يمكن للمرء أن يتصورها. إنك تقابل جميع النزلاء، يرونك دائماً، يكلفونك مهامّ صغيرة، باختصار، لديك كل يوم إمكانية للوصول إلى ما هو أفضل. دعني أهتم بكل ما تبقى!» «صبي مصعد أحب جداً أن أكون»، قال كارل بعد استراحة قصيرة. ومن شأن التردد في قبول عمل كصبي مصعد مراعاة لصفوفه الخمسة في المدرسة الثانوية أن يكون سخفاً كبيراً. هنا في امريكا ثمة سبب بالأحرى أن يخجل المرء من صفوف الثانوية الخمسة. للمناسبة، كان صبية المصاعد يعجبون كارل دائماً، كانوا يبدون له مثل زينة الفندق. «أليست معرفة اللغة ضرورية؟» سأل. «إنك تتحدث الألمانية وإنكليزية جميلة، وهذا يكفي على أتمّ وجه.» «تعلمت الإنكليزية حتى الآن في أمريكا خلال شهرين ونصف الشهر»، قال كارل، ظاناً أنه لا يجوز له أن يخفي امتيازه الوحيد. «هذا يشفع لك على نحو كاف»، قالت كبيرة الطباخين. «عندما أفكر بمدى الصعوبات التي سبّبتها الإنكليزية لي. لكن ذلك كان قبل ثلاثين عاماً. يوم أمس بالذات تحدثت عن ذلك. إذ يوم أمس كان عيد ميلادي الخمسين.» وحاولت مبتسمة قراءة الانطباع الذي تركه وقار هذا العمر على تعابير وجه كارل. «فأتمنى لك حظاً سعيداً»، قال كارل. «يمكن للمرء أن يحتاج هذا دائماً»، قالت، صافحت كارل، وعادت نصف حزينة على هذه الكلمة من الوطن التي كانت قد وردت على ذهنها في الحديث بالألمانية.

«لكنني أستوقفك هنا»، قالت من ثم. «ويقيناً إنك متعب للغاية كما أنه يمكننا أن نتحدث عن كل شيء في النهار. إن الفرحة بلقاء واحد من الوطن تجعل المرء شارد العقل.

تعال، سوف أقودك إلى غرفتك.» «ما زال لديّ رجاء أيتها السيدة كبيرة الطباخين»، قال كارل لدى رؤيته صندوق الهاتف الذي كان على طاولة، «من الممكن أن يجلب لي رفيقاي السابقان غداً، ربما في الصباح الباكر، صورة أنا في أشد الحاجة لها. سيكون لطفاً كبيراً منك إذا خابرت البواب ليتفضل بأن يرسل لي الشخصين أو يدعني أحضر إليه.» «طبعاً»، قالت كبيرة الطباخين، «لكن ألن يكفي أن يستلم هو الصورة منهما؟ ما هي هذه الصورة، إذا جاز السؤال؟» «إنها صورة والديّ»، قال كارل، «لا، يجب عليّ أن أتحدث معهما.» لم تقل كبيرة الطباخين شيئاً آخر وأعطت البواب هاتفياً الأمر بهذا الخصوص، وذكرت ٥٣٦ كرقم لغرفة كارل.

من ثم خرجا عبر باب يقابل أحد أبواب المدخل إلى ممر صغير، حيث كان صبي مصعد صغير السن يستند نائماً إلى درابزين أحد المصاعد. «يمكننا أن نخدم أنفسنا»، قالت كبيرة الطباخين بصوت منخفض وتركت كارل يدخل إلى المصعد. «وقت عمل من عشر ساعات إلى إثنتي عشرة ساعة هو وقت طويل بعض الشيء بالنسبة إلى مثل هذا الصبي»، قالت من ثم أثناء صعود المصعد إلى الأعلى. «لكن الأمر مميز في أمريكا. هذا الصبي الصغير مثلاً، لقد وصل إلى هنا مع والديه قبل نصف عام فقط، وهو إيطالي. الآن يبدو أنه من غير الممكن أن يتحمّل العمل، وجهه يخلو من اللحم، ينام أثناء العمل، رغم أنه بطبيعته يعمل عن طيب خاطر ـ لكن يجب عليه أن يخدم مدة نصف عام هنا أو في مكان ما آخر في أمريكا ويتحمل كل شيء بسهولة وبعد خمس سنوات سوف يكون رجلاً قوياً. عن مثل هذه الأمثلة يمكنني أن أحدثك طوال ساعات. علماً أني لا أفكر بك، فأنت فتى شديد البأس. عمرك سبعة عشر عاماً، أليس كذلك؟» «في الشهر القادم أبلغ السادسة عشرة»، أجاب كارل. «حتى ستة عشر فقط»، قالت كبيرة الطباخين، «إذاً تشجع فحسب!»

فوق قادت كارل إلى غرفته، كانت كغرفة تحت السقف ذات جدار مائل، صحيح، غير أنها في ما عدا ذلك ومن خلال إضاءتها بمصباحين كهربائيين كانت مريحة للغاية. «لا تفزع من الأثاث»، قالت كبيرة الطباخين، «فهي ليست غرفة فندق، وإنما هي غرفة من شقتي، التي تتألف من ثلاث غرف، بحيث إنك لا تزعجني أقل إزعاج. سأغلق باب التوصيل وتبقى بغير ما كلفة. غداً بصفتك مستخدماً جديداً في الفندق سوف تحصل طبعاً على غرفتك الصغيرة الخاصة بك. لو كنت قد حضرت مع رفيقيك، كنت وضعتك في غرفة نوم الخدم المشتركة، لكن لأنك وحدك، أفكر أن الأمر يناسبك هنا على نحو أفضل، ولو كان عليك أن تنام فقط على صوفا. والآن نم هنيئاً حتى تقوّي نفسك للخدمة. غداً لن تكون صارمة بعد.» «أشكرك جزيل الشكر على كرمك.» «انتظر»، قالت وقد توقفت أثناء خروجها، «لكن كان من شأنك أن توقظ قريباً.» وذهبت إلى أحد الأبواب الجانبية للغرفة، طرقت ونادت: «تيريزه!» «نعم، أيتها

السيدة كبيرة الطباخين»، ردّ صوت الكاتبة الصغيرة على الآلة الكاتبة، «عندما تذهبين لإيقاظي باكراً، عليك أن تذهبي عبر الممر، هنا في الغرفة ينام ضيف. لقد بلغ به التعب أشدّه.» ابتسمت لكارل بينما كانت تقول هذا. «هل فهمتِ؟» «نعم، أيتها السيدة كبيرة الطباخين!» «ليلة طيبة أتمنى لك.»

«إنني أنام»، قالت كبيرة الطباخين موضحة، منذ بضع سنوات نوماً سيئاً على نحو بالغ. الآن أنا راضية بعملي وليس لديّ هموم في الحقيقة. لكن لا بدّ أن عواقب همومي السابقة هي التي تسبّب لي هذا الأرق. عندما أغفو في الساعة الثالثة صباحاً يمكنني أن أكون مسرورة. لكن وبما أنه يتعيّن عليّ أن أكون في عملي من الساعة الخامسة أو الخامسة والنصف كحد أقصى، فإنه عليّ أن أدع أحداً يوقظني وخاصة بحذر، وذلك لكي لا تزداد عصبيتي. وهنا توقظني تيريزه. لكن الآن صرت تعرف فعلاً كل شيء وما زلت لا أنصرف مطلقاً. ليلة طيبة!» ورغم ثقلها هرعت من الغرفة.

انتظر كارل النوم بسرور، إذ إن اليوم أتعبه غاية التعب. ولم يستطع أن يتمنى قط جواً أكثر راحة لنوم طويل هادئ. صحيح أن الغرفة لم تكن مخصصة كغرفة نوم، كانت بالأحرى غرفة جلوس أو بالأصح غرفة استقبال لكبيرة الطباخين، ومنضدة تشطيف أُحضرت إكراماً له لهذا المساء بالذات، ولكن رغم ذلك لم يحس كارل نفسه دخيلاً، بل معتنى به على نحو أفضل فحسب. كانت حقيبته قد وضعت بشكل صحيح ومنذ مدة طويلة لم تكن في أمان أكثر. على خزانة واطئة ذات أدراج منزلقة فُرش عليها غطاء صوف كان ثمة صور مختلفة في أُطر وتحت زجاج، لدى معاينة الغرفة توقف كارل هناك وراح ينظر إلى الصور. كانت في الغالب صوراً قديمة يعرض معظمها فتيات يرتدين ملابس غير حديثة وغير مريحة، وقبعات صغيرة مرتخية لكن عالية، اليد اليمنى تستند على شمسية، الوجه مولٍّ شطر الناظر إلا أن النظرات زائغة. بين صور الرجال لفتت انتباه كارل على نحو خاص صورة جندي شاب كان قد وضع الطاقية على منضدة صغيرة، يقف مشدود القامة بشعره الفاحم غير المنتظم تملأه ضحكة فخورة لكن مقموعة. كانت أزرار بزته العسكرية قد طليت بالذهب في وقت لاحق. كانت جميع هذه الصور من أوروبا، وأغلب الظن أنه كان يمكن قراءة ذلك على الظهر بدقة أيضاً، بيد أن كارل لم يشأ أن يمسكها بيده. كان بودّه أن يضع صورة والديه في غرفته المقبلة هكذا كما هي هذه الصور موضوعة هنا.

وهو يتمطى بعد تغسيل جيد لكامل جسمه، والذي سعى أن يقوم به دون أن يحدث صوتاً مراعاة لجارته، مستبقاً متعة النوم على كنبة، خيّل له أنه يسمع طرقاً خفيفاً على بابه. لم يكن بالإمكان التثبت حالاً على أي باب، كما كان يمكن أن يكون مجرد صوت عرضيّ. كما أنه لم يتكرر على الفور وكاد كارل يغفو تقريباً، عندما طُرق مرة أخرى. لكن لم يكن

ثمة شك بعد الآن من أنه كان طرقاً وأنه أتى من باب الضاربة على الآلة الكاتبة. ذهب كارل إلى الباب على رؤوس أصابعه وسأل بصوت منخفض جداً بحيث إنه ليس من شأن ذلك أن يوقظ أحداً فيما إذا كان نائماً بالجوار: «هل تطلبين شيئاً؟» على الفور وبصوت خافت بالمثل: «ألا تريد أن تفتح الباب؟ المفتاح في القفل من ناحيتك.» «رجاء»، «عليّ أولاً أن أرتدي ملابسي.» ثمة انقطاع قصير، ثم جاء: «هذا غير ضروري. افتح الباب واستلقِ في الفراش، سوف أنتظر قليلاً.» «حسناً»، قال كارل وفتح الباب أيضاً، لكنه بالإضافة إلى ذلك أشعل الضوء الكهربائي. «إني أرقد»، قال من ثم بصوت أعلى قليلاً. هنا دخلت من غرفتها المظلمة الضاربة الصغيرة على الآلة الكاتبة، وكانت ترتدي الملابس نفسها التي كانت ترتديها في المكتب. كانت طوال الوقت لم تفكر قط بأن تنام.

«اعذرني كثيراً»، قالت وهي تقف إلى جانب فراش كارل وقد انحنت قليلاً، «ولا تشِ بي رجاء. كما أني لن أزعجك طويلاً، أعرف أنك منهك.» «ليس الأمر سيئاً إلى هذا الحد»، قال كارل، «لكن ربما كان من الأفضل لو كنت قد ارتديت ملابسي.» كان مضطراً أن يستلقي ممدداً لكي يكون مغطى حتى الرقبة، إذ إنه لم يكن لديه قميص نوم. «لن أبقى سوى لحظة»، قالت وأمسكت كرسياً، «هل أستطيع أن أجلس إلى جانب الكنبة؟» كارل أومأ برأسه. جلست ملتصقة بالكنبة، بحيث اضطر كارل إلى التنحي نحو الحائط، لكي يستطيع أن يرفع النظر إليها. كان لها وجه دائري مستو، فقط كانت الجبهة عالية على نحو غير مألوف، لكن ربما كان ذلك يعود إلى تسريحة الشعر، التي لم تكن تناسبها. كانت بدلتها في غاية النظافة والعناية. في يدها اليسرى كانت تصرّ منديلاً.

«هل ستبقى هنا مدة طويلة؟» سألت. «ما زال الأمر غير محدد تماماً»، أجاب كارل، «غير أني أظن أني سأبقى.» «إذ إن من شأن هذا أن يكون جميلاً جداً»، قالت وهي تمسح وجهها بالمنديل، «إذ إنني هنا وحيدة جداً.» «هذا يدهشني»، قال كارل، «لا شك أن السيدة كبيرة الطباخين لطيفة معك للغاية. إنها لا تعاملك أبداً كمستخدمة. لقد فكرت أنكما من الأقارب.» «أوه كلا»، قالت، «اسمي تيريزه برشتولد، وأنا من بومّرن.» كارل أيضاً قدّم نفسه. على ذلك تطلعت إليه لأول مرة بنظرة كاملة، وكأنه بذكر اسمه أصبح بالنسبة لها أكثر غرابة بعض الشيء. لاذا بالصمت برهة قصيرة. ثم قالت: «لا يجوز لك أن تظن أني جحودة. بدون السيدة كبيرة الطباخين كانت أحوالي خليقة أن تكون أكثر سوءاً بكثير. كنت سابقاً خادمة مطبخ هنا في الفندق وفي خطر كبير أن أُسرّح، وذلك لأني لم أقدر على القيام بالعمل الصعب. لديهم هنا مطالب كبيرة. قبل شهر أغمي على خادمة مطبخ من الإنهاك فحسب وبقيت في المستشفى طوال أسبوعين. وأنا لست قوية جداً، وفي الماضي عانيت كثيراً مما أدى إلى بعض التخلف في نموّي. لن تقول قط إني بلغت الثامنة عشرة. لكن الآن سوف أقوى.» «لا بدّ أن الخدمة هنا متعبة للغاية فعلاً»، قال كارل. «تحت رأيت الآن صبي مصعد ينام واقفاً.»

«علماً أن أحوال صبية المصاعد أحسن أحوال»، قالت، «يكسبون نقودهم الوافرة من البقشيش وليس عليهم أن يتعبوا كثيراً كما يتعب العاملون في المطبخ. غير أن الحظ أسعدني فعلاً، السيدة كبيرة الطباخين احتاجت مرة إلى فتاة لترتيب مناشف السفرة، أرسلت لنا مستخدمة مطبخ، هناك ما يقرب من خمسين مثل هذه المستخدمة، كنت هناك بالمصادفة وأرضيتها جداً، إذ إني كنت دائماً أعرف كيفية ترتيب المناشف. وهكذا أبقتني منذ ذلك الحين بالقرب منها ودرّبتني تدريجياً حتى أصبحت سكرتيرتها. وقد تعلمت لدى ذلك كثيراً.» «هل يوجد إذاً الكثير للكتابة؟» سأل كارل. «أوه كثير جداً»، أجابت، «على الأرجح لا يمكنك قط أن تتصور هذا. لقد رأيت أني عملت اليوم لغاية الساعة الحادية عشرة والنصف واليوم ليس يوماً مخصوصاً. غير أني لا أكتب دائماً، وإنما يتعيّن عليّ أن أشتري حاجيات كثيرة في المدينة.» «ما اسم المدينة؟» سأل كارل. «هذا لا تعرفه؟» قالت، «رمسيس.» «هل هي مدينة كبيرة؟» سأل كارل. «كبيرة جداً»، أجابت، «لا أذهب عن طيب خاطر. لكن ألا تريد فعلاً أن تنام؟» «لا، لا»، قال كارل، «ما زلت لا أعرف لماذا أتيتِ إلى هنا.» «لأنني لا أستطيع أن أتحدث مع أحد. لست شكّاءة، لكن عندما لا يكون لدى المرء أحد فعلاً، فإنه يكون سعيداً إذا استمع إليه أحدهم أخيراً. لقد رأيتك تحت في القاعة، كنت قد أتيت لإحضار السيدة كبيرة الطباخين، عندما قادتك إلى مخازن الأطعمة.» «هذه قاعة فظيعة»، قال كارل. «لم أعد ألاحظ الأمر»، أجابت. «غير أني أردت فقط أن أقول إن السيدة كبيرة الطباخين لطيفة معي كثيراً مثلما لم يكن أحد معي سوى أمي المرحومة. لكن الفرق كبير جداً في مركزنا بحيث لا يمكنني أن أتحدث معها بحرية. بين خادمات المطبخ كان لديّ سابقاً صديقات طيبات، لكنهن لم تعدن هنا منذ مدة طويلة والبنات الجديدات بالكاد أعرفهن. ويبدو لي أحياناً أن عملي الحالي يتعبني أكثر من عملي السابق، كما أنني لا أقوم به على نحو جيد كما كنت أفعل في السابق وأن السيدة كبيرة الطباخين تبقيني في عملي شفقة فحسب. وحقاً يجب على المرء أن يكون قد حصّل تعليماً أفضل حتى يصبح سكرتيراً. إن قول هذا هو معصية، لكن غالباً وغالباً أخشى أن أصاب بالجنون. يا سلام!» قالت فجأة بسرعة أكبر ومدّت يدها على نحو عابر إلى كتف كارل، إذ كان يضع يديه تحت اللحاف، «لكن لا يجوز لك أن تقول للسيدة كبيرة الطباخين كلمة من هذا، وإلا فإني أضيع فعلاً. إذا سبّبت لها الآن غماً بالإضافة إلى المتاعب التي أسبّبها لها بعملي، من شأن هذا أن يكون غريباً للغاية.» «من البديهي أني لن أقول لها شيئاً»، أجاب كارل. «فيكون ذلك خيراً»، قالت، «وابقَ هنا. سأفرح إذا بقيت هنا، ويمكننا، إذا كان الأمر يناسبك، أن نشد من أزر بعضنا بعضاً. لقد وثقت بك فور أن رأيتك لأول مرة. ورغم ذلك - فكر، إنني سيئة هكذا - خشيت من أن تعيّنك السيدة كبيرة الطباخين سكرتيراً لها بدلاً عني وتسرّحني. وفقط بعد أن جلست وحيدة مدة طويلة، بينما كنتَ تحت في المكتب، هيأت نفسي بأنه من شأن الأمر حتى إن يكون حسناً جداً، إذا استلمتَ أعمالي، فأنت ستفهمها

أفضل مني. وإذا كنت لا تريد أن تشتري الحاجيات من المدينة، يمكنني أن أحتفظ بهذا العمل. في ما عدا ذلك من شأني أن أكون بالتأكيد أكثر نفعاً في المطبخ، لا سيما أني قويت بعض الشيء أيضاً.» «لقد تمّ ترتيب الموضوع»، قال كارل، «سوف أصبح صبي مصعد وأنت تبقين سكرتيرة. لكن إذا أشرتِ للسيدة كبيرة الطباخين أدنى إشارة عن خططك، فإني أبوح ببقية ما قلتِهِ لي اليوم، مهما كان من شأن هذا أن يؤسفني.» هذه اللهجة أثارت تيريزه كثيراً إلى درجة أنها ألقت نفسها جانب الفراش وضغطت وجهها في البيّاضات وهي تنهنه. «لن أبوح شيئاً»، قال كارل، «لكن لا يجوز لك أيضاً أن تقولي شيئاً.» والآن لم يعد يستطيع أن يظل مختبئاً تحت لحافه، ربت ذراعها قليلاً، لم يجد ما هو مناسب يستطيع أن يقوله لها وفكر فحسب بأن الحياة هنا إنما هي حياة مريرة. وأخيراً هدّأت من روعها إلى درجة أنها خجلت من بكائها، تطلعت إلى كارل ممتنّة ونصحته بأن ينام غداً طويلاً ووعدته بأنها، إذا وجدت وقتاً، ستصعد في نحو الساعة الثامنة وتوقظه. «إنك توقظين بمهارة»، قال كارل. «نعم، إني قادرة في بعض الأمور»، قالت ومسحت بيدها في رقة على اللحاف وجرت إلى غرفتها.

في اليوم التالي أصرّ كارل على البدء في خدمته حالاً، رغم أن كبيرة الطباخين أرادت أن تعطيه هذا اليوم عطلة من أجل مشاهدة رمسيس. بيد أن كارل جاهر بأنه سوف يمكن إيجاد فرصة أخرى لهذا الغرض، أما الآن فإن الأكثر أهمية بالنسبة له هو أن يبدأ العمل، إذ إنه في أوروبا كان قد انقطع بلا فائدة عن عمل موجّه إلى هدف آخر ويبدأ كصبي مصعد في سن يكون فيه على الأقل الفتيان الذين يجيدون عملهم قريبين في تتابع طبيعي من أن يضطلعوا بعمل أعلى. إنه من الصحيح جداً أن يبدأ كصبي مصعد، كما أنه من الصحيح أيضاً أنه يتعيّن عليه أن يسرع. لدى هذه الظروف ليس من شأن مشاهدة المدينة أن تعود عليه بمتعة. ولم يستطع أن يحزم أمره حتى إلى مشوار دعته إليه تيريزه. دائماً كانت تطوف في مخيلته فكرة بأنه يمكن أن يصل، إذا لم يكن مجدّاً، إلى ما وصل إليه دِلامارش وروبنسون.

لدى خياط الفندق جُرّبت عليه بزّة صبي المصعد الرسمية، التي كان مظهرها بديعاً للغاية مزوّدة بأزرار وفتلات مذهبة، لكن لدى ارتدائها أحس برجفة بعض الشيء، إذ لا سيما تحت الإبطين كانت السترة باردة وقاسية ومبللة على نحو غير قابل للتجفيف من عرق صبية المصاعد الذين كانوا قد ارتدوها قبله. كما أنه كان يجب توسيعها لكارل بالذات وخاصة فوق الصدر، ولم تكن بزة واحدة من العشر الموجودة أرادت أن تناسبه حتى بشكل تقريبي. رغم هذه الخياطة التي كانت ضرورية هنا، ورغم أن الخياط بدا دقيقاً للغاية ـ طارت البزة المسلّمة إليه مرتين من يده إلى الورشة ـ كان كل شيء قد تمّ إنجازه خلال خمس دقائق وغادر كارل محل الخياط وهو صبي مصعد بسروال محبوك التفصيل وسترة صغيرة ضيقة جداً، رغم التأكيد العكسي القوي للخياط، والتي كانت تغري دائماً لإجراء تمارين تنفس، حيث إن المرء كان يريد أن يرى فيما إذا كان التنفس ما زال ممكناً.

ثم قدّم نفسه إلى كبير النُدُل الذي عليه أن يكون تحت أمرته، وكان هذا رجلاً بهيّ الطلعة رشيق القوام ذا أنف كبير يمكنه أن يكون في الأربعينيات من عمره. لم يكن لديه وقت للدخول في أقل حديث وقرع منادياً صبي مصعد، وكان هذا مصادفة ذلك الذي رآه كارل يوم أمس، وناداه باسمه الصحيح، اسم التعميد غياكومو، الأمر الذي علمه كارل في ما بعد، حيث إن اللفظ الإنكليزي للاسم لم يوضح الاسم. والآن كلّف هذا الصبي بأن يشرح لكارل ما هو ضروري لخدمة المصعد، غير أنه كان خجولاً وفي عجلة بحيث إن كارل، مهما كان ما يمكن تبيانه قليلاً، بالكاد أن تمكن من معرفة هذا القليل. وبالتأكيد كان غياكومو مستاء أيضاً لأنه كان عليه أن يترك خدمة المصعد بسبب كارل ولأنه كان ملحقاً بخادمات الغرف لمساعدتهن، الأمر الذي بدا له بعد تجارب معينة يريق ماء الوجه لكنه لم يتحدث عنها. أصيب كارل بخيبة أمل إذ وجد أن صبي المصعد لا علاقة له بآلية المصعد إلّا بأن يحركه بكبسة بسيطة على الزر، في حين كان ميكانيكيو الفندق وحدهم يُستخدمون لإجراء تصليحات على المحرك، وغياكومو على سبيل المثال رغم خدمته مدة نصف عام لدى المصعد لم يشاهد بعينيه لا المحرك في القبو ولا الآلية في داخل المصعد، رغم أنه كان من شأن هذه المشاهدة أن تسرّه غاية السرور، كما قال بوضوح. بصورة عامة كانت خدمة على وتيرة واحدة وبسبب وقت العمل الذي يدوم اثنتي عشرة ساعة ويتناوب ليلاً ونهاراً وكانت مرهقة إلى درجة أنه لا يمكن، حسب قول غياكومو، احتمالها إطلاقاً إذا لم ينم الصبي واقفاً طوال دقائق. لم يقل كارل شيئاً، بيد أنه أدرك ولا ريب أن هذا الفن بالذات هو الذي كلّف غياكومو عمله.

ورحّب كارل غاية الترحيب بأن المصعد الذي يتولى العمل عليه، كان مخصصاً للطوابق العليا وحدها، وبهذا لن يكون من شأنه أن يكون له علاقة بالأغنياء ذوي أكثر الرغبات. كما أن المرء لا يتعلم هنا كثيراً مثلما هو الحال في مكان آخر ولم يكن الأمر حسناً سوى من أجل البداية.

بعد الأسبوع الأول فحسب أدرك كارل أنه قادر على القيام بالخدمة بشكل كامل. كان النحاس الأصفر لمصعده لامعاً على أحسن صورة، وما كان في مقدور مصعد من المصاعد الثلاثين الأخرى أن يقارن نفسه في هذا وربما كان أكثر لمعاناً فيما لو كان الصبي الذي يخدم لدى المصعد نفسه مجتهداً هكذا تقريباً فحسب ولو لم يشعر بأن اجتهاد كارل إنما يدعمه في خموله. كان أمريكياً بالولادة يدعى رنّل، صبي مغترّ أسود العينين غائر الوجنتين الخاليتين من الشعيرات. كان لديه حلّة خاصة أنيقة يسرع بها معطّرة على نحو خفيف إلى المدينة في عطلات الأماسي؛ كما أنه كان بين الحين والآخر يرجو كارل أن ينوب عنه مساء لأنه يتعين عليه أن ينصرف لأسباب عائلية، ولم يكن ليهتمّ كثيراً بأن مظهره يناقض كل أمثال هذه

الأعذار. ورغم ذلك تمكن كارل من أن يودّه وكان يطيب له الأمر عندما كان رنّل في أمثال هذه الأماسي يتوقف أمامه لدى المصعد في الأسفل قبل الانصراف مرتدياً حلّته الخاصة، يعتذر بعض الشيء وهو يسحب القفاز على أصابعه ويسير عبر الممر. للمناسبة، لم يكن كارل يريد بهذه النيابة سوى أن يعمل له معروفاً كما بدا له في البداية أمراً بديهياً إزاء زميل أكبر سناً، دون أن يتحول هذا المعروف إلى ترتيب دائم. إذ إن هذا السفر الأبدي في المصعد كان متعباً على نحو كاف وحتى إنه كان في ساعات المساء دون انقطاع تقريباً.

كما أن كارل سرعان ما تعلم القيام بالانحناءات القصيرة العميقة التي كانت تُطلب من صبية المصاعد وبات يلتقط البقشيش على نحو عابر. كان يختفي في صديريته وما كان من شأن أحد أن يستطيع القول حسب تعابير وجهه في ما إذا كان البقشيش قليلاً أم كثيراً. أمام السيدات كان يفتح الباب مع انحناءة إضافية صغيرة تنمّ على شهامة ويؤرجح نفسه على مهل إلى المصعد وراءهن، اللواتي كنّ انشغالاً بتنوراتهن وقبعاتهن وشراشيبهن أكثر تردداً من الرجال في الدخول. أثناء الصعود كان يقف، لأن هذا هو الأقل لفتاً للانتباه، ملاصقاً للباب وظهره إلى الركاب ويمسك قبضة باب المصعد لكي يدفعها نحو الجانب في لحظة الوصول فجأة وطبعاً ليس على نحو مزعج مثلاً. ونادراً فقط كان أحدهم يربت على كتف كارل أثناء الصعود لكي يحصل على معلومة ما صغيرة، فيلتفت بسرعة وكأنه كان ينتظر ذلك ويعطي جواباً بصوت عال. ورغم كثرة عدد المصاعد كان غالباً، لاسيما بعد إقفال المسارح أو بعد وصول قطارات سريعة معينة، يحدث ازدحام كبير بحيث إنه كان يتعيّن عليه، ما يكاد الضيوف يخرجون من المصعد في الأعلى، أن ينطلق مسرعاً إلى الأسفل، لكي يستقبل المنتظرين هناك. كما أنه كان لديه الإمكانية لزيادة السرعة المألوفة بأن يسحب حبلاً معدنياً يعبر صندوق المصعد، بيد أن هذا كان محظوراً في نظام المصعد ويقال إنه يشكّل خطراً أيضاً. لم يفعل كارل هذا قط عندما كان يصعد مع ركاب، لكنه عندما كان يُنزلهم في الأعلى في حين آخرون كانوا ينتظرون في الأسفل، لم يكن يعود يعرف مراعاة، ويروح يعمل على الحبل بقبضات قوية حازمة مثل بحّار. كان يعرف، بالمناسبة، أن صبية المصاعد الآخرين أيضاً كانوا يفعلون ذلك ولم يرِدْ أن يفقد ركابه ليصعدوا مع الصبية الآخرين. كان بعض الأفراد من النزلاء الذين يقيمون مدة طويلة في الفندق، الأمر الذي كان، بالمناسبة، أمراً مألوفاً نوعاً ما، يُظهرون بين الفينة والأخرى من خلال ابتسامة، أنهم تعرّفوا على كارل بصفته صبيهم، لكن كارل كان يستقبل هذا اللطف بسرور ووجه جادّ. أحياناً، عندما كانت حركة المرور تضعف بعض الشيء، كان يتمكن أيضاً من قبول تأدية مهام صغيرة خاصة، مثل أن يُحضر لأحد النزلاء، لم يعد يريد العودة إلى غرفته، شيئاً صغيراً نسيه فيها، هنا كان يطير صاعداً وحده في مصعده المألوف له على نحو خاص في مثل هذه اللحظات، يدخل إلى الغرفة الغريبة، حيث

كانت في الغالب أشياء عجيبة لم يكن قد رآها قط تتناثر على الأرض أو معلقة على شمّاعة الملابس، يشم رائحة صابون غريبة، رائحة عطر، سائل للغرغرة ويسرع عائداً دون أن يتوقف أقل توقف حاملاً الشيء الذي وجده رغم البيانات عنه غير الواضحة في الغالب. غالباً كان يأسف لعدم قدرته على الاضطلاع بمهام أكبر، كان ثمة خدم خاصون وسعاة من الصبية معيّنون لهذا الغرض يقطعون طريقهم على دراجات لا بل على دراجات بخارية، حيث لم يكن يستطيع أن يدع نفسه يُستخدم لدى وجود فرصة مناسبة سوى في مهمة ساع من الغرف إلى قاعات الطعام أو اللعب.

عندما كان يأتي من العمل في الساعة السادسة مساء بعد عمل اثنتي عشرة ساعة كل يوم من ثلاثة أيام وفي الساعة السادسة صباحاً في الأيام الثلاثة التالية، يكون مرهقاً بحيث إنه كان يذهب مباشرة إلى فراشه دون أن يهتم بأحد. كان يقع في قاعة النوم المشتركة لصبية المصاعد. صحيح أن السيدة كبيرة الطباخين، التي ربما لم يكن نفوذها كبيراً هكذا كما كان يظن في المساء الأول، سعت ليكون له وحده غرفة صغيرة وكان يمكن جداً أن تنجح في ذلك، لكن إذ رأى كارل مدى الصعوبات وكم خابرت كبيرة الطباخين رئيسه، كبير النُدُل ذلك المشغول كثيراً، بسبب هذه المسألة، فقد استغنى عن ذلك وأقنع كبيرة الطباخين بجدية استغنائه بالإشارة إلى أنه لا يريد أن يُحسد من قبل الصبية الآخرين بسبب امتياز لم يكتسبه بنفسه.

طبعاً لم تكن قاعة النوم هذه غرفة نوم هادئة. فقد كان كل فرد كان يوزع وقت الفراغ البالغ اثنتي عشرة ساعة على نحو مختلف على الطعام والنوم والمسرة والعمل الجانبي، فقد كان ثمة دائماً أكبر حركة في قاعة النوم. هنا كان بعضهم نائماً وقد سحبوا الأغطية فوق الآذان لكي لا يسمعوا شيئاً؛ وإذا ما أوقظ أحدهم، فإنه كان يصرخ غاضباً على صراخ الآخرين إلى درجة أن البقية أيضاً من النائمين نوماً طيباً لم يكونوا ليستطيعوا أن ينجوا من الإزعاج. كل صبي تقريباً كان يملك غليوناً، بهذا كان يعاش نوع من الترف، كارل أيضاً اقتنى غليوناً وسرعان ما بات يستذوقه. لكن التدخين أثناء العمل كان محظوراً، وكانت نتيجة ذلك أن كل من كان في قاعة النوم كان يدخن ما دام غير نائم بالضرورة. وبناء عليه فإن كل سرير كان في سحابة دخان خاصة به وكل شيء في ضباب شامل. كان من غير الممكن فرض الأمر، رغم أن الأكثرية وافقت مبدئياً في الحقيقة بأن لا يُشعل الضوء في الليل إلا في طرف من أطراف القاعة. لو جرى تطبيق هذا الاقتراح لكان في مقدور أولئك الذين كانوا يريدون أن يناموا أن يفعلوا ذلك بسهولة ويسر في عتمة أحد نصفي القاعة - كانت قاعة كبيرة تحوي أربعين سريراً - في حين كان في مقدور الآخرين أن يلعبوا الزهر أو الورق في القسم المضاء وتأمين كل شيء آخر يحتاج إلى ضوء. وإذا شاء أحد ممن يكون سريره في نصف القاعة

المضاء أن ينام، فإنه كان يستطيع أن يرقد في أحد الأسرّة الشاغرة في النصف المعتم، إذ كان دائماً ثمة عدد كاف من الأسرّة الشاغرة وما كان لأحد أن يعترض في شيء على مثل هذا الاستخدام المؤقت لسريره من قبل آخر. لكن لم يمر ليل جرى فيه الأخذ بهذا التقسيم. دائماً كان هناك اثنان مثلاً أحيّا، بعد أن كانا قد استخدما العتمة للنوم بعض الوقت، أن يلعبا الورق في سريريهما على طاولة بينهما وطبعاً كانا يشعلان مصباحاً كهربائياً ملائماً، وكان ضوؤه الباهر يوقظ النائمين إذا هم ولّوا وجوههم نحوه. صحيح أن المرء كان يتقلب بعض الشيء، غير أنه في نهاية المطاف لم يكن ليجد ما هو أفضل من أن يقوم مع الجار الذي جرى إيقاظه كذلك باللعب أيضاً ومع إضاءة جديدة. ومن جديد يروح الجميع طبعاً يدخنون الغليون. لكن كان هناك أيضاً بعض الصبية يريدون أن يناموا بأي ثمن ـ كان كارل في الغالب من هؤلاء ـ وبدلاً من أن يضعوا الرأس على الوسادة كانوا يغطونه بالوسادة أو يلفّونه بها، لكن كيف كان يريد المرء أن يظل نائماً، عندما ينهض الجار الأقرب إليه في عزّ الليل كي يذهب قبل الخدمة إلى المدينة طلباً للمسرة، عندما يغتسل بصخب وناشراً رذاذاً في حوض الغسيل المثبّت على رأس السرير الخاص بالمرء، عندما يرتدي حذاءه ليس فقط محدثاً ضجة وإنما مفضّلاً أن يدخل إليه دكّاً ـ جميعهم تقريباً كانوا يملكون أحذية ضيقة رغم شكل الحذاء الأمريكي ـ لكي يرفع أخيراً، لأنه افتقد شيئاً صغيراً من لوازمه، وسادة النائم التي أوُقظ المرء تحتها منذ مدة وينتظر فحسب أن يهاجمه. لكنهم كانوا جميعهم رياضيين وفتياناً أقوياء في الغالب لا يريدون أن يدعوا فرصة تفوتهم لممارسة الرياضة. وكان في مقدور المرء أن يكون متأكداً، عندما ينتفض ناهضاً وقد أوقظه صخب كبير من نومه، أن يجد على الأرض إلى جانب سريره مصارعَيْن ولدى إضاءة باهرة خبراءَ يقفون بالقميص والكلسون منتصبين على كل الأسرّة في الجوار. ذات مرة أثناء إحدى مثل هذه الملاكمات وقع أحد الملاكمَين فوق كارل النائم، وأول ما رآه كارل عندما فتح عينيه كان الدم الذي كان ينزف من أنف الصبي وقد سال على البياضات كلها قبل أن يستطيع المرء أن يعمل شيئاً حيال ذلك. وغالباً ما كان كارل يمضي الاثنتي عشرة ساعة كاملة تقريباً في محاولات لكسب بضع ساعات نوم، رغم أن الأمر كان أيضاً يغريه للغايةً أن يشارك في التسليات؛ لكن دائماً كان يبدو له أن لدى الآخرين جميعهم سبقاً عليه في حياتهم، يتعيّن عليه أن يعوّض عنه باجتهاده في العمل وبقليل من التنازل. ورغم أن النوم كان يهمه جداً بسبب عمله قبل كل شيء، فإنه لم يشكُ لا إزاء كبيرة الطباخين ولا إزاء تيريزه من الظروف في قاعة النوم، إذ أولاً كان جميع الصبية إجمالاً يعانون الوضع دون أن يشكوا جدياً وثانياً كانت المضايقات في قاعة النوم جزءاً ضرورياً من مهمته كصبي مصعد والتي كان قد تسلّمها شاكراً من يديّ كبيرة الطباخين.

مرة في الأسبوع كان لديه عند تغيير الدورية عطلة مدة أربع وعشرين ساعة، كان

يستخدمها جزئياً بأن يزور كبيرة الطباخين مرة أو مرتين ويتبادل مع تيريزه، التي ضبط وقته مع عطلتها القصيرة، بعض الأحاديث العابرة في مكان ما في زاوية أو في الممر ونادراً في غرفتها. كما أنه كان يرافقها في بعض الأحيان إلى المدينة لشراء الحاجيات، الأمر الذي كان يجب أن يتمّ دائماً بأقصى سرعة. من ثم كانا يجريان تقريباً، وكيسها في يد كارل، إلى محطة قطار النفق التالية، كانت السفرة تتمّ في غمضة عين وكأن القطار يُدفع مجرد دفع دون أية مقاومة، وما ينزلان منه حتى يروحان، بدلاً من أن ينتظرا المصعد، يطقطقان صاعدين الدرج، يقطعان الميادين الكبيرة التي تطير منها الشوارع متباعدة على شكل نجمة، يظهران محدثين ازدحاماً في حركة المرور المتدفقة على نحو مستقيم، بيد أن كارل وتيريزه كانا يسرعان متلاصقين إلى مختلف المكاتب والمغاسل والمخازن والمحلات التجارية التي لا يمكن تأمين الطلبيات منها هاتفياً، هذه الطلبيات التي هي، بالمناسبة، غير مسؤولة على نحو مخصوص، أو توصيل شكاوى. وسرعان ما لاحظت تيريزه أن معونة كارل لا يستهان بها، بل إنها تؤدي إلى إسراع كبير في كثير من الأمور. ما من مرة في مرافقته كان يجب عليها، كما هو الحال في ما عدا ذلك، أن تنتظر أن يستمع إليها رجال الأعمال المشغولون للغاية. كان يتقدم إلى المكتب ويروح ينقر عليه بالبراجم حتى يتحقق طلبه، كان ينادي فوق أسوار من البشر بإنكليزيته الحادة التي يمكن تمييزها بسهولة من بين مئة صوت، كان يتوجه بلا تردد إلى أناس ولو كانوا قد انسحبوا بغطرسة إلى عمق أطول قاعات المحلات. لم يكن يفعل ذلك غروراً وكان يقدّر كل مقاومة، غير أنه كان يشعر نفسه في مركز آمن يمنحه حقوقاً، لقد كان فندق أوكتسيتندال زبوناً لا يجوز الهزء به، وأخيراً كانت تيريزه رغم خبرتها في العمل بحاجة على نحو كاف إلى معونة. «عليك أن تأتي معي دائماً»، كانت تقول وهي تضحك أحياناً ضحكة تنمّ على سعادة، عندما كانا يأتيان من عمل جرى تنفيذه على نحو جيد بشكل مخصوص.

أثناء الشهر ونصف الشهر التي أمضاها كارل في رمسيس لم يكن سوى ثلاث مرات مدة بضع ساعات في غرفة تيريزه الصغيرة. كانت طبعاً أصغر من أية غرفة لكبيرة الطباخين، وبضعة الأشياء التي كانت فيها كانت مخزّنة إلى حد ما حول النافذة، بيد أن كارل فهم حقاً بعد خبرته من قاعة النوم قيمة غرفة خاصة هادئة نسبياً، ولو لم يقل الأمر بوضوح، فإن تيريزه لاحظت ولا ريب كيف أعجبته الغرفة. ولم يكن لديها أسرار أمامه، كما أنه لم يكن ما زال ممكناً بعد زيارتها آنذاك في المساء الأول أن يكون لديها أسرار أمامه. كانت طفلة لوالدين غير متزوجين، كان والدها رئيس عمال بناء وقد ترك الأم والطفلة من بومّرن يلحقان به، لكن وكأنه بهذا قد أدّى واجبه أو كأنه كان ينتظر ناساً آخرين غير المرأة الكادحة والطفلة الواهنة، اللتين استقبلهما على رصيف الميناء، هاجر إلى كندا دون شروحات كثيرة، والباقيتان لم

تستلما منه لا رسالة ولا خبراً آخر، الأمر الذي كان لا غرابة فيه، إذ إنهما كانتا قد ضاعتا على نحو لا يمكن فيه العثور عليهما في السكن الجماعي في شرق نيويورك.

ذات مرة تحدثت تيريزه ـ كان كارل يقف إلى جانبها عند النافذة ويتطلع إلى الشارع ـ عن موت أمها. كيف كانت الأم وهي في مساء شتوي ـ يمكن أنها كانت آنذاك في سن الخامسة ـ تسيران في الشوارع بسرعة، وكل منهما تحمل ربطة، لكي تبحثا عن مكان نوم. كيف كانت الأم تقودها أولاً بيدها، كان ثمة عاصفة ثلجية ولم يكن التقدم أمراً يسيراً، حتى وهنت اليد وتركت الابنة دون أن تلتفت إليها، وكان عليها هي تيريزه أن تجهد للتشبث بملابس الأم. وكثيراً ما تعثرت تيريزه حتى إنها وقعت، غير أن الأم كانت في مثل جنون ولم تتوقف. وهذه العواصف الثلجية في الشوارع الطويلة المستقيمة في نيويورك! كان كارل ما زال لم يمض فصل شتاء في نيويورك. إذا سار المرء في وجه الريح، ودارت هذه في دائرة، فإن المرء لا يقدر أن يفتح عينيه لحظة، دائماً وأبداً تسحق الريح الثلج على وجهه، يروح المرء يدور لكن لا يتقدم، إنه لأمر يصيب باليأس. وطبعاً فإن الطفل يمتاز عن البالغ بأنه يمشي تحت الريح ولا يفرحه شيء. هكذا لم تستطع تيريزه آنذاك أن تفهم أمها فهماً كاملاً وكانت مقتنعة تمام الاقتناع أنه ما كان من شان هذه، لو كانت تيريزه في ذلك المساء قد تصرفت بفطنة أكثر ـ كانت ما زالت طفلة صغيرة هكذا ـ لما كان يجب على أمها أن تموت هذه الميتة التي تبعث الحزن والأسى في النفس. كانت الأم آنذاك دون عمل منذ يومين، ولم تكن أصغر قطعة نقود موجودة بعد، وكانتا قد قضتا النهار في العراء دون لقمة وفي الربطتين كانتا تحملان معهما مجرد خرق غير قابلة للاستعمال، ربما لم تجرؤا على إلقائها بعيداً سوى إيماناً بالخرافات. والآن كان أمل قد أعطي للأم بأن تحصل في الصباح التالي على عمل في بناء، لكنها كانت تخاف، كما حاولت طوال اليوم أن توضح لتيريزه، أن لا تستطيع الاستفادة من هذه الفرصة المناسبة، حيث إنها كانت تشعر بالإنهاك، إذ كانت في الصباح قد بصقت دماً كثيراً في الشارع، الأمر الذي أفزع المارة، وكانت تتلهف فقط إلى أن تجد مكاناً ما دافئاً تلجأ إليه وترتاح. وفي هذا المساء بالذات كان من غير الممكن الحصول على مكان صغير. وحيث لم تكونا تُخرجان من قبل المشرف على المبنى من مدخل كان من شأنهما أن تستريحا فيه قليلاً من الطقس، كانتا تجتازان بسرعة الممرات الضيقة الباردة برودة الجليد، تصعدان الطوابق العالية، تدوران حول الشرفات الضيقة للأفنية، تطرقان أبواباً دون تمييز، لم تجرؤا مرة على مخاطبة أحد، من ثم رجتا كل من قابلتاه ومرة أو مرتين قعدت الأم وهي تلهث على درجة من الدرج هادئة، سحبت تيريزه، التي كادت تقاوم، إليها وراحت تقبّلها وهي تضغط شفتيها بشكل يوجع. عندما يعرف المرء لاحقاً أن ذلك كان القبلات الأخيرة، فإنه لا يفهم، ولو كان دودة صغيرة، أنه كان يمكنه أن يكون أعمى هكذا بحيث لا يدرك هذا. في بعض الغرف التي كانتا تجتازاها

كانت الأبواب مفتوحة لإخراج الهواء الخانق، ومن الضباب الدخاني الذي كان يملأ الغرف وكأنه ناتج عن حريق، كان يظهر شكل شخص ما يقف في إطار الباب ويشير إما بحضوره الصامت أو بكلمة مقتضبة عدم إمكانية مأوى في الغرفة ذات العلاقة. في استعادة للماضي بدا لتيريزه الآن أن الأم لم تكن آنذاك تبحث جدياً عن مأوى سوى في الساعات الأولى، إذ بعد منتصف الليل تقريباً لم تعد تخاطب أحداً، ورغم ذلك لم تتوقف عن السير السريع مع توقفات قصيرة حتى الفجر ورغم أن الحياة كانت دائماً تدبّ في هذه المنازل التي لم تكن أبوابها مغلقة قط، لا أبواب البنايات ولا أبواب الشقق، وكان المرء يقابل ناساً في كل روحة وغدوة. طبعاً لم يكن جرياً هذا الذي كان يدفعهما إلى الأمام، وإنما فقط المجهود الأقصى الذي كانتا قادرتين على بذله، كما أنه من الممكن أنه كان في الحقيقة مجرد استراق خطى. كما أن تيريزه لم تعرف فيما إذا كانتا من منتصف الليل حتى الساعة الخامسة صباحاً في عشرين بيتاً أو في بيتين أو حتى في بيت واحد. إن ممرات هذه البيوت بنيت طبقاً لمخططات ماكرة تقضي باستخدام المكان أفضل استخدام لكن دون مراعاة توجّه سهل، كم مرة كانتا في الممرات نفسها! في ذكرى شاحبة تتذكر أنهما غادرتا باب بناء كانتا قد قامتا بتفتيشه مرات ومرات، لكن بدا لها أيضاً أنهما استدارتا في الشارع على الفور واندفعتا إلى هذا البناء مرة أخرى. بالنسبة للطفلة كان الأمر طبعاً معاناة غير مفهومة، مرة تمسكها الأم، ومرة متشبثة بها، والأم تجرّها معها بلا كلمة صغيرة من كلمات المواساة، والمجموع بدا آنذاك لعقلها القاصر يملك التفسير وحده بأن الأم تريد أن تتركها وتولّي مسرعة. لذا راحت تيريزه تتمسك بقوة أكثر وحتى عندما كانت الأم تمسك إحدي يديها، كانت لداعي الأمان تمسك باليد الأخرى ملابس الأم وتروح تبكي على فترات. لم تكن تريد أن تُترك هنا، بين الناس الذين كانوا أمامهم يصعدون وهم يضربون الأرض بأقدامهم والناس وراءهم الذين كانوا غير مرئيين خلف انعطافة درج يقتربون، وأولئك الذين كانوا يتشاجرون في الممرات أمام أحد الأبواب ويدفعون بعضهم بعضاً إلى الغرفة. كان سكارى يتجولون في البناء وهم يغنون غناء مقبضاً وبسعادة كانت الأم تمرق مع تيريزه من مثل هذه المجموعات التي كانت تتشكل لتوّها. يقيناً كان في مقدورهما في ساعة متأخرة من الليل، حيث لم يعد المرء ينتبه وما من أحد يصرّ بالضرورة على حقه، أن يدخلا إلى إحدى قاعات النوم المستأجرة بعامة من قبل أصحاب أعمال، والتي كانا قد مرّا ببعضها، لكن تيريزه لم تفهم الأمر والأم لم تعد تريد راحة. عند الصباح، الذي كان مطلع يوم شتوي جميل، كانت الاثنتان تستندان إلى حائط بناء وربما كانتا قد نامتا هناك قليلاً وربما كانتا تحدّقان فقط بأعين مفتوحة. لقد تبيّن أن تيريزه كانت قد أضاعت ربطتها، والأم بدأت تضرب تيريزه عقاباً على إهمالها، غير أن تيريزه لم تسمع ضربة ولم تحسّها. ثم تابعتا السير في الشوارع التي بدأت بها حركة، الأم من جهة الحائط، وصلتا إلى جسر، حيث مسّت الأم سوار الدرابزين باليد، ووصلتا أخيراً، آنذاك قبلت تيريزه الأمر، اليوم لم تفهمه، إلى

المبنى بالذات الذي كانت الأم مطلوبة إليه ذلك الصباح. لم تقل لتيريزه في ما إذا كان عليها أن تنتظر أو تذهب، وتيريزه أخذت هذا كأمر بالانتظار، حيث كان هذا يطابق رغباتها على نحو أفضل. وهكذا جلست على كومة أحجار آجرّ وراقبت كيف حلّت الأم رباط ربطتها، أخرجت خرقة ملونة وربطت بها منديلها الذي كانت ترتديه طوال الليل على رأسها. كانت تيريزه متعبة أكثر مما أن يرِدْ على خاطرها مجرد فكرة أن تساعد أمها. دون تقديم في كشك البناء، كما كان مألوفاً، ودون أن تسأل أحداً، صعدت الأم على سلّم وكأنها تعرف بنفسها أي عمل كان قد خصص لها. وعجبت تيريزه من ذلك، لأن العاملات المساعدات لا تعملن سوى في الأسفل في إطفاء الكلس ومناولة الآجرّ وغير ذلك من الأعمال البسيطة. لذا فكرت بأن الأم إنما تريد اليوم أن تقوم بعمل ذي أجر أفضل وابتسمت لها والنعاس باد عليها. كان البناء ما زال غير عال، بالكاد حتى الطابق الأرضي، وإن كانت قضبان السقالة لبقية البناء، لكن دون أخشاب الاتصال، سامقة نحو السماء. في الأعلى دارت الأم بمهارة حول عمال البنّائين الذين كانوا يضعون طوباً فوق طوب ومن الغريب غير المعقول أنهم لم يسألوها شيئاً، أمسكت بحذر وبيد رقيقة لوحاً خشبياً كان بمثابة درابزين، وتيريزه في الأسفل أعجبت في إغفاءتها بهذه المهارة وخيّل لها أنها تلقّت نظرة ودّية من الأم. والآن وصلت الأم في سيرها إلى كومة أجرّ صغيرة، حيث انقطع الدرابزين أمامها والطريق أيضاً أغلب الظن، غير أنها لم تتوقف، بل انطلقت نحو كومة الآجرّ، ومهارتها بدت وقد غادرتها، قلبت كومة الآجرّ وسقطت فوقها إلى العمق. أحجار كثيرة تدحرجت وراءها وأخيراً وبعد مدة طويلة انفكّ في مكان ما لوح ثقيل وطقطق عليها. في ذاكرة تيريزه كانت آخر صورة لأمها وهي ترقد بساقين منفرجتين بجونلتها المخططة التي كانت من بومّرن، وكيف كان ذلك اللوح الخشن الواقع عليها يغطيها تقريباً، وكيف جرى الناس الآن من جميع الجوانب وكيف نادى في الأعلى رجل ما من البناء نداء غاضباً نحو الأسفل.

كان الوقت قد تأخر عندما أنهت تيريزه قصتها. كانت قد تحدثت بإسهاب كما لم تكن عادتها وبالذات لدى مواضع غير ذات أهمية، مثل وصف قضبان السقالة، التي كانت كل منها تسمق وحدها نحو السماء، اضطرت إلى أن تمسك عن الكلام والدموع تترقرق في عينيها. كانت الآن بعد عشر سنوات تعرف كل تفصيل من التفاصيل التي حدثت آنذاك معرفة دقيقة، ولأن منظر أمها فوق في الطابق الأرضي نصف المكتمل كان آخر ذكرى من حياة الأم، ولم تستطع أن تسلّمه إلى صديقها على نحو واضح بشكل كاف قط، أرادت أن تعود إلى ذلك بعد ختام قصتها، لكنها توقفت، وضعت وجهها في يديها ولم تقل كلمة بعد.

لكن كان ثمة بعض الأوقات الأكثر مرحاً أيضاً في غرفة تيريزه. لدى زيارته الأولى رأى كارل هناك كتاباً تعليمياً عن المراسلات التجارية واستعاره بناء على طلبه. في الوقت نفسه

اتفقا على أن يكتب كارل الوظائف المدرسية التي يحتويها الكتاب، ويقدمها لتيريزه من أجل مراجعتها، حيث إنها كانت قد درست الكتاب بقدر ما كان ذلك ضرورياً لأعمالها الصغيرة. والآن راح كارل يضطجع طوال ليال، وقد وضع قطناً طبياً في أذنيه، على سريره تحت في قاعة النوم، من أجل التغيير في كل ما يمكن من أوضاع الاضطجاع، وراح يقرأ في الكتاب ويخربش الوظائف في دفتر صغير بقلم حبر كانت كبيرة الطباخين قد أهدته له مكافأة على أنه وضع لها على نحو عمليّ للغاية فهرس جرد كبيراً وأنجزه على نحو نظامي. لقد أفلح في تحويل معظم مضايقات الصبية الآخرين إلى ما هو خير بأن راح يطلب منهم نصائح صغيرة في اللغة الإنكليزية حتى تعبوا من ذلك ودعوه وشأنه. غالباً ما كان يعجب من كيف كان الآخرون راضين كل الرضى عن وضعهم الحالي ولا يحسّون قط طبيعته المؤقتة ـ صبية مصاعد فوق العشرين لا يُقبلون، ولا يرون ضرورة اتخاذ قرار بخصوص مهنتهم المقبلة ورغم مثال كارل لم يكونوا يقرأون شيئاً آخر سوى كحد أقصى قصص بوليسية يجري تناولها في خرق متسخة من فراش إلى فراش.

في اللقاءات راحت تيريزه تصحح الآن بتعقيد أكبر من كبير، وظهرت آراء موضع خلاف، وذكر كارل أستاذه الكبير في نيويورك شاهداً، لكن هذا لم ينل تقدير تيريزه كما لم تنل تقديرها آراء صبية المصاعد النحوية. كانت تأخذ قلم الحبر من يده وتشطب الموضع الذي كانت مقتنعة من احتوائه خطأ، غير أن كارل كان في مثل هذه الحالات المشكوك فيها، ورغم أنه لن تقع أعين سلطة أعلى من تيريزه على الموضوع، وتحقيقاً للدقة، يعيد شطب خطوط تيريزه. لكن أحياناً كانت كبيرة الطباخين تأتي وتحسم من ثم دائماً لمصلحة تيريزه، الأمر الذي لم يكن دليلاً، إذ إن تيريزه كانت سكرتيرتها. لكن في الوقت نفسه كانت تجلب المصالحة العامة، حيث كان يجري إعداد شاي وإحضار كعك وفطائر وكان على كارل أن يتحدث عن أوروبا، لكن مع انقطاعات عديدة من جانب كبيرة الطباخين التي كانت تسأل وتدهش دائماً وأبداً، وهذا دعا كارل لأن يعي كم كان الكثير هناك قد تغير جذرياً في وقت قصير نسبياً وكم كان الكثير أيضاً منذ غيابه قد أصبح مغايراً ودائماً أصبح غير ما كان.

قد يكون كارل أمضى نحو شهر في رمسيس، عندما قال له رنلّ ذات مساء لدى مروره أن رجلاً يدعى دِلامارش خاطبه أمام الفندق واستعلم منه عن كارل. وقال رنلّ بأنه لم يكن لديه سبب لأن يخفي شيئاً وقال طبقاً للحقيقة أن كارل صبي مصعد، لكنه يأمل بالحصول على أعمال أخرى مغايرة نتيجة حماية كبيرة الطباخين له. ولاحظ كارل كم كان دِلامارش قد عامل رنلّ بحذر، الذي دعاه حتى لتناول طعام عشاء مشترك هذا المساء. «لم يعد لي أية علاقة بدِلامارش»، قال كارل. «احذر أنت منه فحسب!» «أنا؟» قال رنلّ وتمطى وذهب مسرعاً. كان الصبي الأكثر رقة في الفندق وشاعت إشاعة بين الصبية الآخرين إشاعة دون

معرفة صاحبها بأن سيدة وجيهة تقيم في الفندق منذ مدة طويلة قد قبّلته على الأقل في المصعد. بالنسبة لمن كان قد سمع الإشاعة كان ثمة بالضرورة إغراء كبير لأن يرى تلك السيدة الواثقة من نفسها، والتي لم يكن مظهرها الخارجي لينمّ على أقل إمكانية لمثل هذا السلوك، بخطواتها الخفيفة الهادئة وبراقعها الرقيقة وخصرها المشدود بشكل صارم. كانت تسكن في الطابق الثاني ومصعد رنلّ لم يكن مصعدها، لكن لم يكن في مقدور المرء طبعاً أن يمنع مثل هؤلاء النزلاء من الدخول إلى مصعد آخر عندما تكون المصاعد الأخرى مشغولة. وهكذا حدث أن هذه السيدة كانت تصعد بين الحين والآخر في مصعد كارل ورنلّ وفعلاً دائماً عندما يكون رنلّ في الخدمة. من الممكن أن يكون الأمر كان مصادفة لكن ما من أحد كان يعتقد ذلك وعندما كان المصعد يصعد بالاثنين، كان ينشأ في كل مجموعة صبية المصاعد اضطراب مكبوت بجهد، كان حتى قد أدّى إلى تدخل كبير النُدُل. سواء كانت السيدة أم كانت الإشاعة هي السبب، على كل حال تغير رنلّ، بات أكثر ثقة بنفسه، ترك التنظيف كلياً لكارل، الذي راح ينتظر الفرصة القادمة لمحادثة مستفيضة، ولم يعد يُرى في قاعة النوم قط. ما من أحد آخر كان قد خرج على نحو كامل هكذا من جماعة صبية المصاعد، إذ كانوا جميعاً بشكل عام يتضامنون في صرامة على الأقل في مسائل الخدمة وكان لديهم منظمة معترف بها من قبل إدارة الفندق.

ترك كارل كل هذا يجول في ذهنه، كما أنه فكر بدلامارش وراح، بالمناسبة، يؤدي خدمته كالعادة. في نحو منتصف الليل جرى لديه تغيير صغير، وذلك أن تيريزه، التي غالباً ما كانت تفاجئه بهدايا صغيرة، جلبت له تفاحة كبيرة ولوح شوكولاته. تحادثا بعض الشيء دون أن تزعجهما بالكاد الانقطاعات التي جلبتها سفراته بالمصعد. وقد أتى الحديث على دِلامارش ولاحظ كارل بأنه كان قد ترك نفسه في الحقيقة يتأثر بتيريزه، عندما كان يعتبره منذ بعض الوقت إنساناً خطراً. إذ إنه بدا حقاً هكذا لتيريزه حسب قصص كارل. بيد أن كارل كان يعتبره في واقع الأمر مجرد سافل، كان قد فسد نتيجة المصائب ويمكن للمرء أن يتفاهم معه. غير أن تيريزه عارضت ذلك بحدة شديدة وطلبت من كارل في أحاديث طويلة أن يعطيها وعداً بأن لا يتكلم مع دِلامارش كلمة بعد الآن. وبدلاً من إعطائها هذا الوعد راح يلحّ عليها مراراً لكي تذهب إلى النوم، إذ كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل، وإذ رفضت، هدد بأن يترك عمله ويقودها إلى غرفتها. وإذ باتت أخيراً على استعداد للذهاب، قال: «لماذا تشعرين بهذا القلق غير الضروري، تيريزه؟ في حال أنك بهذا تنامين على نحو أفضل، فإني أعدك بسرور أنني لن أتحدث مع دِلامارش سوى عندما لا يمكن تجنب ذلك.» ثم جاءت سفرات كثيرة، حيث إن الصبي على المصعد المجاور دعي لخدمة ما أخرى وتوجب على كارل أن يهتم بالمصعدين. وكان ثمة ضيوف تحدثوا عن عدم نظام حتى إن رجلاً، كان يرافق سيدة، مسّ

كارل مسّة خفيفة بعصاه، لكي يدفعه إلى الإسراع، وكان ذلك تنبيهاً لا لزوم له حقاً. على الأقل لو كان الضيوف، حيث كانوا قد رأوا أنه ما من صبي يقف إلى هذا المصعد، قد جاؤوا إلى مصعد كارل، غير أنهم لم يفعلوا ذلك، بل ذهبوا إلى المصعد المجاور ومكثوا واقفين هناك وأيديهم على المقبض أو حتى دخلوا إلى المصعد، الأمر الذي كان على صبية المصاعد طبقاً للبند الأكثر صرامة في نظام الخدمة أن يتّقوه بأي ثمن. وهكذا بات كارل يجري ذهاباً وإياباً، الأمر الذي أتعبه للغاية، دون أن يكون من شأنه أن يعي لدى ذلك بأنه إنما كان يؤدي واجبه بدقة. في نحو الساعة الثالثة صباحاً أراد فوق ذلك حمّال، رجل عجوز كانت تربطه به بعض الصداقة، مساعدة ما منه، لكنه لم يستطع تقديمها الآن بأي حال، إذ كان ثمة ضيوف يقفون الآن أمام مصعديه وكان الأمر يتطلب حضور ذهن لكي يختار على الفور إلى أي مجموع يذهب بخطوات كبيرة. لذا كان سعيداً عندما عاد الصبي الآخر وألقى إليه ببضع كلمات لوم بسبب غيابه الطويل، رغم أن لا ذنب له في ذلك أغلب الظن. بعد الساعة الرابعة صباحاً ساد بعض الهدوء، فكارل كان يحتاج إلى ذلك على نحو عاجل. استند بثقل على الدرابزين إلى جانب مصعده، راح يأكل على مهل تفاحة سرى منها بعد أول عضة شذى قوي، ونظر نحو الأسفل إلى مسقط نور تحيط به نوافذ المخازن الكبيرة راحت الآن تلمع وراءها كميات موز معلقة في الظلام.

VI

الحالة روبنسون

ربَتَ أحدهم على كتفه. كارل، الذي فكر طبعاً أن من شأن هذا أن يكون أحد النزلاء، دسّ التفاحة بأسرع ما يمكن في جيبه وأسرع نحو المصعد دون أن يكاد قد نظر إلى الرجل. «طاب مساءك، أيها السيد روسمان»، لكن الرجل قال الآن، «أنا روبنسون.» «لكنك تغيرتَ»، قال كارل وهو يهز رأسه. «نعم أحوالي طيبة»، قال روبنسون وهو ينظر إلى ملابسه من الأعلى إلى الأسفل، هذه الملابس التي قد تكون من قطع حسنة، لكنها لا تتناسب مع بعضها وقد بدت أقرب ما تكون إلى الرثاثة. وأكثر ما كان يلفت النظر هو صديرية بيضاء كانت تُلبس لأول مرة ذات أربعة جيوب صغيرة سوداء ذات إطارات أراد روبنسون أن يلفت الانتباه إليها بإبراز صدره أيضاً. «لديك ملابس غالية الثمن»، قال كارل وفكر بنحو عابر بلباسه الجميل البسيط الذي يمكنه به أن ينجح حتى إلى جانب رنلّ، والذي كان الصديقان السيئان قد باعاه. «نعم»، قال روبنسون، «أبتاع لنفسي كل يوم تقريباً شيئاً ما، كيف تعجبك الصديرية؟» «جداً»، قال كارل. «لكن الجيوب ليست جيوباً حقيقية، إنها وهمية فحسب»، قال روبنسون وأمسك يد كارل، لكي يقتنع هذا بنفسه. غير أن كارل تراجع، إذ فاحت من فم روبنسون رائحة كونياك لا تطاق. «لقد عدتَ تشرب كثيراً»، قال كارل وعاد إلى الوقوف إلى الدرابزين. «لا»، قال روبنسون، «ليس كثيراً» وأضاف بتناقض مع سروره السابق: «ماذا يملك الإنسان في العالم غير ذلك.» وقطعت سفرة بالمصعد الحديثَ، وما كاد كارل يعود إلى الأسفل حتى جاءت مخابرة هاتفية تقضي بأن يُحضر كارل طبيب الفندق، إذ إن سيدة في الطابق السابع أغمي عليها. في طريقه أمَلَ كارل في سرّه أن يكون روبنسون قد ابتعد في هذه الأثناء، إذ إنه لم يكن يرغب في أن يُرى معه ولا أن يسمع كذلك، وهو يتذكر تحذير تيريزه، شيئاً عن دِلامارش. غير أن روبنسون كان لا يزال ينتظر وهو في الوضع المتجمد للثمل على نحو كامل، وصادف أن مرّ موظف كبير من موظفي الفندق بسترة خروج طويلة وقبعة أسطوانية، دون أن يكترث، من حسن الحظ، بروبنسون على نحو خاص. «ألا تريد يا روسمان أن تأتي إلينا مرة، أحوالنا الآن ممتازة»، قال روبنسون ونظر إلى كارل نظرة استدراج. «هل

تدعوني أم يدعوني دِلامارش؟» سأل كارل. «أنا ودِلامارش، نحن متفقان في هذا»، قال روبنسون. «فأقول لك وأرجوك أن تبلغ دِلامارش الأمر نفسه: وداعنا، إذا لم يكن هذا واضحاً منذ البداية، كان وداعاً نهائياً. لقد تأسفتما عليّ أكثر مما فعل أي شخص آخر. هل وضعتما في الرأس ربما أن لا تتركاني في هدوء وتستمرا في ذلك؟» «لكننا رفيقاك»، قال روبنسون وترقرقت في عينيه دموع الثمل، دموع كريهة. «يقول لك دِلامارش إنه يريد أن يعوض لك عن كل ما سبق. إننا نسكن الآن في شقة واحدة مع برونيلدا، مغنية رائعة.» ثم أراد الآن أن يغني أغنية بصوت عال، لو لم يهمس له كارل في اللحظة المناسبة: «لكن اصمت في الحال، ألا تعرف إذاً أين نحن.» «روسمان»، قال روبنسون وقد خاف فيما يتعلق بالغناء، «إنني لرفيقك، قل ما تشاء. والآن لديك هنا عمل جميل جداً، هل يمكنك أن تترك لي بعض النقود.» «لن تفعل شيئاً سوى بعثرتها على الخمر»، قال كارل، «بل أرى في جيبك قنينة كونياك، شربت منها بالتأكيد عندما غبتُ، فقد كنت في البداية ما زلت صاحياً.» «هذا لمجرد التقوية، عندما أكون في الخارج»، قال روبنسون معتذراً. «لم أعد أريد أن أصلحك»، قال كارل. «لكن النقود!» قال روبنسون بعينين مفتوحتين. «لقد كلّفك دِلامارش بجلب نقود، حسناً سأعطيك نقوداً، لكن فقط بشرط أن تنصرف من هنا على الفور وأن لا تزورني بعد الآن مرة أخرى قط. إذا أردت أن تعلمني شيئاً، فاكتب لي، كارل روسمان، عامل مصعد، فندق أوكتسيتندال يكفي كعنوان. لكن، لا يجوز لك، هذا ما أكرره، أن تأتي إلى هنا بعد الآن مرة أخرى. أنا هنا في عمل وليس لديّ متسع من الوقت لزيارات. هل تريد إذاً النقود بهذا الشرط؟» سأل كارل ومدّ يده إلى جيب الصديري، وقد كان مصمماً على أن يضحي ببقشيش هذه الليلة. أومأ روبنسن برأسه فقط علامة الموافقة وراح يتنفس بصعوبة. وفسر كارل هذا على نحو غير صحيح وسأل مرة أخرى: «نعم أم لا؟»

هنا ناداه روبنسون بإشارة وهمس وهو يتمايل على نحو واضح للغاية: «روسمان، حالي سيئة جداً، أشعر بغثيان.» «للشيطان»، فَلَتَ من لسانه وبكلتا يديه جرّه إلى الدرابزين.

وتدفق القيء من فم روبنسون إلى العمق. عاجزاً بلا حيلة راح في الفواصل التي كان تقيؤه يتركها له يتحسس كالأعمى نحو كارل. «إنك فعلاً فتى طيب»، قال من ثم أو «سيتوقف»، الأمر الذي ما زال لم يكن صحيحاً بعد، أو «الكلاب، ماذا صبّوا لي هناك من شيء!» من الاضطراب والقرف لم يحتمل كارل البقاء لديه وبدأ يتمشى ذهاباً وإياباً. هنا في الزاوية إلى جانب المصعد كان روبنسون مخفياً بعض الشيء، لكن ماذا إذا رآه أحدهم، واحد من هؤلاء الضيوف الأغنياء العصبيين، الذين ينتظرون فحسب أن يُبلغوا شكوى لموظف الفندق القادم عدواً، الذي يستشيط غضباً ويأخذ لهم من ثم ثأراً من الفندق بكامله، أو إذا مرّ مُخبر من مخبري الفندق الخاصين المتبدلين دائماً، والذين لا يعرفهم أحد ما عدا الإدارة

ويفترضهم المرء في كل إنسان، مخبر يلقي نظرات فاحصة، ربما أيضاً فقط بسبب قصر نظر. وفي الأسفل لا يحتاج سوى أن يذهب أحدهم من المطعم الذي لا تنقطع حركته طوال الليل إلى حجرات المخازن، ويلاحظ في مسقط النور الفظاعة مندهشاً ويستوضح من كارل هاتفياً عما يجري إذاً في الأعلى بحق السماء. هل يكون في مقدور كارل من ثم أن ينكر روبنسون؟ وإن هو فعل ذلك، أليس من شأن روبنسون في غبائه ويأسه بدلاً من كل اعتذار أن يستند إلى كارل؟ أولن يجري تسريح كارل على الفور، لأن الأمر الفادح قد حدث، أن عامل مصعد، المستخدم الأدنى مرتبة والأكثر من يمكن الاستغناء عنه في سلّم درجات الخدم الهائل لهذا الفندق، قد ترك صديقه يلوّث الفندق ويرعب الضيوف أو حتى يطردهم؟ هل يكون في مقدور المرء أن يستمر في احتمال عامل مصعد له مثل هؤلاء الأصدقاء يدعهم علاوة على ذلك يزورونه أثناء ساعات الخدمة؟ ألم يبد الأمر تماماً وكأن مثل عامل المصعد هذا إنما هو نفسه سكّير أو حتى أكثر سوءاً، إذ أي افتراض كان أكثر إقناعاً من أنه إنما يحشو أصدقاءه فوق حد الشبع من مخزونات الفندق، حتى يقوموا بمثل هذه الأشياء في أي موضع من مواضع هذا الفندق نفسه المحافَظ عليه نظيفاً نظافة فائقة، مثل روبنسون الآن؟ ولماذا سيقتصر مثل هذا الصبي على سرقات مواد غذائية، إذ إن إمكانيات السرقة كانت لا تعدّ ولا تحصى فعلاً، وذلك لدى إهمال الضيوف المعروف، والخزائن التي تظل مفتوحة في كل مكان، والأشياء الثمينة التي تتناثر على الطاولات، وعلب الحلي المفتوحة، والمفاتيح الملقاة بإهمال؟

في هذه اللحظة رأى كارل في البُعد ضيوفاً صاعدين من محل سهر في القبو كان عرض منوعات قد انتهى فيه لتوّه. وقف كارل إلى جانب مصعده ولم يجرؤ قط على أن يلتفت إلى روبنسون خوفاً مما قد يمكن أن يشاهده. ولم يهدّئه كثيراً أنه لم يسمع صوتاً من هناك ولا حتى زفرة. راح يخدم ضيوفه وينقلهم صعوداً وهبوطاً، هذا صحيح، بيد أنه لم يقدر أن يخفي شروده كل الاخفاء ولدى كل سفرة إلى الأسفل كان يتوقع أن يلقى هناك مفاجأة محرجة.

أخيراً بات لديه متسع من الوقت ليهتمّ بروبنسون، الذي كان يتكوّر صغيراً جداً في زاويته ويضغط وجهه على ركبتيه. وكان قد أمال قبعته الدائرية القاسية بعيداً عن جبهته. «إذاً انصرف الآن»، قال كارل بصوت منخفض وجازم، «هنا النقود. إذا أسرعت، أستطيع أن أريك الطريق الأقصر.» «لن أستطيع الانصراف»، قال روبنسون وهو يمسح جبينه بمنديل صغير جداً، «سوف أموت هنا. لا يمكنك أن تتصور مدى سوء حالي. دِلامارش يأخذني معه إلى حانات فاخرة في كل مكان، غير أني لا أتحمّل هذا المشروب الحريّف وأقول هذا لدِلامارش كل يوم.» «هنا لا تستطيع أن تبقى بأي حال»، قال كارل، «فكّر أين أنت. إذا وجدوك هنا يعاقبونك وأفقد عملي. هل تريد هذا؟» «لا أستطيع الانصراف»، قال روبنسون، «أفضّل أن

أقفز هنا إلى الأسفل»، وأشار بين قضبان الدرابزين إلى مسقط النور. «عندما أكون جالساً هكذا هنا، أستطيع أن أحتمل الأمر، لكنني لا أستطيع النهوض، لقد حاولتُ ذلك عندما كنتَ غائباً.» «إذاً أحضر عربة وتذهب إلى المستشفى»، قال كارل وهزّ قليلاً ساقي روبنسون، الذي كان يوشك في كل لحظة أن يقع فريسة سبات تام. لكن ما أن سمع روبنسون كلمة مستشفى، هذه الكلمة التي بدت أنها توقظ فيه تصورات مخيفة،، حتى بدأ ينتحب بصوت عال وراح يمدّ يديه نحو كارل متوسلاً رحمة.

«اهدأ»، قال كارل، ضربه على يديه ضربة خفيفة، جرى إلى عامل المصعد الذي كان قد ناب عنه في الليل، وطلب منه أن يعمل معه المعروف نفسه لوهلة قصيرة، وعاد مسرعاً إلى روبنسون، الذي كان ما زال ينشج بالبكاء، رفعه بكل قوة إلى الأعلى وهمس له: «روبنسون، إذا كنت تريد أن أعتني بك، فعليك أن تبذل جهدك وتمشي الآن منتصباً مسافة قصيرة جداً. إذ إنني سأقودك إلى سريري، حيث يمكنك أن تبقى حتى تتحسن حالتك. سوف تعجب ما أسرع ما تسترجع قواك. لكن الآن تعقّل فحسب، فالممرات مليئة بالناس كما أن سريري في قاعة نوم عامة. وإذا ما تنبه المرء إليك قليلاً فحسب، فإنه لا يعود في مقدوري أن أفعل شيئاً من أجلك. وينبغي عليك أن تُبقي عينيك مفتوحتين، فأنا لا أستطيع أن أتجول بك كأنك مريض مشرف على الموت.» «سأفعل كل ما تراه صحيحاً»، قال روبنسون، «لكنك وحدك لن تستطيع أن تقودني. ألا يمكنك أن تُحضر رِنِلّ أيضاً؟» «رنل ليس هنا»، قال كارل. «آه نعم»، قال روبنسون، «رِنِلّ يجلس مع دِلامارش. الاثنان أرسلاني إليك. إنني أخلط بين كل الأمور.» استخدم كارل هذه الأحاديث لروبنسون مع نفسه وغيرها من الأحاديث غير المفهومة، لكي يدفعه إلى الأمام ووصل معه أيضاً بسلام إلى زاوية يقود منها ممر مضاء إضاءة خفيفة إلى قاعة نوم عمال المصاعد. في هذه اللحظة مرّ بهما عامل مصعد وهو ينطلق جرياً. وبالمناسبة، لم يكونا قد التقيا حتى الآن سوى لقاءات غير خطرة؛ حيث كان الوقت بين الساعة الرابعة والخامسة هو الوقت الأكثر هدوءاً وكان كارل يعرف أنه إذا لم يتمّ له الآن إبعاد روبنسون، فإنه لن يعود يمكن التفكير بذلك إطلاقاً عند الفجر وفي مستهلّ حركة النهار.

في قاعة النوم كان في النهاية الأخرى للقاعة ثمة شجار كبير يجري في هذه اللحظة أو أي حدث آخر، كان يُسمع تصفيق بالأيدي على الإيقاع وطرق بالأقدام منفعل وهتافات رياضية. في نصف القاعة الواقع لدى الباب كان المرء لا يرى في الأسرّة سوى قلائل من النائمين المصرّين على النوم، وكانوا في معظمهم يرقدون على ظهورهم ويحدّقون في الهواء، في حين كان بين الفينة والأخرى يقفز أحدهم من السرير، مرتدياً ملابسه أو غير مرتدٍ كما هو في هذه اللحظة، لكي يرى كيف كانت الأمور في النهاية الأخرى للقاعة. هكذا أوصل كارل

روبنسون، الذي كان قد اعتاد بعض الشيء في هذه الأثناء على السير، إلى سرير رِنِلّ دون أن يؤبه له بالكاد، حيث إن السرير كان قريباً جداً من الباب ولم يكن مشغولاً لحسن الحظ، في حين أن في سريره الخاص به كان ثمة، كما رأى من بُعد، صبي غريب لم يكن يعرفه قط، ينام بهدوء. ما كاد روبنسون يحسّ السرير تحته، حتى أخلد إلى النوم على الفور، وقد ظلت إحدى ساقيه تتدلى من السرير. سحب كارل اللحاف وغطى به كل وجهه وظنَّ أنه لا ينبغي عليه أن يشغل باله لبعض الوقت على الأقل، حيث من المؤكد أنه لن يكون من شأن روبنسون أن يستيقظ قبل الساعة السادسة صباحاً، وحتى ذلك الوقت سيكون هنا مرة أخرى وسيكون من شأنه أن يجد ربما مع رِنِلّ وسيلة لإخراج روبنسون. كان تفتيش قاعة النوم من قبل سلطات عليا لا يجري سوى في حالات استثنائية، وكان عمال المصاعد قد حققوا قبل أعوام إلغاء التفتيش العام المألوف سابقاً، أيضاً من هذه الناحية إذاً لم يكن ثمة ما يُخشى.

عندما وصل كارل إلى مصعده، رأى أن مصعده كما مصعد جاره كانا قد صعدا لتوّهما. مضطرباً راح ينتظر كيف سيكون من شأن ذلك أن يتوضح. ونزل مصعده قبل الآخر ونزل منه ذلك الصبي الذي كان قد جرى في الممر قبل فترة وجيزة. «نعم أين كنت إذاً يا روسمان؟» سأل هذا. «لماذا رحت؟ لماذا لم تبلّغ الأمر؟» «لكنني قلت له أن ينوب عني وهلة وجيزة»، أجاب كارل وأشار إلى الصبي من المصعد المجاور الذي كان الآن يقترب. «لقد قمت بعمله أيضاً طوال ساعتين أثناء زحمة العمل.» «كل هذا جيد جداً»، قال المخاطَب، «غير أن هذا لا يكفي أبداً، ألا تعرف إذاً أنه يجب التبليغ في مكتب كبير النُدُل أيضاً عن أقصر غياب أثناء الخدمة. من أجل هذا لديك الهاتف هنا. كان من شأني أن أنوب عنك بسرور، غير أنك تعلم ولا ريب أن هذا ليس سهلاً هكذا. الآن كان أمام كلا المصعدين ضيوف جدد من قطار الساعة الرابعة والنصف السريع. ولم يكن في مقدوري طبعاً أن أجري أولاً إلى مصعدك وأترك ضيوفي ينتظرون، وهكذا صعدت أولاً بمصعدي.» «والآن؟» سأل كارل باهتمام شديد، إذ كان الصبيان قد لاذا بالصمت. «الآن»، قال الصبي من المصعد المجاور، «في هذه اللحظة يمرّ كبير النُدُل، يرى الناس أمام مصعدك دون خدمة، يستشيط غضباً، يسألني، أنا الذي جريت على الفور، أين تتوارى، ما من فكرة لديّ، إذ إنك لم تقل لي قط إلى أين تذهب، وهكذا يخابر في الحال إلى قاعة النوم كي يحضر صبي آخر على الفور.» «لقد التقيتك في الممر»، قال بديل كارل. كارل أومأ برأسه. «طبعاً»، أكد الصبي الآخر، «قلت حالاً إنك رجوتني أن أنوب عنك، لكن هل يسمع هذا مثل هذه الأعذار. إنك على الأرجح ما زلت لا تعرفه. وعلينا أن نبلغك أنه يتعيّن عليك أن تذهب إلى المكتب فوراً. إذاً من الأفضل أن لا تؤخر نفسك واجرِ إلى هناك. ربما يعذرك، فلم تغب فعلاً سوى دقيقتين. استشهد بي براحة، بأنك رجوتني أن أنوب عنك. ومن الأحسن أن لا تتحدث عن أنك قمت بالنيابة عني، اسمع نصيحة، لي لا

يمكن أن يحدث شيء، كان لديّ إذن، لكن ليس من الخير أن نتحدث عن مثل هذا الموضوع ونخلطه في هذه المسألة التي لا علاقة لها به بتاتاً.» «كانت هذه هي المرة الأولى التي أترك فيها مكان عملي»، قال كارل. «هذا هو الحال دائماً، غير أنهم لا يصدقونه»، قال الصبي وجرى إلى مصعده، إذ كان ثمة ناس يقتربون. نائب كارل، صبي في نحو الرابعة عشرة، الذي كان يرقّ قلبه لكارل يشفق على كارل فيما يبدو، قال: «لقد جرت حالات كثيرة عذروا فيها مثل هذه الأشياء. في العادة ينقلون المرء إلى أعمال أخرى. بسبب مثل هذا الأمر لم يجر حسب علمي سوى تسريح واحد فقط. عليك فحسب أن تنتحل عذراً صالحاً. لا تقل بأي حال أن نفسك غَثَتْ فجأة، وإلا فإنه يضحك عليك. هنا من الأفضل أن تقول بأن أحد النزلاء قد أرسلك في طلب عاجل إلى ضيف آخر ولم تعد تعرف من كان الضيف الأول والثاني لم تستطع العثور عليه.» «حسناً»، قال كارل، «لن يكون الأمر بمثل هذا السوء»، بعد كل ما كان قد سمعه لم يعد يتوقع نهاية طيبة. وإذا قُدّر أن يتمّ العفو عن هذا التقصير في العمل، فهناك روبنسون ما زال في قاعة النوم بصفته ذنبه الحيّ ولدى طبع كبير النُدُل الحادّ كان من المرّجح جداً أنهم لن يكتفوا بتحقيق سطحي وفي نهاية الأمر سيعثرون على روبنسون. لم يكن هناك أمر واضح صريح يقضي بعدم السماح بإدخال غرباء إلى قاعة النوم، بيد أن سبب عدم وجود هذا الحظر هو فقط أنه لا يجري منع أمور غير قابلة للتصور.

حين دخل كارل إلى مكتب كبير النُدُل، كان هذا يشرب قهوة الصباح، تناول جرعة وعاد ينظر إلى قائمة كان على ما يبدو كبير البوابين الحاضر أيضاً قد حملها إليه لإبداء الرأي. كان هذا رجلاً ضخماً جعلته بدلته الرسمية المحمّلة بتزيينات وافرة ـ حتى على الكتفين والذراعين راحت سلاسل وشرائط مذهبة تتلوى نحوالأسفل ـ عريض المنكبين أكثر مما كان بطبيعته. وكان شارب أسود لامع ذو طرفين طويلين كما لدى الهنغاريين، لا يتحرك حتى لدى أكثر لفتة رأس سرعة. ولم يكن في مقدور الرجل بسبب ثقل ملابسه أن يتحرك إلا بصعوبة ولم يكن يقف بطريقة أخرى سوى بتثبيت ساقيه جانبياً لكي يوزع ثقله على نحو صحيح.

كان كارل قد دخل بحرية وسرعة، كما كان قد اعتاد هنا في الفندق، إذ إن التؤدة والحذر اللذان يعنيان عند الأشخاص الشخصيين أدباً ولياقة، يعتبرهما المرء عند عمال المصاعد كسلاً. وعلاوة على ذلك يجب ألّا يُلاحظ عليه منذ دخوله شعور بالذنب. صحيح أن كبير النُدُل قد مدّ بصره على نحو عابر إلى الباب وهو يُفتح، غير أنه عاد من ثم على الفور إلى قهوته وقراءته، دون أن يكترث بكارل. أما البواب فإنه قد يكون أحس بانزعاج من وجود كارل، وربما كان عليه أن يوصّل نبأً ما أو يقدم طلباً، على كل حال راح ينظر نحو كارل بامتعاض ورأس مائل، حتى يلتقي نظرات كارل طبقاً لمقصده على ما يبدو، ومن ثم يتوجه ثانية إلى كبير النُدُل. بيد أن كارل اعتقد أنه لن يناسب، إذ إنه أصبح الآن هنا، إذا عاد إلى مغادرة المكتب دون أن يكون قد حصل على الأمر بذلك من كبير النُدُل. غير أن هذا

استمرفي دراسة القائمة وهو يأكل بين وقت وآخر من قطعة كاتو راح أحياناً ينفض السكر عنها دون أن يتوقف عن القراءة. ذات مرة سقطت ورقة من أوراق القائمة على الأرض، والبواب لم يحاول حتى أن يرفعها، كان يعلم أنه ليس من شأنه أن يتمكن من ذلك، كما أن الأمر لم يكن ضرورياً، إذ إن كارل كان في الخدمة وناول الورقة كبير النُدُل، الذي أخذها بحركة يد وكأن الورقة طارت بنفسها من الأرض. كل الخدمة الصغيرة لم تفد شيئاً، إذ إن البواب لم يتوقف بعد ذلك عن النظر بامتعاض.

رغم ذلك كان كارل أكثر صبراً من السابق. فكون مسألته قد بدت لكبير النُدُل غير ذات أهمية كان في مقدور المرء أن يعتبره إشارة طيبة. وأخيراً كان كبير النُدُل نفسه في صباه عامل مصعد ـ مما كان فخر هذا الجيل من عمال المصاعد ـ كان هو الذي قام بتنظيم عمال المصاعد لأول مرة، ولا شك أنه كان قد غادر ذات مرة مكان عمله دون إذن، وإن كان لا يمكن لأحد الآن أن يرغمه على تذكّر ذلك وإذا لم يكن يجوز للمرء أن يغفل الآن أنه بصفته عامل مصعد سابقاً كان يرى أن واجبه هو أن يُبقي هذه الفئة على ما يرام بأن يضبطها بصرامة لا ترحم أحياناً. والآن علّق كارل أمله فوق ذلك على تأخر الوقت. حسب ساعة المكتب كانت الساعة قد تجاوزت السادسة والربع، وكل لحظة يمكن لرِنِلّ أن يعود، وربما يكون قد عاد، إذ لا بدّ أن يكون قد لفت انتباهه أن روبنسون لم يعد، وهذا، للمناسبة لا يمكن أن يكون دلامارش ورِنِلّ أن يكونا بعيدين عن فندق أوكتسيتندال، كما خطر الآن لكارل، إذ ما كان روبنسون خليقاً أن يجد الطريق إلى هنا. وإذا وجد رِنِلّ الآن روبنسون في سريره، الأمر الذي لا بدّ أن يكون قد حدث، فإن كل شيء يكون حسناً. إذ إن رِنِلّ، العمليّ، لاسيما إذا كان الأمر يتعلق بمصلحته، خليق أن يُبعد روبنسون من الفندق بطريقة من الطرق، الأمر الذي يمكن أن يحدث بيسر أكبر حيث يكون روبنسون قد انتعش قليلاً في هذه الأثناء وفوق ذلك كان دِلامارش على الأرجح ينتظر أمام الفندق لكي يستقبله. لكن عندما يكون روبنسون قد جرى إبعاده، فإنه يمكن لكارل أن يواجه كبير النُدُل بهدوء أكثر وينجو هذه المرة ربما مع تأنيب وإن جاء قاسياً. ومن ثم سيكون خليقاً به أن يتشاور مع تيريزه في ما إذا كان يجوز له أن يقول الحقيقة لكبيرة الطباخين ـ في ما يخصه لم يكن يرى عائقاً ـ وإذا كان هذا ممكناً، فإن المسألة خليقة أن تنتهي من العالم دون ضرر مميز.

ما إن كان كارل قد هدّأ نفسه بمثل هذه التأملات وشرع على نحو لا يحسّ به مخلوق، يعدّ البقشيش الذي جناه في هذا الليل، إذ بدا له طبقاً لشعوره أنه كان وافراً على نحو خاص، حتى وضع كبير النُدُل القائمة على الطاولة وهو يقول «انتظر من فضلك يا فيودور»، قفز برشاقة وصرخ في وجه كارل بصوت عال هكذا بحيث إن كارل راح في بادئ الأمر يحدق فحسب وهو مرتعب في ثقب الفم الأسود الكبير.

«غادرتَ مكان عملك دون إذن. هل تعلم ماذا يعني هذا؟ هذا يعني تسريحاً. لا أريد أن أسمع أعذاراً. يمكنك الاحتفاظ بذرائعك الكاذبة لنفسك، يكفيني على نحو كامل حقيقة أنك غبتَ. إذا قبلتُ هذا مرة واحدة وعذرتُ، يفرّ في القريب العاجل عمال المصاعد الأربعون جميعهم أثناء الخدمة ويمكنني وحدي أن أحمل على الدَرَج ضيوفي الخمسة آلاف.»

لاذ كارل بالصمت. كان البواب قد اقترب وسحب سترة كارل الصغيرة، التي كانت تلقي بعض الثنيّات، إلى أسفل قليلاً، لا شك لكي يلفت بوجه خاص انتباه كبير النُدُل إلى عدم الانتظام الصغير في حلّة كارل.

«هل أحسستَ بتوعّك على حين غرّة؟» سأل كبيرُ النُدُل في مكر. نظر إليه كارل نظرة فاحصة وأجاب: «لا.» «إذاً ولا حتى أحسستَ بتوعّك؟» صرخ كبيرالنُدُل بصوت أعلى. «إذاً لا بدّ أنك قد ابتكرتَ كذبة عظيمة ما. هات ما عنك. أي عذر لديك؟» «لم أكن أعلم أنه يتوجب على المرء أن يطلب إذناً عن طريق الهاتف»، قال كارل. «هذا فاخر حقاً»، قال كبير النادلين، أمسك كارل من ياقة سترته وعلّقه تقريباً أمام نظام خدمة المصعد، كان معلقاً على الجدار. كما أن البواب ذهب وراءهما إلى الجدار. «هنا! اقرأ!» قال كبير النُدُل وهو يشير إلى أحد البنود. ظن كارل أن عليه أن يقرأه لنفسه. غير أن كبير النُدُل أمره قائلاً: «بصوت عال!» وبدلاً من أن يقرأ كارل بصوت عال، قال وهو يأمل بأن يهدّئ من روع كبير النُدُل بصورة أفضل: «أعرف البند، كما أني استلمت نظام الخدمة وقرأته بدقة. لكن مثل هذا البند الذي لا يحتاجه المرء أبداً، ينساه. إنني أخدم منذ شهرين ولم أغادر مكان عملي مرة واحدة.» «لقاء ذلك سوف تغادره الآن»، قال كبير النُدُل، ذهب إلى الطاولة، تناول القائمة مرة ثانية، وكأنه يريد أن يتابع القراءة فيها، غير أنه ضرب بها الطاولة وكأنها خرقة عديمة الجدوى وراح يقطع الغرفة طولاً وعرضاً باحمرار شديد على الجبين والوجنتين. «بسبب مثل هذا الولد يحتاج المرء إلى هذا. مثل هذه الهيجانات أثناء الخدمة الليلية!» قذف من فمه عدة مرات. «هل تعلم من كان يريد الصعود، عندما هرب هذا الإنسان من أمام المصعد؟» قال متوجهاً نحو البواب. وسمّى اسماً أصاب البواب، الذي كان يعرف بالتأكيد الضيوف جميعهم ويعرف أن يقيّمهم، برجفة كبيرة إلى درجة أنه نظر نحو كارل نظرة سريعة وكأن مجرد وجود هذا هو تأكيد على أن حامل ذلك الاسم كان قد انتظر بغير جدوى أمام مصعد كان عامله قد هرب. «هذا أمر مخيف!» قال البواب وراح يهز رأسه على مهل وبانزعاج لا حدود له ناحية كارل، الذي نظر إليه مكتئباً وفكر أنه يتوجب عليه الآن أن يكفّر أيضاً عن غباء هذا الرجل. «أنا أيضاً أعرفك»، قال البواب وهو يمدّ سبّابته الغليظة الكبيرة المشدودة بتصلّب. «إنك الصبي الوحيد الذي لا يلقي عليّ التحية من حيث المبدأ. ماذا تظن نفسك! كل من يمرّ بمقصورة البواب يجب أن يحيّيني. مع بقية البوابين يمكنك أن تتصرف كما تشاء، أما أنا فإني أطلب أن أحيّى. صحيح

أني أتظاهر أحياناً بأنني لا أنتبه، لكن يمكنك أن تكون هادئاً للغاية، إني أعرف تماماً من يحيّيني ومن لا يحيّيني، أيها الغشيم.» وأدار ظهره لكارل وخطا مشدود القامة نحو كبير النُدُل، الذي بدلاً من أن يقول شيئاً عن موضوع البواب أنهى طعام فطوره وراح يتصفح جريدة صباحية كان خادم قد سّلمها لتوّه في الغرفة.

«السيد كبير البوابين»، قال كارل الذي أراد أثناء عدم اكتراث كبير النُدُل على الأقل تصفية الموضوع مع البواب، إذ إنه أدرك أن تهمة البواب قد لا تعود عليه بضرر، لكن عداوته، «إني لأحييك بكل تأكيد. لم يمض عليّ مدة طويلة في أمريكا وأنا أتحدّر من أوروبا، حيث من المعروف أن المرء يحيّي أكثر بكثير من اللازم. وهذا ما لم أستطع طبعاً أن أقلع عنه بعد، وقبل شهرين فحسب نصحوني في نيويورك، حيث كنت مصادفة أخالط أوساطاً راقية، لدى كل مناسبة بأن أكفّ عن مجاملتي المبالغ بها. وهنا يقال عني إني لم أحيك. لقد كنت ألقي عليك التحية كل يوم عدة مرات. لكن طبعاً ليس في كل مرة كنت أراك فيها، فأنا أمرّ بك مئة مرة كل يوم.» «يجب عليك أن تلقي التحية عليّ في كل مرة، كل مرة دون استثناء، يجب عليك أن تمسك طاقيتك بيدك طوال المدة التي تكون فيها تتحدث إليّ، يجب عليك دائماً أن تخاطبني بكلمة كبير البوابين وليس بكلمة أنتم. وكل شيء كل مرة وكل مرة.» «كل مرة؟» كرر كارل متسائلاً بصوت منخفض، وتذكّر الآن كيف كان البواب ينظر إليه طوال مدة إقامته هنا دائماً وأبداً نظرات تأنيب قاسية، منذ ذلك الصباح الأول، حيث لم يكن قد تكيّف بعد مع عمله الخدماتي المتواضع، الذي كان فيه قد سأل هذا البواب ببساطة وسهولة وبجرأة أكثر من اللازم قليلاً وعلى نحو معقّد وبإلحاح، في ما إذا كان رجلان قد سألا عنه وربما قد تركا له صورة. «الآن ترى إلى أين يفضي مثل هذا السلوك»، قال البواب الذي كان قد عاد إلى قُرب كارل تماماً وأشار إلى كبير النادلين الذي كان لا يزال يقرأ، وكأن هذا هو ممثل ثأره. «في عملك القادم سوف تفهم أن تلقي التحية على البواب حتى لو لم يكن ذلك سوى ربما في ملهى حقير.»

أدرك كارل أنه كان قد فقد عمله في الواقع، حيث إن كبير النُدُل كان قد قال ذلك، وكبير البوابين كرر الأمر بصفته حقيقة واقعة ومن المفروض أنه لن يكون ضرورياً إقرار تسريح عامل مصعد من لدن إدارة الفندق. لكن الأمر قد جرى بأسرع مما كان قد فكر، فقد خدم مدة شهرين أحسن ما يستطيع الخدمة ويقيناً أفضل من بعض الصبية الآخرين. لكن يبدو أن مثل هذه الأشياء لا تراعى عند اللحظة الحاسمة في قارة من قارات العالم، لا في أوروبا ولا في أمريكا، بل يجري حسمها مثلما يخرج الحكم من الفم لدى الغضبة الأولى. ربما كان من الأفضل الآن لو كان استأذن على الفور بالانصراف وذهب، ربما كانت كبيرة الطباخين وتيريزه ما زالتا نائمتين، كان حريّاً به أن يودعهما تحريرياً لكي يوفر عليهما على الأقل لدى

الوداع الشخصي خيبة أملهما وحزنهما بخصوص سلوكه، كان حريّاً به أن يحزم حقيبته وينصرف بهدوء. لكن إذا هو بقي يوماً واحداً فحسب ـ غير أنه كان من شأنه أن يحتاج إلى بعض النوم ـ فلما كان سينتظره شيء آخر سوى تكبير مسألته إلى فضيحة، تأنيب من كل جانب، منظر دموع تيريزه الذي لا يُحتمل وحتى ربما دموع كبيرة الطباخين ومن الممكن في آخر المطاف عقوبة. لكن من طرف آخر أربكه أنه هنا يواجه عدوّين وأن كل كلمة من شأنه أن ينطق بها حريّة أن ينتقدها إن لم يكن الأول فالثاني أو يفسرها تفسيراً سيئاً. لذا لاذ بالصمت واستمتع مؤقتاً بالهدوء الذي ساد الغرفة، إذ إن كبير النُدُل كان ما زال يقرأ الجريدة وكبير البوابين راح يرتّب أوراق قائمته المتناثرة فوق الطاولة حسب أرقام الصفحات، الأمر الذي سبّب له صعوبات كبيرة نتيجة قصر نظره الجليّ.

وأخيراً وضع كبير النُدُل الجريدة من يده وهو يتثاءب، استوثق بنظرة ألقاها إلى كارل أن هذا ما زال حاضراً وأدار جرس هاتف الطاولة، نادى عدة مرات هالو، غير أن ما من أحد أجاب. «لا أحد يجيب»، قال لكبير البوابين. هذا، الذي راقب المخابرة باهتمام خاص، كما بدا لكارل، قال: «إنها الساعة السابعة والربع. لقد استيقظت بالتأكيد. دقّ بقوة أكبر.» في هذه اللحظة جاءت الإشارة الهاتفية المعاكسة دون طلب آخر. «هنا كبير النُدُل إيسبَري»، قال كبير النُدُل. «طاب صباحك أيتها السيدة كبيرة الطباخين. لم أوقظك ربما في النهاية. يؤسفني بالغ الأسف. نعم، نعم، لقد بلغت السابعة إلا ربعاً. لكن هذا يؤسفني بصدق، أنني أفزعتك. عليك قطع الهاتف أثناء النوم. كلا، كلا فعلاً، لا عذرلي، خاصة لدى صغر المسألة التي أريد أن أتحدث معك بسببها. لكن طبعاً لديّ متسع من الوقت، تفضلي، سأظل لدى الهاتف إذا كان هذا يناسبك.» «لا بدّ أنها جرت إلى الهاتف وهي في لباس النوم»، قال كبير النُدُل وهو يبتسم لكبير البوابين، الذي كان طوال الوقت ينحني إلى صندوق الهاتف وتعابير وجهه تعبّر عن اهتمام شديد. «لقد أيقظتها فعلاً، إذ إنها توقظ عادة من قبل الفتاة الصغيرة التي تكتب لديها على الآلة الكاتبة ولا بدّ أنها اليوم قد أهملت ذلك استثناءً. يؤسفني أني أفزعتها، إنها عصبية بطبيعة الحال.» «لماذا لا تتابع هي الكلام؟» «ذهبت كي ترى ماذا جرى للفتاة»، أجاب كبير النُدُل وقد وضع السماعة على أذنه حيث كان الهاتف قد رنّ. «سوف يُعثر عليها»، استمر في حديثه على الهاتف، «لا يجوز لك أن تدعي كل شيء يخيفك، إنك تحتاجين فعلاً إلى استجمام شامل. نعم إذاً سؤالي الصغير. هنا عامل مصعد، يدعى ـ استدار مستفسراً نحو كارل، الذي استطاع أن يساعد باسمه على الفور إذ كان ينتبه وينصت تماماً ـ يدعى إذاً كارل روسمان، إذا كنت أتذكر صحيحاً، كنتِ قد اهتممتِ به بعض الاهتمام؛ مع الأسف كافأ لطفك على نحو سيء، غادر مكان عمله بدون إذن، وبهذا سبّب لي مضايقات شديدة لا يمكن الآن تصور مداها، ولذا قمت الآن بتسريحه. آمل أن تنظري إلى الأمر بسهولة. ماذا

تقولين؟ تسريح، نعم تسريح. غير أني قلت لك إنه غادرمكان عمله. كلا هنا لا أستطيع فعلاً أن أذعن لك أيتها السيدة كبيرة الطباخين العزيزة. الموضوع يتعلق بممارستي لسلطتي، ثمة الكثير في كفة الميزان، مثل هذا الصبي يفسد لي العصابة بكاملها. لدى عمال المصاعد بالذات يجب الانتباه على نحو شيطاني. لا، لا، في هذه الحالة لا أستطيع أن أسدي لك المعروف، مهما كنت أجعل نصب عينيّ دائماً أن أكون لطيفاً معك. وإن أنا رغم كل شيء تركته هنا لا لهدف آخر سوى إبقاء مرارتي تعمل في نشاط، من أجلك، نعم من أجلك، أيتها السيدة كبيرة الطباخين، لا يستطيع أن يبقى هنا. إنك تهتمين به اهتماماً لا يستحقه ولأنني لا أعرفه فحسب، وإنما أعرفك، أدري أن هذا حريّ ولا بدّ أن يؤدي إلى أكبر خيبة أمل لك، هذه الخيبة التي أريد أن أوفّرها عليك بأي ثمن. أقول هذا بصراحة تامة، رغم أن الصبي المعاند يقف على بُعد بضع خطوات أمامي. سوف يُسرّح، لا لا أيتها السيدة كبيرة الطباخين، سوف يُسرّح كلياً، لا لا لن يُنقل إلى أي عمل آخر، إنه غير صالح إطلاقاً. هذا وللمناسبة، هناك شكاوى أخرى تتوارد ضده. كبير البوابين مثلاً نعم إذاً ما الأمر، فيودور، إنه يشكو من عدم تأدب الصبي ووقاحته. كيف، هذا لا يكفي؟ نعم أيتها السيدة كبيرة الطباخين العزيزة إنك تنكرين سجاياك بسبب هذا الصبي. كلا لا يجوز لك أن تلحّي عليّ.»

في هذه اللحظة انحنى البواب على أذن كبيرالنُدُل وهمس له شيئاً. تطلع إليه هذا مندهشاً أول الأمر ثم تحدث في الهاتف بسرعة بحيث إن كارل لم يفهمه تماماً في البداية واقترب خطوتين على رؤوس أصابعه.

«السيدة كبيرة الطباخين العزيزة»، قال، «بصراحة أقول لم أكن أظن أنك عارفة سيئة بالناس هكذا. في هذه اللحظة أعلم أن صبيك الملاك، الأمر الذي سيغيّر رأيك فيه تغييراً تاماً ويؤسفني تقريباً أنه يجب عليّ أنا بالذات أن أقول الأمر لك. هذا الصبي اللطيف، الذي تسمّينه نموذجاً في حسن السلوك، لا يدع ليلة عطلة تمضي دون أن يجري إلى المدينة التي لا يعود منها سوى في الصباح. نعم نعم أيتها السيدة كبيرة الطباخين، لقد ثبت هذا بواسطة شهود، بواسطة شهود لا غبار عليهم، نعم. هل يمكن ربما أن تقولي لي الآن من أين يأخذ المال اللازم لهذه الملاهي؟ كيف عليه أن يحافظ على انتباهه من أجل الخدمة؟ وتريدين ربما أيضاً بالإضافة إلى ذلك أن أصف لك ماذا يعمل في المدينة؟ لكني أريد أن أسرع على نحو خاص بالتخلص من هذا الصبي. وأنت أرجو أن تأخذي الأمر كتنبيه، كم يجب الحذر من الصبية الحثالة.»

«لكن أيها السيد كبير النُدُل»، نادى كارل الآن، أقرب ما يكون إلى الارتياح بسبب هذا الخطأ الكبير الذي بدا أنه وقع هنا، والذي ربما يمكنه أن يؤدي بالأحرى إلى أن يتحسن كل شيء على نحو غير متوقع، «من المؤكد أن ثمة خلطاً هنا. أظن أن السيد كبير البوابين قال

لك إني أخرج كل ليلة. غير أن هذا لا ريب غير صحيح، بل إنني أكون في قاعة النوم كل ليلة، هذا ما يستطيع الصبية جميعهم أن يصادقوا عليه. وعندما لا أكون نائماً أذاكر مراسلات تجارية، لكنني لا أتحرك من قاعة النوم أية ليلة. ويمكن التدليل على هذا بسهولة. يبدو أن السيد كبير البوابين إنما يخلط بيني وبين أحدهم، كما أني الآن أصبحت أفهم لماذا يظن أني لا ألقي عليه التحية.»

«هل تسكت في الحال»، صرخ كبير البوابين وهزّ قبضته، حيث كان آخرون خليقين أن يحركوا أصبعاً، «أنا أخلط بينك وبين آخر. نعم لا أعود أستطيع أن أكون كبير بوابين بعد الآن، إذا خلطت بين الناس. اسمع فحسب، يا سيد إيسبَري، لا أعود أستطيع أن أكون كبيربوابين بعد الآن، إذا كنت أخلط بين الناس. لكن في سنوات خدمتي الثلاثين لم يحدث لي خلط واحد بين الناس، كما يجب على مئات من السادة كبار النُدُل، الذين كانوا لدينا منذ ذلك الحين، أن يصادقوا، لكن لديك أيها الصبي الذي يرثى له عليّ أن أكون قد بدأت بالخلط. لديك، بوجهك الأملس على نحو لافت للنظر. ماذا يوجد هنا للخلط، كان من شأنك أن تجري إلى المدينة كل ليلة من وراء ظهري وأنا أؤكد حسب وجهك وحده أنك صعلوك فاسد.

«اترك، فيودور!» قال كبيرالنادلين الذي بدا حديثه الهاتفي مع كبيرة الطباخين وقد قُطع فجأة. «الموضوع في غاية البساطة. تسلياته في الليل ليست مهمة بالدرجة الأولى. ربما كان يريد قبل وداعه أن يسبّب تحقيقاً كبيراً ما حول انشغاله الليلي. أستطيع أن أتصور أن هذا خليق أن يعجبه. من الممكن أن يُستدعى عمال المصاعد الأربعون جميعهم ويُستمع إليهم كشهود، ومن شأنهم طبعاً أن يكونوا جميعهم قد خلطوا بينه وبين غيره، وسيكون من اللازم إذاً استدعاء جميع العاملين واحداً بعد الآخر لكي يدلوا بشهاداتهم، وسيجري إيقاف عمل الفندق لمدة، وإذا ما طُرد في النهاية، فإنه يكون قد تسلّىعلى الأقل. إذاً من الأفضل أن لا نعمل هذا. لقد استغفل كبيرة الطباخين، هذه المرأة الطيبة. وهذا يكفي. لا أريد أن أسمع شيئاً آخر. أنت مسرّح من الخدمة على الفور بسبب إهمال في الخدمة. سأعطيك توجيهاً إلى الصندوق بأن يُدفع لك أجرك لغاية هذا اليوم. وهذا، للمناسبة، قياساً على تصرفك، الحديث بيننا، هو ببساطة هدية، أقدمها لك مراعاة للسيدة كبيرة الطباخين فحسب.»

شغلت مخابرة هاتفية كبير النُدُل عن توقيع التوجيه فوراً. «عمال المصاعد ليتعبونني اليوم!» نادى منذ سماع الكلمات الأولى. «هذا لم يُسمع بمثله من قبل!» نادى بعد مدة وجيزة. وبعيداً عن الهاتف توجه نحو بواب الفندق وقال: «من فضلك يا فويدور أمسكْ هذا الغلام قليلاً، سيكون علينا أن نتحدث معه بعد.» وفي الهاتف أعطى الأمر: «اصعد إلى هنا حالاً!»

الآن أمكن لكبير البوابين أن يفشّ غضبه على الأقل، الأمر الذي لم يشأ أن يتمّ له لدى الحديث. كان يمسك كارل من ذراعه في الأعلى، لكن ليس بقبضة هادئة، كان من شأنها أن تُحتمل، بل كان يرخي المسكة بين الفينة والأخرى، ومن ثم راح يجعلها كل مرة أكثر ثباتاً، الأمر الذي بدا أنه، لدى قواه الجسدية الكبيرة، لا يتوقف قط وخلق سواداً أمام عينيّ كارل. غير أنه لم يكن يمسك كارل فحسب، بل كأنه تلقى أمراً بطرحه أرضاً في الوقت نفسه، راح يسحبه إلى أعلى بين الفينة والأخرى ويهزّه، بينما راح يقول مراراً وتكراراً لكبير النُدُل نصف متسائل: «في ما إذا كنت أخلط الآن بينه وبين غيره، في ما إذا كنت أخلط الآن بينه وبين غيره.»

كان خلاصاً لكارل حين دخل أعلى عامل مصعد، يدعى بِسّ، وهو صبي بدين يشتم باستمرار، ولفت إليه انتباه كبيرالبوابين قليلاً. كان كارل منهكاً لدرجة أنه لم يلق التحية حين رأى مندهشاً خلف الصبي تيريزه تنسلّ إلى الداخل وهي شاحبة كالميت بملابس غير معتنى بها وشعر غير مسرّح. على الفور كانت لديه وهمست له: «هل تعرف كبيرة الطباخين الأمر؟» «كبير النُدُل أخبرها هاتفياً»، أجاب كارل. «إذاً الأمر حسن، إذاً الأمر حسن»، قالت على عجل وكانت عيناها يقظتين. «كلا»، قال كارل، «إنك لا تعلمين ما لديهم ضدي. يجب أن أذهب، وكبيرة الطباخين أيضاً مقتنعة بذلك. رجاء لا تبقي هنا، اصعدي وسوف أحضر إليك لوداعك.» «لكن يا روسمان، ماذا يخطر لك. سوف تبقى لدينا، ما دام الوضع يعجبك. إن كبيرالنُدُل ليعمل كل ما تريده كبيرة الطباخين، إنه ليحبها، لقد علمت ذلك مؤخراً عن طريق الصدفة. ليطمئنّ قلبك.» «من فضلك تيريزه انصرفي الآن. لا أستطيع أن أدافع عن نفسي دفاعاً جيداً إذا كنتِ هنا. ويجب أن أدافع عن نفسي بدقة، لأن ثمة أكاذيب تقال عني. لكن كلما تمكنت من أن أنتبه أكثر ومن أن أدافع عن نفسي، يزداد الأمل بأن أبقى. إذاً، تيريزه ـ » مع الأسف لم يستطع في ألمه المفاجئ أن يمسك عن أن يضيف همساً: «لو كان من شأن كبير البوابين هذا أن يتركني فحسب! لم أكن أعلم قط أنه عدوّي. لكن كيف يضغط عليّ باستمرار ويسحبني.» «لماذا أقول هذا!» فكر في الوقت نفسه، «ما من امرأة تستطيع أن تستمع إلى هذا بهدوء» وفعلاً التفتت تيريزه إلى كبير البوابين: «أيها السيد كبير البوابين من فضلك اترك الروسمان على الفور. إنك لتؤلمه. السيدة كبيرة الطباخين شخصياً ستأتي حالاً ومن ثم سوف نرى أنه يقع عليه ظلم في كل شيء. اتركه، ماذا يمكنه أن يسرّك في تعذيبه.» بل إنها أمسكت يد كبير البوابين. «أمرك أيتها الآنسة الصغيرة، أمرك»، قال كبير البوابين وبيده غير الطليقة سحب تيريزه إليه بلطف، في حين راح الآن يجهد في الضغط باليد الأخرى على كارل، وكأنه لا يريد أن يؤلمه فحسب، بل إن لديه هدفاً مع هذه الذراع التي هي الآن في ملكيته، هدف ما زال يحتاج إلى وقت طويل حتى يتحقق.

احتاجت تيريزه إلى بعض الوقت حتى تتخلص من ضمّة كبير البوابين لها وأرادت الآن أن تدافع عن كارل لدى كبيرالنُدُل، الذي كان ما زال يستمع إلى بِسّ المستفيض في كلامه، حين دخلت كبيرة الطباخين بخطوات سريعة. «الحمد لله»، نادت تيريزه وطوال لحظة لم يكن يُسمع في الغرفة شيئ آخر سوى هذه الكلمات العالية. في الحال قفز كبير النُدُل ونحّى بِسّ جانباً: «تأتين بنفسك أيتها السيدة كبيرة الطباخين. بسبب هذه المسألة الصغيرة؟ بعد مخابرتنا الهاتفية حدستُ الأمر، غير أني لم أصدّقه في الحقيقة. وعلماً أن موضوع ربيبك يصبح دائماً أكثر سوءاً. أخشى أني لن أسرّحه فعلاً، لكن مقابل ذلك سأضطر إلى حبسه. اسمعي بنفسك!» وأشار إلى بِسّ كي يأتي. «أودّ أولاً أن أتحدث بضع كلمات مع روسمان»، قالت كبيرة الطباخين وجلست على كرسي، إذ أرغمها كبير النُدُل على ذلك. «كارل اقترب رجاء»، قالت من ثم. أتى كارل أو بالأحرى جرّه كبير البوابين. «اتركه»، قالت كبيرة الطباخين ممتعضة، «إنه ليس لصاً فاتكاً.» وفعلاً تركه كبير البوابين، غير أنه ضغط قبل ذلك مرة أخرى بقوة إلى درجة أن دموعاً ظهرت في عينيه نفسه نتيجة مجهوده.

«كارل»، قالت كبيرة الطباخين، وضعت يديها في حضنها بهدوء ونظرت إلى كارل برأس مائل ـ لم يكن الأمر مثل استجواب ـ «قبل كل شيء أريد أن أقول لك بأني ما زلت أملك ثقة تامة فيك. والسيد كبير النُدُل هو أيضاً رجل عادل، أنا أكفل ذلك. نحن كلانا نحب أن نحتفظ بك هنا.» ـ ونظرت نظرة عابرة إلى كبير النُدُل كأنها تريد أن ترجو أن لا يقاطعها. هذا لم يحدث أيضاً ـ «انسَ إذاً ما يكون ربما قد قيل لك هنا حتى الآن. قبل كل شيء ما قد يكون السيد كبير البوابين قد قاله لك، عليك ألّا تأخذه مأخذاً صعباً على نحو خاص. صحيح أنه رجل منفعل، الأمر الذي لا عجب فيه لدى عمله، غير أن لديه امرأة وأولاداً ويعرف أن عليه أن يزعج على نحو غير ضروري شاباً لا يعتمد سوى على نفسه، بل إن باقي العالم يقوم بهذا الإزعاج على نحو كاف.»

كان ثمة هدوء تام في الغرفة. كان كبير البوابين ينظر نظرة تطلب إيضاحات إلى كبير النُدُل، وهذا كان ينظر إلى كبيرة الطباخين ويهز رأسه. كان عامل المصعد بِسّ يبتسم ابتسامة شماتة بلا جدوى خلف ظهر كبيرالنُدُل. تيريزه كانت تنتحب في داخلها فرحاً وحزناً وكانت تجد كل مشقة في أن لا تدع أحداً يسمع نحيبها.

بيد أن كارل، رغم أن الأمر كان يمكن اعتباره إشارة سيئة، لم ينظر إلى كبيرة الطباخين، التي لا شك كانت ترغب في نظرته، وإنما أمامه على الأرض. في ذراعه كان الألم ينتشر في كل الاتجاهات، وكان القميص ملتصقاً بالكدمات وكان عليه في الواقع أن يخلع سترته ويدعهم يرون. ما قالته كبيرة الطباخين قالته طبعاً بنية طيبة ولطف زائد، لكن من سوء الحظ بدا له أن يظهر من خلال تصرف كبيرة الطباخين بالذات أنه لا يستحق لطفاً، لقد تمتع

بجميل كبيرة الطباخين مدة شهرين دون استحقاق منه، لا بل أنه لا يستحق شيئاً آخر سوى أن يأتي تحت يديّ كبير البوابين.

«أقول هذا»، تابعت كبيرة الطباخين قائلة، «لكي تجيب الآن دون أن تلوي على شيء آخر، الأمر الذي أنت خليق أن تفعله على الأرجح أيضاً في ما عدا ذلك، كما أعتقد أني أعرفك.»

«هل تسمحون لي رجاء أن أستدعي الطبيب في هذه الأثناء، إذ يمكن للرجل أن ينزف في هذه الأثناء»، تدخل فجأة عامل المصعد بِسّ بلطف زائد لكن مزعجاً جداً.

«اذهب»، قال كبير النُدُل إلى بِسّ، الذي انطلق في الحال. ثم إلى كبيرة الطباخين: «المسألة هي كالتالي. كبير البوابين لم يمسك الصبي لكي يتسلى. في قاعة نوم عمال المصاعد في الأسفل اكتشف رجل غريب سكران سكراً ثقيلاً يرقد في سرير وهو مغطى بعناية. لقد أوقظ طبعاً وأرادوا إبعاده. لكن هذا الرجل بدأ يحدث ضجيجاً كبيراً، وراح يصرخ مراراً وتكراراً بأن قاعة النوم إنما تخص كارل روسمان الذي هو ضيفه الذي أحضره إلى هنا، وسوف يعاقب كل من يجرؤ على لمسه. كما أن عليه أن ينتظر كارل روسمان لأن هذا وعده بإعطائه نقوداً ذهب لإحضارها فحسب. انتبهي من فضلك، أيتها السيدة كبيرة الطباخين: وعد بتقديم نقود ذهب لإحضارها. يمكنك أيضاً يا روسمان أن تنتبه»، قال كبير النُدُل عرَضاً إلى كارل، الذي كان قد استدار لتوّه نحو تيريزه، التي كانت تحدّق مشدوهة بكبيرالنُدُل وراحت إما تمسح أية شعرات عن جبينها أو تقوم بحركة اليد هذه لكي تقوم بها لنفسها. «لكن ربما أذكّرك بأية التزامات. حيث إن الرجل في الأسفل قال أيضاً إنكما بعد عودتك سوف تقومان بزيارة ليلية لمغنية ما، التي لكن لم يفهم أحد اسمها، حيث إن الرجل لم يقدر أن ينطق به سوى وهو يغني.»

هنا قاطع كبير النُدُل نفسه، إذ إن كبيرة الطباخين التي كان قد شحب لونها بشكل ملحوظ نهضت من على الكرسي، التي دفعتها قليلاً. «سأريحك من البقية»، قال كبير النُدُل. «لا رجاء لا»، قالت كبيرة الطباخين وأمسكت يده، «استمر في السرد، أريد أن أسمع كل شيء، أنا هنا لهذا السبب.» كبير البوابين، الذي تقدم وضرب على صدره بصوت عال علامة على أنه كان منذ البداية قد اكتشف كل شيء، قام كبير النُدُل بتهدئته وردّه في الوقت نفسه بالكلمات: «نعم كنتَ على صواب تام يا فويدورا!»

«لم يعد ثمة الكثير للسرد»، قال كبير النُدُل، «كما هم الصبية، قاموا أولاً بالضحك على الرجل، ثم تقاتلوا معه وطرحوه أرضاً ببساطة لأن هناك دائماً ملاكمين جيدين تحت التصرف، ولم أجرؤ على السؤال عن المواضع التي ينزف فيها وما عددها، إذ إن هؤلاء الصبية هم ملاكمون مخيفون وسكران يسهّل عليهم الأمر طبعاً.

«هكذا»، قالت كبيرة الطباخين، أمسكت مسند الكرسي ونظرت إلى المكان الذي كانت قد غادرته لتوّها. «إذاً قل رجاء كلمة يا روسمان!» قالت من ثم. كانت تيريزه قد جرت من مكانها السابق إلى كبيرة الطباخين وتأبطت ذراعها، الأمر الذي لم تكن قط قد رأت كارل يفعله. كان كبير النُدُل يقف خلف كبيرة الطباخين مباشرة وراح يرتّب لها ببطء ياقتها الصغيرة المتواضعة التي كانت قد انقلبت. كبير البوابين إلى جانب كارل قال: «انطق» غير أنه لم يكن يريد من هذا سوى تغطية لكمة قام بها أثناء ذلك على ظهر كارل.

«صحيح»، قال كارل، الذي أصبح أكثر ارتباكاً نتيجة اللكمة، «أني جلبت الرجل إلى قاعة النوم.»

«لا نريد أن نعرف أكثر من ذلك»، قال البواب باسم الجميع. التفتت كبيرة الطباخين بصمت إلى كبير النُدُل ثم إلى تيريزه.

«لم أستطع أن أساعد نفسي بطريقة أخرى»، استمر كارل قائلاً، «الرجل زميلي من السابق، لقد جاء إلى هنا، بعد أن لم نكن قد رأينا بعضنا طوال شهرين، لكي يزورني، غير أنه كان ثملاً لدرجة لم يكن قادراً معها أن ينصرف وحده.»

كبير النُدُل قال إلى جانب كبيرة الطباخين بصوت نصف عال لنفسه: «جاء إذاً في زيارة وكان بعد ذلك ثملاً بحيث إنه لا يستطيع أن يذهب وحده.» وهمست كبيرة الطباخين من فوق كتفها إلى كبير النُدُل شيئاً ما بدا مع ابتسامة لا تخص هذه المسألة على ما يبدو لتقديم اعتراضات. تيريزه - كارل لم يكن ينظر سوى إليه - كانت تضغط وجهها في عجز تام على كبيرة الطباخين ولا تريد أن ترى شيئاً آخر. والوحيد الذي كان مرتاحاً على نحو تام من تصريح كارل هو كبير البوابين، الذي كرر عدة مرات: «إنه لمن الصواب كل الصواب أن يساعد المرء نديمه في الشراب» وحاول بنظراته وحركات يديه أن يطبع هذا الإيضاح في نفس كل من الحاضرين.

«المذنب هو أنا إذاً»، قال كارل وتوقف وكأنه ينتظر كلمة ودية من قضاته خليقة أن تشجعه على مواصلة الدفاع، لكن لم يأت شيء، «ذنبي فحسب هو أني أحضرت الرجل إلى قاعة النوم. يدعى روبنسون وهو إيرلندي. كل ما عدا ذلك مما قاله، قاله لأنه ثمل وليس صحيحاً.»

«لم تعده إذاً بنقود؟» سأل كبير النُدُل.

«بلى»، قال كارل وساءه أنه كان قد نسي، كان لشرود فكره ولعدم تروّيه قد وصف نفسه بالبراءة بتعابير حاسمة. «بنقود وعدته لأنه رجاني ذلك. غير أني لم أكن أريد أن أجلبها، وإنما أن أعطيه البقشيش الذي كنت قد حصلت عليه ليلة اليوم.» وللتدليل على ذلك سحب بضعة قطع النقود من جيبه وأراها على راحة كفّه.

«إنك تتخبط دائماً أكثر»، قال كبير النُدُل، «إذا كان على المرء أن يصدقك، فعليه دائماً أن ينسى ما قلته سابقاً. في بادئ الأمر جلبت الرجل - لا أصدقك حتى اسم روبنسون، فمنذ أن وجدت إيرلندا، لم يُدع إيرلنديّ هكذا - إلى قاعة النوم فقط، الأمر الذي يكفي أن تطير دفعة واحدة بسببه. لكنك في البداية لم تعده بإعطائه نقودا، وعندما يسألك المرء على نحو مفاجئ، تقول إنك وعدته بنقود. غير أنه ليس لدينا هنا لعبة سؤال وجواب، وإنما نريد أن نسمع تبريرك. لكنك أول الأمر لم تكن تريد إحضار النقود، بل أن تعطيه بقشيشك اليوم، لكن من ثم يتبيّن أن هذه النقود ما زالت لديك، أي إنك أردت على ما يبدو أن تجلب نقوداً من مكان آخر، الأمر الذي يشير إليه غيابك الطويل أيضاً. أخيراً ليس من شأن الأمر أن يكون شيئاً مخصوصاً لو كان من شأنك أن تريد أن تجلب له نقوداً من حقيبتك، لكن الشيء المخصوص هو أنك تنكر هذا بكل قوة. وبالمثل كما تريد أيضاً أن تخفي على الدوام أنك إنما أسكرت الرجل أولاً هنا في الفندق، الأمر الذي لا شك فيه قط أدنى شك، إذ إنك اعترفت بنفسك أنه جاء وحده غير أنه لم يستطع الذهاب وحده وهو نفسه راح يصيح في قاعة النوم أنه ضيفك. والآن إذاً يظل موضع جدال أمران فحسب، يمكنك إذا أردت تبسيط الموضوع أن تجيب عليهما بنفسك، لكن سيمكن أيضاً التثبت منهما دون مساعدة منك: أولاً كيف استطعت الدخول إلى المخازن وثانياً لماذا جمعت نقوداً قابلة للإهداء؟»

«من غير الممكن الدفاع عن النفس، إذا لم توجد إرادة طيبة»، قال كارل في ذات نفسه ولم يعد يجيب كبير النُدُل، مهما كانت تيريزه تعاني من ذلك على الأرجح. كان يعلم أن كل ما يستطيع أن يقوله، سيبدو بعد ذلك على نحو مغاير كلياً عما كان مقصوداً به وأن الأمر يظل متروكاً لنوع الإدانة وحده، إيجاد خير أم شرّ.

«إنه لا يجيب»، قالت كبيرة الطباخين.

«هذا هو الأمر الأكثر معقولية الذي يستطيع أن يفعله»، قال كبير النُدُل.

«سوف يختلق شيئاً ما»، قال كبير البوابين وهو يمسّد لحيته حذراً باليد القاسية سابقاً.

«اهدئي»، قالت كبيرة الطباخين لتيريزه التي بدأت تنتحب إلى جانبها، «ترين أنه لا يجيب، كيف يمكنني إذاً أن أفعل شيئاً من أجله. الحق عليّ أنا أمام السيد كبير النُدُل. قولي يا تيريزه، هل أهملتُ شيئاً أعمله من أجله حسب رأيك؟» كيف كان في مقدور تيريزه أن تعلم ذلك وماذا يفيد أن تريق كبيرة الطباخين ربما ماء وجهها كثيراً من خلال هذا السؤال والرجاء الموجّه علناً إلى الفتاة الصغيرة أمام كلا الرجلين؟

«السيدة كبيرة الطباخين»، قال كارل، الذي استجمع عزمه مرة أخرى، لكن فقط لكي

يوفّر الجواب على تيريزه، وليس لهدف آخر، «لا أعتقد أنني سبّبت لك عاراً بأي شكل من الأشكال وبعد تحقيق أكثر دقة لا بدّ لكل آخر أيضاً أن يجد هذا.»

«كل آخر»، قال كبير البوابين وهو يشير بإصبعه إلى كبير النُدُل، «هذا تحدّ لك يا سيد إسبَري.»

«والآن أيتها السيدة كبيرة الطباخين»، قال هذا، «إنها الساعة السادسة والنصف، لقد حان الوقت وحان كثيراً. أظن، من الأفضل أن تتركي لي الكلمة الختامية في هذا الموضوع الذي عولج بتسامح أكثر من اللازم.»

كان غياكومو الصغير قد دخل، وأراد أن يتقدم إلى كارل، غير أنه، فزعاً من الهدوء السائد بعامة، امتنع عن ذلك وانتظر.

لم تكن كبيرة الطباخين قد حوّلت نظرتها عن كارل منذ كلماته الأخيرة ولم يكن ثمة شيء أيضاً يشير إلى أنها كانت قد سمعت ملاحظة كبير النُدُل. كانت عيناها تنظران إلى كارل على نحو تام، كانتا كبيرتين وزرقاوين، لكن سناءهما ذهب بعض الشيء نتيجة العمر والعناء الكثير. كيف كانت تقف هكذا وتهز الكرسي أمامها هزاً خفيفاً، كان في مقدور المرء أن يتوقع كل التوقع أنها في اللحظة التالية ستقول: «الآن يا كارل الموضوع، عندما أتأمله، لم يُعرض بعد على نحو واضح وما زال يحتاج كما قلتَ بشكل صحيح إلى فحص دقيق. وهذا ما نريد أن نقوم به الآن، إذا كان المرء موافقاً على ذلك أم لا. إذ لا بدّ من عدالة.»

لكن بدلاً من ذلك قالت كبيرة الطباخين بعد فترة توقف قصيرة لم يكن أحد قد جرؤ على مقاطعتها، الساعة وحدها دقّت مصادقة على كلمات كبير النُدُل السادسة والنصف ومعها، كما كان كل فرد يعلم، في وقت واحد جميع الساعات في الفندق بكامله، لقد رنّ الأمر في الأذن وفي الحدس مثل النبض المزدوج لنفاد صبر كبير واحد: «لا كارل، لا! هذا ما لا نريد أن نوهم أنفسنا به. الأمور العادلة لها مظهر خاص، ويجب أن أعترف أيضاً أن موضوعك لا يملك هذا المظهر. يجوز لي أن أقول هذا ويجب أيضاً أن أقوله، إذ إنني أنا التي جاءت وهي تحمل أفضل حكم مسبق لمصلحتك. إنك ترى أن تيريزه أيضاً تصمت.» (لكنها لم تكن صامتة، بل كانت تنتحب.)

توقفت كبيرة الطباخين في قرار داهمها على حين غرّة وقالت: «كارل، تعال إلى هنا»، وإذ تقدم إليها - في الحال التحم وراء ظهره كبير النُدُل وكبير البوابين في حديث حام - حضنته باليد اليسرى وذهبت معه ومع تيريزه التي تبعتهما مسلوبة الإرادة إلى عمق الغرفة حيث راحت معهما تروح وتجيء بضع مرات، وقالت: «من الممكن يا كارل، ويبدو أنك تعتمد على ذلك، وإلا فإنه ليس من شأني أن أفهمك أبداً، بأن تحقيقاً قد يعطيك حقاً في أمور

صغيرة مفردة. لماذا لا؟ ربما تكون قد ألقيت التحية فعلاً على كبير البوابين. حتى إني أعتقد ذلك قطعاً، كما أني على بيّنة من أمر كبير البوابين، ترى أني أتحدث إليك حتى الآن بصراحة. غيرأن مثل هذه التبريرات الصغيرة لا تفيدك في شيء أبداً. إن كبير النُدُل، الذي تعلمت طوال سنوات كثيرة أن أقدّر فراسته والذي هو أكثر إنسان أعرفه بعامة مدعاة للثقة به، تحدث عن ذنبك بشكل واضح وهذا الذنب يبدو لي حقاً لا يردّ. ربما تكون قد تصرفت دون تروّ، ولكن قد تكون لستَ الشخص الذي اعتبرته أنك هو. ورغم ذلك»، بهذا قاطعت نفسها إلى حد ما ونظرت وراءها إلى كلا الرجلين نظرة عابرة، «لا أستطيع أن أكفّ عن اعتبارك فتى ذا خلق حسن.»

«السيدة كبيرة الطباخين! السيد كبيرة الطباخين»، نبّه كبيرُ البوابين، الذي كان قد التقط نظرتها.

«بعد قليل ننتهي»، قالت كبيرة الطباخين وراحت الآن تلحّ على كارل بسرعة أكبر: «اسمع يا كارل، هكذا كما أرى الموضوع، ما زلت مسرورة أن كبير النُدُل لا يريد أن يجري تحقيقاً، إذ لو أراد أن يجريه، يجب عليّ أن أمنعه لمصلحتك. لا يجوز لأحد أن يعرف كيف وماذا قدمت للرجل، هذا الرجل الذي لا يمكنه أن يكون أحد رفاقك السابقين كما تدّعي، إذ إنك تخاصمت معهما خصومة كبيرة عند الوداع ولن تقوم الآن بتقديم الخمر إلى واحد منهما. لا يمكنه إذاً أن يكون سوى أحد المعارف الذي تآخيت معه على نحو مستهتر في الليل في حانة من حانات المدينة. كيف أمكنك، كارل، أن تخفي عني كل هذه الأمور؟ إذا كان الوضع في قاعة النوم ربما لا يطاق بالنسبة لك ولهذا السبب غير البريء بدأتَ سهر الليالي، لماذا لم تقل كلمة واحدة عن ذلك، إنك تعلم أني كنت أريد تأمين غرفة خاصة لك ولم أستغنِ عن ذلك على الفور سوى تلبية لطلباتك. والآن يبدو وكأنك قد آثرت قاعة النوم العامة لأنك كنت تشعر أن هناك حرية أكثر. ونقودك كنت تحفظها في صندوقي وكنت تجلب لي نقود البقشيش كل أسبوع، من أين بحق السماء، أيها الفتى، أخذت المال من أجل مسراتك ومن أين أردت الآن أن تجلب المال لصديقك؟ طبعاً هذه مجرد أشياء لا يجوز لي أن ألمح إليها الآن على الأقل أمام كبير النُدُل، وإلا يكون إجراء تحقيق أمراً لا محيص عنه. يجب عليك إذاً على أي حال أن تخرج من الفندق وبأسرع ما يمكن. اذهب إلى نزل برنّر ـ لقد كنت هناك عدة مرات مع تيريزه ـ سوف ينزلونك ضيفاً بلا مقابل بناء على هذه التوصية» ـ وكتبت كبيرة الطباخين بقلم مذهّب سحبته من البلوزة بضعة أسطر على بطاقة لكن دون أن تتوقف عن الكلام ـ وسوف أرسل لك حقيبتك في الحال»، (غير أن تيريزه لم تتحرك بعد، وإنما كانت تريد أيضاً، كما كانت قد تحملت كل بليّة، أن تشارك كل المشاركة في مشاهدة التحول إلى الأفضل، هذا التحول الذي أخذته مسألة كارل بفضل طيبة كبيرة الطباخين).

فتح أحدهم الباب قليلاً دون أن يُظهر نفسه وأغلقه ثانية في الحال. لا بدّ أن الأمر كان يتعلق على ما يبدو بغياكومو، إذ إن هذا تقدم وقال: «روسمان، عليّ أن أعلمك شيئاً.» «حالاً»، قالت كبيرة الطباخين ودسّت البطاقة في جيب كارل، الذي كان قد استمع إليها وهو منكّس الرأس، «نقودك سأحتفظ بها مؤقتاً، تعلم أنه يمكنك أن تعهد بها إليّ. ابقَ اليوم في النزل وتأمل مسألتك، غداً ـ اليوم ليس لديّ متسع من الوقت، كما أني أخّرت نفسي هنا أطول من اللازم ـ أحضر إلى برنّر وسوف نرى ما يمكننا أن نفعله بالإضافة إلى ذلك من أجلك. لن أتركك، عليك أن تعلم هذا منذ اليوم. بخصوص مستقبلك ليس عليك أن تثقل نفسك بالهموم، بالأحرى بخصوص الوقت الماضي مؤخراً.» من ثم ربتت على كتفه ربتاً خفيفاً وذهبت إلى كبير النُدُل، رفع كارل رأسه وأتبع نظره المرأة الطويلة المهيبة وهي تبتعد عنه بخطوات هادئة ومشية طليقة.

«ألست مسروراً أبداً»، قالت تيريزه، التي كانت قد ظلت لديه، «أن كل شيء قد انتهى على خير؟» «أوه نعم»، قال كارل وهو يبتسم لها، لكنه لم يكن يعرف لماذا عليه أن يكون مسروراً أنهم صرفوه بصفته لصاً. كانت عينا تيريزه تشعان فرحاً، وكأن الأمر سيّان لديها فيما إذا كان كارل قد اقترف إثماً أم لا، فيما إذا كان قد أدين عدلاً أم ظلماً، فيما إذا كانوا قد تركوه يمضي مجللاً بالعار أم مكرّماً. هكذا كان موقف تيريزه بالذات، التي كانت في منتهى الدقة في ما يخص مسائلها بحيث إنها كانت تدير وتفحص في أفكارها طوال أسابيع كلمة لا تكون في منتهى الجلاء تقولها كبيرة الطباخين. عمداً سأل: «هل ستقومين على الفور بحزم حقيبتي وإرسالها؟» وضد إرادته راح يهز رأسه متعجباً من أن تيريزه قد وجدت نفسها بهذه السرعة في المسألة والقناعة بأنه لا بدّ أن يوجد في الحقيبة أشياء يجب إخفاؤها أمام كل الناس، دعتها أن لا تنظر إلى كارل وأن لا تمدّ له يدها أبداً، بل همست له: «طبعاً، كارل، على الفور، على الفور سأقوم بإعداد الحقيبة.» وفي الحال ولّت هاربة.

لكن غياكومو لم يعد يدع نفسه يعوقه عائق، منفعلاً من طول الانتظار نادى بصوت عال: «روسمان، الرجل يتقلب في الممر في الأسفل ولا يريد أن يُبعَد. أرادوا إرساله إلى المستشفى، لكنه يقاوم، وبعامة أنت لن تقبل أبداً أن يدخل إلى المستشفى. يجب أخذ سيارة ونقله إلى البيت، وسوف تدفع أجر السيارة. هل تريد؟

«الرجل يثق بك»، قال كبير النُدُل. هزّ كارل كتفيه وعدّ نقوده إلى غياكومو في اليد، وقال من ثم: «أكثر من ذلك لا أملك.»

«عليّ أن أسألك فيما إذا كنتَ تريد أن تسافر معه»، سأل غياكومو وهو يخشخش بالنقود.

«لن يسافر معه»، قالت كبيرة الطباخين.

«إذاً يا روسمان»، قال كبير النُدُل بسرعة ولم ينتظر قط حتى يخرج غياكومو، «إنك مسرَّح على الفور.»

أومأ كبير البوابين برأسه عدة مرات وكأنها كلماته التي يكررها كبير النُدُل فحسب.

«لا أستطيع أبداً أن أنطق بأسباب تسريحك، وإلا فإنه ينبغي عليّ أن أحبسك.»

نظر كبير البوابين إلى كبيرة الطباخين نظرة قاسية بشكل لافت للانتباه، إذ إنه كان قد أدرك أنها هي سبب هذه المعاملة المتسامحة أكثر من اللازم.

«اذهب الآن إلى بِسّ، بدّل ملابسك، اعط بِسّ حلّتك الرسمية، وغادر الفندق على الفور، لكن على الفور.»

أغلقت كبيرة الطباخين عينيها، وكانت بهذا تريد أن تهدّئ كارل. بينما كان ينحني مودعاً، شاهد على نحو عابر كيف كان كبير النُدُل يمسك بيد كبيرة الطباخين كأنه يفعل ذلك سرّاً ويلعب بها. بخطوات ثقيلة رافق كبيرُ البوابين كارل إلى الباب الذي لم يدعه يغلقه، بل أمسكه مفتوحاً كي يستطيع أن يصرخ قائلاً إلى كارل: «بعد ربع دقيقة أريد أن أراك تمرّ بي لدى الباب الرئيسي، ليكن هذا في معلومك.»

أسرع كارل ما استطاع، فقط لكي يتجنب إزعاجاً لدى الباب الرئيسي، غير أن كل شيء جرى ببطء أكثر مما كان يريد. أولاً لم يمكن العثور على بِسّ فوراً والآن في فترة تناول طعام الفطور كان كل مكان يعجّ بالناس، ثم تبيّن أن صبياً كان قد استعار سراويل كارل العتيقة وكان على كارل أن يفتش شماعات الملابس لدى الأسرّة جميعها تقريباً حتى وجد هذه السراويل، وهكذا مضت خمس دقائق حتى وصل كارل إلى الباب الرئيسي. أمامه تماماً كانت تسير سيدة بين أربعة رجال. كانوا جميعهم يتوجهون نحو سيارة كبيرة كانت في انتظارهم وثمة خادم يمسك بابها مفتوحاً في حين كان يمدّ ذراعه اليسرى نحو الجانب أفقياً ومتصلباً، الأمر الذي بدا احتفالياً إلى أقصى حد. بيد أن كارل أملَ بلا جدوى أن يخرج دون أن يشعر به أحد من هذه الجماعة الوجيهة. في هذه اللحظة أمسكه كبير البوابين من يده وسحبه من بين رجلين اعتذر منهما. «هل كان هذا ربع دقيقة»، قال وهو ينظر إلى كارل من الجانب وكأنه يراقب ساعة تسير على نحو سيء. «تعال إلى هنا»، قال من ثم وقاده إلى غرفة البواب الكبيرة، التي كانت نفسه تهوى منذ مدة طويلة أن تراها ذات مرة، هذا صحيح، لكن التي دخل إليها الآن بسوء ظن فحسب، إذ إن كبير البوابين دفعه إليها دفعاً. كان في الباب عندما استدار وقام بمحاولة أن يدفع البواب بعيداً عنه وينطلق. «لا، لا، هنا يدخل المرء»، قال كبير البوابين وأدار كارل. «أنا مسرّح»، قال كارل وهو يقصد بهذا أنه ليس على أحد في الفندق أن يأمره بشيء بعد الآن. «لستَ مسرّحاً طالما أمسك بك»، قال البواب، الأمر الذي كان أيضاً صحيحاً فعلاً.

كما أن كارل لم يجد سبباً لماذا عليه أن يقاوم البواب. ماذا يمكن أن يحدث له أيضاً في الواقع؟ وعلاوة على ذلك كانت جدران غرفة البواب تتألف من ألواح زجاجية ضخمة يرى المرء من خلالها حشود الناس المتدفقة في اتجاهين في الردهة الخارجية، وكأن المرء في وسطهم. نعم لم يبد في كل غرفة البواب زاوية يمكن للمرء أن يخفي نفسه أمام عيون الناس. ومهما بدا الناس في الخارج على جناح السرعة، إذ إنهم كانوا يبحثون عن طريقهم بذراع ممدودة، برأس منكّس، بأعين مستطلعة، بأمتعة مرفوعة، فإن ما من أحد تقريباً غفل عن إلقاء نظرة على غرفة البواب، إذ خلف ألواحها كان دائماً ثمة إعلانات وأنباء معلقة كانت ذات أهمية بالنسبة للضيوف كما بالنسبة للعاملين في الفندق. ولكن بالإضافة إلى ذلك كان ثمة اتصال مباشر لغرفة البواب مع الردهة الخارجية، إذ إلى نافذتين كبيرتين من النوافذ المتحركة كان بوابان من الدرجة الدنيا يجلسان وكانا مشغولين بلا انقطاع في إعطاء معلومات تتعلق بشتى المسائل. وكانا مرهقين كل الإرهاق وكان كارل خليقاً أن يدعي بأن كبير البوابين، كما عرفه، إنما كان قد لفّ في سيرة حياته العملية حول هذا العمل. كان أمام مقدميّ المعلومات هذين - من الخارج لم يكن بالإمكان تصور ذلك على نحو صحيح - في فتحة النافذة على الأقل عشرة وجوه متسائلة. بين هؤلاء السائلين العشرة، الذين كانوا يتبدلون باستمرار، كان ثمة فوضى لغات وكأن كل فرد منهم إنما قد أرسل من بلد من البلدان. ودائماً كان عدة أفراد يسألون في الوقت نفسه، ودائماً كان أفراد بالإضافة إلى ذلك يتحدثون مع بعضهم بعض. معظمهم كان يريد إحضار شيء ما من غرفة البواب أو تسليم شيء هناك، وهكذا كان المرء يرى دائماً أيدٍ ملوّحة بنفاد صبر تبرز من الزحام. ذات مرة كان لدى أحدهم رغبة بسبب جريدة ما، انفتحت سهواً من الأعلى وغطت جميع الوجوه طوال لحظة. أمام كل هذا كان على البوابين من الدرجة الدنيا أن يثبتا. التحدث وحده ما كان خليقاً أن يكفي لإنجاز مهمتهما، راحا يثرثران، ولا سيما أحدهما، رجل متجهم بلحية داكنة تملأ وجهه بالكامل، كان يعطي المعلومات دون أدنى انقطاع. لم يكن ينظر لا إلى لوح الطاولة، حيث كان عليه أن يقوم باستمرار بخدمات، ولا إلى وجه هذا السائل أو ذاك، وإنما بشكل ثابت أمام نفسه فقط، وذلك على ما يبدو لكي يوفر قواه ويستجمعها. للمناسبة، كانت لحيته تعيق فهم حديثه إعاقة ما وكارل تمكن، أثناء الوهلة التي توقف فيها لديه، من فهم القليل جداً مما قاله، وإن كان أيضاً من الجائز أنه كان رغم اللهجة الإنكليزية مضطراً إلى أن يستخدم لغات أجنبية بالذات. وبالإضافة إلى ذلك كان يثير الإرباك أن استعلاماً كان يلاحق الآخر ويتداخل فيه، بحيث إن سائلاً كان يتنصّت بوجه متوتر ظانّاً أن الأمر لا يزال يتعلق بمسألته، لكي يلاحظ بعد لحظة فحسب بأنه كان قد انتهى. كما أنه كان على المرء أن يعتاد على أن البواب الأصغر لم يكن يرجو قط تكرار سؤال، وحتى لو كان السؤال مفهوماً بشكل عام وكان قد طُرح فقط على نحو غير واضح بعض الشيء، كانت هزة رأس غير ملحوظة بالكاد تنمّ من ثم على أنه لا

ينوي الإجابة عن هذا السؤال وكان الشأن هو شأن السائل أن يدرك خطأه هو وأن يصوغ السؤال على نحو أفضل. لا سيما بهذه الأمور كان بعض الناس يمضون وقتاً طويلاً أمام الشباك. ولمساعدة البوابين الصغار كان قد عُيّن لكل منهم صبي ساع عليه أن يجري بسرعة ويجلب له من رف للكتب ومن صناديق متنوعة كل ما يحتاجه لتوّه. كانت هذه هي الأعمال الأحسن أجراً وإن كانت الأكثر إرهاقاً أيضاً التي كانت متوفرة في الفندق للفتيان، بمعنى ما كانت أوضاع هؤلاء أكثر سوءاً أيضاً من أوضاع صغار البوابين، إذ لم يكن على هؤلاء سوى أن يفكروا ويتحدثوا، في حين كان يتعيّن على هؤلاء الصبية أن يُعملوا الذهن وأن يجروا. وإذا هم جلبوا مرة من المرات شيئاً ما غير صحيح، فإن البواب الصغير لم يكن يستطيع طبعاً وهو على عجل من أمره أن يتوقف ويعطيهم دروساً مطولة، بل كان يرمي ما كانوا قد وضعوه له على الطاولة بحركة واحدة من على الطاولة. ومما كان مثيراً للغاية هو تبديل البوابين الصغار، هذا التبديل الذي جرى بعيد دخول كارل. كان ينبغي إجراء مثل هذا التبديل في النهار على الأقل عدة مرات طبعاً، إذ إنه لم يكن بالكاد ثمة إنسان خليق أن يتحمل الوضع خلف الشباك أكثر من ساعة. عند التبديل كان ثمة جرس يقرع وفي الوقت نفسه كان البوابان الصغيران اللذان حلّ دورهما يدخلان من باب جانبي يتبع كلًّا منهما صبي من الصبية السعاة. كانا يقفان لدى الشباك دون أن يعملا شيئاً في البداية ويروحان يتأملان الناس وهلة قصيرة لكي يريا في أية مرحلة تتواجد فيها الإجابة الحالية بالذات. وإذا بدت لهما اللحظة مناسبة لكي يتدخلا، فإنهما كان يربتان على كتف البواب الأدنى الذي يجب الإحلال محله، والذي رغم أنه لم يكن حتى الآن قد اهتم بأي شيء جرى خلف ظهره، كان يفهم على الفور ويخلي مكانه. وكان الأمر يجري بسرعة كثيراً ما كانت تفاجئ الناس خارج الشباك وكان هؤلاء يتراجعون تقريباً مذعورين من الوجه الجديد الذي ظهر أمامهم على حين غرّة. كان الرجلان اللذان استبدلا يتمطيان ويصبّان ماء على رأسيهما الساخنين، لكن الصبيين المستبدَلَين لم يكن يجوز لهما بعد أن يتمطيا، وإنما كان ما زال ينبغي عليهما أن ينشغلا مدة قصيرة برفع الأشياء الملقاة على الأرض أثناء ساعات خدمتهما ووضعها في مكانها.

كان كارل بأكبر انتباه بكل حواسه قد استوعب كل هذا في لحظات قليلة، وهو يشعر بصداع خفيف تبع كبير البوابين الذي تابع قيادته. وعلى ما يبدو كان كبير البوابين أيضاً قد لاحظ الانطباع الكبير الذي مارسه هذا النوع من إعطاء المعلومات على كارل، وفجأة شدّ يد كارل وقال: «هل ترى، هكذا يجري العمل هنا.» كان كارل حقاً لم يتكاسل هنا في الفندق، غير أنه لم يكن يملك فكرة عن مثل هذا العمل، وناسياً كل النسيان تقريباً أن كبير البوابين كان عدوه الكبير، تطلع إليه وأومأ برأسه استحساناً وهو صامت. لكن هذا بدا لكبير البوابين تقديراً لا يستحقه البوابان المساعدان وربما عدم لياقة إزاء شخصه، إذ إنه، وكأنه يستغفل كارل، نادى دون خوف من أن يسمعه الآخرون: «طبعاً هذا العمل هو أكثر الأعمال سخافة

في كامل الفندق؛ عندما يستمع المرء مدة ساعة، يعرف إلى حد ما كل الأسئلة التي تُسأل والبقية لا يحتاج المرء إلى الإجابة عنها أبداً. لو لم تكن وقحاً وغير مؤدب، ولو لم تكن قد كذبت وفسقت وعاقرت الخمر وسرقت، كان من شأني ربما أن أستطيع أن أضعك لدى شباك كهذا، إذ إنني لا أحتاج في نهاية الأمر لهذا العمل سوى ضيّقي أفق.» تجاهل كارل كل التجاهل الشتمَ بقدر ما يتعلق به، كان مغتاظاً إلى درجة كبيرة من أن عمل البوابين الأدنيين، هذا العمل الشريف والصعب، إنما يُسخر منه بدلاً من أن يُعترف به، وبالإضافة إلى ذلك يُسخر منه من قبل رجل كان من شأنه، في ما لو تجرأ على أن يجلس ذات مرة إلى مثل هذا الشباك، أن يتعيّن عليه أن ينسحب بالتأكيد بعد بضع دقائق تحت قهقهات جميع السائلين. «اتركني»، قال كارل، وكان فضوله بخصوص قمرة البوابين قد أشبع إلى حد الإفراط، «لا أريد أن يكون لي أية علاقة بك بعد الآن.» «هذا لا يكفي من أجل الانصراف»، قال كبير البوابين وهو يضغط على ذراع كارل بحيث إن هذا لم يستطع تحريكها قط وحمله بمعنى الكلمة إلى النهاية الأخرى للقمرة. ألم ير الناس في الخارج هذا البطش الذي يمارسه كبير البوابين؟ أو إذا كانوا قد رأوا، فكيف فهموه إذاً؟ بحيث إن ما من أحد قد توقف لدى ذلك، وما من أحد قرع على لوح الزجاج على الأقل لكي يبيّن لكبير البوابين أنه يُراقَب ولا يجوز له أن يتصرف مع كارل كما يحلو له.

لكن سرعان ما فقد كارل الأمل في الحصول على مساعدة من البهو، إذ إن كبير البوابين سحب حبلاً فانسحبت بسرعة فائقة ستائر سوداء على ألواح نصف قمرة البوابين حتى أعلاها. كذلك في هذا القسم من قمرة البوابين كان ثمة أناس، لكنهم في غمرة عمل وبدون أذن ولا عين لكل ما لا يتعلق بعملهم. وفوق ذلك كانوا يتبعون كبير البوابين كل التبعية، وكان من شأنهم، بدلاً من أن يساعدوا كارل، أن يساعدوا في إخفاء كل ما يخطر على بال كبير البوابين أن يفعله. كان هنا على سبيل المثال ستة بوابين من الدرجة الدنيا لدى ستة هواتف. كان الترتيب كما لاحظ المرء في الحال يقضي بأن يتلقى دائماً أحدهم المحادثات فقط، في حين يقوم جاره بتحويل الطلبيات هاتفياً، هذه الطلبيات القائمة على أساس الملاحظات التي دوّنها الأول. كانت تلك الهواتف الجديدة التي لم تكن تحتاج إلى أكشاك هواتف، إذ إن صوت الهاتف لم يكن أعلى من صوت صرير، كان في مقدور المرء أن يتحدث في الهاتف همساً ورغم ذلك كانت الكلمات تصل إلى هدفها بصوت رعد بفضل تقوية كهربائية خاصة. لذا لم يكن المرء يكاد يسمع المتحدثين الثلاثة على هواتفهم وكان خليقاً به أن يظن بأنهم كانوا يراقبون، وهم يتمتمون، حدثاً ما من الأحداث في سمّاعة الهاتف، في حين كان الثلاثة الآخرون، قد خفضوا، وكأنه قد أغمي عليهم، رؤوسهم على الورق من الشوشرة القادمة إليهم وغير المسموعة بالنسبة للحاضرين، هذا الورق الذي كانت مهمتهم أن يكتبوا عليه. ومرة أخرى كان يقف هنا أيضاً إلى جانب كل من المتحدثين الثلاثة صبي من أجل

تقديم المساعدة؛ ولم يكن هؤلاء الصبية الثلاثة يفعلون شيئاً آخر سوى أن يمدّوا الرأس بالتناوب إلى سيدهم وهم يتنصّتون ثم بسرعة، وكأنهم لدغوا، يقومون بالبحث في كتب صفراء ضخمة عن أرقام الهواتف، وكانت خشخشة حشود الأوراق المتقلبة تفوق ضوضاء الهواتف بكثير.

لم يكن في مقدور كارل أن يكفّ عن متابعة كل شيء بدقة، رغم أن كبير البوابين، الذي كان قد جلس، احتفظ به أمامه في نوع من التطويق. «إنه واجبي»، قال كبير البوابين وهو يهز كارل وكأنه لا يريد سوى أن يتوصل إلى أن يوجّه هذا وجهه نحوه، «أن أستدرك، باسم إدارة الفندق، على الأقل بعض ما أهمله كبير النُدُل مهما كان سبب إهماله. هكذا يقف هنا دائماً كل امرئ بجانب الآخر. بدون هذا لا يمكن تصور هكذا فندق كبير. ربما تريد أن تقول إني لست رئيسك المباشر، هذا يجعل الأمر أجمل أني أتبنّى هذه المسألة المتروكة في ما عدا ذلك. للمناسبة، إنني بمعنى ما فوق الجميع بصفتي كبير البوابين، إذ إن جميع مداخل الفندق تحت سلطتي، هذا المدخل الرئيسي إذاً، المداخل المتوسطة الثلاثة والمداخل الجانبية العشرة، ناهيك عن الأبواب الصغيرة التي لا تحصى والمخارج التي بلا أبواب. وطبعاً يتعيّن على جميع أطقم الخدمة التي تدخل في الاعتبار أن تذعن لي بالطاعة على نحو مطلق. لقاء هذا الشرف الكبير عليّ طبعاً من طرف آخر التزام أمام إدارة الفندق بأن لا أدع أحداً يخرج يُشتبه به أقل اشتباه. لكن بالذات أنت تبدو لي لأن الأمر يناسبني، مشبوهاً بشدة.» ومسروراً من ذلك رفع يديه وضربهما بقوة حتى إنهما صفقتا وأوجعتا. «من الممكن»، أضاف قائلاً وهو يتحدث على نحو ملوكي، «أنه كان من شأنك أن تخرج من مخرج آخر دون أن يلاحظك أحد، إذ إنك لم تكن بالنسبة لي طبعاً جديراً بأن أصدر أوامر خاصة بسببك. لكن إذ إنك الآن هنا، فإني أريد أن أتمتع بك. للمناسبة، لم يكن لديّ ثمة شك بأنك ستحافظ أيضاً على الموعد الذي كنا قد أعطيناه لدى الباب الرئيسي، إذ إن هذه هي القاعدة أن الوقح وغير المطيع إنما يقلع عن رذائله أينما يعود عليه الأمر بالضرر. يقيناً سوف تتمكن مرات كثيرة من ملاحظة ذلك فيك نفسك.»

«لا تظن»، قال كارل وهو يتنفس الرائحة المقبضة الغريبة التي كانت تنبعث من كبير البوابين والتي لم يلاحظها سوى هنا حيث كان يقف مدة طويلة على مقربة منه، «لا تظن»، قال، «أنني تحت سلطتك كلياً، فأنا أستطيع أن أصرخ.» «وأنا أستطيع أن أسدّ فمك»، قال كبير البوابين بهدوء مماثل وبسرعة، كما كان ينوي أن يفعل إذا دعا الأمر. «وهل تقصد إذاً حقاً، لو حدث ودخل أحدهم بسببك، سوف تجد أحدهم يعطيك الحق إزائي أنا كبير البوابين. إنك تدرك إذاً عبث آمالك. هل تعرف كيف كنتَ في الحلة الرسمية، كان مظهرك فعلاً جديراً بالملاحظة بعض الشيء، لكن في هذه البدلة التي هي فعلاً ممكنة في أوروبا فقط.»

وراح يسحب في شتى المواضع من البدلة، التي كانت الآن بلا شك، رغم أنها كانت قبل خمسة أشهر مازالت جديدة تقريباً، بالية، مجعّدة، لكن قبل كل شيء ملطخة، الأمر الذي كان يعود قبل كل شيء إلى عدم مبالاة صبية المصاعد، الذين كانوا كل يوم، لكي يحافظوا على أرضية القاعة طبقاً للأمر العام ملساء وخالية من التراب، كسلاً لا يقومون بتنظيف حقيقي، بل يرشّون الأرضية بزيتٍ ما من الزيوت وبهذا يلطخون على نحو مزرٍ في الوقت نفسه جميع الملابس المعلقة على الشماعات. والآن كان في مقدور المرء أن يحفظ ملابسه أينما أراد، دائماً كان ثمة آخر لا تكون ملابسه في متناول يده، غير أنه يعثر بسهولة على الملابس المخبأة ويستعيرها. ولعل هذا كان بالذات ذلك الذي كان عليه في هذا اليوم أن يقوم بتنظيف القاعة والذي لم يرشّ الملابس بالزيت فحسب، بل صبّه عليها كلها من الأعلى إلى الأسفل. وحده رِنِلّ كان قد خبّأ ملابسه الثمينة في مكان سرّيّ ما، لم يسحبها أحد بالكاد في أية مرة، لا سيما أيضاً أن ما من أحد استعار ملابس حيث وجدها ربما خبثاً أو بخلاً، بل لمجرد السرعة وتهاوناً منه. لكن حتى على سترة رِنِلّ كان ثمة لطخة زيت دائرية ضاربة للحمرة على الظهر في الوسط، وفي المدينة كان في مقدور عليم أن يعرف من هذه اللطخة أن حتى هذا الشاب الأنيق هو صبي مصعد.

وقال كارل لنفسه لدى هذه الذكريات أنه هو أيضاً كان كصبي مصعد قد عانى على نحو كاف وأن كل شيء كان دون جدوى، إذ إن خدمة صبية المصاعد هذه لم تكن كما كان يأمل، خطوة أولى إلى عمل أفضل، بل كان الآن قد هبط إلى ما هو أعمق حتى إنه اقترب كثيراً من السجن. وفوق ذلك أمسكه الآن كبير البوابين الذي راح يُعمل ذهنه في كيف يمكنه أن يخزيه أكثر. وناسياً كل النسيان أن كبير البوابين لم يكن ولا ريب الرجل الذي يدع نفسه يقتنع ربما، نادى كارل وهو يضرب جبينه مرات عدة بيده الطليقة: «وحتى لو لم أكن فعلاً قد ألقيت التحية عليك، كيف يمكن لإنسان بالغ أن يصبح حاقداً هكذا بسبب تحية مغفلة!»

«لست حاقداً»، قال كبيرالبوابين، «أريد فقط تفتيش جيوبك. صحيح أنني مقتنع أنني لن أجد شيئاً، إذ لا بدّ أنك كنت في منتهى الحذر وتركت صديقك يحمل كل شيء بالتدريج، كل يوم شيئاً ما. لكن يجب أن يجري تفتيشك.» وعلى الفور دسّ يده في أحد جيوب سترة كارل بقوة كبيرة بحيث إن الدروز الجانبية انفتقت. «هنا إذاً لا شيء»، قال وهو يجمع في يده محتويات هذا الجيب، روزنامة دعائية للفندق، ورقة عليها وظيفة من مراسلات تجارية، بعضُ أزرار سترة وبنطال، بطاقة كبيرة الطباخين، قلم تلميع أظافر، كان أحد الضيوف قد ألقى به له أثناء حزم الحقائب، مرآة جيب قديمة كان رِنِلّ قد أهداها له تعبيراً عن شكره على نيابته عنه في الخدمة ربما عشر مرات، وبعض الأمور الصغيرة. «هذا لا شيء إذاً»، كرر

كبير البوابين ورمى كل شيء تحت المنضدة، وكأن من البديهي أن مكان كل ما يخص كارل بقدر ما يكون غير مسروق هو تحت المنضدة. «لكن الآن كفى»، قال كارل في ذات نفسه ـ لا بدّ أن وجهه كان أحمر متوهجاً ـ وإذ راح كبير البوابين، وقد جعله الطمع متهوراً، يفتش في جيب كارل الثانية، أفلت كارل بحركة واحدة من الكمّين، دفع بالقفزة الأولى غير المتحكم بها بواباً من الدرجة الدنيا دفعة قوية إلى حد ما إلى جهازه، جرى نحو الباب عبر الهواء الخانق ببطء أكثر مما كان قد نوى أن يجري، غير أنه كان في الخارج سعيداً، قبل أن يتمكن كبير البوابين من حتى إن ينهض وهو في معطفه الثقيل. لم يكن يتعيّن على منظمة الحراسة أن تكون نموذجية، حقاً قُرعت أجراس في بعض النواحي، لكن الله أعلم لأية أغراض، حقاً كان عدد كبير من مستخدمي الفندق يقطع المدخل ذهاباً وإياباً بحيث كاد المرء يظن بأنهم كانوا يريدون دون أن يلفتوا النظر أن يجعلوا الخروج أمراً غير ممكن، إذ لم يكن في مقدور المرء أن يكتشف معنى آخر لهذا الرواح والمجيء ـ على كل حال خرج كارل إلى الهواء الطلق، لكن كان ما زال عليه أن يسير على طول إفريز الفندق، حيث لم يكن في مقدور المرء أن يصل إلى الشارع، وذلك لأن صفاً لا ينقطع من السيارات كان يتحرك متدافعاً عبر المخرج. كانت هذه السيارات، لكي تصل إلى سادتها بأسرع ما يمكن، تتداخل مع بعضها البعض، كل منها كانت تُدفع إلى الأمام من التي تتبعها. وكان المشاة المستعجلون بشكل خاص للوصول إلى الشارع، كانوا يدخلون بين الفينة والأخرى عبر بعض السيارات، وكأن هناك ممراً عاماً، وكانوا لا يعبأون أبداً في ما إذا كان لا يجلس في السيارة سوى السائق أو الناس الأكثر وجاهة. غير أن مثل هذا التصرف بدا لكارل مبالغاً فيه وكان لا بدّ للمرء أن يكون عارفاً بالظروف حتى يجرؤ على هذا، فكم كان من السهولة أن يقع على عربة يستاء ركابها من هذا ويلقونه ويسببون فضيحة ولم يكن لديه ما يخشاه سوى مستخدم فندق مشتبه به هارب ولا يرتدي سترة. وأخيراً لم يكن في مقدور سلسلة السيارات أن تستمر هكذا إلى الأبد وكان هو أيضاً، طالما أنه يراعي الفندق، الأقل اشتباهاً به. وفي الواقع وصل كارل أخيراً إلى موضع كانت السيارات فيه حقاً لم تنقطع لكنها كانت تنحرف إلى الشارع وصارت أقل احتشاداً. عندما كان يهمّ أن يندسّ في حركة مرور الشارع التي كان يجري فيها بحرية أناس كثيرون يبدون مشتبهاً بهم أكثر بكثير منه، سمع بالقرب منه نداء اسمه. وإذ استدار، شاهد اثنين من صبية المصاعد يعرفهما كيف يسحبان بأقصى جهد محفّة من فتحة باب واطئة صغيرة كانت تبدو وكأنها مدخل مدفن يرقد عليها، كما رأى كارل الآن، روبنسون حقاً وقد لُفّ وجهه وذراعاه بأربطة مرات عدة. وكان من المزعج رؤية كيف مدّ ذراعيه إلى عينيه كي يمسح بالرباط الدموعَ التي ذرفها ألماً أو معاناةً أخرى أو حتى فرحاً بلقاء كارل. «روسمان»، نادى معاتباً، «لماذا تدعني أنتظر مدة طويلة هكذا. لقد أمضيتُ ساعةً كي أمنع نقلي قبل مجيئك. هؤلاء الأشخاص» ـ وأعطى أحد صبية المصاعد ضربة رأس، وكأن الأربطة تحميه من ضربات

ـ «هم شياطين حقيقية. آه يا روسمان زيارتي لك جاءت باهظة الثمن عليّ.» «ماذا عملوا بك إذاً؟» قال كارل وهو يقترب من المحفّة التي وضعها صبية المصاعد على الأرض لكي يستريحوا وهم يضحكون. «إنك تسأل»، قال روبنسون وهو يتنهد، «وأنت ترى كيف أبدو. تأمل! لقد ضربوني وأصبحت على أكثر تقدير مشوهاً طوال عمري. إني أتالم على نحو رهيب من هنا إلى هنا» ـ وأشار أولاً إلى الرأس ثم إلى أصابع القدم ـ . «أحب أن أتمنى لك أن تكون قد رأيت كيف نزف أنفي. صدريتي أصيبت بالتلف، فتركتها هناك بالكلّية، سروالي تمزق، وأنا في سروالي الداخلي» ـ ورفع اللحاف قليلاً ودعا كارل للنظر تحته. «ماذا سيحدث لي فحسب! سوف يتوجب عليّ أن أبقى طريح الفراش عدة أشهر على الأقل وهذا أريد أن أقوله لك على الفور، ليس لديّ أحد آخر غيرك من شأنه أن يعتني بي، إن دِلامارش نافد الصبر أكثر من اللازم. روسمان، روسمان الصغير!» ومدّ روبنسون يده نحو كارل المتراجع قليلاً، لكي يكسبه لنفسه بالتربيت. «لماذا كان عليّ أن أزورك!» كرر عدة مرات لكي لا يدع كارل ينسى مشاركته في الذنب، التي كانت لكارل في مصيبة روبنسون. صحيح أن كارل أدرك الآن على الفور أن ولولة روبنسون لم تأت من جراحه، بل من حالة الانكسار التي هو فيها، حيث إنه وهو في حال من السُكْر الشديد لم يكن بالكاد قد غشيه النوم حتى أوقظ وبوغت لكماً حتى نزف ولم يعد في مقدوره أن يجد طريقه قط في عالم اليقظة. وكان يمكن رؤية ضآلة أهمية الجراح من انعدام تناسق الضمادات المؤلفة من الخرق البالية، هذه الضمادات التي كان صبية المصاعد قد لفّوها له على ما يبدو مزاحاً ليس إلا. وحتى الصبيّان على طرفي المحفة راحا يقهقهان بين الفينة والأخرى. لكن لم يكن هنا المكان الذي يمكن فيه إعادة روبنسون إلى وعيه، فقد كان المارة يمضون هنا مندفعين جرياً دون أن يبالوا بالمجموعة حول المحفة، وكثيراً ما كان أناس يقفزون قفزة رياضية حقة فوق روبنسون، ونادى السائق المدفوع أجره بنقود كارل «إلى الأمام، إلى الأمام»، ورفع الصبيان المحفة بآخر قوة، وأمسك روبنسون يد كارل وقال متزلفاً «تعال الآن، تعال»، ألم يكن حال كارل في عتمة العربة أفضل حال؟ وهكذا جلس إلى جانب روبنسون، الذي أسند رأسه إليه، والصبيان الباقيان حيث هما صافحاه بحرارة عبر النافذة بصفته زميلهما السابق ودارت العربة دورة حادة نحو الشارع، وبدا الحال وكأن مصيبة يجب أن تقع بالضرورة، غير أن حركة المرور الشاملة كل شيء استقبلت بهدوء أيضاً سير هذه العربة المستقيم.

لا بدّ أنه كان شارعاً نائياً من شوارع ضاحية، ذلك الذي توقفت فيه السيارة، حيث إن الهدوء كان يسود حوله، وكان ثمة أطفال يقعدون على الرصيف ويلعبون، وكان رجل يحمل كمية كبيرة من الملابس المستعملة على كتفيه وينادي إلى أعلى وهو يراقب نوافذ المنازل، وفي إعيائه أحس كارل انزعاجاً عندما خرج من السيارة ووطئ الأسفلت الذي كانت شمس الضحى تسطع عليه دافئة مضيئة. «هل تسكن هنا فعلاً؟» نادى إلى داخل السيارة. روبنسون، الذي كان قد استغرق في نوم هادئ طوال السفرة، همهم رداً إيجابياً ما غير واضح وبدا أنه ينتظر أن يُخرجه من السيارة محمولاً. «إذاً لا يبقى لي هنا ما أعمله»، قال كارل وتحفّز للمضيّ على الشارع المنحدر بعض الشيء. «لكن كارل، ماذا يخطر لك إذاً؟» نادى روبنسون وخائفاً كل الخوف نهض في السيارة معتدلاً إلى حد ما، ليس إلا بركبتين غير هادئتين بعض الشيء. «ينبغي عليّ أن أذهب» قال كارل الذي كان قد راقب شفاء روبنسون العاجل. «بلا سترة؟» سأل هذا. «سوف أستحق سترة أخرى»، أجاب كارل، أومأ برأسه لروبنسون بثقة، حتّى بيد مرفوعة وكان من شأنه الآن أن يكون قد انصرف فعلاً لو لم ينادِ السائق: «لحظة صغيرة من الصبر يا سيدي.» لقد تبيّن على نحو مزعج أن السائق ما زال يطالب بأجر إضافي، حيث إن أجر وقت الانتظار أمام الفندق لم يكن قد سُدّد بعد. «نعم»، نادى روبنسون من السيارة مصدّقاً على صحة هذا المطلب، «فقد اضطررتُ إلى انتظارك هناك مدة طويلة. ما زال عليك أن تعطيه شيئاً.» «نعم، طبعاً»، قال السائق. «نعم فقط لو كان ما زال معي شيء»، قال كارل وهو يدسّ يده في جيوبه، رغم أنه كان يدري عدم جدوى ذلك. «لا أستطيع أن أتوجه سوى إليك»، قال السائق وهو يقف مفتوح الساقين، «من الرجل المريض هناك لا أستطيع أن أطلب شيئاً.» قادماً من الباب اقترب صبي ذو أنف أفطس وراح يستمع على بُعد بضع خطوات. في هذه اللحظة مرّ شرطيّ عبر الشارع، شمل الإنسان بلا سترة بنظرة وهو يخفض وجهه وتوقف. روبنسون، الذي كان قد لاحظ الشرطيّ أيضاً، ارتكب حماقة بأن ناداه من النافذة الأخرى: «لا شيء في الأمر، لا شيء في الأمر»، وكأن المرء يستطيع أن يطرد شرطياً مثل

ذبابة. وأثار وقوفه انتباه الأولاد، الذين كانوا يرقبونه، إلى كارل أيضاً والسائق وأقبلوا وهم يجرون خبباً. وعلى مدخل مواجه كانت تقف امرأة عجوز وهي تحدق بنظرة ثابتة.

«روسمان»، نادى صوت من الأعلى. كان دِلامارش الذي نادى من شرفة الطابق الأعلى. هو نفسه لم يكن يُرى سوى على نحو غير واضح مع خلفية السماء الزرقاء الضاربة للبياض، وكان يرتدي على ما يبدو رداء نوم ويراقب الشارع بمنظارمقرّب. إلى جانبه كان ثمة شمسية حمراء منصوبة بدا أن امرأة تجلس تحتها. «هالو»، صرخ بأكبر جهد لكي يُفهَم، «هل هنا روبنسون أيضاً؟» «نعم»، أجاب كارل مدعوماً بقوة من «نعم» روبنسون ثانية أكثر ارتفاعاً قادمة من السيارة. «هالو»، أجاب أحدهم منادياً، «سأحضر في الحال.» وانحنى روبنسون من السيارة. «إن هذا لرجل»، قال ومديحه هذا لدِلامارش كان موجهاً إلى كارل، إلى السائق، إلى الشرطي وإلى كل من أراد أن يسمعه. في الأعلى على الشرفة، التي راح المرء يتطلع إليها لأنه شارد الفكر، رغم أن دِلامارش كان قد غادرها، نهضت الآن فعلاً من تحت الشمسية امرأة ضخمة الجسم ترتدي رداء أحمر اللون، تناولت المنظار المقرّب من الدرابزين وراحت تنظر إلى الناس في الأسفل، الذين لم يحوّلوا أنظارهم عنها سوى تدريجياً. نظر كارل إلى باب المبنى منتظراً دِلامارش وتابع نظره إلى الفناء، الذي كان يعبره صف لا ينقطع من خدَم المحلات الذين كان كل منهم يحمل على كتفه صندوقاً صغيراً لكن ثقيلاً جداً على ما يبدو. كان السائق قد تقدم إلى سيارته وراح لكي يستغل الوقت ينظف مصابيحها بخرقة. تحسس روبنسون أطرافه، وبدا مندهشاً من خفّة الآلام التي كان يحسها رغم انتباهه الأكبر وبدأ وقد خفض وجهه كثيراً يفكّ في حذر أحد الضمادات السميكة عن الساق. كان الشرطيّ يمسك عصاه السوداء أمامه بالعرض وينتظر في هدوء بصبر كبير لا بدّ أن يتحلى به رجال الشرطة بغض النظر عما إذا كانوا في الخدمة العادية أم يقفون بالمرصاد. وجلس الصبي ذو الأنف الأفطس على حجر باب ومدّ ساقيه أمامه. واقترب الأطفال من كارل شيئاً فشيئاً بخطوات صغيرة، فقد بدا هذا لهم، رغم أنه لم يكن يكترث بهم، بسبب قميصه الأزرق، الشخص الأكثر أهمية من بين الجميع.

من الوقت الطويل الذي مضى حتى وصل دِلامارش كان يمكن قياس الارتفاع الكبير لهذا البناء. حتى إن دِلامارش جاء مسرعاً للغاية وبرداء نوم مقفل على نحو عابر فحسب. «ها أنتما هنا إذاً!» صاح مسروراً وحازماً في الوقت نفسه. لدى خطواته الكبيرة كان لباسه الداخلي متعدد الألوان ينكشف دائماً للحظة. ولم يفهم كارل كلياً لماذا يتجول دِلامارش هنا في المدينة، في المسكن الشعبي الضخم، في الشارع أمام الرائح والغادي بلباس منزلي مريح، وكأنه في فيلّته الخاصة به. مثل روبنسون كان دِلامارش أيضاً قد تغيّر تغيّراً كبيراً. كان وجهه الأسمر، الحليق الأملس، النظيف غاية النظافة، والذي تبرز عضلاته، يبدو وقوراً ويبعث على

الاحترام. وكان البريق الوهّاج الذي ينبعث من عينيه اللتين راح الآن يزوي ما بين حاجبيهما يبدو مفاجئاً. صحيح أن رداء نومه ذا اللون البنفسجي كان عتيقاً، ملطخاً وكبيراً عليه، لكن من قطعة الملابس البشعة المزرية هذه كان يبرز في الأعلى ربطة عنق داكنة اللون هائلة من الحرير الثقيل. «والآن؟» سأل الجميعَ. اقترب الشرطيّ قليلاً واستند إلى صندوق محرك السيارة. وقدّم كارل إيضاحاً قصيراً. «روبنسون متعب بعض الشيء، غير أنه إذا بذل جهداً، يتمكن من صعود الدرج؛ السائق هنا يريد مبلغاً إضافياً على الأجرة التي دفعتها. والآن سأنصرف. طاب يومكم.» «لن تنصرف»، قال دِلامارش. «هذا ما قلته له أنا أيضاً»، ردّ روبنسون من داخل السيارة. «سأنصرف»، قال كارل وخطا بضع خطوات. غير أن دِلامارش كان وراءه ودفعه بعنف إلى الخلف. «وأنا أقول، ستبقى»، صرخ. «لكن لتدعني»، قال كارل وهيّأ نفسه، لأن ينال حريته بقبضته، إذا دعت الضرورة، مهما كان الأمل بالنجاح ضعيفاً إزاء رجل مثل دِلامارش. لكن الشرطيّ كان يقف هنا، وكان السائق أيضاً، وبين الفينة والأخرى كانت مجموعات من العمال تعبر الشارع الهادئ طبعاً في ما عدا ذلك، هل من شأن المرء أن يقبل أن يصيبه ضيم من قبل دِلامارش؟ ليس من شأنه أن يرغب في أن يكون معه وحده في غرفة واحدة، لكن هنا؟ بهدوء دفع دِلامارش الآن للسائق، الذي دسّ المبلغ الكبير الذي لايستحقه وهو ينحني مرات عديدة وامتناناً ذهب إلى روبنسون وتحدث معه على ما يبدو عن أفضل طريقة لإخراجه من السيارة. ورأى كارل أنه غير مراقَب، ربما كان دِلامارش يحتمل انصرافاً صامتاً بسهولة أكثر إذا ما أمكن تجنب نزاع، ومن الطبيعي أن يكون ذلك أفضل، وهكذا ذهب كارل إلى وسط الشارع لكي ينصرف بأسرع ما يمكن. تدفق الأولاد على دِلامارش لكي يلفتوا انتباهه إلى فرار كارل، غير أنه لم يكن عليه أن يتدخل بنفسه قط، فقد اعترضه الشرطيّ وهو يمدّ عصاه أمامه قائلاً «قف!»

«ما اسمك؟» سأله، دفع العصا تحت إبطه وسحب كتاباً ببطء. نظر إليه كارل الآن في إمعان لأول مرة، كان رجلاً متين البنيان، غير أن شعره كان قد وخطه الشيب كلياً تقريباً. «كارل روسمان»، قال. «روسمان»، كرر الشرطي، فقط ولا ريب لأنه كان إنساناً هادئاً ودقيقاً، لكن كارل، الذي يصبح له لأول مرةٍ في الحقيقة علاقة بسلطات أمريكية، رأى في هذا التكرار تعبيراً عن شبهة ما. وفعلاً لم يكن في وسع مسألته أن تكون على ما يرام، إذ إن حتى روبنسون، الذي كان مشغولاً كل الانشغال بهمومه الخاصة به، رجا دِلامارش وهو في السيارة وبحركات يد نشيطة صمّاء، بأن يساعد كارل. غير أن دِلامارش صدّه بهزة رأس سريعة وراح يتفرج وهو يضع يديه في جيوبه الواسعة. وشرح الصبي الجالس على حجر الباب لامرأة خرجت الآن من الباب الوضعَ بكامله ومن بدايته. وكان الأولاد يقفون في نصف دائرة خلف كارل وهم ينظرون إلى الشرطي بهدوء.

«أرني أوراق إثبات شخصيتك»، قال الشرطي. كان هذا السؤال ولا ريب مجرد سؤال شكلي، إذ إن المرء لن يحمل كثيراً من أوراق إثبات الشخصية إذا لم يكن يرتدي سترة. لذا لاذ كارل بالصمت أيضاً لكي يجيب عن السؤال التالي بإسهاب وبهذا مداراة النقص في أوراق الهوية إن أمكن. لكن السؤال التالي كان: «لا تملك أوراق إثبات شخصية؟» وصار لزاماً على كارل أن يجيب الآن «لا أحملها معي.» «لكن هذا أمر سيء»، قال الشرطي وهو يجول بناظريه بين الجميع مستغرقاً في التفكير ونقر بأصبعين على غلاف كتابه. «هل لديك دخل ما؟» سأل الشرطي أخيراً. «كنتُ صبي مصعد»، قال كارل. «كنتَ صبي مصعد، إذاً لستَ صبي مصعد بعد الآن ومن أين تعيش الآن إذاً؟» «الآن سوف أبحث لي عن عمل جديد.» «هل جرى الآن تسريحك إذاً؟» «نعم قبل ساعة.» «فجأة؟» «نعم»، قال كارل وهو يرفع يده كما لو أنه يعتذر. لم يكن في وسعه أن يروي هنا القصة بكاملها، وحتى لو كان من شأن هذا أن يكون ممكناً، فقد بدا أمراً ميئوساً منه كل اليأس أن يصدّ ظلماً يوشك أن يقع عليه بسرد حكاية ظلم عانى منه. وإذا هو لم يكن قد حصل على حقه من طيبة كبيرة الطباخين ومن إدراك كبير النُدُل، لم يكن عليه بالتأكيد أن يتوقع الحصول عليه من الجماعة هنا في الشارع.

«وسُرّحتَ دون سترة؟» سأل الشرطيّ. «حسناً نعم»، قال كارل، إذاً من طبيعة الإدارات في أمريكا أيضاً أن تسأل عما تراه بنفسها (كم كان على والده أن يغتاظ من كثرة الأسئلة العقيمة التي كانت توجهها له الإدارات عندما كان يستخرج جواز السفر.) أحس كارل رغبة كبيرة بأن يولّي مسرعاً ويختفي في أي مكان ولا يضطر إلى سماع أسئلة بعد الآن. وها هو حتى الشرطي يسأل ذلك السؤال الذي كان كارل يخشاه أكثر ما يخشى وفي توقّعه القلق تصرف حتى الآن على الأرجح بحذر أقل مما كان من شأنه أن يحدث في ما عدا ذلك: «في أي فندق كنت تعمل إذاً؟» خفض رأسه ولم يجب، عن هذا السؤال لم يكن يريد أن يجيب بأي حال. لا يجوز أن يحدث أن يعود إلى فندق أوكتسيدنتال محروساً من قبل شرطيّ، بحيث تجري هناك تحقيقات يُضمّ إليها أصدقاؤه وخصومه، وتتخلى كبيرة الطباخين نهائياً عن رأيها الطيب فيه الذي أصبح ضعيفاً للغاية، حيث إنها وجدته وقد عاد، بعد أن كانت تظن أنه في نزل برنّر، إنما قد عاد دون سترة ودون بطاقتها وقد قبض عليه شرطيّ، في حين أن من شأن كبير النُدُل أن يومئ ربما بكل تفهّم فحسب، أما كبير البوابين فإنه يتحدث عن يد الله التي وجدت الوغد أخيراً.

«كان يعمل في فندق أوكتسيدنتال»، قال دِلامارش وتقدم إلى جانب الشرطي. «لا»، نادى كارل وخبط الأرض برجله، «هذا ليس صحيحاً.» تطلع إليه دِلامارش وهو يمط شفتيه بسخرية، وكأنه ما زال في وسعه أن يبوح بأمور مغايرة كلياً. بين الأولاد أثار انفعال كارل غير المتوقع حركة كبيرة وانسحبوا إلى دِلامارش وقد آثروا أن يشاهدوا كارل من هناك على نحو

جيد. كان روبنسون قد مدّ رأسه كلياً من السيارة ولاذ بالهدوء تشوقاً؛ وبين الفينة والأخرى كانت غمزة عين حركته الوحيدة. وصفق الصبي في المدخل سروراً، ولكزته المرأة التي كانت إلى جانبه بمرفقها كي يهدأ. في هذا الوقت كان لدى الحمّالين فترة استراحة طعام الفطور وظهروا جميعهم يحملون أكواباً كبيرة من القهوة السوداء يغمسون فيها قطع خبز رفيعة. بعضهم جلس على حافة الرصيف، وراحوا جميعهم يرشفون القهوة بصوت عال جداً.

«أنت تعرف الصبي»، سأل الشرطي دِلامارش. «أكثر مما أحب»، قال هذا. «آنذاك عملت له خيراً كثيراً، غير أنه رفضه، الأمر الذي ستفهمه بنفسك بسهولة بعد التحقيق القصير جداً الذي أجريته.» «نعم»، قال الشرطي، «يبدو أنه ولد معاند.» «هكذا هو»، قال دِلامارش، «لكن هذه الصفة ليست صفته الأكثر سوءاً.» «هكذا؟» قال الشرطي. «نعم»، قال دِلامارش، الذي كان وهو الآن في حديثه قد وضع يديه في جيبي معطفه وراح يلّوح به كله، «يا له من شاب طيب.» أنا وصديقي هناك في السيارة التقطناه في البؤس مصادفة، لم يكن لديه آنذاك فكرة عن الظروف الأمريكية، كان قد أتى لتوّه من أوروبا، حيث لم يكونوا هناك أيضاً بحاجة له، والآن سحبناه معنا، وتركناه يعيش معنا، ورحنا نشرح له كل شيء، وكنا نريد أن نوفّر له عملاً، ونفكر، رغم كل العلائم التي تشير إلى العكس، أن نعمل منه إنساناً نافعاً، وعلى حين غرّة اختفى ذات مرة في الليل، ذهب ببساطة وذلك تحت ظروف أريد من الأفضل أن أسكت عنها. هل كان الأمر هكذا أم لا؟» سأل دِلامارش أخيراً وهو يشدّ كارل من كمّ قميصه. «ارجعوا يا أولاد»، نادى الشرطيّ، فقد كان هؤلاء قد تقدموا إلى حدّ أن دِلامارش كاد يتعثّر بأحدهم. في هذه الأثناء كان الحمّالون، الذين كانوا قد استهانوا بأهمية هذا الاستجواب، قد ثار اهتمامهم وتجمعوا في حلقة متراصة وراء كارل، الذي لم يعد بدوره يستطيع أن يتراجع خطوة واحدة والذي فوق ذلك كانت تطنّ في أذنيه فوضى أصوات هؤلاء الحمّالين، الذين كانوا يلغطون أكثر مما كانوا يتحدثون بلغة إنكليزية غيرمفهومة بتاتاً مخلوطة ربما بكلمات سلافية.

«شكراً لهذه المعلومات»، قال الشرطي وأدّى تحية إلى دِلامارش. «على كل حال سوف آخذه معي وأدعه يُعاد إلى فندق أوكتسيدنتال.» بيد أن دِلامارش قال: «هل تسمح أن أتقدم برجاء بأن تترك لي الصبي مؤقتاً، من شأني أن أرتّب بعض الأمور معه. إني ألتزم بأن أعيده بنفسي إلى الفندق.» «هذا ما لا أستطيع أن أفعله»، قال الشرطي. دِلامارش قال: «هذه هي بطاقتي» وناوله بطاقة صغيرة. نظر إليها الشرطي مستحسناً، غير أنه قال وهو يبتسم متودّداً: «لا، بلا طائل.»

مهما كان كارل حتى الآن يحترس من دِلامارش، فقد رأى فيه الآن الإنقاذ الوحيد الممكن. صحيح أنه كان أمراً مريباً كيف تقدم هذا بطلب كارل لدى الشرطي، لكن على كل

حال سيكون من الأسهل حمل دِلامارش أكثر من الشرطي على عدم إعادته إلى الفندق. وحتى لو عاد كارل إلى الفندق بيد دِلامارش، سيكون الحال أقل سوءاً مما لو حدث هذا بصحبة الشرطي. لكن حالياً لا يجوز لكارل طبعاً أن يُظهر أنه يريد فعلاً أن يذهب مع دِلامارش، وإلا فسد كل شيء. وفي غير ارتياح راح ينظر إلى يد الشرطي، التي يمكنها أن ترتفع في كل لحظة لكي تمسك به.

«لا بدّ لي أن أعرف على الأقل لماذا سُرّح فجأة»، قال الشرطي أخيراً، بينما حوّل دِلامارش نظره جانباً بوجه متكدر وهو يجعّد البطاقة بين رؤوس أصابعه. «لكنه لم يُسرّح أبداً»، صاح روبنسون قائلاً لدهشة الجميع وهو ينحني من السيارة ما أمكنه الانحناء مستنداً إلى السائق. «على العكس، لديه هناك عمل جيد. في قاعة النوم هو الأعلى، وفي وسعه أن يُدخل من يشاء. إلا أنه مشغول بشكل هائل وعندما يريد أحدهم شيئاً منه، ينبغي عليه أن ينتظر طويلاً. إنه دائماً لدى كبير النُدُل، لدى كبيرة الطباخين وهو شخص ثقة. على كل حال هو لم يُسرّح. وأنا لا أدري لماذا قال هذا. كيف يمكن أن يكون مسرّحاً؟ في الفندق أصبت بجرح شديد، فجرى تكليفه باصطحابي إلى منزلي ولأنه لم يكن يرتدي سترته في هذه اللحظة، فقد سافر بدون سترة. لم يكن في مقدوري أن أنتظر حتى يُحضر سترة.» «حسناً إذاً»، قال دِلامارش، وقد فرد ذراعيه، بلهجة وكأنه يعيب على الشرطي نقصاً في معرفته للناس وكلمتاه الاثنتان هاتان بدتا أنهما تجلبان وضوحاً لا اعتراض عليه إلى عدم قطعية أقوال روبنسون.

«لكن هل هذا صحيح أيضاً؟» سأل الشرطي بصوت واهن. «وإذا كان هذا صحيحاً، لماذا يدعي الصبي أنه مسرّح؟» «عليك أن تجيب»، قال دِلامارش. تطلع كارل إلى الشرطي الذي عليه هنا أن يحفظ النظام بين ناس غرباء لا يهتمون سوى بأنفسهم، وشيء من همومه العامة انتقل أيضاً إلى كارل. لم يكن يرغب في أن يكذب وترك يديه معقودتين بثبات وراء ظهره.

في الباب ظهر مراقب وصفق بيديه إشارة إلى أن على الحمّالين أن يعودوا إلى العمل. أفرغوا الراسب من أكوابهم على الأرض ودخلوا صامتين إلى المبنى بخطوات غير ثابتة. «بهذه الطريقة لن نصل إلى نتيجة»، قال الشرطي وأراد أن يمسك كارل من ذراعه. على نحو غير إراديّ تراجع كارل قليلاً، أحس الفضاء الحر الذي فُتح له نتيجة انسحاب الحمّالين، استدار وجرى بعدة قفزات أولى كبيرة. وانفجر الأولاد في صرخة واحدة وجروا بضع خطوات وقد فردوا أذرعهم الصغيرة. «أوقفوه!» نادى الشرطي عبر الشارع الطويل الخالي تقريباً وراح يردد هذا النداء على نحو منتظم وهو يجري وراء كارل بقوة كبيرة دون أن يحدث صوتاً وعلى نحو ينمّ على مران. وكان من حسن حظ كارل أن مطاردته كانت في حيّ عمّالي. إن

العمال لا يقفون إلى جانب السلطات. كان كارل يجري في وسط الشارع لوجود أقل العقبات هناك أمامه، وكان يرى بين الحين والآخر عمالاً يقفون على الرصيف ويراقبونه بهدوء، بينما كان الشرطي يصيح بهم «أوقفوه!» وهو يجري حكمة منه على الرصيف المستوي، مسدداً عصاه باستمرار نحو كارل. ولم يكن لدى كارل أمل كبير وقد فقده كلياً تقريباً عندما راح الشرطي يطلق صفرات تصمّ الآذان عندما اقتربا من شوارع عرضية لا بدّ أن دوريات شرطة تسير فيها. غير أن ميزة كارل كانت ملابسه الخفيفة، فقد راح يطير أو بالأحرى يهوي عبرالشارع الذي يزداد انحداره دائماً أكثر، لكنه وهو مشتت الفكر نتيجة نعاسه كان غالباً يقوم بقفزات عالية أكثر من اللازم، مضيعة للوقت وغير ذات جدوى. لكن فوق ذلك كان الشرطي يرى هدفه ماثلاً أمام عينيه دون أن يكون مضطراً للتفكير، أما بالنسبة لكارل، فإن الجري كان في الحقيقة أمراً ثانوياً، كان يتعيّن عليه أن يتأمل ويختار تحت إمكانيات متعددة، ويقرر دائماً من جديد. كانت خطته اليائسة بعض الشيء هي أن يتجنب الشوارع العرضية، حيث لم يكن يستطيع أن يعرف ماذا تحوي، فربما يكون من شأنه أن يجري مباشرة إلى داخل مخفر حراسة؛ لذا أراد أن يبقى في هذا الشارع ما دام هذا ممكناً، هذا الشارع الذي انتهى في الأسفل كلياً إلى جسر ما كاد يظهر حتى اختفى في غلالة مياه وضباب. وإذ أراد بعد هذا القرار أن يستجمع قواه لكي يجتاز الشارع العرضي الأول بسرعة على نحو خاص، لمح أمامه على مسافة غير بعيدة شرطياً متربصاً التصق بحائط أسود لمنزل يقع في الظل، متأهباً للإنقضاض على كارل في اللحظة المناسبة. والآن لم يبق ثمة عون سوى الشارع العرضي وإذ حتى نودي عليه من هذا الشارع باسمه على نحو خفيف هادئ ـ صحيح أن الأمر بدا له في بادئ الأمر وهماً، حيث كان طوال الوقت يحس طنيناً في أذنيه، لم يعد يتردد بعد الآن ولكي يفاجئ رجال الشرطة إن أمكن، انعطف إلى هذا الشارع نحو اليمين بزاوية حادة على إحدى قدميه.

ما كاد يبتعد قفزتين ـ وكان قد نسي مرة أخرى أن أحدهم نادى اسمه، والآن نفخ الشرطي الثاني أيضاً في صفارته، ولاحظ كارل قوة الشرطي غير المستهلكة، وبدا المارة البعيدون في هذا الشارع العرضي يسيرون بطريقة أسرع ـ هنا امتدت يد من باب صغير نحو كارل وسحبته بكلمتي «الزم الهدوء» إلى ممر معتم. كان دِلامارش، كان متقطع الأنفاس كلياً، بوجنتين محمّرتين وشعر ملتصق حول الرأس. كان يحمل رداء النوم تحت إبطه ولم يكن يرتدي سوى قميص وسروال داخلي. الباب، الذي لم يكن أصلاً باب منزل، بل كان يشكّل مدخلاً جانبياً متواضعاً، أغلقه دِلامارش على الفور وأوصده. «لحظة واحدة»، قال من ثم واستند إلى الحائط برأسه المرفوع وراح يتنفس بصعوبة. كاد كارل أن يكون مستلقياً في ذراعه وقد ضغط وجهه على صدره وهو نصف غائب عن الوعي. «ها هم السادة يجرون»، قال

دِلامارش ومدّ أصبعه نحو الباب وهو يرهف أذنيه. وفعلاً مرّ الشرطيان الآن وهما يجريان، وكان وقع أقدامهما في الشارع الخالي مثل ما يدقّ فولاذ على حجر. «إنك مرهق»، قال دِلامارش لكارل، الذي كان لا زال يتنفس بصعوبة دون أن يتمكن من إخراج كلمة. بحذر وضعه دِلامارش على الأرض، جثا على ركبتيه إلى جانبه، مسح على جبهته عدة مرات وراح يراقبه. «الآن مشى الحال»، قال أخيراً كارل ونهض بمشقة. «إذاً فهيّا بنا»، قال دِلامارش الذي كان قد ارتدى رداء نومه ثانية ودفع أمامه كارل الذي كان ما زال يطرق برأسه من إعيائه. بين الحين والآخر كان يهزّ كارل كي ينشّطه. «تريد أن تكون متعباً؟» قال. «لكنك تستطيع أن تجري في الخلاء مثل حصان، أما أنا فقد كان يجب عليّ أن أتسلل عبر ممرات وأفنية لعينة. لكن من حسن الحظ أني أنا أيضاً عدّاء.» ومباهاة ضرب كارل على ظهره ضربة شديدة. «بين الحين والآخر يكون مثل هذا السباق مع رجال الشرطة مراناً طيباً.» «كنت متعباً عندما بدأت أجري»، قال كارل. «لا عذر على الجري السيء»، قال دِلامارش. «لولاي كانا أمسكا بك منذ مدة طويلة.» «أظن أيضاً»، قال كارل، «إني مدين لك كثيراً.» «لا شك»، قال دِلامارش.

اجتازا ممراً طويلاً ضيقاً مرصوفاً بصفائح حجارة سوداء مستوية. بين الحين والآخر كان يظهر مدخل درج يميناً أو يساراً أو كان يُرى ممر آخر أكبر. لم يكن ثمة بالغون، كان هناك أولاد فحسب يلعبون على السلالم الخالية. إلى درابزين أحد السلالم كانت تقف فتاة صغيرة وتبكي حتى إن وجهها بكامله بات يلمع من فرط دموعها. وما أن لمحت دِلامارش حتى جرت على درجات السلم بفم مفتوح وهي تلتقط أنفاسها اللاهثة ولم تهدأ في الأعلى إلّا بعد أن تلفتت مراراً واقتنعت بأن ما من أحد يلاحقها أو يريد ملاحقتها. «هذه صدمتها قبل لحظة أثناء جريي»، قال دِلامارش ضاحكاً وهددها بقبضته، فاندفعت تجري وهي تصرخ.

وكذلك الأفنية التي عبراها كانت تبدو شبه خالية. فقط بين الحين والآخر كان حمّال يدفع أمامه عربة يد ذات عجلتين، امرأة على المضخة تملأ صفيحة بالماء، ساعي بريد عبر كامل الفناء بخطوات هادئة، رجل متقدم في السن ذو شارب وخطه الشيب كان يجلس أمام باب زجاجي وقد وضع ساقاً فوق ساق وراح يدخن غليوناً، أمام محل نقليات كانت تنزّل صناديق، وكانت الأحصنة غير المشغولة تدير رؤوسها بسأم، وكان ثمة رجل يرتدي معطف عمل يراقب العمل كله وهو يحمل ورقة بيده، في أحد المكاتب كانت النافذة مفتوحة وكان موظف يجلس إلى طاولته وهو ينظر مستغرقاً في التفكير نحو الخارج، حيث كان الآن كارل ودِلامارش يمرّان.

«لا يمكن للمرء أن يتمنى منطقة أكثر هدوءاً»، قال دِلامارش. «في المساء تسود ضوضاء كبيرة بضع ساعات، لكن أثناء النهار يكون الوضع هنا نموذجياً.» أومأ كارل، وقد بدا له الهدوء أكثر من اللازم. «لا أستطيع أن أسكن في مكان آخر»، قال دِلامارش، إذ إن برونيلدا لا

تطيق الضوضاء إطلاقاً. هل تعرف برونيلدا؟ حسناً سوف تراها. على كل حال أنصحك بأن تتصرف بهدوء ما أمكن.»

عندما بلغا السلّم الذي يؤدي إلى شقة برونيلدا، كانت السيارة قد انطلقت، والصبي ذو الأنف الأفطس أخبر، دون أن تُدهشه بأي شكل عودة كارل إلى الظهور، بأنه حمل روبنسون وصعد به السلّم. دِلامارش أومأ له فحسب وكأنه خادمه الذي أدّى واجباً بديهياً، وسحب معه إلى السلّم كارل الذي تردد بعض الشيء ونظرإلى الشارع المشمس. «حالاً نصل إلى فوق»، قال دِلامارش مردداً أكثر من مرة أثناء صعود الدرج، بيد أن نبوءته لم تشأ أن تتحقق، مراراً وتكراراً كان الدرج ينتهي إلى درج جديد باتجاه آخر لا يتبدل إلّا على نحو غير ملحوظ. حتى إن كارل توقف ذات مرة، ليس تعباً، بل ضعفاً إزاء طول هذه السلالم. «تقع الشقة على ارتفاع كبير»، قال دِلامارش وهما يتابعان السير، «لكن حتى لهذا ثمة منافع. فمن النادر أن يخرج المرء للسهر في الخارج، ويظل المرء في رداء النوم طوال النهار، الوضع لدينا مريح للغاية. وطبعاً لا يأتي زوار أيضاً في هذا الارتفاع.» «من أين يمكن أن يأتي زوار»، فكر كارل في ذات نفسه.

أخيراً ظهر روبنسون على بسطة درج أمام باب شقة مغلق والآن وصلا؛ لم يكن الدرج قد انتهى، وإنما استمر في نصف ظلام، ودون أن يبدو أي شيء يشير إلى نهايته القريبة. «لقد فكرت»، قال روبنسون بصوت منخفض وكأن الآلام ما زالت تثقل عليه، «دِلامارش سوف يجلبه! روسمان، ماذا كنت ستكون لولا دِلامارش!» كان روبنسون يقف هنا بملابسه الداخلية ويحاول أن يلفّ نفسه ما استطاع إلى ذلك سبيلا في البطانية الصغيرة التي كانوا قد أعطوها له من فندق أوكتسيتندال، ولم يُفهم لماذا لم يدخل إلى الشقة بدلاً من أن يدع نفسه مثار سخرية الناس الذين قد يمرّون من هنا. «هل هي نائمة؟» سأل دِلامارش.» «لا أظن»، قال روبنسون، «غير أني آثرت الانتظار حتى تأتي أنت.» «يجب أولاً أن نرى في ما إذا كانت نائمة»، قال دِلامارش وهو ينحني إلى ثقب المفتاح. وبعد أن نظر عبره طويلاً وهو يدير رأسه دورات متباينة الأشكال، استوى واقفاً وقال: «لا تُرى بوضوح، الجرّار مسدل. إنها جالسة على الكنبة، ربما تكون نائمة.» «هل هي مريضة؟» سأل كارل، إذ إن دِلامارش كان وكأنه يطلب نصيحة. غير أنه سأل الآن بلهجة حادة «مريضة؟» «إنه لا يعرفها»، قال روبنسون معتذراً.

بعد بضعة أبواب كانت امرأتان قد دخلتا إلى الممر، وهنّ تنظفان أيديهما بمريلتيهما، تطلعتا إلى دِلامارش وروبنسون وبدتا تتحدثان عنهما. من أحد الأبواب قفزت فتاة فتيّة للغاية بشعر أشقر لامع واندسّت بين الامرأتين بأن تعلقت بذراعيهما.

«هاتان امرأتان مقيتتان»، قال دِلامارش بصوت منخفض، لكن على ما يبدو فقط مراعاة لبرونيلدا النائمة، «في المرة القادمة سوف أبلّغ الشرطة عنهما وأنعم بالهدوء منهما طوال أعوام.

لا تنظر إليهما»، همس لكارل الذي لم يكن قد وجد سوءاً في النظر إلى المرأتين، طالما كان لزاماً عليهم أن ينتظروا في الممر حتى تستيقظ برونيلدا. وبامتعاض هزّ رأسه، كأن ليس عليه أن يتقبّل تنبيهات من دِلامارش، وأراد، لكي يوضح هذا أكثر، أن يتجه نحو المرأتين، بيد أن روبنسون أمسكه من كمّه وهو يقول «روسمان، احترس» ودِلامارش، الذي كان متوتر الأعصاب على كل حال من كارل، ثار غضبه بسبب قهقهة عالية أطلقتها الفتاة، حتى إنه هرع بخطوات واسعة وهو يطوح بذراعيه وساقيه نحو المرأتين، التي اختفت كل منهما في بابها وكأنها جُرفت جرفاً. «هكذا يجب عليّ هنا أن أنظف الممرات مراراً وتكراراً»، قال دِلامارش عندما عاد بخطوات بطيئة؛ وهنا تذكر مقاومة كارل وقال: «لكن منك أنت أتوقع سلوكاً مغايراً كل المغايرة، وإلا فإنه سيكون لك معي تجارب سيئة.»

هنا نادى من الغرفة صوت متسائل في نبرة رقيقة، متعبة: «دِلامارش؟» «نعم»، أجاب دِلامارش وهو يتطلع إلى الباب برقة، «هل يمكننا أن ندخل؟» «أوه نعم»، قال الصوت وفتح دِلامارش الباب ببطء بعد أن نظر نظرة عابرة إلى اللذين ينتظران وراءه.

دخلوا إلى عتمة كاملة. كانت ستارة باب الشرفة ـ لم يكن ثمة نافذة ـ مسدلة حتى الأرضية وكانت شفافة بعض الشيء، وعلاوة على ذلك فإن اكتظاظ الغرفة بالأثاث والملابس المعلقة في كل مكان ساهم كثيراً في تعتيم الغرفة. كان الهواء مقبضاً وكان يمكن للمرء أن يشم رائحة الغبار الذي كان قد تجمّع في الزوايا التي لم يكن في وسع أي يد أن تصل إليها على ما يبدو. وكان أول شيء لاحظه كارل لدى الدخول هو ثلاث علب ثلاثة صناديق وُضعت متقاربة وراء بعضها بعض.

على الأريكة كانت ترقد المرأة التي كانت من قبل قد تطلعت من الشرفة. كان ثوبها الأحمر قد انكشح في الأسفل قليلاً وتدلى في طرف كبير إلى الأرض، وانكشف ساقاها حتى الركبتين تقريباً، كانت ترتدي جوارب صوف سميكة بيضاء، ولم تكن تنتعل حذاء. «ما أشد حرارة الجو، دِلامارش»، قالت، أدارت وجهها من الحائط، وتركت يدها معلقة بتراخ باتجاه دِلامارش، الذي أمسك بها وقبّلها. لم ير كارل سوى لغدها، الذي استدار مع لفتة الرأس. «هل أدع الستارة تُرفع ربما؟» سأل دِلامارش. «أما هذا فلا»، قالت وقد أغمضت عينيها ثم وكأنها يائسة، «يصبح الحال أكثر سوءاً.» كان كارل قد تقدم حتى طرف الأريكة لكي يرى المرأة بدقة أكثر، لقد عجب من شكواها، حيث إن الحرارة لم تكن عالية قط. «انتظري، سوف أريحك بعض الشيء»، قال دِلامارش متوجساً، فتح في الأعلى على الرقبة بضعة أزرار ومدّ الفستان هناك، بحيث تعرّى العنق وبداية الصدر وبدا طرف دانتلاً رقيق مائل للصفرة من القميص. «من هذا»، قالت المرأة فجأة وهي تشير بأصبعها إلى كارل، «لماذا يحدّق بي هكذا؟» «ستبدأ قريباً في أن تجعل نفسك مفيداً»، قال دِلامارش وهو يدفع كارل جانباً في حين أنه هدّأ

روع المرأة بكلمات: «إنه الصبي الذي جلبته ليقوم على خدمتك.» «لكنني لا أريد أحداً»، نادت، «لماذا تجلب لي غرباء إلى البيت.» «لكنك طوال الوقت كنت تتمنين شخصاً يتولى خدمتك»، قال دِلامارش وركع، حيث لم يكن يوجد أقل مكان إلى جانب برونيلدا على الكنبة رغم عرضها الكبير. «آه دِلامارش»، قالت، «إنك لا تفهمني ولا تفهمني.» «إذاً فعلاً لا أفهمك»، قال دِلامارش وهو يمسك وجهها بين راحتيه. «لكن لم يحدث شيء، إذا أردتِ ينصرف في الحال.» «طالما أنه هنا، فعليه أن يبقى»، قالت من جديد وكان كارل في تعبه ممتناً لها على هذه الكلمات التي قد لا تكون قط ذا قصد ودّي، بحيث إنه، وهو مشغول دائماً بأفكار غير واضحة بهذه السلالم اللانهائية، التي كان من شأنه أن يتوجب عليه أن يهبط عليها ربما في الحال، تقدم فوق روبنسون النائم بهدوء على بطانيته ورغم كل تلويح لدِلامارش بيديه تلويحاً مزعجاً قال: «على كل حال أشكرك على أنك تريدين أن تتركيني هنا بعض الوقت. فأنا لم أنم منذ أربع وعشرين ساعة، وعملت على نحو كاف وعشت اضطرابات شتى. إنني متعب للغاية. لا أعرف على نحو صحيح أين أنا. لكن إذا استطعت أن أكون قد نمت بضع ساعات، فيمكنك أن تصرفيني دون أية مراعاة أخرى وسوف أذهب بسرور.» «يمكنك أن تبقى هنا عموماً»، قالت المرأة وأضافت في سخرية: «لدينا فائض في المكان، كما ترى.» «عليك إذاً أن تنصرف»، قال دِلامارش، «إننا لا نحتاجك.» «لا، عليه أن يبقى»، قالت المرأة بلهجة جادة هذه المرة. وقال دِلامارش لكارل وكأن ذلك تنفيذ لهذه الرغبة: «إذاً استلقِ في أي مكان.» «يمكنه أن يستلقي على الستائر، لكن عليه أن يخلع حذاءه حتى لا يمزق شيئاً.» أشار دِلامارش لكارل إلى المكان الذي تقصده. بين الباب والخزائن الثلاث كانت كومة كبيرة من شتى أنواع ستائر النوافذ ملقاة. لو كان المرء قد طواها على نحو منتظم، الثقيلة منها في الأسفل والخفيفة فوقها، وأخيراً سحب مختلف الألواح والحلقات الخشبية المدسوسة في الكومة، لأصبح المكان فراشاً مقبولاً، أما هكذا فقد كان مجرد كمية متأرجحة ومنزلقة، لكن كارل استلقى عليها في التو رغم ذلك، إذ إنه كان أكثر تعباً من أن يقوم باستعدادات خاصة للنوم، كما كان عليه مراعاة لمضيفيه أن يحترس كي لا يزعجهم.

كان قد استغرق في النوم أو كاد، حين سمع صرخة عالية، فنهض ورأى برونيلدا جالسة على الأريكة وقد مدّت ذراعيها وطوقت دِلامارش الذي كان يركع أمامها. كان هذا المنظر محرجاً لكارل، فعاد إلى الاستلقاء وغرق في الستائر لكي يواصل النوم. وبدا له أنه ليس من شأنه أن يتحمّل الوضع هنا ولا حتى مدة يومين، لكن هذا يجعل من الضروري أكثر أن ينام أولاً نوماً كافياً، كي يتمكن بعد ذلك وهو في كامل وعيه أن يقرر بسرعة وعلى نحو صحيح.

بيد أن برونيلدا لاحظت عينيّ كارل المفتّحتين من التعب واللتين كانتا قبل ذلك قد أخافتاها، ونادت: «دِلامارش، لا أطيق الحرارة، إني أحترق، يجب أن أخلع ملابسي، يجب أن

أستحمّ، أرسل الاثنين من الغرفة حيث تشاء، إلى الممر، إلى الشرفة، بحيث لا أعود أراهما. يُزعج المرء في بيته وباستمرار. لو كنتُ وحدي معك، دِلامارش. أوه يا إلهي، ما زالا هنا! كيف يقبع هذا الروبنسون الوقح في ملابسه الداخلية وهو في حضور سيدة. وكيف عاد هذا الصبي الغريب، الذي نظر إليّ قبل لحظة بكل وحشية، إلى الاستلقاء كي يخدعني. أخرجهما فحسب، يا دِلامارش، إنهما عبء على كاهلي، يجثمان على صدري، وإذا قضي عليّ الآن، فسيكون ذلك بسببهما.»

«في الحال يكونان في الخارج، اخلعي ملابسك فحسب»، قال دِلامارش، راح إلى روبنسون وهزّه بقدمه التي وضعها على صدره. في الوقت نفسه نادى: «كارل روسمان، انهض! يجب عليكما كليكما أن تخرجا إلى الشرفة! والويل لكما إذا عدتما قبل أن أناديكما! والآن هيا بسرعة، روبنسون» - أثناء ذلك هزّ روبنسون بشدة أكثر - «وأنت روسمان، انتبه حتى لا آتي عليك أيضاً» - أثناء ذلك صفق بيديه مرتين. «كم يطول هذا!» نادت برونيلدا وهي جالسة على الأريكة، وكانت بجهد كبير فحسب قد فردت ساقيها على اتساعهما، كي تجد فضاء أكثر لجسدها المفرط في السمنة، وبكثير من اللهاث والتقاط الأنفاس تمكنت من الانحناء بحيث تمسك جواربها في نهايتها العليا وتسحبها قليلاً إلى الأسفل، غير أنها لم تتمكن من خلعها كلياً، هذا ما كان على دِلامارش أن يقوم به، فراحت تنتظره بفارغ الصبر.

انسلّ كارل من الكومة وهو في خُدار تام من شدة التعب، واتجه في بطء نحو باب الشرفة، وكانت قطعة من قماش ستارة قد التفت على قدمه وجرّها معه بلا مبالاة. بل إنه وهو في شروده قال عندما مرّ ببرونيلدا: «أتمنى لك ليلة طيبة» ومضى من ثم إلى الشرفة مارّاً بدِلامارش، الذي نحّى ستارة باب الشرفة قليلاً. وخلف كارل تماماً جاء روبنسون وهو ليس أقل نعاساً، إذ راح يترنّم بصوت هامس: «دائماً وأبداً تساء معاملة المرء! لن أخرج إلى الشرفة إذا لم تأت برونيلدا معنا.» لكن رغم هذا التأكيد خرج دون أية مقاومة، واستلقى على الفور فوق الأرض الحجرية، لأن كارل كان قد غرق في المقعد ذي المسند.

حين أفاق كارل كان المساء قد حلّ، وكان ثمة نجوم تتناثر في السماء، وخلف الأبنية العالية على الجهة المقابلة من الشارع بزغ ضوء القمر. وفقط بعد أن جال كارل بناظريه حوله في المنطقة المجهولة، وتنفس بضع مرات في الهواء البارد المنعش، أدرك أين هو. كم كان غير محترس، كان قد أهمل كل نصائح كبيرة الطباخين وكل تحذيرات تيريزه وكل مخاوفه الخاصة، كانِ يجلس هنا بهدوء على شرفة دِلامارش، بل إنه استغرق في النوم طوال نصف النهار، وكأن دِلامارش، عدوّه اللدود، ليس وراء الستارة. على الأرضية تقلّب روبنسون الكسول وسحب قدم كارل، وبدا له أنه أوقظه بهذه الطريقة أيضاً، إذ إنه قال: «إنك تنام نوماً عميقاً روسمان! هذا هو الشباب خليّ القلب. إلى متى تريد إذاً أن تستمر في نومك. كان من

شأني أن أدعك تواصل النوم، لكن أولاً لقد ضقت ذرعاً بالاستلقاء على الأرضية وثانيا أشعر بجوع كبير. أرجوك أن تنهض قليلاً، فقد وضعت تحت المقعد شيئاً من الطعام أحب أن أسحبه. وسأعطيك أيضاً بعضاً منه.» وراقب كارل الذي نهض كيف زحف روبنسون على بطنه، دون أن ينهض، وسحب بيديه الممدودتين من تحت المقعد صينية صينية مموهة بالفضة، كتلك التي تُستعمل لحفظ البطاقات الشخصية. لكن على الصينية كان ثمة نصف قطعة من السجق الأسود كلياً، وبضع سجاير رفيعة، وعلبة سردين مفتوحة لكنها ما زالت مليئة جيداً ومغطاة بالزيت، وكمية من قطع الملبّس التي فُعس معظمها وتحول إلى لفّة واحدة كبيرة. ثم ظهرت قطعة خبز ونوع من زجاجة عطر لكنها بدت أنها تحوي شيئاً آخر غير العطر، فقد أشار روبنسون بارتياح خاص وهو يطرقع بلسانه نحو كارل. «انظر روسمان»، قال روبنسون وهو يزدرد سردينة وراء أخرى وينظف بين الحين والآخر يديه من الزيت بمنديل صوف يبدو أن برونيلدا كانت قد نسيته على الشرفة. «انظر روسمان، هكذا يجب على المرء أن يحتفظ بطعامه إذا لم يكن يريد أن يتضور جوعاً. اسمع. لقد نحّوني جانباً على نحو تام. وعندما يُعامل المرء دائماً وأبداً كأنه كلب، فإنه يفكر في آخر المطاف أنه هكذا فعلاً. حسناً أنك هنا روسمان، أستطيع على الأقل أن أتحدث مع أحدهم. في البيت لا يتحدث أحد معي. إننا مكروهان. وكل شيء بسبب برونيلدا. إنها طبعاً امرأة رائعة. اسمع ـ وأشار إلى كارل ليدنو منه لكي يهمس له ـ «رأيتها ذات مرة عارية. أوه!» ـ وفي تذكره لهذه المتعة راح يضغط على ساقي كارل ويصفعها، حتى نادى كارل: «روبنسون، لقد جننت»، أمسك يديه ودفعها عنه.

«إنك ما زلت طفلاً، روسمان»، قال روبنسون، سحب خنجراً كان يحمله معلقاً بخيط على الرقبة تحت القميص، نزع جراب الخنجر وراح يقطع به السجق القاسي. «ما زال يتعيّن عليك أن تتعلم كثيراً. غير أنك لدينا في المصدر الصحيح. فلتجلس. ألا تريد أن تأكل شيئاً. ربما تفتح شهيتك عندما تنظر إليّ. ألا تريد أن تشرب أيضاً؟ لكنك لا تريد شيئاً مطلقاً. وكثير الحديث لستَ أيضاً على نحو خاص. لكن لا يهم بتاتاً مع من يكون المرء على الشرفة، يكفي بعامة أن يكون أحد هنا. إذ إنني غالباً ما أكون على الشرفة. هذا يعود بمتعة كبيرة على برونيلدا. لا عليها إلّا أن يخطر شيء ما على بالها، مرة تشعر بالبرد، مرة الطقس حار، مرة تريد أن تنام، مرة تريد أن تمشط شعرها، مرة تريد أن تفتح المشدّ، مرة تريد ارتداءه، وهنا أُرسل في كل مرة إلى الشرفة. أحياناً تفعل حقاً ما تقوله، غير أنها غالباً ما تستلقي فحسب على الأريكة كما في السابق ولا تتحرك. سابقاً كنت غالباً أزيح الستارة قليلاً وأسترق النظر من خلالها، لكن منذ أن قام دِلامارش ذات مرة لدى مثل هذه المناسبة ـ أعرف تماماً أنه لم يكن يريد هذا ولم يفعل ذلك سوى بناء على طلب برونيلدا ـ بضربي على وجهي بالسوط عدة مرات ـ هل ترى آثار الضرب؟ ـ لم أعد أجرؤ على استراق النظر. وهكذا أستلقي على الشرفة

وما من متعة لي سوى الطعام. حين كنت مساء يوم أمس أستلقي وحيداً هكذا، كنت آنذاك ما زلت أرتدي ملابسي الأنيقة، التي فقدتها مع الأسف في فندقك ـ هؤلاء الكلاب! يخطفون من المرء ثيابه الغالية عن جسمه! ـ إذاً حين كنت أستلقي وحيداً هكذا ونظرت من خلال الدرابزين إلى الأسفل، بدا لي كل شيء كئيباً هكذا ورحت أبكي. وهنا بالمصادفة ودون أن ألاحظ ذلك على الفور، خرجت برولبندا إليّ وهي ترتدي ثوبها الأحمر ـ هذا الثوب هو أكثر ما يناسبها من بين ثيابها ـ، نظرت إليّ قليلاً وقالت أخيراً: [وبنسون، لماذا تبكي؟] ثم رفعت ثوبها ومسحت عينيّ بطرفه. من يدري، ماذا كان عساها أن تفعل أكثر من ذلك لو لم يناداها دِلامارش وتضطر في الحال إلى العودة إلى الغرفة. طبعاً فكرتُ أن دوري قد حان الآن فسألت من خلال الستارة في ما إذا كان يُسمح لي بالدخول إلى الغرفة. وماذا تظن ماذا قالت برونيلدا؟ [لا!] قالت [ماذا يخطر ببالك؟] قالت.

«لماذا تبقى هنا، إذا كانا يعاملانك هكذا؟» سأل كارل.

«اعذرني، روسمان، إنك لا تسأل بذكاء كبير»، ردّ روبنسون. «أنت أيضاً سوف تبقى هنا حتى لو قاما بمعاملتك معاملة أكثر سوءاً. وللمناسبة، إنهما لا يعاملانني معاملة سيئة على نحو كبير إطلاقاً.»

«كلا»، قال كارل، «سأذهب حتماً وإن أمكن مساء اليوم. لن أبقى لديكم.»

«كيف تريد أن تعمل إذاً كي تنصرف مساء اليوم؟» سأل روبنسون، الذي كان قد اقتطع الجزء الطري من الرغيف وغمسه بعناية في زيت علبة السردين. «كيف تريد أن تنصرف، إذا كان لا يجوز لك أن تدخل إلى الغرفة.»

«لماذا لا يجوز لنا أن ندخل؟»

«ما لم يدق الجرس، لا يجوز لنا أن ندخل»، قال روبنسون، الذي كان يأكل الخبز المغمّس بفمه المفتوح أوسع ما يمكن، بينما كان يلتقط بإحدى يديه الزيت المتساقط إلى الأسفل لكي يغمس بين الحين والآخر بقية الرغيف في هذه اليد الفارغة التي هي بمثابة احتياط. «لقد أصبح كل شيء هنا أكثر صرامة. في البداية لم يكن سوى ستارة رقيقة، صحيح أنه لم يكن يُرى من خلالها، لكن في المساء كان يمكن تمييز ظلالهما. وكان هذا غير مريح لبرونيلدا، فاضطرت إلى تحويل أحد معاطفها للمسرح إلى ستارة وتعليقها هنا بدلاً من الستارة القديمة. والآنِ لم يعد المرء يرى أي شيء. ثم كان يُسمح لي دائماً في السابق بأن أسأل ما إذا كان يجوز لي أن أدخل وكنت أجاب [نعم] أو [لا] تبعاً للظروف، لكنني قمت على الأرجح باستغلال ذلك أكثر من اللازم وأكثرت من السؤال، فلم تتحمل برونيلدا هذا ـ إن طبيعتها ضعيفة للغاية رغم بدانتها، وغالباً ما تعاني من الصداع، ومن التهاب المفاصل في الساقين دائماً

وأبداً تقريباً ـ وهكذا قُرر أنه لا يُسمح لي بعد الآن بالسؤال، ويمكنني الدخول عندما يُضغط على جرس الطاولة. وهذا يصدر رنيناً عالياً جداً يوقظني حتى من النوم ـ كان لدي ذات مرة قطة هنا من أجل التسلية، وقد ولّت مذعورة من هذا الرنين ولم تعد. إذا اليوم لم يُقرع بعد ـ إذ عندما يُقرع، لا يجوز لي فحسب، بل يجب عليّ أن أدخل ـ وعندما يمضي ذات مرة وقت طويل لا يُقرع فيه، فإنه يمكن لهذا الوقت أن يطول جداً.»

«نعم»، قال كارل، «لكن ما ينطبق عليك، لا يعني أنه يجب أن ينطبق عليّ. وبعامة، لا ينطبق مثل هذا إلّا على من يقبل به.»

«لكن»، نادى روبنسون، «لماذا لا يجب أن ينطبق هذا عليك؟ طبعاً ينطبق عليك أيضاً. انتظر معي هنا والزم الهدوء فحسب حتى يُقرع الجرس. ثم يمكنك أن تحاول المغادرة.»

«لماذا لا تذهب أنت من هنا حقاً؟ فقط لأن دِلامارش هو صديقك أو كان بالأحرى؟ هل هذه حياة؟ ألم يكن الوضع في بوتّرفورد أفضل، حيث كنتما تريدان الذهاب في البداية؟ أو حتى في كاليفورنيا، حيث لديك أصدقاء.»

«نعم»، قال روبنسون، «لم يستطع أحد أن يتنبأ بهذا.» وقبل أن يواصل حديثه قال: «نخبك، عزيزي روسمان» وتناول جرعة كبيرة من زجاجة العطر. «كان وضعنا آنذاك سيئاً للغاية عندما هجرتنا على نحو شائن. في الأيام الأولى لم نتمكن من الحصول على عمل، كما أن دِلامارش لم يكن يريد أن يعمل، كان في مقدوره أن يحصل على عمل، بل كان دائماً يرسلني لأبحث ولم يسعفني الحظ. لم يفعل شيئاً سوى التسكع، لكن المساء كاد يحلّ ولم يجلب معه سوى محفظة نسائية، كانت جميلة للغاية، من لؤلؤ، الآن أهداها إلى برونيلدا، لكن المحفظة لم تكن تحوي شيئاً تقريباً. بعد ذلك قال علينا أن ندور على المنازل ونتسول، لدى هذه الفرصة يمكن للمرء أن يعثر طبعاً على بعض ما هو مفيد، وهكذا ذهبنا نتسول، ولكي يبدو الأمر أفضل، صرت أغني أمام أبواب المنازل. وكما هو حظ دِلامارش دائماً، كنا نقف أمام الشقة الثانية وحسب، شقة ثرية للغاية تقع في الطابق الأرضي، غنّينا أمام الباب للطباخة والخادم، وهنا صعدت السيدة التي تملك هذه الشقة الدرج وكانت برونيلدا. ربما كانت ترتدي مشداً ضيقاً أكثر من اللازم ولم يكن في وسعها قط أن تصعد الدرجات القليلة. لكن كم بدت جميلة، روسمان! كانت ترتدي ثوباً شديد البياض وتحمل مظلة حمراء اللون. كانت جديرة أن تُلعق لعقاً، أن تُشرب. آه يا إلهي، آه يا إلهي كم كانت جميلة. يا لها من امرأة! لا، قل لي وحسب، كيف يمكن أن توجد مثل هذه المرأة؟ وطبعاً جرت الفتاة وجرى الخادم في الحال إليها وكادا يحملانها إلى فوق. وقفنا على يمين ويسار الباب وأدينا التحية، هكذا يعمل المرء هنا. توقفت برهة قصيرة لأنها كانت ما زالت لم تلتقط أنفاسها، والآن لا أعرف كيف حدث هذا في حقيقة الأمر، من شدة جوعي لم أكن واعياً كل الوعي، وكانت

عن قرب أكثر جمالاً وعريضة على نحو هائل، ومن جراء مشدّ خاص، أستطيع أن أريك إياه في الصندوق، كانت مشدودة جداً في كل موضع ـ باختصار، لقد لمستها من الخلف قليلاً، لكن لمسة خفيفة للغاية، مجرد لمسة. طبعاً لا يمكن للمرء أن يقبل هذا، أن يقوم متسول بلمس سيدة ثرية. لقد كاد الأمر أن لا يكون لمساً، لكنه في نهاية المطاف هو لمسٌ. من يدري كيف كان الأمر سينتهي وبأية فظاعة لو لم يصفعني دِلامارش على الفور صفعة شديدة لدرجة أنني احتجت إلى كلتا يديّ للوجنة.»

«أي عبث قمتما به»، قال كارل، وقد استأثرت به القصة كل الاستئثار وجلس على الأرض. «هذه إذاً كانت برونيلدا؟»

«حسناً نعم»، قال روبنسون، «هذه كانت برونيلدا.»

«الم تقل ذات مرة إنها مغنية؟» سأل كارل.

«طبعاً هي مغنية ومغنية كبيرة»، ردّ روبنسون، الذي كان يقلّب كومة ملبّس على لسانه، ويضغط بين الفينة والأخرى على قطعة كانت قد خرجت من الفم ويعيدها إلى داخله. «لكننا طبعاً لم نكن نعلم ذلك آنذاك، كنا لا نرى سوى أنها كانت سيدة ثرية وراقية للغاية. وفعلت كأن شيئاً لم يحدث وربما لم تكن قد أحست شيئاً، إذ إنني لم أفعل شيئاً في الواقع سوى أني نقرتها برؤوس الأصابع بخفة. لكن على كل حال نظرت إلى دِلامارش، الذي ردّ على نظرتها بأن ـ كيف يصيب ـ نظر إلى عينيها مباشرة. فقالت له: 'ادخل لمدة برهة' وهي تشير بالمظلة إلى المنزل، حيث على دِلامارش أن يتقدمها. ثم دخلا كلاهما وأغلق الخدم الباب وراءهما. أنا نسوني في الخارج، ففكرت أن الأمر لن يستغرق طويلاً وجلست على الدرج لكي أنتظر دِلامارش. لكن بدلاً من دِلامارش خرج الخادم وهو يحمل لي سلطانية حساء كاملة، 'لفتة من دِلامارش'، قلت لنفسي. وظل الخادم واقفاً برهة قصيرة عندي وأنا آكل وحدثني بعض الأمور عن برونيلدا وهنا رأيت كم يمكن أن تكون الزيارة لبرونيلدا مهمة بالنسبة لنا. إذ إن برونيلدا كانت امرأة مطلقة، تملك ثروة طائلة وكانت مستقلة على نحو تامّ. زوجها السابق هو صاحب مصنع كاكاو وهو لا زال يحبها، غير أنها لا تريد أن تسمع عنه أقل شيء. كان يأتي كثيراً إلى البيت، وكان دائماً يرتدي ملابس أنيقة كأنه يأتي إلى حفل زفاف ـ هذا حقيقي كلمة بكلمة، إني أعرفه شخصياً ـ غير أن الخادم لم يجرؤ رغم أكبر رشوة أن يسأل برونيلدا في ما إذا كانت ترغب في استقباله، إذ إنه كان قد سألها بضع مرات، ودائماً كانت تقذف وجهه بما يصدف أن يكون في متناول يدها. ذات مرة حتى قربة الماء الساخن الكبيرة المليئة وبهذه كانت قد كسرت له أحد أسنانه الأمامية. نعم، روسمان، انظر!»

«من أين تعرف الرجل؟» سأل كارل.

«أحياناً يصعد إلى فوق أيضاً»، قال روبنسون.

«إلى فوق؟» مندهشاً ضرب كارل ضربة خفيفة بيده على الأرض.

«بإمكانك أن تندهش»، واصل كلامه قائلاً، «أنا نفسي أصبت بدهشة مما حدثني به الخادم آنذاك. فكر فحسب، عندما كانت برونيلدا تغيب، كان الرجل يدع الخادم يقوده إلى غرفتها وفي كل مرة كان يأخذ شيئاً تافهاً كتذكار ويترك لها شيئاً نادراً باهظ الثمن ويمنع الخادم منعاً باتاً من أن يقول لها ممن. لكن ذات مرة عندما أحضر ـ كما قال الخادم وأنا أصدقه ـ شيئاً من منتجات الخزف لا يقدّر بمال، يجب أن تكون برونيلدا قد تعرفت عليه بطريقة ما، قذفته على الأرض في الحال، وراحت تدوس وتبصق عليه وعملت به بعض الأمور الأخرى، بحيث إن الخادم لشدة قرفه كاد لا يستطيع أن يحمله إلى الخارج.»

«ماذا عمل لها الرجل إذاً؟» سأل كارل.

«هذا ما لا أعرفه في الحقيقة»، قال روبنسون. «غير أني أظن أنه لم يعمل شيئاً مخصوصاً، على الأقل لا يعرف هو نفسه ماذا فعل. فقد تحدثت معه في بعض الأحيان عن ذلك. إنه ينتظرني يومياً هناك في زاوية الشارع، وعندما أصل، ينبغي عليّ أن أروي له أخباراً، وإذا لم أستطع الحضور، ينتظر نصف ساعة ثم ينصرف. كان الأمر بالنسبة لي دخلاً جانبياً جيداً، فقد كان يدفع لقاء الأخبار مبلغاً ممتازاً، لكن منذ أن علم دِلامارش بذلك، بات لزاماً عليّ أن أسلمه كل شيء وهكذا أصبح من النادر أن أذهب.»

«لكن ماذا يريد الرجل أن يأخذ؟» سأل كارل، «ماذا يريد أن يأخذ فحسب؟ إنه يسمع أنها لا تريده.»

«نعم»، قال روبنسون وهو يتنهد، أشعل سيجارة ونفث الدخان إلى الأعلى وهو يلوّح بذراعيه تلويحات كبرى. ومن ثم بدا أنه قرر أمراً آخر وقال: «ماذا يهمني هذا؟ أعرف فقط أنه يريد أن يعطي مالاً كثيراً لقاء أن يُسمح له أن يستلقي على الشرفة هنا مثلنا.»

نهض كارل، استند إلى الدرابزين وراح ينظر إلى الشارع. كان القمر مرئياً، غير أن ضوءه لم يكن قد نفذ بعد إلى عمق الشارع. الشارع الذي كان خالياً في النهار، يكتظ بالناس وخاصة أمام الأبواب، وكانوا جميعهم يتحركون حركات بطيئة متثاقلة، وكانت قمصان الرجال وملابس النساء فاتحة الألوان تبرز على نحو يسير من الظلام، وكانوا جميعهم حاسري الرؤوس. وكانت الشرفات الكثيرة من حولهم تمتلئ بالناس. كانت كل أسرة تجلس هناك حسب سعة الشرفات حول طاولة صغيرة في ضوء مصباح كهربائي أو على الكراسي فقط في صف واحد أو كانوا على الأقل يمدّون رؤوسهم من الغرفة. كان الرجال يجلسون مفتوحي الساقين وقد مدّدوا أقدامهم بين قضبان الدرابزين وهم يقرؤون جرائد كادت تصل حتى الأرض، أو يلعبون الورق وهم صامتون على ما يبدو لكن تحت ضربات قوية على

الطاولات، وكانت النساء تمتلئ أحضانهن بأشغال الحياكة ولم يكنّ سوى بين الفينة والأخرى يلقين نظرة قصيرة على محيطهن أو على الشارع، وكانت امرأة شقراء واهنة على الشرفة المجاورة تتثاءب على الدوام وهي تزيغ عينيها وترفع دائماً أمام الفم قطعة غسيل كانت ترتقها الآن، حتى على أصغر الشرفات كان الأطفال يعرفون كيف يطاردون بعضهم، الأمر الذي كان يزعج الوالدين غاية الازعاج. في داخل كثير من الغرف كانت قد وضعت غراموفونات راحت تبثّ أغانيَ أو موسيقى سيمفونية، لم يكن المرء يعطي اهتماماً لهذه الموسيقى، بين الفينة والأخرى فحسب كان أب الأسرة يعطي إشارة فيهرع أحد ما ويضع اسطوانة جديدة. عند بعض النوافذ كان المرء يشاهد أزواجاً من العشاق يقفون بلا حراك، عند نافذة قبالة كارل كان ثمة زوجان يقفان، وكان الشاب يلف ذراعه حول الفتاة ويضغط بيده على صدرها.

«هل تعرف أحداً من الناس هنا في الجوار؟» سأل كارل روبنسون، الذي كان قد نهض الآن أيضاً ولأنه كان يرتعد من البرد فقد كان لفّ نفسه بدثار برونيلدا أيضاً بالإضافة إلى بطانيته.

«لا أحد تقريباً. هذا هو الأمر السيء في وضعي»، قال روبنسون وهو يجذب كارل إليه، لكي يتمكن من الهمس في أذنه، «وإلا ما كنت سأشكو حالياً. لقد باعت برونيلدا بسبب دِلامارش كل ما كان لديها وانتقلت مع كل ثرواتها إلى هنا إلى هذه الشقة من شقق الضواحي، لكي تتمكن من تكريس نفسها له كلياً وحتى لا يعكر صفوها أحد، وهذه، للمناسبة، كانت رغبة دِلامارش أيضاً.»

«وهل سرّحت الخدم؟» سأل كارل.

تماماً»، قال روبنسون. «وأين يمكن إسكان الخدم هنا؟ هؤلاء الخدم هم رجال ذوو مطالب عالية. ذات مرة طرد دِلامارش لدى برونيلدا خادماً من هذا النوع من الحجرة وذلك بصفعات راحت تطير الواحدة وراء الأخرى حتى أصبح الرجل في الخارج. وطبعاً تكاتف معه الخدم الآخرون وأثاروا شغباً أمام الباب، وهنا خرج دِلامارش (آنذاك لم أكن خادماً، بل صديق البيت، لكنني كنت رغم ذلك مع الخدم) وسأل: [ماذا تريدون؟] الخادم الأكبر سناً، يُدعى إيزيدور، أجابه: [لا عليك أن تتحدث معنا في شيء، سيدتنا هي حضرة السيدة.] كما تلاحظ على الأرجح، كانوا يبجّلون برونيلدا. غير أن برونيلدا جرت إلى دِلامارش دون أن تهتم بهم، آنذاك لم تكن بدينة بعد كما هي الآن، احتضنته أمام الجميع وقبّلته وسمّته [دِلامارش الأعز ـ .] واطرد هذه القرود]، قالت أخيراً. قرود ـ الخدم قرود، تصور القصة التي عملوها. ثم سحبت برونيلدا يد دِلامارش إلى محفظة نقودها التي كانت تحملها على حزامها، أدخل دِلامارش يده في المحفظة وبدأ هكذا يدفع للخدم، ولم تشارك برونيلدا في الصرف سوى في أنها كانت تقف لدى ذلك بالمحفظة المفتوحة على الحزام. وكان ينبغي على دِلامارش

أن يدسّ يده مرات كثيرة، فقد كان يوزع النقود دون أن يحصيها ودون أن يفحص المطالب. وأخيراً قال: حيث إنكم لا تريدون التحدث معي، أقول لكم باسم برونيلدا وحدها 'انصرفوا، لكن في الحال'. وهكذا جرى تسريحهم، بعد ذلك قامت بضع دعاوى، وحتى كان على دِلامارش أن يذهب إلى المحكمة، لكنني لا أعرف عن ذلك شيئاً على وجه التحديد. فقط فور انصراف الخدم قال دِلامارش لبرونيلدا: 'الآن ليس لديك خدم إذاً؟' فقالت: 'لكن روبنسون هنا.' دِلامارش أجاب على ذلك وهو يعطيني ضربة على كتفي: 'إذاً حسناً سوف تصبح خادمنا.' وبرونيلدا ربتت على خدي، عندما تسنح الفرصة، روسمان، دع خدك تربت عليه ذات مرة. سوف تندهش، كم هذا جميل.»

«أصبحتَ إذاً خادم دِلامارش؟» قال كارل ملخّصاً.

استخلص روبنسون التأسف من السؤال وأجاب: «أنا خادم، لكن لا يلاحظ هذا سوى قلائل. ترى أنك نفسك لم تعرف هذا، رغم أنك لدينا منذ مدة. لقد رأيتَ ماذا كنت أرتدي في الليلة لديكم في الفندق. أفخر الملابس، هل يرتدي الخدم هكذا؟ لكن الموضوع هو فحسب أنه لا يجوز لي أن أخرج كثيراً، ينبغي عليّ دائماً أن أكون في متناول اليد، في المنزل ثمة دائماً ما يجب عمله. وشخص واحد هو قليل جداً للعمل الكثير. كما قد تكون لاحظت، لدينا أشياء كثيرة تتراكم في الغرفة، ما لم نتمكن من بيعه عند الانتقال الكبير، أحضرناه معنا. طبعاً كان يمكن إهداؤه، غير أن برونيلدا لا تهدي شيئاً. تصور فقط كم كان العمل كثيراً لحمل هذه الأشياء والصعود بها على الدرج.»

«روبنسون، هل قمت بحمل كل هذا وصعدت به إلى هنا؟» صاح كارل.

«من غيري إذاً؟» قال روبنسون. كان هناك أيضاً مساعد عامل، لئيم كسول، اضطررت للقيام بمعظم العمل. كانت برونيلدا تقف تحت عند السيارة، ودِلامارش كان يعطي فوق أوامر عن أين توضع الأغراض، وأنا كنت أجري على الدوام ذهاباً وإياباً. لقد استغرق الأمر مدة يومين، مدة طويلة، أليس كذلك؟ لكنك لا تعرف أبداً كم كثيرة هي الأغراض هنا في الغرفة، جميع الصناديق مليئة وخلف الصناديق يتكوم كل شيء حتى يصل إلى السقف. لو كانا استعانا ببضعة أشخاص من أجل النقل، لكان كل شيء قد انتهى بسرعة، غير أن برونيلدا لم تشأ أن تأتمن أحداً غيري. كان هذا جميلاً للغاية، لكنني آنذاك أفسدت صحتي طوال حياتي وماذا كنت أملك سوى صحتي. عندما أجهد نفسي بعض الجهد فحسب، أشعر بوخز هنا وهنا وهنا. هل تظن أن هؤلاء الصبية في الفندق، هؤلاء الضفادع النطاطة ـ ما هم إذاً سوى ذلك ـ كانوا يستطيعون أن يغلبوني في أي وقت كان، لو كنت في كامل صحتي. لكن مهما نقصني أيضاً، فإني لا أقول كلمة إلى دِلامارش وبرونيلدا، سوف أعمل طالما يكون في مقدوري أن أعمل وعندما أصبح غير قادر على العمل، سوف أستلقي وأموت، وهنا فقط، لكن

في وقت متأخر، سوف يريان أني كنت مريضاً ورغم ذلك واصلت العمل دائماً ودائماً وعملت في خدمتهما حتى لاقيت حتفي. آه روسمان»، قال في الختام وجفف عينيه في كمّ قميص كارل. بعد برهة قال: «ألا تشعر بالبرد، وأنت تقف هنا بالقميص وحده.»

«إذهب روبنسون»، قال كارل، «إنك تبكي باستمرار. لا أظن أنك مريض إلى هذا الحدّ. تبدو في صحة تامة، لكن لأنك ترقد دائماً على الشرفة، فقد رحت تتوهم أموراً شتى. ربما تصاب أحياناً بوخزة في الصدر، هذا ما أصاب به أيضاً، وكل شخص يصاب به. ولو شاء كل الناس أن يبكوا بسبب كل صغيرة وكبيرة، فلا بدّ أن يبكي الناس على جميع الشرفات.»

«أعرف الموضوع بشكل أفضل»، قال روبنسون وهو يمسح عينيه بطرف بطانيته. «الطالب الذي يسكن إلى جوارنا لدى صاحبة المنزل التي تطهو الطعام لنا ايضاً، قال لي مؤخراً عندما كنت أعيد أطباق الطعام: 'اسمع يا روبنسون، ألست مريضاً؟' كان محظوراً عليّ أن أتحدث مع الناس وهكذا وضعت الأطباق وأردت أن أنصرف. فجاء إليّ وقال: 'اسمع يا رجل، لا تدفع الأمر إلى أقصى حدّ، إنك مريض.' 'نعم إذاً من فضلك، ماذا ينبغي عليّ أن أفعل'، سألت. 'هذا هو شأنك'، قال وهو يستدير. الآخرون الذي كانوا يجلسون إلى المائدة ضحكوا، هنا لدينا أعداء في كل مكان وهكذا آثرت أن أنصرف.»

«إذاً تصدق الناس الذين يستغفلونك، ولا تصدق الناس الذين يريدون لك الخير.»

«لكن يجب أن أعرف كيف أشعر»، قال روبنسون محتدّاً، لكنه سرعان ما عاد إلى البكاء.

«إنك لا تعرف ما ينقصني، عليك أن تبحث عن أي عمل عادي بدلاً من أن تكون خادماً لدِلامارش. إذ بقدر ما أستطيع أن أحكم بناء على حكاياتك وبناء على ما رأيته بنفسي، فإن هذا العمل هنا ليس خدمة بل عبودية. ما من إنسان يستطيع أن يتحمله، إني أصدّقك. أما أنت فإنك تفكر، لا يجوز لك أن تترك دِلامارش لأنك صديقه. هذا خطأ، إذا لم ير أية حياة بائسة تعيشها، فإنه لا يعد عليك أقل التزام إزاءه.»

«تعتقد إذاً، روسمان، أني سأستعيد قواي إذا تركت الخدمة هنا.»

«بالتأكيد»، قال كارل.

«بالتأكيد؟» سأل روبنسون مرة أخرى.

«بكل تأكيد»، قال كارل مبتسماً.

«يمكنني إذاً أن أبدأ على الفور في استرداد قواي»، قال روبنسون وهو يتطلع إلى كارل.

«لماذا إذاً؟» سأل هذا.

«حسناً لأنه عليك أن تقوم هنا بعملي»، أجاب روبنسون.

«من قال لك هذا إذاً؟» سأل كارل.

«هذه خطة قديمة. عنها يجري الحديث منذ بضعة أيام. وقد بدأ الأمر بأن قامت برونيلدا بتوبيخي لأني لا أنظف الشقة بما فيه الكفاية. وطبعاً وعدتُ بأن أقوم فوراً بترتيب كل شيء. لكن حسناً هذا صعب للغاية. في حالتي لا أستطيع مثلاً أن أزحف في كل مكان لكي أمسح الغبار. حتى في وسط الغرفة لا يمكن للمرء أن يتحرك، فكيف هناك بين الأثاث والمؤن. وإذا كان المرء يريد أن ينظف كل شيء بدقة، فإن عليه أن يحرك كل قطعة أثاث من مكانها وهل عليّ أن أقوم بهذا بمفردي؟ وفوق ذلك لا بدّ لكل هذا من أن يجري بصوت منخفض للغاية، لأنه لا يجوز أن تُزعج برونيلدا، التي لا تكاد تغادر الغرفة. صحيح أنني وعدت بأني سوف أنظف كل شيء، غير أني فعلاً لم أقم بذلك. وحين لاحظت برونيلدا هذا، قالت لدِلامارش بأن الحال لا يمكن أن يستمر على هذا المنوال وبأنه يجب استخدام معاون. 'لا أريد، دِلامارش'، قالت، 'أن تلومني يوماً ما بأنني لم أقم بإدارة شؤون البيت كما ينبغي. أنا نفستي لا أستطيع أن أجهد نفسي، وأنت ترى أن روبنسون واحد لا يكفي، في البداية كان نشيطاً ويتفحص كل مكان، أما الآن فإنه متعب دائماً ويجلس أغلب الوقت في أحد الأركان. لكن حجرة مليئة بأشياء هكذا مثل حجرتنا، لا تنظف نفسها بنفسها.' بناء على ذلك فكر دِلامارش بما يمكن أن يُعمل، إذ إنه لا يمكن طبعاً استخدام أي شخص في مثل هذا المنزل، ولا حتى من أجل التجربة، فالناس يراقبوننا من كل جانب. لكن لأنني صديقك الطيب وسمعت من رِنلّ كيف أنه يتوجب عليك أن تكدّ وتعذّب نفسك في الفندق، فقد اقترحتك. ووافق دِلامارش على الفور، رغم أنك تطاولت عليه آنذاك، وأنا سررت طبعاً غاية السرور بأنه كان في وسعي أن أكون مفيداً لك. فهذا العمل بالنسبة لك، كأنه خلق من أجلك. إنك فتيّ وقوي وحاذق، في حين أني لا أساوي شيئاً بعد الآن. إلا أني أريد أن أقول لك بأنك لم تُقبل بعد، وإذا لم تُعجب برونيلدا، لا يمكننا أن نستخدمك. إذاً اجهد فقط حتى ترتاح لك، وأنا سأعتني بالبقية.»

«وماذا ستعمل إذا أصبحتُ هنا خادما؟» سأل كارل، وشعر أنه حر، حيث زال الفزع الأول الذي كانت بيانات روبنسون قد أثارته، لم يكن لدى دِلامارش إذاً نيّات سيئة معه أكثر من أن يجعله خادماً له، ـ لو كان لديه نيّات أكثر سوءاً، كان من شأن روبنسون الثرثار أن يبوح بها بالتأكيد ـ أما والحال هكذا، فإن كارل يجرؤ على أن يودّع في هذه الليلة. ليس في مقدور المرء أن يُرغم أحداً على قبول عمل. وبينما كان لدى كارل سابقاً مخاوف كافية في ما إذا سيحصل بعد تسريحه من الفندق في وقت قريب بما فيه الكفاية، لكي يكون محمياً من الجوع، على عمل مناسب ولعله يكون عملاً ليس أدنى، فقد بدا له الآن بالمقارنة مع العمل

المخطط له هنا، هذا العمل الذي كان يمقته، أن كل عمل آخر هو حسن بما فيه الكفاية، حتى إنه من شأنه أن يفضّل العوز بلا عمل بدلاً من أن يقوم بهذا العمل. لكنه لم يحاول قط أن يُفهم روبنسون هذا الوضع، لا سيما أن روبنسون كان الآن متحيزاً كل التحيز في كل حكم بناء على الأمل بأن يخفف كارل العبء عنه.

«سوف أشرح لك إذاً»، قال روبنسون وهو يرافق الحديث بحركات مريحة من يده - كان قد أسند مرفقيه إلى الدرابزين - «أولاً كل شيء وأريك المؤن. أنت متعلم وخطك جميل ولا شك، يمكنك إذاً أن تعدّ على الفور قائمة تحوي كل الأشياء التي لدينا. هذا ما ترغب فيه برونيلدا منذ مدة طويلة. إذا كان الطقس ضحى غد جميلاً، نطلب من برونيلدا أن تجلس على الشرفة وفي هذه الأثناء سوف نتمكن دون أن نضايقها من العمل في الغرفة بهدوء. إذ عليك، روسمان، أن تنتبه إلى ذلك قبل كل شيء. لا تزعج برونيلدا أبداً. وهي تسمع كل شيء، على الأرجح تملك كمغنية آذاناً مرهفة. فمثلاً تدحرج برميل الخمر من خلف الصناديق، فيحدث ضوضاء لأنه ثقيل وحوله تتراكم مختلف الأشياء ولا يمكن دحرجته دفعة واحدة. برونيلدا تستلقي مثلاً على الأريكة بهدوء وتصطاد ذبابات تزعجها بعامة غاية الإزعاج. تظن إذاً أنها لا تعيرك اهتماماً وأنت تتابع دحرجة البرميل. إنها ما زالت مستلقية بهدوء. لكن في لحظة لم تتوقعها قط وحيث إنك تسبّب أقل ما يمكن من الضوضاء، تعتدل في جلستها على حين غرّة، تضرب بكلتا يديها على الأريكة الى درجة أن المرء لا يراها من كثافة الغبار - منذ أن جئنا إلى هنا لم أنفض الأريكة، فكيف لي أن أفعل ذلك وهي تستلقي عليها دائماً وأبداً - وتبدأ بالصراخ على نحو رهيب، مثل رجل، وتستمر في الصراخ طوال ساعات. لقد منعها الجيران من الغناء، لكن ما من أحد يقدر أن يمنعها من الصراخ، لا بدّ لها من أن تصرخ، هذا، للمناسبة، لا يحدث الآن سوى مرات نادرة، أنا ودِلامارش أصبحنا حذرين للغاية. كما أن الموضوع عاد عليها بضرر كبير. ذات مرة أغمي عليها، واضطررت - كان دِلامارش قد خرج لتوّه - إلى إحضار الطالب المجاور لنا، وقد رشّ عليها سائلاً من زجاجة كبيرة، الأمر الذي ساعد أيضاً، غير أن هذا السائل كان ذا رائحة لا تطاق، وحتى الآن يشمها المرء حين يقرّب أنفه من الأريكة. الطالب هو عدونا ولا ريب، مثل الجميع هنا، عليك أنت أيضاً أن تحترس من الآخرين ولا تخالط أياً منهم.»

«روبنسون»، قال كارل، «لكن هذه الخدمة هي خدمة صعبة. لقد أوصيت بي من أجل عمل جميل.»

«لا تشغل بالك»، قال روبنسون وهو يهز رأسه بعينين مغلقتين لكي يطرد كل مخاوف كارل الممكنة، «لهذا العمل ميزات لا يقدر عمل آخر أن يقدمها لك. إنك دائماً وأبداً بجوار سيدة مثلم برونيلدا، تنام معها أحياناً في الغرفة نفسها، وهذا يجلب معه، كما تستطيع أن

تتخيل، أموراً طيبة مختلفة. وسوف يُدفع لك أجر كبير، هنا ثمة مال وفير، بصفتي صديق دِلامارش لم أحصل على شيء، فقط عندما كنت أخرج للسهرة، كانت برونيلدا تعطيني دائماً شيئاً، لكنك أنت سوف تحصل على أجر مثل خادم آخر. كما أنك لست شيئاً آخر. إلا أن الأكثر أهمية بالنسبة لك هو أنني سوف أسهّل العمل عليك كثيراً. في البداية لن أعمل شيئاً طبعاً، حتى أستردّ قواي، لكن ما أن أشفى بعض الشيء، حتى يمكنك أن تعتمد عليّ. الخدمة الحقيقية لبرونيلدا أحتفظ بها لنفسي بعامة، أي تصفيف شعر وإلباس ملابس، عندما لا يقوم دِلامارش بذلك. لن يكون عليك سوى أن تهتم بترتيب الغرفة وشراء أغراض والقيام بالأعمال المنزلية الصعبة.»

«لا روبنسون»، قال كارل، «كل هذا لا يغريني.»

«لا تقترف حماقات، روسمان»، قال روبنسون وهو قريب جداً من وجه كارل، «لا تضيّع على نفسك هذه الفرصة. كيف تحصل إذاً على عمل قريباً؟ من يعرفك؟ نحن، رجلان، عشنا تجارب كثيرة ولدينا خبرات كبيرة، تجولنا طوال أسابيع دون أن نحصل على عمل. إن الأمر ليس يسيراً، بل إنه صعب على نحو ميئوس منه.»

أومأ كارل وعجب كيف يستطيع روبنسون أن يتحدث أيضاً على نحو عقلاني. لكن هذه النصائح لم تكن ذات اعتبار بالنسبة له، لا يجوز له أن يبقى هنا، في المدينة الكبرى سوف يكون من شأنه أن يعثر على عمل صغير، فطوال الليل كانت جميع الفنادق غاصة بالناس، وهؤلاء يحتاجون إلى خدمة، في هذا الشأن بات لديه خبرة، ومن شأنه أن يتأقلم بسرعة وبدون أن يُحسّ به في فندق ما. في الفندق المقابل كان ثمة مطعم صغير تتصاعد منه موسيقى هادرة. وكان المدخل الرئيسي مغطى بستارة كبيرة صفراء وحسب كانت ترفرف أحياناً بقوة نحو الشارع وقد حركها تيار هواء. ما عدا ذلك أصبح الشارع الآن أكثر هدوءاً بكثير حقاً. كانت معظم الشرفات مظلمة، في البُعد فحسب كان ثمة ضوء مفرد هنا أو هناك، لكن ما أن تقع العين عليه برهة من الزمن، حتى ينهض الناس هناك، وفي حين كانوا يتدافعون للعودة إلى المسكن، كان رجل، بصفته آخر من تبقى على الشرفة، يمسك المصباح الكهربائي وهو يلقي نظرة أخيرة على الشارع ويطفئ الضوء.

«حسناً ها إن الليل بدأ يحلّ»، قال كارل، «إذا بقيت مدة أطول هنا، أصبح واحداً منهم.» استدار كي يزيح الستارة أمام باب الشقة. «ماذا تريد؟» قال روبنسون وهو يقف بين كارل والستارة. «أريد أن أنصرف»، قال كارل، «دعني، دعني!» «إنك لا تريد أن تزعجها»، نادى روبنسون، «حسبك، ماذا يخطر ببالك؟» وطوق عنق كارل بذراعيه، وتعلق به بكامل ثقله، أطبق بساقيه على ساقي كارل وطرحه أرضاً في لمحة. غير أن كارل كان قد تعلم بين صبية المصاعد كيف يعارك بعض الشيء، وهكذا سدّد قبضته إلى ما تحت ذقن روبنسون،

لكن على نحو خفيف وبكل رفق. بسرعة ومن غير هوادة بتاتاً لكم هذا كارل بكامل ركبته لكمة قاسية في بطنه، غير أنه شرع من ثم، ويداه على الذقن، يبكي بصوت عال، بحيث إن رجلاً من الشرفة المجاورة أمر وهو يصفق بيديه تصفيقاً حاداً «هدوء.» ظل كارل مستلقياً وهو ساكن بعض الشيء كي يبرأ من الألم الذي كانت لكمة روبنسون قد سبّبته له. أدار وجهه فحسب نحو الستارة المعلقة بهدوء وثقل أمام الغرفة المظلمة على ما يبدو. لقد بدا أن ما من أحد في الغرفة، ربما يكون دِلامارش قد خرج مع برونيلدا، وكارل بات يملك حرية تامة. وروبنسون، الذي تصرف فعلاً مثل كلب حراسة، أزيح نهائياً.

في هذه اللحظة ارتفعت من البُعد قادمة من الشارع وعلى دفعات أصوات طبول وأبواق. ونداءات متفرقة من ناس كثيرين سرعان ما تجمعت وتحولت إلى صراخ عام. أدار كارل رأسه وشاهد كيف عادت الحياة من جديد إلى جميع الشرفات. وراح ينهض على مهل، لم يكن في وسعه أن يقف منتصباً على نحو كامل واضطر إلى الاستناد بقوة على الدرابزين. على الأرصفة في الأسفل كان صبية يسيرون بخطوات كبيرة وأيد ممدودة، وهم يرفعون قبعاتهم في أيديهم، ويديرون وجوهم إلى الوراء. كان وسط الشارع ما زال خالياً. وكان بعض الأفراد يلوّحون بفوانيس من الورق على قضبان عالية يحيطها دخان أصفر اللون. هنا ظهر إلى النور قارعو الطبول ونافخو الأبواق ينتظمون في صفوف عريضة وأدهشت كثرتهم كارل، وهنا سمع أصواتاً من وراءه، فاستدار ورأى دِلامارش وهو يرفع الستارة الثقيلة ومن ثم برونيلدا قادمة من الغرفة المظلمة، وهي ترتدي الثوب الأحمر وتلفّ كتفيها بوشاح من الدانتلة وتضع قلنسوة صغيرة داكنة على شعرها غير المسرّح على الأرجح والمجموع فحسب والذي كانت أطرافه تبرز أحياناً. كانت تحمل في يدها مروحة صغيرة مفتوحة، لكنها لم تكن تحركها بل كانت تضغطها على صدرها.

دفع كارل نفسه على طول الدرابزين جانباً، لكي يفسح مكاناً للاثنين. يقيناً لن يعمد أحد لإرغامه على البقاء هنا، وحتى لو حاول دِلامارش أن يقوم بذلك، فإن من شأن برونيلدا أن تدعه يذهب في الحال بناء على طلبه. فهي لم تقدر أن تحتمله أبدا، وذعرت من عينيه. إلا أنه حين تقدم خطوة نحو الباب، لاحظت ذلك وقالت: «إلى أين إذاً أيها الصغير؟» وتوقف كارل أمام نظرات دِلامارش الصارمة وبرونيلدا جذبته نحوها. «ألا تريد أن تشاهد الموكب في الأسفل؟» قالت وهي تدفعه أمامها إلى الدرابزين. «هل تعرف ما الموضوع؟» سمعها كارل تقول وراءه وقام دون نجاح بحركة لا إرادية للتخلص من ضغطها. ونظر في حزن إلى الشارع وكأن هناك يكمن سبب حزنه.

وقف دِلامارش أولاً خلف برونيلدا وهو يشبك ذراعيه، من ثم جرى إلى الغرفة وجلب المنظار لبرونيلدا. في الشارع ظهر القسم الرئيسي للموكب خلف الموسيقيين. على كتفي رجل

عملاق كان يجلس سيد لم يكن يرى منه من هذا الارتفاع سوى صلعته اللامعة على نحو شاحب، وكان يرفع فوقها قبعته الأسطوانية بالتحية على نحو متواصل. وحوله كانت ترتفع على ما يبدو لافتات خشبية كانت تظهر للناظر من الشرفة بيضاء كلياً؛ وكان التنظيم قد وُضع بطريقة تقضي بأن تستند هذه اللافتات كما يبدو على السيد، الذي كان يبرز في وسطها عالياً. ولأن كل شيء كان يتحرك، فإن هذا الجدار من اللافتات راح ينفكّ وينتظم من جديد على الدوام. في المحيط الأبعد حول السيد كان الشارع العريض بكامله، وإن كان ذلك، بقدر ما كان يمكن للمرء أن يقدّر في الظلام، على امتداد غير ذي أهمية، مكتظاً بأنصار السيد، الذين كانوا جميعهم يصفقون بأيديهم وهم يهتفون في إيقاع غنائي على الأرجح باسم السيد، وهو اسم قصير لكن غير مفهوم. بعض الأفراد، الذين كانوا موزعين بمهارة بين الجموع، كانوا يحملون مصابيح سيارات ذات ضوء ساطع جداً يسلطونها إلى أعلى وأسفل واجهات المنازل على جانبي الشارع. على ارتفاع كارل لم يكن الضوء يضايق، لكن على الشرفات السفلى كان المرء يرى الناس الذين يقع عليهم الضوء، يسرعون في وضع أيديهم على عيونهم.

استفسر دِلامارش بناء على طلب برونيلدا من الناس على الشرفة المجاورة عن الموكب. وكان لدى كارل بعض الفضول عما إذا كانوا سيجيبون وماذا يجيبون. وفعلاً توجب على دِلامارش أن يسأل ثلاث مرات دون أن يتلقى جواباً. وانحنى فوق الدرابزين على نحو خطر، مغتاظة من جيرانها خبطت برونيلدا الأرض برجلها خبطة خفيفة، وأحس كارل ركبتها. أخيراً جاء جواب ما، لكن في الوقت نفسه شرع الجميع على هذه الشرفة التي كانت مكتظة بالناس يضحكون بصوت عال. هنا صرخ دِلامارش بشيئ ما باتجاهم بصوت عال جداً الى درجة أنه كان لا بدّ أن يرهف الجميع في الجوار آذانهم وهم في دهشة، لو لم تكن الضوضاء تسود في هذه اللحظة الشارع بكامله. على كل حال كان تأثير ذلك أن الضحك سرعان ما توقف على نحو غير طبيعي.

«سوف يُنتخب غداً قاض في منطقتنا، وهذا الذي يحملونه هو مرشح»، قال دِلامارش بهدوء تام وهو يعود إلى برونيلدا. «لا!» نادى من ثم وهو يربت على ظهر برونيلدا تدليلاً وملاطفة، «لم نعد نعرف ماذا يجري في العالم.»

«دِلامارش»، قالت برونيلدا وهي تعود إلى سلوك الجيران، «كم بودّي أن أنتقل من هنا، لولم يكن الأمر مرهقاً. لكن لا يجوز لي مع الأسف أن أتوقع أن أتمكن من ذلك.» وبتنهيدات كبيرة وشرود وتململ راحت تداعب قميص كارل، الذي راح يحاول على نحو لا يكاد يُحسّ به أن يدفع عنه هاتين اليدين الصغيرتين البدينتين، الأمر الذي تمّ له بسهولة، إذ إن برونيلدا لم تكن لتفكر به، بل كانت تشغلها أفكار أخرى مغايرة كلياً.

بيد أن كارل أيضاً سرعان ما نسي برونيلدا وصبر على ثقل ذراعيها على كتفيه، فالأحداث في الشارع كانت تشغله كثيراً. بتوجيه من مجموعة صغيرة من رجال يلوّحون بأيديهم، ويسيرون أمام المرشح والذين لا بدّ أن تكون أحاديثهم ذات أهمية خاصة، حيث إن المرء كان يرى من كل الجهات وجوهاً منصتة تتجه إليهم، توقف الموكب على نحو غير متوقع أمام المطعم. أحد هؤلاء الرجال ذوي الشأن أعطى بيد مرفوعة إشارة موجهة إلى الحشد كما هي موجهة إلى المرشح أيضاً. لاذ الجمع بالصمت، والمرشح، الذي حاول مرات عديدة أن يقف على كتفي حامله وفي كل مرة كان يرتد إلى الجلوس، ألقى خطاباً قصيراً بينما كان يلوّح بقبعته الأسطوانية بسرعة خاطفة. كان المرء يرى هذا بكل وضوح، إذ إن جميع مصابيح السيارات كانت مسلطة عليه أثناء إلقائه خطابه، لقد كان في وسط نجم ساطع.

بيد أن المرء أدرك الآن أيضاً الاهتمام الذي أبداه الشارع بكامله بالحدث. على الشرفات، التي كان يشغلها أنصار المرشح، شارك الناس في التغني باسمه وراحوا يصفقون على نحو آليّ بأيديهم الممدودة طويلاً فوق الدرابزينات. على بقية الشرفات، وهي التي كانت الأكثرية، تصاعد غناء مضاد قوي، إلا أنه لم يكن ذا تأثير موحد، فقد كان الناس أنصار مرشحين متنوعين. غير أن جميع خصوم المرشح الحاضر اتحدوا في صفير واحد عام، بل جرى إعادة تشغيل غراموفونات. بين بعض الشرفات نشأت نزاعات سياسية بانفعال عززته هذه الساعة من الليل. كان معظم الناس يرتدون ملابس النوم وقد تلفعوا فحسب بمعاطف، كانت النساء تتلفع بمفارش غامقة كبيرة، وكان الأطفال الذين لا يؤبه بهم يتسلقون على نحو يثير الخوف على أطر الشرفات ويخرجون في أعداد تتكاثر من الغرف المظلمة، التي كانوا قد أخلدوا فيها إلى النوم. بين الحين والآخر كانت أشياء لا يمكن تمييز ماهيتها تلقى لا سيما من قبل معربدين في اتجاه خصومهم، وأحياناً كانت هذه الأشياء تصل إلى أهدافها، غير أنها كانت في الغالب تسقط إلى الشارع، حيث كانت غالباً ما تثير صيحات غضب. وإذا ساء حال الرجال الكبار تحت الضوضاء، كان قارعو الطبول ونافخو الأبواق يكلفون بالتدخل، فكان دويّهم المؤلم الصادر بكل قوة والذي لا ينتهي، يطغى على كافة الأصوات البشرية حتى أسطح المنازل. ودائماً وفجأة تماماً ـ لا يكاد هذا يصدق ـ كانوا ينقطعون، فيعود الحشد المدرّب على ما يبدو، إلى الهدير بغنائه الحزبي في الهدوء العام السائد برهة قصيرة ـ كان المرء يرى في ضوء مصابيح السيارات فم كل فرد مفتوحاً إلى أقصاه ـ حتى يقوم الخصوم، الذين كانوا قد ثابوا إلى صوابهم في هذه الأثناء، بالصراخ بشدة أكثر من السابق بعشر مرات من جميع الشرفات والنوافذ، ويُخرسون الطرف في الشارع بعد نصره القصير خرساً تاماً بالنسبة لهذا الارتفاع على الأقل.

«كيف يعجبك الأمر، أيها الصغير؟» سألت برونيلدا، التي راحت تدور ذهاباً وإياباً

خلف كارل وبالقرب منه، وذلك كي تشاهد بالمنظار كل شيء ما أمكن. لم يجب كارل سوى بإيماءة من رأسه. عرَضاً لاحظ كيف يقوم روبنسون بتقديم بيانات مختلفة حول تصرف كارل على ما يبدو، لكن بدا أن دِلامارش لا يعلق عليها أهمية، فقد كان يحاول دائماً، وهو يطوق برونيلدا باليمنى، أن يدفع روبنسون باليسرى. «ألا تريد أن تنظر بالمنظار؟» سألت برونيلدا وهي تربت على صدر كارل، كي تبيّن أنها تقصده.

«إنني أرى بما فيه الكفاية»، قال كارل.

«فلتحاول»، قالت، «سوف ترى على نحو أفضل.»

«لي عينان جيدتان»، ردّ كارل، «إني أرى كل شيء.»

لم يستشعر الأمر لطفاً وإيناساً بل مضايقة حينما قرّبت المنظار من عينيه، وحقاً لم تقل الآن شيئاً آخر سوى كلمة «أنت!» بصيغة المفرد منغّمة، لكن متوعدة. وفي الحال كان المنظار على عيني كارل، الذي لم ير الآن شيئاً فعلاً.

«إني لا أرى شيئاً»، قال وأراد أن يتخلص من المنظار، لكنها كانت تمسك المنظار، ولم يكن في وسع كارل أن يحرك رأسه الموسّد على صدرها لا إلى الوراء ولا إلى الجانب.

«لكن الآن أصبحت ترى»، قالت وهي تدير مفتاح تعيير المنظار.

«لا، ما زلت لا أرى شيئاً»، قال كارل وفكر أنه إنما خفف الآن عن روبنسون حقاً، فقد أسقطت نزوات برونيلدا التي لا تطاق عليه الآن.

«متى سترى أخيراً؟» قالت وهي تواصل تدوير مفتاح التعيير، وقد بات الآن وجه كارل بكامله معرضاً لتنفسها الثقيل.

«لا، لا، لا»، نادى كارل رغم أنه كان قد تمكن الآن فعلاً من أن يميز كل شيء، وإن كان ذلك على نحو غائم للغاية. لكن في هذه اللحظة كانت برونيلدا تعمل شيئاً ما مع دِلامارش، وكانت تمسك المنظار أمام وجه كارل على نحو غير ثابت، واستطاع كارل أن ينظر إلى الشارع من تحت المنظار دون أن تلاحظ ذلك بوجه خاص. بعد ذلك لم تعد تتمسك بمشيئتها وراحت تستخدم المنظار بنفسها.

من المطعم في الأسفل كان نادل قد خرج وراح يتلقى طلبيات قادة الموكب وهو يسرع ذهاباً وإياباً على عتبة الباب. كان المرء يرى كيف كان يشرئب بعنقه كي يشمل بنظرته داخل المطعم ويستدعي كثيرين من النُدُل إن أمكن. في غضون هذه الإعدادات لتقديم شراب جماعي بالمجان على ما يبدو، لم يتوقف المرشح عن الكلام. وكان حامله، الرجل العملاق الذي يخدمه وحده، يستدير دائماً دورة صغيرة بعد كل بضع جمل، لكي يوصّل الخطاب إلى

كل أنحاء الجمهور. وكان المرشح يقي نفسه أكثر الوقت محني الظهر ويحاول بحركات اليد الطليقة المرة بعد المرة وبالقبعة في اليد الأخرى أن يعطي كلماته أكثر ما يمكن من التأثير والإقناع. غير أنه كان يواصل كلامه أحياناً على فترات تكاد تكون منتظمة، كان ينهض وهو يفرد ذراعيه على امتدادهما، ولم يعد يخاطب مجموعة واحدة، بل الحشد برمّته، وراح يتحدث إلى ساكني المنازل حتى أعلى الطوابق، ورغم ذلك كان الأمر جلياً على نحو كامل بأن ما من أحد حتى في الطوابق السفلى كان يستطيع أن يسمعه، لا بل بأن ما من أحد كان يريد أن يسمعه ولو كانت الإمكانية متاحة له، إذ إن كل نافذة وكل شرفة كان يحتلها على الأقل خطيب واحد يقوم بالصياح. في هذه الأثناء كان بعض النُدُل قد أخرجوا من المطعم لوحاً، بحجم طاولة بلياردو، عليه كؤوس لامعة مترعة. قام الأدلاّء بتنظيم التوزيع، الذي تمّ على شكل مرور بباب المطعم. لكن رغم أن الكؤوس على اللوح كانت تملأ المرة بعد المرة، فإنها لم تكف الجمع، وتوجب على فرقتين من السقاة الصغار التسلل إلى يمين اللوح ويساره لمواصلة تموين الجمع. وكان المرشح قد توقف طبعاً عن الخطابة واستخدم فترة الاستراحة لاستعادة نشاطه من جديد. على مسافة من الجمع ومن الضوء الساطع راح حامله يسير به على مهل ذهاباً وإياباً وفقط بعض أنصاره المقربين راحوا يرافقونه هناك ويتحدثون إليه من الأسفل إلى الأعلى.

«انظر الصغير»، قالت برونيلدا، «من كثرة النظر ينسى أين هو.» وفاجأت كارل وأدارت وجهه إليها بكلتا يديها، حتى نظرت في عينيه. إلا أن هذا لم يستغرق سوى لحظة واحدة، إذ إن كارل نفض يديها في الحال، ومنزعجاً من أن أحداً لم يدعه وشأنه فترة قصيرة وفي الوقت نفسه أن يذهب إلى الشارع برغبة طاغية ومشاهدة كل شيء عن كثب، حاول الآن بكل قوة أن يتخلص من ضغط برونيلدا وقال:

«من فضلك دعيني أنصرف.»

«سوف تبقى لدينا»، قال دِلامارش دون أن يحوّل نظره عن الشارع، ومدّ يداً فحسب لكي يمنع كارل من الانصراف.

«اترك فقط»، قالت برونيلدا وهي تصدّ يد دِلامارش، «سيبقى بطبيعة الحال.» وضغطت كارل بشدة أكثر إلى الدرابزين، وكان عليه أن يتعارك معها لكي يتخلص منها. وإذا ما تمّ له ذلك، فماذا كان من شأنه أن يحقق بهذا. على يساره كان يقف دِلامارش، وعلى يمينه وضع الآن روبنسون نفسه، لقد بات في سجن بمعنى الكلمة.

«كن مسروراً أنك لم تطرد»، قال روبنسون وهو يدقّ على كارل بيده التي كان قد دسّها تحت ذراع برونيلدا.

«طرد؟» قال دِلامارش. «لا يطرد المرء لصاً هارباً، بل يسلمه إلى الشرطة. وهذا يمكن أن يجري له صباح غد، إن هو لم يلزم الهدوء على نحو كامل.»

اعتباراً من هذه اللحظة لم يعد كارل يبتهج بالمشهد تحته. مرغماً فحسب، إذ لم يكن في وسعه أن يقف منتصباً بسبب برونيلدا، انحنى قليلاً فوق الدرابزين. مفعماً بهمومه الخاصة به، وبنظرات شاردة راح ينظر إلى الناس في الأسفل، الذين كانوا يتقدمون في جماعات تتألف كل منها من نحو عشرين رجلاً، وهم يمسكون كؤوسهم بأيديهم، يستديرون ويرفعون هذه الكؤوس في اتجاه المرشح المشغول الآن بنفسه، يهتفون تحية حزبية، يفرغون الكؤوس، يضعونها على اللوح ثانية، بصوت مدوّ على كل حال، لكن غير مسموع في هذا الارتفاع، لكي يفسحوا المكان لمجموعة جديدة صاخبة لنفاد صبرها. بتكليف من الأدلاّء كانت الفرقة الموسيقية التي كانت تعزف في المطعم، قد خرجت إلى الشارع، وكانت آلات العزف الكبيرة تلمع من الحشد القاتم، لكن عزفها كاد يتبدد في الضوضاء العامة. كان الشارع الآن ما زال مزدحماً بالناس، على الأقل في الجانب الذي يتواجد فيه المطعم. من الأعلى، من حيث كان كارل قد أتى بالسيارة في الصباح، كانوا يتدفقون هابطين؛ من الأسفل، من الجسر كانوا يجرون صاعدين إلى الأعلى، وحتى الناس في المنازل لم يتمكنوا من مقاومة إغراء المشاركة الشخصية في هذه المسألة، في الشرفات وفي النوافذ لم يكن قد بقي سوى النساء والأطفال تقريباً، في حين كان الرجال يتدفقون من أبواب المنازل. لكن كانت الموسيقى وكان تقديم الشراب قد حققا الغرض، كان الحشد كبيراً بما فيه الكفاية، وكان دليل من الأدلاّء يحيط به مصباحا سيارة قد أشار إلى الموسيقى بالتوقف، أطلق صفرة قوية، والآن رأى المرء الحاملَ التائه عن طريقه بعض الشيء مقبلاً على عجل وهو يحمل المرشح عبر طريق شقّه الأنصار.

ما كاد يصل إلى باب المطعم، حتى شرع المرشح بإلقاء خطابه الجديد، في ضوء مصابيح السيارات المرفوعة حوله. لكن الآن كان كل شيء أكثر صعوبة من السابق، فالحامل لم يعد لديه أقل حرية حركة، والازدحام كان كبيراً. الأنصار الأكثر قرباً، الذين كانوا قد حاولوا سابقاً بكل الوسائل الممكنة تعزيز تأثير خطب المرشح، باتوا يلقون مشقة في البقاء بالقرب منه، ربما تمسك نحو عشرين مع كل جهد بالحامل. لكن حتى هذا الرجل القوي لم يعد في وسعه أن يقوم بخطوة حسب إرادته، لم يعد من الممكن القيام بتأثير على الحشد بدوران ما أو تقدم مناسب إلى الأمام أو تراجع إلى الوراء. كان الحشد يجري دون خطة، أحدهم فوق الآخر، ما من أحد كان يقف منتصباً، وبدا أن عدد الخصوم زاد زيادة كبيرة من خلال جمهور جديد، توقف الحامل مدة طويلة بالقرب من باب المطعم، والآن على ما يبدو ترك نفسه ينجرف دون مقاومة إلى أعلى وإلى أسفل الشارع، المرشح واصل خطابه، لكن الأمر لم يعد واضحاً كل الوضوح فيما إذا كان يشرح برنامجه أم كان يطلب مساعدة، وإذا

صدق الحدس، فإن مرشحاً منافساً قد حضر، أو حتى عدة مرشحين، إذ كان يُرى أحياناً في ضوء ما قد سطع فجأة رجل يرفعه الحشد وهو شاحب الوجه مكوّراً قبضتيه يلقي خطاباً ترحب به نداءات متعددة الأصوات.

«ماذا يجري هنا؟» سأل كارل واستدار في ارتباك متقطع الأنفاس إلى حراسه.

«كم أن الأمر يثير الصغير؟» قالت برونيلدا إلى دِلامارش وأمسكت كارل من ذقنه، كي تجذب رأسه نحوها. إلا أن كارل لم يكن يريد هذا وانتفض، وقد حوّلته الأحداث في الشارع أقل مراعاة، بقوة إلى درجة أن برونيلدا لم تتركه فحسب، بل تراجعت وأخلت سبيله كلياً. «الآن شاهدتَ بما فيه الكفاية»، قالت، وقد أغاظها سلوك كارل على ما يبدو، «ادخل إلى الغرفة، رتّب الفراش وجهّز كل شيء لليل.» مدّت يدها نحو الغرفة. وكان هذا هو الاتجاه الذي كان كارل يريد أن يأخذه منذ ساعات عدة، فلم يعترض بكلمة. هنا سُمع من الشارع طقطقة زجاج كثير تتطاير شظاياه. لم يتمكن كارل من كبح جماح نفسه وقفز بسرعة نحو الدرابزين، كي يلقي نظرة عابرة على الشارع مرة أخرى. اعتداء الخصوم، وربما اعتداء حاسم كان قد نجح، مصابيح السيارات التابعة للأنصار، التي كانت قد دعت الأحداث الرئيسية على الأقل تجري أمام الجمهور بكامله وبهذا أبقت كل شيء في حدود محدودة، كانت برمّتها وفي الوقت نفسه قد جرى تهشيمها، والآن بات المرشح وحامله تحت الإضاءة المشتركة غير المضمونة، والتي كان لها، في انتشارها المفاجئ تأثير ظلام حالك. وما كان في وسع المرء الآن أن يقول أين يتواجد المرشح ولو على نحو تقريبي. وما يخدع في الظلام ازداد نتيجة غناء موحد شامل انطلق الآن قادماً من الأسفل، من الجسر وراح يقترب.

«ألم أقل لك ما يجب عليك أن تفعله»، قالت برونيلدا، «أسرع. إني متعبة»، أضافت وهي تمد ذراعيها إلى الأعلى، بحيث برز صدرها إلى الأمام أكثر بكثير مما كان عليه. دِلامارش، الذي كان ما زال يطوقها، سحبها معه إلى ركن من الشرفة. وتبعهما روبنسون كي ينحّي جانباً بقايا طعامه التي كانت ما زالت هناك.

كان على كارل أن يستغل هذه الفرصة المناسبة، والآن ما من وقت للنظر إلى الأسفل، سوف يرى بما فيه الكفاية من الحوادث التي تجري في الشارع وأكثر مما يرى هنا من فوق. في قفزتين هرع عبر الحجرة المضاءة إضاءة ضاربة للحمرة، إلا أن الباب كان موصداً والمفتاح كان مسحوباً.. كان يجب الآن العثور عليه، لكن من كان يريد أن يجد مفتاحاً في هذه الفوضى وفي الوقت القصير الثمين الذي يقع تحت تصرف كارل. كان عليه الآن في الحقيقة أن يكون على الدرج، كان عليه أن يجري ويجري. والآن راح يبحث عن المفتاح! بحث عنه في كل الأدراج المفتوحة، وفتّش على الطاولة حيث كانت تتراكم أدوات طعام متنوعة ومناشف

وتطريزات بدئ العمل بها، وجذبه مقعد ذو مساند، تكومت عليه كومة من قطع الملابس العتيقة الملتفة والمتشابكة مع بعضها بعض والتي يمكن أن يكون المفتاح فيها لكن دون أن يمكن العثور عليه بأي حال من الأحوال، وألقى بنفسه أخيراً على الأريكة، التي تفوح منها رائحة كريهة فعلاً، لكي يبحث عن المفتاح في كل الزوايا والثنايا. ثم أقلع عن البحث وتوقف في وسط الحجرة. لا ريب أن برونيلدا تثبّت المفتاح في حزامها، قال في ذات نفسه، هناك كانت أشياء كثيرة معلقة، كل بحث كان بلا جدوى.

وبلا تبصّر أمسك كارل سكّينين غمدهما بين مصراعي الباب، واحدة في الأعلى والأخرى في الأسفل، وذلك كي يحصل على نقطتي ضرب متباعدتين عن بعضهما. وما كاد يسحب السكينين حتى انكسر نصلاهما طبعاً. لم يكن يريد شيئاً آخر غير ذلك، بقية النصلين التي بات في وسعه الآن أن يُدخلها بقوة أكثر، سوف تقاوم بشكل أفضل. والآن راح يسحب بكل قوة، فارداً ذراعيه، مثبتاً قدميه المتباعدتين، متأوهاً ومنتبهاً إلى الباب كل انتباه. هذا الباب الذي لن يستطيع أن يقاوم على الدوام، هذا ما أدركه في فرح من تراخي المزلاج المسموع بوضوح، لكن كلما كان الأمر يجري ببطء أكثر، كان الأمر أكثر صحة، لا يجوز طبعاً أن يتشقق القفل أبداً، وإلا فإنهم سينتبهون على الشرفة، عليه أن يتفكك ببطء، وهذا ما كان كارل يسعى إليه بكل حذر، وعيناه تقتربان من القفل دائماً أكثر وأكثر.

«انظروا»، سمع صوت دِلامارش. كان الثلاثة يقفون في الغرفة، وكانت الستارة قد أسدلت وراءهم، لا بدّ أن كارل لم يكن قد سمع صوت مجيئهم، سقطت منه يداه لدى رؤية السكينين. لكن لم يكن لديه وقت لكي يقول أية كلمة إيضاحاً أو اعتذاراً، إذ إن دِلامارش قفز في نوبة غضب تتجاوز المسألة الراهنة ـ كان حزام روبه المفكوك قد طار في الهواء ورسم شكلاً كبيراً ـ على كارل. تنحى كارل في اللحظة الأخيرة متجنباً الهجوم، كان في وسعه أن يسحب السكينين من الباب ويستخدمهما للدفاع، لكنه لم يفعل، إلا أنه مدّ يده، وهو ينحني ويقوم بسرعة، وأمسك بياقة روب دِلامارش العريضة ورفعها إلى الأعلى، واستمر في سحبها عالياً ـ كان الروب كبيراً جداً على دِلامارش ـ وبات الآن يمسك وهو مسرور برأس دِلامارش، الذي راح، وقد فوجئ مفاجأة كبرى، يلوّح بيديه أولاً وقد عُمي، وفقط بعد برهة وجيزة، لكن ليس بتأثير كامل بعد، راح يضرب بقبضتيه على ظهر كارل، الذي كان، لكي يحمي وجهه، قد ألقى بنفسه على صدر دِلامارش. تحمّل كارل اللكمات، وإن راح يتلوى من الألم، وإن راحت اللكمات تزداد قوة، لكن كيف كان عليه أن لا يحتمل هذا، فقد كان يرى النصر أمامه. اليدان على رأس دِلامارش، الإبهامان فوق عينيه مباشرة، ساقه أمامه نحو أسوأ فوضى أثاث وحاول فوق ذلك أن يلف برجليه حزام الروب على قدمي دِلامارش وأن يسقطه أيضاً هكذا على الأرض.

لكن لأنه كان عليه أن ينشغل بدِلامارش كل الانشغال، لا سيما أنه شعر أن مقاومة هذا هي في ازدياد مستمر وأن هذا الجسم العدائي الذي يزداد قوة ويقاومه دائماً أكثر، نسي فعلاً أنه ليس وحيداً مع دِلامارش. لكن سرعان ما جرى تذكيره بذلك، إذ فجأة خذلته قدماه اللتان ضغطهما روبنسون عن بعضهما وهو يصرخ، بعد أن كان قد ألقى بنفسه خلفه على الأرض. لاهثاً ترك دِلامارش، الذي تراجع خطوة. وكانت برونيلدا تقف بكامل عرضها في وسط الحجرة بساقين منفرجتين إلى حد بعيد وركبتين محنيتين وراحت تتابع الأحداث بعينين متألقتين. وكأنها تشارك فعلاً في العراك، كانت تتنفس في عمق، تسدد نظراتها بانتباه، وتدع قبضتيها تتقدمان ببطء. أنزل دِلامارش ياقته وعاد إلى الرؤية، وبعد الآن لم يعد يوجد طبعاً عراك، بل مجرد عقاب. أمسك كارل من قميصه في الأمام، رفعه عن الأرض تقريباً، ودون أن ينظر إليه، ازدراء له، قذفه في غاية العنف على خزانة على شكل صندوق تبعد بضع خطوات، بحيث إن كارل ظن في اللحظة الأولى أن الآلام المبرّحة في الظهر وعلى الرأس التي أحدثها الاصطدام بالخزانة هي من يد دِلامارش مباشرة. «يا وغد»، سمع في الظلام الذي نشأ أمام عينيه المرتعشتين دِلامارش يصيح عالياً. وفي الإعياء الأول الذي تهاوى فيه أمام الصندوق، رنّ في أذنيه بوهن كلمتا «انتظر فحسب.»

حين عاد إلى وعيه، كان يحيط به ظلام تام، كان يمكن أن يكون الوقت متأخراً في الليل، من الشرفة كان شعاع شاحب خفيف من ضوء القمر يتسلل إلى الغرفة من تحت الستارة. كانت تُسمع الأنفاس الهادئة للنائمين الثلاثة، وكانت الأنفاس الأعلى صوتاً بكثير هي أنفاس برونيلدا، كانت تلهث وتشخر في نومها، كما كانت تفعل أحياناً في حديثها؛ إلا أنه لم يكن من اليسير التثبت من الوجهة التي كان النائمون المفردون يتواجدون فيها، فقد كانت الحجرة برمّتها مليئة بهدير أنفاسهم. وفقط بعد أن تفحص محيطه بعض الشيء، فكر كارل بنفسه وهنا أصيب بهلع كبير، إذ ولو أنه كان يشعر بأنه خائر القوى ومتصلب نتيجة الآلام، فإنه لم يفكر بأنه إنما قد أصيب إصابة دامية شديدة. لكن الآن كان ثمة ثقل في رأسه، وعلى كامل وجهه ورقبته وصدره تحت القميص كان مبللاً كما بدم. كان عليه أن يذهب إلى الضوء كي يتأكد من حالته، ربما يكونون قد أوسعوه ضرباً حتى بات مشوهاً، من ثم فإن من شأن دِلامارش أن يودّ إطلاق سراحه، لكن ماذا عليه أن يعمل، من ثم لم يعد يوجد فعلاً آمال بالنسبة له. وورد على ذهنه الصبي ذو الأنف الأفطس في مدخل الباب ووضع وجهه للحظة بين راحتيه.

على نحو غير إرادي توجه صوب الباب وتلمس طريقه إليه وهو على أطرافه الأربعة. وما لبث أن لمس برؤوس أصابعه حذاء ثم ساقاً. كان هذا روبنسون، فمن ينام غيره منتعلاً حذاءه؟ كانا قد أمراه بأن يستلقي أمام الباب بالعرض، لكي يحول دون فرار كارل. لكن ألم يكونوا

يعرفان حالة كارل؟ حالياً لم يكن يفكر بالفرار بأي حال، كان يريد فقط أن يصل إلى الضوء. وإذا كان لا يستطيع إذاً أن يخرج من الباب، فعليه أن يخرج إلى الشرفة.

طاولة الطعام وجدها في موضع مغاير كلياً على ما يبدو لموضعها في المساء، والأُريكة، التي راح كارل يقترب منها باحتراس شديد طبعاً، كانت خالية على نحو مفاجئ، على عكس ذلك عثر في وسط الغرفة على ملابس وبطانيات وستائر ووسائد وسجادات متراكمة فوق بعضها وإن كانت مضغوطة. وفكر في البداية بأن الأمر هو مجرد كومة صغيرة، مثل الكومة التي كان قد وجدها في المساء على الأريكة، تلك الكومة التي قد تكون سقطت على الأرض، لكن لدهشته لاحظ لدى مواصلة زحفه أن هنا ثمة حمولة سيارة كاملة من مثل هذه الأشياء، التي أخرجت على الأرجح من أجل الليلة من الصناديق، حيث كانت محفوظة أثناء النهار. زحف حول الكومة وسرعان ما أدرك أن المجموع إنما كان يشكل نوعاً من الفراش يرقد فوقه في الأعلى، كما اقتنع من خلال تلمس حذر، دِلامارش وبرونيلدا.

بات يعلم إذاً أين كان الثلاثة ينامون واندفع الآن كي يصل إلى الشرفة. كان عالم مغاير كلياً، ذلك الذي نهض فيه الآن بسرعة خارج الستارة. في هواء الليل المنعش، تحت ضوء القمر المكتمل، راح يمشي على الشرفة بضع مرات ذهاباً وإياباً. تطلع إلى الشارع، كان هادئاً تماماً، من المطعم كانت موسيقى ما زالت تنبعث إلى الخارج، لكن على نحو هادئ فقط، أمام الباب كان رجل يكنس الرصيف، في الشارع، الذي لم يكن في مقدور المرء عند المساء أن يميّز داخل الضوضاء العامة الفوضوية صياح مرشح الانتخابات من ألف صوت آخر، بات المرء يسمع الآن بوضوح صوت المكنسة على بلاط الشارع.

ونبّه كارل تحريكُ منضدة على الشرفة المجاورة، كان أحدهم يجلس هناك ويدرس. كان شاباً بلحية صغيرة مدببة، راح يفتلها باستمرار أثناء القراءة التي كان يرافقها بحركات شفاه سريعة. كان يجلس متجهاً بوجهه نحو كارل إلى منضدة صغيرة مغطاة بكتب. وكان قد تناول المصباح الكهربائي من السور ووضعه بين كتابين ضخمين وبات الآن مضاء إضاءة كلية من ضوئه الساطع الذي يبهر الأعين.

«طاب مساؤك»، قال كارل، إذ كان يظن أنه لاحظ بأن الشاب كان قد نظر باتجاهه.

لكن لا بدّ أن يكون هذا خطأً، إذ إن الشاب بدا أنه لم يكن قد لاحظه إطلاقاً، فوضع يده على عينيه كي يحجب الضوء ويتبيّن من ألقى عليه التحية فجأة، وإذ لم ير شيئاً بعد، رفع المصباح كي يضيء به شرفة الجيران بعض الإضاءة.

«طاب مساؤك»، قال من ثم بدوره، نظر طوال لحظة نظرة ثاقبة نحو كارل وأضاف من ثم: «وماذا بعد ذلك؟»

«أضايقك؟» سأل كارل.

«لا ريب، لا ريب»، قال الشاب وهو يعيد المصباح إلى مكانه السابق.

لكن بهذه الكلمات كان قد تمّ رفض أي اتصال، غير أن كارل رغم ذلك لم يغادر زاوية الشرفة التي كان فيها أقرب ما يكون من الرجل. بصمت راح يرقب كيف كان الرجل يقرأ في كتابه، يقلّب الصفحات، وأحياناً يفتح كتاباً آخر يكون قد أمسكه بسرعة البرق ويراجع فيه شيئاً ما ويدوّن غالباً ملاحظات في دفتر، وهو يخفض وجهه على نحو مفاجئ دائماً إلى الدفتر.

في ما إذا كان هذا الرجل ربما طالباً؟ كان الأمر يبدو كلياً وكأنه يدرس. ليس شيئاً آخر كثيراً ـ الآن مضى على ذلك وقت طويل ـ كان كارل يجلس في البيت إلى طاولة الوالدين وقد كتب وظائفه المدرسية، بينما كان الوالد يقرأ الجريدة أو ينجز حسابات أو مراسلات أحد النوادي والوالدة تقوم بخياطة وتسحب الخيط عالياً من القماش. لكي لا يزعج الوالد كان كارل لا يضع على الطاولة سوى الدفتر وأدوات الكتابة، في حين كان يرتّب الكتب اللازمة يميناً ويساراً على المقاعد. كم كان الوضع هناك هادئاً! وكم كان من النادر أن يجيء ناس غرباء إلى تلك الغرفة! منذ أن كان طفلاً كان كارل يحب أن يراقب عندما كانت الوالدة عند المساء تغلق باب المسكن بالمفتاح. لم يكن لديها أية فكرة عن أن الأمر بلغ الآن بكارل أنه بات يبحث عن فتح أبواب غريبة بسكاكين.

وأي هدف كان لكل دراسته بكاملها؟ لقد نسي حقاً كل شيء؛ لو كان من شأن الأمر أن يتعلق بمتابعة دراسته هنا، لكان من شأن هذا أن يكون عسيراً عليه كل العسر. وتذكر أنه كان ذات مرة مريضاً طوال شهر ـ كم كلفه هذا من جهد آنذاك، حتى يجد طريقه بعد ذلك مرة أخرى في الدراسة المنقطعة. والآن لم يقرأ منذ مدة طويلة كتاباً باستثناء كتاب المراسلات التجارية الإنكليزية التعليمي.

«أنت، أيها الشاب»، سمع كارل فجأة نفسه مخاطَباً. «ألا يمكنك أن تقف في مكان آخر؟ تحديقك فيَّ يضايقني للغاية. في الساعة الثانية ليلاً يمكن للمرء أخيراً أن يطلب أن يستطيع أن يدرس على الشرفة دون إزعاج. هل تريد شيئاً مني؟»

«أنت تدرس؟» سأل كارل.

«نعم، نعم»، قال الرجل وهو ينتهز هذه البرهة الضائعة بالنسبة للدراسة ويقوم بترتيب كتبه ترتيباً جديداً.

«في هذه الحالة لا أريد إزعاجك»، قال كارل، «سأعود إلى الغرفة على كل حال. طابت ليلتك.»

لم يعط الرجل حتى جواباً، بقرار مفاجئ كان قد عاد بعد إزالة هذا الإزعاج إلى دراسته وأسند جبينه في راحته اليمنى.

هنا تذكر كارل قبل الستارة بقليل لماذا كان قد خرج فعلاً، وكان ما زال لا يعرف قط كيف كان حاله. ما هذا الذي يجثم على رأسه هكذا؟ مدّ يده إليه وأصيب بدهشة، لم يكن جرحاً نازفاً، كما كان يخشى في ظلام الغرفة، كان مجرد ضمادة ما زالت مبللة تشبه عمامة. كانت، كما تدلّ بقايا الأهداب المتدلية هنا وهناك، قد مُزقت من قطعة غسيل عتيقة من قطع برونيلدا قام روبنسون بلفّها على رأس كارل على عجل. غير أنه كان قد نسي أن يعتصرها، وهكذا كان الماء الكثير قد سال أثناء غيبوبة كارل على وجهه وتسرب تحت القميص، الأمر الذي أرعبه.

«إنك ما زلت هنا؟» سأل الرجلُ وهو يرمش بعينيه صوب كارل.

«لكن الآن سأذهب فعلاً»، قال كارل، «كنت أبغي فحسب أن أرى شيئاً هنا، في الغرفة يسود ظلام حالك.»

«من أنت إذاً؟» قال الرجل، وضع قلم الحبر في الكتاب المفتوح أمامه وتقدم إلى الدرابزين. «ما اسمك؟ كيف جئت إلى هؤلاء الناس؟ هل مضى عليك مدة طويلة هنا؟ ماذا تريد أن ترى؟ أشعل مصباحك حتى أستطيع رؤيتك.»

فعل كارل هذا، لكنه قبل أن يجيب، أقفل الستارة على الباب بإحكام أكثر، حتى لا يتمكنوا في الداخل من ملاحظة شيء. «اعذرني»، قال من ثم هامساً، «أني أتحدث بصوت منخفض هكذا. إذا سمعني من في الداخل، فسوف يضايقونني مرة أخرى.»

«مرةأخرى؟» سأل الرجل.

«نعم»، قال كارل، «عند المساء وقعت لي مشاجرة كبيرة معهم. لا بدّ أن يكون لديّ تورّم مخيف.» وراح يتحسس رأسه من الوراء.

«ماذا كانت هذه المشاجرة؟» سأل الرجل، وإذ لم يجب كارل على الفور، أضاف: «يمكنك براحة أن تبوح لي بكل شيء عمّا في نفسك عن هؤلاء الناس. فأنا أمقتهم جميعاً وخاصة مدامتك. وللمناسبة، من شأن هذا أن يدهشني إذا لم يكونوا قد حرّضوك ضدي. اسمي يوزف مندل وأنا طالب.»

«نعم»، قال كارل، «لقد حدثوني عنك، لكن ليس شيئاً سيئاً. لقد عالجتَ السيدة برونيلدا ذات مرة، أليس كذلك؟»

«هذا صحيح»، قال الطالب وهو يضحك، «هل ما زالت تفوح من الأريكة رائحة ذلك؟»

«أوه نعم»، قال كارل.

«لكن هذا يسرني»، قال الطالب وهو يتخلل شعره بأصابعه. «ولماذا يحدثون لك تورماً؟»

«كانت مشاجرة»، قال كارل وهو يمعن الفكر في الطريقة التي عليه أن يشرح بها الأمر للطالب. غير أنه قاطع نفسه من ثم وقال: «ألا أزعجك؟»

«أولاً»، قال الطالب، «أجل لقد أزعجتني وأنا مع الأسف عصبي جداً، بحيث إني أحتاج إلى وقت طويل حتى أتمكن من العودة إلى الفهم. منذ بدأتَ مشاويرك على الشرفة، لم أعد أتقدم في الدراسة. لكني ثانياً أعمل استراحة دائماً في الساعة الثالثة. احكِ إذاً بكل هدوء. كما أن الموضوع يهمني.»

«الموضوع بسيط للغاية»، قال كارل، «دِلامارش يريد أن أصبح خادماً لديه. لكني أنا لا أريد. وكان الأحب إليّ أن أكون قد انصرفت على الفور في المساء. ولم يشأ أن يتركني، فأغلق الباب، وأنا أردت أن أفتحه بالقوة، ثم جرى عراك. إني غير سعيد بأني ما زلت هنا.»

«هل لديك عمل آخر؟» سأل الطالب.

«لا»، قال كارل، «لكن هذا لا يهمني في شيء، ليتني فقط أنصرف من هنا.»

«اسمع»، قال الطالب، «هذا لا يهمك في شيء؟ ولاذ كلاهما بالصمت برهة.

«لماذا لا تريد إذاً أن تبقى عندهم؟» سأل الطالب من ثم.

«دِلامارش إنسان رديء»، قال كارل، «أعرفه من قبل. ذات مرة قمت بمسير معه طوال يوم كامل، ثم سررت عندما لم أعد لديه. والآن عليّ أن أصبح خادماً لديه؟»

«إذا رغب كل الخدم في أن يكونوا دقيقين لدى اختيارهم سادتهم مثلما تفعل!» قال الطالب وقد بدا أنه يتبسم. «انظر، أثناء النهار أنا بائع، أدنى بائع، بالأحرى صبي ساعٍ في المتجر الكبير مونتلي. هذا المونتلي هو وغد بلا ريب، لكن هذا الموضوع يدعني هادئاً كل الهدوء، ولا أغضب إلّا لأن أجري قليل جداً. خذني إذاً كمثال.»

«كيف؟» قال كارل، «أنت في النهار بائع، وفي الليل تدرس؟»

«نعم»، قال الطالب، «لا يمشي الحال على نحو آخر. لقد حاولت كل شيء ممكن، غير أن طريقة الحياة هذه هي الأفضل. قبل سنوات كنت طالباً فقط، ليلاً ونهاراً، لكنني كدت

أموت جوعاً، كنت أنام في كهف أثري قذر ولم أكن أجرؤ على الذهاب إلى قاعات المحاضرات بلباسي آنذاك. لكن هذا ولّى.»

«لكن متى تنام؟» سأل كارل وهو ينظر إلى الطالب مندهشاً.

«نعم، أنام!»، قال الطالب، «سوف أنام عندما أنتهي من دراستي. حالياً أتناول قهوة سوداء.» واستدار وسحب من تحت منضدته زجاجة كبيرة وصبّ منها قهوة سوداء في قدح صغير وأفرغه في جوفه، كما يجرع المرء دواء في عجلة، لكي يستشعر أقل ما يمكن من طعمه.

«شيء لذيذ، القهوة السوداء»، قال الطالب، «خسارة أنك بعيد، حيث لا أستطيع أن أناولك بعضاً منها.»

«القهوة السوداء لا تطيب لي»، قال كارل.

«ولا أنا أيضاً»، قال الطالب وضحك. «لكن ما عساي أن أفعل بدونها. بدون القهوة السوداء لن يستبقيني مونتلي لحظة واحدة. أقول دائماً مونتلي، رغم أنه طبعاً لا فكرة لديه بأنني موجود في العالم. لا أعرف بدقة تامة كيف سيكون من شأني أن أتصرف في العمل لو لم أكن قد هيأت دائماً في المنصة زجاجة كبيرة مثل هذه، فأنا لم أجرؤ أبداً على الانقطاع عن تناول القهوة، لكن ثق فحسب، سرعان ما يكون من شأني أن أقع تحت المنصة وأنام. مع الأسف أنهم يحدسون هذا، فهم يسمّونني 'القهوة السوداء'، وهذا هو نكتة غبية ولا ريب أنها عادت عليّ بالضرر في تقدمي.»

«ومتى ستنتهي من دراستك؟» سأل كارل.

«تسير الأمور ببطء»، قال الطالب مطرقاً برأسه. غادر الدرابزين وجلس ثانية إلى المنضدة؛ مسنداً مرفقيه على الكتاب المفتوح، متخللاً شعره بيديه، قال من ثم: «يمكن أن يستغرق الأمر عاماً أو عامين.»

«أنا أيضاً أردت أن أدرس»، قال كارل وكأن هذا الحال يعطيه حقاً بثقة أكبر مما كان الطالب الصامت الآن أظهرها إزاءه.

«هكذا»، قال الطالب ولم يكن من الواضح كل الوضوح فيما إذا كان قد عاد إلى القراءة في كتابه أم كان يحدق فيه فحسب لشرود ذهنه، «كن مسروراً بأنك توقفت عن الدراسة. أنا نفسي أدرس منذ سنوات إصراراً فحسب. الدراسة لم تحقق لي ارتياحاً كبيراً، وآمال المستقبل هي أقل من ذلك. وأية آمال أردت أن تكون لديّ! إن أمريكا مليئة بالأطباء الدجالين.»

«كنت أريد أن أصبح مهندساً»، قال كارل في عجلة للطالب الذي بدا عليه أنه لم يعد يصغي قط.

«والآن عليك أن تصبح خادماً عند هؤلاء الناس»، قال الطالب وهو ينظر نظرة عابرة، «هذا يؤلمك طبعاً.»

إلا أن هذا الاستنتاج من قبل الطالب كان سوء فهم، لكنه قد يفيد كارل عند الطالب. لذا سأل: «ألا أستطيع ربما أن أحصل على عمل في المتجر الكبير؟»

هذا السؤال انتزع الطالب من كتابه كلياً؛ إن فكرة أنه من شأنه أن يستطيع مساعدة كارل في تقديمه طلب عمل لم ترد على خاطره. «حاول»، قال، «أو من الأفضل أن لا تحاول. إن كوني قد حصلت على عملي لدى مونتلي هو أكبر نجاح في حياتي حتى الآن. لو خيّرت بين دراستي وعملي، سيكون من شأني طبعاً أن أختار العمل. إنني أسعى إلى أن لا أدع ضرورة مثل هذا الخيار تقع.»

«هكذا يصعب الحصول على عمل هناك»، قال كارل لنفسه أكثر.

«آه ماذا تفكر إذاً»، قال الطالب، «إنه من الأسهل هنا أن يصبح المرء قاضي منطقة من أن يصبح بواباً لدى مونتلي.»

وصمت كارل. هذا الطالب، الذي هو ولا شك أكثر خبرة منه، والذي يكره دِلامارش لأسباب ما زالت مجهولة بالنسبة لكارل، والذي على عكس ذلك وحتماً لا يتمنى شيئاً سيئاً لكارل، لم يجد كلمة تشجيع على أن يترك دِلامارش. وعلماً أنه كان ما زال لا يعلم قط الخطر الذي يهدد كارل من الشرطة والذي لا يحميه منه إلى حد ما سوى بقائه عند دِلامارش.

«لا شك أنك شاهدت المظاهرة عند المساء؟ أليس كذلك؟ لو لم يكن المرء يعرف الظروف، يمكنه أن يفكر بأن هذا المرشح، اسمه لوبتر يملك آمالاً ما أو أنه على الأقل يدخل في الاعتبار، أليس كذلك؟»

«إنني لا أفهم في السياسة شيئاً»، قال كارل.

«هذا خطأ»، قال الطالب. «لكن بغض النظر عن ذلك، لديك عينان وأذنان. كان لدى الرجل ولا شك أصدقاء وأعداء، لا يمكن لهذا أن يكون قد غاب عنك. والآن تأمّلْ، ليس لدى الرجل حسب رأيي أقل فرصة بأن يُنتخب. أعرف بالمصادفة كل شيء عنه، يسكن لدينا واحد يعرفه. إنه ليس إنساناً غير كفء وآراؤه السياسية وماضيه السياسي تخوّله لأن يكون هو بالذات القاضيْ المناسب للمنطقة. لكن ما من إنسان يفكر بأنه من الممكن أن يُنتخب، إنه سوف يسقط سقوطاً رائعاً، أكثر ما يمكن للمرء أن يسقط، سوف يكون قد بعثر دولاراته القليلة في سبيل الحملة الانتخابية، هذا سيكون كل شيء.»

نظر كارل والطالب إلى بعضهما بعض صامتين برهة وجيزة. أومأ الطالب برأسه مبتسماً وضغط بيد على عينيه المتعبتين.

«والآن، ألن تذهب للنوم؟» سأل من ثم، «يجب عليّ أن أواصل الدراسة. ترى، كم ما زال يتوجب عليّ أن أدرس.» وقلّب صفحات نصف كتاب بسرعة كي يعطي كارل تصوراً عن العمل الذي كان ما زال ينتظره.

«حسناً إذاً، طابت ليلتك»، قال كارل وهو ينحني.

«تعال ذات مرة إلينا»، قال الطالب، الذي كان قد عاد إلى الجلوس إلى منضدته، «طبعاً فقط حين يكون لديك رغبة. سوف تجد هنا دائماً مجموعة كبيرة. من التاسعة إلى العاشرة مساء عندي وقت لك أيضاً.»

«تنصحني إذاً بأن أبقى لدى دِلامارش؟» سأل كارل.

«على أي حال»، قال الطالب وهو يخفض رأسه إلى كتبه. وقد بدا أنه ليس هو الذي قال الكلمة؛ التي تردد صداها في أذني كارل وكأن صوتاً أكثر عمقاً من صوت الطالب هو الذي نطقها. ببطء مشى إلى الستارة، ألقى نظرة على الطالب الذي كان يجلس الآن في ضوئه، بلا حراك بتاتاً، محاطاً بالظلمة الحالكة، وتسلل إلى الغرفة. واستقبلته الأنفاس المتحدة للنائمين الثلاثة. محاذياً الحائط راح يبحث عن الأريكة، وإذ وجدها، استلقى عليها بهدوء، وكأنها فراشه المعتاد. ولأن الطالب، الذي يعرف دِلامارش والظروف هنا معرفة دقيقة وفوق ذلك هو رجل متعلم، كان قد نصحه بأن يبقى هنا، لم تساوره الآن شكوك. لم يكن لديه أهداف عالية هكذا مثل الطالب، من يدري، فيما إذا كان خليقاً أن يفلح في اختتام دراسته حتى في الوطن، وإذا كان هذا قد بدا بالكاد ممكناً في الوطن، فليس في مقدور أحد أن يطلب أن أقوم بهذا في البلاد الغريبة. إلا أن الأمل بإيجاد عمل يمكنه فيه أن ينجز شيئاً وأن يُعترف به بناء على إنجازاته، كان أكبر ولا ريب، إذا ما قبل مؤقتاً العمل في خدمة دِلامارش وانطلاقاً من هذا الأمان انتظر الفرصة المناسبة. ففي هذا الشارع بدا أن ثمة مكاتب كثيرة من المرتبتين المتوسطة والصغرى، التي قد لا تكون دقيقة الاختيار أكثر من اللازم في حال حاجتها لاختيار عمالها. كان بودّه أن يصبح، إذا لزم الأمر، خادماً في محل تجاري، لكن لم يكن من المستبعد في نهاية المطاف أن يكون من شأنه أن يُقبل أيضاً للقيام بعمل مكتبي خالص وفي يوم من الأيام يجلس بصفته موظف مكتب إلى طاولة عمل ويروح طوال برهة ينظر بلا هموم من النافذة المفتوحة مثل ذلك الموظف الذي كان قد رآه صباح اليوم لدى مروره عبر الأفنية. شعر بارتياح وقد خطر له، وهو يغلق عينيه، أنه ما زال صغير السن وأن دِلامارش سوف يدعه ذات يوم يذهب؛ وهذا البيت لا يبدو فعلاً أنه أقيم لكي يبقى إلى الأبد. لكن إذا ما حصل يوماً ما

على مثل هذا العمل في أحد المكاتب، فإنه لن يشغل نفسه بشيء آخر سوى بأعماله المكتبية ولن يبعثر قواه كما يفعل الطالب. وإذا ما لزم الأمر، فإنه خليق أن يصرف الوقت في الليل أيضاً في سبيل المكتب، الأمر الذي من شأنه أن يُطلب منه على كل حال في البداية نظراً لتعليمه الضئيل في العمل المكتبي. سوف يكون خليقاً أن لا يفكر سوى بمصلحة العمل الذي عليه أن يخدمه، وسوف يقوم بكافة الأعمال، حتى مثل هذه الأعمال التي من شأن موظفي مكتب آخرين أن يرفضوا القيام بها لعدم جدارتها بهم. كانت المقاصد الطيبة تتزاحم في رأسه وكأن رئيسه المقبل إنما يقف أمام الأريكة ويتبينها من وجهه.

في مثل هذه الأفكار أخلد كارل إلى النوم وفقط في النصف الأول للنوم أزعجته تنهيدة عميقة انبعثت من برونيلدا، التي كانت تتقلب في فراشها تعذبها أحلام رهيبة على ما يبدو.

«انهض! انهض!» نادى روبنسون ما أن فتح كارل عينيه في الصباح أو كاد. لم تكن ستارة الباب قد أزيحت بعد، لكن المرء كان يلاحظ من ضوء الشمس المنتظم الذي كان يسقط من خلال الثغرات، كم كان وقت الضحى قد تقدم. كان روبنسون يروح ويجيء على نحو أهوج وبنظرات تنمّ على انشغال بال، تارة يحمل منشفة، وطوراً دلو ماء ومرة أخرى قطع غسيل وملابس ودائماً عندما كان يمرّ بكارل كان يحاول بإيماءة من رأسه أن يشجعه على النهوض ويشير برفع ما يحمله الآن بيده، كم يتعب نفسه اليوم لآخر مرة في سبيل كارل، الذي لم يستطع طبعاً في الصباح الأول أن يفهم تفاصيل الخدمة.

لكن كارل سرعان ما رأى من يخدم روبنسون في حقيقة الأمر. في مكان لم يكن كارل قد رآه حتى الآن بين خزانتين منفصل عن بقية الغرفة كان ثمة عملية غسل كبيرة. كان المرء يرى رأس برونيلدا، العنق العاري - كان الشعر قد انسدل الآن على الوجه - وبداية القفا كانا يبرزان فوق الخزانة، وكانت يد دِلامارش المرفوعة بين الحين والآخر تمسك ليفة استحمام يتدفق منها الماء غُسلت بها برونيلدا ودلّكت. كان المرء يسمع الأوامر المقتضبة، التي كان دِلامارش يعطيها إلى روبنسون، الذي لم يكن يناول الأشياء من المدخل الحقيقي للمكان، هذا المدخل المسدود الآن، بل كان يعتمد على فجوة صغيرة بين إحدى الخزانتين وجدار أسباني، علماً أنه كان عليه فوق ذلك أن يمدّ ذراعه بعيداً ويولّي وجهه. «المنشفة! المنشفة»، نادى دِلامارش. وما كاد روبنسون، الذي كان في هذه اللحظة يبحث عن شيء آخر تحت الطاولة، يصاب بفزع من هذه المهمة ويسحب رأسه من تحت الطاولة، حتى جاء: «أين الماء، يا للشيطان»، وفوق الخزانة برز عالياً وجه دِلامارش الحانق. كل ما كان المرء حسب رأي كارل يحتاجه ما عدا ذلك للغسل وارتداء الملابس مرة واحدة فقط، كان يُطلب هنا ويُحضر مرات عديدة في كل تسلسل ممكن. على مدفأة كهربائية صغيرة كان دائماً ثمة دلو يحوي ماء للتسخين ومراراً وتكراراً راح روبنسون ينقل الحمل الثقيل بين الساقين المتباعدتين إلى دورة

المياه. لدى كثرة عمله كان يُفهم عندما لم يكن يراعي الأوامر دائماً بدقة وذات مرة، عندما طُلب منه منشفة مرة أخرى تناول ببساطة قميصاً من المرقد الكبير في وسط الحجرة وألقاه في لفة كبيرة إلى الجانب الآخر فوق الخزانة.

كان لدى دِلامارش أيضاً عمل كثير ولم يكن مغتاظاً هكذا من روبنسون ـ في انفعاله تجاهل كارل ببساطة ـ سوى لأنه هو نفسه لم يكن قادراً على إرضاء برونيلدا. «آه»، صرخت وحتى كارل غير المشارك في ما عدا ذلك أصابته رجفة، «كم تؤلمني! اذهب! أحب إليّ أن أغسل نفسي بنفسي، بدلاً من أن أعاني هكذا! الآن لا أستطيع مرة أخرى أن أرفع ذراعي. غثت نفسي جداً من ضغطك عليّ. لا بدّ أن ظهري مليء بالكدمات. طبعاً لن تقول لي ذلك. انتظر، سوف أدع روبنسون يراني أو صغيرنا. لا، لن أفعل ذلك، لكن لتكن لبقاً بعض الشيء. راعِ، دِلامارش، لكنني أستطيع أن أكرر هذا كل صباح، وأنت لا تراعي ولا تراعي. روبنسون»، نادت من ثم فجأة وهي تلوّح فوق رأسها بسروال داخلي صغير مطرّز، «تعال وساعدني، انظر كيف أعاني، هذا العذاب يسميه غسلاً، هذا الدِلامارش. روبنسون، روبنسون، أين أنت، أنت أيضاً ليس لديك قلب؟» صامتاً أشار كارل إلى روبنسون بإصبعه بأن يذهب، إلا أن روبنسون خفض عينيه وهزّ رأسه بتعال وهو يعني أنه يعرف الأمر على نحو أفضل. «ماذا يخطر لك؟» قال روبنسون وهو ينحني إلى أذن كارل، «ليس هذا المقصود. مرة واحدة فقط ذهبت ولن أكررها. آنذاك أمسكاني وأغرقاني في الحوض، حتى كدت أموت غرقاً. وطوال أيام راحت برونيلدا تتهمني بأني عديم الحياء وتقول مراراً وتكراراً: [لكن الآن مضى عليك وقت طويل لم تكن لديّ في الحمام ‹أو› متى ستأتي مرة أخرى وتنظر إليّ في الحمام؟] ولم تكفّ عن ذلك سوى بعد أن توسلت إليها وأنا أركع على ركبتيّ. ولن أنسى هذا.» وبينما كان روبنسون يروي هذا، راحت برونيلدا تنادي مرة بعد الأخرى: «روبنسون! روبنسون! أين هو هذا الروبنسون!»

ولكن رغم أن أحداً لم يأت لمساعدتها ولم يأت حتى جواب ـ كان روبنسون قد جلس إلى كارل وراح كلاهما ينظران بصمت باتجاه الخزانتين، اللتين كان يظهر فوقهما بين الحين والآخر رأس برونيلدا أو دِلامارش ـ فإن برونيلدا لم تكفّ عن الشكوى من دِلامارش بصوت عال. «لكن يا دِلامارش»، نادت، «مرة أخرى لا أحس الآن بأنك تغسلني. أين الليفة؟ هيا إذاً! ليتني أستطيع أن أنحني فحسب، أتحرك فحسب! كنت أريد أن أبيّن لك كيف يغسل المرء. أين أيام الصبا عندما كنت في مزرعة الوالدين أسبح في نهر كولورادو صباح كل يوم، وأكون الأكثر حركة بين صديقاتي. والآن! متى ستتعلم كيف تغسلني، دِلامارش، إنك تلوّح بالليفة من حولك، تتعب نفسك وأنا لا أحس شيئاً. حين قلت إنه ليس عليك أن تضغط حتى

تجرحني، فإنني لم أقصد أني أريد أن أقف هنا وأصاب بزكام. لأنْ أقفز من الحوض وأجري هكذا كما أنا.»

غير أنها لم تنفذ هذا التهديد ـ الأمر الذي لم يكن في مقدورها أن تقوم به في حدّ ذاته ـ ويبدو أن دِلامارش، خوفاً من أن تصاب بزكام، قد أمسكها وضغطها في الحوض، فقد كان صوت الوقوع في الماء شديداً.

«هذا ما تقدر عليه، دِلامارش»، قالت برونيلدا بصوت خفيض بعض الشيء. «تملقْ ودائماً تملقْ عندما تكون قد عملت شيئاً على نحو سيء.» ثم ساد صمت لبرهة. «الآن يقبّلها»، قال روبنسون وهو يرفع حاجبيه.

«أي عمل يأتي الآن؟» سأل كارل. وإذ إنه كان قد قرر أن يبقى هنا، فإنه كان يريد أن يقوم بعمله على الفور. ترك روبنسون، الذي لم يردّ، وحده على الأريكة وشرع في فصل قطع الفراش الكبير الذي ما زال مضغوطاً من ثقل النائمين أثناء الليل الطويل، لكي يطوي بعناية كل قطعة بمفردها من قطع هذه الكومة، الأمر الذي لا بدّ أنه لم يجر منذ أسابيع.

«انظر، دِلامارش»، قالت برونيلدا، «أظن أنهما يلخبطان فراشنا. على المرء أن يفكر بكل شيء، أبداً لا يرتاح المرء. عليك أن تكون أكثر حزماً إزاء الاثنين، وإلا فإنهما يفعلان ما يشاءان.» «هذا ولا شك هو الصغير بحماسته اللعينة للخدمة»، نادى دِلامارش وهو يريد على الأرجح أن يندفع من دورة المياه، وألقى كارل كل شيء من يده، لكن لحسن الحظ قالت برونيلدا: «لا تذهب يا دِلامارش، لا تذهب. آه، كم هو ساخن الماء، المرء يصاب بالتعب كثيراً. ابقَ لديّ، دِلامارش.» والآن فحسب لاحظ كارل كيف كان البخار يتصاعد دون انقطاع خلف الخزانتين.

وضع روبنسون يده على خده وقد أصيب بذعر وكأن كارل قد أساء. «كل شيء يبقى على حاله كما كان»، دوى صوت دِلامارش، «ألا تعلمان إذاً أن برونيلدا إنما ترتاح دائماً بعد الحمام مدة ساعة؟ هذا تدبير منزلي بائس! انتظرا حتى آتي فوقكما. روبنسون، إنك تحلم على الأرجح مرة أخرى. وحدك، إني أحمّلك وحدك مسؤولية ما يحدث. عليك واجب أن تضبط الولد، هنا لا يجري تدبير حسب رأسه. عندما يريد المرء شيئاً، لا يحصل على شيء منكما، وعندما لا يوجد عمل، تكونان مجدّين. تواريا في زاية ما، حتى يحتاجكما المرء.»

لكن على الفور نُسي كل شيء، إذ إن برونيلدا همست وهي متعبة للغاية، وكأنها غرقت في الماء وكأن الماء الساخن قد فاض عليها: «العطر! احضر العطر!» «العطر!» صرخ دِلامارش. «هيّا.» نعم لكن أين هو العطر؟ تطلع كارل إلى روبنسون، وتطلع روبنسون إلى

كارل. ولاحظ كارل أنه يتعيّن عليه هنا أن يضطلع بكل شيء، ولم يكن لدى روبنسون أية فكرة عن مكان العطر، استلقى ببساطة على الأرض وراح يفتش بكلتا يديه تحت الأريكة، إلا أنه لم يُخرج شيئاً آخر سوى لفة من التراب والشعر النسائي. هرع كارل أولاً إلى طاولة الغسيل التي كانت قرب الباب، لكنه لم يعثر في أدراجها سوى على روايات ومجلات ونوتات موسيقية إنكليزية قديمة، وكان كل شيء مليئاً لدرجة أنه لم يكن في وسع المرء أن يغلق الأدراج إذا ما كان قد فتحها مرة. «العطر»، تنهدت برونيلدا في هذه الغضون. «كم يستغرق هذا! في ما إذا كنت سأحصل اليوم على عطري!» لدى نفاد صبر برونيلدا هذا لم يكن يجوز لكارل طبعاً أن يبحث في أي مكان بحثاً دقيقاً، كان يتعيّن عليه أن يعتمد على الانطباع السطحي الأول. في صندوق الغسيل لم تكن الزجاجة، على صندوق الغسيل لم يكن ثمة سوى زجاجات قديمة بأدوية ومراهم، كل شيء آخر، كل ما عدا ذلك كان على كل حال قد حُمل إلى مكان الغسل. ربما كانت الزجاجة في درج طاولة الطعام. لكن في الطريق إلى طاولة الطعام ـ كان كارل يفكر بالعطر، ولا يفكر بشيء آخر ـ اصطدم في عنف بروبنسون، الذي كان قد كفّ أخيراً عن التفتيش تحت الأريكة وواجه كارل وقد بزغ فيه حدس بمكان العطر. سُمع بوضوح تلاطم الرأسين، ظل كارل صامتاً، وصحيح أن روبنسون لم يتوقف عن الجري، إلا أنه راح، كي يخفف الألم، يصرخ باستمرار وعلى نحو مبالغ فيه.

«بدلاً من البحث عن العطر، هاهما يتصارعان»، قالت برونيلدا. «دِلامارش، هذا التدبير المنزلي سوف يسقمني، ومن المؤكد للغاية أنني سوف أموت بين ذراعيك. يجب أن أحصل على العطر»، نادت من ثم وقد استجمعت قواها، «يجب عليّ أن أحصل عليه، لا محيد عن ذلك. لن أخرج من الحوض قبل أن تجلبوه لي ولو بقيت هنا حتى المساء.» وضربت بقبضتها في الماء، فانبجس بصوت مسموع.

لكن في درج طاولة الطعام أيضاً لم يكن العطر موجوداً، صحيح لم يكن فيه سوى أدوات زينة برونيلدا مثل أهداب بودرة، أوعية أصباغ، فُرَش شعر، خصيلات وكثيرمن الأشياء الصغيرة الملفوفة والملتصقة ببعضها، لكن العطر لم يكن هناك. وكذلك روبنسون، الذي كان، وهو ما زال يصرخ، في ركن يحوي نحو مئة علبة كرتونية ومعدنية يفتح واحدة تلو الأخرى وينقّب فيها، بينما كان يقع على الأرض دائماً نصف المحتوى، وهو في الغالب أدوات خياطة ورسائل، ويظل هناك، ولم يستطع أن يجد شيئاً، كما كان يُعلم كارل بين الآونة والأخرى بهزة من رأسه أو كتفيه.

هنا قفز دِلامارش من مكان الغسل وهو في ملابسه الداخلية، بينما كان المرء يسمع أن برونيلدا تنتحب بشدة. توقف روبنسون وكارل عن البحث ونظرا إلى دِلامارش، الذي كان

مبتلاً بالكامل، وكان الماء يسيل من وجهه وشعره أيضاً، وقد نادى: «الآن إذاً ابدآ البحث من فضلكما.» «هنا!» أمر كارل أولاً أن يحث ومن ثم «هناك!» آمراً روبنسون. وبحث كارل فعلاً كما أنه فتش الأماكن التي كان روبنسون قد أمر بتفتيشها، غير أنه لم يجد زجاجة العطر كما لم يجدها روبنسون، الذي كان ينظر نظرات جانبية إلى دِلامارش أكثر مما كان يبحث، وكان دِلامارش يروح ويجيء في الغرفة وهو يضرب الأرض بقدميه بقدر ما سمح المكان، وكان من شأنه يقيناً أن يكون الأحب لديه هو أن يضرب كلاً من كارل وروبنسون.

«دِلامارش»، نادت برونيلدا، «تعال ونشّفني على الأقل. الاثنان لا يعثران على العطر بعد ويلخبطان كل شيء فحسب. عليهما أن يتوقفا على الفور عن البحث. لكن على الفور! وأن يضعا كل شيء من أيديهما! وأن لا يمسّا شيئاً بعد الآن! إنهما يريدان أن يحوّلا المنزل إلى إصطبل. خذهما من ياقتيهما دِلامارش، إذا لم يتوقفا! لكنهما ما زالا يعملان، ها إن علبة سقطت. عليهما ألّا يرفعاها، أن يتركا كل شيء على حاله وأن يخرجا من الغرفة! اغلق الباب وراءهما بالمفتاح وتعال إليّ. إنني في الماء مدة طويلة جداً أكثر من اللازم، لقد بردت ساقاي.»

«فوراً برونيلدا فوراً»، نادى دِلامارش وهو يسرع إلى الباب مع كارل وروبنسون. إلا أنه قبل أن يصرفهما كلّفهما بإحضار طعام الفطور واستعارة زجاجة عطر جيدة من أحدهم إن أمكن.

«هذه فوضى لديكم ووسخ»، قال كارل في الخارج في الممر، «فور عودتنا مع الفطور، ينبغي علينا أن نشرع في التنظيم.»

«لو لم أكن مصاباً»، قال روبنسون، «وهذه المعاملة!» يقيناً كان روبنسون مستاء من أن برونيلدا لم تفرّق بينه،هو الذي يخدمها منذ أشهر، وبين كارل، الذي لم يبدأ الخدمة سوى يوم أمس. غير أنه لم يستحق الأمر أفضل من ذلك وكارل قال: «عليك أن تتمالك نفسك.» ولكن لكي لا يتركه فريسة يأسه كلياً، أضاف قائلاً: «سوف يكون عملاً لمرة واحدة فحسب. سوف أجهز لك سريراً خلف الصناديق، وعندما يصبح كل شيء منظّماً ذات مرة، سوف يكون في وسعك أن تستلقي هناك طوال اليوم، ولن يكون عليك أن تهتم بأي شيء وسرعان ما سوف تستردّ صحتك.»

«الآن تدرك إذاً بنفسك كيف هو حالي»، قال روبنسون وهو يدير وجهه عن كارل لكي يظل وحده مع ألمه. «لكن هل سيتركانني بهدوء في أي وقت كان؟»

«إذا أردتَ، سوف أتحدث عن ذلك بنفسي مع دِلامارش وبرونيلدا.»

«وهل تأبه برونيلدا لأي شيء؟» نادى روبنسون وهو يدفع بقبضته، دون أن يكون قد هيّأ كارل لهذا، باباً كانا وصلا إليه لتوّهما.

دلفا إلى مطبخ كان يتصاعد من موقده، الذي بدا أنه بحاجة إلى تصليح، سحابات صغيرة سوداء. أمام الموقد كانت تركع إحدى النساء التي كان كارل قد رآهنّ في الممر وراحت تضع يديها المكشوفتين قطع فحم كبيرة في النار وتفحصها من كل الاتجاهات. وأثناء ذلك كانت تتنهد في وضع الركوع غير المريح بالنسبة لامرأة متقدمة في السن.

«طبعاً يأتي بالإضافة إلى ذلك هذا البلاء أيضاً»، قالت لدى رؤيتها روبنسون، ونهضت بمشقة وهي تضع يدها على صندوق الفحم، وأغلقت باب الموقد، الذي كانت قد لفّت قبضته بمئزرها. «الآن في الساعة الرابعة بعد الظهر» ـ نظر كارل إلى ساعة المطبخ مندهشاً ـ يجب عليكم أن تتناولوا طعام الفطور؟ عصابة!»

«اجلسا»، قالت من ثم، «وانتظرا حتى يصبح لديّ وقت لكما.»

سحب روبنسون كارل إلى مقعد صغير قرب الباب وهمس له: «يجب علينا أن نتبعها. إذ إننا مرتبطون بها. لقد استأجرنا غرفتنا منها ويمكنها طبعاً أن تنذرنا في كل لحظة. لكننا لا نستطيع أن نبدّل السكن، فكيف لنا إذاً أن ننقل كل الأغراض مرة أخرى وقبل كل شيء، فإن برونيلدا غير قابلة للنقل.»

«وهنا في الممر لا يمكن الحصول على غرفة أخرى؟» سأل كارل.

«ما من أحد يقبلنا»، أجاب روبنسون، في كل المبنى لا يقبلنا أحد.»

وهكذا جلسا بهدوء على مقعدهما الصغير وراحا ينتظران. كانت المرأة تجري باستمرار ذهاباً وجيئة بين طاولتين، حوض غسيل وموقد. من نداءاتها يعلم المرء أن ابنتها متوعكة وأنه لهذا السبب يتوجب عليها أن تقوم بالعمل كله وحدها، أي خدمة وإطعام ثلاثين مستأجراً. والآن كان بالموقد ضرر فوق ذلك، والطعام لم يشأ أن يصبح جاهزاً، في قِدْرين ضخمين كان يُطبخ حساء كثيف ومهما فحصته المرأة بالمغرفة وتركته يسيل من الأعلى إلى الأسفل، فإنه لم يشأ أن ينضج، لا بدّ أن تكون النار الرديئة هي سبب ذلك وهكذا جلست أمام باب الموقد على الأرض تقريباً وراحت تقلّب الفحم المتوهج بمحراك تقليب النار. وكان الدخان الذي يملأ الغرفة يثير سعالها، الذي كان يشتد أحياناً إلى درجة أنها كانت تمسك كرسياً ولا تفعل طوال دقائق شيئاً آخر سوى أن تسعل. ومرات عديدة أبدت الملاحظة بأنها لن تقدم اليوم بعد الآن طعام الفطور إطلاقاً، وذلك لأنها لا تملك لا الوقت لذلك ولا الرغبة. ولأنه، من طرف، كان لدى كارل وروبنسون الأمر بأن يحضرا طعام الفطور، ومن طرف آخر لا يملكان إمكانية للحصول عليه بالقوة، فإنهما لم يردّا على مثل هذه الملاحظات، بل ظلا جالسين بهدوء كما كانا من قبل.

على مقاعد كبيرة ومساند أقدام صغيرة، على الطاولات وتحتها، لا بل على الأرض نفسها كانت أطباق طعام فطور المستأجرين غير المغسولة ما زالت محشورة في زاوية. كان ثمة أباريق صغيرة ربما مازال يُعثر فيها على قليل من القهوة أو الحليب، في بعض الصحون الصغيرة كان ما زال ثمة بقية من زبدة، من علبة صفيح كبيرة سقطت كانت قد تدحرجت فطائر صغيرة. كان من الممكن أن يُعدّ من كل هذه الأشياء طعام فطور ليس من شأن برونيلدا، إذا لم تعلم مصدره، أن تجد فيه أية غضاضة. حين فكر كارل في هذا وأشارت له نظرة إلى الساعة بأنهما ينتظران الآن منذ نصف ساعة وبأن برونيلدا قد تكون ثارت ثائرتها وراحت تحرّض دِلامارش على الخادمين، نادت المرأة في هذه اللحظة انطلاقاً من سعال ـ راحت خلاله تحدّق في كارل ـ: «يمكنكما أن تجلسا هنا، إلا أنكما لن تحصلا على طعام الفطور. لكن بعد ساعتين تحصلان على طعام العشاء.»

«تعال روبنسون»، قال كارل، «سوف نجمّع بأنفسنا طعام الفطور لأنفسنا.» «كيف؟» نادت المرأة وقد أمالت رأسها. «كوني حكيمة من فضلك»، قال كارل، «لماذا لا ترغبين إذاً في أن تعطينا طعام الفطور؟ إننا ننتظر الآن طوال نصف ساعة، وهذه مدة طويلة بما فيه الكفاية. إن المرء ليدفع لك ثمن كل شيء ويقيناً ندفع نحن أسعاراً أفضل مما يدفع كل الآخرين. لا ريب أنه أمر مزعج لك أننا نتناول طعام فطورنا في وقت متأخر، لكن نحن مستأجرون لديك، ومن عادتنا أن نأكل متأخرين، وعليك أيضاً أن تدبّري الأمر لنا بعض التدبير. طبعاً سيكون هذا صعباً عليك بشكل خاص بسبب مرض الآنسة ابنتك، لكن لقاء ذلك نحن على استعداد لكي نقوم هنا بتجميع طعامنا من البقايا، إذا كان الأمر لا يمكن بطريقة أخرى وأنت لا تعطيننا طعاماً طازجاً.»

لكن المرأة لم تكن ترغب في أن تشتبك في حديث ودّي مع أحد، كما أنه بدا لها أن حتى بقايا طعام الفطور العام هي أفضل مما يستحقه هؤلاء المستأجرون؛ لكنها من طرف آخر كانت قد سئمت إلحاح هذين الخادمين، لذا فقد أمسكت طبقاً ودفعته نحو بطن روبنسون، الذي لم يفهم بوجه متوجع سوى بعد برهة أنه يتعيّن عليه أن يمسك الطبق كي يستقبل الطعام الذي أرادت المرأة أن تختاره. صحيح أنها حمّلت الطبق بأكبر سرعة بكمية من الأشياء، غير أن المجموع بدا وكأنه بالأحرى كومة من الأطباق المتسخة، وليس طعام فطور يجب تقديمه. وحتى بينما كانت المرأة تدفعهما إلى الخارج وهما يسرعان محنيّي الظهر نحو الباب وكأنهما يخشيان سماع شتائم أو تلقي رفسات، أخذ كارل الطبق من يديّ روبنسون، إذ إنه بدا له غير آمن بما فيه الكفاية لدى روبنسون.

بعد أن ابتعدا مسافة كافية عن باب المؤجرة اقتعد كارل الأرض في الممر لكي ينظف

الطبق قبل كل شيء، ويجمع الأشياء التي تناسب بعضها، أي صبّ الحليب، حكّ البقايا المتنوعة على صحن، ثم إزالة كل إشارة استعمال، أي تنظيف السكين والملعقة، تقطيع قطع الخبز المنهوشة على نحو مستقيم وبهذا إعطاء المجموع مظهراً أفضل. أما روبنسون فقد اعتبر أن هذا العمل غير ضروري وادعى بأن طعام الفطور كان غالباً ما يبدو أسوأ منظراً، بيد أن كارل لم يدعه يعيقه، بل سرّه أن روبنسون لم يرد أن يشارك في العمل بيديه المتسختين. ولكي يهدّئه كان كارل قد خصص له حالاً، لكن لمرة واحدة أخيرة فحسب، كما قال له، بعض قطع البسكويت والفطائر وراسباً سميكاً لصفيحة صغيرة كانت سابقاً مليئة بالشيكولاته.

وحين وصلا إلى باب منزلهما ووضع روبنسون يده على المقبض بغير مبالاة، استوقفه كارل لأنه لم يكن من المؤكد أنه يجوز لهما أن يدخلا. «أجل»، قال روبنسون، «الآن يقوم بتصفيف شعرها فحسب.» وفعلاً كانت برونيلدا في الغرفة التي ما زالت مسدلة الستارة وغير مهوّاة تجلس في الكرسي ذي المسند وقد باعدت ما بين ساقيها، ودِلامارش يقف خلفها وهو يحني وجهه فوقها ويسرّح شعرها القصير المشعّث جداً على الأرجح. كانت برونيلدا ترتدي مرة أخرى ثوباً فضفاضاً، إلا أنه كان هذه المرة بلون زهري باهت، وربما كان أقصر قليلاً من ثوب الأمس، على الأقل كان المرء يرى الجوارب البيضاء الخشنة حتى الركبتين. بنفاد صبر من طول مدة التسريح راحت برونيلدا تحرك لسانها الأحمر الضخم بين شفاهها يميناً ويساراً، بل كانت أحياناً تنزع نفسها كلياً من دِلامارش بصيحة «لكن يا دِلامارش!»، الذي كان ينتظر بهدوء وقد رفع المشط، حتى تضع رأسها ثانية.

«لقد استغرق الأمر طويلاً»، قالت برونيلدا بعامة وإلى كارل بخاصة قالت: «يتعيّن عليك أن تكون خفيف الحركة أكثر بعض الشيء، إذا كنت تريد أن نكون راضين عنك. روبنسون الكسول والشره لا يجوز لك أن تأخذه قدوة لك. لا شك أنكما قد تناولتما طعام الفطور في هذه الأثناء في مكان ما، وأنا أقول لكما، لن أقبل هذا مرة أخرى.»

كان هذا ظلماً كبيراً وهزّ روبنسون رأسه أيضاً وحرك شفتيه، لكن بلا صوت، غير أن كارل أدرك أنه لا يمكن للمرء أن يؤثر في السلطة سوى بأن يبيّن لها عملاً لا شك فيه. لذا فإنه سحب منضدة يابانية صغيرة واطئة من إحدى الزوايا، غطاها بمفرش ووضع عليها الأشياء التي جلباها. من رأى أصل طعام الفطور، أمكنه أن يكون راضياً عن المجموع، لكن في ما عدا ذلك، كما وجب على كارل أن يقول في ذات نفسه، كان ثمة غضاضة في بعض الأشياء.

لحسن الحظ كانت برونيلدا تحس بجوع. بعين الرضى أومأت لكارل برأسها، بينما كان يعدّ كل شيء، وغالباً ما أعاقته بأن كانت تسحب لنفسها قبل الأوان أية قطعة بيدها الرخوة السمينة التي يُخشى أن تمعس كل شيء في الحال. «لقد فعل حسناً»، قالت وهي تلعق

وجذبت دِلامارش، الذي ترك المشط في شعرها من أجل متابعة العمل فيما بعد، إلى جانبها على مقعد ذي مسند. كذلك دِلامارش بات ودّياً لدى رؤيته للطعام، كان الاثنان جائعين جداً، وراحت أيديهما تتقاطع بسرعة فوق الطاولة. وأدرك كارل أنه لا يجب على المرء هنا كي يُرضي سوى أن يجلب دائماً أكثر ما يمكن، وفي تذكّره أنه كان قد ترك على الأرض في المطبخ أطعمة متنوعة قابلة للأكل، قال: «لأول مرة لم أعرف كيف يجب تدبير كل شيء، في المرة القادمة سوف أعمل الأمر على نحو أفضل.» لكن حتى أثناء كلامه تذكر لمن يتحدث، كان غارقاً أكثر من اللازم في الموضوع نفسه. أومأت برونيلدا برأسها راضية لدِلامارش وناولت كارل جزاء له حفنة من قطع البسكويت.

نصوص مجتزأة

(١)

خروج برونيلدا

ذات صباح دفع كارل عربة المرضى التي كانت برونيلدا تجلس فيها، من باب المبنى. لم تكن الساعة مبكرة كما كان يأمل. كانوا قد اتفقوا على أن يقوموا بالهجرة في الليل، لكي لا يلفتوا الانتباه في الشوارع، الأمر الذي لا يمكن تجنبه في النهار، وهكذا أرادت برونيلدا أن تغطي نفسها قليلاً بملاءة كبيرة رمادية اللون. غير أن النقل على الدرج استغرق مدة طويلة، رغم مساعدة الطالب عن طيب خاطر أكبر ما يكون، هذا الطالب الذي هو أكثر ضعفاً من كارل، كما تبيّن في هذه المناسبة. ظلت برونيلدا شجاعة للغاية، لم تكد تتنهد وحاولت أن تسهّل العمل على حمّاليها بكل طريقة. لكن الأمر لم يسر على نحو آخر سوى أن يقوم المرء بتنزيلها على كل خامس درجة، لكي يعطي نفسه ويعطيها الوقت للراحة الأكثر ضرورةً. كان صباحاً بارداً، في الممرات كان ثمة هواء بارد يهبّ مثلما يهبّ في أقبية، لكن كارل والطالب كانا يتصببان عرَقاً وكان لا بدّ لكل منهما أثناء فترات الاستراحة من أن يأخذ طرفاً من ملاءة برونيلدا، التي كانت تعطيها له على نحو ودّيّ، لكي يجفف وجهه. وهكذا حدث أنهم لم يصلوا إلى الأسفل سوى بعد ساعتين، حيث كانت العربة تقف منذ المساء. ورفع برونيلدا إلى داخل العربة احتاج أيضاً بعض العمل، بعد ذلك جاز للمرء أن يعتبر أن العمل كله قد نجح، حيث إن دفع العربة لا بدّ أن يكون غير عسير بفضل العجلات العالية ولم يبق سوى الخوف من أنه قد يكون من شأن العربة أن تتفكك تحت ثقل برونيلدا. بيد أنه كان من الضروري أن يتحمل المرء هذا الخطر، لم يكن من الممكن أن يقود المرء عربة بديلة كان الطالب قد عرض في شبه دعابة إعدادها وقيادتها. والآن جاء الوداع من الطالب، هذا الوداع الذي كان ودّيّاً للغاية. وبدا كل عدم توافق بين برونيلدا والطالب أمراً منسياً، بل إنه اعتذر بسبب إهانته القديمة لبرونيلدا في مرضها، هذه الإهانة التي كان قد وجّهها لها، إلا أن برونيلدا قالت إن كل شيء قد نُسي من مدة طويلة وجرى التعويض عنه وبأكثر. وفي النهاية رجت الطالب أن يتكرم ويقبل كذكرى لها دولاراً، بحثت عنه بمشقة في ملابسها الكثيرة وسحبته. كانت هذه الهدية

ذات مغزى كبير جداً لدى برونيلدا المشهورة ببخلها، كما أن الطالب فرح بذلك فرحاً كبيراً حقاً ومن شدة فرحه قذف قطعة النقود المعدنية في الهواء عالياً. لكنه وجب عليه من ثم أن يبحث عنها على الأرض، ووجب على كارل أن يساعده، وأخيراً عثر عليها كارل تحت عربة برونيلدا. وكان الوداع بين الطالب وكارل أكثر بساطة بكثير طبعاً، فقد صافح كل منهما الآخر فحسب وعبّرا عن القناعة بأنهما سوف يريان بعضهما بعضاً مرة أخرى وأن من شأن أحدهما على الأقل ـ الطالب ادعى ذلك عن كارل، وكارل ادعاه عن الطالب ـ أن يحقق شيئاً جديراً بالفخر، الأمر الذي لم يكن الحال عليه حتى الآن مع الأسف. ثم أمسك كارل مقبض العربة بروح طيبة ودفعها خارج الباب. تابعهما الطالب بنظره ما دام يمكن رؤيتهما ولوّح لهما بمنديل. وأومأ كارل مرات عدة وهو يحيّي، وكانت برونيلدا تودّ أن تستدير إلى الوراء، لكن مثل هذه الحركات كانت متعبة بالنسبة لها. لكي يتيح لها رغم ذلك وداعاً أخيراً، أدار كارل في نهاية الشارع العربةَ في دائرة، بحيث تتمكن برونيلدا أيضاً من رؤية الطالب، الذي انتهز هذه المناسبة لكي يلوّح بالمنديل بهمّة على نحو خاص.

غير أن كارل قال من ثم بأنه لا يجوز لهما أن يسمحا لنفسيهما بالتوقف بعد الآن، فالطريق طويل وبأنهما انطلقا متأخرين أكثر مما كانا يريدان. وفعلاً كان المرء يرى عربات بين الحين والآخر، وأناساً، وإن كان ذلك إفرادياً جداً، في طريقهم إلى العمل. لم يكن كارل يريد أن يقول بملاحظته شيئاً آخر سوى ما كان قد قاله فعلاً، أما برونيلدا فقد فهمت الأمر في عاطفتها الرقيقة على نحو مغاير وغطت نفسها بملاءتها الرمادية تغطية كاملة. لم يعترض كارل على ذلك في شيء؛ صحيح أن عربة اليد المغطاة بغطاء رمادي كانت لافتة للنظر كثيراً، لكن أقل لفتاً للنظر بما لا يقاس مما لو كانت برونيلدا غير مغطاة. راح يدفع العربة بحذر، وقبل أن ينحرف حول ناصية، راح يراقب الشارع التالي، بل إنه، عندما كان الأمر يبدو ضرورياً، كان يترك العربة واقفة ويتقدم وحده بضع خطوات، وكان إذا قدّر إمكانية حدوث أي لقاء غير مريح، فقد كان ينتظر حتى يمكن تجنّبه أوحتى كان يختار الطريق عبر شارع آخر كلياً. هو نفسه، لأنه كان سابقاً قد درس بدقة كل الطرق الممكنة، لم يدخل أية مرة في خطر أن يقوم بدورة طويلة. لقد ظهرت بلا شك عوائق، كان يُخشى ظهورها حقاً، غير أنه لم يكن بالإمكان توقعها بالتفصيل. هكذا حدث في شارع، متصاعد قليلاً يشمله المرء بنظرة ومن حسن الحظ خال تماماً، أن ظهرت ميزة حاول كارل أن يستفيد منها بسرعة خاصة، أن خرج على حين غرّة شرطيّ من زاوية مظلمة لباب مبنى وسأل كارل عما يسوقه إذاً بعناية هكذا في العربة المغطاة. لكن مهما كان قد نظر في صرامة إلى كارل، فإنه كان عليه أن يبتسم رغم ذلك، حين رفع الغطاء ورأى وجه برونيلدا المنفعل. «ماذا؟» قال. «كنت أظن أنك تنقل عشرة أكياس بطاطا والآن إنها امرأة واحدة وحيدة؟ إلى أين أنتما مسافران إذاً؟ ومن أنتما؟» ولم تجرؤ

برونيلدا على النظر إلى الشرطيّ قط، بل راحت تنظر إلى كارل وحده وشكٌ واضح يخالجها بأنه لن يقدر بنفسه أن ينقذها. بيد أن كارل كان ذا خبرات كافية مع رجال الشرطة، وبدا له أنه ما من ثمة خطر كبير. «هاتي يا آنسة»، قال، «الوثيقة التي حصلتِ عليها.» «آه نعم»، قالت برونيلدا وشرعت في البحث بطريقة يائسة هكذا، بحيث إنه كان يجب أن تبدو فعلاً مدعاة للريبة. «الآنسة»، قال الشرطي بسخرية لا شك فيها، «لن تجد الوثيقة.» «أوه نعم»، قال كارل بهدوء، «إنها لديها حتماً، وضعتها فقط في مكان آخر.» وشرع الآن يبحث بنفسه وسحبها فعلاً من وراء ظهر برونيلدا. ألقى الشرطي نظرة عابرة عليها فحسب. «هذه هي إذاً»، قال الشرطي وهو يبتسم، «هل الآنسة هي مثل هذه الآنسة؟ وأنت، أيها الصغير، تقوم بالتوسط والنقل؟ ألا تعرف حقاً أن تجد عملاً أفضل؟» هزّ كارل منكبيه فحسب، كانت هذه مرة أخرى التدخلات المعروفة من قبل الشرطة. «حسناً، رحلة سعيدة»، قال الشرطي إذ لم يتلق جواباً. في كلمات الشرطي كان يكمن ازدراء على الأرجح، لقاء ذلك تابع كارل مسيره دون تحية، ازدراء من قبل الشرطة كان أفضل من اهتمامها.

بعد ذلك بفترة قصيرة كان له لقاء أكثر إزعاجاً. إذ اقترب منه رجل كان يدفع أمامه عربة تحمل صفائح حليب كبيرة وأراد أن يعلم بأقصى سرور ما تحت الغطاء الرمادي في عربة كارل. لم يكن يغلب على الظن أن طريقه هو طريق كارل نفسه، لكنه رغم ذلك ظل إلى جانبه، مهما قام كارل بلفات مفاجئة. في البداية اكتفى بصيحات، مثل «لا بدّ أن لديك حملاً ثقيلاً» أو «لقد حمّلت بطريقة سيئة، في الأعلى سوف يقع شيء ما.» لكنه فيما بعد سأل على نحو مباشر: «ماذا لديك تحت الغطاء؟» قال كارل: «ماذا يهمّك في الأمر؟» لكن هذا أثار فضول الرجل أكثر، قال كارل أخيراً: «إنه تفاح.» «تفاح كثير هكذا»، قال الرجل مندهشاً ولم يكفّ عن ترديد هذه الصيحة. «إن هذا لهو محصول كامل»، قال من ثم. «حسناً نعم»، قال كارل. لكنه، سواء أنه لم يصدق كارل أم أنه كان يريد مضايقته، أكثر من ذلك شرع - كل شيء أثناء السير - يمدّ يده نحو الغطاء وكأنه يمزح وحتى تجرأ أخيراً على أن يشدّ الغطاء. كم كان على برونيلدا أن تعاني! مراعاة لها لم يشأ كارل أن يشتبك في نزاع مع الرجل ودخل إلى أول باب مفتوح، وكأن هذا كان هدفه. «هنا وصلت إلى البيت»، قال، «شكراً للمرافقة.» مكث الرجل مندهشاً أمام البوابة وتابع كارل بنظره، الذي بدأ إذا ما لزم الأمر في عبور الفناء الأول بكامله. لم يكن في وسع الرجل أن يشك بعد الآن، لكن لكي يكتفي خبثه مرة أخيرة، ترك عربته واقفة، جرى وراء كارل على رؤوس أصابعه وجذب الغطاء بشدة إلى درجة أنه كاد يكشف عن وجه برونيلدا. «لكي يحصل تفاحك على هواء»، قال وراح يجري عائداً. هذا أيضاً تقبله كارل، لأنه خلصه من الرجل نهائياً. قاد العربة من ثم إلى ركن في الفناء فيه بضعة صناديق كبيرة فارغة أراد في حمايتها أن يقول لبرونيلدا تحت الغطاء

بضع كلمات مهدئة. بيد أنه كان عليه أن يلحّ عليها بالقول مدة طويلة، فقد كانت غارقة بدموعها وراحت تتوسل إليه في كل جدّ أن يمكث هنا خلف الصناديق طوال اليوم ولا يتابع السير سوى في الليل. ربما ما كان من شأنه أن يتمكن وحده قط من إقناعها كم من شأن هذا أن يكون أمراً خاطئاً، لكن إذ ألقى أحدهم في نهاية كومة الصناديق صندوقاً فارغاً على الأرض في جلبة هائلة تردد صداها في الفناء الخالي، أصيبت بذعر كبير إلى درجة أنها، دون أن تجرؤ على التفوه بكلمة بعد الآن، سحبت الغطاء فوقها وكانت في غالب الظن سعيدة، حين قرر كارل وشرع على الفور في متابعة السير.

صحيح أن الحركة باتت الآن تدبّ في الشوارع دائماً أكثر، لكن الاهتمام الذي كانت العربة تثيره، لم يكن اهتماماً كبيراً كما كان كارل يخشى. ربما كان أكثر حكمة عموماً اختيار وقت آخر للنقل. وإذا ما أصبحت مثل هذه السفرة ضرورية مرة أخرى، فإن كارل أراد أن يجرؤ أن يقوم بها في ساعة الظهيرة. دون أن يلقى مضايقة أشد، انحرف أخيراً إلى الشارع الضيق المعتم الذي كان المحل رقم ٢٥ فيه. أمام الباب كان يقف المشرف أحول العينين وهو يحمل الساعة في يديه. «هل تتأخر دائماً عن المواعيد هكذا؟» سأل. «كان ثمة عراقيل متنوعة»، قال كارل. «هذه موجودة دائماً كما هو معروف»، قال المشرف. «لكنها هنا في الشركة لا تسري. ليكن هذا في معلومك!» على مثل هذا الكلام لم يعد كارل يستمع بالكاد، كل امرئ يستغل سلطته ويشتم الأدنى منه. وإذا ما اعتاد المرء على ذلك، فإن هذا لا يعود له وقع آخر غير وقع دقات الساعة المنتظمة. لكن ما أفزعه هنا وأزعجه عندما دفع العربة الآن في الممر، هو الوسخ الذي كان ينتشر هنا والذي لكن كان قد توقّعه. لم يكن، إذا ما نظر المرء عن قرب أكثر، وسخ يُلاحظ. كانت أرضية الممر الحجرية قد كُنست وباتت نظيفة تقريباً، ولم يكن دهان الجدران قديماً، ولم تكن النخلات الاصطناعية مكسوة بالتراب سوى قليلاً، ورغم ذلك كان كل شيء ملوثاً بالدهن ومثيراً للنفور، كان الحال وكأن كل شيء إنما قد استخدم استخداماً سيئاً وأنه لم يعد من شأن نظافة أن تكون قادرة على إصلاح هذا. كان كارل يحب أن يفكر، عندما كان يأتي إلى مكان ما، عما يمكن إصلاحه هنا وأية بهجة لا بدّ أن تكون لدى البدء على الفور، ودون مراعاة للعمل اللامتناهي ربما الذي من شأنه أن ينشأ نتيجة ذلك. لكن هنا لم يكن يدري ما هو من شأنه أن يُعمل. على مهل نزع الغطاء عن برونيلدا. «أهلاً وسهلاً آنسة»، قال المشرف بتكلف، لم يكن ثمة شك من أن برونيلدا إنما أحدثت أثراً طيباً لديه. وحالما لاحظت برونيلدا هذا، فهمت كيف رأى كارل وهو راض أن يستغل الأمر على الفور. لقد اختفى كل خوف من مخاوف الساعات الأخيرة. هي

(٢)

رأى كارل على ناصية شارع لافتة كتب عليها الإعلان التالي: «في ميدان السباق في كلايتون يجري اليوم من الساعة السادسة صباحاً حتى منتصف الليل قبول عاملين للمسرح في أوكلاهاما! مسرح أوكلاهاما الكبير يدعوكم! يدعو اليوم فقط، مرة واحدة فقط! من يفوّت الآن الفرصةَ، يفوّتها إلى الأبد! من يفكر بمستقبله، ينضمّ إلينا! إننا نرحّب بكل فرد! من يريد أن يصبح فناناً، فليسجل نفسه! نحن المسرح الذي يحتاج إلى كل فرد، كل في مكانه! من اختارنا، نزجي له تهنئة هنا على الفور! لكن أسرعوا، كي تُدخَلوا حتى منتصف الليل! في الثانية عشرة يجري إغلاق كل شيء ولا يُفتح بعد ذلك! ملعون من لا يصدقنا! هيا إلى كلايتون!»

كان ثمة ناس كثيرون يقفون أمام اللافتة، صحيح، لكنها لم تكن تبدو أنها تجد كثيراً من الاستحسان. كان الكثير من اللافتات، ولم يعد أحد يصدق اللافتات. وهذه اللافتة كانت بعيدة الاحتمال أكثر مما اعتادت اللافتات أن تكون في ما عدا ذلك. لكن قبل كل شيء كانت تحوي خطأ كبيراً، لم يكن فيها كلمة واحدة عن الأجر. لو كان جديراً بالذكر بعض الشيء فحسب، كان من شأن اللافتة أن تذكره بالتأكيد؛ ولما كانت نسيت ما هو أكثر إغراء. ما من أحد كان يريد أن يصبح فناناً، بيد أن كل أحد كان يريد أن يتلقى أجر عمله.

لكن بالنسبة لكارل كانت اللافتة تحوي إغراء كبيراً. «إننا نرحّب بكل فرد»، جاء فيها. كل فرد، إذاً كارل أيضاً. كل ما كان قد قام به حتى الآن، صار منسياً، ما من أحد كان يريد أن يأخذ مأخذاً عليه من ذلك. كان يجوز له أن يتقدم إلى عمل لم يكن عاراً، بل بالأحرى يدعون إليه علنا! وكذلك علناً أعطوا وعداً بأنه من شانهم أن يقبلوه هو أيضاً. لم يكن يطلب شيئاً أفضل، كان يريد أخيراً أن يعثر على بداية حرفة لا يستهان بها وهنا ظهرت ربما. مهما كان كل ما جاء على اللافتة تبجّحاً، كذبة، مهما كان مسرح أوكلاهاما الكبير سيركاً

متجولاً صغيراً، فإنه كان يريد أن يقبل ناساً، وهذا كان كافياً. لم يقرأ كارل اللافتة للمرة الثانية، بيد أنه التقط مرة أخرى جملة: «كل امرئ مرحّب به.»

فكر أولاً أن يذهب إلى كلايتون سيراً على الأقدام، غير أن من شأن هذا أن يكون ثلاث ساعات من السير المتعب، وقد يكون من الجائز أن يصل في الوقت المناسب بالذات لكي يعلم أنهم قد شغلوا كل الوظائف المتاحة. لكن طبقاً للافتة كان عدد الذي يُقبلون غير محدود، لكن هكذا كانت تُكتب دائماً كل أمثال هذه الإعلانات عن الوظائف. وأدرك كارل أن عليه إما أن يستغني على الفور أو أن يسافر. أحصى نقوده، كان من شأنها أن تكفي بدون هذه السفرة لثمانية أيام، وراح يحرك القطع النقدية الصغيرة على راحته يميناً ويساراً. رجل كان قد راقبه، ربت على كتفه وقال: «حظاً سعيداً بالسفر إلى كلايتون.» أومأ كارل بصمت وتابع الحساب. غير أنه سرعان ما قرر وفصل النقود للسفرة وجرى إلى محطة قطار الأنفاق.

حين هبط في كلايتون، سمع على الفور ضوضاء أبواق كثيرة. كانت ضوضاء مضطربة، لم تكن الأبواق متناسقة مع بعضها، كانت تنفخ بلا مراعاة. غير أن هذا لم يضايق كارل، بل أكد له بالأحرى أن مسرح أوكلاهاما كان مؤسسة كبيرة. لكن حينما خرج من مبنى المحطة وشمل نظره كامل المنشأة، رأى أن كل شيء هو أكثر ضخامة مما كان في مقدوره أن يفكر بأي شكل كان، ولم يدرك كيف كان يمكن لمؤسسة أن تنفق كل مثل هذه النفقات لهدف واحد لا غير هو أن تحصل على عاملين. أمام مدخل ميدان السباق كانت قد أقيمت منصة طويلة منخفضة تقف عليها مئات من النساء يرتدين كملائكة ملاءات بيضاء بأجنحة كبيرة على الظهر وينفخن في أبواق طويلة تلمع كالذهب. غير أنهن لم تكنّ على المنصة مباشرة، بل كانت كل منهن تقف على قاعدة لكنها غير مرئية، فقد كانت الملاءات الطويلة المرفرفة لملابس الملائكة تغطيها تغطية كاملة. ولأن القواعد كانت مرتفعة جداً، لا ريب بعلوّ حتى مترين، فقد كانت أشكال النساء تبدو عملاقة، ورؤوسهن الصغيرة وحدها كانت تخلّ بعض الشيء في انطباع الضخامة، كما أن شعورهن المسدلة كانت تتدلى قصيرة جداً وعلى نحو يكاد يكون مضحكاً بين الأجنحة الكبيرة وعلى الجوانب. ولكي لا ينشأ انطباع رتابة، كان ثمة مَنْ استخدم القواعد في أحجام متنوعة، كان ثمة نساء يقفن على انخفاض كبير ليس بعيداً عن الحجم الطبيعي، لكن إلى جانبهن كانت نساء أخر يَنْسَبْنَ عالياً على ارتفاع شاهق بشكل يخيّل فيه للمرء أنهن في خطر لدى أدنى هبة ريح. والآن كانت النساء جميعهن ينفخن في أبواقهن.

لم يكن ثمة كثير من المستمعين. صغاراً بالمقارنة مع الأشكال الكبيرة كان نحو عشرة من الصبية يتمشون ذهاباً وإياباً أمام المنصة وهم يرفعون أبصارهم إلى النساء. كانوا يشيرون لبعضهم إلى هذه أو تلك، لكن دون أن يبدو عليهم أنهم ينوون أن يدخلوا ويدعوا أنفسهم

يُقبلون. ولم يكن يُرى سوى رجل واحد متقدم في السن، وكان يقف متنحياً جانباً بعض الشيء. وكان قد اصطحب زوجته وطفلاً في عربة الأطفال. كانت المرأة تمسك العربة بيد، وتستند بالأخرى على كتف الرجل. صحيح أنهما كانا يستحسنان المشهد، لكن المرء كان يدري أنهما كانا خائبي الأمل. لا ريب أنهما كانا قد توقعا أن يعثرا أيضاً على فرصة عمل، بيد أن هذا النفخ في الأبواق قد أثار حيرتهما.

كان كارل في الحالة نفسها. اقترب من الرجل، استمع قليلاً إلى الأبواق وقال من ثم: «هنا مكان القبول لمسرح أوكلاهاما؟» «أظن ذلك أيضاً»، قال الرجل، «لكننا ننتظر هنا منذ ساعة ولا نسمع شيئاً سوى الأبواق. لا لافتة في أي مكان، لا منادي في أي مكان، لا أحد في أي مكان يمكنه أن يعطي معلومات.» قال كارل: «ربما ينتظرون حتى يتجمع عدد أكبر من الناس. ما زال فعلاً عدد قليل جداً هنا.» «ممكن»، قال الرجل وعادا يلوذان بالصمت. كما كان من العسير فهم شيء في ضوضاء الأبواق. لكن من ثم همست المرأة بشيء ما لزوجها، فأومأ برأسه وعلى الفور نادت كارل: «ألا يمكنك أن تذهب إلى ميدان السباق وتسأل أين يجري القبول.» «أجل»، قال كارل، «لكن يجب عليّ أن أمشي فوق المنصة، بين الملائكة.» «هل هذا صعب؟» سألت المرأة. على كارل بدا لها الطريق سهلاً، لكنها لم تشأ أن ترسل زوجها. «حسناً»، قال كارل، «سوف أذهب.» «إنك لطيف للغاية»، قالت المرأة وصافحت كارل كما فعل زوجها أيضاً. وتجمهر الصبية كي يروا عن كثب كيف صعد كارل إلى المنصة. وكان الأمر وكأن النساء قد نفخن بشدة أكثر لكي يرحّبن بأول باحث عن عمل. لكن تلك اللواتي كان كارل يمرّ الآن بقواعدهن، أبعدن الأبواق عن أفواههن وانحنين نحو الجانب لكي يتابعن طريقه. ورأى كارل في نهاية المنصة رجلاً يتمشى ذهاباً وإياباً في غير ارتياح، كان على ما يبدو ينتظر فحسب ناساً، لكي يعطيهم كل المعلومات التي يمكن للمرء أن يرغب فيها. وأراد كارل أن يتوجه إليه، هنا سمع فوقه اسمه ينادى: «كارل»، نادى أحد الملائكة. تطلع كارل إلى أعلى وشرع يضحك للمفاجأة السعيدة؛ كانت فانّي. «فانّي»، نادى وحيّا بيده إلى الأعلى. «تعال إلى هنا»، نادت فانّي، «إنك لن تمرّ بي وتتجاهلني.» وأبعدت الملاءات عن بعضها بحيث انكشفت القاعدة وانكشف درج ضيق يؤدي إلى الأعلى. «هل مسموح بالصعود؟» سأل كارل. «من ذا الذي يمنعنا من أن نتصافح»، نادت فانّي وهي تجول بنظرها غاضبة من أنه قد يأتي أحد بالمنع. إلا أن كارل راح يصعد الدرج. «على مهل أكثر»،نادت فانّي، «القاعدة تنقلب وننقلب نحن.» لكن لم يحدث شيء، ووصل كارل إلى آخر درجة وهو سعيد. «انظر فقط»، قالت فانّي بعد أن كانا قد تبادلا التحية، «انظر فقط أي عمل حصلت عليه.» «إنه لأمر جميل»، قال كارل وهو يتطلع حوله. كانت كل النساء في الجوار قد لاحظن كارل ورحن يتضاحكن. «أنت الأعلى ارتفاعاً تقريباً»، قال كارل وهو يمدّ

ذراعه كي يقيس ارتفاع الأخريات. «رأيتك على الفور»، قالت فانّي، «حين أُتيت من المحطة، لكنني مع الأسف هنا في الصف الأخير، لا يمكن لأحد أن يراني، كما لم يكن في مقدوري أن أناديَ. صحيح أنني نفخت بصوت عالٍ على نحو خاص، لكنك لم تتعرف عليّ.» «كلكن تنفخن على نحو رديء»، قال كارل، «دعيني أنفخ مرة.» «لكن لا ريب»، قالت فانّي وهي تناوله البوق، «لكن لا تفسد الجوقة، وإلا فإنني أُسرَّح.» وشرع كارل في النفخ، كان قد ظن أنه بوق عُمل بخشونة مخصص لإصدار ضوضاء وحسب، لكن تبيّن الآن أنه كان آلة تستطيع أن تؤدي كل ما هو رهيف. إذا كانت كل الآلات من ذات النوعية، يكون قد أُسيء استخدامها إساءة كبيرة. ودون أن يدع ضوضاء الأبواق الأخرى تزعجه، نفخ كارل بكامل صدره أغنية كان قد استمع إليها ذات مرة في إحدى الحانات في مكان ما. وكان فرحاً بأنه التقى صديقة قديمة ويجوز له أن ينفخ البوق مميزاً على الجميع ومن الجائز أن يتمكن قريباً من الحصول على عمل جيد. كفت كثيرات من النساء عن النفخ ورحن يستمعن؛ وعندما توقف فجأة، لم يكن بالكاد نصف الأبواق يعمل، وبالتدريج وحسب عادت الضوضاء الكاملة.

«إنك لفنان»، قالت فانّي حين كان كارل يعيد لها البوق. «دعهم يقبلوك كنافخ بوق.» «هل يقبلون رجالاً أيضاً؟» سأل كارل. «نعم»، قالت فانّي، «نحن ننفخ مدة ساعتين. ثم يحلّ محلنا رجال يرتدون ثياب شياطين. النصف ينفخ، والنصف الآخر يقرع الطبول. إنه جميل للغاية، كما أن كل التجهيز عموماً نفيس جداً. أليس ثوبنا أيضاً في غاية الجمال؟ والأجنحة؟» وتطلعت إلى نفسها نحو الأسفل. «هل تظنين؟» سأل كارل، «أنني أنا أيضاً سوف أحصل على عمل؟» «بكل تأكيد»، قالت فانّي، «إنه أكبر مسرح في العالم. كم هو من محاسن الصدف أننا سوف نكون معاً. لكن الأمر يتعلق بنوع العمل الذي تحصل عليه. إذ إنه من الممكن أيضاً أن لا نرى بعضنا على الإطلاق حتى لو كنا كلانا نعمل هنا.» «هل المجموع هو فعلاً ضخم للغاية هكذا؟» سأل كارل. «إنه أضخم مسرح في العالم»، قالت فانّي مرة أخرى، «لكنني لم أره بعد بنفسي، غير أن بعض زميلاتي اللواتي كنّ في أوكلاهاما، يقلن بأنه لا حدود له تقريباً.» «لكن يتقدم عدد قليل من الناس»، قال كارل مشيراً إلى الأسفل نحو الصبية والأسرة الصغيرة. «هذا صحيح»، قالت فانّي، «لكن فكّر أننا نقبل ناساً في كل المدن، أن فرقة الدعاية لدينا هي على سفر دائم وأنه ما زال العديد من أمثال هذه الفرق.» «ألم يُفتتح المسرح بعد؟» سأل كارل. «أوه أجل»، قالت فانّي، «إنه مسرح قديم، لكن يجري توسيعه على الدوام.» «أعجب»، قال كارل، «من أنه لا يتسابق كثير من الناس.» «نعم»، قالت فانّي، «إنه أمر غريب.» «ربما»، قال كارل، «أن هذا العدد الكبير من الملائكة والشياطين إنما يثير الخوف أكثر مما يجذب.» «كيف يمكنك أن تدرك هذا»، قالت فانّي، «لكن الأمر ممكن. قله لمديرنا، ربما تستطيع أن تفيده بهذا.» «أين هو؟» سأل كارل. «في ميدان السباق»، قالت فانّي، «على منصة التحكيم.» «هذا أيضاً يدهشني»، قال كارل، «لماذا يجري القبول في ميدان السباق؟»

«نعم»، قالت فانّي، «إننا نقوم في كل مكان بأكبر الاستعدادات لأكبر ازدحام. في ميدان السباق مكان واسع. وفي جميع الأكشاك، حيث تعقد الرهانات، أنشئت مكاتب القبول. يقال بأن عددها يبلغ مئتي مكتب من مختلف الأنواع.» «لكن»، نادى كارل، «هل لدى مسرح أوكلاهاما إيرادات كبيرة هكذا لكي يتمكن من الإنفاق على مثل هذه الفرق الدعائية؟» «ماذا يهمّنا هذا إذاً»، قالت فانّي، «لكن حسناً، كارل، اذهب حتى لا يفوتك شيء، ينبغي عليّ أن أعود إلى النفخ. حاول على كل حال أن تحصل على عمل لدى هذه المجموعة وتعال إلي فوراً وأعلمني. فكرْ بأنني أنتظر الخبر في قلق كبير.» ضغطت على يده ونبهته إلى أن يكون حذراً لدى الهبوط، وضعت البوق على شفتيها ثانية، لكنها لم تنفخ قبل أن رأت كارل في الأسفل على الأرض وهو في أمان. وضع كارل الملاءات فوق الدرج كما كانت في السابق، وشكرت فانّي بإيماءة من رأسها، واتجه كارل، وهو يتأمل حسب اتجاهات مختلفة ما سمعه لتوّه، نحو الرجل الذي كان قد رأى كارل في الأعلى لدى فانّي والذي كان قد اقترب من القاعدة لكي ينتظره.

«تريد الانضمام إلينا؟» سأل الرجل. «أنا رئيس قلم المستخدمين في هذه الفرقة وأنا أرحّب بك.» كان منحنياً بعض الشيء باستمرار كما يفعل المرء لداعي المجاملة، كان يتبختر رغم أنه لم يكن يتحرك من موضعه وكان يعبث بسلسلة ساعته. «أشكر»، قال كارل، «قرأت لافتة شركتك، وها أنا أتقدم، كما يُطلب هناك». «صحيح للغاية»، قال الرجل معترفاً، «مع الأسف لا يتصرف كل واحد هنا بشكل صحيح هكذا.» فكر كارل أنه من شأنه الآن أن يستطيع أن يلفت نظر الرجل إلى أنه من الممكن أن وسائل الإغراء التي تستخدمها فرقة الإعلانات إنما تخفق في تحقيق هدفها بسبب عظمتها بالذات. لكنه لم يقل شيئاً، إذ إن هذا الرجل ليس رئيس الفرقة، وفوق ذلك فإنه ليس من الحكمة كثيراً أن يقوم في الحال، وهو لم يُقبل بعد، بتقديم نصائح لإجراء تحسينات. لذا لم يقل سوى: «في الخارج ينتظر واحد آخر يريد أيضاً أن يسجل نفسه وهو الذي أرسلني في المقدمة فحسب. هل تسمح بأن أحضره؟» «طبعاً»، قال الرجل، «كلما جاؤوا أكثر، كان أفضل.» «معه أيضاً زوجة وطفل صغير في عربة الأطفال. هل عليهما أيضاً أن يأتيا؟» «طبعاً»، قال الرجل وبدا أنه يبتسم من شكوك كارل. «نستطيع تشغيل الجميع.» «سأعود في الحال»، قال كارل وجرى عائداً إلى طرف المنصة. لوّح بيده للزوجين ونادى بأنه يجوز للجميع أن يأتوا. ساعد في رفع عربة الأطفال إلى المنصة وساروا معاً. الصبية الذين شاهدوا هذا تشاوروا مع بعضهم، صعدوا إلى المنصة ببطء، وهم مترددون حتى آخر لحظة، وقد دسّوا أيديهم في جيوبهم، وتبعوا أخيراً كارل والأسرة. الآن خرج من مبنى محطة قطار الأنفاق ركاب جدد، وقد رفعوا أذرعهم مندهشين بالنظر للمنصة مع الملائكة. على كل حال بدا وكأن الطلب على الأعمال سيشتد. كان كارل مسروراً من

أنه قد حضر باكراً، ربما أول من حضر، وكان الزوجان متوجسين وطرحا أسئلة متنوعة عما إذا كان هناك مطالب كبيرة. قال كارل بأنه ما زال لا يعرف شيئاً محدداً، لكنه حصل فعلاً على الانطباع بأن كل امرئ بلا استثناء سوف يُقبل. إنه يعتقد بأنه يمكن للمرء أن يكون مرتاحاً.

بل إن رئيس قلم المستخدمين هرع لاستقبالهم، وكان مسروراً للغاية بمجيء الكثيرين، وفرك يديه، وحيّى كل فرد بانحناءة صغيرة ونظّم الجميع في صف واحد. كان كارل الأول، وتبعه الزوجان وبعدهم الآخرون. بعد أن اصطفوا جميعهم، في البداية تدافع الصبية واستغرق الأمر بعض الوقت حتى ساد الهدوء لديهم، قال رئيس قلم المستخدمين بينما صمتت الأبواق: «باسم مسرح أوكلاهاما أرحّب بكم. لقد جئتم باكراً (لكن الوقت كان قد أصبح ظهراً) الزحام ما زال ليس كبيراً، لذا فإن شكليات قبولكم قريباً ستكون قد أنجزت. إنكم جميعاً تحملون طبعاً أوراقكم الثبوتية.» على الفور سحب الصبية أوراقاً ما من جيوبهم ولوّحوا بها ناحية رئيس قلم المستخدمين، ولكز الرجل زوجته، التي سحبت من تحت لحاف عربة الأطفال حزمة كاملة من الأوراق، لكن كارل لم يكن يحمل أوراقاً. هل سيكون هذا عائقاً في طريق قبوله؟ لم يكن الأمر غير مرجّح. على كل حال كان كارل يعلم من تجربته أنه يمكن تجاوز مثل هذه التعليمات بسهولة حينما يعقد المرء العزم بعض الشيء. شمل مدير شؤون العاملين الصف بنظرة، اطمأن إلى أن الجميع يحملون أوراقاً ولأن كارل أيضاً كان يرفع يده، لكن التي كانت فارغة، افترض أن كل شيء لديه أيضاً هو على ما يرام. «إنه لخير»، قال من ثم رئيس قلم المستخدمين وأشار بالنفي إلى الصبية الذين كانوا يريدون أن تُفحص أوراقهم على الفور، «الأوراق سوف تُفحص الآن في مكاتب القبول. كما رأيتم من لافتتنا، نستطيع أن نستخدم كل شخص. لكن يجب علينا طبعاً أن نعرف أية مهنة مارسها حتى الآن، لكي نتمكن من وضعه في المكان الصحيح حيث يستطيع أن يستفيد من خبراته.» «إنه لمسرح»، فكر كارل مرتاباً وراح يستمع بكل انتباه. «لذا فإننا»، تابع رئيس قلم المستخدمين قائلاً، «أقمنا في كل كشك من أكشاك وكلاء المراهنات على خيل السباق مكتباً لمهنة. كل منكم سوف يذكر لي الآن إذاً مهنته، والأسرة تأتي بصورة عامة لمكتب قبول الرجل، سوف أقودكم من ثم إلى المكاتب، حيث يقوم مختصون بفحص أوراقكم أولاً ثم معلوماتكم ـ سوف يكون امتحاناً قصيراً للغاية، لا يجب على أحد أن يخاف. وهناك سوف تُقبلون على الفور أيضاً وتحصلون على بقية الإرشادات. لنبدأ إذاً. هنا المكتب الأول مخصص للمهندسين، كما تقول اللافتة. هل بينكم ربما مهندس؟» رفع كارل يده. كان يعتقد، بالذات لأنه كان لا يملك أوراقاً، بأنه يتعيّن عليه أن يسعى إلى أن يمرّ عبر كل الشكليات بأسرع ما يمكن، كما كان لديه حق صغير بأن يرفع يده، حيث إنه كان يريد فعلاً أن يصبح مهندساً. لكن إذ رأى الصبية أن كارل رفع يده، فإنهم رفعوا بمجموعهم أيديهم أيضاً. اشرأب رئيس قلم المستخدمين بعنقه وقال للصبية:

«أنتم مهندسون؟» فأنزل الجميع أيديهم ببطء، أما كارل فقد أصرّ على تقدمه الأول. صحيح أن مدير شؤون العاملين نظر إليه غير مصدق، إذ إن كارل بدا له في ثياب رثة وصغير السن أيضاً كي يمكن أن يكون مهندساً، إلا أنه لم يقل شيئاً آخر، ربما عرفاناً بالفضل لأن كارل كان، حسب رأيه على الأقل، قد جلب إليه مقدمي الطلبات. أشار داعياً مجرد دعوة إلى المكتب فذهب كارل إليه، بينما توجه رئيس قلم المستخدمين إلى الآخرين.

في المكتب المخصص للمهندسين كان رجلان يجلسان إلى طرفي طاولة مستطيلة ويقارنان قائمتين كبيرتين كانتا أمامهما. كان أحدهما يقرأ والآخر يعلّم في قائمته على الأسماء المذكورة. حين تقدم كارل إليهما وهو يحييهما، تركا القائمتين على الفور وتناولا سجلات كبيرة أخرى قاما بفتحها. أحدهما، الذي يبدو أنه مجرد كاتب، قال: «من فضلك أوراقك الثبوتية.» «لا أحملها معي مع الأسف»، قال كارل. «لا يحملها معه»، قال الكاتب للرجل الآخر ودوّن الجواب في دفتره على الفور. «هل أنت مهندس؟» سأل الآخرُ، الذي بدا أنه رئيس المكتب. «لستُ مهندساً بعد»، قال كارل بسرعة، «لكن ـ » «يكفي»، قال الرجل بسرعة أكبر، «فأنت لا تتبعنا. أرجو مراعاة اللافتة.» صرّ كارل على أسنانه، لا بدّ أن الرجل لاحظ ذلك، إذ إنه قال: «لا داعي للقلق. نستطيع تشغيل الجميع.» وأشار إلى أحد الخدم الذين كانوا يتمشّون بين الحواجز بلا عمل: «أوصل هذا السيد إلى مكتب ذوي المعارف التقنية.» فهم الخادم الأمرَ حرفياً وأمسك بيد كارل. سارا بين أكشاك كثيرة، في أحدها رأى كارل واحداً من الصبية كان قد قُبل وكان يشدّ على يد السيد هناك شاكراً. في المكتب الذي جُلب إليه كارل الآن كان العمل شبيهاً للعمل في المكتب الأول، كما كان كارل قد توقع. فيما عدا أنهم أرسلوه من هنا، إذ سمعوا أنه إنما كان قد زار مدرسة متوسطة أوروبية، أعلنوا هناك أيضاً عدم اختصاصهم ودعوه يؤخذ إلى مكتب تلاميذ المدارس المتوسطة الأوروبيين. كان كشكاً في أقصى طرف، ليس أصغر فحسب، بل أكثر انخفاضاً من جميع الأكشاك الأخرى. وكان الخادم الذي أحضره إلى هنا غاضباً لطول الطريق والرفض المتكرر مرات عديدة، هذا الرفض الذي لا بدّ حسب رأيه أن يكون كارل وحده هو الذي سبّبه. لم ينتظر الخادم الأسئلة بعد، بل انصرف على الفور. وكان هذا المكتب ولا شك الملاذ الأخير أيضاً. حين رأى كارل مدير المكتب، أصابه رعب تقريباً من الشَبَه بينه وبين أستاذ ما زال على الأرجح يدرّس الآن في المدرسة المتوسطة في الوطن. لكن الشَبَه كان يكمن، كما تبيّن في الحال، في التفاصيل وحدها، إلا أن النظّارة المستريحة على الأنف العريض، واللحية الشقراء المُعتنى بها كعيّنة عرض، والظهر المنحني في هوادة والصوت العالي المنطلق دائماً على حين غرّة، كل هذا أثار دهشة في نفس كارل بعض الوقت. ولحسن الحظ لم يكن يتعيّن عليه أيضاً أن ينتبه كثيراً، حيث إن الأمور هنا كانت تجري ببساطة أكثر مما هو الحال في المكاتب

الأخرى. صحيح أنه جرى هنا أيضاً تسجيل غياب أوراقه الثبوتية ومدير المكتب سمّى ذلك إهمالاً غير مفهوم، لكن الكاتب، الذي كان له هنا الكلمة العليا، تجاهل ذلك بسرعة وأعلن بعد بضعة أسئلة قصيرة من المدير، بينما كان هذا يتأهب لطرح سؤال أكبر، عن كارل باعتباره مقبولاً. التفت المدير وقد فغر فمه إلى الكاتب، لكن هذا قام بحركة يد ختامية وقال: «لقد قُبل» وعلى الفور سجّل أيضاً القرار في السجل. على ما يبدو كان الكاتب يرى أن كون أحدهم تلميذ مدرسة متوسطة أوروبية هو أمر مزرٍ لدرجة أنه يمكن للمرء أن يصدق في سهولة ويسر كل من يدعي ذلك عن نفسه. أما كارل فلم يكن لديه أدنى اعتراض على ذلك، اقترب منه وأراد أن يشكره. لكن كان ما زال ثمة تأخير، عندما سأله المرء الآن عن اسمه. لم يجب على الفور، كان على استحياء، أن يسمّي اسمه الحقيقي ويدع أحداً يكتبه. ريثما يحصل هنا حتى على أصغر عمل ويقوم به على نحو مُرض، من ثم يمكن للمرء أن يعلم اسمه، أما الآن فلا، لقد سكت عنه مدة أطول من أن يكون عليه أن يبوح به الآن. لذا فقد سمّى، إذ لم يخطر بباله في هذه اللحظة اسم آخر، فقط اسم النداء من أعماله الأخيرة: «نيغرو» «نيغرو؟» سأل المدير، وهو يدير رأسه وعضلات وجهه تتقلص، وكأن كارل وصل الآن إلى ذروة عدم الجدارة بالتصديق. وكذلك الكاتب نظر إلى كارل متفحصاً برهة، غير أنه كرر من ثم «نيغرو» وسجل الاسم. «لكنك لم تكتب نيغرو»، صرخ المدير في وجهه. «أجل، نيغرو»، قال الكاتب بهدوء وقام بحركة يد وكأن على المدير الآن أن يقرر البقية. كما أن المدير تمالك نفسه، نهض وقال: «أنت إذاً لمسرح أوكلاهاما ـ.» لكنه لم يواصل، لم يكن في مقدوره أن يعمل شيئاً ضد ضميره، فجلس وقال: «لا يُدعى نيغرو.» رفع الكاتب حاجبيه، نهض بدوره وقال: «إذاً أعلمك أنك قُبلت لمسرح أوكلاهاما وأنك سوف تُقدّم الآن إلى رئيسنا.» مرة أخرى جرى استدعاء خادم، اقتاد كارل إلى منصة التحكيم.

في الأسفل على الدرج رأى كارل عربة الأطفال وفي هذه اللحظة أيضاً هبط الزوجان، والمرأة تحمل الطفل على ذراعيها. «هل قُبلتَ؟» سأل الرجل، وكان أكثر حيوية بكثير من السابق، والمرأة أيضاً نظرت إليه ضاحكة من فوق كتفها. إذ أجاب كارل بأنه قُبل لتوّه وأنه ذاهب للتقديم، قال الرجل: «إذاً إنني أهنئك. نحن أيضاً قُبلنا، يبدو أنها مؤسسة جيدة، لكن لا يستطيع المرء أن يلمّ بكل شيء على الفور، كذلك هو الحال في كل مكان.» كما قالوا لبعضهم «إلى اللقاء» وصعد كارل إلى المنصة. سار على مهل، إذ إن المكان الضيق في الأعلى بدا مزدحماً وهو لم يكن يرغب في أن يزجّ بنفسه. بل إنه مكث واقفاً وشمل بنظره حلبة السباق الفسيحة التي كانت تصل في جميع الجهات إلى الغابات البعيدة. تملكته رغبة في أن يشاهد ذات مرة سباق خيل، في أمريكا لم يكن قد وجد فرصة بعد لهذا الغرض. في أوروبا أخذوه ذات مرة وهو طفل صغير إلى سباق، غير أنه لم يستطع أن يتذكر شيئاً آخر سوى أن

أمه كانت تسحبه بين ناس كثيرين لم يشاؤوا أن يتفرقوا عن بعضهم. لم يكن إذاً في الحقيقة قد شاهد سباقاً إطلاقاً. وراءه بدأت آلات تصرّ، فاستدار وشاهد على الآلة، التي يُنشر عليها أثناء السباق أسماء الفائزين، الكتابة التالية ترتفع إلى الأعلى: «التاجر كالاّ مع زوجة وطفل.» هنا يجري إذاً إعلام المكاتب أسماء المقبولين.

في هذه اللحظة كان بضعة رجال يهبطون الدرج وهم يتحادثون بحيوية ويحملون بأيديهم أقلاماً ودفاتر ملاحظات، التصق كارل بالدرابزين لكي يفسح لهم الطريق وصعد إلى الأعلى حيث بات الآن مجال كاف. في أحد زوايا المنصة ذات الدرابزين الخشبي - كان المجموع يبدو مثل سطح مستو لبرج ضيق - كان يجلس سيد وقد مدّ ذراعيه على طول الدرابزين وعلّق فوق صدره شريطاً حريرياً عريضاً أبيض اللون كتب عليه: رئيس فرقة الدعاية العاشرة التابعة لمسرح أوكلاهاما. إلى جانبه كان على طاولة صغيرة جهاز هاتف لا ريب أنه يُستخدم لدى السباق، عبره يعلم رئيس الفرقة على ما يبدو قبل العرض كل البيانات الضرورية عن المتقدمين، إذ إنه لم يطرح على كارل في بداية الأمر أية أسئلة، بل قال لأحد الرجال الذي كان يستند إلى جانبه وقد عقد ساقيه ووضع يده على ذقنه: «نيغرو، تلميذ مدرسة متوسطة أوروبي.» وكأن أمر كارل، الذي قام بانحناءة كبيرة، قد انتهى بهذا بالنسبة له، نظر إلى الدرج علّ أحداً يأتي. لكن إذ لم يأت أحد، فقد راح يستمع أحياناً إلى الحديث الذي كان الرجل الآخر يجريه مع كارل، غير أنه كان في الغالب يمدّ بصره فوق ميدان السباق ويربت بأصابعه على الدرابزين. هذه الأصابع الناعمة والقوية رغم ذلك، الطويلة وسريعة الحركة، كانت بين وقت وآخر تحوّل انتباه كارل إليها رغم أن السيد الآخر كان يشغله بما فيه الكفاية.

«هل كنت عاطلاً عن العمل؟» سأل هذا السيد في أول الأمر. هذا السؤال كما جميع الأسئلة تقريباً التي طرحها كانت في غاية البساطة، وبريئة كل البراءة، وفوق ذلك لم تجر مراجعة الأجوبة عليها بأسئلة اعتراضية، لكن رغم ذلك كان السيد يعرف، بالطريقة التي كان ينطقها بها وقد اتسعت عيناه، كيف كان يراقب تأثيرها وهو يحني القسم العلوي من جسمه، كيف كان يستقبل الأجوبة وقد خفض رأسه فوق صدره ويرددها بصوت عال بين الفينة والأخرى، أن يمنحها أهمية خاصة، هذه الأهمية التي لم يكن المرء يفهمها حقاً، لكن الإحساس الداخلي بها كان يثير حذراً وارتباكاً. وقد حدث مرات عديدة أن كانت نفس كارل تهفو إلى أن يتراجع عن الجواب المعطى ويستعيض عنه بجواب آخر قد يكون خليقاً أن يجد استحساناً أكثر، إلا أنه كان في كل مرة يتمالك نفسه، فقد كان يعلم كم أنه لا بدّ لمثل هذا التأرجح أن يعطي انطباعاً سيئاً وكم كان فوق ذلك تأثير الأجوبة تأثيراً لا يقدّر في معظم الحالات. لكن بالإضافة إلى ذلك، فإن قبوله بدا أنه قد حُسم، هذا الوعي منحه سنداً.

السؤال في ما إذا كان عاطلاً عن العمل، أجاب عنه بكلمة «نعم» بسيطة. «أين كنت

تعمل أخيراً؟» سأل السيد من ثم. همّ كارل ليجيب، هنا رفع السيد السبابة وقال مرة أخرى: «أخيراً!» كان كارل قد فهم السؤال الأول فهماً صحيحاً، وعلى نحو لا شعوريّ نفض الملاحظة الأخيرة برأسه بصفتها ملاحظة مربكة وأجاب: «في مكتب.» كان هذا ما زال الحقيقة، لكن لو كان من شأن السيد أن يطلب معلومة أكثر تفصيلاً عن نوع المكتب، فكان لا بدّ له من أن يكذب. لكن السيد لم يفعل ذلك، بل طرح السؤال الذي تجب الإجابة عليه بسهولة للغاية وطبقاً للحقيقة كلياً: «هل كنت هناك مرتاحاً؟» «لا»، نادى كارل وهو يكاد يقاطعه في حديثه. لدى نظرة جانبية لاحظ كارل أن الرئيس ابتسم قليلاً، فندم كارل على طريقة إجابته الأخيرة بلا روية، غير أن الأمر كان مغرياً بإعلان اللا على الملأ، حيث إنه كان طوال خدمته الأخيرة تتملكه رغبة كبيرة بأن يأتي صاحب عمل غريب كائناً من كان ويوجه له هذا السؤال. غير أنه ما زال يمكن لجوابه أن يجلب ضرراً آخر، حيث يمكن للسيد أن يسأله الآن لماذا لم يكن مرتاحاً. لكنه سأل بدلاً من ذلك: «لأي عمل تشعر أنك مناسب؟» من الجائز أن يكون هذا السؤال قد تضمّن في الحقيقة شركاً، إذ لأي غرض سُئل، طالما أن كارل قد تمّ قبوله كممثل، لكنه رغم أنه أدرك هذا، فإنه لم يقدر أن يحمل نفسه على الإعلان بأنه يشعر أنه يناسب مهنة الممثل على وجه الخصوص. لذا فإنه تجنب السؤال وقال ولو كان مهدداً بأن يبدو صعب المراس: «قرأت اللافتة في المدينة ولأنه جاء فيها أنه يمكن تشغيل كل فرد، فقد تقدمت.» «هذا نعرفه»، قال السيد وصمت وبيّن بذلك أنه يصرّ على سؤاله السابق. «لقد تمّ قبولي كممثل»، قال كارل متردداً، لكي يُفهم السيد الصعوبة التي كان السؤال الأخير قد سبّبها له. «هذا صحيح»، قال السيد ولاذ بالصمت مرة أخرى. «حسناً»، قال كارل وكامل الأمل بأنه قد وجد عملاً، راح يتزعزع، «لا أدري فيما إذا كنت أناسب التمثيل في المسرح. لكنني أريد أن أبذل جهداً وأحاول أن أنفذ كل المهمات.» توجه السيد إلى رئيس الفرقة، وأطرق كلاهما، وبدا كارل أنه أجاب إجابة صحيحة، فتشجع وراح ينتظر وهو منتصب القامة السؤال التالي. وكان هذا: «ماذا كنت تريد أن تدرس في الأصل؟» ولكي يحدد السؤال بدقة ـ كان السيد يهتم كل الاهتمام بالتحديد الدقيق ـ أضاف: «أقصد في أوروبا.» وهنا رفع يده عن ذقنه وقام بحركة واهنة وكأنه إنما يريد بذلك أن يُلمح كم هي بعيدة أوروبا وكم هي الخطط المتخذة هناك قليلة الأهمية. قال كارل: «كنت أريد أن أصبح مهندساً.» صحيح أن هذا الجواب لم يكن يرضيه، كان مما يدعو للسخرية وهو في وعيه التام لمساره حتى الآن في أمريكا أن يجدد هنا مرة أخرى ذكرياته القديمة أنه أراد ذات مرة أن يصبح مهندساً ـ هل كان خليقاً إذاً حتى في أوروبا أن يصبحه في يوم من الأيام ـ غير أنه لم يكن يعرف الآن جواباً آخر ولذا فإنه قال هذا الجواب. لكن السيد أخذ كل شيء على محمل الجد. «حسناً مهندس»، قال، «لا ريب أنه ليس في مقدورك أن تصبح ذلك في الحال، ربما من شأن الأمر أن يناسبك

حالياً أن تقوم بأية أعمال تقنية دنيا.» «بالتأكيد»، قال كارل، كان راضياً للغاية، صحيح أنه، إذا قبل العرض، جرت تنحيته من فئة الممثلين إلى العمال الفنيين، لكنه كان يعتقد فعلاً أنه في مقدوره أن يثبت كفاءته في هذا العمل على نحو أفضل. وقد كرر هذا لنفسه مراراً وتكراراً، فإن الأمر لا يتوقف على نوع العمل إلى درجة كبيرة جداً هكذا، بل بالأحرى على أن يثبت المرء بعامة في مكان ما. «هل أنت إذاً قوي البنية بما فيه الكفاية من أجل عمل جسدي أكثر مشقة؟» سأل السيد. «أوه نعم»، قال كارل. هنا دعا السيد كارل للاقتراب منه وتحسس ذراعه. «إنه فتى قوي»، قال من ثم وهو يجذب كارل من ذراعه إلى رئيس الفرقة. أومأ الرئيس مبتسماً، مدّ يده إلى كارل دون أن يرفع رأسه وقال: «لقد انتهينا إذاً. في أوكلاهاما سوف يجري فحص كل شيء مرة أخرى. شرّف فريقنا!» انحنى كارل للوداع، كان يريد من ثم أن يودع السيد الآخر أيضاً، لكن هذا راح يتمشى على المنصة ذهاباً وإياباً وقد رفع وجهه إلى الأعلى وكأنه انتهى من عمله على نحو كامل. بينما كان كارل يهبط، جرى على جانب الدرج رفع الكتابة التالية على لوحة الإعلانات: «نيغرو، عامل تقني.» ولأن كل شيء هنا كان يأخذ مجراه المنظّم، فإنه ما كان من شأن كارل أن يأسف فيما لو كان يمكن قراءة اسمه الحقيقي على اللوحة. بل كان كل شيء منظّماً بعناية فائقة، إذ في أسفل الدرج كان ينتظر كارل خادم قام بتثبيت شريط على ذراعه. وإذ رفع كارل الذراع من ثم كي يرى ماذا كتب عليه، كانت هناك الطباعة الصحيحة «عامل تقني.»

سيّان إلى أين يُقاد كارل، فإن أول ما أراد أن يفعله هو أن يُعلم فانّي كم سار كل شيء بسلام. لكن للأسف علم من الخادم أن الملائكة كما الشياطين قد رحلوا إلى المكان التالي المحدد لفرقة الدعاية، وذلك لكي يعلنوا عن وصولها في اليوم التالي. «خسارة»، قال كارل، كانت هذه هي خيبة الأمل الأولى التي عاشها في هذه المؤسسة، «كان لديّ إحدى المعارف بين الملائكة» «سوف تلتقي بها في أوكلاهاما»، قال الخادم، «لكن هيا الآن، إنك الأخير.» واقتاد كارل على طول جانب المنصة الخلفي، الذي كان يقف عليه الملائكة سابقاً، والآن لم يكن هناك سوى القواعد الخالية. لكن ظنّ كارل بأنه لولا موسيقى الملائكة كان من شأن باحثين عن عمل أكثر أن يأتوا، تبيّن أنه غير صحيح، إذ لم يعد يقف الآن أمام المنصة بالغون، فقط بعض الأولاد كانوا يتنازعون حول ريشة طويلة بيضاء اللون، كانت على الأرجح قد سقطت من جناح أحد الملائكة. كان أحد الصبية يرفعها عالياً، بينما كان الأولاد الآخرون يريدون أن يضغطوا رأسه بيد واحدة ويمدّوا الأخرى نحو الريشة.

أشار كارل إلى الأطفال، لكن الخادم قال دون أن ينظر نحوهم: «تعال بسرعة أكبر، لقد استغرق قبولك مدة طويلة جداً. كان لديهم شكوك ولا ريب؟» «لا أدري»، قال كارل

مندهشاً، غير أنه لم يكن يظن ذلك. دائماً، حتى لدى أكثر الظروف وضوحاً، كان هناك أحد ما يريد أن يثير مخاوف أخيه الإنسان. لكن أمام المنظر اللطيف لمنصة المتفرجين الكبيرة، التي وصلا إليها الآن، سرعان ما نسي كارل ملاحظة الخادم. إذ على هذه المنصة كان ثمة مقعد طويل للغاية مغطى بقماش أبيض، وجميع المقبولين كانوا يجلسون بظهورهم إلى حلبة السباق إلى المقعد الطويل التالي الأدنى. جميعهم كانوا منشرحي الصدر ومنفعلين، وفي اللحظة التي جلس فيها كارل على المقعد كآخرهم ودون أن يلاحظه أحد، نهض كثيرون وهم يرفعون كؤوسهم ودعا أحدهم إلى أن يشربوا نخب رئيس فرقة الدعاية العاشرة، الذي أطلق عليه اسم «أب الباحثين عن عمل.» ولفت أحدهم الانتباه إلى أنه يمكن رؤيته من هنا أيضاً وفعلاً كانت منصة التحكيم مع السيدين مرئية على مسافة غير بعيدة. والآن راح الجميع يلوّحون بكؤوسهم في هذا الاتجاه، وكارل أيضاً أمسك الكأس الموضوعة أمامه، لكن مهما نادى المرء بصوت عال ومهما حاول المرء أن يلاحَظْ، فإنه لم يكن شيء على منصة التحكيم يشير بأن أحداً قد لاحظ التهليل أو على الأقل بأنه يريد أن يلاحظ. كان الرئيس يستند في الزاوية مثلما كان في السابق والسيد الآخر كان يقف إلى جانبه، وقد وضع يده على ذقنه.

عادوا إلى الجلوس وقد أصيبوا ببعض الخيبة، وبين الفينة والأخرى كان أحدهم يستدير نحو منصة التحكيم، لكن بعد قليل لم يعودوا يشغلون أنفسهم سوى بالطعام الوافر، دواجن كبيرة كما لم يكن كارل قد رأى قط، لحوم مقلية مقمّرة غرزت فيها شوك كثيرة، تحمل إلى المائدة، وكان الخدم يصبّون النبيذ مراراً وتكراراً ـ لم يكن المرء يكاد يلاحظ الأمر، كان منحنياً فوق صحنه وفي الكأس يتدفق النبيذ الأحمر ـ ومن لم يكن يريد أن يشارك في الحديث العام، كان في وسعه أن يشاهد صور مسرح أوكلاهاما، التي كانت مكوّمة على طرف المائدة والتي كان عليها أن تنتقل من يد إلى أخرى. رغم ذلك لم يهتم المرء بالصور كثيراً وهكذا حدث أنه لم يصل إلى كارل، الذي كان آخر من حضر، سوى صورة واحدة. لكن استنتاجاً من هذه الصورة كانت جميعها جديرة بالمشاهدة. كانت هذه الصورة تمثل مقصورة رئيس الولايات المتحدة. لدى النظرة الأولى كان في مقدور المرء أن يفكر أنها ليست مقصورة، بل المسرح، كان الدرابزين يبرز وهو ينساب ممتداً في الفضاء الطليق. كان هذا الدرابزين من الذهب الخالص في جميع أجزائه. بين الأعمدة التي تبدو كأنها نُحتت بأرفع مقص ثُبّتت مصفوفة إلى جانب بعضها صور بيضاوية الشكل لرؤساء سابقين، لدى أحدهم كان أنف مستقيم لافت للنظر، وشفتان غليظتان وعينان مخفضتان على نحو ثابت تحت أجفان مقوسة. من حول المقصورة، من الجوانب ومن الأعلى كانت أشعة ضوء تسقط؛ كان ضوء أبيض ورغم ذلك هادئ يكشف بكل معنى الكلمة مقدمة المقصورة، بينما كان عمقها، تحت تلوينات متعددة

لقطيفة ذات ثنايا تسقط على كامل الإطار موجهة بأربطة، يبدو فراغاً معتماً يلمع لوناً ضارباً للحمرة. لم يكن في وسع المرء أن يتصور بالكاد بشراً في هذه المقصورة، كان كل شيء يبدو متحكماً للغاية. لم ينس كارل الطعام، لكنه نظر كثيراً إلى الصورة، التي كان قد وضعها إلى جانب صحنه.

كان بودّه أخيراً أن يشاهد على الأقل واحدة من بقية الصور، لكنه لم يشأ أن يحضرها بنفسه، حيث إن أحد الخدم كان قد وضع يده فوق الصور ولا بدّ من المحافظة على تسلسلها، فراح إذاً يحاول أن يشمل المائدة بنظره ويتبيّن في ما إذا كانت صورة ما تقترب. هنا لاحظ مندهشاً ـ في البداية لم يصدق الأمر قط ـ بين الوجوه الأكثر انحناء إلى الطعام وجهاً معروفاً جيداً ـ غياكومو. على الفور جرى إليه. «غياكومو»، نادى. نهض هذا، خجول مثلما هو دائماً عندما يفاجأ، عن الطعام، استدار في المكان الضيق بين المقاعد، مسح فمه بيده، لكنه كان من ثم فرحاً برؤية كارل، طلب منه أن يجلس إلى جانبه أو عرض أن يأتي إلى مكان كارل، كانا يريدان أن يرويا لبعضهما كل شيء ويبقيا معاً دائماً. لم يكن كارل يريد أن يزعج الآخرين، لذا ليحتفظ كل منهما بمكانه إلى حين، سوف ينتهي الطعام قريباً وطبعاً يريدان ان يتعاضدا دائماً. لكن كارل مكث رغم ذلك لدى غياكومو، لكي يراه ليس إلا. أية ذكريات من الأيام الماضية! أين كانت كبيرة الطباخين؟ ماذا كانت تيريزا تعمل؟ غياكومو نفسه لم يكن قد تغير في مظهره الخارجي تقريباً، ونبوءة كبيرة الطباخين، بأنه سوف يصبح ولا بدّ خلال نصف عام أمريكياً قوي العظام، لم تتحقق، كان ضعيفاً كما كان سابقاً، أجوف الخد مثل السابق، لكن وجنتيه كانتا الآن مستديرتين، إذ كان يمضغ قطعة لحم كبيرة للغاية راح يسحب منها ببطء العظام الزائدة عن اللزوم، لكي يلقيها على صحنه من ثم. كما استطاع كارل أن يقرأ على شريط ذراعه، لم يكن غياكومو قد قُبل كممثل، بل صبي مصعد، إن مسرح أوكلاهاما بدا فعلاً أنه يستطيع أن يستخدم كل فرد.

لكن كارل، وهو شارد الذهن في رؤية غياكومو، مكث بعيداً عن مكانه مدة أطول من اللازم، والآن أراد أن يعود، في هذه اللحظة قدم رئيس قلم المستخدمين، صعد فوق أحد المقاعد الأكثر ارتفاعاً، صفق بيديه وألقى كلمة قصيرة، بينما نهضت الأغلبية والذين ظلوا جالسين ولم يستطيعوا الاستغناء عن الطعام جرى إرغامهم أخيراً على النهوض أيضاً بلكزات من الآخرين. «أريد أن آمل»، قال، وكان كارل في هذه الأثناء قد عاد إلى مكانه سائراً على أطراف أصابعه، «أنكم كنتم راضين عن طعامنا للاستقبال. عموماً يطري المرء على طعام فرقتنا الدعائية. مع الأسف يجب عليّ أن أرفع المائدة الآن، فالقطار الذي سينقلكم إلى أوكلاهاما ينطلق بعد خمس دقائق. صحيح أنها سفرة طويلة، لكنكم سوف ترون أنه يُعتنى بكم خير عناية. هنا أقدم لكم السيد الذي سوف يتولى نقلكم والذي تدينون له بالطاعة.» رجل قصير

القامة نحيل تسلق المقعد الذي يقف عليه مدير إدارة العاملين، عزّ عليه أن يأخذ لنفسه برهة من الوقت ليقوم بانحناءة عابرة، بل بدأ على الفور يشير بيدين ممدودتين عصبيتين كيف ينبغي على الجميع أن يجتمعوا وينتظموا ويتحركوا. لكن في البداية لم يتبعه أحد، إذ إن ذلك الشخص من الجماعة الذي كان قد ألقى كلمة في السابق، ضرب بيده على الطاولة وشرع في إلقاء كلمة شكر أكثر طولاً، رغم أنه ـ هنا اضطرب كارل على نحو بالغ ـ كان قد قيل للتوّ بأن القطار ينطلق قريباً. لكن المتكلم لم يراع حتى كون مدير إدارة العاملين لم يكن يستمع بل كان يعطي المشرف على النقل تعليمات متنوعة، لقد تعمّد أن يطيل الحديث، راح يعدد أصناف الأطعمة التي كانت قد قُدمت، أبدى حكمه على كل صنف واختتم من ثم موجزاً بالنداء: «السادة المحترمون، هكذا يكسبنا المرء.» وضحك الجميع ما عدا المخاطَبين، لكن الأمر كان حقيقة أكثر منه دعابة.

جوزي هذا الخطاب فوق ذلك بأنه وجب الآن قطع الطريق إلى القطار بسير مسرع. لكن ذلك لم يكن أيضاً في غاية الصعوبة، إذ إن ـ كارل لاحظ ذلك الآن فقط ـ ما من أحد كان يحمل متاعاً ما ـ كان المتاع الوحيد هو عربة الأطفال، التي كانت الآن في مقدمة الركب يسوقها الأب وهي تقفز صعوداً وهبوطاً بلا سند. أي ناس معدمون مشبوهون كانوا قد تجمعوا هنا واستقبلوا رغم ذلك استقبالاً حسناً وجرت رعايتهم! ولا بدّ أنهم كانوا محلّ اهتمام المشرف على النقل كما يبدو. ما لبث أن أمسك بنفسه بإحدى يديه عارضة التوجيه لعربة الأطفال ورفع اليد الأخرى لتنشيط الركب، مرة كان وراء الصف الأخير الذي كان يسوقه، ومرة كان يجري إلى الجانب، يتأمل الأفراد المتباطئين ويحاول أن يمثل لهم بتلويح ذراعيه كيف يجب عليهم أن يجروا.

حين وصلوا إلى المحطة، كان القطار يقف جاهزاً. راح الناس في المحطة يشيرون لبعضهم إلى المجموعة، كان المرء يسمع نداءات مثل «كل هؤلاء يخصّون مسرح أوكلاهاما»، وبدا المسرح معروفاً أكثر بكثير مما كان كارل يفترض، لكنه لم يكن قد اهتم يوماً بأمور مسرح. كانت قاطرة كاملة قد خصصت للمجموعة، وراح المشرف على النقل يلحّ على الصعود أكثر مما كان الكمساري يفعل. كان ينظر أولاً إلى كل مقصورة مفردة وينظم شيئاً ما هنا وهناك وبعد ذلك فحسب صعد بنفسه من ثم. كان كارل قد حصل مصادفة على مقعد نافذة وسحب غياكومو إلى جانبه. وهكذا جلسا متلاصقين، وكان كلاهما في الحقيقة مغتبطاً بالرحلة، خليّ القلب هكذا لم يكن أحدهما قد قام برحلة في أمريكا. حين شرع القطار في التحرك، لوّحا بأيديهما من النافذة، في حين أن الصبية قبالتهما لكزوا بعضهم ووجدوا الأمر مثيراً للسخرية.

سافروا طوال نهارين وليلتين. الآن فقط أدرك كارل مدى اتساع أمريكا. بلا كلل راح ينظر من النافذة وغياكومو راح يتدافع مدة طويلة حتى ضاق به الصبية قبالتهما الذين كانوا مشغولين بلعب الورق وأفسحوا له مقعد النافذة طواعية. شكرهم كارل ـ لم تكن إنكليزية غياكومو مفهومة لكل فرد ـ وباتوا مع مضيّ الوقت، كما لا يمكن للأمر أن يكون على نحو آخر بين رفاق مقصورة، أكثر ودّاً، ولكن كثيراً ما كان ودّهم مزعجاً، إذ إنهم كانوا دائماً عندما تسقط منهم ورقة على الأرض ويروحون يبحثون عنها، كانوا يقرصون ساق كارل أو غياكومو بكل قوة. كان غياكومو يصرخ من ثم، وكان يفاجأ في كل مرة من جديد، ويرفع ساقه إلى الأعلى، بينما كان كارل يحاول في بعض الأحيان أن يردّ بركلة من قدمه، أما في ما عدا ذلك، فإنه كان يحتمل كل شيء وهو صامت. كل ما كان يجري في المقصورة الصغيرة المليئة بالدخان حتى بوجود نافذة مفتوحة، كان يتبدد أمام ما كان يُشاهد في الخارج.

في اليوم الأول سافروا عبر سلسلة جبال عالية. كتل صخرية زرقاء اللون ضاربة إلى السواد كانت تقترب في أسافين مدببة حتى تصل إلى القطار، كان المرء ينحني من النافذة ويبحث عبثاً عن قممها، كان ثمة أودية معتمة ضيقة تنفتح، كان المرء يتتبع بالأصبع الاتجاه الذي كانت تتلاشى فيه، كانت أنهار جبلية عريضة تأتي بسرعة كأمواج ضخمة على الخلفية كثيرة التلال وهي تسوق في نفسها آلافاً من أمواج الزبد الصغيرة، كانت تندفع تحت الجسور التي كان القطار يندفع فوقها وكانت قريبة إلى حد أن نفحة برودتها كانت تدع الوجه يرتعش.

II ـ دراسات

١ - نشوء الرواية

في ٢٥ شباط ١٩١٢ كتب كافكا في يومياته: **منذ اليوم التمسك باليوميات! الكتابة بانتظام! عدم التخلي عن الذات! إذا لم يأت إنقاذ، فإنني أريد رغم ذلك أن أكون في كل لحظة جديراً به**(*). هذا أمل كان يتوقع تحقيقه على نحو واضح، كما ذكر لاحقاً، في معرض مشروع **المفقود**. وفي اليوم التالي كتب: **ثقة بالنفس أفضل. دقات قلب قريبة من الأمنيات.** هذه صفة تستخدم عادة فيما عدا ذلك في الإعلان عن إنتاج موفق، وكانت منذ ذلك الوقت شرطاً ضرورياً لتقييم ذات إيجابي إلى هذا الحد. وفقط قبل بضعة أسابيع من ذلك كان كافكا قد أدرك الكتابة قدَراً حقيقياً له، كان مستعداً أن يقبل من أجله إهمال الاهتمامات الأخرى والعلاقات الإنسانية. وفيما بعد كتب في يومياته: **قدَري بسيط للغاية. إن الحس لتصوير حياتي الباطنية الحلمية أزاح كل شيء آخر إلى الثانوي، وهذا ضمر على نحو مخيف ولا يتوقف عن الضمور. وما من شيء آخر يقدر أن يرضيني.**

هناك عاملان رئيسيان أثارا عملية الإبداع لديه. العامل الأول هو رحيل الفرقة المسرحية الضيفة التي كان قد تعرف على الممثل الرئيسي فيها واتخذه صديقاً له منذ تشرين الأول ١٩١١، وأحب ممثلة فيها يمكن أن تكون لم تلاحظ حبه لها. وقد ترك الانفصال عن هذين الشخصين في نفس كافكا مشاعر العزلة والحزن وضآلة الشأن. ويمكن مقارنة هذه المشاعر بما تعرض له كافكا لاحقاً في صيف عام ١٩١٤ بعد فسخ خطوبته مع فيليس باور. هنا أيضاً يجب فهم عمل كافكا في **المحاكمة**، هذا العمل الذي بدأه نتيجة ذلك تعويضاً عن علاقات انقطعت.

والعامل الثاني هو نزاعات عائلية بسبب عدم رضى أسرته عن عمله في معمل أسبست (مادة عازلة اصطناعية تستخدم في البناء) كان والده قد أسسه مؤخراً. كان هرمان كافكا يرغب في أن يشرف ابنه على المعمل بعد الانتهاء من عمله الوظيفي. وقد نفذت اتهامات

(*) كل ما هو مطبوع بخط غامق هو استشهاد من كتابات كافكا (ا. و).

والده له إلى أعماق روحه وأنتجت مشاعر ذنب شديدة لديه، بل إنه فكر مرة بالانتحار. أهمية هذه الحادثة بالنسبة للكتابة تضيئها حقيقة أن تكرارها في تشرين الأول ١٩١٢ أثّر تأثيراً حاسماً في تطوير أحداث قصة **الانمساخ**.

إن النزاع العائلي هو نواة رواية **المفقود**. والنزاع الذي قام في ٦ آذار كان آخر ذروة لخلافات كانت قد استمرت طوال أشهر ووضعت كافكا لأول مرة في تناقض مبدئيّ واع مع والديه اللذين باتا يعتبرانه عضو أسرة طفيلياً ضارّاً لأنه يزعج سلام الأسرة. وراح يشعر بأنه مطرود من الأسرة.

كما أن التناقض الصارخ بين العمل الوظيفي وشروط الإبداع الأدبي أدى بشكل رئيسي إلى هذا التوجه الجديد، الذي كانت نتيجته أن كافكا قام بتاريخ ١١ آذار ١٩١٢ بإتلاف أقسام كبيرة من أعماله الأولى، بينها على الأرجح الصيغة الأولى لرواية **المفقود**.

تظهر التوترات النفسية التي كان نزاع ٦ آذار قد أثارها أو جدّدها، تظهر بطريقتين في مشروع الرواية الذي شرع فيه كافكا بعد عشرة أيام من وقوع هذا النزاع. أولاً يحاول كافكا أن يعرض النتائج التي من شأن طرده من الأسرة، هذا الطرد اللفظي، أن يستتبعها لو كان في صباه قد خاطر وهاجر، مع أمل أن يتصالح مع أهله. بالتوافق مع هذا نرى أن كارل روسمان يتوق إلى اعتراف والديه به.

يمكن الاستخلاص فعلاً أن كافكا كان في مطلع عام ١٩١٢ ينوي مغادرة براغ. كما تكرر هذا الوضع في صيف عام ١٩١٤ بعد فشل محاولته الأولى للزواج، حيث كان يريد الاستقالة من عمله الوظيفي والبحث عن عمل خارج البلاد. كانت هذه الخطة بمثابة بديل عن الزواج للتغلب على مصاعبه ومواجهة التاجر وعائل الأسرة هرمان كافكا على قدم المساواة. فيما بعد بات كافكا يرى أنه لا يمكن لمثل هذه الخطوة أن تنجح سوى في سن الصبا.

في آذار ١٩١٢ ارتبط إثبات الوجود في الغربة بشكل منطقي مع إذلالات ومخاوف قديمة أدركها كافكا الآن سبباً لمصاعبه القائمة في الحياة. فمثلاً في سن السادسة عشرة عاش كافكا مع والده تجربة غريبة نتج عنها صدمة نفسية أصابت حياته الجنسية فيما بعد، حيث قدم له والده نصيحة في منتهى الغرابة بأن يزور محل بغاء. للتخلص من الضغط النفسي لهذه التجربة الأساسية، التي وصل تأثيرها حتى إلى رواية **القلعة**، كتب كافكا في ١٠ آذار مشهد إغراء عكسه بعد ستة أيام على كارل روسمان ذي الستة عشر عاماً، حيث يطرده والداه إلى أمريكا **لأن خادمة كانت قد أغوته وأنجبت منه طفلاً**. انطلاقاً من هذا الأصل يمكن فهم حقيقة أن كافكا تلا على والديه فيما بعد الفصل الأول من **المفقود**، وكان يرى أنه لا يوجد ناقد للنص أفضل من والده غير المتعلم بتاتاً.

لجأ كافكا في آذار ١٩١٢ إلى الشكل الملحمي الكبير أولاً لأن كتابة رواية ناجحة

جديرة أن تكون بالنسبة له أفضل شرط للتخلي عن وظيفة كسب الرزق، وثانياً لمحاولة حل أزمته النفسية التي كان يعيشها آنذاك. في أواخر عام ١٩١١ تشكلت لديه رغبة قوية في كتابة سيرة حياة يرتّب فيها **مادة الأحداث** بوضوح وعلى نحو إجمالي لكي يتخذها أساساً يبني عليه قرارات قادمة في طريق حياته. ومما أثّر فيه في تلك الفترة كتاب سيرة حياة غوته «إبداع وحقيقة»، هذا الكتاب الذي شغل نفسه به بين كانون الأول ١٩١١ وشباط ١٩١٢.

كان كافكا يعطي الخيال إمكانيات إدراك الذات نفسها التي يمتلكها الواقع عادة. وعلى مستوى الخيال لا يمكن أن يقوم بهذه المهمة سوى شبكة واسعة النطاق ثرية بالعلاقات، شبكة رواية تصلح لتطوير أكثر الجوانب تناقضاً في معضلة من المعضلات انطلاقاً من منشئها وبكافة عواقبها المتنوعة.

بعد حالة النشوة التي عاشها كافكا نتيجة نجاحه في كتابة قصة **الحكم** ليلة ٢٢ ـ ٢٣ أيلول ١٩١٢، شرع في كتابة صيغة ثانية لرواية **المفقود** شغلته على نحو متواصل لغاية منتصف كانون الثاني من العام التالي، مع انقطاع طويل واحد اقتضته كتابة قصة **الانمساخ** بين ١٧/١١ و٨/١٢/١٩١٢. ويمكن تفسير هذا الوضع على أفضل وجه بالقول إن المعضلة التي أثارت وحملت مشروع الرواية كانت قد تجددت.

الحمل الثاني لأخته إلّي وقرب خطوبة أخته الثانية فالّي وقرب خطوبة صديقه ماكس برود، الذي تراسل كافكا مع خطيبته في ١٩ أيلول، هذه الأحداث دعته ولا بدّ إلى أن يشعر بتفاهة عزوبيته، ولهذا كان لقاؤه الأول مع فيليس باور في ١٣ آب قد سحره، فشرع في مراسلتها كي يكسبها زوجة.

إن التوازي مع الوضع الداخلي في آذار جليّ. كافكا، وحيد، مدان من قبل أهله، قابل للزواج من طرف، رافض له من طرف آخر بسبب الرغبة في الكتابة، حاول في كلتا المرتين أن يعوّض عن مشاعر النقص التي نشأت لديه، بأن قام في مطلع الربيع بالاستطلاع كتابياً إلى أي حد يمكن لحياة في الغربة مستقلة عن الأسرة أن تجد اعترافاً من قبل الوالدين، والآن بأن حاول في مطلع الخريف بالتمهيد بالرسائل لزواج من شأنه أن يساوي بينه وبين الوالد.

لكن بسبب ضعف أناه، هذا الضعف الناتج عن التربية الخاطئة التي تعرض لها، فإن محاولة الحل هذه خلقت في نفسه مخاوف علاقات ألهمته كتابة قصة **الحكم** ليلة ٢٢ ـ ٢٣ أيلول. في حين سبقت طاقة إبداعه هنا خيالياً مجرى الشراكة الذي كان يخشاه ولا يبشّر بخير، اقترب من الوضع الذي كان فيه واقعياً في أيلول، واقترب من وضعه في آذار أكثر: في **الحكم** يجري نفي إمكانية زواج جيورج بندمان (وبهذا كافكا)، لكنه في الوقت نفسه كسب

احترام نفسه ككاتب، وذلك لأنه أحس نشوء هذه القصة بمثابة اختراق أظهر موهبته الفنية، التي حققت جميع توقعاته بهذا الخصوص. لذا توطد لديه الإدراك الذي اكتسبه في مطلع العام بأنه لا يستطيع أن يحقق ذاته سوى في مجال الكتابة.

في ١٩١٢/١١/١١ كتب كافكا رسالة إلى فيليس باور تمثل شهادة نشوء في غاية الأهمية وذات دلالة كبيرة على ما كانت هذه الرواية تعنيه بالنسبة لكافكا آنذاك. إنها الرسالة الأولى التي يذكر فيها كافكا شيئاً تفصيلياً عن كتابته، التي كان قبل ذلك يشير إليها تلميحاً وحسب. **القصة التي أكتبها والتي لا آخر لها هي، كي أعطيك مفهوماً مؤقتاً، بعنوان «المفقود»، وتجري أحداثها فقط في الولايات المتحدة الأمريكية الشمالية. وقد فرغت من كتابة خمسة فصول والفصل السادس تقريباً. وعناوين الفصول هي: I ـ الوقّاد II ـ الخال III ـ فيلاّ في ريف نيويورك IV ـ المسير إلى رمسيس V ـ في فندق أوكتسيتندال VI ـ الحالة روبنسون. ـ لقد سمّيت هذه العناوين وكأن في مقدور المرء أن يتصور شيئاً ما في هذه التسمية، هذا لا يمكن طبعاً، لكنني أريد أن أحفظ هذه العناوين لديك حتى يصبح هذا ممكناً. إنه العمل الكبير الأول الذي أشعر فيه بالراحة منذ شهر ونصف الشهر بعد عناء لا عزاء فيه، باستثناء لحظات، استمر خمسة عشر عاماً.**

بعد ذلك استمر كافكا في سلسلة طويلة من الأيام ـ أو من الليالي بتعبير أفضل ـ في كتابة هذه الرواية (مع انقطاع طويل واحد اقتضته كتابة قصة **الانمساخ** ودامَ من ١١/١٧ لغاية ١٩١٢/١٢/٨).

وفي منتصف كانون الثاني من العام التالي وقع كافكا في مصاعب متزايدة أرغمته أخيراً يوم ١٩١٤/١/٢٤ على التوقف أصلاً عن الكتابة فيها (الموضع الذي توقف عنده عن الكتابة آنذاك هو نهاية الجملة **لن أقبل هذا مرة أخرى** (ص ١٩٨ س ٢٣ من هذا الكتاب. ا.و). وهكذا ظلت الرواية باقية دون إنجاز.

في آذار ١٩١٣ قرأ كافكا دفاتر المخطوطة مصادفة، وحكم حكماً لغير صالحها أبداً باستثناء الفصل الأول. وقد أعطاه حالاً للنشر، وصدر في أيار ١٩١٣ في كتاب بعنوان **الوقّاد** وتحته عنوان فرعي: **جزء**.

غير أن كافكا لم يتخل عن الرواية: ففي صيف ١٩١٤، في مرحلة الإبداع الثانية، التي كتب أثناءها القسم الأكبر من رواية **المحاكمة** وقصة **في مستعمرة العقاب**، حاول كافكا عدة مرات وبطرق متنوعة مواصلة الكتابة في رواية **المفقود**. هنا نشأ أولاً المقطعان بعد نهاية الجملة أعلاه، من **كان هذا ظلماً كبيراً** لغاية **حفنة من قطع البسكويت**، والمقطع بعنوان **خروج**

برونيلدا (ص ١٨٥ - ١٨٨ من هذا الكتاب. ا.و)، الذي ينقطع في وسط الجملة. عنوان هذا المقطع هو من وضع كافكا كتبه على ورقة حفظ ضمنها الأوراق الأربع من هذا الجزء من المخطوطة.

وأخيراً أثناء إجازة لمدة أسبوعين في تشرين الأول ١٩١٤ كتب كافكا، إلى جانب قصة **في مستعمرة العقاب**، المقطع السردي الذي يصف قبول كارل روسمان في خدمة **مسرح أوكلاهاما**، وهذا المقطع أيضاً ينقطع دون أن يكتمل، رغم أن كافكا وضع خطاً تحته وبدأ فصلاً جديداً دون أن يتقدم فيه. لكن بعد ذلك ظلت الرواية نهائياً دون إنجاز.

لقد كتب كافكا رواية **المفقود** دون تخطيط سابق، وبلغ مجموع المدة التي كتبها فيها نحو أربعة أشهر. ولا تشير أية يومية من يومياته أو أية رسالة من رسائله على أنه كتب فيها مرة أخرى. لكن حكمه الأول السلبي على الرواية عدّله كما يبدو لاحقاً. ففي أيار ١٩١٥ قرأ **فصولاً قديمة** في الرواية وكتب في يوميته: **طاقة تبدو لي لا سبيل إليها اليوم**. كما أنه لم يتلف المخطوطة، كما فعل مع مخطوطات أخرى طوال خمسة عشر عاماً، بل احتفظ بها.

صدرت هذه الرواية غير المكتملة لأول مرة في عام ١٩٢٧ - بعد رواية **المحاكمة** (١٩٢٥) ورواية **القلعة** (عام ١٩٢٦)، بعنوان «أمريكا»، وقد نشرها ماكس برود من التركة الأدبية لصديقه. وضمن طبعة «المؤلفات الكاملة»، التي أعدّها ماكس برود، تتابع نشرها من ثم في الأعوام ١٩٣٥، ١٩٤٦، ١٩٥٣ و١٩٥٦ وفي طبعات لاحقة أخرى. لكن في رسالة إلى فيليس باور مؤرخة في ١٩١٢/١١/١١ يسمّيها كافكا **المفقود**. وكذلك في يومية ١٢/٣١/ ١٩١٤.

تنشر الرواية هنا نقلاً عن النص الذي نشر في عام عام١٩٨٣ طبقاً لمخطوطة خط اليد في إطار الطبعة النقدية التاريخية، والتي تختلف بعض الاختلاف عن طبعات برود الأولى.

١٩٨٣ هارتموت بيندر

Hartmut Binder

١٩٩٤ يوست شيليمايت

Jost Schillemeit

٢ ـ خلفية أسرية

في عام ١٩٠٠ كتب كافكا في رواية أتلفها فيما بعد ذكرها في يومياته بتاريخ ١٩/١/١٩١١: **كان لديّ مرة مشروع رواية يتصارع فيها شقيقان، أحدهما سافر إلى أمريكا، في حين ظل الآخر في سجن أوروبي.** كان مثل هذا السفر أمنية من أمنيات سن المراهقة. تخيلات، لكن لها نماذج في الواقع. فقد بحث أفراد من أسرته عن حظوظهم في الهجرة وأصابوا نجاحاً في أمريكا. ابن عمّه أوتّو كافكا، الأكبر منه بأربع سنوات، هاجر إلى الولايات المتحدة في عام ١٩٠٦، بعد أن كان قد هجر أسرته وهو في سن السادسة عشرة وسافر إلى أمريكا الجنوبية. ابن عمه الأصغر فرانز، لحق بشقيقه في عام ١٩٠٩ في السن نفسها. إميل كافكا، ابن عمّ آخر، كان قد أبحر في عام ١٩٠٤ إلى خاله المقيم في شيكاغو، وعمل في محل تجاري في منتهى الضخامة. وفي عام ١٩١٠ أقام فيكتور كافكا في شيكاغو حيناً من الزمن. وكان لكافكا خال في أمريكا الجنوبية.

كان يتعيّن على كافكا أن يتعامل مع هذا النموذج من الحياة القريب منه والمقدَّم إليه، وخاصة أنه لم يكن حازماً في اتخاذ قراراته، ولم يكن لديه تصورات واضحة عن عمل مهني يكسب منه رزقه، وكان، لاسيما قبل اختراقه الأدبي في خريف عام عام ١٩١٢، على قدر كبير من الارتباط بتصورات أسرته التي كانت ترى أن القيمة الأعلى إنما تكمن في النجاح الاقتصادي.

تتبيّن صحة هذا الادعاء من كون كافكا يحلل في **المفقود** وضعه ضمن أسرته، ويقوم بتجريب إمكانيات محددة لحياة خارج براغ، وينسب ظروف حياة أبناء عمومته إلى الشخص الرئيسي في الرواية كارل روسمان. كما تتبيّن من كونه أنه فكر أكثر من مرة بأن يبحث عن عمل وظيفي خارج البلاد. وعندما جاء خاله ألفرد لوفي المقيم في مدريد إلى براغ في زيارة عام ١٩٠٢، طرح هذا السؤال عليه فيما إذا لم يكن من الأفضل له أن يدرس فرعاً عملياً بدلاً من الدراسة الأكاديمية غير المحبوبة. وفي عام ١٩٠٧ حسب كافكا حساب أن يتوسط له خاله هذا للحصول على وظيفة في اسبانيا أو أمريكا الجنوبية. وفي العام نفسه قرر أن يدرس اللغة

الأسبانية وأن يلتحق بالأكاديمية التجارية في براغ وبعدها بأكاديمية التصدير في فيينا. وحتى في عام ١٩١٤ اعتبر إزاء غربته بلوخ العمل في الفروع الإنكليزية والأمريكية للشركة التي تعمل فيها أمراً مرغوباً فيه إلى أقصى حد نظراً لمطامحها في تحقيق استقلاليتها.

في خريف عام ١٩٠٧ بدأ كافكا عملاً وظيفياً في براغ في فرع شركة تأمين Generali، وهي شركة إيطالية تعمل على مستوى العالم وما زالت قائمة حتى الآن. وقد شرع كافكا آنذاك في تعلم اللغة الإيطالية، وذلك لأنه كان **يأمل على كل حال الجلوس بنفسه على مقاعد في بلدان نائية جداً وأن يرى من نوافذ المكتب ومشاهدة حقول قصب السكر أو مقابر إسلامية.** هذه توجد في تركيا، حيث كان لأسرته علاقات مع اسطنبول، يبدو أنه يشير إليها في إحدى مقطوعاته السردية.

في مثل هذه الظروف لا بدّ أن أي تقرير عن أمريكا كان يقع بين يديه، يثير لديه اهتماماً متزايداً بصفته شهادة عن العالم الجديد مستقلة عن توقعات الأسرة، يمكنها أن تبيّن ما يُنتظر من محاولة إيجاد عمل في الخارج وتحقيق الاستقلالية. بهذه الطريقة يجب ربط الوضع في أمريكا مع تجارب شخصية وآمال مستقبل ومخاوف وأحلام ربطاً وثيقاً.

في مطلع عام ١٩١٢ عاش كافكا أوضاع توتر نفسية متعاظمة، الأمر الذي أثار في نفسه مشروع رواية **المفقود**، وكانت مجموعات صور وتركيبات شخوص وعناصر أحداث، نتاجاً لتغلغل الخاص بالغريب، جاهزة للاستدعاء، وقد عاشها أثناء الكتابة كشيء مقابل مستقل، حدّد الاتجاه والنتيجة، وذلك لأنه أيضاً لم يقم بدراسة مراجع ولم يحاول أن يضع علائق سرد بمعونة خطط.

بعد خمس سنوات من كتابة **المفقود** عبّر كافكا في إحدى يومياته بجلاء على أن مكان الحدث في الرواية والظروف التي على كارل روسمان أن يتعامل معها إنما يجب تقييمها كعرض يظهر فيه العام تعبيراً عن الخاص، والظروف الأمريكية خلفية تُعكس عليها المشكلات الفردية. **كانت نيتي أن أكتب رواية من روايات ديكنز موسّعة وحسب بالأضواء الواضحة التي كنت سآخذها من العصر والأضواء الخافتة التي كنت سأركّبها من داخل نفسي.**

لم يزر كافكا أمريكا قط، بيد أنه كان على اطلاع كاف على الأوضاع في الولايات المتحدة وتفاصيل الحياة اليومية فيها من خلال قراءاته المتواصلة للصحف الصادرة بالألمانية في براغ والتي كانت تنشر تقارير كثيرة عن أمريكا، «بلاد الإمكانيات غير المحدودة»، كما كان يهوى قراءة كتب الرحلات ومشاهدة الأفلام (هناك كتاب كامل عن كافكا والسينما). صحيح أنه ينتقد ظروفاً أمريكية، حتى أنه أدخل تمثال الحرية إلى نقده هذه الظروف. فقد قدم تفسيراً مغايراً لتمثال الحرية في ميناء نيويورك، فحوّله من تمثال للحرية إلى تمثال يمثل إلهة

عقاب منتقمة يطرد سيفها المرفوع كارل روسمان من فردوس أمريكا. كافكا فعل ذلك عمداً، حيث رفض فيما بعد تصحيح هذا التعديل عند إعداد الطبعة الثانية لقصة **الوقّاد**، كما طالبه أحد النقاد. وآنذاك كتب ماكس برود: «كتب كافكا أمريكا رأسه وقلبه، أمريكا لا يحمل تمثال الحرية فيها شعلة، بل سيفاً، لأن ذلك يناسبه على نحو أفضل.»

يعكس موضوع أمريكا توق كافكا آنذاك للتخلص من ضغوط الظروف في براغ. فمثلاً مصاعبه مع الجنس الآخر ظهرت تجسيماً في تجربة كابوسية عاشها في صباه وشكلت نقطة نهلَ منها **المفقود**، ولذا كان لا بدّ دائماً من إعادة تنشيطها لدى كل محاولة للتغلب على المخاوف الجنسية القائمة.

بدلاً من تخلصه من الضغوط، جاءت النتيجة مخيّبة للآمال. كافكا لم يكن صبوراً، دؤوباً، ولم يكن مستقلاً، وكانت أكبر مشكلة يعاني منها هي انعدام الثقة بنفسه. وهكذا ترك المسار الأمريكي لكارل روسمان يؤول إلى الفشل وحصر إمكانياته في انحدار اجتماعي حتمي ينتهي في وسط جنائي. إن أحداث الرواية تبيّن هبوطاً على درجات متعددة.

نبذ كافكا كل محاولات الاستقلالية في الغربة، ولذا أراد أن يعيد بطل الرواية إلى أحضان والديه أو يدعه يلقى حتفه بلا مسوّغ. لم يقف كافكا إذاً، لدى تقييمه فرص الحياة في الغربة، إلى جانب الناجحين، بل وقف إلى جانب الغارقين، المفقودين، الذين يخيبون كل آمال أهاليهم المتشوقين.

١٩٨٣ هارتموت بيندر

Hartmut Binder

٣ ـ مقدمة الطبعة الأولى

لا تحمل مخطوطة فرانز كافكا عنواناً. وقد اعتاد في حديثه أن يسمّي الكتاب «الرواية الأمريكية»، ولاحقاً «الوقّاد»، هكذا ببساطة بعد صدور الفصل الأول منفصلاً (عام ١٩١٣). كان كافكا يكتب في هذا الأثر الفني بسرور لا متناه، غالباً في المساء وإلى وقت متأخر في الليل. صفحات المخطوطة تُظهر القليل جداً من التصحيح والحذف. كان كافكا يعي، ويبرز ذلك مراراً في الأحاديث، أن هذه الرواية أكثر تفاؤلاً و«إشراقاً» من كل ما كتبه فيما عدا ذلك. في هذا السياق يجوز لي ربما أن أذكر أن فرانز كافكا كان يحب جداً قراءة كتب الرحلات والمذكرات، وأن سيرة حياة فرانكلين كانت واحداً من كتبه المفضّلة، والذي كان يحب أن يتلو منه، وأن التوق إلى الحرية والبلدان النائية كان يعيش فيه دائماً. بيد أنه لم يقم برحلات كبيرة أبعد من فرنسا وشمال إيطاليا. إنها طليعة المخيلة المتيقظة هي التي تمنح كتاب المغامرات هذا طابعه الخاص.

على نحو غير متوقع أبداً توقف كافكا فجأة عن الكتابة في هذه الرواية. لقد ظلت غير مكتملة. من أحاديث أعرف أن الفصل غير المكتمل عن «مسرح أوكلاهوما»، هذا الفصل الذي كان كافكا يحب مطلعه بصورة خاصة وقد تلاه على نحو جميل بطريقة مؤثرة تخشع لها القلوب، وكان سيكون الفصل الأخير وينتهي نهاية صلحية. بكلمات لغزية ألمح كافكا مبتسماً إلى أن بطله الصغير سوف يعثر في هذا المسرح **الذي لا حدود له تقريباً** على المهنة، الحرية، السند، لا بل على الوطن والوالدين كما عبر سحر فردوسي.

من الواضح أن الرواية ترتبط بروايتي **المحاكمة والقلعة** ارتباطاً وثيقاً. ما تركه كافكا هو «ثلاثية الوحدة». الموضوع الأساسي فيها هو الغربة والعزلة في وسط البشر. وضع المتهم في **المحاكمة**، وضع الغريب غير المدعو في **القلعة**، عجز طفل غير مجرب في وسط أمريكا بحياتها الصاخبة ـ هذه مواضيع أساسية يبرز المشترك فيها على نحو مبهم، يظهر من خلال فن كافكا بجلاء ورمزية، لكن دائماً بدون لغة رمزية مألوفة وفي أبسط تعبير من تعابير الواقع. هكذا تجعل كل رواية الأخرى مفهومة أكثر، إنها تشير إلى القلب نفسه. في الروايات الثلاث يدور

الموضوع حول وضع الفرد ضمن المجموعة البشرية وفي الوقت نفسه وضعه في ملكوت الله، وذلك لأن الموضوع يدور حول العدالة العليا. والروايات تبيّن المقاومات الهائلة التي يلقاها الإنسان الطيب والنزيه. في **المحاكمة والقلعة** تغلب المقاومات، وهذا يجعل هاتين الروايتين وثيقتين تراجيديتين. أما في الرواية الأمريكية فإن المكروه يُحال دون وقوعه من خلال براءة الصبي الطفولية ونقائه الساذج. نشعر كيف سيقوم هذا الصبي الطيب كارل روسمان، الذي سرعان ما يكسب حبنا الكامل، كيف سيقوم، رغم كل الصداقات الكاذبة والعداوات الغادرة، بتحقيق هدفه بأن يثبت في الحياة أنه إنسان نزيه ويصالح والديه (لقد أشرت في دراسة صغيرة بعنوان «كلايست وكافكا»، نشرت في مجلة «العالم الأدبي» بتاريخ ١٥ تموز ١٩٢٧، إلى بعض النقاط التي تقوم على هذا الموضوع). غير أن الطريق الذي يفضي إلى هذا الهدف مليء بمعاناة ومصاعب خارقة. **من غير الممكن الدفاع عن النفس، إذا لم توجد إرادة طيبة**، جاء هنا أيضاً في حزن واتهام، أثناء ذلك التحقيق أمام كبير البوابين، هذا التحقيق الذي يشترك مع التحقيقات في **المحاكمة** في كثير من قوى الشر. لكن الكفاح من أجل الحق يجري هنا بضمير أكثر هدوءاً وبجسارة شباب. والبحث عن عمل دون جدوى، هذا البحث المضلل بسخرية، تشير إلى الأحداث المشابهة في **القلعة**.

لا يعامل كافكا كارله برقة ولطف أكثر مما يفعل مع الشخصين الرئيسيين الآخرين، اللذين يبدأ اسماهما بحرف ك. (أنا). إذ في كلتا الروايتين الأخريين لا تتوارى خلف طريقة التعبير الصافية صفاء البلور والخالية من الزخارف برودة الشاعر، كما ظن بعض المحللين، بل دقة لا متناهية ترتبط بشعور مرهف إلى أقصى حد، وبتعاطف لا حدود له.

من الممكن أن تقوم هذه الرواية بالذات بفتح طريق جديد لفهم كافكا ـ طريق الإنسانية البسيطة الحانية ـ وأن تبدأ الروايتان العظيمتان الأخريان بالتأثير، انطلاقاً من هنا ومن ذاتهما ودون أي تفسير. هذا ويتضح لي من الرسائل والمقالات النقدية التي تصلني بأن آثار كافكا في فرادتها وسموّها المهيب سوف تُفهم وتُحب دائماً أكثر.

١٩٢٧ — ماكس برود

Max Brod

٤ ـ من تفسيرات أولى

١ ـ الشخصية الرئيسية

«يسرد كافكا دائماً من منظور ووجهة نظر شخص واحد، ليس بصيغة الأنا فحسب، بل بصيغة الهو أيضاً. كل ما يروى في رواية **المفقود**، يراه كارل روسمان أو يحسه. ما من شيء يروى بدونه، ما من شيء يروى في غيابه. لا يعلمنا الراوي سوى أفكار كارل وحده ولا أحد غيره. والحال نفسه نجده في روايتي **المحاكمة والقلعة**.

إذا لم يكن العالم الداخلي بكل تجاربه ومداركه ورغباته وأحلامه وأفكاره، ما يسرّه وما يزعجه، هو موضوع السرد الكافكاوي، وإذا لم يكن الراوي يقف خارجاً بصفته عالماً بسيكولوجياً مراقباً، فإنه لا يبقى له مكان آخر إلا في روح شخصه الرئيسي: إنه يروي نفسه، يتحول إلى يوزف ك. وإلى المساح ك. ـ لقد لاحظ الدارسون منذ مدة طويلة أن هذه الأسماء إنما تشير إلى اسم كافكا نفسه، وأن الاسم الأول كارل في رواية **المفقود** لا يبدأ بحرف ك من باب الصدفة.» (فريدريش بايسنر).

«في اصطدام كارل روسمان مع العالم الرأسمالي في شكله الأكثر حداثة ـ لم يضع كافكا مكان أحداث روايته في أمريكا عن طريق المصادفة ـ شملت الرواية الارتباطات بين الفرد والمجتمع بجدلية أكثر ... صحيح أن نقطة بدء نقد بعيد الغور للظروف الاجتماعية البورجوازية قد وجدت، لكن ما يُستشعر لا يُسحب على حركة الصراعات الطبقية الحقيقية. بهذا تبدو حركة العالم ساكنة كلياً بلا طريق، تبدو مكاناً لإخفاق مبدئي وبهذا مستقرة. الاحتجاج العاجز ضدها لا يتجاوز حدودها. هذه هي نتيجة منهج لا يعمل تاريخياً، وإن كان يعمل بعناصر واقعية أساسية وملموسة. ظواهر العالم الواقعي تُستخدم مقطوعة الصلات، كمجرد أحجار بناء في تراكيب جديدة، وهذه التراكيب تصبح من طرفها مادة لتخمينات لا نهائية للشخوص وبالتالي مبهمة، وبهذا يمكنها أن تكتسب معان متعددة» (هانز كاوفمان).

«العالم الذي يصوره كافكا هو عالم فقدان الشعور والحماسة، أقرب إلى عالم صوري،

والشخوص الأدبية هي أناس لم يعودوا قادرين على التصرف بحيوية. ريبتهم في واقعية العالم المحيط بهم هي في الوقت نفسه ريبة في حقهم بالوجود الخاص بهم» (ميخائيل فيغنر).

٢ ـ «أمريكا» والمستغَلّون

«رواية **المفقود** هي من أهم الآثار الأدبية في الأدب العالمي التي تكشف المجتمع الصناعي الحديث. هنا يجري فضح الآليات الاقتصادية والبسيكولوجية لهذا المجتمع وعواقبها الشيطانية فضحاً لا هوادة فيه.» (فيلهلم إمريش).

قد يبدو غريباً بأن هذه الصورة التي رسمها كافكا قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، صورة آليات السلطة الاقتصادية اللا إنسانية التي تقضي على النزعة الإنسانية، لم يجر إدراكها سوى في عصر التوسع الاقتصادي الهائل بعد الحرب العالمية الثانية. وهناك أمر حاسم بالنسبة لعرض كافكا الرؤيوي هو معايشته المباشرة.

«في التمرد ضد عالم الأب، عالم التجارة والربح، وقف كافكا إلى جانب العمال وقام بمؤازرتهم. غير أنه لم يتعرف على العمال، لا في معمل والده ولا في «مؤسسة التأمين على حوادث العمل» التي كان موظفاً فيها، بصفتهم طبقة مناضلة وإنما كأفراد عاجزين. مرتاعاً يكتب عن العاملات المذلولات في المعمل: إنهن **لسن بشراً، لا يلقي المرء التحية عليهن، لا يعتذر إذا صدمهنّ، إذا دعاهنّ للقيام بعمل صغير، يقمن به، لكنهن يعدن إلى الآلة على الفور، بحركة رأس يدلّهنّ المرء أين عليهن أن يعملن، يقفن في تنانيرهن تحت رحمة أصغر سلطة.** وطالبو المعونة المشوهون من قبل الآلات، الذين يأتون إلى المؤسسة، **هذا العش البيروقراطي المظلم،** لا كمطالبين بل كمتسولين، غير قادرين في عجزهم وتحمّلهم على إقناع كافكا بقوتهم كطبقة. (كم هم متواضعون هؤلاء الناس! إنهم يأتون ويتوسلون. بدلاً من اقتحام المؤسسة وتحطيم كل شيء، يأتون ويتوسلون)» (إرنست فيشر).

«أمريكا هي لدى كافكا أوروبا محتملة، وهو يحطم كل وهم من الأوهام عن (بلاد الإمكانيات غير المحدودة) وعن أية محافظة على الذات في المجتمع الحديث، مهما كانت هذه المحافظة متواضعة. إن أمريكا التي يمكن استبانة ملامحها المهمة بوضوح تخدم كافكا لكي يبرز من خلالها مواقف نمطية من الإخفاق الإنساني في المجتمع الإمبريالي، في حين أنه يهمل معالجة الوضع السياسي في عصره.» (هانس كاوفمان).

«ينبغي الاعتراف بالخاصية الحاسمة لعلاقة الشخص الرئيسي بالشخصيات الأخرى، ألا وهي تساوي جميع الشخصيات بأنهم ضحايا، ضحايا نظام فاسد من العلاقات الإنسانية. لا يعاني المستضعفون والمظلومون وحدهم (الوقاد، روبنسون، كارل روسمان نفسه)، بل يعاني

أيضاً الظالمون (كبير البوابين، دلامارش)؛ المستغِلّون هم أنفسهم مستغَلّون» (ديتريش كروشه).

«إن الطريقة التي يجري فيها تقديم شاب لطيف طيب يسعى إلى تحقيق إنجاز وعدالة مثل كارل روسمان في كفاحه ضد عالم الاستغلال والمنافسة وغياب الإنسانية، في كفاحه حول المهنة كشرط للوجود، في إخفاقه نتيجة نظام أقوى من الثقة الإنسانية، هذه الطريقة تتناسب في واقعيتها مع الوضع الاجتماعي. وطبعاً لم يكن من المتوقع أن تضع الرواية لو اكتملت حلاً يزيل التناقض بين شخصها الرئيسي والمحيط الأمريكي.» (إرنست فيشر).

«في فصل (فندق أوكتسيتندال) يعبّر كافكا بوضوح، أكثر مما يفعل في أي موضع آخر من آثاره، عن تعاطفه مع الفقراء والمستغَلّين في المجتمع. في هذا الفصل يصف على نحو جليّ شروط العمل القاسية التي يخضع لها صبية المصاعد، الذين يتوجب عليهم أن يعملوا طوال عشر ساعات أو اثنتي عشرة ساعة ولا يقع تحت تصرفهم سوى قاعة مشتركة واحدة للراحة والنوم. وهكذا هو حال الفتيات العاملات في المطبخ. كارل يتعرف على كاتبة على الآلة الكاتبة تروي له سيرة عملها المرهق في الفندق. وتتمثل ذروة النقد الاجتماعي الواقعي الذي يقدمه كافكا على نحو مباشر في تقرير الفتاة عن موت والدتها، هذه الأم التي تظل أياماً طويلة بلا عمل ولا مسكن، وتعثر أخيراً على عمل في موقع بناء، لكن وهنها يصيبها باختلال في العقل، فتسقط من على السقّالة أمام أعين ابنتها.» (هلموت ريشتر).

«قبل كافكا وجدت كتب في الأدب الألماني تشهد على تعاطف كتّابها مع الطبقة العمالية، لكننا لا نعثر على كاتب اكتسبت في آثاره الفكرة التالية شكلاً من الأشكال: أن اقتراباً من الطبقة العمالية قد يفتح الطريق أمام حل مشكلات حياة مثقف بورجوازي في الوضع الاجتماعي لكافكا. حسب تقديري قام كافكا بهذه الخطوة منذ عام ١٩١٢، عندما لم يكن كاتب ألماني آخر قد وجد الطريق إلى الطبقة العمالية أو حتى فكر بذلك مجرد تفكير. ليس لديّ أدنى شك بأن كافكا أراد أن يكون الوقاد رمزاً للطبقة العمالية كما كان يراها. كارل روسمان، في أشد لحظات حاجته للمساعدة، يلتقي الوقاد في أعماق السفينة، وهذا يُخرجه من متاهاته.» (إدوارد غولدشتوكر).

٣ ـ مجموعات الشخصيات

إن الشخصيات التي يلتقيها كارل روسمان في نهاية رحلته وفي العالم الجديد ليست عديمة العلاقات معْ بعضها، بل غالباً ما تُظهر توازيات في تصرفاتها. هذه السمة البنيوية والتركيبية في آثار كافكا يمكن التعرف عليها بشكل خاص في رواية **المفقود**:

الشخصيات التي تمثل الوالدين:

إدوارد ياكوب ـ الخال، **رجل المبادئ**، الذي يُعنى بتربية كارل طالما يتبع هذا إرشاداته بحذافيرها.

كبيرة الطباخين وكبير البوابين ـ يمكن مقارنتهما مع والديّ كارل، الأب القاسي والصارم، والأم التي تتعاطف معه، لكنها تنفذ القرار الأبوي القاضي بطرد الابن. كبيرة الطباخين، المتيّمة بكبير النُدُل حباً، استقبلت كارل روسمان في فندق أوكتسيتندال ورحّبت به وحملت همومه كما تفعل أم؛ لكنها ترتّب أمور طرده، هذا القرار الذي اتخذه كبير النُدُل.

دِلامارش ـ كارل متعلق به نفسياً رغم عناد ظاهري.

برونيلدا ـ يتعيّن على كارل أن يطيعها بلا حدود تقريباً.

الشخصيات المعاكسة العدائية:

أمين الصندوق وشوبال ـ يلتقي كارل بهما في السفينة عندما يدافع عن الوقاد.

غرين ـ يجب عليه أن يسلّم كارل رسالة الوداع من خاله.

كبير البوابين ـ يتمتع بعدائيته ويعذب كارل بعد طرده.

المؤجرة ـ ساكنو غرفة برونيلدا خاضعون لها على نحو مطلق.

الشخصيات الرفاقية:

يوهانّا برومّر ـ أغوت كارل القاصر؛ الرسالة التي كتبتها إلى خاله تظهر شعورها الطيب إزاء كارل.

كلارا بولوندر ـ تحاول إغراء كارل بتلميحات، ومن ثم تشرع في مصارعته وتتغلب عليه.

تيريزه برشتولد ـ تتعاطف مع كارل في فندق أوكتسيتندال.

يصف مارتن فالزر وظيفة هذه الشخصيات: «الناس الذين يلتقي بهم الشخص الرئيسي في آثار كافكا، والذين نراهم معه ومن خلاله، هم، هذا يلفت النظر على الفور، ليسوا «حقيقيين» بالمعنى البسيكولوجي، ولا «واقعيين» بالمعنى التجريبي، ولا «إنسانيين» بالمعنى الأنتروبولوجي، ولا «طبيعيين» بالمعنى البيولوجي. بيد أنهم ضروريون ضمن عالمهم. إنهم يمتازون أكثر ما يمتازون من خلال ابتداعهم.» (مارتن فازلر: «وصف شكل ـ محاولة عن فرانز كافكا»، ١٩٦٣).

٤ ـ المواضيع

كما هو الحال لدى الشخصيات، يتبيّن لدى المواضيع توازيات متنوعة، تعود إلى الظهور في

الآثار الأخرى اللاحقة. في رواية **المفقود** تتوضح بشكل خاص المواضيع التالية:

موضوع الوالدين:

يُعبّر عنه هنا مرة بحب كارل لوالديه، ومرة ثانية بصورتهما التي فقدت، ويتبين من طرف آخر أيضاً بحبه لخاله ولكبيرة الطباخين. القطيعة معهم نتيجة عدم خضوعه تجلب معها اختلالاً في السلام والنظام.

موضوع الاتهام:

يظهر موضوع الاتهام في فصل «الوقاد». هنا يتبادل الوقاد وشوبال الاتهام. في فندق أوكتسيتندال يقوم كبير النُدُل وكبير البوابين باتهام كارل. وشفيعته كبيرة الطباخين تظهر عجزها.

موضوع العقاب:

يعبّر عن نفسه بطرد كارل ثلاث مرات: في المرة الأولى يجري ذلك من قبل الوالدين، وفي الثانية من قبل الخال، وفي الثالثة من قبل كبير النُدُل وكبيرة الطباخين.

موضوع عدم إحاطة البصر:

يظهر في أشكال متنوعة كلياً ورغم ذلك بالطريقة نفسها مراراً وتكراراً:

السفينة ـ هنا ثمة **سلالم قصيرة راحت تتبع بعضها بعضاً وممرات متعرجة باستمرار** (ص ١٣ من هذا الكتاب. ا. و) يتوه فيها عندما راح يبحث عن مظلته.

منزل الخال ـ يوصف بصفته بناء ضخماً: **كانت حجرة كارل تقع في الطابق السادس من مبنى كانت طوابقه الخمسة السفلى، التي تتبعها في العمق ثلاثة طوابق أخرى تحت الأرض، تشغلها شركة الخال.** (ص ٣٧).

فيلا بولوندر ـ في هذا المنزل الذي يحوي عدداً لا يحصى من الأبواب والممرات التي لا تنتهي، يضيع كارل.

فندق أوكتسيتندال ـ كافكا يصفه كمدينة قائمة بذاتها.

المساكن الشعبية ـ في قصة موت أمها تحكي تيريزه عن الممرات في هذه المساكن. **إن ممرات هذه البيوت بنيت طبقاً لمخططات ماكرة تقضي باستخدام المكان أفضل استخدام لكن دون مراعاة توجّه سهل** (ص ١٠١).

المنزل الذي تسكن فيه برونيلدا ـ **«حالاً نصل إلى فوق»، قال دِلامارش مردداً أكثر من مرة أثناء صعود الدرج، بيد أن نبوءته لم تشأ أن تتحقق، مراراً وتكراراً كان الدرج ينتهي إلى**

درج جديد باتجاه آخر لا يتبدل سوى على نحو غير ملحوظ. حتى إن كارل توقف ذات مرة، ليس تعباً، بل ضعفاً إزاء طول هذه السلالم. (ص ١٤٢).

مسرح أوكلاهاما الطبيعي - يوصف بأنه لا حدود له تقريباً، **كان مؤسسة كبيرة ... أكثر ضخامة مما كان في مقدور** (كارل) **أن يفكر بأي شكل كان** (ص ١٩٠)(*).

١٩٨١ مارتن بفايفر

Martin Pfeifer

(*) هذه الدراسة هي من كتاب «إيضاحات عن المفقود»، مخصص لتلاميذ المدارس الثانوية (ا. و).

٥ ـ المجتمع الصناعي

في روايته الأولى **المفقود** يصف كافكا بدقة وفي إسهاب عالم العمل في العصر الحديث، هذا العالم الذي يطحن كل شيء ويحوّله إلى غبار، ولا يُسمح فيه بفترات استراحة، لا يُسمح فيه سوى بتعاقب أيدي العمل. هذه الرواية هي من أكثر الروايات التي يعرفها الأدب العالمي التي تكشف المجتمع الصناعي الحديث بسداد بصيرة وبُعد نظر وتنبؤ. هنا يجري فضح الآليات الاقتصادية والبسيكولوجية لهذا المجتمع وعواقبها الاجتماعية فضحاً لا هوادة فيه. كما أن هذه الرواية هي الشرط الذي لا يستغنى عنه لفهم رواية **المحاكمة** ورواية **القلعة**. إن الظواهر والأحداث الحاسمة في هاتين الروايتين يجري تطويرهما هنا في إطار طريقة سرد لا تزال تبدو واقعية ولهذا يمكن إيصالها انطلاقاً من هنا إلى تفسير يطابق صورة كافكا عن العالم.

العمل بدون توقف في العصر الحديث

كل عمل في هذه الرواية يُنجز بسرعة جنونية وبلا انقطاع. حركة الملاحة في ميناء نيويورك هي **حركة بلا نهاية، حركة تنتقل من العنصر المتحرك إلى البشر العاجزين وأعمالهم!** (ص ٢٢ من هذا الكتاب. ا. و)(*) الإنسان ليس سيد عالم عمله، بل هو عُرْضَة له وهو **عاجز** أمامه، مثلما كان البدائيون في الأزمنة الغابرة معرّضين لقوى الطبيعة. إن عالم الصناعة ينجز، دون أن يدري، العودة إلى زمن ما قبل التاريخ، هذا الزمن الذي تشكلت منه البشرية في تطور شاق دام آلاف السنين وتحولت إلى تقرير مصير فردي حر، ليس سوى كما تعود الذات الفردية الحرة لدى كافكا وتتحول إلى الحيوان الأسطوري في الزمن الغابر قبل البشري. يصف كافكا نزع سمة الإنسانية عن الإنسان في العصر الحديث ويدرك هذه السمة بصفتها انتكاسة إلى عالم.قديم، عالم قطعان جماعية تُطمس فيه كل ذاكرة فردية وكل مسؤولية. إن عرض هذه الرتابة العصرية سوف نجده في روايتي **المحاكمة والقلعة**. في رواية **المفقود** تظهر هذه

(*) في الاستشهادات القادمة يُذكر رقم الصفحة فقط.

الرتابة، مع التحفظ أن العمل في العصر الحديث ـ على خلاف العمل في العصور القديمة ـ إنما يمثل رتابة غير مميزة لا حكمة لها ولا يوجد فيها بعد الآن فروقات نوعية، وإنما ينحلّ فيها كل شيء على وتيرة واحدة، مثلما يمثل هنا **العنصر المتحرك** حركة الأمواج الرتيبة. وطبقاً لذلك كانت بالنسبة لموظفي المرفأ **ساعة الجيب التي كانا قد وضعاها أمامهما هي على الأرجح أكثر أهمية من كل شيء حدث في الحجرة وما زال قد يمكن أن يحدث** (ص ٣٠)، أي أكثر أهمية من اللقاء الإنساني بين كارل روسمان وخاله، وأكثر أهمية من الجدال حول الحق أو الظلم. وفيما بعد سيُعتبر كارل روسمان **ساعة تسير بشكل سيء**.

إن الاضطرار للقيام بالعمل المتصل غير المنقطع يقضي على كل ما هو إنساني. في صالة الهواتف يرى المرء **في النور الكهربائي المتألق موظفاً غير مبال بأي صرير للأبواب وقد وضع رأسه في شريط صلب كان يضغط السماعتين على الأذنين ... وراحت الأصابع وحدها التي كانت تمسك القلم ترتعش بانتظام وسرعة على نحو غير إنساني** (ص ٤٠). أسئلة منه أو اعتراضات على إخبارات المتحدث هي بلا جدوى وزائدة عن اللزوم، إذ إن **كلمات معينة سمعها أرغمته، قبل أن يتمكن من تنفيذ مراده، أن يغلق عينيه وأن يكتب. كما أنه لم يكن عليه أن يتكلم ... حيث إن الإخبارات نفسها التي استقبلها هذا الرجل استقبلت في الوقت نفسه من قبل اثنين من الموظفين الآخرين، ثم جرت مقارنتها بحيث أصبح وقوع أخطاء أمراً محالاً ما أمكن ... في وسط الصالة كان ثمة زحام دائم لناس مسرعين ذهاباً وإياباً. وما من أحد كان يلقي تحية، كان تبادل التحية قد تمّ إلغاؤه، وكل امرئ كان يقفو أثر خطوات السائر أمامه وينظر إلى الأرضية التي كان يريد أن يتقدم عليها بسرعة إن أمكن** (ص ٤١).

كل فرد مُقحَم في المسارات المرسومة له، يحدق أمامه في الأرض التي يسير عليها لتوّه **ويريد أن يتقدم عليها بسرعة إن أمكن** في سيرته المهنية. كل فرد قابل للاستبدال بكل فرد: **هكذا يقف هنا دائماً كل امرئ بجانب الآخر. بدون هذا لا يمكن تصور هكذا فندق كبير** (ص ١٣٠).

في فندق أوكتسيتندال تُعطى **المعلومات دون أدنى انقطاع** (ص ١٢٧). **التحدث وحده ما كان خليقاً أن يكفي لإنجاز مهمتهما، راحا يثرثران**، إذ إن المرء **يعرف إلى حد ما كل الأسئلة التي تُسأل والبقية لا يحتاج المرء إلى الإجابة عنها أبداً** (ص ١٢٩)؛ من خلال **هزة رأس غير ملحوظة بالكاد** يعيد المرء السؤال دون الإجابة عنه إلى السائل ويرغمه على **أن يصوغ السؤال على نحو أفضل** (ص ١٢٨) بحيث يلائم النموذج.

وطبقاً لذلك تجري حركة المرور على الطريق، **الذي كانت تمرق عليه السيارات، مثلما كان الحال طوال اليوم، متقاربة من بعضها بعض، وكأنها تُرسل من بعيد مراراً وتكراراً بعدد دقيق، وتُنتظر بالعدد نفسه في البُعد الآخر. أثناء اليوم بكامله منذ الصباح الباكر لم يشاهد كارل سيارة تقف ولا راكباً يهبط** (ص ٧٩).

سفر العربات يجري إذاً على نحو مجهول إلى حد ما، السفر للسفر في حد ذاته، كمطاردة من بُعد إلى بُعد، دون بداية ولا نهاية مرئية.

على نحو مماثل تبدو الخلفية الاقتصادية. في عالم العمل هذا لا يتعلق الأمر في الدرجة الأولى بالإنتاج والاستهلاك، بل بالتوسط وبتحريك السلع على نحو يعود بالربح، الأمر الذي يحقق أرباحاً أكثر مما يحقق إنتاج السلع وبيعها للمستهلكين مباشرة. كانت شركة الخال، الذي له **يد في كل الأشياء** (ص ٦٧) المتعلقة بالحياة الاقتصادية الأمريكية باستثناء سان فرانسيسكو البعيدة، **نوعاً من شركة سمسرة وشركة نقليات، كما لم تكن ربما توجد في أوروبا قط، بقدر ما استطاع كارل أن يتذكر. إذ إن الشركة كانت شركة تجارة وسيطة، غير أنها لم تكن تنقل السلع مثلاً من المنتجين إلى المستهلكين أو ربما إلى التجار، بل كانت تؤمّن جميع السلع والمنتوجات الأصلية من أجل كارتلات المصانع وبينها. لذا كانت شركة تشمل شراءات وتخزينات ونقليات ومبيعات بأحجام هائلة وتقيم ولا بدّ اتصالات هاتفية وتلغرافية دقيقة للغاية ومتواصلة مع الزبائن** (ص ٤٠).

كما أن السيارات تتوسط وحسب بين أبعاد لا يعرف لها مدى، ودون أن **تقف** ودون أن يُرى راكب بشري، فإن شركة الخال تؤمّن اتصالات تتكاثر تلقائياً وتحقق أرباحاً متزايدة على نحو هائل. كذلك الحركة الهائلة في فندق **أوكتسيتندال** ـ رمز الحضارة الغربية ـ تقوم على مجرد أعمال وسيطة، تتوسع على نحو آليّ لا يعرف له مدى.

الأجهزة الوسيطة العصرية

في مثل هذه المطاردة الغائبة عن الصواب لأعمال وسيطة خاصة لا يعود ثمة شخص مؤثّر بشكل مباشر ومستقل، وتبعاً لذلك لا يوجد سلطة عليا تتدخل مباشرة. الأجهزة الوسيطة تستقل متحولة إلى قوى مجهولة تتحكم في كل شيء، تتكاثر بلا حدود وتقرر مصائر الناس، الذين ينزلون بهذا في الوقت نفسه إلى الحضيض ويتحولون إلى جماهير مجهولة تقاد في الخفاء طبقاً لقوانين لا تعرفها حتى الأجهزة التنفيذية، بل إن هذه القوانين تتجاهل هذه الأجهزة التنفيذية وتقودها وتتحكم فيها. المتحكمون يصبحون متحكماً بهم.

من ثم فإن أجهزة الاقتصاد الضخمة في رواية **المفقود** تحوي نموذج السلطات الإدارية في

روايتي **المحاكمة والقلعة**، هذه السلطات التي تمثل أيضاً بيروقراطيات وسيطة خالصة تروح ترسل إخباراً تلو الآخر من هيئة إلى أخرى بسرعة خاطفة بلا توقف، ودون أن تكون مسؤولة مسؤولية نهائية عن خبر واحد وحيد. إن التراتبية التي لا يعرف لها مدى **في المحاكمة**، تراتبية القضاة، قضاة من درجة عليا، قضاة من درجة دنيا، سكرتيرون وغيرهم، الذين لا ينهون محاكمة، بل يتركون كل محاكمة معلقة بلا توقف، حيث لا يستطيعون أن يتخذوا قرارات بأنفسهم، ويتبعون هيئات مراقبة أخرى وهلمّ جرّا، هذه التراتبية هي صورة الأعمال الوسيطة في العصر الحديث، التي تتكاثر آلياً إلى اللامحدود. إن الموظفين في **المحاكمة والقلعة** لا يعكسون الوعي الحلمي والوعي الانعكاسي الداخلي للإنسان وحسب، بل أيضاً الحياة الاجتماعية الخارجية لعصرنا.

علّ الأمثلة التالية تبيّن مدى الاتصال بين روايتي **المفقود والمحاكمة**: موظفو المرفأ في **المفقود** يرتدون زياً **أسود** (ص ١٨) مثل موظفي المحكمة في **المحاكمة**. وهم أيضاً لا يستمعون أصلاً إلى شكاوى كارل روسمان، تماماً كما لا يكترث الموظفون في قاعة المحكمة بالكاد بكلام يوزف ك.. كبير البوابين يخفي وحشيته السادية أمام الجمهور وراء **ستائر سوداء** (ص ١٢٩)، يخنق **صرخات المعذّب لدرجة الخرس** بأن يسدّ فمه. لنقارن هذا المشهد بمشهد **الجلاد** في **المحاكمة**. في حين يؤلم كبير البوابين كارل بإحدى يديه بمتعة، يحتضن باليد الثانية صديقة كارل تيريزه، التي **يسحبها إلى نفسه بلطف** (ص ١١٨). الجنس والعنف متطابقان، كما هو الحال في **المحاكمة**، ففي اللحظة التي يلقي فيها يوزف ك. كلمة الاتهام اليائسة، يستمتع الموظفون بمشهد جنسي يجري في خلفية القاعة. إن الصلة بين الجنسي السادي وآليات العمل العصري الخالي من النفع والحكمة سوف تشغلنا لاحقاً بالضرورة. هذا الارتباط يلعب دوراً حاسماً في **المفقود**.

بيد أن الصلات مع رواية **المحاكمة** هي أكثر عمقاً. عندما يتواجد كارل روسمان في **سجن حقيقي** على الشرفة في الأحضان الوحشية لتلك المغنية التي تمارس سطوة جنسية على الرجال، يلمح في الشارع الاستعدادات الجارية لانتخاب **قاض** للمنطقة ذات العلاقة من المدينة. يدور الموضوع هنا حول تحديد قاض يكون مسؤولاً عن العدالة أو اللاعدالة في هذه المنطقة من المدينة. وكامل رواية **المفقود** هي في حقيقة الأمر عرض واحد وحيد لمعضلة **العدالة**، هذه العدالة التي يبحث عنها كارل روسمان عبثاً بلا توقف، وهكذا تدور رواية **المحاكمة** أيضاً حول مشكلة العدالة وحول محكمة عليا مختصة. لكن كيف يبدو انتخاب **القاضي في المفقود**؟

في صفير عام يهتف الجمهور اسماً غير مفهوم ويروح يصفق **على نحو آليّ** حتى تطغى إشارة على **كافة الأصوات البشرية**. **والجمهور المدرَّب على ما يبدو** (ص ١٥٩) يُخرس

الطرف الآخر **خرساً تاماً. والجمهور** يُرشى بتقديم الجعة له مجاناً حيث **قام الأدلاّء بتنظيم التوزيع ... الذي تمّ على شكل مرور بباب المطعم.** لكن المرشح لمنصب القاضي لا يُترك يلقي كلمته، ولا يفهم المرء شيئاً مما يقوله، لا سيما أن مرشحين آخرين كثيرين يصرخون أثناء ذلك.

أخيراً ينقلب كل شيء. كان الخطيب وحزبه يسيطران أولاً قبل ذلك على الجمهور ويقومون بتنظيمه، أما الآن فإن الجمهور يستلم سلطة لا قانونية: **فالحامل**، وبالتالي الخطيب، **لم يعد لديه أقل حرية حركة.** الحاكم يصبح سجين نظامه. **هذا الرجل القوي لم يعد في وسعه أن يقوم بخطوة حسب إرادته، لم يعد من الممكن القيام بتأثير على الحشد ... كان الحشد يجري دون خطة، أحدهم فوق الآخر، ما من أحد كان يقف منتصباً ... المرشح واصل خطابه، لكن الأمر لم يعد واضحاً كل الوضوح فيما إذا كان يشرح برنامجه أم كان يطلب مساعدة** (ص ١٦٢). كارل يراقب كل شيء في ارتباك وهو متقطع الأنفاس.

بهذا وصف كافكا بنية المجتمع الصناعي الجماهيري الحديث وصفاً دقيقاً: الجماهير، بلا حكمة ولا تخطيط، تستقل وتسيطر على القاضي الذي تضعه فوق نفسها، كما بالعكس أيضاً القيادة المسيطرة ظاهرياً تقاد على نحو فوضوي من قبل الجماهير الذي تنظمها. لبلوغ ذروة الحقيقة الساخرة يضيف كافكا من ثم كلمات الطالب: **ليس لدى الرجل حسب رأيي أقل فرصة بأن يُنتخب. أعرف مصادفة كل شيء عنه ... إنه ليس إنساناً غير كفء وآراؤه السياسية وماضيه السياسي تخوّله لأن يكون هو بالذات القاضي المناسب للمنطقة. لكن ما من إنسان يفكر بأنه من الممكن أن يُنتخب، إنه سوف يسقط سقوطاً رائعاً، أكثر ما يمكن للمرء أن يسقط، سوف يكون قد بعثر دولاراته القليلة في سبيل الحملة الانتخابية، هذا سيكون كل شيء** (ص ١٧١).

كما يعمد نظام التوسط الاقتصادي على نحو تلقائي بتعطيل كل مشاركة شخصية، متّبعاً قانون توسع ديناميكياً ذاتياً، فإن الأجهزة التنفيذية السياسية ـ الحقوقية يجري التحكم فيها من قبل قوانين التوسع الاقتصادية التي تتطور نفسها، ولا تعود هذه الأجهزة تستطيع أن تنجح ضد الاكتشافات التقنية المتزايدة والإتقان التام. كل فرد يواجه، وهو عاجز، حركة متدحرجة لا يعيقها عائق ولا توجهها **خطة** حقيقية، بل تروح تقذف خططاً صورية وتعود إلى التهامها، حيث إن كل خطة يجري تجاوزها، وهي في طور النشوء، نتيجة تقدم لا يعود يقبل **حرية حركة** حقة ويحشر **القائد** والمقودين بالكيفية نفسها في أسر حقيقي أو يعصف بهم دون أن يبقى لهم أثر. كل أمل، كل محاولة للمشاركة تثبت، إذا نظرنا إلى المجموع، أنها ضوء سرابي عابر أضاء وهلة وانطفأ ثانية: **وفي الصباح كما في المساء وفي أحلام الليل كانت في**

هذا الشارع حركة مرور في ازدحام متزايد، كانت تبدو من الأعلى مزيجاً من بدايات جديدة دائماً متناثرة متداخلة لأشكال بشرية مشوهة ولأسطح السيارات من كل نوع، كما ارتفع من هذا المزيج مزيج جديد مستنسخ أكثر توّحشاً من ضجيج وغبار وروائح، وشمل وملأ كل هذا ضوء قوي راحت كمية الأجسام والأشياء تبدده مراراً وتكراراً وتجرفه بعيداً ثم تعيده بنشاط، والذي بدا جسمانياً للعين المفتتنة، وكأن لوحاً زجاجياً يغطي كل شيء فوق هذا الشارع سينكسر مراراً وتكراراً في أية لحظة وبقوة (ص ٣٥).

إن رتابة العمل الذي يجرف معه كل شيء ويشوه الأشكال البشرية تتحول في نهاية المطاف أيضاً إلى رتابة الأمل المنبعث والمنطفئ دائماً وأبداً.

عدالة ونظام

رتابة العمل هذه تتجلى أيضاً في سلوك أفرادها الصوريين الذين تكون ردود فعلهم متشابهة. والفروقات ليست سوى ذات طبيعة صورية أو كمّيّة. والوحيد الذي يتصرف نوعياً بشكل مغاير، كارل روسمان، يُبعد **جانباً ... كما يُلقي المرء قطة خارج الباب** (ص ٢٧) أو «يُقتل عقاباً» (كما قال كافكا لماكس برود).

ومن السخرية المفجعة أن كارل هذا إنما يريد أن يصبح، بالذات، مهندساً، ويسعى صادقاً وبكل قوة لكي يُقبل في عالم أمريكا المصنَّع. إنه ليس ناقداً لنظام العمل العصري، إطلاقاً. بل على العكس من ذلك، يريد أن يأخذ موقعاً فيه ويصبح عاملاً ماهراً، تماماً مثلما سوف يريد أخوه اللاحق ك. في **القلعة**.

غير أن طيبة كارل وبراءته تحولان دون قبوله. إنه ليس من هذا العالم. وكفاحه من أجل **حق** الإنسان ومن أجل **عدالة** حقيقية يجعله غير صالح لهذا العالم رغم عمله الدؤوب واجتهاده الصادق. إذ إن كل تصرفاته الحميدة والناكرة للذات تنقلب إلى شرّ في أعين العالم المحيط، وذلك لأن كل تصرف حميد يبدو لهذا العالم تصرفاً غير مفهوم وغير معقول أو تصرفاً أخرق. هذا **الطفل** البريء ذو الستة عشر عاماً طُرد من قبل والديه في براغ لكي يتجنبا الفضيحة الاجتماعية، إذ كانت خادمة مسكينة قد أغوته وأنجبت منه طفلاً، وذلك دون أن يكون واعياً أبداً هذه الغواية. ورغم طرده، فإنه يبقى على الوفاء لوالديه وتعلقه بهما.

جاهلاً، يظن أن والديه يعرفان ما هو الحق وما هو غير الحق. وعندما يدافع في السفينة عن حق الوقّاد، تجول في خَلَده فكرة: **ليت والداه شاهداه كيف دافع عن الحق، في بلاد غريبة وأمام شخصيات مرموقة ... هل هما خليقان أن يغيّرا رأيهما فيه؟ يجلسانه بينهما ويثنيان عليه؟ ينظران مرة، مرة في عينيه الممتلئتين لهما؟** (ص ٢٥).

لكن يقينية الحق الداخلية تفشل بسبب **نظام المجتمع**. هذا النظام يردّ ويصدّ كل خلجة إنسانية. وهذا ينطبق على أدنى وأعلى أعضاء هذا المجتمع: الوقّاد والخادم والسناتور. لأن الوقّاد ينفّس عن شعور الغضب، بدلاً من أن يراعي موضوعياً نظام السفينة وتعليماتها، تقع كلماته في الفراغ، وتعطي انطباعاً بأن الحق ليس إلى جانبه، ويزعج أعمال السادة الهامة ومراجعة الملفات من قبل الموظفين، ويدع صبرهم ينفد. وحتى الخادم الذي لم يصب بشيء **من الشرود الذي حلّ بصورة عامة وشارك الرجل المسكين (الوقّاد) الواقع بين الكبار عواطفه إلى حد ما، وأومأ برأسه جادّاً إلى كارل** (ص ٢١). حتى هذا الخادم **عاد كلياً إلى جو أسياده** (ص ٢٣). لا أحد يُعفى من الأنظمة الرسمية المخطَّطة ذاتية الفعل، ولا حتى الوقّاد. «**لا تُسِئ فهم الوضع**»، **قال السناتور لكارل، الذي ما زال يدافع عن موضوع العدالة، قد يكون الموضوع موضوع عدالة، لكنه في الوقت نفسه موضوع نظام. وكل منهما، ولا سيما الأخير، يخضع هنا لحكم السيد القبطان**» «**هكذا هو الأمر**»، **تمتم الوقّاد. ومن لاحظ وفهم، ابتسم مستغرباً** (ص ٣١).

وكذلك السناتور، الذي يقف في قمة المجتمع، يذعن للنظام الموحَّد. فهو يعتذر للقبطان لإزعاجه له في **أعماله الرسمية** من خلال المشهد العائلي الشخصي، اللقاء غير المتوقع مع ابن أخته كارل. وكارل يحس هذا **إهانة ذاتية للخال** غير قابلة للفهم، وفوق ذلك يقبلها القبطان **دون أن يقدم أقل اعتراض**. إن الرسمي يعلو في وعي هؤلاء الناس على كل شخصي غير رسمي. **فتهذيبه** (القبطان) **ينتهي عندما يتعلق الأمر بالنظام** (ص ٣٢). وهكذا يدرك كارل مذعوراً أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً للوقاد دون أن يهين الجميع. فينتحب ويقبّل يد الوقّاد وينصحه: **لكن عليك أن تدافع عن نفسك، وتقول نعم ولا، وإلا فلن يكون لدى الناس أدنى فكرة عن الحقيقة** (ص ٣٢). لكن حتى هذا الألم الذي يحسّه كارل، يفسّره خاله كما يلي: «**يبدو أن الوقاد قد سحرك**»، **قال وهو ينظر، من فوق رأس كارل، إلى القبطان بتفهم كامل**. «**كنت تشعر بالوحدة، فوجدت الوقاد، وأنت ممتنّ له، وهذا أمر حميد للغاية. لكن، حتى إكراماً لي، لا تتمادَ وتعلّم أن تفهم منزلتك**» (ص ٣٢). لذا ساور كارل **شك فيما إذا كان هذا الرجل سيستطيع في أي وقت كان أن يعوّضه عن الوقاد** (ص ٣٤). إن كارل يحدس أن **المنزلة** بالذات التي أصبحت له والمستقبل الباهر الذي انفتح له من خلال خاله، يستبعدان كل خلجة إنسانية غير مشوبة وكل كفاح من أجل الحق والحقيقة.

في فصل **الوقاد** قدّم كافكا، بإيجاز، بنية رواياته: التناقض، الذي لا يزول، بين الوجود **الشخصي** والوجود **الرسمي**؛ واستحالة تحقيق الوجود الشخصي في مجتمع يحكمه **المكتب** وحده، ويلغي حتى التناقضات الطبقية بناء على هذا التفكير القائم على لوائح صارمة وروتين لا يتغيّر.

وهذا ما لا تعارضه طبيعة الخال الليبرالية المستقلة ظاهرياً. حتى هذا، الذي يمثل العصامي الأمريكي، هو سجين **نظام** أجهزته التوسطية. إنه لا يستطيع أن يفكر ويتصرف بحرية. هو بالذات، الحريص على حرية واستقلالية الفعل والحكم، ينصح كارل **بأن لا ينخرط مؤقتاً على نحو جدي مطلقاً. عليه أن يتأمل كل شيء ويفحصه، لكن لا أن يدع نفسه يؤسر ويُستأثر به** (ص ٣٦)، بل أن يحكم باستقلالية.

صحيح أن الخال يدع كارل يتطور بحرية وينمّي شخصيته ويتبع ميوله ومواهبه، بيد أنه يحذّره من **التعطل الوحداني** الحالم، إن الوقوف على الشرفة والنظر من أعلى إلى الشارع، **لابدّ لهذا أن يثير ارتباكاً! هذا التعطل الوحداني الذي يغرق في يوم نيويوركي حافل بالعمل، يمكن أن يُسمح به لسائح وربما يكون تهلكة ... لمن سوف يبقى هنا** (ص ٣٦). من هنا فإن الخال يلحّ على التعلّم العملي والالتزام بأحكام الظروف الجديدة. إنه يخشى أن تقود الإحاطة علماً بعالم العمل والابتعاد الوحداني الحالم عن هذا العالم إلى الارتباك والتهلكة.

التقنية كلعبة حرة

بيد أن «الطفل» كارل يأمل من اللعب الحر والحالم خلقاً حقيقياً للحياة. هنا يتجلى تصور كافكا المعروف عن الوجود الطفلي الذي لا غرض محدد له، عن مهمة **الموسيقى** واللعب في الإنقاذ: **كان كارل في الفترة الأولى يأمل الكثير من عزفه على البيانو ولم يخجل على الأقل قبل أن يغشاه النوم من أن يفكر بـإمكانية ممارسة تأثير على الظروف الأمريكية من خلال هذا العزف على البيانو** (ص ٣٨).

يدور الموضوع هنا إذاً حول الاختراق إلى الوجود **المباشر** خلافاً لكل التوسطات، إلى **التأثير** المباشر للحياة المحددة أيضاً من خلال العزف على البيانو، هذا العزف الذي يزيل كل العوائق. بيد أن هذا يظل محض حلم ليس ممكناً وقابلاً للتصور سوى بالقرب من **النوم**. لكنه **عندما كان ينظر من ثم إلى الشارع، كان هذا كما هو ولم يكن سوى جزء صغير من دورة كبيرة لم يكن في مقدور المرء إيقافها مبدئياً دون معرفة كل القوى التي تؤثّر في مداره** (ص ٣٨). الحياة الدائرة في دائرة واحدة رتيبة لا يمكن إيقافها مبدئياً. يتعيّن على كارل أن يدخل إليها ويوغل فيها، أن يتعرف على كل القوى فيها ـ ويبوء بالفشل بسببها.

هكذا يفهم كارل **أحدث ابتكار**، طاولة مكتبه، بصفتها لعبة بل كذكرى سعيدة تذكّره بتمثيليات مولد المسيح في طفولته. إن تقنية المكتب الماهرة تتحول إلى لعبة له. هنا ينفتح أقصى أمل طوباوي أخير: إذا قدّر لكل تقنية أن تتحول إلى لعبة لا غاية لها، فإن البشرية خليقة أن

تتحرر مرة أخرى من عبودية العمل الرتيبة. في مثل هذه اللعبة الطوباوية تلتحم طفولة كارل ورغبته الطفلية بأن يصبح **مهندساً** وتشكلان وحدة فاتنة ذات جدوى.

لكن على خلاف كارل لم يكن الخال بلا ريب موافقاً على هذا المكتب (ص ٣٧)، كما أنه لم يوافق على العزف على البيانو عن طيب خاطر. إنه لم يعد يعرف العفوي، المباشر. حتى حكمه النهائي على كارل يجري تحديده عن طريق وسطاء، أصدقائه المزعومين. هذا الرجل الذي يفكر باستقلالية لا يكوّن لنفسه حكماً مستقلاً على النوعيات الأخلاقية لابن أخته المحبوب من قبله.

القرار عما إذا كان كارل يحبه حقاً ويتبعه بإخلاص ويثق به، أو فيما إذا كان يخضع لإغراء وغواية آخرين بأن يتصرف خلاف رغبات الخال، هذا القرار بطرد كارل طرداً نهائياً يضعه في أيدي وسطاء، وهؤلاء يسيئون ثقة الخال هذه على نحو مزرٍ.

أجهزة التوسط وحارس الباب في رواية المحاكمة

هؤلاء الوسطاء، لاسيما السيد غرين، هم سادة العصر وممثلوه المزيّفون. تماماً مثل أجهزة التوسط في العمل والحياة الخاصة، هذه الأجهزة التي تروح تتضخم بغير رادع لتصبح أمراً من الخوارق. هؤلاء الوسطاء ينمون أمام عيني كارل المرعوبتين إلى الضخامة: **لكن أمام هيئة غرين الضخمة ـ كان كارل قد تعوّد على ضخامة بولوندر ـ التي راحت تنمو ببطء أمامهما وهما يصعدان الدرج، زال كل أمل** لكارل (ص ٤٦). **السيد غرين ربما أكثر بدانة بعض الشيء من السيد بولوندر، ... بدا رياضياً كبيراً، رياضياً يُحتذى به** (ص ٦١). وأخيراً، قبل القرار، جاء: **اتخذ غرين في هذا الممر حجماً مثيراً للسخرية وتساءل كارل في ذات نفسه في ما إذا لم يكن غرين ربما قد التهم السيد بولوندر الطيب** (ص ٦٥).

هيئة غرين تنمو في مجرى الأحداث على نحو متزايد. كما أنه **رياضيّ يُحتذى به**، هذا يعني أنه يحدد خط سير العصر، هكذا مثلما يتبع في قاعة الهواتف كل فرد على نحو أعمى الشخصَ الذي يسير مصادفة أمامه.

مرة أخرى، إن التوازيات مع رواية **المحاكمة** لافتة للنظر. حراس الأبواب، الذين يعترضون الدخول المباشر إلى القانون، ينمون إلى مدى بعيد، **الواحد منهم أقوى من الآخر. ومجرد منظر الثالث لا أقدر حتى أنا أن أحتمله بعد.** إن الأجهزة الوسيطة تتواجد في عملية نموّ لا تتوقف. ومن المحتمل أن يكون هذا أيضاً هو معنى الحقيقة الغريبة أن فندق **أوكتسيتندال في المفقود** يتضخم من طرف إلى طرف. في البداية كان لا يتألف سوى من خمسة طوابق،

ثم صارت سبعة، **حيث إن سيدة في الطابق السابع كان قد أغمي عليها** (ص ١١٥). وهو يحتوي على ٥٣٦ غرفة على الأقل، إذ يُذكر رقم غرفة ٥٣٦، وعلى أكثر من ثلاثين مصعداً (ص ١٠٣)، وأخيراً يصبح مجموعة مبان ضخمة يقيم فيها **خمسة آلاف نزيل وممرات لا تُعدّ ولا تحصى**. ولو قد يكون سبب هذه الاختلافات هو أن مخطوطة الرواية لم تكن جاهزة بعد للنشر، فإن هذا النمو لبناء الفندق هو أمر مميز لمخيلة كافكا الشعرية، هذه المخيلة التي تتضخم أمامها مثل هذه الأجهزة الوسيطة إلى أمداء غير منظورة. وكما أن حراس الأبواب في **المحاكمة** هم الأقوياء حقاً، هكذا هو أيضاً كبير البوابين في **أوكتسيتندال: للمناسبة، إنني بمعنى ما فوق الجميع بصفتي كبير البوابين، إذ إن جميع مداخل الفندق تحت سلطتي، هذا المدخل الرئيسي إذاً، المداخل المتوسطة الثلاثة والمداخل الجانبية العشرة، ناهيك عن الأبواب الصغيرة التي لا تحصى والمخارج التي بلا أبواب** (ص ١٣٠).

الشخص الأدنى مرتبة ظاهرياً والأقل أهمية في مبنى عام، البواب، يصبح الشخص المسيطِر، وذلك لأن كل شيء قائم على التوسط، ما من أحد يجرؤ بعد على الدخول مباشرة ويثبت وجوده حراً.

حراس الأبواب لدى كافكا وهيئات التوسط النامية على نحو هائل هي صورة عصر تتنامى أجهزته بلا توقف وتنزع كل القرارات من أيدي الأفراد المقررين صورياً وحسب. إن الخال، المستقل في تفكيره والثري إلى حد لا يقاس، لا بل الشخص الحاسم في كامل الحياة الاقتصادية الأمريكية، يقع تحت سلطتها ويؤثر أن يضحي بابن أخته المحبوب من قبله على أن يقطع هذه الوساطات.

السادية في **المفقود والمحاكمة** وقلب ظروف السيطرة الاجتماعية

هيئات التوسط هذه هي فاسدة وسادية في آن. كل تماس مع الإنسان الآخر يتحول إلى عمل عنف. السيد غرين **يقطّع حمامة تقطيعاً حاداً** (ص ٤٧) ولا يرى حرجاً من أن يمدّ يده **بقوة المتخم** إلى ابنة بولوندر كلارا (ص ٤٨)، التي تكتسب عيناها المتحركتان على نحو زائد بريقاً. إذ بالنسبة لكلارا لا يمكن تصور الحب سوى على شكل **تملّك ومصارعة يابانية** رياضية. إن الألم الذي يلحقه المرء بنفسه، يتحول إلى متعة. في عالم التملك المجرد يكون الحب أيضاً محض حيازة فجة.

وحتى الفيلا الريفية، رمز الحرية والهدوء والاستجمام، تصبح **قلعة** (ص ٥٥) ذات ممرات لا متناهية يعمّها الظلام في كل مكان. والعمل الذي يُنجز بسرعة خاطفة وبلا توقف يتغلغل إلى اللب، إلى عمق مركز المالكين، ويرغمهم على حماية ما يملكون والدفاع عنه حتى

لا يُمسّ، ويفرض حتى على حياتهم الخاصة مصارعات يابانية، ويفصل لهذا السبب مأوى السلام الحق، **الكنيسة**، عن الفيلا المحصنة.

لكن هناك حيث لا يعود أحد يملك فعلاً وعلى نحو مؤكد مضمون، حيث يكون الثراء وهماً كلياً، حيث تسود التوسطات، حيث كل فرد يطارِد ويطارَد، في غرف حراس الأبواب والبوابين الأدنى والأعلى، الذين يلقون الاستعلامات ثرثرة وبسرعة خاطفة وبلا توقف، هناك تعشش متعة الساديّ المعذِّب. إذ إن المعذَّب لا يستطيع أن يعيش إلا إذا عذّب آخرين. هكذا فقط يستطيع أن يستسلم للخداع اللذيذ بأنه يسيطر، حيث يُسيطر عليه.

إن السادية هي الشكل التعويضي اليائس، تعويض عن فقدان علاقة الحب ونقص الاتصال بالناس الآخرين. السادية هي شكل الاتصال الفظيع في المجتمع الجماهيري المستلب. قال كافكا مرة: «إن الماركيز دو ساد هو وليّ عصرنا ... لا يستطيع أن يبتهج بالحياة إلا من خلال آلام الآخر، هكذا كما يُدفع ثمن ترف الأثرياء ببؤس الفقراء».

إنه لمن المميز أن كبير البوابين **الضخم** والسمين يحتاج إلى أن يخاطبه حتّى أصغر صبي مصعد بكلمة **كبير البوابين** وأن يحيّي على الدوام، وذلك **في كل مرة، كل مرة دون استثناء** (ص ١١٤)، مهما كان عدد المرات التي يمر فيها الصبي عبر الباب. يلزمه أن يشعر قدْر ذاته من خلال خضوع مرؤوسيه له، وذلك لأنه هو نفسه لم يعد يملك قيمة شخصية داخلية. الحق الداخلي يعوّض عنه بنظام خارجي، خواء الشخص يغطى ببزته **الرسمية المحمّلة بتزيينات وافرة ــ حتى على الكتفين والذراعين راحت سلاسل وشرائط مذهبة تتلوى نحو الأسفل ــ ... ولم يكن في مقدور الرجل بسبب ثقل ملابسه أن يتحرك إلا بصعوبة ولم يكن يقف بطريقة أخرى سوى بتثبيت ساقيه جانباً لكي يوزع ثقله على نحو صحيح** (ص ١١١). إنه يصبح سجين شكل وجوده الخارجي. وفي نهاية الأمر يسلب كارل ويفتش جيوبه ويحتفظ بسترته الخاصة به، عندما يفلت منه هذا في يأس.

هنا أيضاً توجد توازيات مع الموظفين والحراس في **المحاكمة**، حيث يقوم الحراس البدينون ذوو البزات الرسمية السوداء بسرقة ملابس يوزف ك. الداخلية. إن التوازيات تصل إلى التفاصيل. عن كبير البوابين في الفندق جاء: له **شارب أسود لامع ذو طرفين طويلين كما لدى الهنغاريين، لا يتحرك حتى لدى أكثر لفتة رأس سرعة** (ص ١١١). عن قضاة التحقيق في المحاكمة جاء: **عيون صغيرة سوداء كانت تمرق جيئة وذهاباً، الوجنات تتدلى كوجنات السكارى، واللحى كانت متصلبة وذات شعر خفيف، إذا دسّ المرء يده فيها، فكأنه يشكّل مخالب وليس كمن يدسّ يده في لحى** (المحاكمة، ط ٣، ص ٥٣). وعندما يرى الرجلُ من الريف حارسَ الباب أمام القانون جاء: **لكنه عندما ينظر الآن بدقة أكثر إلى حارس الباب وهو في معطفه من الفرو، إلى أنفه المدبب الكبير، وإلى اللحية التترية الطويلة الخفيفة**

السوداء، يقرر أن ينتظر حتى يحصل على الموافقة للدخول (المحاكمة، ص ١٠٤). كذلك تتكرر في مكاتب المحكمة **الرائحة المقبضة الغريبة التي كانت تنبعث من كبير البوابين المفقود**، ص ١٣٠ في هذا الكتاب). وكما يسمّي كبير البوابين كارل **مشبوهاً بشدة، لأن الأمر يناسبني** (ولأنني) **أريد أن أتمتع بك**، هكذا أيضاً يتمتع المحامون وموظفو المحكمة بعذاب المدعى عليه المشتبه به على نحو تعسفي وبدون سبب ظاهر (المحامي هولد إزاء التاجر بلوك) أو يتلذذون بزعيق الذي يحاول اغتصاب زوجة خادم المحكمة، التي تجد هذه المحكمة مقرفة.

بيد أن العذاب يرتدّ إلى المعذِّب. إن الحراس الذين يعذّبون، يجري تعذيبهم وجلدهم باستمرار في غرف سقط المتاع، كما تُسمع **صرخات** في غرف الموظفين ومكاتب رواية **القلعة**، هذه الصرخات التي تكون في الوقت نفسه صرخات صامتة وبلا مخرج. إن عذابات عالم العمل الذي لا يكفّ عن الحركة هي بطبيعتها غير قابلة للزوال ولا بدّ لها من أن تزداد على نحو لا يمكن إيقافه. كذلك كبير البوابين الساديّ على نحو وحشيّ هو نفسه في الحقيقة معذَّب. عن ذلك تعرف كبيرة الطباخين: «**ما قد يكون السيد كبير البوابين قد قاله لك، عليك ألا تأخذه مأخذاً صعباً على نحو خاص. صحيح أنه رجل منفعل، الأمر الذي لا عجب فيه لدى عمله، غير أن لديه امرأة وأولاداً ويعرف أن عليه أن يزعج على نحو غير ضروري شاباً لا يعتمد سوى على نفسه، بل إن باقي العالم يقوم بهذا الإزعاج على نحو كاف.**» (ص ١١٩) متورطون في نظام العمل هم كل البشر. وفي الحقيقة كل فرد يعذب كل فرد. والفروقات في المراكز الاجتماعية هي مجرد فروقات ظاهرية.

حتى خال كارل، الذي يتربع على رأس عالم العمل الصناعي هذا، تعذبه **مبادئ** العمل الخاصة به. هذه المبادئ هي بالنسبة له **أمر غير مريح أبداً ومحزن** (ص ٦٥)، ويخشى من **هجوم عام** ضده. هذه المبادئ ترغمه على أن ينكر حبه الشخصي لكارل وعلى أن يطرده، هو خاله الذي يصبو بأسى إلى الاستمرار في الاتصال به وحبه، وذلك في عالم يفتقد إلى اتصال إنساني. بالذات لأن نفسه تتوق بشدة إلى إقامة اتصال مع ابن أخته، لا بدّ له أن يشعر بجرح أعمق لدى أقل إشارة تدل على عدم اكتراث ابن أخته. بيد أن البحث عن اتصال يدمر الاتصال. **مراقبة** ابن الأخت تفضي إلى طرده.

لقد أحب كارل خاله حقاً. حتى في ساعة القرار في المنزل الريفي يحلم بأن **يفاجئ الخال العزيز، الذي لا يعرفه حتى الآن إلا مرتدياً ثيابه كاملة ومزررة** (ص ٤٩)، يفاجئه في الصباح في غرفة نومه ويشاركه طعام الفطور، متمنياً أن **يصبح هذا الفطور المشترك شيئاً دائماً**. كارل أيضاً يتوق إلى علاقة إنسانية دافئة حقيقية مع خاله. هذه العلاقة لا تتحقق بسبب **غياب المحادثة الصريحة** (ص ٥٠): كان الخال قد أعطى كارل إذناً بالسفر إلى عزبة أسرة بولوندر، لكنه لم يعطه سوى **كارهاً** (ص ٤٣). وبحق استنتج من ذلك أنه ينبغي على

كارل، متبعاً إحساسه المباشر، أن يرفض دعوة بولوندر حباً بخاله. بيد أن الخال لا يجهد في تقصي مشاعر ابن أخته، بل يترك القرار حول ذلك للسيد غرين دون غيره. يعتقد أنه يتعيّن على كارل دائماً وبدون شرط أن يحدس مكنون رغباته ويقوم بتلبيتها؛ هذا وحده هو دلالة الحب، كما يرى. بهذا يجعل من كارل بلا وعي موضوع رغباته، ويسلبه حريته. حيث إنه لم يكن في مقدور كارل أبداً أن يستخلص على الفور أحاسيس خاله من أقواله التي كانت مليئة بالتناقضات، **أية تناقضات هذه** (ص ٤٣)، لم يكن قلبه يستطيع أن يحدثه بأن الأمر إنما كان يتعلق بآخر قرار إنساني. هذا يعرفه الخال أيضاً بأن يؤجل القرار إلى منتصف الليل، إلى وقت لا بدّ أن يتضح فيه لكارل أين يكمن مركز ثقل حياته الداخلية، لدى بولوندر وابنته كلارا أم لديه هو الخال. كان كارل قد حسم أمره منذ البداية إلى جانب خاله، بل إنه لم يكن من الضروري قط اتخاذ قرار، حيث إنه كان دائماً يرغب في إقامة اتصال مع خاله. لكن العلاقة الشخصية بينهما وُضعت من قبل في يديّ غرين، الذي يخدع الاثنين. إن الشكل الضخم لغرين يدمر اللقاء الإنساني الطبيعي. الخال يجرح نفسه بأن يُدخل شخصاً ثالثاً بينه وبين ابن أخته، وبأن لا يسمح بإجراء **محادثة صريحة** وبوجود إمكانية حرة في اتخاذ ابن أخته قراراً، مع أنه يعيش في وهم بأن كارل إنما اتخذ قراراً حراً خاصاً به بأن غادره ضد إرادته. **لقد قررتَ ضد إرادتي أن تغادرني** (ص ٦٦).

الخال الليبرالي، الذي بنى حياته وتفكيره الاقتصادي على «الحرية» و«الشخصية»، على المبادرة الخاصة للرجل البارع «المفرد»، هو بالذات يستسلم بالضرورة لتناقضات هذا الاقتصاد الحر، الذي تقوم مبادئه على تحويل كل فرد إلى موضوع لفرد، وتسليم كل فرد إلى تصرف حر لكل فرد آخر بلا حدود، وبهذا القضاء على كل حرية إنسانية حقة. إن القرار الحر المزعوم يُفرض في الحقيقة من قبل آخرين. والفروق ذات النوع الخلقي أو الطبقي بين أعضاء هذا المجتمع الجماهيري هي مجرد مظهر سطحي. في الحقيقة إن الجميع متشابهون، بمن فيهم كبيرة الطباخين الطيبة وتيريزه، اللتان تدعان نفسيهما تُخدعان أيضاً من **المظهر** (ص ١٢٣) الخارجي للذنب المزعوم لكارل روسمان، وتعتبران البريء مذنباً، وتستسلمان في الوقت نفسه إلى آلية الحاجة الضرورية إلى ذلك الاتصال الذي يفتقده الجميع.

إذ إن كبيرة الطباخين كما تيريزه تبحثان عن اتصال. كبيرة الطباخين تدع كبير النُدُل يغرر بها بمحاولات تقربه الشهوانية وبحججه ويكسبها ضد كارل الذي يرغب كبير النُدُل أن يصرفه غيرة منه. وتيريزه، التي لا تطمح إلى شيء آخر سوى إلى إقامة اتصال مع كارل ـ منذ الليلة الأولى تذهب مرتبكة إلى الغريب عنها في غرفة النوم ـ، سعيدة إذا نجا كارل بقليل من الضرر. لا تبغي شيئاً آخر سوى الحفاظ على حياته وعلى قربه. مسألة فيما إذا كان يحدث له عدل أم ظلم، هي مسألة غير مهمة بالنسبة لها: **كانت عينا تيريزه تشعان فرحاً، وكأن الأمر**

سيّان لديها فيما إذا كان كارل قد اقترف إثماً أم لا، فيما إذا كان قد أدين عدلاً أم ظلماً، فيما إذا كانوا قد تركوه يمضي مجللاً بالعار أم مكرّماً (ص ١٢٥).

تحويل الحب إلى عكسه

بكلمات أخرى: هذه النساء الطيبات والمستعدات لتقديم المساعدة لا يكشفن آلية السلطة المطلقة السادية المجردة المتورطات فيها. إنهن يخضعن لشعورهن - المزعوم أنه شعور مباشر - ولحاجتهن الضرورية إلى قُرب إنساني وبهذا يقبلن دون إدراك الظلمَ الذي يقع على الجميع والذي يتكرر باستمرار في كل شيء.

انطلاقاً من هنا وحسب يقع ضوء يوضح الحقيقة التي احتار النقاد كثيراً في تفسيرها وهي أن النساء في روايتي **المحاكمة والقلعة** إنما يخضعن للموظفين ويستسلمن لهم بدون شرط. في عالم ذكوري تنعدم فيه العلاقات الإنسانية بإطلاق - الموظفون هم جميعاً رجال - لا يوجد سوى إما نساء رجالية (كلارا الرياضية المصارِعة أو المعلمة القاسية غيزا في **القلعة**، التي بطريقة ذات دلالة كبيرة وكامرأة وحيدة في القرية أيضاً إنما حتى تهيمن على موظفي القلعة، مثال ابن أمين القلعة) أو نساء تتملكهن عاطفة أمومة شديدة ويضحّين بأنفسهن، ويخضعن للنظام الذي ينتهكنّ. إن **المساعدة** التي تقدمنها إلى **المدعى عليهم والشفقة** التي تشعرن بها على هؤلاء - كارل أيضاً هو هنا مدعى عليه - تكمن في تقديم نصائح لهم بقبول النظام والاعتراف به وهم مسلوبو الإرادة، والخضوع للموظفين، هؤلاء الموظفين الذين تحيطهنّ بهالة وتُعجبن بهم. إنهن يجدن جميع المدعى عليهم **جميلين**، بالذات لأنهم لا حيلة لهم وبحاجة ماسة إلى علاقات إنسانية. لذا تقمن بالاهتمام بهم وبرعايتهم. بيد أن هذه الرعاية والمساعدة هي تغطية الحقيقة، لا بل حتى هي نفسها رغبة سادية في الهيمنة، كما تقبّل لني في **المحاكمة** التاجر بلوك وفي الوقت نفسه تحوّله إلى كلب مستسلم، وتدع المدعى عليه يوزف ك. بغير رادع يستبدلها بحبيبته إلزا كما تتملكه هي أيضاً بغير رادع.

إن الحب هو نفسه مجرد انعكاس، ويشهد على النظام الاجتماعي المتغلغل في كل شيء والقائم على القوة والعنف. تيريزه المسكينة، التي طُردت وقُتلت أمها بطريقة وحشية من قبل عالم بارد، هي، مثل كل النساء، ضحية النظام الذكوري، بيد أنها تُقرّ إهانتها والحط من قدْرها دون أن تعي ذلك، **تشع فرحاً** عندما يدعون الضحية تمضي. لقد اختفت الفردية، اختفى الحق في تقرير المصير تقريراً حراً.

هذا التحويل للحب إلى عكسه، إلى عنف أو خضوع، هذا التحويل الذي يشمل كل الطبقات، يفضحه كافكا بلا هوادة وبأكبر صراحة في قصة برونيلدا. هنا ربما بلغ كافكا ذروة

أبحاثه الانتقادية للمجتمع المعاصر. إذ هنا تتجلى على نحو صارخ إلى أقصى حد وبصدق أيضاً أكثر ما يكون الصدق الدورة الدموية بين الحكام والمحكومين، الغنى والفقر، التقريب، لا بل التماهي الرتيب بلا فرق بين شتى الأجواء.

برونيلدا، المغنية الثرية، التي تبدو أنها تستطيع العيش رغد العيش وبلا اكتراث، متحررة من حركة العمل، **مستقلة على نحو تام** (ص ١٤٩)، هذه المرأة بالذات تستسلم للرجل القوي، المشرد، العاطل عن العمل والهامشي دِلامارش، الذي يبهرها عندما يصفع زميله روبنسون. إذ بالذات لأن زوجها يعبدها في خضوع واستكانة، ويذلّ نفسه أمامها إلى درجة الماسوشية، بالذات لأنها تسيطر عليه بلا حدود، وتستطيع أن تلقي على رأسه بأي شيء وهي مستعرة بالغضب ودون مقاومة، لأن الحب هنا ليس شيئاً آخر سوى علاقة بين سيدة وعبد، علاقة تقوم على تفكير التملك الخالص، لهذا السبب بالذات ترغب في الخضوع لرجل يأتي من قاع المجتمع، يتميز بقوة جسدية، لكن الذي تملكه في الوقت نفسه بثرائها وتربطه بنفسها جنسياً. مهما تبدلت العلائق، فإنها تظل علائق تملّك وخضوع متبادلين. إن مذلتها أمام دِلامارش هي نفسها سيطرة كرّة أخرى. إن قوة دِلامارش الجسدية هي أيضاً وفي الوقت نفسه عبودية مالية وجنسية. هكذا كلاهما مكبّلان ببعضهما في تعذيب متبادل لا يُعرف له مدى وفي شذوذ كل المشاعر. في الغنى والفقر، في كلا الجوّين، تجري دائماً الصراعات نفسها على السلطة والتحكم.

الرأسمالية «حالة العالم والروح»

عندما شاهد كافكا رسماً يصور رأس المال على شكل رجل بدين يجلس على مال الفقراء، قال إن الرسم لا يصيب الحقيقة بشكل صحيح كلياً، وذلك لأنه يرفع جزءاً إلى الكل: «الرجل البدين الذي يرتدي القبعة الأسطوانية يجلس على رقبة الفقير. هذا صحيح. لكن الرجل البدين هو الرأسمالية، وهذا ليس صحيحاً كل الصحة. الرجل البدين يسيطر على الرجل الفقير في إطار نظام معيّن، بيد أنه ليس النظام نفسه ولا حتى سيد النظام. بل على العكس: الرجل البدين أيضاً مقيّد بأصفاد، أصفاد غير معروضة في الصورة. الصورة غير مكتملة. لذا فهي غير جيدة. الرأسمالية هي نظام تبعيات تمتد من الداخل إلى الخارج، من الخارج إلى الداخل، من الأعلى إلى الأسفل ومن الأسفل إلى الأعلى. كل شيء تابع، كل شيء مقيّد. الرأسمالية هي حالة العالمْ والروح.»

الرأسمالية كحالة العالم والروح حتى الخلجات الجنسية الأكثر خصوصية وحتى صميم كل علاقة إنسانية، هذا هو الموضوع الحقيقي لرواية **المفقود**. لكن حتى اسم الرأسمالية قابل

للاستبدال. إن «نظام التبعيات» يمتد على كامل المجتمع الجماهيري الصناعي في العصر الحديث، لا بل إنه يمتد على جميع أنماط المجتمع القديمة والراهنة، التي يسيطِر فيها المرء ويُسيطَر عليه طبقاً لتفكير التملك والمصلحة المحض.

في ختام الرواية ينفتح أمل غيرِ واضح وغير محدد، إمكانية - ولو طوباوية - انفكاك من «نظام التبعيات». هذه الإمكانية يشكّلها كافكا فنياً في **مسرح أوكلاهاما الطبيعي**، أو على الأقل يتجه صوب هذا التشكيل جزئياً.

مسرح أوكلاهاما الطبيعي

فهم بعض المفسرين هذا المسرح الطبيعي مشهداً من العالم الآخر يدخل إليه كارل روسمان بعد موته، سفرته في قطار الأنفاق إلى كلايتون تعني رحيله الأخير، قبوله في كلايتون هو قبول في ملكوت الموت، وأوكلاهاما هي الفردوس.

بهذه الطريقة أراد ماكس برود أيضاً أن يوحّد بين اثنين من أقوال كافكا. في يومياته كتب كافكا: **روسمان وك.، البريء والمذنب، كل منهما بلا تمييز يُقتل في نهاية المطاف عقاباً، البريء بيد خفيفة، يُنحّى جانباً أكثر مما يُصرع**. طبقاً لقول شفهي من كافكا إلى ماكس برود يذكر هذا: «من أحاديث أعرف أن الفصل غير المكتمل عن مسرح أوكلاهوما، هذا الفصل الذي كان كافكا يحب مطلعه بصورة خاصة وقد تلاه على نحو جميل بطريقة مؤثرة تخشع لها القلوب، وكان سيكون الفصل الأخير وينتهي نهاية صلحية. بكلمات لغزية ألمح كافكا مبتسماً إلى أن بطله الصغير سوف يعثر في هذا المسرح **الذي لا حدود له تقريباً** على المهنة، الحرية، السند، لا بل على الوطن والوالدين كما عبر سحر فردوسي.»

آ - الفنان والمجتمع

إذا أمعنّا النظر في النص يتضح أن النظرية المصطنعة عن السفرة بقطار الأنفاق بصفتها رحيلاً من الحياة الخ هي نظرية زائدة عن اللزوم، وأنه يمكن حل التناقض المزعوم بين يومية كافكا وحديثه إلى برود بطريقة منطقية أكثر: فعلاً يُنحّى كارل روسمان جانباً داخل عالم العمل الأمريكي ويُقتل عقاباً؛ إنه لا يجد أرضاً فيه، يتردى في الهاوية، يختفي كما يختفي **مفقود**، دون أن يكون من الضروري استخدام عمل عنف صريح. **يُنحّى جانباً بيد خفيفة** بصمت وعلى نحو تلقائي في آن. **عقاباً** ... **يُقتل** ... **البريء**، وذلك لأن داخل هذا المجتمع يُعاقب الأبرياء على كل حال بحرمانهم من أساس حياتهم. إذ **في العالم** يُعاقب كل فرد، المذنب والبريء، كما يرى كافكا. لذا لا يحتاج القتل إلى موت فيزيائي. وما من موضع لدى سفرة

كارل في قطار الأنفاق، هذه السفرة التي يحصي كارل نقوده من أجلها، يلمح مجرد تلميح إلى موت كارل. إن الأحداث تجري على نحو طبيعي في إطار ظروف مواصلات حديثة.

بيد أن اللافتة التي يراها كارل على ناصية شارع تفتح إمكانية خارج نظام التبعيات. تعلن: **إننا نرحب بكل فرد! من يريد أن يصبح فناناً، فليسجل نفسه! نحن المسرح الذي يحتاج إلى كل فرد، كل في مكانه** (ص ١٨٩). في هذا **المسرح الأكبر في العالم**، الذي **لا حدود له تقريباً** يستطيع كل امرئ بلا استثناء أن يقوم بالدور المسرحي الذي يناسبه، طبعاً فقط بشرط أن يكون يريد أن يصبح فعلاً **فناناً**. غير أن الإعلان لا يلقى إعجاباً كبيراً، حيث إن **ما من أحد كان يريد أن يصبح فناناً، بيد أن كل أحد كان يريد أن يتلقى أجر عمله. لكن لم يكن فيها كلمة واحدة عن الأجر** (ص ١٨٩).

هذا **المسرح الطبيعي** يقف إذاً خارج عالم العمل الذي يسود فيه تفكير المصلحة. غير أنه يقف أيضاً خارج ما يتصوره المرء عادة تحت مسرح فنانين أو مسرح من أجل فنانين. إذ إن الجميع يُقبلون طبقاً لطاقاتهم ورغباتهم ويُعتبَرون بهذا ممثلين. «**لأي عمل تشعر أنك مناسب؟**» يُسأل كارل روسمان. «**لقد تمّ قبولي كممثل**»، **قال كارل متردداً، لكي يُفهم السيد الصعوبة التي كان السؤال الأخير قد سبّبها له**، حيث إنه لم يكن يدري أبداً فيما إذا كان يناسب **التمثيل في المسرح** بالمعنى المألوف، لذا فإنه يتوقع أن يلقى صعوبات. «**هذا صحيح**»، **قال السيد** وصنّفه بين **العمال الفنيين** (ص ١٩٩)، لأن كارل كان قد أعلن أنه كان يريد أن يصبح **مهندساً**. لقد قُبل إذاً كل فرد ممثلاً طبقاً لميوله. هذا **المسرح الطبيعي** هو **مسرح عالمي** حق بالمعنى الكوني القديم لعصر الباروك ـ وإن كان ذلك تحت ظروف جديدة. «**إنه أضخم مسرح في العالم ... لا حدود له تقريباً**» (ص ١٩٢). إن الدور الذي يلعبه هنا كل فرد هو دور الحياة الأصلي، الذي نما فيه من خلال طبيعته. والرغبة في أن يصبح المرء فناناً لا تعني شيئاً آخر سوى القيام بهذه الدور الحياتي على نحو كامل وطبقاً للطبيعة التي ولد بها المرء.

وهكذا يمكن إيضاح جملة: **ما من أحد كان يريد أن يصبح فناناً**. لا أحد في عالم العمل العصري يريد أن يعيش طبيعته الأصلية، وإنما يفكر في المرتبة الأولى بالأجر والنجاح في العمل. ولهذا السبب لا يتقدم إلى هذا المسرح سوى المهمّشين في المجتمع، **ناس معدمون مشبوهون** (ص ٢٠٢) لا يحملون متاعاً أو رجل فقير مع زوجته ورضيع في عربة أطفال، يُقبلون أيضاً كممثلين. وحدهم المهمّشون في المجتمع والمنبوذون تتوفر فيهم أساساً الشروط لمثل هذا **المسرح الطبيعي**، الأمر الذي لا يعني أبداً أن هؤلاء الناس صالحون أو أنهم يستطيعون أن يقوموا بدورهم على نحو تام، أو حتى أنهم يكنّون رغبة فعلاً بأن يصبحوا ممثلين. إذ إنهم لم يدركوا بعد إطلاقاً ماذا يعني في الحقيقة أن يصبح المرء فناناً، وما هو هذا المسرح أصلاً؛ غير

أنهم يرغبون في إيجاد مأوى أوعمل في مكان ما، حيث إنهم لم يعودوا يرون على كل حال إمكانية لإيجاد مكان في المجتمع النظامي. لذا فإن هؤلاء الناس ليسوا «الذين ماتوا أتقياء»، كما رأى أحد المفسرين. على العكس من ذلك، إنهم جميعاً يملكون شقاوة وخشونة كائنات حية، مثل الصبية في مقصورة القطار إلى أوكلاهاما، الذين **يقرصون ساق كارل أو غياكومو بكل قوة** (ص ٢٠٣). إن العالم الذي ينفتح هنا ليس عالماً حسناً أو حتى عالماً آخر، بل هو عالم **طبيعي** للغاية بكل المعايب والرذائل التي تكمن في الإنسان الفطري. وعلاوة على ذلك ما زال يكمن في **طبيعة** هؤلاء الناس قدْر كبير من البربرية وعدم المراعاة والعذابات السادية في المجتمع. إن الانتقال من عالم العمل إلى هذا المسرح الطبيعي لا يحدث فجأة ولا يحوّل المقبولين فيه كما بأعجوبة.

لكن الإعلان مكتوب بلا ريب في أسلوب دعوة دينية، دعوة للهداية بنبرة بائع منادٍ في السوق مضحكة: «**مسرح أوكلاهاما الكبير يدعوكم! يدعو اليوم فقط، مرة واحدة فقط! من يفوّت الآن الفرصةَ، يفوّتها إلى الأبد! ... أسرعوا، كي تُدخَلوا حتى منتصف الليل! في الثانية عشرة يجري إغلاق كل شيء ولا يُفتح بعد ذلك! ملعون من لا يصدقنا! هيا إلى كلايتون!**» (ص ١٨٩).

يتعلق الأمر لدى هذه المحاولة للدخول إلى «الفن»، إذاً، بفرصة لمرة واحدة لا رجوع فيها، والتي لا تُعرض سوى لغاية الساعة الثانية عشرة لغاية منتصف الليل، وذلك في تشابه واضح مع تهديدات مماثلة وردت في الإنجيل وفي نداء إلى **الإيمان**.

ما يُطلب هنا هو الإيمان بإمكانية هي أقصى إمكانية للإنسان وأقل إمكانية جدارة بالتصديق والتحقق، هي أن يستطيع الإنسان أن يحقق ذاته وما لا يُدمّر فيه، هذا الشيء الذي يكمن في «الكينونة»: هكذا فقط حدد كافكا **الإيمان**. وسط عالم عمل مليء بالإعلانات تجري هنا مناشدة حيّز في الإنسان يبتعد بالذات عن مثل عالم الإعلانات هذا. لذا تبدو أيضاً هذه اللافتة لجميع الناس على أنها **بعيدة الاحتمال: كان الكثير من اللافتات، ولم يعد أحد يصدق اللافتات. وهذه اللافتة كانت بعيدة الاحتمال أكثر مما اعتادت اللافتات أن تكون في ما عدا ذلك** (ص ١٨٩).

إن نبرة اللغة الدينية تُبرز عدم جدارة اللافتة بالتصديق: كافكا يطلب إيماناً بالحقيقة المنسية والمكتومة من قبل الفرد، لكن التي لا تدمّر، حقيقة الذات، هذه الحقيقة التي تتخطى كل إدراك بشري. هذا النداء لا يعني شيئاً آخر غير ذلك. إنه يتخذ اللهجة المنبرية للغة الدينية، لأن الموضوع هنا يتعلق بأعلى وأرفع وأسمى وأقصى معتقد، هذا المعتقد الذي يفجر كل تفكير مألوف. والتهكم الكاريكاتوري من كل ما جاء على اللافتة، **تبجحاً** (ص ١٨٩)، وما فيها من طابع البائع المنادي في السوق، هو في الوقت نفسه صورة منعكسة للمجال الذي يُطلب

داخله مثل هذا الإيمان. كون هذا الإعلان يجعل عروض العالم عروضاً مشوهة وغير جديرة بالتصديق، وفي الوقت نفسه يثب من نطاق هذه العروض، حيث لا حديث عن أجر، تتحول دعايته فعلاً إلى حمق في أعين العالم، تصبح الرسالة مجرد رسالة في شكل رقّ، والتي لا يمكن أن تُقبل أيضاً سوى من قبل البؤساء، المنبوذين، المعدمين والمشبوهين، كما كان الحال في المثال من الكتاب المقدس عن وليمة الرب، التي يُدعى إليها المشردون والمتسكعون، لأن جميع بقية المتحيزين في «العالم» يصمّون آذانهم عن دعوة المسيح.

ب ـ ضوضاء روح النساء

إن الاستقبال في كلايتون من قبل ملائكة من الإناث تنفخ في أبواق وشياطين من الذكور تقرع الطبول، يشهد هو أيضاً على السمة الدينية للعرض. لكن تماماً مثل اللافتة لا يقصد حياة آخرة، بل يدعو أولئك الذين يريدون أن يصبحوا فنانين، هكذا أيضاً تقدم هذه الملائكة التي تستقبل القادمين انطباعاً عما يجب فهمه مبدئياً في هذا المسرح الطبيعي تحت كلمة فن.

لسن ملائكة حقيقية، بل نساء عاديات كلياً ـ بينهن صديقة كارل السابقة فانّي ـ كن قد قُبلن في المسرح الطبيعي وجرى إلباسهن زي ملائكة والآن يقفن على قواعد متنوعة الارتفاع وينفخن. وكان نفخهن **ضوضاء مضطربة، لم تكن الأبواق متناسقة مع بعضها، كانت تنفخ بلا مراعاة** (ص ١٩٠). كل واحدة من هذه النساء تنفخ إذاً كما ترغب، وما من امرأة تتبع نفخ جاراتها. كلهن ينفخن بلا مراعاة.

ما من سؤال: كل منهن تتبع طبيعتها، وبالمثل يمارسن ضوضاء روح لا هوادة فيها. كل ما فيهن من مشاعر وأحاسيس يخرج منهن بلا غرض ولا حكمة. وهذا يثير حيرة القادمين. كارل يشعر **أن هذا العدد الكبير من الملائكة والشياطين إنما يثير الخوف أكثر مما يجذب** (ص ١٩٢). فالصبية العشرة، الذين يبدون صغاراً بالمقارنة مع الأشكال الكبيرة للنساء، بل الضخمة لبعضهن، كما الرجل المتقدم في السن، الذي يبحث مع زوجته وطفله الصغير عن قبول، لا يجرؤون على الدخول بين هذه الملائكة التي تنفخ بلا مراعاة. ثم إنه **لا لافتة في أي مكان، لا منادي في أي مكان، لا أحد في أي مكان يمكنه أن يعطي معلومات** (ص ١٩١). هكذا يقف هؤلاء الذكور في حيرة أمام **المئات من النساء** الصاخبات (ص ١٩٠)، اللواتي يبدون أنهن يقفن في طريقهم إلى مكتب القبول الحقيقي، الذي يقع خلف منصة الملائكة ولا يمكن رؤيته من الأمام. لكي يصل هؤلاء الذكور إلى أدوارهم المسرحية الخاصة بهم يتوجب عليهم أول ما يتوجب أن يمرّوا عبر ضوضاء روح النساء.

إن جميع تفاصيل العرض تدلل على أن الموضوع هنا يتعلق فعلاً بضوضاء روح شديدة

من غير هوادة. **النساء يرتدين كملائكة ملاءات بيضاء بأجنحة كبيرة على الظهر ... كانت كل منهن تقف على قاعدة لكنها غير مرئية، فقد كانت الملاءات الطويلة المرفرفة لملابس الملائكة تغطيها تغطية كاملة** (ص ١٩٠). ملابس الملائكة والأجنحة توصف بأنها جميلة للغاية وثمينة. لا ريب أن التصور القديم عن الروح بصفتها رداء يغلّف كل شيء إنما يلعب دوراً هنا، ومن الجائز أن يكون ذلك بتأثير من رداء شخصية ميغنون لدى غوته، الذي قرأه كافكا بتركيز كبير وظل طوال حياته معجباً به ويبجّله. كذلك بغض النظر كلياً عن مثل هذا الاقتداء، فإن **الثوب** يملك لدى كافكا بالذات معنى رمزياً كبيراً إلى أقصى درجة ولا سيما لوصف روح المرأة، وعلى وجه الخصوص في رواية **القلعة**.

ثمة عدم تناسب ينشأ بين زيّ الملائكة للنساء وبين شكلهن الحقيقي ونضجهن الذهني. ملابس الملائكة هذه تدع أشكال النساء **تبدو عملاقة** (ص ١٩٠)، لأنها تنسدل من القواعد المرتفعة ولذا تعطي الانطباع بأن شكل المرأة إنما ينمو من الأرض حتى يصل إلى هذا الارتفاع. لكن في تناقض مع ذلك، فإن **رؤوسهن الصغيرة ... تخلّ بعض الشيء في انطباع الضخامة، كما أن شعورهن المسدلة كانت تتدلى قصيرة جداً وعلى نحو يكاد يكون مضحكاً بين الأجنحة الكبيرة وعلى الجوانب** (ص ١٩٠).

الرأس الصغير والشعر المسدل لا يناسبان ملابس الملائكة، بل على العكس يكادان يكونان مضحكين. وكذلك نفخهن الرديء في الأبواق يقف في تناقض كبير مع البوق نفسه: كان كارل **قد ظنّ أنه بوق عُمل بخشونة مخصص لإصدار ضوضاء وحسب، لكن تبيّن الآن أنه كان آلة تستطيع أن تؤدي كل ما هو رهيف. إذا كانت كل الآلات من ذات النوعية، يكون قد أسيء استخدامها إساءة كبيرة** (ص ١٩٢).

هذه النساء تسيء إذاً استخدام الأداة الرهيفة، التي أعطيت لهن. ما زلن لسن فنانات. كونهن ينفخن بلا وعي كل شيء يشعرن به إلى الخارج، فإنهن يدمّرن بذلك إمكانيات التعبير التي استودعهن إياها مسرح **الطبيعة هذا**. إنهن ما زلن بعيدات عن ذواتهن «الحقة». بإعجاب يستمعن إلى نفخ كارل البريء، الذي ينفخ أغنية بدائية جداً، صحيح، **كان قد استمع إليها ذات مرة في إحدى الحانات في مكان ما** (ص ١٩٢)، إلا أنه ينفخ على نحو جميل من قلبه إلى درجة أن النساء يتوقفن عن النفخ ليستمعن إليه. **«إنك لفنان»، قالت فانّي حين كان كارل يعيد لها البوق.**

كان كارل يحس الموسيقى دائماً ومنذ البداية كعالم نقيض لسرعة العمل الجنونية وللمشاعر الفظة. من عزفه على البيانو كان كارل يأمل بممارسة تأثير على الظروف الأمريكية على نحو مباشر، كان يظن أنه يقوى على إيقاف حركة المرور في الشارع وتغيير القوى التي تؤثر في مداره. وعندما يعزف أغنية الجنود القديمة التي يحبها أمام كلارا المصارعة الشهوانية

اللامبالية، يتضح له مدى بؤس كيانه، وتنفتح أمامه الهوّة العميقة التي تفصله عن جميع البشر؛ وعبثاً يبحث بمعونة هذه الأغنية عن **نهاية أخرى**، نائية قد يمكن فيها ربما أن يُحلّ كل شيء: **أحس كآبة تنشأ في نفسه، راحت تبحث، متجاوزة نهاية الأغنية، عن نهاية أخرى دون أن تجدها. «لا أستطيع شيئاً»، قال كارل بعد اختتام الأغنية وتطلع إلى كلارا والدموع تترقرق في عينيه** (ص ٦٤).

موسيقى كارل روسمان ليست فناً بالمعنى المألوف، عمداً توصف بالبدائية وعدم الاكتمال، وبأنها تخلو من كل مهارة وإتقان. لكنها موسيقى تبحث، في ما بعد نهايتها، عن **نهاية أخرى** قد يقلّ فيها شقاء وبؤس هذا العالم. لكن لهذا السبب بالذات تقوم هي نفسها على الشقاء والبؤس. تماماً لهذا يقول كارل باكياً: **لا أستطيع شيئاً**. إن عجز الفن الحقيقي بالنظر لمصائب هذا العالم وبؤسه، كان أيضاً السبب الأعمق والأكثر حقيقية وجوهرية لإنكار الذات المؤلم، هذا الإنكار الذي كان كافكا يقلل به من قيمة فنه، بحيث إنه كان يعتبر نفسه غير متخصص وغير كفء. إن فن كافكا أصبح فناً عظيماً لأنه هو نفسه كان لا يعتبره فناً.

ج ـ العالم البدئي والعالم المعلَّل

لكن كيف يُقبل هذا الفنان في المسرح الطبيعي؟

الآخرين كلّهم يحملون **أوراقاً ثبوتية** ويُضمُّون إلى المسرح طبقاً لأعمالهم المهنية التي قاموا بها حتى الآن. لكن يقال بوضوح بأن كل شيء سيُفحص مرة أخرى في أوكلاهاما. يظل السؤال إذاً بلا ريب فيما إذا كان الدور الذي عليهم أن يؤدوه في هذا المسرح سيكون مماثلاً لدورهم حتى الآن في المجتمع. غير أن كارل كان لا يحمل **أوراقاً ثبوتية**. حيث أنه كان قد طُرد من كل عمل كان قد قام به حتى الآن، دون أن يحصل على أية وثيقة.

حتى اسمه الحقيقي كان قد أخفاه في أعماله الأخيرة ودعى نفسه يسمّى نيغرو. في مكاتب القبول في المسرح الطبيعي يسمّي هذا الاسم المزوّر، إذ **كان على استحياء أن يسمي اسمه الحقيقي ويدع أحداً يكتبه. ريثما يحصل هنا على أصغر عمل ويقوم به على نحو مُرض، من ثم يمكن للمرء أن يعلم اسمه، أما الآن فلا، لقد سكت عنه مدة أطول من أن يكون عليه أن يبوح به الآن** (ص ١٩٦).

لكارل إذاً إحساس مرهف بأنه لا يجوز له أن يتماهى هو واسمه الأصلي مع عمل لا يستطيع أن يؤديه على أحسن وجه فعلاً وبما يرضيه كل الرضى، أو عمل ربما يكون نفسه عملاً كريهاً أو مهيناً. حيث إن عمله الأخير في أحد المكاتب كان عملاً مذلاً أو يُرتاب فيه أخلاقياً مما اضطره إلى الكذب حين سئل عنه. إلى أية هاوية من السقوط الإنساني توجب عليه أن يهوي في أعماله الأخيرة المذكورة في المقاطع المجتزأة من الرواية، يحدس المرء عندما يقرأ

الجمل الختامية في المقطع المجتزأ خروج برونيلدا، حيث جاء عن المحل رقم ٢٥: **لم يكن، إذا ما نظر المرء عن قرب أكثر، وسخ يُلاحظ. كانت أرضية الممر الحجرية قد كُنست وباتت نظيفة تقريباً، ولم يكن دهان الجدران قديماً، ولم تكن النخلات الاصطناعية مكسوة بالتراب سوى قليلاً، ورغم ذلك كان كل شيء ملوثاً بالدهن ومثيراً للنفور، كان الحال وكأن كل شيء إنما قد استخدم استخداماً سيئاً وأنه لم يعد من شأن نظافة أن تكون قادرة على إصلاح هذا. كان كارل يحب أن يفكر، عندما كان يأتي إلى مكان ما، عما يمكن إصلاحه هنا وأية بهجة لا بدّ أن تكون لدى البدء على الفور، ودون مراعاة للعمل اللا متناهي ربما الذي من شأنه أن ينشأ نتيجة ذلك. لكن هنا لم يكن يدري ما هو من شأنه أن يُعمل** (ص ١٨٨).

بتاريخ ٢٥ كانون الأول ١٩١٠ كتب كافكا في يومياته عن مسرح للمجتمع البشري يصبح فيه كل وسخ داخلي مرئياً من الخارج **كان أكثر موضع للمسرح ظهوراً محجوزاً لأكثر الناس نذالة، لمدمني اللذات العجائز الذين يخرج الوسخ لديهم من الداخل إلى الخارج.**

إن تبديل الاسم الذي يقوم به كارل روسمان في هذا المجتمع، بأن يدع نفسه يُدعى **نيغرو**، هو في الوقت ذاته القناع الأسود الذي يموّه به نفسه، يقترب ظاهرياً من المجتمع ويخفي بياض روحه البريئة حتى يتمكن من الوجود أصلاً.

لكن في **مسرح أوكلاهاما الطبيعي** ما كان من شأن مثل هذا التمويه أن يكون ضرورياً. هذا يحدسه أيضاً كارل على الفور عندما قُبل ورُفعت لوحة الإعلانات وقد كُتب عليها: **نيغرو، عامل تقني**: **لأن كل شيء هنا كان يأخذ مجراه المنظّم، فإنه ما كان من شأن كارل أن يأسف فيما لو كان يمكن قراءة اسمه الحقيقي على اللوحة** (ص ١٩٩).

يكسب كارل ثقة بهذا المسرح. إذ إن إجراءات القبول أيضاً، التي عليه أن يخضع لها، هي غير مألوفة وتخرج عن إطار إجراءات القبول المألوفة في المجتمع: حقيقة أنه لا يحمل أوراقاً ثبوتية لا تعيق قبوله أدنى إعاقة: «**لا داعي للقلق. نستطيع تشغيل الجميع**» (ص ١٩٥). طبعاً يستغرق قبوله مدة أطول من قبول الآخرين، الذين يثبتون شخصيتهم على الفور بأوراقهم الثبوتية. لديه يجب على الذي فحص قدراته أن يتعقبها حتى مصدرها: «**ماذا كنت تريد أن تدرس في الأصل؟ ... أقصد في أوروبا**» (ص ١٩٨)، هكذا كان السؤال الحاسم. تبعاً لذلك يُقبل في **مكتب تلاميذ المدارس المتوسطة الأوروبيين** (ص ١٩٥)؛ هنا كان ملاذه الأخير. إذ من هنا، من مدرسة متوسطة أوروبية، انطلق إلى العالم. أمنيته فيما يتعلق بالمهنة حاسمة في تصنيفه في المسرح الطبيعي. ولو لم يكن هذا التصنيف نهائياً ـ حيث إن كل شيء سوف يفحص مرة أخرى في أوكلاهاما ـ ولو لم تكن نقطة الإنطلاق هذه ما زالت ليست

فعلاً الأكثر أصلية والحاسمة في الحياة، فإنها في بادئ الأمر النقطة الثابتة الوحيدة في سلسلة الكوارث المهنية التي كان كارل قد عاشها حتى الآن. لكن قبل كل شيء كان كارل يتوحد دائماً وما زال الآن أيضاً يتوحد بهذا المطمح المهني السابق في المدرسة المتوسطة. ومن المميز أن هذا التوحد يعبّر عن نفسه روحياً على الفور، وذلك في **الشَبَه** المفاجئ بين مدير المكتب **وبين أستاذ ما زال على الأرجح يدرّس الآن في المدرسة المتوسطة في الوطن** (ص ١٩٥). بدهشة يلاحظ كارل هذا الشَبَه. كما أن مدير المكتب يحقق بالمثل فجأة صورة ذكرى روحية لكارل.

وبهذا يقع ضوء في وقت واحد على معنى ووظيفة موظفي القبول هؤلاء. إنهم ينظرون عبر كل الأقنعة والحُجُب في حقيقة الروح البشرية. لا يمكن خداعهم. مدير المكتب يعرف على الفور أن كارل لا يُدعى نيغرو؛ لذا فإنه يرغب في أن يُسجل اسم كارل الصحيح، وكان قبل ذلك يريد أن يؤخر إجراءات القبول بإلقاء أسئلة أخرى بسبب غياب أوراق كارل الثبوتية. لكن في قلب غريب لتدرج الرتب في المجتمع، فإن الكاتب في هذه المكاتب **كان له ... الكلمة العليا** (ص ١٩٦). وهذا الكاتب ينظر **إلى كارل متفحصاً برهة** بعد كذبته الظاهرة ويعلن من ثم بلا تردد قبوله. لكن مدير المكتب **لم يكن في مقدوره أن يعمل شيئاً ضد ضميره** (ص ١٩٦). يريد أن يمنع تسجيل الاسم الخطأ نيغرو. إلا أن الكاتب يرى أعمق؛ بالنسبة له ليس كارل كاذباً، واسم نيغرو ليس غير صحيح، ولو كانت الواقعة الظاهرية تعارض ذلك. في النزاع بين مدير المكتب والكاتب يُعرض نزاع حقيقي بين **الضمير** وبين معرفة روحية أكثر عمقاً ويُحسم لصالح المعرفة الروحية الأكثر عمقاً.

التفوق الروحي نفسه يظهر في رئيس فرقة الدعاية، الذي يُصدر على **منصة حَكَم ميدان السباق** القرارَ الأخير حول كل قبول. إنه على ميدان سباق العالم ـ الذي أصبح الآن مهجوراً وهادئاً ـ حَكَم حقيقي على نقيض القضاة الفاسدين الذين كان انتخابهم قد وُصف في فصل برونيلدا. جاء عنه أنه كان يأخذ **كل شيء على محمل الجد** (ص ١٩٨) حتى أجوبة كارل المضحكة ظاهرياً. أصابعه **الناعمة والقوية ... الطويلة وسريعة الحركة كانت بين وقت وآخر تحوّل انتباه كارل إليه** (ص ١٩٧). إنه يربط إذاً رهافة حس مع حزم وخفة حركة. أسئلته يلقيها بإلحاح وبانتباه مركّز إلى خلجات وانفعالات شريكه. **كان يعرف، بالطريقة التي كان ينطقها بها وقد اتسعت عيناه، كيف كان يراقب تأثيرها وهو يحني القسم العلوي من جسمه، كيف كان يستقبل الأجوبة وقد خفض رأسه فوق صدره ويرددها بصوت عال بين الفينة والأخرى، أن يمنحها أهمية خاصة، هذه الأهمية التي لم يكن المرء يفهمها حقاً، لكن الإحساس الداخلي بها كان يثير حذراً وارتباكاً** (ص ١٩٧). كان كارل يحس إذاً بوضوح أن لهذه الأسئلة **أهمية خاصة**، أن هنا ثمة مجالات لا يستطيع أن يحدسها سوى على نحو

مبهم.

لكن يثبت أنه لا موجب للارتباك والحذر اللذين يثيرهما هذا فيه. فلم يكن المدير يطرح الأسئلة التي يخشى كارل الإجابة عنها. إنه لا يسأل عن نوع المكتب الذي كان كارل يعمل فيه آخر مرة، لا يسأل لماذا لم يكن كارل مرتاحاً هناك، إلى غير ذلك من الأسئلة، هذا يعني أنه لا يسأل عن الدوافع الخارجية أو الداخلية لظروف حياة كارل حتى الآن، بل يسأل فقط عن الوضع الاجتماعي الفعلي لكارل وعن حالته المعنوية الفعلية ورغبته: **«هل كنت عاطلاً عن العمل؟»** **«أين كنت تعمل أخيراً؟»** **«هل كنت هناك مرتاحاً؟»** **«لأي عمل تشعر أنك مناسب؟»** **«ماذا كنت تريد أن تدرس في الأصل؟ أقصد في أوروبا»** (ص ١٩٨). إنه لا يكترث بكل ما يسمى تعليلات. ما يهمه هو ما **«يكون»**، في حياة كارل الخارجية كما الداخلية. يدخل فعلاً إلى **«كينونة»** كارل، بل أخيراً إلى أصله ونشوئه، وذلك بالذات بطرحه أسئلة بدائية كل البدائية ظاهرياً، بأنه لا يسأل لماذا وما له وما عليه من آراء، بأنه لا يخوض في متاهة تفسيرات ممكنة. إنه يقف فيما وراء الحياة المعلَّلة. استجوابه هو العكس تماماً من سائر الاستجوابات والتحقيقات، التي كان على كارل قبل ذلك أن يعاني منها والتي أخفق فيها، مثل ذلك التحقيق في فندق **أوكتسيتندال**، الذي ورد عنه: كارل **كان يعلم أن كل ما يستطيع أن يقوله، سيبدو بعد ذلك على نحو مغاير كلياً عما كان مقصوداً به وأن الأمر يظل متروكاً لنوع الإدانة وحده، إيجاد خير أم شرّ.** (ص ١٢٢). إن معرفة روح كارل تدور بالذات خارج كل «علم نفس» معلّل.

لا يقع هذا **المسرح الطبيعي** خارج التفكير التجاري للمجتمع الرأسمالي وحسب، بل أيضاً خارج التعليلات النفسية الداخلية، الذي يتشكل هذا المجتمع بمعونتها. إذ إن نشوء المجتمع القائم على مبدأ المنافسة الحرة يتطابق تاريخياً أيضاً مع نشوء علم النفس الحديث، الذي اعتاد المتنافسون أن يستخدموا وسائله في تبادلهم الاتهامات والأحكام ضد بعضهم بعضاً ومحاولات التسلط على بعضهم بعضاً وتسويغ كل ذلك. **لآخر مرة علم نفس**، هذه الجملة التي تتكرر لدى كافكا لها معنى أخلاقي وانتقادي مهمّ.

إن **المسرح الطبيعي** يخلو من «الإدانات» النفسية. هنا يُنظر إلى الروح البشرية في حالتها البدئية الأصلية.

لذا فإنه من الممكن بلا ريب أن يعثر كارل، المنحّى جانباً بيد خفيفة من المجتمع، والذي يودى به عقاباً، أن «يعثر في هذا المسرح على المهنة، الحرية، السند، لا بل على الوطن والوالدين كما عبر سحر فردوسي.» إذ كما أن الأستاذ من مدرسة كارل في الوطن يظهر فجأة، على ما يبدو، في مكتب القبول في المسرح، فإن هذا المسرح، الذي **لا حدود له تقريباً، والذي يجري توسيعه على الدوام** (ص ١٩٢)، تتوفر فيه الشروط لأنْ يَخْبَرَ كل امرئ مرة

أخرى وبلا تشوّه الأصولَ الروحية الكامنة فيه، إذاً يلقى أيضاً الوالدين والوطن بأشكالهم الطبيعية غير المتخفية، متحررين من كل التشوهات التي ألحقت بهم جميعاً، كارل روسمان كما والديه، نتيجة أشكال الحياة وتصورات الأخلاق في المجتمع، هذه الأشكال والتصورات المشوّهة للإنسان.

د ـ فضح حقيقة العالم

فعلاً يبدو هذا المسرح الطبيعي أنه يملك مهمة فضح كما مهمة محرِّرة. مثلما تقوم النساء وهنّ ينفخن في الأبواق بملابس الملائكة بفضح أنفسهن دون أن يفقهن ذلك ويكون من الجائز أن يصبحن بتأنٍّ فنانات حقيقيات، لا يعدن يسئن استخدام أدوات أرواحهن، هكذا فإن الصور التي تمثل **صور مسرح أوكلاهاما**، تشير إلى مثل هذه المعاني الكاشفة لهذا المسرح.

صحيح أن كارل لا يشاهد **سوى صورة واحدة** وحيدة من هذه الصور. لكنها ذات دلالة كبيرة على نحو كاف. **كانت هذه الصورة تمثل مقصورة رئيس الولايات المتحدة** (ص ٢٠٠). كانت هذه المقصورة تنساب **ممتدة في الفضاء الطليق**، بحيث إنه **كان في مقدور المرء أن يفكر أنها ليست مقصورة، بل المسرح** نفسه. إن السلطة المطلقة للدولة تتوغل بعيداً في الفضاء الطليق، تبدو نفسها تقريباً كمسرح العالم.

لكن كيف يبدو هذا المسرح؟ **من حول المقصورة، من الجوانب والأعلى كانت أشعة ضوء تسقط؛ كان ضوء أبيض ورغم ذلك هادئ يكشف بكل معنى الكلمة مقدمة المقصورة، بينما كان عمقها، تحت تلوينات متعددة لقطيفة ذات ثنايا تسقط على كامل الإطار موجهة بأربطة، يبدو فراغاً معتماً يلمع لوناً ضارباً للحمرة. لم يكن في وسع المرء أن يتصور بالكاد بشراً في هذه المقصورة، كان كل شيء متحكماً للغاية** (ص ٢٠٠). يتوافق مع المقدمة البيضاء الهادئة خلفية مهدِّدة فارغة ضاربة للحمرة نُفخ منها البشري من قبل أبهة الدولة المتحكمة.

حلقة الرواية تنغلق: في البداية يرى كارل في ميناء نيويورك **تمثال إلهة الحرية** المرتفع عالياً إلى درجة لا يمكن الوصول إليه بالنسبة له، هو الفتى الصغير الذي يجرفه على الفور من منظر هذه الإلهة **حشد الحمالين المتزايدين باستمرار** (ص ١٣). وعلاوة على ذلك يرفع ذراع هذه الإلهة عالياً في النسائم الطليقة **سيفاً** بدلاً من مشعل الحقيقة. هكذا في نهاية الرواية، في مسرح أوكلاهاما الطبيعي، نرى أن رمز هذه الدولة الداعية إلى الحرية هو اللون الضارب للحمرة، الذي يتوغل إلى الفضاء الطليق، ويطفئ كل ما هو إنساني ويحيط بفضاء فارغ يخلو من بشر.

لا يمكن أن يوجد أدنى شك: هذا المسرح هو مسرح يعرض حقيقة العالم، حقيقة في

كل معنى، فضحاً نقدياً وتحرراً إيجابياً. وثمة نقاد يبرزون النبرة الساخرة.

الأوتوبيا التي تسطع في ختام هذه الرواية هي مثل كل أوتوبيا ذات معنى غير محدد: نقد للحياة المشوهة، أمل بحياة غير مشوهة وفي حرية. هنا لا يُعطى صورة مثالية خادعة. اللا إنسانية تبقى قائمة في هذا المسرح أيضاً: **ضوضاء** الملائكة والشياطين، الصبية العشرة الحاسدون، تهليل المقبولين الغريب، الذين لا يُكسَبون سوى بتقديم الأطعمة لهم، مقصورة رئيس الدولة ذات اللون الضارب للحمرة المتحكمة وغير ذلك. لكن عبر كل الهنات الإنسانية والأهوال اللا إنسانية تلمع صورة حياة لا مصلحية وغير معلَّلة يتحد فيها اللعب والعمل والمسرح والواقع والطفولة والمهنة، وتتصالح هذه المجالات وتتحول إلى لعبة عالمية يُقبل فيها **الجميع** وكلهم يعيشون أدوارهم الطبيعية ويستطيعون أن يعبّروا عن طبيعتهم الحقة، هذه الطبيعة التي **ليست شيئاً آخر سوى أن يمكن للمرء أن يُحبّ.**

١٩٥٧ - ١٩٦٤ فيلهلم إمريش

Wilhelm Emrich

٦ ـ المفقود، المحاكمة، القلعة
ثلاثية البشرية: العدالة، الحرية، الأخوّة

«لم أقرأ سطراً من هذا الكاتب إلا وكان يخصّني على نحو مميز للغاية ويدهشني».

(ريلكه، ١٩٢٢)

«كان فرانز كافكا، طوال حياتي الكتابية، جملة جملة، هو المقياس».

(بيتر هندكه، ١٩٧٩)

«قفص راح يبحث عن عصفور».

(كافكا)

معرفة الذات من غير هوادة، وتربية ذاتية صارمة هما سبب جوهري للتأثير القوي الذي كان ينبعث من شخصية كافكا المتواضعة والهادئة والمتحفظة. وللتأثير الواسع الذي ينبعث ولا شك من آثاره، ثمة سبب أيضاً هو حقيقة أن نظرته إنما تدرك العالم إدراكاً واقعياً على نحو مخصوص دون الوقوع في الطبيعية. وسوف نرى أن نظرة الطفل هي التي تقف هنا في خدمة وعي البالغ. ليس طبيعية البالغ ولا مثالية اليافع، بل واقعية الطفل هي القوة المشكّلة لآثار كافكا. لدى ذلك يجري نقل القارئ في غفلة منه من العالم الحسي إلى عالم غير حسي. العالم الحسي نفسه يبدو لنظرة الطفل بطريقة تصبح معها عناصره غامضة، ولغزية ومثيرة للدهشة بحيث أن ترابطها غير مؤمّن منذ البداية عبر علاقات أفكار بحكم العادة. كان كافكا مفكراً عميقاً، غير أنه كان ضعيفاً في التفكير المجرد، وعلاماته السيئة في الرياضيات ورسوبه في مادة علم النفس يشهدان على ذلك.

وهذا هو أيضاً سبب أساسي للتأثير القوي لكافكا: النظرة غير الفلسفية. التجديد الطفلي للنظرة في أوروبا القديمة الغنية بالأفكار ـ بالارتباط مع بلاغة لغة فوق العادة.

في البداية مارست آثار كافكا تأثيراً أدبياً شديداً على مطّلعين قلائل. روبرت موزيل لاحظ نوعية كتابته الفائقة. هرمان هسّه أطلق عليه لقب «الملك الخفيّ للنثر الألماني»، متفقاً مع حكم توخولسكي: «كافكا يكتب النثر الأكثر نقاء ووضوحاً وجمالاً مما يكتب في اللغة الألمانية حالياً». وفرانز فرفل يكتب أن كافكا هو «أكبر شاعر ألماني».

مما يلفت النظر أيضاً هو بأية شدة أثّرت آثار كافكا وما زالت تؤثر كنقطة تبلّر لشتى العقائد في العالم، وكحافز للتعبير عن الذات.

كما كان يقال في مطلع القرن التاسع عشر بأن ذلك الزمن كان «عصر غوته»، يقال الآن بأن القرن العشرين هو «قرن كافكا».

ليست آثار كافكا مرآة للفرد وحده. لا سيما الروايات الثلاث غير المكتملة **المفقود، المحاكمة** و **القلعة** هي مرآة لوعي العصر. حتى الآن لم يشر أحد إلى أن المثل العليا الاجتماعية الثلاثة للبشرية المعاصرة، هذه المُثُل التي عُبّر عنها لأول مرة في الثورة الفرنسية، إنما وجدت في هذه الروايات صورة فنية مؤثرة على نحو خاص: الرغبة في الحرية والمساواة والأخوّة. ويعود عدم وعي هذا إلى أن العرض هو عرض لا فلسفي، تجسيمي محدد. بهذا تشكّل الروايات الثلاث في ترابطها الأعمق ثلاثية اجتماعية للبشرية، هذه الثلاثية التي يعيش ويعاني شخصها الرئيسي في الرواية الأولى بصفته كارل روسمان معضلة المساواة وفي الثانية بصفته يوزف ك. معضلة الحرية وفي الثالثة بصفته ك. معضلة الأخوّة.

في الرواية الأولى يُزرع كارل ابن السادسة عشرة وجودياً وفجأة في المجتمع الأمريكي ويعيش هذا المجتمع بحس عدالة جلبه معه من أوروبا. ولا يخفى عن النظر أبداً أن ما يهم كارل هو العدالة بالدرجة الأولى. فالفصل الأول، الذي نشره كافكا كقصة بعنوان **الوقاد**، يتكون في معظمه من أن كارل إنما يبغي أن يساعد وقاد السفينة، الذي تعرّف عليه عن مصادفة، لكي يحصل على حقه أمام القبطان. أثناء ذلك يعيش على نحو محزن عواقب اللامساواة. فيما بعد، كعامل مصعد في فندق أوكتسيتندال يُدان نفسه ظلماً في جلسة محكمة كبرى، لا نعثر على مثلها مرة أخرى في آثار كافكا؛ يُدان لأن الظاهر ضده ويُنبذ من المجتمع. الحرية ليست موضوع هذه الرواية، الحرية متوفرة إلى حد كبير في بلاد الإمكانيات اللامحدودة. وإن كانت هذه الحرية بالنسبة لكثيرين، مثل والدة تيريزه صديقة كارل، ليست سوى حرية موت الفرد دون أن يأبه به أحد. تظهر الأخوّة في المجتمع الأمريكي في حالات مفردة فحسب، إنها لا تتحول إلى قضية، إنها لا تزيد عن كونها أحد العوامل في كفاح الحياة. لكن قضية المساواة، احترام الإنسان كإنسان، احترام كرامته وحقه كإنسان! هذه هي القضية الكبرى التي هي

مدار الرواية من أولها إلى آخرها. إنها تقابلنا في كل موضع، ليس كنظرية، بل في صور حياة. في الوسط وُضع كارل المرهف بحسه للعدالة بين الوقاد والقبطان، بين الخال وعماله المُضربين، بين ابن المليونير ماك والمشردَين العاطلَين عن العمل دِلامارش وروبنسون، بين دِلامارش الاستبدادي وروبنسون فاقد الكرامة، بين المغنية السابقة برونيلدا، التي تنحطّ في اللاعمل، وجارها الطالب يوزف مندل، الذي يهلك نتيجة فرط العمل. في كل مكان يعاني من اللامساواة، دون أن يعي ذلك دائماً. باهتمام يقطّع الأنفاس يراقب من الشرفة ـ وينسى فوق ذلك وضعه الشخصي المزعج ـ موكباً انتخابياً ديموقراطياً. إن مسألة المساواة قائمة هنا، من تفكير كارل فيما إذا كان عليه أن يتقاسم نقوده مع رفيقي الطريق المعوزَين دِلامارش وروبنسون، إلى قراره بالاستغناء عن غرفة صغيرة خاصة به، لكي لا يتمتع بامتياز على صبية المصاعد الآخرين، حتى موضوعه بأن يتبع نداء مسرح أوكلاهاما: صحيح أن الأجر لم يكن مذكوراً على الملصقة، هذا كان مريباً؛ لكن لقاء ذلك كان مذكوراً أن كل فرد مرحّب به. **كل فرد، إذاً كارل أيضاً**. يبدو الحال وكأنه تحققت في هذا المسرح مساواة البشر في نقطة جوهرية يجري إهمالها في مجتمع التنافس الأمريكي: في حق العمل.

الرواية الثانية، التي تجري أحداثها في براغ من أوروبا الوسطى، تبيّن كيف يمكن لقضية الحرية أن تعاش وتُعانى في المجال النفسي الشخصي الأكثر حميمية للفرد وكيف ترتبط بالحس بالمسؤولية. صحيح أن يوزف ك. يعتقل منذ بدء الرواية، غير أنه يستطيع أن يستمر في التحرك بحرية وأن يستمر في حياته كما في السابق. ويبدو أن الأمر يتعلق به وحده بالدرجة الأولى كيف يعالج قضيته. ما من أحد وما من شيء يقف في وجهه، كل شيء يبدو أنه يريد منه أن يواجه نفسه بنفسه، لكنه يتجنب هذه المواجهة دائماً. يبدو الحال وكأن العالم إنما ينتظر منه إدراكاً حراً، قراراً حراً، فعلاً حراً، لا يستطيع أحد أن يطالبه منه سوى نفسه. ويجري التعبير عن هذا بوضوح على نحو خاص في نص نشره كافكا من **المحاكمة** هو نص: **حلم**. في هذه الرواية لا يجري الحديث عن المساواة، قضية المساواة لا تظهر فيها قط. ثمة نظام اجتماعي مستقر يكاد يكون طبقياً يضع كل فرد، بإمكانيات صعود مرسومة بدقة، في مكانه على نحو بديهي ـ على نحو مغاير لما هو الحال في أمريكا ؟: المؤجرة، الرؤساء والمرؤوسون، الرسام الخارج عن المجتمع. الأخوّة ينتفي وجودها، باستثناء كبير واحد: القس في فصل الكاتدرائية. لكن القسّ بالذات يخاطب يوزف ك. في فرديته ويلفت نظره إلى حريته، وذلك في قصة حارس الباب الشهيرة **أمام القانون** والرجل من الريف وبكلماته الأخيرة: **المحكمة لا تريد شيئاً منك. إنها تفتح أبوابها لك عندما تأتي وتعفيك عندما تذهب**. المسألة الملحة في هذه الرواية هي ماذا يفعل يوزف ك. في حريته، أو بالدقة ـ وهنا تكمن المأساة ـ ماذا لا يفعل.

في الرواية الثالثة، في مجتمع القلعة والقرية، الذي يبدو أثرياً، حريّ بالحرية والمساواة أن تبدوا منذ البداية مدلولين غير مفهومين وفارغين. هنا لا يتعلق الأمر سوى بأن يقوم كل فرد بملء مكانه ضمن المجموع. كل شيء بلا سؤال. ما يصبح سؤالاً هو فقط، ما هو المكان الصحيح للغريب الذي يظهر فجأة. ولأن الناس لا يحتاجون إلى مسّاح، فإنهم يعرضون عليه أن يعمل آذن مدرسة، ولكي يجد مأوى، يضطر لقبول هذا العمل المشين. كان في مقدوره طبعاً أن يغادر القرية، فهو يبدو أنه حر التصرف، لماذا لا يذهب، بل يتحمل كل الإهانات؟ هذا يظل لغزاً. يبغي أن يصل إلى القلعة، لذا فإنه يقوم بهذا الكفاح الذي يستنزف قواه ـ في القرية. هنا، حيث كان في البداية مجرد ضيف بحسنات ومساوئ هذا الوضع المؤقت، كان ثمة مجتمع. إن السؤال القائم بين أهالي القرية وبينه، بين أسرة بارناباس المنبوذة وبين أهالي القرية، بينه وبين الساعي بارناباس، الذي يتعلق به وجوده كساع، هذا السؤال هو سؤال الأخوّة. كيف يعي الناس مع بعضهم بعضاً؟ هذا السؤال يقوم على أثر كفاح ك. مع القلعة، هذا الكفاح الذي هو الحدث الحقيقي للرواية. ويلحّ هذا السؤال على نحو خاص من خلال الطريقة التي يعامل فيها ك. مساعدَيه في مبنى المدرسة، ويجد خالص تعبيره في كلمات سائق العربة غيرشتكر وكلمات أمه، وذلك قبل انقطاع مسودة الرواية وفي مقطع حذفه الكاتب: **الآن فقط، حيث أراك في مأزقك، أنت المسّاح، رجلاً متعلماً، في ملابس متسخة ممزقة، بلا معطف فرو، رث الهيئة إلى درجة تؤلم القلب، بالاتفاق مع البنت طويلة اللسان، بيبي، التي تدعمك على الأرجح، الآن فقط خطر لي ما قالته أمي ذات مرة: لا يجوز أن يُهمل هذا الرجل.**

في عام ١٩٠٣ كتب كافكا إلى صديق الصبا أوسكار بولاك: **فقط عندما يركّز البشر قواهم ويساعدوا بعضهم بعضاً بحب، يحافظون على أنفسهم على ارتفاع إلى حد ما فوق قاع جهنمي يتجهون نحوه. إنهم يتصلون ببعضهم عبر حبل، ومن السوء بمكان إذا ما انحلّ الحبل حول أحدهم وهوى قليلاً أكثر من الآخرين نحو الفضاء الفارغ في الأسفل، ومروّع إذا ما انقطع الحبل حول أحدهم فسقط.** وفي ١٩١٧/١٢/٢٤ دوّن: **اللا يدمَّر يكمن في كل إنسان فرد وفي الوقت نفسه هو أمر مشترك بين الجميع. من هنا ارتباط البشر مع بعضهم بعض، هذا الارتباط غير القابل للانفصال على نحو لا مثيل له.** إن شرط الأخوّة هو الشعور بأن البشرية هي وحدة في الهناء والشقاء ـ الأمر الذي هو اليوم ظاهر للعقل أكثر مما كان في أي وقت آخر. أحد شخوص غوته يقول: «هناء عام يحلّ الآلام المفردة، كما أن شقاء عاماً يأتي على هناءات مفردة».

في ثلاثية كافكا العظيمة نرى أن القوى البشرية الأكثر عمقاً والأبعد غوراً، المدعوة إلى تشكيل المجتمع الحديث، في أزمة: حس العدالة كأساس للمساواة، الضمير كقائد في الحرية، وإرادة الأخوّة كشرط جوهري لحياة مشتركة سعيدة.

يعود السبب الرئيسي لتأثير كافكا الواسع على مستوى العالم إلى أن ما شكّله فنياً هو معضلات بشرية، وفي أن آثاره إنما تعكس أزمة تطور العصر الحاضر. الخيار القاسي: صعود أو جنون.

١٩٩٩ هانز باول فيشتر

Hans Paul Fiechter

٧ ـ براءة طفولية

في النص القصير **ساكن خرائب**، الذي شرع كافكا في عام ١٩١٠ ست مرات في كتابته دون أن يوفق في إبداعه نصاً أدبياً، يثبت أن تربيته قد عادت عليه بضرر كبير وأن صفاته الحسنة كانت جديرة بأن تتطور على نحو أفضل لو كان قد شبّ في غابة دون أية تربية. كذلك النص الأول **أطفال في الطريق العام** في كتابه الأول **تأمل** يعالج موضوع الطفولة المفقودة. كذلك قصة **الوقاد**، الفصل الأول من رواية **المفقود**. إن الطفولة الضائعة هي موضوع بداية مهم في آثار كافكا. كتابة كافكا تُظهر سحر ورعب العالم الراهن في أعين طفل، والثقة بالنفس غير النامية على نحو تام، لكن دون براءة الطفولة وحمايتها. ما يرسخ في وعي الطفل، هذا العضو المتأهب لإدراك العالم، يضاء من خلال إدراك الذات ولا يُفسَّر لاحقاً تفسيراً عقلانياً، بل في معايشة مباشرة يبدعها الشاعر ويرفعها إلى الوعي.

طفلية كافكا تبدو لي مفتاحاً مهماً لفهم آثاره. لكن بطفلية لا يُقصد هنا سذاجة بريئة لكامل الشخصية؛ إنها لا تستبعد مهارة ما وحذقاً في تقديم الذات. كل بالغ يحمل طفولته في نفسه، يحيا مع عواقب ما طبعه بطابعه في طفولته الباكرة، لكن ليس كل إنسان يبقى في مراحل حياته التالية مطبوعاً بهذه العواقب إلى حد كبير مثلما بقي فرانز كافكا. ثمة أمور كثيرة في سيرة حياته وفي آثاره لا تُفهم إلا إذا أدرك المرء أن قسماً كبيراً جداً من طبيعته لم يغادر الطفولة قط. وإعجابه طوال الحياة بالقوة الجسدية وبالأمور العملية هو واحد من الدلائل على ذلك. عندما يتذكر وهو في سن السادسة والثلاثين كيف كان والده يثقل كاهله في المسبح بمجرد جسديته ـ **أنا نحيل هزيل، ضعيف، نحيل، وأنت قوي، كبير، عريض** ـ كيف كان من طرف آخر فخوراً بالجسد المهيب لوالده، فإنه يثبت في نهاية المطاف: **وللمناسبة، فإن هذا الفرق بيننا ما زال قائماً حتى اليوم بشكل مماثل.** قبل وفاته بثلاثة أعوام يكتب في رسالة إلى ماكس برود، بعد أن عبّر عن إعجابه ببراعته العملية في الحياة: عندما يقارن نفسه بأترابه يبدو له **أنه يتوه مثل طفل في غابات سن الرجولة.** في المكتب يطلق عليه زملاؤه بناء على قدْر من السذاجة لقب «طفلنا الرسمي». ذو السبعة والثلاثين عاماً يخبر صديقته ميلينا أنه

سمح له بتجديف مقاول بناء إلى جزيرة في النهر: كان خيار مراقب المسبح، الذي بحث عن فتى مناسب، قد وقع عليه. قبل عشرة أعوام من ذلك قال لماكس برود، الذي كان مظهر كافكا الطفولي يذكّره بمظهر كلايست، بأنه لن يصل قط إلى سن الرجولة، وإنما سيظل مظهره حتى سن الأربعين مثل مظهر شاب ومن ثم فجأة يصبح عجوزاً. الجزء الأول من النبوءة تحقق، والثاني زيد عليه: لقد توفي قبل بلوغه سن الواحد والأربعين من عمره. **بلا تطور شابّ حتى النهاية، التعبير محفوظ أصح من شابّ،** هكذا يصف نفسه بصفته عازباً.

عادة يُحكم على كافكا بصفته بالغاً، حتى عندما يتعلق الأمر بالفنان كافكا؛ لكن هذا بالذات ظل طفلاً إلى حد بعيد، على نحو آخر من إنسان الحياة اليومية د. كافكا. عندما لا نفهم الطفل سوى بصفته إنساناً غير بالغ، لا نرى سوى ما ينقصه حتى يصبح بالغاً، فإننا نعيق نظرنا إلى ثرائه وعن قابليته اللذين يميّزانه من البالغ ويمكنهما أن يصبحا للفنان أساساً يقوم عليه إبداعه، إذا أنقذ شيئاً من ذلك إلى المراحل القادمة من حياته.

إن المدخل الداخلي للطفولة هو بالنسبة لكثير من المبدعين شرط جوهري لإبداعهم الفني. إن رواية مارسيل بروست العظيمة «بحثاً عن الزمن الضائع» تنطلق وتتطور من ذكرى وحيدة من ذكريات الطفولة. لدى كافكا كثيراً ما يمكن للمرء أن يأخذ الانطباع مباشرة بأن الطفل فيه هو الذي يكتب ـ لكن بوسائل تعبير البالغ وتحت مراقبته ـ الطفل الذي لا يفسر ولا يغير عالم البالغين، بل يدركه ويعايشه. إن رواية **المفقود**، التي شخصها الرئيسي هو صبي، تقدم منظور وعي طفل. أي صبي أو حتى بالغ يأخذ العالم ويدركه بهذه الدرجة من الطزاجة والنشاط والمباشرة والدهشة، ويواجهه في الوقت نفسه بهذه الدرجة من الوداعة والثقة مثلما يفعل كارل روسمان؟

بالطفولية يتعلق أيضاً الخوف من الحياة الجنسية. عندما يتذكر كارل روسمان ذو الستة عشر عاماً الظروف التي أصبح فيها أباً، فإنه يفعل ذلك بوعي طفل، وليس بإدراك شاب. ولهذا مثال في ذكريات الكاتب، الذي يدوّن في يومياته وهو في سن الثامنة والثلاثين: **في صباي كنت (وكنت خليقاً أن أظل مدة طويلة للغاية لو لم أصطدم بأمور جنسية عن طريق القوة) فيما يتعلق بالمسائل الجنسية بريئاً وغير مهتم مثلما أنا اليوم فيما يتعلق بالنظرية النسبية. أمور صغيرة وحسب كانت تلفت انتباهي (لكن فقط بعد إفهامي)، مثل أن النساء اللواتي كنّ تبدون لي في الشارع الأجمل والأكثر أناقة، كنّ سيئات كما يقال.** في اليوميات، في **رسالة إلى الوالد** وفي رسائله إلى ميلينا، التي لم يتحدث إلى إنسان آخر عن مخاوفه كما تحدث إليها، عالج في سنواته الأخيرة علاقته الكئيبة بالحياة الجنسية. من خلال تضافر طبيعته

مع التربية التي تلقاها اتسمت هذه العلاقة بأن توقاً إلى النقاء بات يتحكم فيه، إلى الهواء **الذي تنفسه المرء في الفردوس قبل الخطيئة**، الحياة الجنسية باعتبارها **قذارة، الجماع كعقاب، شعوذة**. إنه يحدث ميلينا عن ليلته الأولى التي أمضاها مع فتاة، وهو في سن العشرين. **كان كل هذا، حتى قبل الدخول إلى الفندق، لطيفاً، مثيراً وبشعاً، وفي الفندق لم يكن شيئاً آخر. لكن عندما خرجنا قبيل الفجر، كان الطقس ما زال حاراً وجميلاً، وسرنا فوق جسر كارل، كنت سعيداً، غير أن هذه السعادة كانت تكمن فقط في أني استرحت أخيراً من الجسد الشاكي أبداً، لكن قبل كل شيء كانت السعادة تكمن في أن المجموع لم يكن أكثر بشاعة وأكثر قذارة.**

كان يرى الزواج شيئاً مقدساً، الأكثر جدارة بالسعي إلى تحقيقه، لكن بالنسبة له لا سبيل إلى بلوغه. ثلاث مرات عقد خطوبته ثم فسخها، وقبيل وفاته، وقد حماه المرض من مطالب جسدية، أراد للمرة الرابعة أن يتزوج. حينما كان يغمس يديه في طست مليء بالماء بالاشتراك مع يدي رفيقة آخر عمره دورا ديامانت، كان يسمّي ذلك **حمامنا العائلي**. لم يكن في مقدور مثله الأعلى أن يتحقق سوى لو كان من الممكن إقامة زواج بلا حياة جنسية. كان هذا خليقاً أن يكون بالنسبة له الجنة على الأرض. خطبتاه فيليس باور صارتا جحيماً.

ذكريات كافكا عن الطفولة يتحكم فيها موضوع حياته وكتابته المركزي: النزاع مع الأب. وقد بلغ هذا النزاع ذروته في **رسالة إلى الوالد** المشهورة التي كتبها وهو في سن السادسة والثلاثين وسلمها إلى والدته وإلى ميلينا لكن ليس إلى الوالد نفسه الموجهة إليه. كان فرانز كافكا يخاف والده، يعجب به، يكرهه أيضاً، لكن قبل كل شيء كان يحبه. وكان كل هذا طوال حياته وعلى نحو مطلق لا يجده المرء سوى لدى الأطفال وظل أمراً غير مفهوم لأقرب أصدقائه. في **الحكم** يقوم الابن بتنفيذ حكم الوالد عليه بالموت بالكلمات: **أيها الوالدان العزيزان، لعمري قد أحببتكما دائماً**. البالغ ستة وثلاثين عاماً أهدى كتابه **طبيب ريفي** إلى والده - رغم استقباله لكتب ابنه: «**ضعه على الطاولة الصغيرة بجانب الفراش**» - وكتب في الرسالة: **كانت كتابتي تدور حولك، والحق كنت أشكو فيها ما كنت لا أستطيع أن أشكوه على صدرك.**

١٩٩٩ هانز باول فيشتر

Hans Paul Fiechter

٨ ـ مشاجرات وفرار

لم يكن الغريبُ، الأجنبي، الشخصَ الرئيسي الدائم لكتابة كافكا وحسب، بل لا بدّ أنه كان رفيقاً سرياً له يعود دائما كل مدة ويرافقه، دون أن يُطلب منه ذلك. في كانون الأول ١٩٢١ كتب كافكا في يومياته: **فزعت من نوم عميق. في وسط الغرفة كان ثمة منضدة صغيرة يجلس إليها في ضوء شمعة رجل غريب. كان يجلس في الظلمة الوانية عريضاً وثقيلاً، وكان المعطف الشتوي ذو الأزرار المفكوكة يُظهره أكثر عرضاً.**

وفي موضع آخر كتب: **هذا الخط الفاصل بين الوحدة والجماعة لم أتجاوزه إلا في حالات نادرة للغاية. بل إني استوطنته أكثر مما استوطنت الوحدة نفسها. كم كانت جزيرة روبنسون بالمقارنة بلاداً حيوية جميلة.** هنا يعرّف كافكا نفسه مكاناً هندسياً، بهذا يحدد لنفسه في آن واحد مكانه في الحياة المألوفة.

إن الشعور بالغربة هو ما يعتلج في نفس كافكا. من هذا الشعور ينطلق كل شيء، وفيه يصبّ كل شيء. وقد عرف كافكا هذا الشعور في كافة ضروبه وتفرّعاته.

ومجموع آثار كافكا هي تمرين على الغربة في شتى أنواعها. كارل روسمان هو الغريب بالمعنى الحرفي والراديكالية الأكثر: فتى يُطرد من بلاده ويرسو على قارة جديدة. ك. هو الغريب بالمعنى المألوف، يأتي من المدينة إلى قرية منعزلة غير مضيافة. يوزف ك. غريب بمعنى أنه لا يفقه شيئاً: لا يدري شيئاً عن المنظمة التي تورّطه في حبائلها. الصياد كراخوس غريب إزاء العالم كله، إذ إنه يهيم على وجهه قلقاً عبر تلك المنطقة التي تفصل الأرض عن عالم الموتى. الرحالة في **مستعمرة العقاب** هو الغريب الذي يزور أماكن غريبة ويكتب عن عاداتها العجيبة. والغربة الميؤوس منها أكثر هي غربة غريغور سامسا، إذ إنه تحول في غرفته الخاصة به تحولاً كبيراً إلى درجة أنه أصبح غير قابل للتعرف عليه، لم يعد غريباً، بل لا ينتمي بيولوجياً إلى الجنس البشري. ومن طرف آخر، فإن أيام غريغور سامسا هي سلسلة من المواقف المألوفة أكثر ما تكون الألفة. ومن السهولة التعرّف عليه من أوصاف معينة أعطاها كافكا من حياته في البيت. لكن ما من قصة تدعو إلى التفسير أقل مما تفعل قصة **الانمساخ**، على الأرجح تبعاً

لقطعية القصة المطلقة، هذا الشعور الذي كان قد تملّك كافكا لأول مرة حين كتب قصة **الحكم**.

عندما أراد فلاديمير نابوكوف تفسير القصة لطلابه، بدأ ببضع كلمات بسيطة وحاسمة: «ليس في مقدورنا أن نقترب من تعريف ما هو فن أكثر من القول: إنه (جمال ومشاركة في الأحاسيس). وحيث يوجد جمال، توجد أيضاً مشاركة في الأحاسيس، وذلك لسبب بسيط هو أن الجمال لا بدّ أن يموت. إن الجمال يموت دائماً، التصوير يموت بموت المصوِّر، والعالم يموت بموت الفرد. ومن يرى في **انمساخ** كافكا أكثر من مخيلة حشرية، أرحب به في صفوف القراء الجيدين الحقيقيين.»

كارل روسمان هو بطل الحكاية الخرافية الصغير، الذي يُقذف به إلى خارج العالم. إنه جادّ، شديد المراس، متأهب لكل شيء، صلب العود، محب للاطلاع، سليم النية. يلتقي غيلاناً في أشكال ذكورية وأنثوية، شباباً وشابات، رجال شرطة ومتشردين. معهم جميعهم يتحدث بصفته راشداً بالغاً، يتحدث بوقار ولياقة. الإدانة التي طردته من وطنه وأسرته، والمعروفة في الغربة، لا تقوّض العالم في نظره ولا تلقي عليه ظلاً. هذا العالم جديد عليه في أمريكا، هذا العالم يُظهر نفسه في كل اتساعه وتنوعه. «**ما أشد ارتفاعه!**»، يقول كارل في ذات نفسه حين تمرّ السفينة ببطء على تمثال إلهة الحرية. ولا يعجب من أنه يلوّح بسيف بدلاً من مشعل. كارل يراقب، ويدوّن. ما يحدد سلوكه على الدوام هو رغبته في قياس العالم وأعداده المتزايدة: الأبواب، الأدراج، الرفوف، الدرجات، الطوابق، وطوفان السيارات المتزايد. هذا أمر بديهي بالنسبة له، إذ إنه كان **دائماً يهتم بالأمور التقنية**. ويقيناً كان خليقاً أن يصبح مهندساً، لو لم يرسلوه إلى أمريكا. كل ما يظهر، يتلقاه كارل حالاً كحلقة في سلسلة. وخاصية السلاسل هذه لما يجري تلقيه، تغيّر قبل كل شيء نظرة المتلقي، يدرك أنه هو قابل للاستبدال مثل كل شخص من الأشخاص الذين يتحركون في الشارع ويختفون في عجلة وقد بدوا لدى النظر إليهم من الأعلى وكأنهم نقاط. كما أنه من الجائز أن يكونوا دائماً هم أنفسهم الذين يظهرون من جديد مراراً وتكراراً. من شأن التأثير أن يكون نفسه. إن تكرار المتطابق والاستبدال الدائب المتواصل لا يتمايزان ظاهرياً.

ثمة مرح جامح لا يُدرى كنهه يتخلل صفحات **المفقود**. الباعث على ذلك يظل خافياً. بعد الحظ السعيد في البداية، اللقاء مع إدوارد ياكوب، «الخال من أمريكا» مضرب المثل، يتحول طريق كارل روسمان باطراد إلى عذاب. كل خطوة تجلب معها شيئاً ما مهيناً، تدهوراً تدريجياً يبدو لا معدى عنه. لكن كارل يملك موهبة المجهولين لديه، الصوفيين الكبار: يلقى كل ما يصاب به بالحالة النفسية ذاتها. يدرك أين يكون له علاقة بعدو، ويقوى على الدفاع

عن نفسه ضد الاضطهاد. غير أنه لا يشعر قط بمرارة. يركز كارل على نقطة واحدة: ما ينبغي عليه أن يفعله، عندما يريد أن يفعل ما هو صحيح. في المواقف التي لا أمل فيها قط يستطيع أن يقول بأنه على المرء أن يعرف الميكانيكية. إنه يستخدم طاولة المكتب، هذه الأعجوبة بأدراجها ورفوفها التي لا تعدّ ولا تحصى، التي وضعها الخال تحت تصرفه، بالاهتمام نفسه والحماسة نفسها اللذين يظهرهما عندما يجمّع على صينية من سلسلة من بقايا الطعام المقضومة من قبل آخرين طعام فطور لبرونيلدا البدينة.

جرّب كافكا في **المفقود** ما لم يكن يتناسب وعصره. سذاجة ملحمية. كان ذلك، بالنسبة له أيضاً، محاولة معزولة. إن الخدعة الفنية، التي سعى عبرها إلى تحقيق ذلك، كانت تكمن بأنه وضع الشخص الذي يمثل، نفسُه، السذاجة الملحمية في مكان ما زال قادراً على قبولها: أمريكا، كما كانت تعرض نفسها في مطلع القرن العشرين لأنظار فتى أوروبي ملؤها الدهشة. فقط على أساس قراءة قصة **الوقاد** ودون معرفة أنها الفصل الأول لرواية أصاب روبرت موزيل(*) النقطة الحاسمة: «إنها سذاجة متعمّدة ومع ذلك لا تحوي شيئاً مما يضايق من السذاجة. إذ إنها سذاجة صحيحة، وهي في الأدب شيء غير مباشر، معقّد، مكتسب، إنها حنين، مثل أعلى.» وبعد قليل تتبع الكلمات التي هي من أجمل ما كُتب عن **المفقود**، حيث يقول موزيل بأن الرواية محمولة من «شعور صلوات أطفال منفعلة وتملك شيئاً من الحماسة القلقة لدى كتابة وظائف مدرسية متقنة».

يسري في **المفقود** هواء روايات المغامرات، الهواء الأكثر نقاوة. ليس أن الأحداث التي يعيشها كارل روسمان هي أمور مدهشة. لكن مزاجه مضبوط بطريقة يُظهر فيها العالم نفسه له بأوضح المعالم. البشر كما الأشياء أيضاً. إن الحال هو كأن كارل قدّم طريقة الرؤية هذه، الفوق واقعية، التي لا تجود بها سوى عدسة شيئية، هديةً إلى أمريكا. في حقيبته، حقيبة المهاجرين، كان ثمة وهم سينما.

ركاب سفينة أوروبية يهبطون في نيويورك على اليابسة. فتى ألماني يلاحظ أنه نسي شمسيته. يعود ليبحث عنها، بينما يترك حقيبته تحت حراسة أحد معارف الرحلة. المجموع غير ذات أهمية، المشهد واحد من المشاهد التي يتركها وراءه بسرعة روائيٍّ مثل ديكنز، الذي هو هنا قدوة لكافكا. لكن الأمر هنا مغاير كلياً. ما أن ينقلب كارل عائداً للبحث عن شمسيته، حتى يحدث للقارئ أمر غير مألوف: يغرق في التفاصيل. كل شيء يصبح فجأة في غاية الأهمية، يبرز، يتسابق بوضوح فائق إلى الأمام. بعد أربعة أسطر، عندما يروح كارل روسمان **يبحث في عناء عن طريقه عبر عدد كبير من الغرف الصغيرة وعلى سلالم قصيرة راحت**

(*) روبرت موزيل (١٨٨٠ - ١٩٤٢) روائي وناقد نمساوي مشهور. أهم رواياته «الرجل بلا صفات».

تتبع بعضها بعضاً وعبر ممرات متعرجة باستمرار وعبر غرفة خالية تحوي طاولة مكتب مهجورة (رواية **المفقود**، ص ١٣ في هذا الكتاب. ا. و)، يتملكنا الإحساس المبهم بأننا لم نعد نتواجد إلى سفينة وحسب، بل في بلاد جديدة يتطلب كل شيء فيها أقصى درجات الانتباه وبأننا ملزمون بتوجيه النظر على كل حركة وكل خطوة وكل تعبير وجه. كل شيء يتسع، كل تفصيل يملأ حقل الرؤية بكامله. قوة جذب لا يُدرى كنهها تفرض نفسها. نتساءل طويلاً عما ينتظرنا وكأن قوة الجذب هذه إنما تعلن عن قرب وقوع حدث ما غير مألوف. لكن من ثم لا نعود نفكر بذلك ونرضى بما يحدث لتوّه. عندما يشكو وقّاد ألماني قوي البنيان لا نعرف حتى اسمه، من الظلم الذي يقع عليه من قبل كبير الميكانيكيين شوبال، الذي يعامل الأجانب على ما يبدو أفضل مما يعامل الألمان، وحين يرغب كارل روسمان، الذي تعرّف عليه لتوّه، أن يساعده وينصحه بأن يدافع عن حقه، فإن هذا يجذب انتباهنا بقوة وكأن حكماً إلهياً وشيك الصدور. لكن تفاصيل أخرى تأتي بالإضافة إلى ذلك. حين يذهب الوقّاد وكارل إلى القبطان، تُرى من خلال نوافذ الغرفة الثلاث سفن كبيرة، برايات ترفرف، **تتقاطع طرقها مع بعضها بعضاً ـ ووراء كل شيء كانت نيويورك تنتصب** (ص ١٨). هل هذه هي اللحظة التي ربما يرى فيها كارل روسمان المدينة لأول مرة؟ أبداً! إنها بالأحرى اللحظة الأولى التي يُرى فيها كارل روسمان: **كانت نيويورك تنتصب وتنظر إلى كارل بمئات آلاف النوافذ من ناطحات السحاب فيها** (ص ١٨). آلاف وآلاف الأعين تتسلط على الشخص نفسه: سوف ترافق كارل على دروبه المتقلبة ولن تدعه دون مراقبة قط. لهذا السبب أيضاً تكون كل قصة يدخل فيها مشوقة وشبحية ـ دون أن يتوضح هذا له نفسه. ثمة جمهور ضخم مجهول يتفرج عليه. إنها ولادة السينما. لكن المواقع متبادلة. هنا يتواجد المتفرجون في الأعلى، على ارتفاع كبير، تحت ضوء ساطع.

منذ الصفحات الأولى في **المفقود** تنتظم الكلمات دائماً بأهمية متساوية، على الدوام بمسافة واحدة، مثل أسطر دفتر مدرسي. هذه الخاصية نجدها أيضاً في **المحاكمة والقلعة**، وإن كانت هاتان الروايتان تتحركان في مناطق أكثر غموضاً وتجريدية. كل شيء يروى تماماً مثل الجولة التي يقوم بها كارل روسمان في السفينة، لكي يبحث عن شمسيته. السطح متماسك دائماً، الكثافة ثابتة. كل كلمة تطلب اهتماماً. إن الوصف الدقيق لحركة، ملاحظة عن الطقس وحديث مسهب عن القانون تقع على المستوى نفسه وتتداخل مع بعضها بعضاً دون انقطاع. لا شيء يطالب بأهميته، لا شيء يتراجع كشيء غير ذي أهمية. ربما لم يعط روائي آخر قارئه هذا الاطمئنان الذي يماثل اطمئنان لاعب رياضي يستشعر الأساس الثابت لخط السباق تحت قدميه. دائماً قاس ومرن في آن.

حين كتب كافكا **المفقود**، لم يكن الهواء فوق المدينة الكبرى ـ حادّاً، نافذاً ومفعماً

بالهباب، كما هو الحال لدى بلزاك وديكنز وديستويفسكي - قد دخل إلى الرواية الألمانية. لكن ما إن بدأ كافكا يصف نيويورك، حتى ارتسم المشهد بوضوح وجلاء المرة الأولى.

إن الخاصية البصرية التي تتسم بها رواية **المفقود** هي خاصية فائقة الوضوح. ففي حين يجري كل شيء في **المحاكمة والقلعة** على وجه أخص في نفس فرد، والصورة لا تتسلل سوى بين وقت وآخر بأجنحتها الوطواطية بين الاعتبارات، فإن المرء يتحرك في **المفقود** من ربع دائرة مساحة خارجية واسعة إلى ربع آخر. واجتياز هذه المساحة بالنظر هو مهمة كارل روسمان، وهو يأخذ هذه المهمة على محمل الجد مثل تلميذ مطيع. وعندما تحصل بعض الشخصيات - الخال، كبيرة الطباخين، كلارا بولوندر أو برونيلدا - فجأة على اسم وتكسب حياة خاصة بها، فإن الحال هو كأنها تنتعش مؤقتاً وحسب وتبتعد من مكانها على تلك المساحة، لكنها تترك هناك معالمها الواضحة والصامتة. عاجلاً أو آجلاً تعود إلى هناك وتتمدد كما في فراش دافئ.

ضوء نيويورك؟ إنه **ضوء قوي، جسماني**، ينتشر على الدوام ويتجمع ثانية. بحيث يأخذ المرء انطباعاً بأن **لوحاً زجاجياً يغطي كل شيء سينكسر مراراً وتكراراً في أية لحظة وبكل قوة** (ص ٣٦).

أخطار في نيويورك؟ عندما يقف قادمون جدد على شرفة غرفتهم ويروحون يحدقون طوال ساعات في حركة المرور، **مثل خراف ضائعة** (ص ٣٦).

سحر أمريكا: في منزل الخال ياكوب ينقل مصعد شاحن البيانو إلى حجرة كارل في الطابق السادس. كارل يصعد في مصعد الأشخاص إلى جانبه ويظل على ارتفاع واحد مع البيانو. ويروح يتأمل **الآلة الجميلة التي كانت الآن ملكه** (ص ٣٧).

القصيدة الأمريكية الأولى، التي يحفظها كارل غيباً هي **تصوير لحرائق مدمرة** (ص ٤١). يلقي أبياتها على مسمع الخال، وهذا يصفق بيديه ببطء وانتظام، يقف الاثنان إلى نافذة في غرفة كارل ويتأملان السماء التي تبدد ضياؤها.

في وسط نيويورك، في الطابق السادس من مبنى ذي هيكل من الصلب، لدى نوافذ مفتوحة، تتناهى إليه ضوضاء حركة المرور مع زوبعة من الغبار وروائح، يعزف كارل على البيانو **أغنية جنود قديمة من أغاني بلاده كان الجنود يغنّونها لبعضهم من نافذة إلى نافذة وهم يستندون في نوافذ الثكنات وينظرون إلى الفناء المعتم** (ص ٣٨). هذا هو غوستاف مالر(*) مختزل في كلمات. وفي مخيلته قبل أن يغشاه النوم لا يستبعد كارل **إمكانية ممارسة تأثير مباشر على الظروف الأمريكية من خلال هذا العزف على البيانو** (ص ٣٨).

(*) غوستاف مالر (١٨٦٠ - ١٩١١) ملحّن وقائد أوركسترا نمساوي مشهور.

بولوندر وابنته يُظهران حسن ضيافة ومجاملة إزاء كارل. لكن الأمسية في منزلهما الريفي هي ذات أرضية من العنف المبهم. لا سيما غرين، بشير السوء، ذو الحركات الدقيقة المنفّرة أحياناً، يعطي كارل الانطباع بأن **الاتصال الاجتماعي الضروري بينهما سوف ينشأ من خلال انتصار أحد الاثنين أو هلاكه** (ص ٥٠). في هذه اللحظة ما زال كارل لا يعرف أن لحظة الهلاك قد اقتربت: بعد ساعتين من ذلك سوف يسلمه غرين الرسالة التي يصرفه بها الخال.

الخال ياكوب، بولوندر، مارك، غرين: شخصيات يراقبها ويرسمها صاحب حرفة ذو نوعية خاصة متخصص في صنع دمى من المطاط.

بعد طعام العشاء يجلس بولوندر وغرين متقابلين. دخّنا سيجاراً سميكاً. والآن يتحدثان عن الأعمال، وقد حمل كل منهما بيده كأساً من الخمر الحلو. لكن عن أية أعمال؟ **كان من شأن المرء لو كان لا يعرف السيد بولوندر أن يستطيع الافتراض كل الافتراض أن الحديث إنما يجري هنا عن أمر إجرامي وليس عن أعمال** (ص ٥٠). لكن من يعرف السيد بولوندر حقاً؟

شعر وجداني في **المفقود.** كارل يدخل في منزل بولوندر إلى الغرفة التي تقرر أن يبيت فيها. يجلس على حافة النافذة ويروح ينظر إلى الخارج: **بدا عصفور جرى إفزاعه يحاول الدخول بين أوراق الشجرة الشائخة. تناهى صوت صفارة قطار ضواحي نيويوركي في مكان ما من الإقليم. ما عدا ذلك كان ثمة هدوء يسود** (ص ٥١). لكي يهتز هذا الشعر، لا يحتاج حتى إلى الطبيعة. حين يكون كارل صبي مصعد في فندق أوكتسيتندال، يتأثر في عمق الليل مرة أخرى: **استند بثقل على الدرابزين إلى جانب مصعده، راح يأكل على مهل تفاحة سرى منها بعد أول عضة شذى قوي، ونظر نحو الأسفل إلى مسقط نور تحيط به نوافذ المخازن الكبيرة راحت الآن تلمع وراءها كميات موز معلقة في الظلام** (ص ١٠٥).

يُطرد كارل مرتين. المرة الأولى من قبل الوالدين، والمرة الثانية من قبل الخال في أمريكا. في الحالتين يتجه غرباً: من ألمانيا إلى نيويورك ومن نيويورك إلى كاليفورنيا. **في** المرتين تقع العقوبة بعد مشاجرة وعراك مع امرأة. **في** فراش، على أريكة. كارل متين البنية يُسحق، يُخنق. **في** المرة الأولى من قبل طباخة مسكينة **طوقت عنقه على نحو خانق** بين **بياضات السرير الكثيرة الدافئة** والوسادات (ص ٢٩). في المرة الثانية من قبل **فتاة أمريكية**، وريثة بشفاه

حمراء وتنورة ضيقة، تعلمت المصارعة. **تركت يدها تنزلق إلى رقبته وشرعت في خنقها بقوة إلى درجة أن كارل كان عاجزاً كلياً عن أن يفعل شيئاً آخر سوى أن يلتقط أنفاسه اللاهثة** (ص ٥٢).

مراراً وتكراراً يُمسك بكارل روسمان، تُقيّد ذراعاه وقدماه بالقوة والحيلة لتصبح عاجزة عن الحركة. في البداية تأتي المشاجرة - التي تنتهي بجماع - مع الخادمة يوهانّا؛ إنها تقرر مصير كارل، إذ تحبل يوهانّا. مشاجرات أخرى تتبع. أولاً مع كلارا، الوريثة، ثم مع كبير البوابين في فندق أوكتسيتندال، بعدها مع روبنسون، ثم مع دِلامارش وأخيراً مع برونيلدا: جميعهم يريدون أن يعيقوا كارل عن الفرار من مكان لا يطيق المكوث فيه. عدد كبير من أحداث الرواية مكرّس لمشاهد العراك هذه. أوصاف دقيقة لبطء ممزق للأعصاب. إذا راقبنا كارل من مسافة ما، فإن الحركة المميزة له، حركة التلوّي للانفلات، هي دائماً المحاولة المتجددة للإفلات من تطويق، من قهر واستحواذ ولاسترداد وضعه كمطرود، **مفقود**، غريب مشرّد.

حتى يجد كارل ذات يوم مكاناً في المعمورة يُقبل فيه كل شيء، كل ما يحيا، يُسجّل ويُكتب على لوحة إعلانات. في حالته باسم مغلوط: نيغرو. اسم يدع المرء يفكر بالأحرى بعِرق أكثر مما يفكر بفرد(*). لكن في الحقيقة، كارل أراد ذلك بنفسه. ربما تكون الطريقة الوحيدة التي يستطيع من خلالها أن يتخلص من سوء المعاملة والعذابات التي تصيب الفرد هي أن يكون مستعداً للانخراط في مجموعة، تساء معاملتها هي أيضاً.

كارل روسمان وياكوب فون غونتن(**) شخصان ذوا قربى. إذا كان أحدهما تلميذاً في معهد بنيامنتا أو صبي مصعد في فندق أوكتسيتندال، فإن الظروف واحدة: قدَر المرء أن يكون صفراً. طبعاً لا يعني صبي مصعد أي شيء، يقول كارل لنفسه. ياكوب فون غونتن يرى زميل دراسته، كراوس، الأحب إليه «صنعة حقيقية من صنع الله، لا شيئاً، خادماً»، ويرى نفسه «صفراً كرويّ الشكل في المستقبل». مثل ياكوب، يعرف كارل أيضاً أنه يمكن لنوبة غضب من نادل أو بواب أن تطيح به دون أن يلاحظ ذلك أحد سوى تيريزه وكبيرة الطباخين، التي توافق طبعاً على العقوبة.

(*) «نيغرو» تعني بالألمانية «زنوج».

(**) بطل رواية «ياكوب فون غونتن» (١٩٠٩) للكاتب السويسري روبرت فالزر (١٨٧٨ - ١٩٥٦)، التي يصف فيها سنوات تعليمه في «مدرسة خَدَم».

في تجارب كارل يتزاوج أحياناً اعتزاز وإذلال مرّ. يتوضح هذا أكثر ما يتوضح عندما يجرّب كارل بزّته الرسمية كصبي مصعد في فندق أوكتسيتندال. **كان مظهرها بديعاً للغاية مزوّدة بأزرار وفتلات مذّهبة، لكن لدى ارتدائها أحس برجفة بعض الشيء، إذ لا سيما تحت الإبطين كانت السترة باردة وقاسية ومبللة على نحو غير قابل للتجفيف من عرق صبية المصاعد الذين كانوا قد ارتدوها قبله** (ص ٩٤).

النهار يطلع. في فندق أوكتسيتندال ما زال الهدوء يسود. لكن في غرفة كبير النُدُل تجري محاكمة. المدعى عليه هو صبي المصعد كارل. كبير النُدُل، مدعوماً من قبل كبير البوابين، يتهمه بأنه غادر مكان عمله لمدة بضع دقائق. هذا المشهد، المحشور في أضيق حيّز، والذي لا يعلم عنه العالم شيئاً، والذي لا يمكن له أن يكون أقل ضآلة شأن أكثر مما هو عليه، هو الخلية المنشأ والأصل لكل محاكمة، كل تحقيق، وكل حكم في آثار كافكا. كما هو أيضاً الخلية الأولى لكل حدث عاديّ من الأحداث. في البداية يقف دائماً شيء غير مترابط وغير متناسب، يمكن تصفية أمره بيسر على ما يبدو. لكن سرعان ما يتعيّن على المدعى عليه (أو الفرد) أن يدرك عجزه وضعفه: **من غير الممكن الدفاع عن النفس، إذا لم توجد إرادة طيبة** (ص ١٢٢)، يفكر كارل روسمان بوضوح لن يبلغه يوزف ك. البتة. الأمر الحاسم هو أن العالم لا يُظهر رفقاً إزاء ذلك الذي يعبره، والذي هو دائماً مشروع متهم. في غرفة كبير النُدُل في فندق أوكتسيتندال يحدث أمر سوف ينتشر ويظهر مراراً وتكراراً ذات يوم في كل غرف السطوح على أطراف المدينة الكبرى، حتى في الكاتدرائية وفي حجرة سقط المتاع التابعة لمكتب في مصرف. ومن ثم أيضاً سوف يهزّ أحدهم رأسه، يتطلع إلى المتهم ـ كما ترنو كبيرة الطباخين الآن إلى كارل ـ ويقول: **الأمور العادلة لها مظهر خاص، ويجب أن أعترف أيضاً أن موضوعك لا يملك هذا المظهر** (ص ١٢٣). بهذا نُطق بالحكم، أعلنته كلمات كبيرة المقام، تلك التي كانت حتى ذلك الحين حامية كارل.

وهو يتلقى، في **القلعة**، المحضر عما حدثِ قبل ذلك في الحانة، يفتّت السكرتير مومس قطعة كعك. كبير النُدُل في فندق أوكتسيتندال يقرأ في قائمة وينفض السكر عن قطعة كاتو. بانتباه وتوتر يراقب ك. وكارل الأمر ويتتبعانه. كأن الكتابة والقراءة ـ نشاطان يحفلان دائماً بالأسرار ـ لا بدّ أن يرافقهما نفض غبار وتفتيت مادة لينة.

في نحو النهاية يوجد دائماً أحدهم يسأل عما إذا كنا لسنا مسرورين من **أن كل شيء قد انتهى على خير** (ص ١٢٥). وأحياناً يوجد أحدهم، مثل كارل روسمان، يجيب: **أوه**

نعم - ويسأل نفسه أثناء ذلك، **لماذا عليه أن يكون مسروراً أنهم صرفوه بصفته لصاً**. الأمر الحاسم هو أن كارل يسأل هذا السؤال في خياله في وقت واحد مع جوابه بالإيجاب.

إنه لغز كبير كيف يتمّ في **المفقود** خلق مثل هذا الشعور بالغبطة إلى جانب شعور بيأس مزمن في الوقت نفسه. إنه تركيب مدهش لا بدّ أن يكون فريداً من نوعه. مراراً وتكراراً يجري استعباد كارل وإذلاله، وباطراد يروح يفقد نفسه في العالم، يضيع فيه، رغم ذلك يبقى له - وكأنه حَشَرَ ذلك في حقيبة اغترابه - القدرة الكاملة على تلقي كل ما يتعرض له بذلك الوضوح والذي يرهص بالغبطة.

يشترك المتشردان دِلامارش وروبنسون مع معاونَيّ ك. في أن كل محاولة للتخلص منهم هي بلا طائل. «**روسمان، ماذا كان من شأنك أن تكون بدون دِلامارش!**» يقول روبنسون ذات مرة - والكلمات تبدو ساخرة. لكنها لهذا ليست خاطئة. إن المتشردَين هما بالنسبة لكارل الانخراط الحقيقي في الحياة، لا بدّ منه وباطراد أكثر سحقاً.

برداء أحمر اللون وتحت مظلة حمراء تظهر برونيلدا ضخمة الجسم على شرفة في الطابق الثامن لبناء من المساكن الشعبية في حيّ عمالي.

برونيلدا **مغنية، ومغنية كبيرة**، كما يرى المتشرد روبنسون، الذي هو «الذنب بذاته» لكارل روسمان. برونيلدا تمضي أيامها في العتمة، ترقد على أريكة تملأها بعرضها الكبيرعلى نحو كامل. لا تستيقظ من جمودها سوى لكي تمسك ذبابات مزعجة. الغرفة مكتظة لا سيما بشتى أنواع الأقمشة. ستائر وملابس وسجادات متراكمة. الهواء مقبض. رائحة الغبار تُشمّ. جالسة علىالأريكة بساقين منفرجتين يجب أن تدع نفسها تُساعد لدى خلعها كلساتها الخشنة البيضاء. بيديها الصغيرتين البدينتين تمسك مروحة صغيرة جداً مفتوحة. برونيلدا تشخر، ليس في نومها وحسب، بل **أحياناً في حديثها** (ص ١٦٥). المغنية في غاية الحساسية. إنها لا تضيق ضجيجاً. غالباً ما تعاني من الصداع والالتهاب المفصلي. تتنهد في النوم تعذبها **أحلام صعبة**. بالنسبة لنوع معين من الرجال مثل دِلامارش وروبنسون، فإن جسد برونيلدا لا يُقاوم. إنها **تُلعق لعقاً، تُشرب**: هكذا يصف روبنسون اللحظة التي ظهرت فيها لأول مرة، بثوب شديدِ البياض وشمسية حمراء اللون.

برونيلدا هربت من حب. هجرت صاحب مصنع كاكاو ثرياً لكي تتبع دِلامارش المتشرد. روبنسون يروي أفعالها كأنها بطلة رومانتيكية. **لقد باعت برونيلدا بسبب دِلامارش كل ما كان لديها وانتقلت مع كل ثرواتها إلى هنا إلى هذه الشقة من شقق الضواحي،**

لكي تتمكن من تكريس نفسها له كلياً وحتى لا يعكر صفوها أحد، وهذه، للمناسبة، كانت رغبة دِلامارش أيضاً (ص ١٥١). مثل عشاق الماضي الكبار يحتاج دِلامارش وبرونيلدا الوحدة وخدماً يخدمونهما بصمت. على روبنسون وكارل الاضطلاع بهذه المهمة في غرفة مكتظة خانقة. تركيب المكان كامل متكامل، بحيث أنه لا ضرورة لتعليق، بل تأمل وتمعّن.

عراك عنيف على نحو خاص بين كارل ودِلامارش. في النهاية يصطدم رأس كارل بخزانة ويفقد وعيه. حين يعود إلى وعيه، يجد ضمادة مبللة تشبه عمامة تجثم على رأسه، كانت قد اقتطعت من غسيل برونيلدا. في غرفة سادته وخفرائه **كانت تُسمع الأنفاس الهادئة للنائمين الثلاثة، وكانت الأنفاس الأعلى صوتاً بكثير هي أنفاس برونيلدا.** برونيلدا، دِلامارش وروبنسون يشكلون جسماً واحداً، رخواً وجامداً في آن، يروح كارل يصطدم به باستمرار، مرة بحذاء روبنسون، وأخرى بلحم برونيلدا الفائض. أطراف كائن بأربعة رؤوس، الفرار منه غير ممكن. كذلك الطالب الصارم يوزف مندل، المنحني على كتبه على الشرفة الليلية، ينصح كارل أن يبقى في هذه الغرفة **على أي حال.** وهذه الكلمة تبدو أمراً **كأن صوتاً أكثر عمقاً من صوت الطالب هو الذي نطقها** (ص ١٧٢)، الذي قد يكون صوت القضاء المحتوم.

برونيلدا هي ميلوزينه(*) تحب أن تستسلم لذكريات **أيام الصبا** عندما كانت تسبح في نهر كولورادو **صباح كل يوم، وأكون الأكثر حركة بين صديقاتي** (ص ١٧٥). والآن أيضاً عندما يقوم دِلامارش بتغسيلها على نحو لا متناه خلف صناديق وحواجز جدران يرنّ نداؤها الخطِر. من الخادم روبنسون تطلب أن ينظر إليها عارية، لكن ما أن يمدّ روبنسون رأسه إلى الأمام، حتى تمسكه ويمسكه دِلامارش ويغرقانه في الحوض. لهذا التعذيب تريد برونيلدا أن تُخضع كارل أيضاً. تتطلع إليه وتسمّيه **صغيرنا.**

ثم يتبع البحث المهتاج عن العطر لبرونيلدا، بين **كثير من الأشياء الصغيرة الملفوفة والملتصقة ببعضها، في أدراج مليئة بعلب بودرة، فُرَش شعر، روايات ومجلات ونوتات موسيقية إنكليزية قديمة، وكان كل شيء مليئاً لدرجة أنه لم يكن في وسع المرء أن يغلق الأدراج إذا ما كان قد فتحها مرة** (ص ١٧٧). غير أن كارل لا تفتر روحه، لأن روحه لا تفتر البتة، ويسأل: **أي عمل يأتي الآن؟** مهما كان الأمر، تعلم الإنكليزية، عزف على البيانو، نقل ضيوف الفندق بالمصعد، أو تجميع طعام فطور لبرونيلدا على صينية: كارل على استعداد دائماً أن يبذل جهده، ما من شك في إرادته الطيبة. وكما كان في البداية قد تقدم ودافع لدى

(*) ميلوزينه بطلة أسطورة من القرون الوسطى عاشت علاقة حب تراجيدية.

القبطان عن الوقاد، هكذا يعرض الآن أن يؤازر روبنسون الذي أسيئت معاملته، دون أن يبالي أين يتكلم ومن يسمعه في سخرية.

كلما تغلغل كارل في الفضاءات الأمريكية الشاسعة، يصعب عليه أكثر أن يتحرك من مكانه. ليس لأن أحداً ما يوقفه دائماً بالقوة وحسب، بل لأن الأرض حوله هي مستنقع أيضاً، بدوّامة في الوسط: غرفة برونيلدا. روبنسون يشرح له أن المغنية **غير قابلة للنقل** ليس لأنها مريضة، بل لأنها ثقيلة الوزن. من يخالطها، لا يسعه سوى أن يغرق معها. بعد قليل نرى كيف يبذل كارل جهده في ممر، بخبرة وعناية، ويقوم بتجميع طعام فطور مقبولاً من بقايا أطعمة في أطباق متسخة كان أناس عديدون مجهولون قد أكلوا منها. ينظف السكين والملعقة، يقطّع على نحو مستقيم الخبز الذي كان قد قضمه آخرون، يصبّ ما تبقى من حليب، يحكّ البقايا المتنوعة على صحن، ثم يحاول **إزالة كل إشارة استعمال** (ص ١٨١). إنها اللحظة الأكثر إثارة للاكتئاب والقنوط وتثبيط الهمة في مغامراته. غير أن كارل يملك موهبة أن لا يلاحظ ذلك. إنه يركّز انتباهه وجهده على عمله كل التركيز، حتى عندما يؤكد روبنسون أن هذا العمل غير ضروري. إذ إن **طعام الفطور كان غالباً ما يبدو أسوأ منظراً** (ص ١٨١). وحين تبادر برونيلدا بنهم **وتمدّ يدها الرخوة السمينة التي يُخشى أن تمس كل شيء في الحال** (ص ١٨١)، فإنه يقيّم عمله تقييم خبير ويقول: «**لأول مرة لم أعرف كيف يجب تدبير كل شيء، في المرة القادمة سوف أعمل الأمر على نحو أفضل.**»

في الصباح الباكر يدفع كارل عربة يد صغيرة عبر الشوارع الخالية، تروح تتأرجح يمنة ويسرة بحمولة مغطاة بملاءة كبيرة رمادية اللون. «**أكياس بطاطا**»، يخمّن أحدهم. «**إنه تفاح**»، يجيب كارل شخصاً آخر. لكن الحمولة هي في الحقيقة برونيلدا. لم يعد الحديث يجري عن دِلامارش وروبنسون. على طريقه الذي لا يمكن إصلاحه سار كارل خطوة أخرى. إنه وحده مع حمله الثقيل، ولا يدري كيف يتخلص منه. أخيراً يصل **إلى الشارع الضيق المعتم الذي كان المحل رقم ٢٥ فيه** (ص ١٨٨). هناك يجد كارل والمغنية شخصاً ينتظرهما بفارغ الصبر. لكن ما هو المحل رقم ٢٥؟ مكتب؟ معمل؟ مبغى؟ محل رعب؟ سيرك؟ لا يمكننا أن نعلم، لكن الوصف الموجز الذي يُعطى لنا قبل أن تنقطع المخطوطة نهائياً يوعز بالتفكير بمبغى. الجدران مدهونة، **ولم تكن النخلات الاصطناعية مكسوة بالتراب سوى قليلاً** (ص ١٨٨). غير أن ما يؤثر في نفس كارل أكثر ما يؤثر هو نوعية معينة للمكان: اتساخه كان غير قابل للتنظيف. هذا يشكّل عائقاً ميتافيزيقياً يتخطى الواقع. هنا **كان كل شيء ملوثاً بالدهن ومثيراً**

للنفور، كان الحال وكأن كل شيء إنما قد استخدم استخداماً سيئاً وأنه لم يعد من شأن نظافة أن تكون قادرة على إصلاح هذا (ص ١٨٨). حتى كارل، الأكثر إيجابية، وانفتاحاً، واستعداداً للمساعدة من بين الشخوص الرئيسية، يتعيّن عليه هنا لأول مرة، أن يدرك عجزه ويقبل ما لا يمكن علاجه. **كان كارل يحب أن يفكر، عندما كان يأتي إلى مكان ما، عما يمكن إصلاحه هنا وأية بهجة لا بدّ أن تكون لدى البدء على الفور، ودون مراعاة للعمل اللامتناهي ربما الذي من شأنه أن ينشأ نتيجة ذلك. لكن هنا لم يكن يدري ما قد يكون من شأنه أن يُعمل** (ص ١٨٨). إلى طريق الإذلال ـ إذلال إجباريّ كلياً خلقته الظروف ـ وصل كارل في النهاية. ولأول مرة لا يعرف ما يمكن عمله.

مسرح أوكلاهاما هو، ولا ريب، **أضخم مسرح في العالم** ـ وبعضهم يرى **أن لا حدود له تقريباً** (ص ١٩٢). غير أن الناس الذين يقفون أمام ميدان السباق، عديمو الثقة وكأن هذا الإعلان ينطوي على شيء ما يثير الريبة. وربما يكون كارل قد عثر على سبب ذلك: **من الممكن أن تكون وسائل إغراء لفريق الدعاية قد أخفقت بالذات بسبب عظمتها**. ثمة عدم تناسب بين هذه المسرحية غير قابل للنقض، هذه المسرحية التي هي واحد مع العالم ومع سكان العالم. إن المسرحية هي كبيرة جداً، تجاوز كل قياس. إنها تقدم نفسها بنفسها، في نوع من الذاتية الكونية. في أحسن الأحوال يمكن المشاركة فيها ككومبارس، مثل فانّي مع بوقها ـ ومثل كارل نفسه، حين **نفخ بكامل صدره أغنية كان قد استمع إليها ذات مرة في إحدى الحانات في مكان ما** (ص ١٩٢).

المفسرون الأكثر تبايناً واختلافاً يقومون برد فعل على مسرح أوكلاهاما بالطريقة نفسها: بدهشة ونشوة في آن. بعضهم يرى فيه الظاهرة الوحيدة للغبطة لدى كافكا. بالنسبة لأدورنو(*) هو أيضاً الصورة الوحيدة لتلك الأوتوبيا التي يتغلغل فيها تفكيره. إن الحال هو كأن دعوة اللافتة للمجيء إلى ميدان السباق في كلايتون إنما تخاطب الجميع **وكل امرئ** وحده. العالم مليء طبعاً باللافتات ـ **ولم يعد أحد يصدق اللافتات** (ص ١٨٩). لكن هذه اللافتة تبدو إيذاناً بيوم النشور، وهي الأولى من سائر اللافتات. **مسرح أوكلاهاما الكبير يدعوكم! يدعو اليوم فقط، مرة واحدة فقط!** (ص ١٨٩). **الدعوة تصدر إلى الفرد الذي يقرأها. والفرد يكتشف أنه هو الجميع: إننا نرحّب بكل فرد!** (ص ١٨٩) **كل امرئ مرحّب به.** (١٩٠) لكن هذا الانفتاح التام يعارض مدة محددة بتعسف قاس: **في الثانية عشرة يجري**

(*) تيودور أدورنو (١٩٠٣ ـ ١٩٦٩) فيلسوف ألماني وعالم اجتماع ومنظّر موسيقي وملحّن.

إغلاق كل شيء ولا يُفتح بعد ذلك! (ص ١٨٩) ثم يتبع الملحق الذي لا يرحم لتلك القيامة: **ملعون من لا يصدقنا!**

إذا كان ثمة مكان قدّر له في القرن العشرين أن يمثل الغبطة التي لا ريب فيها والطليقة من كل قيد، فإنه هوليوود، مكان إخراج العروض المسرحية الغنائية الراقصة Musical. لكن عندما كتب كافكا **المفقود**، لم يكن مثل هذا العرض قد وجد بعد. ولا الفيلم الناطق. هذا اقتحم مع الضوضاء المضطربة الصادرة عن الأبواق التي استقبلت كارل أمام ميدان السباق في كلايتون، اقتحم ما بعد التاريخ، مرافقاً للتاريخ ومتنبئاً به. إن المشهد الذي يلقاه كارل كان المشهد الأوّلي للعرض المسرحي الغنائي الراقص الحديث: مسرحية تخلط أخيراً تَنَاظُرَ أسراب الملائكة في فردوس دانتي. إخراج المسرحية كان بسيطاً وباهراً في آن. كل تفصيل من التفاصيل كان بارزاً، لكن يلفت النظر على نحو مخصوص أن **مئات من النساء ظهرن في وقت واحد: أمام مدخل ميدان السباق كانت قد أقيمت منصة طويلة منخفضة تقف عليها مئات من النساء يرتدين كملائكة ملاءات بيضاء بأجنحة كبيرة على الظهر وينفخن في أبواق طويلة تلمع كالذهب. غير أنهن لم تكنّ على المنصة مباشرة، بل كانت كل منهن تقف على قاعدة لكنها غير مرئية، فقد كانت الملاءات الطويلة المرفرفة لملابس الملائكة تغطيها تغطية كاملة. ولأن القواعد كانت مرتفعة جداً، لا ريب بعلوّ حتى مترين، فقد كانت أشكال النساء تبدو عملاقة، ورؤوسهن الصغيرة وحدها كانت تخلّ بعض الشيء في انطباع الضخامة، كما أن شعورهن المسدلة كانت تتدلى قصيرة جداً وعلى نحو يكاد يكون مضحكاً بين الأجنحة الكبيرة وعلى الجوانب. ولكي لا ينشأ انطباع رتابة، كان ثمة مَن استخدم القواعد في أحجام متنوعة، كان ثمة نساء يقفن على انخفاض كبير ليس بعيداً عن الحجم الطبيعي، لكن إلى جانبهن كانت نساء أخر يَنْسَبْنَ عالياً على ارتفاع شاهق بشكل يخيّل فيه للمرء أنهن في خطر لدى أدنى هبة ريح. والآن كانت النساء جميعهن ينفخن في أبواقهن** (ص ١٩٠). كلمات، تكفي لخلق شعور بالغبطة يكاد لا يُحتمل. وهذه المرة بدون أي سبب، مرتاحاً من كل انشغال بال بشأن اختيار، من كل خوف من إقصاء. العين والأذن فقط تشاركان. أكثر من ذلك ليس لازماً. كمدخل إلى الحياة الكاملة خليق بهذا أن يكون كافياً.

في عام ١٩١٤، بين آب وتشرين الأول، كان كافكا مشغولاً برواية جديدة، **المحاكمة**، وفي الوقت نفسه حاول أن يُتِمّ الرواية غير المكتملة، **المفقود**. بعد بضعة أشهر يكتب: **روسمان وك.، البريء والمذنب، في آخر المطاف قُتل كلاهما بلا تمييز عقاباً، البريء بيد**

أكثر هوادة، يُنحّى جانباً أكثر مما يُصرع. كثير من شكوك المفسرين يمكن إزالتها بهذه الكلمات. أخيراً نعلم، ومن طرف مسؤول، أن يوزف ك. مذنب، لا أكثر ولا أقل؛ وأن كارل روسمان بريء، لا أكثر ولا أقل. لكن هذا هو غير ذات قيمة بالنسبة لسلطة أعلى لا تبغي سوى قتلهما. لدى ك. يحدث هذا إعداماً. لدى كارل روسمان يكفي، على عكس ذلك، أن تجري تنحيته إلى حافة الطريق، يبدو وقد دهسته سيارة كما حيوان(*).

٢٠٠٢ روبرتو كلاسّو

Roberto Calasso

(*) هذه الدراسة من كتاب مترجم في عام ٢٠٠٦ من الإيطالية إلى الألمانية بعنوان «ك.» للكاتب الإيطالي روبرتو كلاسّو، المولود عام ١٩٤١.

٩ ـ قراءة بصرية
مدخل قراءة جديدة لآثار كافكا
الانمساخ، المفقود، المحاكمة

قراءة بصرية ـ قد يتساءل القارئ في اللحظة الأولى عن المقصود أساساً بهذا التعبير وكيف يجب تصور مثل هذه القراءة على نحو واقعي. البصرية تُربط أول ما تُربط بالمرئي واقعياً. فمثلاً تبدو الصورة السينمائية قابلة للعرض بصرياً على نحو أكثر بديهية من نص أدبي. لكن لدى التمعن بدقة، فإنه يتبيّن أن الأدب إنما يملك شكلاً خاصاً به من البصرية، وذلك بأن يعرض بطرق متنوعة ملاحظات بصرية. أمكنة، شخوصاً، أدوات وتفاصيل مفردة يمكنها أن توصف بكلمات مسهبة وبهذه الكيفية تقدم إحساساً بصرياً. وعلاوة على ذلك يمكن ذكر فعل الرؤية، الأمر الذي يتبعه في الغالب وصف الحدث. لكن الآن يطرح السؤال نفسه عن كيف يجب قراءة هذه الأوصاف البصرية في كل رواية أو قصة. هل تعلمنا البصرية شيئاً ما؟ هل تنقل لنا مضموناً ومعنى ما أم تظل مجرد مظهر سطحي؟ من شأني أن أقول بأنها دائماً تعلمنا شيئاً ما، وفي حالة كافكا من شأني أن أقول بأنها تعطي إشارات جوهرية جداً لا يستغنى عنها في تفسير نصوصه. تعمل البصرية في آثار كافكا على إنتاج وتقديم معنى ويمكنها بهذا أن تُستخدم كمدخل قراءة. هنا يجري تبيان ماذا يعني هذا بشكل محدد بناء على مقاطع من روايتي **المفقود** و**المحاكمة** وقصة **الانمساخ**.

الأمكنة

يُكثر كافكا من وصف أمكنة، داخلية وخارجية. وغالباً ما يكون هذا الوصف عرضاً مليئاً بالتناقضات، وذلك بأن تكون صغيرة بشكل خاص أو كبيرة بشكل خاص، أحياناً معتمة وخانقة، وأحياناً لا يحيط بها البصر ومثيرة للانقباض. ومما يلفت النظر علاوة على ذلك أن

بعض الفضاءات تقع في أمكنة خاطئة أو تبدو أنها لا تناسب وظيفتها، كما هو الحال في أماكن المحكمة في **المحاكمة**.

هذا التعداد القصير يبيّن أن وصف الأمكنة في آثار كافكا يحظى بقيمة معينة وأنه يمكن أن يُخصص لها أهمية ضمن السياق.

في رواية كافكا الأولى **المفقود** يتحرك كارل روسمان عبر شتى الحجرات والغرف والقاعات والردهات. يلتقي الوقاد في **القمرة البائسة** التي يتسرب إليها **من خلال كوّة منوّر علوية ... ضوء مستهلك منذ مدة طويلة في أعلى السفينة** (ص ١٤). يزور كارل السيد بولوندر وابنته كلارا في منزل ريفي، **ليس فيلاً**، بل **قلعة**، يقف المرء في قاعته **مثلما يقف على رواق كنيسة** (**المفقود**، ص ٥٥). وأخيراً يجد نفسه مع روبنسون ودِلامارش في شقة تلفها **عتمة كاملة** (**المفقود**، ص ١٤٣) مكتظة بالأثاث والملابس المعلقة في كل مكان والأقمشة وشتى الأدوات.

تبيّن هذه الاستشهادات القليلة، والتي تحفل آثار كافكا بمثلها، مدى عناية كافكا بوصف الأمكنة التي تدخلها شخوصه. إن أول ما يلفت النظر هو أن هذه الأمكنة هي دائماً أمكنة لا يحيط بها البصر، وأحياناً تكون أقرب إلى المتاهة مثل بطن السفينة التي يدخل كارل معها إلى ميناء نيويورك أو مثل الردهات الطويلة في فيلا السيد بولوندر، وأحياناً معتمة مثلما هي حجرة برونيلدا والفيلا المذكورة. كارل روسمان يُقدِّم لنا تبعاً لذلك في مواقف مكانية توضح انعدام الاتجاه الصحيح لديه وعجزه واستسلامه للمقادير. الأمكنة الموصوفة هي إما صغيرة وضيقة أكثر من اللازم مثل قمرة الوقاد أو كبيرة أكثر من اللازم وبالكاد يحيط بها البصر مثل ميدان السباق في كلايتون في نهاية الرواية غير المكتملة. هذه الأبعاد المكانية أيضاً يمكن تفسيرها بصدد حالة كارل: ضيق الأمكنة يشير إلى مضايقته من قبل الناس الذين يلتقيهم. يوضع كارل على الدوام في مواقف لا يستطيع تحديدها بنفسه ولا التأثير فيها، يُلزم على القيام أو عدم القيام بأمور معينة، وفي الختام يحبسه روبنسون ودِلامارش وبرونيلدا في شقتها. اتساع الأمكنة الأخرى، هذا الاتساع المضاد على نحو كامل، يشير إلى ضياع كارل في عالم غريب عليه كل الغرابة. ما يحسه جسدياً في الأمكنة الموصوفة هو في الوقت نفسه تعبير عن حالته النفسية.

في رواية كافكا الثانية **المحاكمة** نجد أوصافاً للأبعاد المكانية مماثلة كلياً. هنا أيضاً توصف أمكنة واطئة وصغيرة يتوجب على الشخوص أن تتحرك فيها وهي محنية الظهر، مثل الرواق في قاعة المحكمة، حجرة سقط المتاع في المصرف، حجرة المحامي والمنبر الجانبي في

الكاتدرائية. وهناك مثال مميز على نحو خا ص هو غرفة المدعى عليه بلوك، التي ليست ذات سقف منخفض فحسب، بل صغيرة جداً:

ذهب ك. إلى هناك ونظر من العتبة إلى داخل الغرفة ذات السقف المنخفض التي ليس لها نوافذ والتي كان سرير ضيق يملؤها كلياً. من يدخل هذا السرير عليه أن يرتقي قائمته. عند رأسه كان ثمة تجويف في الحائط رُتِّب فيه بدقة شمعة ومحبرة وقلم وحزمة أوراق، على الأرجح أوراق محاكمة (**المحاكمة**، ص ١٥٣)(*).

سائر الغرف والأمكنة الواطئة والضيقة تشير إلى إذلال، اضطهاد وفقدان سلطة، هذه الحالات التي تعبّر عن نفسها أيضاً في انحناء الأجسام الذي تفرضه هذه الأمكنة. هذا اللزوم يصاغ أيضاً بشكل مباشر في النص في سياق مع غرفة المحامين: **حتى الحجرة الضيقة ذات السقف المنخفض المخصصة لهم تدلّ على الاحتقار الذي تكنّه المحكمة لهؤلاء الناس** (**المحاكمة**، ص ١١٢). مع هذه الأوصاف تتنافر من ناحية أخرى أمكنة تبدو كبيرة وحتى أحياناً لامتناهية. المثال ذو المغزى الأكبر هو الكاتدرائية: **كذلك بدت له ضخامة الكاتدرائية وقد بلغت تقريباً حدود ما يحتمله البشر** (**المحاكمة**، ص ١٠١). وهو يدرك تفاصيل المكان **في البُعد** (**المحاكمة**، ص ٩٨) أو **من البُعد**. في ضخامة واتساع الكاتدرائية يجري التعبير بصرياً عن السلطة المطلقة وأنه لا سبيل إلى القانون. رغم شروحات القس يظل القانون غير واضح بالنسبة ل ك.، الأمر الذي يجري التعبير عنه في تشكيل المكان. وما يظل أيضاً بالنسبة له مريباً وغير مفهوم هو المحكمة بدهاليزها اللامتناهية التي تمتد على طول علّيات مساكن شعبية فقيرة. هنا أيضاً يمكن تفسير المكان المريب ووصفه المسهب دليلاً على عدم إدراك ك. لجهاز المحكمة كما للمحاكمة الخاصة به.

في قصة كافكا **الانمساخ** يجري وصف غرفة غريغور سامسا مرة بعد المرة، هذا الوصف الذي يطلعنا على حالة غريغور. في بداية تحوله، حين كان غريغور ما زال حبيس دوره كمعيل للأسرة وكموظف مجدّ، يحس الغرفة مألوفة. لكن كلما كان إحساسه بنفسه حشرة يزداد، كانت الغرفة الكبيرة تبدو له أكثر غرابة وتهديداً:

ولكن الحجرة الفارغة عالية السقف التي كان مرغماً عليه أن ينبطح فيها على الأرض أثارت الخوف في نفسه، دون أن يستطيع الاهتداء إلى سبب ذلك، فقد كانت هي غرفته التي يسكن فيها منذ خمس سنوات (ج١، ص ٢٤٦)(**)

(*) الاستشهادات من «الآثار الكاملة» (الجزء الثاني، المحاكمة، ط ٣).

(**) الاستشهادات من «الآثار الكاملة» (الجزء الأول، ط ٣).

بإخلاء أثاث الغرفة من قبل الأخت والأم وتحويل الغرفة إلى غرفة لسقط المتاع، لا تُنزع عن غريغور آخر بقايا هويته البشرية وحسب، بل يجري أيضاً إيضاح أين مكانه الطبيعي بصفته حشرة لم يعد في مقدوره أن يحقق مهامه كابن: بين القاذورات التي تلقى في غرفته.

وهناك أمر آخر لافت للنظر في رواية **المحاكمة** كما في قصة **الانمساخ** هو أبواب الحجرات، التي تأخذ وظيفة دلالية. بل إن هاينز بوليتسر يذهب إلى حد أبعد من ذلك، فهو يتحدث عن «الرمز المركزي» للباب في **المحاكمة**. في الرواية تُذكر مراراً وتكراراً أبواب لا تُفتح نحو الخارج، بل تفضي إلى غرف أخرى. ويتوضح هذا أكثر ما يتوضح عندما يريد يوزف ك. أن يغادر مرسم تيتوريللي وهذا يعرض عليه الخروج من الباب الخلفي.

وانحنى (تيتوريللي) **أخيراً فوق السرير وفتح قفل الباب. «اطلع دون وجل على السرير»، قال الرسام، «هذا ما يفعله كل من يدخل إلى هنا.» وما كان من شأن ك. أن يأبه حتى بدون هذا الطلب، بل إنه كان قد وضع قدماً على وسط اللحاف، وهنا نظر من خلال الباب المفتوح وسحب قدمه ثانية. «ما هذا؟» سأل الرسامَ. «علام تعجب؟» سأل هذا متعجباً من طرفه. «إنها مكاتب المحكمة. ألم تكن تعلم بوجود مكاتب محكمة هنا؟ توجد مكاتب محكمة في كل علّية تقريباً، لماذا عليها أن تغيب هنا بالذات؟ إن مرسمي أيضاً يتبع مكاتب المحكمة أصلاً، لكن المحكمة وضعته تحت تصرفي.»** (المحاكمة، ص ١٤٢).

من خلال ذكر أبواب لا تفضي إلى الخارج كما هو مطلوب، بل إلى حجرات أخرى وفي هذه الحالة إلى حجرات المحكمة، ينشأ انطباع عن انعدام مخرج. بهذا تحصل البنية المكانية على سمة المتاهة. ليس يوزف ك. أسير محاكمته قضائياً وفكرياً وحسب، بل مكانياً أيضاً. بناء على ذلك يمكن تفسير بنية المتاهة من طرف آخر بصفتها إسباغ صفة بصرية على العلائق والأمزجة في أعماق الذات.

في **الانمساخ** كذلك تُذكر أبواب هي أبواب غرفة غريغور في شقة والديه. أول ما يلفت النظر أن للغرفة أبواباً كثيرة نسبياً قياساً على أنها ليست كبيرة على نحو خاص، ثلاثة أبواب: أحدها خلف مقدّم سرير غريغور، والثاني من ناحية الجانب والثالث من الجانب الآخر. إن الغرفة طبقاً لذلك هي غرفة ـ معبر، الأمر الذي يميز وضع غريغور داخل الأسرة، حيث إنه يُعتبر فيها قبل كل شيء معيلاً يؤدي واجباته ـ أي امرءاً يُحتاج إليه ويجب أن يكون الوصول إليه

ممكناً من كل الجوانب. وهكذا يقرع، في الفصل الأول، أفراد الأسرة الثلاثة الأبوابَ في الوقت نفسه تقريباً: الأم خلف مقدّم السرير والأخت البابَ في الجانب والأب الباب في الجانب الآخر. لكن الأبواب الثلاثة ما زالت هنا موصدة من الداخل، بحيث لا يستطيع أحد أن يقتحم غرفة غريغور. بهذا ما زال غريغور يسيطر على هذا المكان. إلا أن هذا يتغير بعد أن تمكن غريغور من فتح أحد أبواب الغرفة بعناء كبير وهكذا يتيح للأسرة الدخول إلى غرفته. بعد المواجهة الأولى الصادمة مع الأسرة، هذه المواجهة التي تنتهي بالحبس عنوة، تظل جميع الأبواب الثلاثة موصدة من جديد ـ لكن الآن من الخارج.

في الصباح الباكر، حين كانت الأبواب موصدة، كان الجميع يريدون أن يدخلوا إليه. أما الآن، وقد فَتَح باباً، وبدا أن الأبواب الأخرى قد فتحت أثناء النهار، فإن أحداً لم يأت، بل إن المفاتيح كانت توجد في الأقفال من الخارج (ج١، ص ٢٤٦).

هنا لا يتبيّن فقدان سيطرة وحسب وحقيقة أن غريغور سامسا، داخل الأسرة وداخل المجال الخاص به، إنما قد جُرّد من سلطته وتأثيره، بل إنه قد حُبس أيضاً في غرفته الخاصة به. في موضع لاحق يحس بأنه حبيس **انحباسه** (ج ١، ص ٢٤٩). وهذا أمر منطقي أيضاً.

في الحجرات والفضاءات تنعكس الأمزجة والأحوال النفسية لشخوص كافكا، التي نادراً ما تصاغ على نحو مباشر، لكن تقدَّم دائماً على نحو غير مباشر من خلال أوصاف خارجية. كافة الأوصاف البصرية هي، من طرف، عنصر لغوي من عناصر العالم الخيالي القصصي، ومن طرف آخر حامل دلالي لمضامين معينة. هذه الازدواجية هي سمة مميزة لكافة الشخصيات ولتشكيل المكان أيضاً في **المحاكمة**. كما أن الأحداث الذاتية والأمكنة التي تنعكس في نفس ك.، هي دائماً حقيقية أيضاً في عالم الرواية. على عكس ذلك، فإن الأماكن والأشخاص الذين ينتمون في المقام الأول إلى العالم اليومي الواقعي ل ك. يملكون دائماً وظيفة جانبية في ما يخص المحاكمة الجارية في نفس ك. نفسه.

وهذا يصلح أيضاً بالنسبة لرواية **المفقود** وقصة **الانمساخ**.

وهناك إشارات أخرى في **المحاكمة** تلمح إلى إمكانية تفسير أكثر راديكالية على نحو أساسي. فعلى سبيل المثال عندما يكون يوزف ك. لأول مرة في شارع يوليوس، حيث يُظن وجود مكاتب للمحكمة، ولا يكون يعرف أي طريق يسلك، ترد على خاطره الفكرة بأن كل طريق يُمكنه أن يكون الطريق الصحيح:

وأخيراً صعد الدرج الأول، وفي خياله راودته ذكرى كلمة الحارس فيلّم بأن المحكمة إنما يجذبها الذنب، الأمر الذي استتبع في الحقيقة أن حجرة التحقيق لا بد أن تقع عند الدرج الذي اختاره ك. عن طريق الصدفة. (المحاكمة، ص ٤٥).

لا يبدو إذاً أن ك. يختار الطريق الصحيح تلقائياً، بل إن الأماكن تتشكل طبقاً لقراراته. من شأن هذا أن يعني أن أماكن المحكمة تتبدل حسب زوايا نظر المدعى عليه. وقد تابع يورغن بورن إمكانية التفسير هذه، وهو يرى أن مظهر وعمل المحكمة يتوقفان على المدعى عليه، حيث إن الأمر إنما ينبثق من داخل وعيه. وترى باربارە بويتنر إمكانية مماثلة، حين تكتب: «طريقة ظهور العالم القصصي يظل مرتبطاً بإدراك الشخصيات لهذا العالم. ما تراه الشخصيات، يظهر ويتجسم؛ وموقفها يصبح حاسماً لمظهر العالم القصصي وطبيعته الخارجية.»

طبقاً لذلك، يمكن فهم الأماكن التي تُعرض لنا في النصوص على أنها صيغة بصرية للعقل الباطن للشخصيات. وهذا يوضح أيضاً لماذا تضلّ هذه الشخصيات طريقها أحياناً في بنى مكانية تماثل المتاهات ولا تعود تستطيع الخروج منها: إنها حبيسة وعيها وعقلها الباطن، الذي ينعكس في أمكنة وفضاءات. لكن تأتي الآن سمة أخرى لطريقة السرد الكافكاوية: إن الأمكنة لا ترتبط فقط بالإدراكات الذاتية ليوزف ك. أو غريغور سامسا، بل هي جزء من عالم وظيفي جرى تشكيله حسب قوانين «الواقع». إن الأمكنة توصف أحياناً بدقة، كما أنها تُدرك من قبل شخصيات أخرى وتقوم بدور أمكنة الأحداث. هنا يلتقي الواقع الوظيفي مع ما فوق واقعية تكتسب صيغة بصرية مراراً وتكراراً. كتب هاينز بوليتسر: «اختار كافكا ما فوق الواقعية المركبة من عناصر الواقعية، وحاول أن يتابع ذلك أثناء مجرى رواية **المحاكمة**.» عبر هذه الواقعية المتنامية إلى ما فوق الواقعية تحقق آثار كافكا تأثيرها المميز والمدهش إلى حد ما، وفي الوقت نفسه يتوضح أن الأماكن في **المحاكمة** أو **الانمساخ** ليست أبداً أمكنة أحداث فقط، بل هي دائماً أمكنة دلالية تقف في علائق وثيقة مع إدراك ومزاج ووعي الشخصيات.

الحركات

كما هو الحال مع الأمكنة، يصف كافكا الشخوص الثانوية في آثاره وصفاً مفصلاً؛ وهذا لا ينطبق على الشخوص الرئيسية، وذلك لأن الوصف يجري من منظورهم (السرد الشخصي). لدى وصف الشخوص الثانوية يلفت النظر أيضاً، كما لدى الأمكنة، أن هذه الشخوص تُعرض حسب مقولات «الواقع»، لكنها رغم ذلك تُزوّد أحياناً بسمات جسدية تعطي انطباعاً مثيراً للغرابة والدهشة. وهكذا تبدو جسدية الشخوص ذات حضور قوي. فمثلاً يشعر يوزف ك. في بداية **المحاكمة** أن أذى لحق به في مسكنه من جراء جسدية الحارسين.

لكن لم يكن في مقدوره أن يفكر مجرد تفكير بحضور هذين الشخصين. والمرة بعد الأخرى راح كرش الحارس الثاني ــ لا يمكن أن يكونا سوى حارسين ــ يصطدم به بحركة ودّية حقاً، لكنه إذا ما رفع نظره، فسيرى وجهاً جافاً ضامراً لا يناسب هذا الجسم

البدين مطلقاً، وجهاً ذا أنف ضخم مائل كان يتفاهم من فوقه مع الحارس الآخر (المحاكمة، ص ١٤).

إن جو المحكمة المهدِّد وذو المعالم غير الواضحة في آن لا يُظهر نفسه طبقاً لذلك في أمكنته في العلّيات فحسب، بل أثناء الاعتقال في جسدية الحارسين الموصوفة. كذلك الوقاد حاضر جسدياً في بداية رواية **المفقود**. وهو يبدو لكارل مثل **رجل عملاق** ويضيّق عليه أيضاً جسدياً:

«ابقَ وكفى»، قال الرجل ودفعه بيده على صدره بخشونة، فوقع على السرير (المفقود، ص ١٤).

إلى جانب الحضور الجسدي تبدأ الحركات والإشارات هنا تلفت النظر إليها. فالوقاد لا يدفع كارل إلى السرير بيده وحسب، بل يضرب لاحقاً أيضاً **بقبضته على الطاولة عدة مرات** (ص ١٦)، يراقص يده أو يمسك كارل من يده. مراراً وتكراراً يجري ذكر ووصف حركات وردود أفعال يمكن أن يُنسب لها دلالات ومعان معينة.

إن المصافحة ومسك اليد تُستخدم في روايات كافكا دائماً وأبداً للتدليل على الموافقة ـ لكن لا يُجاب على ذلك دائماً، الأمر الذي يمكن تفسيره غالباً كإشارة على العزلة والخلل في الاتصال. في **المفقود** يجري كثيراً مسك أيد، لكن في معظم الحالات ليس من قبل كارل، بل من الشخوص الأخرى. وبضعة أمثلة توضح ذلك: (الوقاد) **أمسك كارل من يده** (المفقود، ص ١٧)، (السيد بولوندر) **أمسك كارل من يده كي ينفذ خطته**، (كبيرة الطباخين) **هزّت يد كارل، أمسكه كبير البوابين** من يده. دائماً الشخوص الأخرى هي التي تمسك كارل من يده، ونادراً ما يأخذ هو يد آخر. بهذا تتبيّن سلبية كارل وعجزه. إنه يحتاج إلى الآخرين ويدعهم يرشدونه ويقودونه. علماً أن مسك اليد ليس ودّياً فقط، بل يمكن أن يكون أيضاً تحكماً بل معادياً تقريباً، عندما يُسحب كارل مثلاً من قبل كبير البوابين أو روبنسون. إن حركة مسك اليد هي ذات أهمية وظيفياً من حيث إنها تظهر دائماً في مواضع اتصال درامية، مثلاً عندما يأخذ الوقاد كارل من يده إشارة إلى الظهور المشترك أمام قبطان السفينة، أو عندما يقوده السيد بولوندر من يده بعيداً عن الخال، الذي لن يراه بعد ذلك. يمكن لحركة مسك اليد إذاً أن تُفهم دلالياً وبنيوياً بصفتها حافزاً بصرياً مركزياً يقدم استعلاماً عن العلاقات بين الشخوص وتشير فوق ذلك إلى مواقف تحوّل.

إن المصافحة في **المحاكمة** هي التي تكتسب وظيفة دلالية مركزية. ويوزف ك. هو هنا الذي يبحث صراحة عن فرصة للمصافحة كإشارة على الموافقة وإقامة اتصال، وغالباً لا يجد هذه الفرصة. وهذا ما يُذكر مباشرة:

«والآن يا سادتي»، نادى ك.، وقد بدا عليه طوال لحظة كأنه يحمل الجميع على كتفيه، «حسب مظهركم يفترض أن مسألتي قد انتهت. وأنا أرى أنه من الأفضل عدم التفكير بعد الآن في مشروعية أو لا مشروعية تصرفكم، وأن ننهي المسألة نهاية تصالُح بمصافحة متبادلة. إذا كنتم ترون رأيي، فأرجو ...»، وتقدم إلى طاولة المراقب ومدّ له يده. رفع المراقب عينيه، عضّ على شفتيه ونظر إلى يد ك. الممدودة؛ وكان ك. ما زال يظن أن المراقب سيصافحه. لكن هذا نهض واقفاً، تناول قبعة قاسية مستديرة ... (المحاكمة، ص ٢٠).

وبعد قليل يحدث ل ك. الأمر نفسه مع السيدة غروباخ:

«لكن عليكِ الآن أن تمدّي لي يدك، لا بدّ لمثل هذا التوافق أن يتعزّز بمصافحة.»

فيما إذا كانت ستمدّ لي يدها؟ المراقب لم يمدّ لي يده، فكر ونظر إلى المرأة على نحو مغاير عن السابق، نظر إليها متفحصاً (المحاكمة، ص ٢٥).

عبر استرجاع هذه الفكرة وحده يتوضح مدى أهمية المصافحة بالنسبة ل ك. لكن السيدة غروباخ أيضاً لا تلبّي رغبته بالتوافق. من ثم يبقى ك. معزولاً، لا يحدث اتصال حقيقي ولا توافق مع البشر الذين يعيش معهم. وكذلك محاولته الأخيرة قبيل إعدامه برفع يديه وفرج ما بين أصابعه رامياً إلى إقامة اتصال مع إنسان يبدو كالطيف **في البعد والعلوّ**، هذه المحاولة أيضاً تمنى بالفشل. يوزف ك. يظل في الموت أيضاً إنساناً معزولاً وهامشياً.

غريغور سامسا معزول إلى حد أنه لا يحدث أي اتصال بدني بينه وبين أسرته. بل يجري تهديده مرات متكررة بالقبضة المرفوعة. هذه الحركة أيضاً تقوم بدور حاسم في سير القصة، إذ إن التهديد بهذه الطريقة يصدر أولاً عن الأب، لكن في ما بعد تهدده الأخت أيضاً بالقبضة المكوّرة، الأمر الذي يشير إلى تحوّلها عن غريغور واضطلاعها بمركز رئيس الأسرة.

لكن مسك اليد، والمصافحة والتهديد بالقبضة هي أمثلة مفردة من قائمة كاملة من الحركات والإيماءات وأوضاع الجسد، التي تبيّن مراراً وتكراراً علاقات الشخوص بينها وبين بعضها ومواقعها ووضع حدود لها. بهذا تُضفى صبغة بصرية على العلاقات بين البشر، هذه العلاقات التي تظل في النصوص دون تسمية إلى حد كبير. إن وصف الشخوص وجسديتها وحركاتها يبيّن إمكانية تفسيرها دلالياً على عدة مستويات.

تلقٍّ بصري

في رواياته الثلاث غير المكتملة وفي معظم قصصه يسرد كافكا من منظور شخص واحد. هذا يعني أن هذا الشخص نفسه يرى، يسمع ويتلقى ويعرف كل ما يجري سرده ووصفه في

الرواية أو القصة. ولأن النصوص تحتوي على أوصاف كثيرة ودقيقة، على نحو لافت للنظر، لأماكن وشخوص وحركات وأشياء وأدوات، فإنه يمكن استخلاص أن الشخوص إنما تتلقى محيطها تلقياً بصرياً قوياً. غير أنها في معظم الحالات ليست في وضع يسمح لها بتحويل هذا التلقي البصري إلى إدراك ذواتها والظروف المحيطة بها. وفي مجرى الحدث تتناقص فرصة الإدراك بصورة مطردة، الأمر الذي يُستبان من تناقص القدرة على الرؤية باطراد لدى شخص مثل غريغور سامسا أو يوزف ك.. إن إدراك غريغور يتضاءل مع كل يوم من أيام حياته كحشرة. **فالحق أنه راح يرى بوضوح أقل، يوماً بعد يوم، الأشياء التي لا تبعد عنه إلا قليلاً** (ج ١، ص ٢٥١). إن تحوّل غريغور سامسا إلى حشرة يمكن تفسيره باعتباره فرصة لإدراك ذاته ووضعه السابق بائعاً متجولاً ومعيل أسرة مؤدياً لواجباته. غير أن غريغور يفوّت استغلال هذه الفرصة تفويتاً تاماً؛ فهو لا يمعن الفكر في نفسه ولا في أسرته. إن غياب هذا الإدراك والتضاؤل البطيء لفرصة الإدراك يتمثل بصرياً في كفاف بصر غريغور.

وكذلك تلقي يوزف ك. لا يفضي بالكاد إلى إدراك. مراراً يعزم على المراقبة بدقة أكثر، الأمر الذي يخفق فيه منذ مشهد الاعتقال:

حاول في بادئ الأمر بصمت أن يعرف حقيقة الرجل بالانتباه والترّوي، لكن هذا لم يعرّض نفسه لنظراته طويلاً، بل اتجه صوب الباب، الذي فتحه قليلاً (المحاكمة، ص ١٣).

في الطريق إلى التحقيق الأول يعقد العزم، على غير عادته، **على أن يراقب أكثر مما يتكلم (المحاكمة، ص ٤٨)**. غير أن هذه المحاولة أيضاً تمنى بالفشل، وفي المناسبة التالية يكون ك. مرهقاً أكثر من أن يقوى على النظر بدقة:

«ها أنا قد رأيت كيف يبدو الحال هنا، والآن أريد أن أنصرف.» «لم تر كل شيء بعد»، قال حاجب المحكمة ببراءة تامة. «لا أريد أن أرى كل شيء»، قال ك.، الذي شعر فعلاً بالتعب (المحاكمة، ص ٦٩).

إلى عجز ك. عن الإدراك يُضاف هنا إذاً عدم اهتمامه باستكشاف. لا سيما في فصل **الكاتدرائية** يجري صياغة موضوع إمكانية الإدراك والقدرة عليه بدقة أكثر من خلال زاوية بصرية أخرى: تعارض الضوء والظل، هذا الموضوع الذي يرد أيضاً في الفصول الأخرى. يرى هاينز بوليتسر في كتابه «فرانز كافكا، الفنان»، الصادر عام ١٩٦٥، أن الضوء والظل إنما يمثلان المعرفة والجهل، الإدراك وعدم الإدراك؛ لذا فهو يفسر الضوء الخافت في دوائر المحكمة كإشارة على المجال الوسيط بين الإدراك والجهل. إن لقاء يوزف ك. مع القس وحكايته عن

حارس الباب يمثل بالنسبة له الإمكانية الأخيرة لإدراك وضعه. لكن ك. **كان مجهداً أكثر من أن يتمكن من أن يحيط باستدلالات القصة جميعها، كما أن القصة قادته إلى استدلالات غير مألوفة، أشياء غير حقيقية، تناسب لتكون حديثاً لمجلس أنس موظفي المحكمة أكثر مما تناسبه** (**المحاكمة**، ص ١٠٨). طبقاً لذلك ما يزال يوزف ك. لا يدرك أن الهدف من رواية القصة هو أن تقوده إلى إدراك ذاته وقضيته. إن غياب هذا الإدراك وتضاؤل الفرصة الأخيرة للإدراك في آن إنما يتمظهر في تزايد الظلمة في الكاتدرائية، التي تطفأ فيها جميع مصادر الضوء. صحيح أن الأنوار المضاءة في الكاتدرائية ـ **في البُعد شعّت أضواء شموع على شكل مثلث كبير فوق الهيكل الرئيسي** أو **شمعة عالية مثبتة على عمود** (**المحاكمة**، ص ٩٨) ـ تُرى من قبل ك.، إلا أن الضوء لا يكفي لإضاءة المكان ولا حتى صور الهيكل: **بل كان بالأحرى يزيد الظلمة**. و **إذ عمّ الظلام بحيث ما كاد في مقدوره، إذ رفع نظره، أن يميز جزئية من جزئيات الجناح القريب** (**المحاكمة**، ص ٩٨). ولدى محاولة ك. للتعرف على صورة الهيكل **بمصباح الجيب الكهربائي الذي يحمله**، يخطف هذا بصره؛ وبالمثل يزعجه **الضوء الأبدي** المعلق أمام الصورة (**المحاكمة**، ص ٩٩). إن مصادر الضوء الموجودة تخطف بصره إذاً بالأحرى وتربكه أكثر مما تضيء له. خادم الكنيسة يطفئ لاحقاً كل الشموع ومصباح القس هو المصدر الوحيد للضوء في الكاتدرائية. هذا المصباح يناوله القس ك. كي يحمله، لكنه ينطفئ **في يده منذ فترة طويلة** (ص ١٠٨). في الكاتدرائية تسود الظلمة ـ تستخدم هذه الكلمة عدة مرات ـ لدرجة أن **ك. التصق بالقس دون أن يعلم في الظلمة أين يتواجد** (**المحاكمة**، ص ١٠٨). إن انطفاء الأنوار وانطفاء المصباح في يد ك. يشير إلى الفرصة الضائعة للإدراك والمعرفة. إن إدراك ك. قد تقلص إلى حد أن النور لم يعد يضيء له شيئاً، بل يُظلم أو يخطف البصر. إن المصباح المطفأ في يد ك. يشير إلى أن فرصته الأخيرة لفهم المحكمة او محاكمته قد ضاعت نهائياً.

إن قدرة الإدراك المقيدة وضعف قوة النظر لدى الشخوص في روايات كافكا عولجت في أبحاث كثيرة. هنا يتوضح على نحو مخصوص وصف حدث الإدراك وإمكانيات التفسير الناجمة عن هذا الوصف بناء على تأمل صورة الهيكل:

لم يكن بالإمكان رؤية شيء، كان سيكون على المرء أن يكتفي بتفتيش بعض الصور بوصة بوصة بمصباح الجيب الكهربائي الذي يحمله ك.. ولكي يجرب ما يمكن للمرء أن يتوقع من ذلك، ذهب ك. إلى مصلّى جانبي صغير قريب، وصعد بضع درجات حتى بلغ حاجزاً رخامياً واطئاً، فانحنى فوقه وأضاء صورة الهيكل بالمصباح. وكان الضوء الأبدي معلقاً أمامها حاجباً الرؤية. وكان أول ما شاهده ك. وخمّن بعضه هو فارس طويل مدرّع

كان مصوّراً في أقصى حافة الصورة. كان يستند على سيفه الذي غرزه في الأرض الجرداء أمامه حيث لم يكن يظهر سوى بعض سويقات العشب. وبدا أنه يراقب باهتمام حدثاً يجري أمامه. وكان مما يدعو للاستغراب أنه ظل واقفاً هكذا ولم يقترب. ربما كان مكلفاً بالحراسة. وراح ك.، الذي لم يكن قد شاهد لوحات منذ مدة طويلة، يتأمل الفارس طوال فترة، رغم أنه كان مضطراً إلى أن يطرف بعينيه على الدوام، إذ إنه لم يكن ليحتمل الضوء الأخضر للمصباح. وحين ترك الضوء يدور فوق بقية الصورة، وجد مشهد دفن المسيح في منظرٍ عاديّ؛ وللمناسبة، لقد كانت صورة حديثة. دسّ المصباح في جيبه وعاد إلى مكانه ثانية (المحاكمة، ص ٩٩).

كون روايات كافكا الثلاث ونصوص أخرى كثيرة له غير مكتملة يتطلب من القارئ القيام بإغلاق بعض الثغرات والقفزات من خلال تفسيره الشخصي. إن الفراغات في نصوص كافكا غير المكتملة تتيح نشوء عدة قراءات إلى جانب بعضها. إن ربط الواقع بما فوق الواقع في الأوصاف لا يسمح سوى بتعدد تفسيرات النص. إن نصوص كافكا تدعو إلى تفسيرها، ورغم ذلك يتعينّ أن تُترك في تعدد تفسيراتها. وبالذات بصرية النصوص توضح هذا التجاور في تركيبها من عناصر الواقع وما فوق الواقع.

خلاصة

توضح هذه الأمثلة القليلة المنزلةَ المركزية التي تأخذها البصرية في آثار كافكا. وقد حاولت الدراسات عن كافكا تتبع هذه الظاهرة مراراً وتكراراً. إن انفتاح نص كافكا، وتلاقي أحداث واقعية فيه مع أحداث فوق واقعية على نحو جذري، والسرد الذي يخلو من أية تعليقات أو إيضاحات، أثارت دائماً شتى التفسيرات. وفي حالات كثيرة أبعدت هذه التفسيرات القارئ عن النص أكثر مما قادته إليه. هنا أرى التفسير القريب من النص لطريقة العرض البصرية كفرصة لإغلاق بعض ثغرات الفهم إغلاقاً جزئياً. إن إحدى السمات المميزة لطريقة كافكا في الكتابة هي ولا ريب التركيز على السرد من منظور واحد يحول دون التعليق على الحدث ولا يقول شيئاً تقريباً عن انفعالات الشخص الرئيسي وتأملاته. أفكاره ومشاعره لا تصاغ على نحو مباشر. ليس على نحو مباشر ـ لكن على نحو بصري. إن كل ما يصفه النص من مظاهر هو دائماً تلّقي الشخص الرئيسي وإدراكه. عبر هذه التوصيفات البصرية لا يتشكل العالم الافتراضي وحسب، بل هي تحيل أيضاً إلى ما يراه كارل، غريغور ويوزف ك. ـ هنا تصبغ رؤيتهم الذاتية للعالم، هذه الرؤية التي غالباً ما تكون رؤية منحرفة، بصبغة بصرية. إن أفكار الشخص الرئيسي وانفعالاته غير المصوغة على نحو مباشر تصل إلى القارئ عبر وصف التلقي

البصري، هذا التلقي القابل للتفسير في هذا السياق. إن نص **المحاكمة** غير المكتمل يظل بالنسبة للقارئ مؤلفاً من أجزاء قابلة للتركيب والتفسير على نحو متنوع، وذلك مثل رؤية وتلقي يوزف ك. في الرواية. ويمكن قول ذلك عن الروايتين الأخريين غير المكتملتين **المفقود والقلعة** وعلى قسم من القصص. إن مدخل قراءة عبر التلقي البصري المذكور يعيد القارئ إلى النص أكثر ويدعوه في وقت واحد إلى أن يقبل الوضع في حد ذاته: إمكانية تعدد التفسير وتجاور الواقع وما فوق الواقع.

٢٠٠٩

سندره بوبه

Sandra Poppe

١٠ - ثنائية الأدوار النسائية

إغراء وصراع

الجملة الأولى في رواية **المفقود** تعالج موضوع الإغراء من قبل الخادمة يوهانّا برومّر، والجملة الثانية تذكر تمثال إلهة الحرية ... الذي يحمل سيفاً بدلاً من مشعل. بهذا يجمع كافكا منذ البداية رمز المرأة الذكورية مع المرأة الغاوية. إن فعل فضّ بكارة كارل يُذكر في جميع الدراسات على أنه «اغتصاب» ويجري تقييمه بصفته سبباً بسيكولوجياً للقرف الذي يحسه كارل من الحياة الجنسية النسائية وانعدام اهتمامه بهذه الحياة طوال الرواية. الطريقة التي تعامل بها الخادمة ذات الخمسة والثلاثين عاماً كارل ذا الخمسة عشر عاماً ... **طوقت عنقه على نحو خانق، وتلمّست بيدها بين ساقيه على نحو تعافه النفس وألقت بطنها عليه وضغطته عدة مرات**، هذه الطريقة تدع كارل يتملكه **شعور مخيف بالحاجة إلى مساعدة**، الأمر الذي يدعه ينتحب. من طرف آخر ترقده في فراشها، **وكأنها تريد ألا تتركه بعد الآن لأحد وتداعبه وترعاه حتى نهاية العالم** (ص ٢٩). تماماً هذا اللعبة المتبادلة المؤلفة من خنق ورعاية تعمل يوهانّا ممثلة للأم الذكورية، إذ إنها أم حانية كما هي مغتصِبة. في حين تضطلع بالدور «الرجّالي» التقليدي السائد، يجري تأنيث كارل وتُفرض عليه وصاية، وذلك لسلوكه الخائف والساذج والسلبي. في هذا المشهد لا يجري إعادة تقييم لأدوار الجنسين التقليدية وحسب، بل يجري أيضاً تبادلها بشكل عام: يجري عرض اختلاف الجنسين بالمعنى الكلاسيكي على أنه قابل للتبادل وللتغيير.

بنية حدث مماثلة تحدث في عزبة السيد بولوندر، الأمر الذي يشير إلى نوع من عودة النساء في الرواية كنغمة أساسية: امتداد لقاء كارل مع نساء ينبعث منهن نوع من التهديد من الناحية الجنسية. ابنة بولوندر، كلارا تحاول أن تسحب كارل إلى حجرتها بالقوة، حيث يوفق في البداية أن يعارضها بل يهرب منها. لكن في هذا الموضع يتغير الموقف وتبدو كلارا أكثر قوة وتهديداً. تزجر كارل وتصفق على جونلتها، في حين يظل أسير قواعد التهذيب ويتساءل فيما إذا كانت **صدمته في صدره عمداً أو انفعالاً وحسب** (ص ٥١). يمكن القول أيضاً بأن

كارل يظل في البداية رهن قواعد أدوار الجنسين التقليدية، وذلك لأنه يريد أن يتصرف كضيف مهذب وجنتلمان، وبالمقابل يبدو أنه ينتظر من كلارا تصرف سيدة مضيفة.

لكن فيما تلا تقوم كلارا بالدور «الرجّالي»: **فعلاً احتضنته وحملته ... بجسمها القوي من الرياضة حتى النافذة تقريباً** (ص ٥١). بقوتها **المتنامية وبتقنية قتال غريبة** تضعه على الأريكة وتشرع في خنقه بقوة وتهدده **بصفعة شديدة**. مما يلفت الاهتمام أن حركة الخنق المعروفة منذ يوهانّا برومّر، هذه الحركة التي تظهر في هذا المشهد بقوة أكثر والتي لا بدّ أن تبدو لكارل قليل الخبرة جزءاً ثابتاً من إغراء الأنثى. هنا أيضاً يجري تأنيث كارل وتُفرض عليه وصاية. إن الإغراء الذي يبدو بالأحرى، في بعض المواضع، مثل صراع يهدد الحياة، يدع كلارا تبدو وكأنها تحولت إلى رجل، في حين أن كارل يبدو مهدداً بأن يتحول إلى طفل عاجز. إن أدوار الجنسين الموروثة تتبادل بعضها، وتضطرب أكثر في الخطوة التالية.

كلارا لا تبقى حبيسة دور المصارِعة، بل تجمع صراعها مع شهوانية عنيفة. **في لباسها الضيق ... ووجهها المنفعل يلاصق وجهه**، تعده بأن تعطيه **شيئاً جميلاً** (ص ٥١). إن كلارا تفهم إذاً أن تختار من أدوار ممكنة كثيرة ذلك الدور الذي تريد أن تحقق به هدفها: مرة بعنف «رجّالي» فظ ومرة بشهوانية «نسائية» مغرية. في شخصية لني في **المحاكمة** يجمع كافكا المرأة الذكورية مع عناصر من المرأة التي تسحر الرجال وتودي بهم. لني تقوم إذاً بدور الغاوية الشهوانية التي تنزع إلى العنف الوحشي لامرأة ذكورية. ولا ريب أنه يمكن نقل هذا على كلارا، الأمر الذي يوضح أنه يجري في الرواية إثارة الارتباك في أدوار الجنسين المألوفة.

إن سؤال كلارا الختامي العاتب **ألا أعجبك؟** يبيّن أنها قد فوجئت بعدم نجاحها لدى كارل بأية واحدة من استراتيجياتها في الإغراء. وبالفعل فإن القارئ أيضاً يلاحظ انعدام اهتمام كارل بأية ناحية جنسية. كل محاولات تقرّب من قبل الشخصيات النسائية لا تؤثّر عليه في شيء ويصدّها مغتاظاً، والتصرفات الجنسية الفعلية تفزعه، وهو غير قادر على إنتاج تخيلات جنسية أو حتى قبولها. إنه أيضاً أصغر سناً من أن يفعل ذلك.

قصة برونيلدا

العصابة الثلاثية الذكورية، دِلامارش وروبنسون وكارل، تتشتت في قصة برونيلدا: دِلامارش يصبح عشيق برونيلدا، والآخران يصبحان خادمين عبدين لهما. وفي حين أن دِلامارش يقف إلى جانبها مغرماً بها، وروبنسون يُعجب بها فيقول عنها: **«إنها امرأة رائعة** (ص ١٤٦) ... **جديرة أن تُلعق لعقاً، أن تُشرب. آه يا إلهي، يا إلهي كم كانت جميلة»**، فإن كارل يصف شكل برونيلدا بطريقة مباشرة متزنة لا تُجمّل بدانتها بل تعرضها كغير جميلة. وما يلفت النظر

أن اللون الأحمر هو اللون السائد في شقة برونيلدا كما في ملابسها، الأمر الذي يُبرز جو بيوت البغاء. بيد أن وقوف برونيلدا **بساقين منفرجتين إلى حد بعيد** (ص ١٦٥) وانكشاف ثوبها الأحمر (ص ١٤٣) وكيف **راحت تحرك لسانها الأحمر الضخم بين شفاهها يميناً ويساراً** (ص ١٨١)؛ هذه الحركات توحي بأنها مصفّاة عبر منظور كارل وتبدو منفّرة ومبتذلة. في عصر كافكا كانت كل من المغنية والخادمة تُتّهم بممارسة حرية جنسية بالمعنى السلبي. وهذا يجري التعبير عنه في عرض برونيلدا ويوهانّا برومّر. لكن كارل لا يستسلم في أية لحظة لاستراتيجيات الإغراء التي تمارسها النساء. شهوانيتهن تبوء بالفشل، ربما لأول مرة. هنا يُكشف القناع عن استراتيجية الإغراء، هذه الاستراتيجية المحسوبة، وتُقلب إلى استراتيجية مضحكة تقريباً.

لأن كارل هو الذكر الوحيد من الحاضرين الذي تثير فيه شهوانية برونيلدا قرفاً بدلاً من إثارة جنسية، فإن براءته تصبح أكثر وضوحاً. المشهد الأساسي الذي يدلّ على ذلك هو عندما تحبس برونيلدا كارل بمعنى الكلمة بينها وبين درابزين الشرفة «**وبتنهيدات كبيرة ... راحت تداعب قميص كارل،** في حين **راح يحاول على نحو لا يكاد يُحسّ به أن يدفع عنه هاتين اليدين الصغيرتين البدينتين** (ص ١٥٨). ورغم أن كارل يحس ضيقاً بوضوح، فإنه يدع نفسه يُستحوذ عليه كلياً. ويجري تصغيره من خلال سؤال برونيلدا «**كيف يعجبك الأمر، أيها الصغير؟**» (ص ١٥٩). تضغط كارل بشدة إلى الدرابزين، **وكان عليه أن يتعارك معها لكي يتخلص منها** (ص ١٦١). لكن حتى عندما **حاول بكل قوة أن يتخلص من ضغط برونيلدا،** لا يبقى له سوى الرجاء. يبدو على كارل أنه فتى ضعيف وعاجز، وبهذا يصبح تابعاً لبرونيلدا القوية والشهوانية. وهي بهذه القوة والشهوانية إنما تجسّد الإغراء «النسائي» والعنف «الرجّالي»، الأمر الذي يطمس الحدود بين الجنسين، وهذا الاندماج يدع برونيلدا كامرأة تهيمن على الشخصيات الذكورية الثلاث هيمنة «رجّالية»: اثنان يخضعان لها متيّمان بها والثالث يضطر للخضوع لقوتها وللنظام التراتبي.

لكن كارل لا يخضع ضمنياً لشهوانيتها الضاغطة، لا يستشعر لطفها سوى **مضايقة،** لا يدع منظارها، رمزياً، يفتح له عينيه. هذا يعني أنه يظل في دور الطفل البريء. بل إنه يشعر بالخجل والحرج ولا يتحمل الوضع عندما يتبادل دِلامارش وبرونيلدا المداعبات أمامه (ص ١٥٨). إذا ساوينا رمزياً دنس برونيلدا الأخلاقي مع وسخ منزلها، فإن خُلق كارل البريء يجد هنا أيضاً تعبيراً عن نفسه، عندما يسعى كارل وحده إلى ترتيب كل شيء، ولا يشعر بأية راحة في هذه الفوضى. على خلاف برونيلدا التي ترقد طوال الوقت على الأريكة وتغرق كلياً في **كثافة الغبار** (ص ١٥٥).

بالمقارنة مع فصل **فندق أوكتسيتندال**، بشخصيتيه النسائيتين، كبيرة الطباخين الودودة والراعية وتيريزه الوديعة والبريئة، تبدو برونيلدا ومسكنها أكثر جسامة وسوءاً. هذا البيت الذي تسوده الفوضى والقذارة هو النموذج المضاد كلياً لعالم الأجهزة والعقلانية لفندق أوكتسيتندال، هذه المؤسسة الضخمة التي يديرها الرجال بنظام صارم، وتسير أمورها بدقة. هنا يتوضح التقسيم الآليّ للبنى الثنائية: تقنية، عقلانية، نظام، صرامة وإدارة رجالية ناجحة كلياً مقابل فضاء محدد نسائياً تسوده الفوضى والأوساخ.

لكن هذا التفسير لا يستقيم. في الحقيقة إن كلاً من النظامين هو نظام استبدادي. إن تحكّم برونيلدا هو تحكّم غاشم مثلما هي ميكانيكية عمل الفندق. لا يوجد سوى «السلطة»، وهذه السلطة لا تختلف بين سلطة نسائية وسلطة رجالية. إنه من غير الممكن التمييز بين سلطة بطريركية وسلطة أنثوية، لأن السلطتين تملكان السمات ذاتها، لكن بهذا يجري توديع أسطورة السلطة البطريركية.

لكن الجدير بالملاحظة في تسلط برونيلدا أن هذه المرأة لا تستمد سلطتها من علاقتها برجل، فهي **امرأة مطلقة، تملك ثروة طائلة وكانت مستقلة على نحو تامّ** (ص ١٤٩). هذه الشخصية تجمع التناقضات والصفات الرجالية والنسائية. فمن طرف هي **سيدة ثرية وراقية للغاية** (ص ١٤٩)، ومن طرف آخر فإنها لا تتصرف تصرفات سيدة مع هدية من زوجها السابق، **شيئاً من منتجات الخزف لا يقدّر بمال ... قذفته على الأرض في الحال، وراحت تدوس وتبصق عليه وعملت به بعض الأمور الأخرى، بحيث أن الخادم لشدة قرفه كاد لا يستطيع أن يحمله إلى الخارج** (ص ١٥٠). من طرف تُذكر طاقتها الرهيبة وضخامتها الجسدية، ومن طرف آخر جاء: **إن طبيعتها ضعيفة للغاية رغم بدانتها، وغالباً ما تعاني من الصداع، ومن التهاب المفاصل في الساقين دائماً وأبداً تقريباً** (ص ١٤٧). مرة هي متجبرة ومرة هي خليعة، تلوّح في موضع آخر بسروالها الداخلي فوق رأسها، ويُخطب ودّها وتُجلّ من قبل دِلامارش وروبنسون. ظهورها متعدد الجوانب وغير واضح بحيث إنه لا يعود يسمح بتحديد جنس ثابت لها.

إن سطوتها هي تجسيد للتركيبة التي تُطمس فيها حدود أدوار الجنسين. وأكثر ما يوضح هذا التقاطع وعدم تحديد كل دور من أدوار الجنسين هو الصفة المزعومة لبرونيلدا كمغنية. روبنسون يعلنها **مغنية كبيرة** (ص ١٤٩)، لكن إذ يمنعها الجيران من الغناء، فإنها تستخدم صوتها بطريقة أخرى **وتبدأ بالصراخ على نحو رهيب، مثل رجل، وتستمر في الصراخ طوال ساعات** (ص ١٥٥).

إذا لخّصنا العلاقات التي تظهر في مسار الرواية، ليس بين كارل وأشخاص آخرين وحسب، بل بين شخصيات أخرى وبعضها غير كارل، فإننا نلاحظ أنه لايُحافظ في أية مرة على توزيع أدوار الجنسين التقليدية بشكل ثابت من البداية إلى النهاية. ما من شخصية من شخصيات الرواية تظل على علاقة واضحة وثابتة مع كارل. علاقات ودية وطهرية في البداية تكتسب دلالات جنسية وتغيّر لدى ذلك باستمرار توزيع الأدوار بين الشخصيات. أدوار الجنسين تظهر غير محددة تماماً، بل تبدو ديناميكية. كافكا يعمل مع كمية كبيرة من السمات النسائية الكلاسيكية كما الرجالية الكلاسيكية ويُبطل مفعولها التقليدي. لا سيما برونيلدا تجمع طيفاً كبيراً من الصفات المتناقضة ظاهرياً لا تسمح بتصنيفها تصنيفاً نمطياً ثابتاً حسب الجنسين. وبناء على هذه الثنائية تميع الأدوار المعارضة الواضحة: الشخصيات النسائية تقوم بالتناوب بأدوار قوية وضعيفة، متجبرة وغاوية في الوقت نفسه. تكتسب صفات رجالية وبهذا تعطّل مفعول التراتبية في كلا الدورين النسائي والرجالي.

لا يظل كافكا وفياً لأدوار الجنسين الموروثة، بل يعكس صوراً متنوعة في شخصية واحدة، ثم يخلطها أو يقلبها إضافة إلى ذلك. إن التحديدات الواضحة تصبح غائمة، الأدوار الثابتة السائدة تُكسر.

هذه الملاحظات نشأت انطلاقاً من الوقت الراهن، فلا يجوز إذاً أن ننسب إلى كافكا مقاصد ثورية نسائية(*).

٢٠٠٦ ألكسندرا أوسفلد

Alexandra Oswald

(*) هذا مقتطف من دراسة تقع في ست عشرة صفحة كتبتها الطالبة في عامها الدراسي الثالث، وقدمتها في حلقة دراسية بعنوان «فرانز كافكا: قصص ونصوص». وثمة دار نشر متخصصة في نشر كل دراسة أو أطروحة جامعية تقدم لها وبيعها لمن يطلبها. والطالب يحصل على نسبة مئوية من ثمن المبيع. ثمن النسخة الواحدة من هذه الدراسة هو ١٢ يورو (ا. و).

III - أحاديث عن كافكا

١ ـ حديث مع مخرج سينمائي فرنسي

ـ السيد شتراوب، متى قرأت كافكا لأول مرة؟

جان ـ ماري شتراوب: Jean - Marie Straub لم أقرأ كافكا في شبابي. كنت أصغر من أن أقرأه. ما كتبه كافكا لا يصدر سوى عن شاب. لكن حتى يحس المرء على نحو صحيح أو يكشف ما يكمن في كافكا، لا بدّ له من أن يكون على حافة القبر. ثم: إن كافكا غير موجود في اللغة الفرنسية. وليس الأمر نكتة، عندما يقول المرء: إنه من السهل ترجمة هولدرلين أو برشت أو ماركس إلى الفرنسية (أو مالارميه إلى الألمانية)، لكن ترجمة كافكا أمر غير ممكن. كافكا في الفرنسية هو مثل نفق، أما في الألمانية فإنه في غاية الوضوح.

ـ ما سبب ذلك؟

شتراوب: لأن الكتّاب يختلفون عن المترجمين اختلاف النهار عن الليل.

ـ تعني أنه يمكن ترجمة كافكا مبدئياً؟

شتراوب: نعم، لكن فقط إلى نقطة معينة لا يقدر المترجم أن يتجاوزها مهما كان كفؤاً. غير أن المترجمين لا يحبون اكتشاف هذه النقطة ولا أن يصلوا إليها في أي حال. وحتى إذا حدسوا النقطة، فإنهم يفعلون كل شيء حتى يخفوها أو يتجنبوها. إن كافكا هو في الحقيقة شاعر واقعي، ومثلما هو الحال لدى جبل الجليد، لا يظهر فوق الماء سوى القسم العلشر، وهذا القسم قائم على مبدأ الطبيعية. وأصعب ما يمكن فعله في سائر مجالات الفن هو الطبيعية. وهذا لا يمكن نقله في ترجمة.

ـ ما الأهمْ في كافكا، الواقعي أم الطبيعي؟

شتراوب: ما هو الأهم في جبل الجليد، ما تحت الماء أم ما فوقه؟

ـ حسب الحالة: إذا رأيته من بُعد، لا ترى سوى جماله؛ أما إذا اقتربت منه، فإن الأكثر أهمية

هو معرفة ما تحت الماء.

شتراوب: إذا كنت سمكة، فإن الأهم هو ما تحت الماء.

ـ هل أنت سمكة؟

شتراوب: نعم، بالتأكيد.

ـ كيف تعرّف الواقعية؟

شتراوب: أظن أنه لا يوجد واقعية دون أن يقلب المرء جبل الجليد على رأسه. يمكن القول بأن جبل الجليد إنما يملك جذوراً. حتى يرتفع عشر الجبل عالياً هكذا فوق سطح الماء، لا بدّ من وجود قاعدة عميقة وعريضة تحت الماء. يجب قلب مفهوم الواقعية. من يريد بلوغه، عليه أن يملك تسعة أعشار جذور، والتي هي قائمة على مبدأ الطبيعية، أي إنها مرتبطة بالطبيعة والمجتمع. المدهش في كافكا هو أنه عكس ما قيل عنه. إنه أقل ما يكون ميتافيزيقية ولا واقعية. على العكس، إن كل علاقة لديه هي واقعية عميقة، بل يومية. هناك تعريف قديم للواقعية: نبش الحقيقة من خرائب البديهيات. قال ذلك شخص يدعى ب. ب (برتولد برشت. ا. و) إن المدهش في كافكا هو أنه كان الشاعر الأول (وحتى الآن الوحيد على الأرجح) لما يسمّى المجتمع الصناعي.

ـ رغم أنه لا يصف معامل وأماكن عمل بروليتارية، لكنه يصف بيروقراطيات وظروف تبعية ...

شتراوب: نعم، كما أنه يقول: نظام التبعيات هو جزء من الرأسمالية. وما من شاعر آخر وصل إلى أبعد من ذلك. مما يدهش: كتب كافكا رواية **المفقود** ونشر فصلها الأول **الوقاد** في عام ١٩١٢. ولم تكن الأزمة الاقتصادية العالمية قد انفجرت. وعما يدور الحديث في الرواية؟ فقط عن أناس يشعرون بالخوف من فقدان أماكن عملهم. وعجز الناس ليس قدراً كتب عليهم، وإنما هو شيء أنتجه المجتمع الصناعي. إن كافكا لا يصف المجتمع الصناعي، لكنه يصف أناساً يعانون من المجتمع الصناعي.

ـ لكن هناك عدداً لا يحصى من التفسيرات الميتافيزيقية ـ الدينية للرواية.

شتراوب: إذ عرفت مثل هذه التفسيرات، لم أقرأ كافكا. وعندما قرأته، لاحظت كم أنه لا علاقة له بكل هذه التفسيرات.

ـ لا تفسير رمزياً إذاً؟

شتراوب: لا. ربما اضطر كافكا أن يكافح مع مثل هذه المشكلات. لكن هناك جملة منه تقول: **الاستعارات هي واحدة من الأمور الكثيرة التي تدعني أصاب باليأس من الكتابة.** لكن هناك، وأنا أعود إلى السؤال الأول، أمر آخر قادني إلى كافكا. كنت لن أجد الطريق إليه لو لم أقرأ بافيسي Pavese (١٩٠٨ ـ ١٩٥٠ كاتب ومترجم إيطالي نفي من بلاده لأُسباب سياسية ومات انتحاراً. ا. و.) ثمة أمور مشتركة بين الاثنين. توفيا في السن نفسه. الأول انتحر والثاني كان يتحدث دائماً عن ذلك. كما أن ثمة تقارباً سياسياً بينهما. إن المرأة التي كانت أقرب إنسان إلى كافكا كانت شيوعية.

ـ ميلينا.

شتراوب: نعم. وهذا ليس مصادفة. طبعاً لا أريد أن أعمل من كافكا شيوعياً.

من الجائز أيضاً أن يكون الأمر مثل وميض برق، مثلما يوجد لحظات مشابهة كثيرة في حياة إنسان. هكذا كان الأمر بالنسبة لي. ومن الأفضل وضع ذلك دون تفسير. بعضهم يجد أسباباً، وبعضهم يقول: يا للغرابة! إن الجانب الميتافيزيقي لدى كافكا لم يثر اهتمامي، بل إنه أثار نفوراً في نفسي. وطبعاً هذا الجانب حاضر في كافكا، إذ لا دخان بلا نار. وللمناسبة: كافكا وبافيسي يشتركان في نقطة أخرى: الوهن والعجز. أعتقد أن أعظم رواية في العالم هي **القلعة.**

ـ لماذا لم تخترها موضوعاً لفيلم؟

شتراوب: هذا غير وارد. إنها قائمة بذاتها.

ـ يعني أن رواية **المفقود** غير قائمة بذاتها؟

شتراوب: هذا أمر مغاير. هنا ما زال كافكا واقعياً. ولو لم أكافح مع **المفقود** طوال عامين، لما اكتشفت **القلعة.** لقد تطور كل شيء عبر **الوقاد.** إنني أبحث عن قصص. وقد سئمت الأفلام التي لا تروي شيئاً. كما قلت، إن **القلعة** هي رواية عظيمة، لكنها أقل قَصّاً من **المفقود.**

ـ من المذنب في **المفقود؟**

شتراوب: الجميع، طبعاً. على المرء أن يملك الجرأة لقول ذلك. كافكا قاله: **شخصاي، المذنب والبريء.**

(المذنب في **المحاكمة** هو **ك.**) وإذا كان **كارل** بريئاً، فإن الآخرين جميعهم مذنبون. كارل يتمرد منذ البداية، عندما يدافع عن **الوقاد.** دائماً يقترف مخالفات، ويتجاوز ما يكلّف به. إنه

يتمرد مثلما يتنفس. وهذا يعني أنه لا يتمرد. إنه يتحرك مثل إنسان حر في مجتمع لا يمكن فيه ذلك. إنه نوع من التجاوز دون ملاحظة أن المرء إنما يتجاوز. وفجأة يصبح العالم كله ضده. إنه متمرد، بمجرد وجوده. هكذا هو في الفيلم. وهنا تكمن قوة رواية كافكا. ورغم أنه يحاول دائماً أن يفهم الناس، فإنه لا يحس بأي ازدراء لأي منهم. إنه لا يقدر أن يتصور وجود غيلان. هذا غريب عليه.

ـ هل جلب هذا معه من «العالم القديم»؟

شتراوب: هذا ممكن. إذ أظن أن كافكا كان يكره الأمريكيين بعض الشيء.

١٩٨٢ (حوار) مارتن بفايفر

Martin Pfeifer

٢ ـ حديث مع «ابنة» لكافكا

ـ ما علاقتك الشخصية بفرانز كافكا؟ هل أنت ابنة لكافكا؟ ماذا يعني لك هذا المبدع، أولاً بالنسبة لحياتك الشخصية، وثانياً بالنسبة لكتابتك؟

سيبيلّه ليفيتْشَرَف(*): من الأفضل أن لا يتمنى المرء أن يكون ابناً أو ابنة لعازب جرت العزوبية منه مجرى الدم في العروق. لا، لست ابنة، غير أن لكافكا أهمية كبرى بالنسبة لي لا نزاع فيها. ولا أستطيع أن أجرؤ على تصور إلى أي مدى يصل تأثيره من الناحية الجمالية والأخلاقية أو من ناحية المتعة. على كل حال، تأثيره كبير جداً. دائماً وأبداً أعود إلى قراءة نصوصه. بعد ستة أو سبعة أسابيع كحد أقصى من الابتعاد عن قراءة كافكا تعود إليّ الرغبة في قراءة فقرات من نصوصه. أحياناً يكفي مقطعان أو ثلاثة مقاطع، ومرات أخرى أقرأ قراءة متواصلة، مثلاً رواية «**المفقود**» للمرة المئة. وقياساً على قوة التشرّب التي أمتصها من نصوصه باستمرار، فإنها لأعجوبة أنني لم أقلده.

ـ من المشوّق البحث عن الأمارات التي تركتها آثار كافكا في رواياتك. ما المواضيع في آثار كافكا التي تسحرك على نحو خاص؟

ليفيتْشَرَف: يسحرني ولا شك البحث الذي لا ينقطع عن الله، لكن هذا البحث الذي يجري في الأمور الصغيرة، في الأمور الغريبة أو ذات علاقة بشخصيات غريبة الأطوار من شخصيات سلطة. ثم يذهلني، حتى لدى إعادة القراءة، أية انعطافات تأخذ جمل كافكا، كيف يجري تغيير النغمة، تغيير المشاعر في وسط الجملة. ك. يرفع ساقه ويسرع خطاه حافلاً بالأمل، وبعد الفاصلة الأولى في الجملة تُبذر بذور الشك بأنه لن يتقدم كثيراً على مثل هاتين الساقين. التباين يسود على نحو لا ينقطع. هنا لا يوجد فرار.

لكن لا يجوز لنا أن ننسى أن فرانز كافكا هو أحد المبدعين القلائل الذي يكتبون انطلاقاً من

(*) Sibylle Lewitscharoff كاتبة ألمانية مولودة عام ١٩٥٤، نشرت سبع روايات.

ذاتهم وطبعهم أولاً وآخراً وبالكلية. إنه يستغني كلياً عما نسميه اليوم تقصي المعلومات. مثال رواية **المفقود** الرائعة. كافكا لم يكن مرة في أمريكا، ومعلوماته لم تكن تزيد عن المعلومات العامة التي كانت متداولة في عصره عن أمريكا. أولم يضع رغم ذلك كتاباً عظيماً رائعاً عن أمريكا؟ إني أشعر بارتياب وحذر إزاء الكتّاب الذين يفخرون بتقصيهم المعلومات. إنهم يقعون في الثرثرة دائماً تقريباً.

كما أن كافكا أبعد ما يكون عن الواقعية التي يجري تقديرها اليوم. لنرَ فحسب الحوارات المتناثرة في نصوصه: هكذا لا يتحدث طبعاً أي إنسان. شخصياته تتحدث تماماً بالطريقة المكتوبة فيها توصيفاتهم التي نعلمها منهم. كل شيء متكامل، إنه أدب رفيع، ولا ثرثرة متلونة.

ـ الكتابة انطلاقاً من الذات أولاً وآخراً ـ كما تقولين ـ تناسب براعة كافكا الهائلة في تعامله مع اللغة. أودّ أن أتابع مع المواضيع المركزية في آثار كافكا: سوداوية، استسلام للمقادير، الشعور بانعدام المخرج الوجودي، علاقة الأنا مع العالم الخارجي، هذه العلاقة المضطربة التي لا تداوى إطلاقاً. كيف تقرأين **المحاكمة**؟

ليفيتْشَرَف: بمتعة فائقة. من الجائز أن تكون الأمور هنا بلا مخرج ـ لكن لدى القراءة يحدث شيء آخر، ألا وهو المتعة. ارتياح إلى العوالم المنحرفة التي تنفتح هنا فجأة. المحكمة الغريبة تثير السرور في نفسي كل مرة. إني لا أتابع وصف الأمكنة والشخصيات الثانوية التي تعترض طريق ك. بأنه ينبغي عليّ أن أقوم بتفسير كل شيء. صحيح، يقف شعر رأسي، لكن بكميات خفيفة ـ متعة دقيقة بالتأكيد، لكن متعة عالية. متأكدة أن كافكا قرأ رواية تشارلز ديكنز Bleak House بانفعال. أنا أحب الروايتين جداً.

ـ كيف تحققين بأن يظل الارتياع لدى القراءة في حدود؟ أنا أقرأ الرواية انطلاقاً من نهايتها، هذه النهاية التي لا ينساها المرء قط بعد القراءة الأولى، أعايش إذاً من البداية وحدة ك. واستسلامه للأقدار.

ليفيتشَرف: يعود ذلك على الأرجح إلى أني أقرأ حباً بالجملة، وبهذا يظل الارتياع في حدود. لا بدّ أن الأمر كان غير ذلك لدى قراءتي الأولى لهذه الرواية، لقد قرأتها وأنا في سن السابعة عشرة.

يتميز الكتاب العظيم بأنه يمكن أن يُقرأ في كل جيل قراءة جديدة وخاصة قراءة مغايرة، الأمر الذي ينجح في حالة آثار كافكا. أما في حالة ديكنز مثلاً فإنه لا يقرأ اليوم غير ما قرئ قبل ستين أو سبعين عاماً.

لا أدري من قال هذا، فلاديمير نابوكوف أم هارلود بلوم: «وحده فرانز كافكا حوّل غوته إلى شاعر القرن التاسع عشر.» هذا يعني أن مبدعاً قوياً ظهر على المسرح أعاد المبدع الأقوى حتى ذلك الحين إلى مكان تاريخي. حتى اليوم لا أرى لا عن قرب ولا عن بعد أحداً يمكنه أن يحقق مثل التأثير الذي أحدثه كافكا. ربما يكون قد ولد في مكان ما، لكننا لا نعرفه بعد.

ـ وصف كافكا عبثية الحياة والاستسلام للمقادير وانعدام المخرج الوجودي والعلاقة غير المأمونة مع العالم. هل من تماسات أو تطابقات بين عالمنا اليوم وعالمه آنذاك؟

ليفيتشرف: نصوص كافكا غير محددة زمنياً، ومن النادر أن تكون محددة مكانياً. يمكن طبعاً تحديدها تقريبياً، لكن بسهولة يأخذ القارئ الانطباع بأن الحال في العالم كان دائماً هكذا.

في عدم الأمان يماثل عالم كافكا آنذاك عالمنا اليوم ولا شك. حتى ولو لم نكن في أوروبا نعاني التضخم والحروب.

ما زالت آثار كافكا عصرية على نحو رهيب، لأنها لا تتتبع عدم الأمان في حرب، أو طبقة اجتماعية محددة، أو بلد معيّن، بل في أصغر الأمور، في الطريقة التي يوصف بها زرّ رداء. لدى الكتّاب الذين وصفوا، على نحو يُدرك على الفور، الأحوال المضطربة في عشرينات القرن العشرين، نستطيع أن نطمئن بسهولة أكبر: إننا لا نعيش في الأزمة نفسها. رغم الرفاه وأنظمة الضمان الاجتماعي نتحرك على مساحات مضطربة ولا نعلم ماذا ينتظرنا في النهاية.

ـ أين تكمن راهنية كافكا بالنسبة لك؟

ليفيتشرف: بيني وبين هذا المفهوم عداء. من النادر جداً أن أهتم بالراهن حتى في الكتب التي تكتب الآن. حالياً أقرأ مرة أخرى ديستويفسكي وكلايست. من الصعب القول ما هو راهن لديهما. لا أقرأ لدواعٍ علمية، بل للمتعة وحدها. ربما يكون الحال هو أن بعض النصوص تنتعش أحياناً ويسطع بريقها، لكن بالنسبة لي فقط عندما تثيرني جمالياً. القارئ الجيد صياد يبحث عن الطريدة التي تثيره. القارئ النخبة لا يدع أحداً يحدد له قراءاته، بل يتبع غريزة الصيد لديه التي تقوده عبر العصور. كافكا هو أهم طريدة عندي وأنا أعود مراراً وتكراراً إلى اقتفاء آثارها.

ـ في الختام أودّ أن أسألك في ما إذا كنت تنصحين الفتيات والفتيان بقراءة كافكا، والسؤال يطرح نفسه بالنسبة للمدرسة أيضاً. هل يجب قراءته في المدارس الثانوية؟

ليفيتشرف: نعم، طبعاً. أنا قرأت قصصاً لكافكا عندما كنت في سن الرابعة عشرة، طبعاً

على نحو مغاير عن قراءاتي له اليوم. يكون المدرسون جيدين عندما يكون لديهم اهتمام حقيقي بالأدب الرفيع ولا يكتفون بالمواد المقدمة التي لا تغني. مدرّستي كانت من هذا النوع، ومرات عديدة عالجنا نصوصاً لكافكا.

٢٠٠٨ (حوار) ماري هالّر ـ نيفيرمان

Marie Haller-Nevermann

٣ ـ أحاديث مع كاتب لسيرة كافكا

١

هذا العبقري اللغز

ـ السيد شتاخ، متى قرأت أول نص لكافكا؟(*).

شتـاخ: كنت في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة عندما قرأت **المحاكمة**. ومن الغريب أني لم أجد هذا الكتاب مقبضاً ولا قاتماً، بل أذكر أنني رحت بالاشتراك مع بعض أترابي أضحك على يوزف ك.. ثم مضى زمن طويل لم أشغل نفسي بالأدب. في سن التاسعة والعشرين قرأت رسائل كافكا ويومياته. وكانت هذه الدفعة الحاسمة التي دفعتني للانشغال بكافكا علمياً.

ـ ما الذي سحرك في الرسائل واليوميات؟

شتـاخ: الدقة المطلقة للغة والصور. إن المرء لا يشعر أن أسلوب كافكا يصاب بضعف في وقت من الأوقات أو أن جملة ضعيفة تتسلل في مكان ما. هذه الكتابة تتحرك دائماً على أعلى مستوى. كما أن دقة الملاحظة تميّز كافكا. ما يمكن للقارئ أن يدركه في اليوميات بشكل أكثر مباشرة من الآثار، هو قدرة كافكا على تسمية جوهر موقف من خلال صورة

(*) في عام ٢٠٠٢ نشر راينر شتاخ الجزء الثاني من ثلاثية سيرة حياة كافكا بعنوان «أعوام القرارات»، وهي سيرة أعوام ١٩١٠ ـ ١٩١٥. ويقع هذا الجزء في ٦٧٣ صفحة من القطع الكبير. وفي عام ٢٠٠٨ صدر الجزء الثالث بعنوان «أعوام الإدراك»، وهي سيرة أعوام ١٩١٦ ـ ١٩٢٤. ويقع هذا الجزء في ٧٣٠ صفحة.
راجع: فرانز كافكا: «الآثار الكاملة / مع تفسيراتها»، الجزء الثاني، ص ٣٦٣ ـ ٣٩٦ وص ٤٣١ ـ ٤٤٩.

شعرية دقيقة كل الدقة.

ما سحرني أيضاً هو محاولة كافكا أن يكون صادقاً إزاء نفسه على نحو مطلق. ما يميّز كافكا أيضاً هو الحقيقية والصراحة التي لا هوادة فيها. وهذا أمر نادر لدى الكتّاب. غالباً ما يكون الشعراء استعراضيين ومغترّين بأنفسهم، أما لدى كافكا فإننا لا نجد مثل هذه الصفة. لا يوجد في الآداب العالمية ما يُقارن به. والسحر الذي ينبعث من هذا الكاتب لا ينضب. بعد أن قرأت الرسائل واليوميات عدة مرات، لا أشعر أني انتهيت منها.

ـ بعد أطروحة الدكتوراه عن كافكا، كيف وقعت على الفكرة الجريئة للغاية بأن تكتب سيرة حياته؟

شتـاخ: كل من يشغل نفسه بكافكا، يمرّ بمرحلة محورها مسألة تفسير آثاره وما تعنيه كتاباته. لذا فإن الدراسات عنه باتت لا تحصى. لكن مع مضيّ الزمن لم يعد كل هذا يروي ظمئي. هناك سؤال ثان ينبغي طرحه بخصوص نصوص كافكا: كيف تحقق هذا الإنجاز أصلاً، أن يكتب المرء دائماً وأبداً على أعلى مستوى ممكن، وبأكبر تركيز، حتى تحت أصعب الظروف الخارجية؟ من أين جاءت قوى كافكا الاحتياطية؟ سابقاً كان يستخدم المرء تعبير «عبقري». بيد أن هذا المفهوم هو نفسه جوكر ـ لا يعرف المرء ماذا يعني تماماً. لدى كافكا أيضاً لا يمكن معرفة كيف تطورت قدرته على الكتابة. كتاباته الأولى أتلفها بنفسه. ولا يوجد سوى نصوص قليلة جداً يمكن اعتبارها محاولات كتابة، ربما فقط القطع النثرية التي نشرها بعنوان **تأمل**. بعدها فوراً ظهرت هذه العبقرية اللغز. مثل هذا اللغز يغري، أجل، هذا اللغز أغراني في آخر الأمر لأن أجرؤ على كتابة سيرة حياة كافكا.

ـ هل تكشف هذا اللغز؟ أم أنك تقف ولا بدّ أمام باب القانون، قانون حياة كافكا وآثاره، ولا يُسمح لك بالدخول؟

شتـاخ: أعتقد أنني اقتربت قليلاً من اللغز. أما فيما يتعلق بالشروط الفردية، أي ما يمكن تسميته موهبته أو طبيعة معينة له، فإنني لا أدري فيما إذا كنت قد تمكنت من الاقتراب منها خطوة حاسمة. كثير من الأمور ما زال في الظلام. إننا لا نملك وثائق كثيرة عن طفولته حيث تكمن شروط إبداعاته. وما زلنا ننتظر السماح بدراسة تركة ماكس برود ونأمل أن نكتشف ما هو جديد عن سنوات الدراسة.

ـ ألم تطلع عليها بعد؟

شتـاخ: لم أطلع بعد، غير أني أعرف أن هذه التركة هائلة الحجم. تحوي بين ١٥ و٢٠ ألف

رسالة ويوميات برود طبعاً، التي كتبها طوال ستين عاماً.

- لدى عملك في «أعوام القرارات» ألم تكن تخشى ردود فعل حواريي كافكا الأكاديميين؟

شتـاخ: عندما يكتب المرء عن كافكا، يقع تحت مراقبة دقيقة أقصى دقة، وذلك من قبل رأي عام عالمي. كنت أعي ذلك منذ البداية. المختصون في أدب كافكا ينظرون بحدة شديدة إلى ما يُكتب عنه. أحدهم تساءل فيما إذا كان من المسموح به الكتابة عن كافكا بطريقة روائية.

- هل من المهم بالنسبة لك مشاهدة الأماكن التي عاش فيها كافكا أو زارها؟

شتـاخ: يجب زيارة براغ طبعاً وبعض أماكن مشاوير كافكا فيها. وكنت في ريفا في إيطاليا، وأقمت في الفندق نفسه الذي أمضى فيه كافكا بضعة أيام تعيسة. وسافرت إلى تسيراو، حيث أقام كافكا طوال ثمانية أشهر لدى شقيقته، كما زرت بعض أماكن الاستشفاء التي أقام فيها. وهناك مواد مساعدة كثيرة، فقد ابتعت على سبيل المثال عدداً كبيرا من الأدلة السياحية من أعوام ١٩١٠ إلى ١٩١٥. يمكن معرفة أسماء الفنادق وأسعار المبيت فيها آنذاك. يهمني أن أعرف المدة التي كانت تستغرقها سفرة ما.

- ثماني ساعات مثلاً من براغ إلى برلين، حيث زار كافكا فيليس بعض المرات في ظروف كريهة.

شتـاخ: نعم، براغ - برلين، هذا فصل قائم بذاته. لديّ جدول القطارات للسكة الحديدية الألمانية الصادر عام ١٩١٣. ذات مرة كتب كافكا إلى فيليس باور: **عندما تعودين من الإجازة على جزيرة سيلت، هل يمكنك السفر عبر براغ؟** فتحت الجدول وحسبت أنه كان ينبغي على فيليس أن تمضي ٢٤ ساعة في القطارات لو عادت من سيلت إلى برلين عبر براغ. هذا جنون. ندرك مفهوم الوقت آنذاك، الذي يختلف كثيراً عن مفهومنا الحالي.

- أظهرت الدراسات التي وضعت عن كافكا في العقدين الأخيرين بعض المعلومات الجديدة، الدراسات العلمية عنه تملأ مكتبات بكاملها. غرفة عملك مليئة بملفات ضخمة تحوي مقالات لا تحصى. في كتابك تعمل بدقة متناهية وتفاصيل كثيرة جداً، تقترب كثيراً من شخصية كافكا ومحيطه، بل تقدم صورة عصر. ألا تخشى في بعض الأحيان أن تستسلم أمام فيض المواد؟ .

شتـاخ: هكذا كان الحال في البداية، ثم استطعت أن أضع وسائط مساعدة كثيرة قائمة على التقنية الحديثة في إجراء الأبحاث، مثل بنوك المعلومات حيث أستطيع مثلاً إيجاد كل استشهاد من كتابات كافكا بسهولة، أو ماذا قرأ في عام ١٩١٤. لقد وضعت في بنوك المعلومات

٧٠٠ يوم أحد وأيام العطل الرسمية والمسيحية واليهودية في مملكة بوهيميا. من المهم أحياناً معرفة فيما إذا كان كافكا في اليوم الفلاني في المكتب أم لا. ثم إني أستطيع دائماً العودة إلى الطبعة النقدية التاريخية، التي تحوي كافة تصحيحات كافكا في مخطوطاته بخط يده، وهذه الطبعة موجودة أيضاً على قرص مدمج مع كل أجهزة البحث المتوفرة. بدون استخدام التقنيات الحديثة لا يمكن إنجاز مثل هذه السيرة أبداً.

- كيف يجوز للمرء أن يتصور مجرى يومك؟

شتـاخ: أول ما أفعله في الصباح هو قراءة الصفحة الأخيرة التي كتبتها في اليوم السابق، وهكذا أدخل إلى الموضوع، وأتابع الكتابة حتى الساعة الرابعة عشرة.

- أي قسم من العمل يرضيك أكثر؟

شتـاخ: عندما أكتب صفحة جيدة. كتابة صفحة جيدة هي تجربة نرجسية. أقوم بدرجات متعددة من التصحيح. وما أقدمه إلى الدار، يُنشر بحذافيره ودون أي تعديل من قبل المحررين.

- كنتَ في البداية واحداً من هؤلاء المحررين، لماذا غيّرتَ اتجاه عملك؟

شتـاخ: بل جاءني عرض أكثر من دار نشر كبيرة كمحرر علمي لكتب دراسات. كان واضحاً لي أن ذلك العمل يعني أن لا يبقى وقت أكتب فيه بنفسي. لكن رغبتي كانت أن أكتب عملاً مطولاً، وهكذا غيرت الاتجاه من محرر إلى كاتب. وأردت أن أكتب عملاً أستطيع التماهي معه، وكان كافكا المجال الذي أعرف عنه أكثر ما أعرف. ومما لعب دوراً طبعاً هو الرغبة في سبر القدرات الكتابية الذاتية. وكان ثمة مجازفة. حتى ذلك الحين لم أكن قد كتبت أي نص سردي، أي يستخدم وسائط روائية.

- كتبتْ عالمة أدب أن كل سيرة حياة هي في جوهرها عمل عدائي. هل ستكون مرتاح البال فيما لو قابلت كافكا بشخصه حقاً؟

شتـاخ: أعترف: كنت خليقاً أن أشعر ببعض الوجل والكسوف لو أتيح لي أن أبادر الرجل الكلام. بيد أني أظن أنه كان من شأني أن أتفاهم معه. لديّ مثلاً تفهم جيد لطريقته في المزاح، وهذا في غاية الأهمية كدليل على قدرة أحدهم التفاهم مع الآخر. كما أظن أني أتفهم الاحترام الذي كان يطلبه من الآخرين. كان دائماً يترك مسافة بينه وبينهم، حتى أقرب الناس إليه. وكان في مقدوره أن يثور عند تدخلهم في قراراته أو إزعاجه بأسئلة غير متحفظة. لديّ تفهم مطلق لهذه الأمور. أعرف قصصاً كثيرة عن مختصين بأدب كافكا أثاروا حفيظة أقاربه بتصرفات محرجة. مثل هذا لا يحدث لي. يمكن للمرء أن يكتب عن أحدهم كي يقترب

منه، لكن لا يجوز له أن يحلله نفسياً وجهاً لوجه. هذا لا ريب هو شكل من أشكال العدائية.

أعتقد أن كافكا، الذي قرأ كثيراً من سير الحياة، يفكر بطريقة مماثلة. يبدو أنه لم يخطر بباله أبداً أن يأتي شخص آخر ويصف حياته. وقد حاولت أكثر من مرة أن أتخيل ما كان من شأنه أن يقول عن محاولتي هذه. لكن هذه الأمنية ستظل غير قابلة للتحقيق.

٢٠٠٣ (حوار) أولريش ريديناوَر
Ulrich Ruedenauer

٢

استحالة أن يكون المرء كافكا

ـ كيف بدأ انشغالك بكافكا؟

شتـاخ: على نحو تقليدي كلياً. في سن الصبا قرأت آثاره. لكن التفجير جاء عندما قرأت لأول مرة، وأنا في أواخر العشرينات من عمري، يوميات كافكا ورسائله إلى ميلينا وفيليس باور. هنا بدأت مرحلة تماهيت فيها كل التماهي ليس مع الكاتب وحسب، بل مع الإنسان كافكا.

ـ الأمر الذي ...

شتـاخ: ... الأمر الذي لا يواتي كثيراً في البداية الانشغال بكافكا. غير أني في هذه الأثناء أصبحت أعتقد بأن على المرء أن يعيش ذات مرة مثل هذه المرحلة من أجل أن يستطيع الكتابة عن حياة كافكا. بعد أطروحتي للدكتوراه عن كافكا جاءت فترة استراحة منه، حيث كنت مضطراً لكسب رزقي.

ـ ماذا كان الدافع المباشر؟

شتـاخ: في عام ١٩٩٥ قدمت الاقتراح إلى دار فيشر. كان الوقت ملائماً. باستثناء كتاب فاغنباخ عن سن الصبا في حياة كافكا لم يكن يوجد أي شيء. كانت الطبعة النقدية ـ التاريخية قد صدرت ما عدا تركة ماكس برود. أصبح في مقدور المرء أن يعاين كيف كان كافكا يعمل. وهذا ما يجب فعله لدى كافكا، وذلك لأن الفصل بين الآثار الأدبية واليوميات غير واضح.

ـ ما هو غير مألوف أنك بدأت كتابة سيرة حياة كافكا من وسطها.

شتــاخ: كانت المشكلة الأساسية هي عرض السنوات الأولى. لم يكن مراسلات كبيرة ولا علاقات حب عنيفة ولا يوميات. لقد أتلف كافكا كل ما كتبه في تلك المرحلة. فوجدتُ حلاً بالبدء من الوسط، وما زلت سعيداً بهذا القرار. الآن أنتظر التركة الأدبية لماكس برود.

ـ عملتَ طوال سنوات في كتابة الجزء الثالث (سنوات الإدراك) الذي صدر لتوّه. أين واجهتك صعوبات؟

شتــاخ: لإيجاد صورة متكاملة على المرء أن يغرف من مصادر عديدة. هذا يتفتت بين الأصابع إذا لم يمدّ المرء خيطاً ناظماً. كان، على سبيل المثال، في غاية الصعوبة وصف الخلفية السياسية على نحو مطابق للحقيقة، فالمصادر السياسية من تلك الحقبة إما أن تكون كاذبة أو أجريت لها عمليات تجميل أو وضعت تحت المراقبة.

ـ إلى أي حد تغيرت صورة كافكا نتيجة انشغالك المكثف به؟

شتــاخ: كنت أنا أيضاً أعتقد سابقاً أن كافكا شخصية هشة. لكن كلما توضح لي مدى كارثية المحيط الذي عاش فيه، زادت دهشتي من أين استقى كل هذه القوى الاحتياطية. كلما كان يصل إلى نقطة الصفر، كان يقوم فجأة بتعبئة قوى ويبدأ من جديد. قصص **طبيب ريفي** كتبها في وضع سيء لا يصدّق في غرفة صغيرة غير مدفّأة في شتاء قارس من شتاءات الحرب العالمية الأولى، عندما كانت براغ باردة برودة الثلج، ويتعيّن عليه أن يعمل في المكتب ساعات إضافية بسبب غياب زملائه في الحرب، كان يجلس في الليالي في تلك الغرفة ويكتب مثل هذه الجواهر.

ـ مراحل ضعيفة ومراحل قوية كانت تتناوب.

شتــاخ: تماماً. بعد هذا الشبّ يتهاوى وينكمش على نفسه، يدخل إلى مصحات، ولا يعمل شيئاً طوال اليوم، بل لا يقرأ ولا حتى جريدة. كانت فترات الاستراحة هذه الثمن على ما يبدو. كافكا قام أيضاً بتصغير نفسه، وكان هذا موقفاً دفاعياً.

ـ إنك تزيل أيضاً أسطورة أن كافكا كان غريباً عن العالم.

شتــاخ: كان يُعتقد دائماً أن كافكا لم يهتم بالعالم الخارجي ولا يدرك منه سوى ما هو ضروري وأنه ركّز على كتاباته. لم يكن الحال هكذا أبداً. ما من أحد كان يقدر أن يتملص من الحرب العالمية الأولى. في عام ١٩١٨، عندما تشكلت دولة تشيكوسلوفاكيا، لم يعد بالإمكان التعرف على براغ عام ١٩١٤، المدينة الثانية في إمبراطورية النمسا. وقد أثار هذا

لدى كافكا شعوراً بالاغتراب الشديد. لاحظ أنه لم يعد ينتمي إلى الوضع الجديد. كما أن جواً من اضطهاد اليهود قد ساد بعد استلام التشيك السلطة.

- لا شك أنك تأملت في السؤال لماذا ما زلنا نشعر بأن نصوصه عصرية إلى درجة كبيرة.

شتـاخ: هذا واحد من أكبر الألغاز التي تحيط بكافكا. أرى أن ثمة سبباً يكمن في ظاهرة أن ما من إنسان يعرف نفسه معرفة تامة. من هذه الظاهرة تنبعث رهبة. أحس أن هناك شيئاً ما ما زال يقبع في الرأس لا أستطيع السيطرة عليه ولن أراه أبداً، تماماً كما أني لن أرى قط خلفية رأسي. هذا الوضع يبعث في نفس كل إنسان شيئاً من توتر الأعصاب. هذا الوضع عبّر عنه كافكا بكلمات. وهذا الوضع قائم دائماً وفي كل مكان. كافكا يُقرأ في آسيا أيضاً.

وطبعاً هناك مثال ثان: الخوف من سلطة قدَر نتواجد بيدها، لكننا لا نراها قط. هذا الخوف عبّر عنه كافكا على خير وجه وبشكل لا نظير له. جاء في **المحاكمة: لا نعرف كيف تسير الأمور في السلطات العليا، كما أننا لا نريد أن نعرف بالدقة أبداً**. هنا يجري التعبير عن شيء جوهري للغاية يعرفه كل فرد.

- عرفت تقنية سردك لسيرة حياة كافكا الكثير من المديح والقليل من النقد. إنك تستخدم نماذج الرواية والفيلم.

شتـاخ: النقد جاء من ألمانيا وحدها، وليس في اللغتين الإنكليزية والأسبانية حيث نشرت ترجمة الكتاب. لماذا لا يجوز أن تعمل سيرة الحياة بوسائل روائية؟ رغبتي هي أن يشعر القارئ أنه يندمج في الوضع التاريخي. آخرون يكتبون لجامعيين ويضعون في كل صفحة استشهاداً من نيتشه أوغيره. ليس لديّ رائحة الإصطبل هذه، غير أني عالم أدب.

- إنك تشرف على موقع كافكا في الإنترنت www.farnzkafka.de. ماذا كان من شأن كافكا أن يعتبر الإنترنت؟

شتـاخ: الإنترنت يدعم حب الفضح وحب التلصص، وكلاهما بعيدان عن كافكا. كانت الخصوصيات في غاية الأهمية بالنسبة له من أجل الحفاظ على الكرامة. لكنني أتصور أحياناً لعبة يُبعث فيها كافكا ويوضع قرب تقاطع طرق. لا بدّ أنه كان سيرتعب من سرعة وضجيج عصرنا، غير أنه كان خليقاً أن يتعرف على بعض الأشياء.

- متى يصدر الجزء الأول عن سنوات طفولته وصباه؟

شتـاخ: لن يستغرق ذلك مرة أخرى ست سنوات. لقد توفيت وريثة ماكس برود، وابنتاها

موافقتان على أن تأتي تركة برود إلى المنطقة الناطقة بالألمانية.

ـ هل ثمّة فترات تشبع فيها من كافكا؟

شتـاخ: لا، مثل هذه الفترات تأتي عندما يتقصى المرء موضوعاً طبياً أو تاريخاً عسكرياً. الحال هو كما في سباق الماراتون: لا يجوز التفكير بالهدف.

٢٠٠٨ (حوار) سيبستيان فستهوبر
Sebastian Fasthuber

٣

فجأة موضوع حياة أو موت

ـ السيد شتاخ، عندما يشغل المرء نفسه أعواماً طويلة بشخص تاريخي وينفذ إلى شخصيته بعمق متزايد دائماً، كيف يصبح هذا الشخص مع مضيّ الزمن محبباً أم غير محبب؟

شتـاخ: في حالة كافكا يصبح محبباً على نحو مبين لا لبس فيه. بالنسبة لي أيضاً لم يكن واضحاً في البداية كم كان العصر الذي عاش فيه كافكا عصراً كارثياً وكم كان على كافكا أن يعاني شخصياً. وذلك رغم أن الوالدين ورؤساء عمل وأصدقاء ـ دون أن ننسى بعض النساء ـ حاولوا مراراً وتكراراً أن يقدموا له رعاية وحماية. أمام هذه الخلفية ينبغي تقدير إنجازاته الأدبية تقديراً أعلى، كما أن ضعفه الشخصي وقلقه ومخاوفه تصبح مفهومة ومبرّرة.

ـ الملحق الأدبي للتايمز منح الجزء الثاني من كتابك لقب «كتاب العام ٢٠٠٢». هل تعتبر هذا الجزء كتاباً ناجحاً؟

شتـاخ: لقد لاقى نجاحاً أكثر قليلاً مما كنت أتوقع. كذلك الترجمة الإنكليزية والأسبانية لاقت نجاحاً على الفور. إذا نجح الجزء الثالث الحالي هكذا، يكون العمل الطويل قد أجدى.

ـ في الجزء الثاني وصفتَ ليلة ١٢ ـ ١٣ أيلول ١٩١٢، الليلة التي كتب فيها كافكا قصة **الحكم**، بأنها تجربة يقظة. هل يوجد في الجزء الثالث تجربة مماثلة؟

شتـاخ: نعم، ويجب القول: مع الأسف. إذ أيضاً في ليلة ١٢ ـ ١٣ آب ١٩١٧ حدثت نقطة تحوّل في حياة كافكا: ظهور مرض السل. فقد بصق كافكا دماً لأول مرة. منذ تلك الليلة بات كل شيء مغايراً، فجأة لم يعد الأمر يتعلق بصراعات داخلية ولا بكتابة حسنة أو أقل حسناً ولا بحب أو معاناة، بل فجأة أصبح الموضوع موضوع حياة أو موت.

ـ ما هو تأثير الحرب العالمية الأولى على إبداعات كافكا الأدبية؟

شتـــاخ: تأثير ضخم. إذ في سنوات هذه الحرب انهار العالم الذي ولد فيه كافكا والذي كان مألوفاً له. بعد الحرب وخلال ٢٤ ساعة انقلبت الحياة العامة بكاملها من الألمانية إلى التشيكية. ومن المرجّح أن هذه الحرب كانت السبب الذي أفقد كافكا الرغبة في كتابة روايات وقصص، ولم يكتب أثناءها سوى نصوص قصيرة هي أمثولات. لا شك أنه شعر أنه لم يعد من المهم أن يكتب قصصاً، بل أن يضع عرضاً عاماً ختامياً ونتيجة أخيرة. أراد أن يفهم الكارثة العالمية الكبرى وأن يعلم ماذا يتبقى للفرد بعدها.

ـ تريد تصحيح صورة كافكا بأنه أخفق بسبب فرط حساسيته و«عدم القدرة على الحياة»، التي كررها مرات عديدة؟

شتـــاخ: في الحقيقة كان كافكا كل شيء إلا ضعيفاً. إنه لأمر لا يصدّق كيف يستطيع إنسان مرهف الحس هكذا أن يتحمل سنوات طويلة مثل هذه الظروف في براغ ويظل رغم ذلك منتجاً. لقد عاش كافكا الكثير من البؤس أولاً بصفته شاهداً على الحرب العالمية الأولى، ثم بنفسه، نتيجة سل الرئة الذي أصيب به في سن الرابعة والثلاثين، وفي عامه الأخير في برلين، حيث بات راتبه التقاعدي بلا أية قيمة نتيجة التضخم المالي الهائل. تحت هذا الضغط قام كافكا بتعبئة قوى احتياط على نحو لا مثيل له. كان في السابق يشكو من صداع وكل ما يمكن من أمراض حقيقية أو وهمية. أما في عامه الأخير، مع الموت أمام ناظريه والخوف من طرده من غرفته لعدم قدرته على دفع الأجرة، بالإضافة إلى عدم قدرته على زيارة طبيب أو شراء أدوية، في هذا الوضع ينجز آثاراً فنية مثل قصة **البناء**. هذا هو اللغز في الحقيقة.

ـ بعملك عن حياة وآثار كافكا تمكنتَ من تصحيح سلسلة من الأغلاط والتقديرات الخاطئة عنه. هل انعكس ذلك على الدراسات الراهنة عنه؟

شتـــاخ: ألاحظ من الأسئلة التي يوجهها لي قراء وصحافيون أنه طرأ في السنوات الأخيرة على ما يبدو تغيير ما على صورة كافكا العامة. كانت الأسئلة تدور سابقاً عن مشكلته مع والده وعما إذا كان يريد حقاً أن تتلف آثاره. أما الآن، فإنه أصبح يُرى بصفته ممثلاً لعصره: الحرب، النزاع بين الألمان والتشيك في براغ، مشهد الأدب والنشر، الابتكارات التقنية التي عاشها كافكا. هذه الجوانب باتت محل اهتمام أكثر بكثير. وأنا لا أستطيع سوى أن أخمّن مجرد تخمين أنه قد يكون لكل هذا علاقة بعملي.

ـ هل أصبحت مصادر الجزء الأول من سيرة حياة كافكا عن فترة الطفولة والصبا تحت تصرف العلماء؟ ومتى يمكن لهذا الجزء أن يصدر؟

شتـــاخ: يتعلق الموضوع في المقام الأول بتركة ماكس برود الأدبية ذات الحجم الضخم. وفي

السنوات الأخيرة تحسنت فرص الوصول إلى هذه التركة، وآمل كل الأمل أن تقوم مؤسسة ألمانية باقتنائها، أرشيف الأدب الألماني في مارباخ على سبيل المثال. إذا حدث هذا، فيمكن للجزء الأول من سيرة حياة كافكا أن يصدر بعد ثلاث أو أربع سنوات.

٢٠٠٨ (حوار) توماس فايس

Thomas Weiss

٤

هل كانت حياة كافكا كافكاوية؟

طوال ثلاثة عشر عاماً يعمل راينر شتاخ في إعداد سيرة حياة كافكا. من النظرة الأولى لا يبدو في منزله شيء كافكاوي. لكن ما أن يبدأ شتاخ يتحدث، حتى يرى الزائر شبحاً يجلس في الزاوية.

ـ تماماً لمناسبة الاحتفالات بمولد كافكا المئة والخامس والعشرين أصدرتَ الجزء الثالث من سيرة حياته. هل كان خليقاً أن يفرح بهذه الهدية؟

شتــاخ: كهدية كان من شأن هذا أن يكون طبعاً شيئاً ذا حدّين. كاتب السيرة يقترب من كافكا أكثر مما كان هذا خليقاً أن يقبل ذلك من أي شخص. هذا الجزء يعالج سيرة حياة كافكا بين عامي ١٩١٦ و١٩٢٤، وفيه مثلاً قصة حب كافكا مع ميلينا، هذه القصة التي لم يكن كافكا قد حدّث أحداً عنها سوى شقيقته أوتلا وماكس برود. وإنه من الخير لنا أنه لم يكن في وسعه أن يتوقع قدوم يوم بعيد يقرأ فيه الناس كل تفاصيل قصة الحب العنيفة هذه. غير أني أفترض أنه كان من شأنه، من طرف آخر، أن يفرح بهذا التبجيل الذي تلقاه آثاره. هذا الكاتب أيضاً لم يكن دون فخر بإنجازه.

ـ ماكس برود لم ينفذ وصية كافكا بحرق مخطوطاته. أين تكمن مسؤولية كاتب السيرة إزاء كافكا؟

شتــاخ: لا يجوز لكاتب السيرة أن يتصرف وكأنه يتحدث مع كافكا بصيغة المفرد أي كصديق، حتى لو كان يعرف عنه الكثير. يجب الحفاظ على كرامته، لكن عندما أرى كيف يمسرح كافكا حياته ويبالغ أو يكرر الشكوى للمرة العاشرة، فإنه يمكنني أن أقول ذات مرة: هذا يكفي.

ـ هل تعرف كافكا أكثر مما تعرف نفسك؟

شتــاخ: لا، بأي حال. لقد عرف كافكا نفسه واستراتيجياته خير معرفة. الحيلة هي أن مسرحته لحياته وخيبات الأمل التي عاشها إنما يعرضها في آثاره، وبهذا العرض يصل إلى درجة إدراك جديدة. إنه يجعل التفسير نفسه موضوعة من مواضيع أدبه: الرغبة العارمة في إضاءة حالة معتمة.

ـ هل ثمة فرق بين سيرة حياة كافكا التي كتبتها وبين «الحياة الحقيقية لفرانز كافكا»؟

شتــاخ: طبعاً. أليس هذا هو الحال لدى كل إنسان؟ هناك أمور معينة لا يمكن لأحد آخر أن يعرفها.

ـ هل كانت حياة كافكا كافكاوية؟

شتــاخ: نعم، في حياة كافكا مصادفات غريبة تبدو وكأن كاتباً روائياً ابتكرها. كثيراً ما يفهم الناس من هذه الكلمة العبثي والمُقبض، وغالباً ما يفهمون علاقة ما بسلطة. عندما يظل أصحاب السلطة في الظلام، نشعر أن هذا شيء كافكاوي. وعلى الأرجح هذا هو خط التماس بيننا وبين كافكا. في رواياته لا نرى قمة الهرم، وفي المجتمع الراهن لا نعرف تماماً ـ رغم الشفافية المزعومة ـ كيف تجري الأمور في الجهات العليا. لا نعرف أين يقع مركز السلطة، لا نعرف حتى فيما إذا كان مثل هذا المركز يوجد على الإطلاق. من يتخذ القرارات بشأن أسعار النفط والمواد الغذائية في السوق العالمية؟ أية مجموعة أشخاص تملك التأثير الأكبر على أسعار البورصة؟ نتمنى أن نعرف كيف تسير الأمور هناك في الأعالي، غير أننا على كل حال نتعرف على الجهات الوسيطة. هذا هو الحال تماماً في رواية **المحاكمة**.

ـ هل تتمنى أن تكون قابلت كافكا شخصياً؟

شتــاخ: طبعاً. على كل حال التقيت ذات يوم ابنة أخته، ماريانه شتاينر التي توفيت فيما بعد. كانت تشبهه، وكانت تتحدث بلهجة براغ. وقد احتجت بضع دقائق حتى استطعت أن أتمالك زمام نفسي.

ـ ما هي الأسئلة التي كنت خليقاً أن تطرحها عليه؟

شتــاخ: كان عليّ أن أبتكر بضعة أسئلة استفزازية على نحو خاص، حيث إن كافكا كان بليغاً وفي منتهى البراعة في صدّ التدخلات غير المريحة. كنتُ خليقاً أن أسأله عن رأيه الحقيقي في ماكس برود. لا ريب أن ماكس برود كان نوعاً من «إنسان حياة» بالنسبة لكافكا. بيد أنه لا بدّ لكافكا أن يكون قد لاحظ ـ ومن يومياته يظهر الأمر جلياً ـ أن برود لم يفهمه إطلاقاً في

الأمور الأساسية. لماذا كانت إذاً أحكام برود رغم ذلك مهمة بالنسبة له؟ ليس من السهل فهم ذلك. أظن أنه لو أتيحت الفرصة لكافكا أن يوسّع دائرة معارفه ويعمّق مثلاً علاقته بروبرت موزيل، لبات برود أقل أهمية بالنسبة له. كان موزيل خليقاً أن ينشّط كافكا ذهنياً وأن يقدم له أجوبة أفضل على شكوكه الذاتية.

ـ وربما كان موزيل أحرق تركة كافكا الأدبية.

شتــاخ: لا. لا أحد يحرق نصوصاً بهذا المستوى. هذه ليست مسألة أخلاقية.

ـ في أي صفحة من صفحات سيرة حياة كافكا التي أعددتها يعلم القارئ شيئاً ما عن راينر شتاخ؟

شتــاخ: كلمة (أنا) لا ترد مرة في هذه السيرة، لكن إذ أنني المؤلف، فإنني أروي من زاوية نظري. وطبعاً ثمة أحداث وأقوال يفهمها المرء ويتعاطف معها طبقاً لبنيته الذاتية على نحو أفضل مما يفهمها آخرون. وليس من شأني أن أكتب سيرة حياة إلزه لسكر ـ شيلر مثلاً.

ـ إلى أين يعود سحر كافكا عليك؟

شتــاخ: أثارني منذ البداية تأثيره المنطوي على أسرار. إن كتابات توماس مان وروبرت موزيل مثلاً تعالج مواضيع بدأت تبتعد عنا وتصبح تاريخية. مشكلات زواج ومعاناة الفنان في المجتمع البورجوازي تبدو اليوم غريبة بل مضحكة. أما لدى كافكا فإننا نحس أنه يعمل على مستوى لا يكفي فيه التاريخ.

ـ ماذا عثرت عن نفسك أثناء كتابتك سيرة حياة كافكا؟

شتــاخ: هنا تتبدى للمرء حدوده الخاصة به. مهما بدا هذا عبثياً: عبر كافكا وحده فهمت حقاً أن اللغة تملك قوة لن تكون تحت تصرفي أبداً مهما جهدت. إن مسافة السقوط بين كتابة كافكا وما يستطيع المرء نفسه أن يكتب هي أمام النظر باستمرار. يتعلم المرء التواضع، كما يتعلم ضرباً من ضروب الصدق الذهني. إن كافكا الودود هو معلّم كبير.

ـ يقال بأن سير حياة الكتّاب المتوفين تُكتب بالتعاون معهم. هل عارض كافكا مرة التعاون معك؟

شتــاخ: كافكا هو بمعنى ما شخص صادّ. لهذا علاقة باستراتيجيته تلغيز نفسه وعدم السماح بالاقتراب منه. لقد أجمع الذين عرفوه شخصياً على أنه كان يتعاطف كل التعاطف مع شتى أنواع الناس، لكن عندما كان أحدهم يبغي معرفة شيء ما عنه، كان يصطدم بجدار من الزجاج يقف وراءه كافكا ويبتسم. هكذا هي أيضاً نصوصه. إنها تصدّ بطريقة ما. كان

كافكا يسعى إلى عدم السماح بتفسير متسرع. لا يمكن إذاً الحديث عن «تعاون». على القارئ أن يستدرج كل شيء.

ـ كيف كان من شأن الأدب المعاصر أن يكون لو لم يوجد كافكا؟

شتـاخ: كنا على الأرجح سنكون أقرب إلى السرد الواقعي الذي كان سائداً في القرن التاسع عشر. لقد عُني كافكا بأن يَدخُل إلى الأدب ما هو مجتزأ، منقطع، مقلوب، متناقض؛ وأن يحصل هذا كله على قدْره ضمن الأدب. كل هذه الأشكال الأدبية تعكس شيئاً من ماهية القرن العشرين، ولو لم يقدم كافكا هذا لنا، لما كان من شأن القراء أو الكتّاب أن يقبلوا هذه الأشكال بهذه البديهية كما بات مألوفاً لدينا اليوم. وفوق ذلك، لولا كافكا ما كنا سنعرف مدى طاقة التعبير والتواصل التي يملكها متن اللغة. البسيط أيضاً يمكنه أن يكون في منتهى المهارة. هذا أيضاً علّمنا إياه كافكا.

ـ أي تطور كان من شأن آثاره أن تأخذ لو لم يتوفَّ عام ١٩٢٤؟

شتـاخ: أعتقد أنه ما كان من شأنه أن يغيّر موقفه المتقشف إزاء اللغة، لكنه كان سيعود إلى السرد ويكتب روايات وقصصاً.

ـ ما هي السجية التي تقدّرها على نحو خاص عند كافكا؟

شتـاخ: صدقه، إخلاصه، استقامته. ما زلت أعرف أية صدمة أثارتها في نفسي قراءة الرسائل واليوميات لأول مرة عندما كنت طالباً. لقد لاحظت أن هذا الكاتب الواعي للحقيقة والانصاف يوجه النظر إلى نفسه بطريقة لا هوادة فيها لا أقوى عليها ولا يقوى عليها أي إنسان التقيته.

٢٠٠٨ — (حوار) توماس دافيد

Thmas David

٥

لماذا يثيرنا كافكا؟

ـ السيد شتاخ، لماذا يثيرنا كافكا بهذا القدْر الكبير ويمسّنا في أعمق أعماقنا؟

شتـاخ: أجيال تمعن الفكر في ذلك. وهذا يصحّ حتى بالنسبة لناس لا يعرفون شيئاً عن كافكا ولا يملكون تصوراً عن عالم حياته. تصور طالباً في اليابان ملزم بقراءة كافكا. حتى من أمثال هؤلاء القراء نسمع مراراً وتكراراً بأن نصوص كافكا تثيرهم وتمسّهم. هذا لا يمكن أن

يعني سوى أن الطبقة التي يخاطبها فينا هي أعمق مما يطبع الثقافات المختلفة. أعتقد أن الخوف من قوى حياتية مجهولة، على سبيل المثال، يتجاوز كل الحدود الثقافية ويسود في كل الثقافات. هكذا يمكن فهم **المحاكمة** مثلاً في كل أنحاء العالم. أعتقد أن تأثير كافكا يأتي من مخاطبته هذه الطبقة العميقة جداً والكامنة في اللاوعي. إنها وسائل مماثلة للوسائل التي يعمل بها الفيلم، مثلاً بأن يُلمح إلى الأهوال دون أن يعرضها. والنتيجة أن كل فرد في العالم يرى رعبه الخاص به حيث تكون المساحة الفارغة. هذا ما يعمله كافكا أيضاً. إنه لا يعرض القضاة في **المحاكمة**، كما أنه لا يقول كيف تجري الأمور في الهيئات المختصة العليا. المخيلة تثير مخاوف أكثر مما يفعل الواقع.

- يبدو أن ما يخاطبه كافكا هو أمور راهنة: الشك بالنفس، الخوف من العلاقات، ذعر من عدم اللحاق بقطار الحياة. أو؟

شتـــاخ: طبعاً. لقد قمت مرات كثيرة بتلاوة مقاطع من كافكا على ناس ليس لديهم فكرة عن الأدب، ودائماً كانوا يقولون: هذا نعرفه. عندما تقرأ مثلاً **رسالة قيصرية** على تلاميذ، فلا يعرف كل منهم ماذا يعني النص. لكن كلاً منهم يحس أن النص يمسّه. أن يرسل القيصر لي شخصياً رسالة، وهذه الرسالة لا تصل قط - هنا يقشعرّ البدن، إذ إن هذا الموقف هو أسوأ مما أن لايكون ثمّة قيصر ولا رسالة. إن فن كافكا يكمن في أنه يجد الصور والمجازات المطابقة والأكثر تأثيراً. كثيراً ما تساءلت كيف يحدث أن نصوص كافكا لا تشيخ أبداً ولا يبدو أنها تصدأ، في حين تصدأ على نحو جليّ نصوص أخرى ذات مستوى لغوي مماثل، نصوص توماس مان على سبيل المثال، وذلك لأن القارئ يشعر أن المشكلات التي تعالجها هذه النصوص الأخيرة إنما تبتعد عنا وتصبح تاريخية بعد أن كانت راهنة عندما كُتب عنها، مثل دور الفن في المجتمع البورجوازي مثلاً أو الإخفاق الحضاري للألمان بعد عام ١٩٣٣. بينما تخاطب نصوص كافكا خبرات سرمدية كما يقال، مثل الحقيقة الرهيبة بأنه ليس في مقدور المرء أبداً أن يفهم نفسه فهماً كلياً. يمكن القول بأن لكافكا مقاييسه القيمية الخاصة به.

- كثيرون يتصورون كافكا كاتباً ليلياً منتشياً كأن نصوصه تقع عليه. هل كان الحال هكذا أم أنه استخدم وسائطه عن وعي؟ هل كان يسيطر على حرفته؟

شتـــاخ: كانت نشوة تحت المراقبة والسيطرة.

- كان بحاجة قصوى إلى الكتابة. ألم يكن مدمن كتابة أيضاً؟ ألم يكن في الأمر شيئاً مَرَضياً؟

شتـــاخ: شيء مَرَضيّ كلا. كان لديه وعي بأنه إنما يعيش في اللغة. كانت اللغة أوكسيجينه، مادة حياته. هذا يعني أيضاً أنه استخدم غالباً الكتابة علاجاً ذاتياً. كان دائماً يقف تحت ضغط

نفسي. عندما كانت النبضات والحوافز تتدفق من الداخل وتهدده بحيث يشعر بأنه يكاد يفقد توازنه النفسي، فإنه كان أحياناً يستخدم الكتابة علاجاً وهو يعي ذلك. على سبيل المثال في شتاء عام ١٩٢٢ حيث حاول أن ينقذ نفسه في عمل كبير، وهكذا نشأت رواية **القلعة**.

- هل أخرجه من الأسرة والزواج خوفه من أن يسلباه الكتابة؟

شتـــاخ: الثمن الذي دفعه كان ثمناً باهظاً. لكن هذه الأهمية للكتابة لا تصحّ على حياته بكاملها. لقد عاش أيضاً فترات طويلة من التوقف عن الكتابة. مثلاً عندما انتهت مرحلة الإبداع الثانية في عام ١٩١٤/١٥، التي انقطع في نهايتها عن تكملة ومراجعة رواية **المحاكمة**، عاش فترة توقف عن الكتابة دامت عاماً ونصف العام. وأنا لست على يقين فيما إذا كان كافكا كان ما زال يعتبر نفسه في ذلك الوقت كاتباً أصلاً. أظن كلا. في تلك الفترة لم يكتب حتى يوميات. وعندما قام بمحاولة الخروج من هذه المياه الميتة، لم يعد لديه رغبة في كتابة عمل قصصي، بل أراد أن يكتب ضرباً آخر، فكتب أمثولات وجمعها في كتاب **طبيب ريفي**. وهذه نصوص مغايرة كلياً لقصتي **الحكم والانمساخ**، إنها تأملات.

- كيف يثير كافكا ناساً لكي يكتبوا عنه، كما لا يفعل كاتب آخر؟

شتـــاخ: نصوصه تثير السؤال عن تفسيراتها، لأنها في اللحظة الحاسمة تصبح غير دقيقة. من يشاهد مخطوطة رواية **القلعة مثلاً**، يلاحظ أن كافكا في مواضع كثيرة قد أجرى تعديلات تعمّد فيها عن وعي تام أن يحوّل الموضع الواضح إلى موضع يحتمل عدة تفسيرات. علاوة على ذلك، فإن قصصاً عديدة من قصصه تعالج بالذات موضوع عبث الجهود الرامية إلى فهم. يبدو لي أحياناً أن كافكا يفكّه نفسه بفضول قرائه.

- لماذا يقرأ ناس كثيرون كتباً عن كافكا في حين أن حياته تبدو مملّة ظاهرياً؟

شتـــاخ: لا أحس أن حياته مملّة. بالمعنى الراهن للأحداث والوقائع لم يعش تجارب كثيرة. غير أن الاندفاعة الحداثية، التي شارك فيها وراقبها، كانت هائلة. الانتصارات المتصلة للسيارة والطائرة والهاتف. الحرب العالمية الأولى، انهيار المجتمع الذي نشأ فيه. استيقظ ووجد أن دولة النمسا ـ هنغاريا لم تعد موجودة، تحوّل إلى مواطن في الجمهورية التشيكية تضم سياسيين كثيرين يعادون السامية والألمانية. العالم الذي وجده لم يكن عالمه.

- عندما عاش في الأشهر الأخيرة من حياته مع دورا ديامنت، يبدو أنه بات إنساناً آخر كلياً. هل كان خليقاً أن ينطلق ويتحرر بهذا القدْر لو لم يكن شديد المرض؟

شتـاخ: كلا، ما كان في مقدوره أن يفعل ذلك. كان دائماً يحاول أن لا يبوح بخصوصياته وأن لا يدع أحداً يقترب منه أكثر من الضروري. لكنه اضطر في النهاية أن يفعل ذلك لأن جسمه أصيب بالعجز. اضطر لقبول تدخل آخرين في حياته، ولم يعد في وسعه أن يفعل شيئاً سوى أن لا يكون هؤلاء هم الناس الخطأ. إن شكل حياته الزاهد انهار نتيجة مرضه.

٢٠٠٨ (حوار) يورغن هاين

Juergen Hein

٦

ما هو الموقف الكافكاوي؟

ـ قبل ١٢٥ عاماً ولد كافكا. هذا هو موضوعنا في الإذاعة الألمانية في الدقائق القليلة القادمة. معي على الخط السيد راينر شتاخ. صباح الخير يا سيد شتاخ! متى كنتَ آخر مرة في موقف كافكاوي؟

شتـاخ: صباح الخير، سيدة شولتز! على الدوام يواجه المرء مواقف كافكاوية. لا يحتاج المرء سوى أن يسمع الأخبار، وفجأة يسمع أن أسعار المواد الغذائية انفجرت في مكان ما من هذا العالم، أو أن أسعار البورصة انخفضت، فيتساءل عمن قام بعملية الإخراج.

ـ ما الكافكاوي بالنسبة لك؟

شتـاخ: كافكاوي هو عندما أحس أنني تحت رحمة آخرين، وأعرف أن ثمة سلطة عليا ما تقرر أموراً تتعلق بي مباشرة، دون أن يتاح لي قط أن أرى هذه السلطة وجهاً لوجه. لا أرى سوى الوسطاء وذوي الرتب الدنيا والخدم.

ـ في بلجيكا أطلقت الحكومة اسم «كافكا» على مشروع لها من أجل تخفيف الروتين في دوائر الدولة. هل نبالغ في استخدام مفهوم الكافكاوية؟

شتـاخ: نعم، بات يُستخدم على نحو متضخم. بيد أن كافكا قدّم دائماً بنفسه المواقف الكافكاوية بناء على انتشار البيروقراطية. في **المحاكمة** و**القلعة** يدور الموضوع حول أجهزة بيروقراطية منتفخة. مثلما هو الحال راهناً في هيئات الاتحاد الأوروبي مثلاً.

ـ هل هذا أيضاً هو سبب حضور الكاتب هذا الحضور الشديد؟

شتـاخ: أحد الأسباب على كل حال. هذا الشعور بأن المرء تحت رحمة الآخرين قائم اليوم

على نحو مماثل جزئياً على الأقل. آنذاك كانت أجهزة بيروقراطية. أما اليوم فإنها، بالإضافة إلى ذلك، ظواهر مثل العولمة، حيث تشعر الجماعات الصغيرة أن ثمة موجة هائلة تهدر فوق البشر وتدار من قبل هيئات لن يقتربوا منه البتة.

ـ رئيس الجمهورية الألمانية قارن مؤخراً الأسواق المالية العالمية بغول هائل يثير الرعب. هل ثمة كافكاوية هنا أيضاً؟

شتـاخ: هذا هو تماماً الاتجاه الذي ألمحت إليه لتوّي. إنه غول، لكنه مخيف ومثير للانقباض. هذا هو الأمر الحاسم لدى كافكا. أمام المرء لا يوجد خصم كبير وشديد البأس وحسب، بل خصم غير مرئي. إنه يتلمّسني، يمدّ مجسّاته نحوي، بيد أني لا أرى وجه هذا الخصم. هذه هي المشكلة، وهذا ما يخلق الجو المقبض، الذي نسمّيه كافكاوياً.

ـ ثمة فرق هو أنه يمكن لكل فرد أن يدخل، نظرياً، إلى البورصة مثلاً.

شتـاخ: هذا أيضاً هو مماثل لما هو الحال لدى كافكا. عندما تقرئين المشاهد التي وصفها كافكا، تشعرين أن أمامك صورة فوتوغرافية. تفاصيل الاعتقال في **المحاكمة** توصف بوضوح فائق. هكذا تحصلين على أسعار البورصة ثانية بثانية. لكن ماذا يختبئ وراء ذلك؟ السلطات التي تتخذ القرارات؟ هنا يضيع كل شيء في الضبابية. هذا يماثل الحال في **المحاكمة**.

ـ ما هو إذاً الكافكاوي في العرض والطلب؟

شتـاخ: المجهول فيهما. إنها محاكمة (بمعنى: عملية. ا. و) تجري في الخفاء كلياً، رغم أننا نرى رجال البورصة أمام أجهزتهم، لكن أين أولئك الذين يتخذون القرارات المركزية؟ هذه هي المعضلة.

ـ هل يزداد العالم كافكاوية دائماً أكثر؟

شتـاخ: تصعب عليّ الإجابة. طبعاً هناك كفاح على مستوى العالم من أجل تحقيق الشفافية، لكن في الوقت نفسه ثمة شعور أن النظام بكامله يُظهر دائماً ذبذبات أقوى، وأن الناس لا يفهمون من أين يأتي هذا. يشعر المرء أن عملية العولمة تصبح أكثر ضبابية وتخرج عن خط سيرها بعض الشيء. إن المرء لا يعرف أين تختبئ المعلومات الحاسمة التي تقود هذه العملية.

ـ هل من الممكن أن نكون قد فهمنا كافكا فهماً خاطئاً كلياً؟

شتاخ: لا، لا. لكن ينبغي على المرء أن يقرأ بتمعّن.

٢٠٠٩ (حوار إذاعي) سندرا شولتس

Sandra Schulz

٧

حقاً لا يوجد لدى كافكا كلمة زائدة عن اللزوم

ـ ماذا يمكن لكافكا أن يقوله لنا بعد؟ ما قيمة آثاره اليوم؟

شتـاخ: كمال نصوصه اللغوي وأصليتها لا مثيل لهما في الآداب العالمية، كما أعتقد. لدى كافكا لا يوجد فعلاً كلمة زائدة عن اللزوم. ما من مرة واحدة تخرج من قلمه جملة ضعيفة، ولا حتى على البطاقات البريدية التي كان يكتبها من إجازاته. ورغم ذلك لا يبدو البتة أنه بذل مجهوداً في كتاباته، بل على العكس، لغته تبدو من النظرة الأولى في غاية البساطة. لكن عند النظر بدقة، تتبدى وهاد وأغوار. راديكالية كافكا وراهنيته لهما علاقة ولا ريب بهذه البساطة أيضاً. نصوصه تبدو وكأنها لا تتقادم. إن الأمر يقترب من أعجوبة جمالية أن مثل هذا ممكن. علماً أن كافكا لم يحاول أبداً أن يكتب كتابة خالدة.

لكن طبعاً هناك موضوعاته التي ما زالت تثيرنا: العنف، الاستلاب، المجهولية، الكفاح من أجل الهوية. لقد وصف آليات تأثير السلطة، هذه السلطة التي لا نستطيع التخلص منها لأنها تقبع في خلفية ذهننا. وأخيراً رأى كافكا الجسد البشري بطريقة جديدة كلياً: ليس كغلاف، ليس كملحق، بل كجزء من الهوية نفسها. كافكا يراقب الجسد البشري كما نراقب حيواناً عجيباً غريباً. هذه النظرة الغريبة هي التي تثير في نفوس قرائه اليوم أيضاً لذة وصدمة المعرفة. ولا أعتقد أن شيئاً من هذا سوف يتغير في زمن قريب.

ـ صورة كافكا الخاطئة: «نهاية الأساطير» عنه، الذي يتصوره المرء منطوياً على نفسه، متحفظاً وغريباً عن هذا العالم.

شتـاخ: كانت ظروف حياته أكثر صعوبة مما كنا نفترض. هنا مثال واحد فقط: في عامه الأخير قضى التضخم على مدخراته وراتبه التقاعدي، ولم يعد يستطيع أن يبتاع جريدة أو يدفئ غرفته الباردة في برلين. ولم يشكُ حتى من هذا الوضع. كان نفسياً أشد صلابة من الصورة المألوفة عنه. لقد قام بتعبئة طاقات نفسية هائلة لكي يجتاز الظروف الخارجية القاسية ويظل منتجاً. وهذا الإنجاز لم يعط حق قدره. كما توضح منذ مدة طويلة أن كافكا لم يكن أبداً غريباً عن هذا العالم، وهو الذي كان يعمل موظفاً ناجحاً في هيئة عصرية كبيرة.

ـ ماذا كان كافكا خليقاً أن يقول عن شهرته العالمية الراهنة وعن الاهتمام الكبير بشخصه؟

شتـاخ: من الصعب الإجابة عن هذا السؤال. على الأرجح كان سيرتعب من كون حياته

باتت محور أبحاث ونقاشات عامة. أظن أنه كان ساذجاً بخصوص هذه النقطة. كان نفسه يقرأ بشغف رسائل العظماء ويومياتهم، بيد أنه لم يرد بخاطره البتة أن وثائق حياته قد تطبع ذات يوم. لم يكن يعتبر نفسه ذا أهمية كافية. وهذا أمر مفهوم إلى حد ما، فقد اضطر إلى ترك آثار فنية كثيرة غير مكتملة، وشعر بإخفاقه. لم يكن خليقاً قط أن ينشر عملاً غير مكتمل، وبهذا أن يقوم هذا العمل، بالإضافة إلى ذلك، بتوثيق إخفاق صاحبه. كوننا نعتبر آثاره أدباً عالمياً كان خليقاً أن يلقى هوى لديه، غير أنه ما كان من شأنه أن يفهمه ولا أن يقبله.

كان خليقاً أن يبتسم لنفسه في هدوء ـ لكل ما لا يمكننا أن نعرفه عنه ولن نعرفه.

٢٠٠٩ (حوار تلفزيوني) بيتر تسوريك

Peter Zurek

٤ ـ حديث مع مخرجة مسرحية

ـ السيدة شتيفي لكْنر Steffi Lackner، تُعتبر رواية **المحاكمة** لكافكا معقدة ومحيّرة. لماذا تقدمينها على المسرح؟

شتيفي لكنر: الرواية من الأدب العالمي، وبالإضافة إلى ذلك جذابة وآسرة للغاية. يمكن للمرء أن يغرق في عالم مغاير كلياً، وهذا يستحق مشاهدة مسرحية.

ـ هل يتعيّن على المرء أن يكون من محبّي كافكا كي يحب مسرحيتك؟

لكنر: إن الإيغال في عالم كافكا الذهني هو أمر مشوّق للغاية بالنسبة لكل فرد. لقد اختصرنا الرواية وحاولنا أن تكون سهلة الفهم، ورغم ذلك أعتقد أننا أنصفنا كافكا أيضاً. من لم يقرأ الرواية بعد، يتلقاها هنا بانطباعات حسية للغاية وبطريقة أقل مدعاة لبذل جهد كبير. وقد لاقت المسرحية نجاحاً كبيراً.

ـ كم يقترب يوزف ك. من المتفرج؟

لكنر: لم يبتدع كافكا يوزف ك. خفيف الظل للغاية، لكن مع مضيّ الوقت يبدأ المتفرج بمشاركة ك. معاناته ويفهم مخاوفه. إن المسرحية تثير على نحو كبير الاستعداد والقدرة على أن يضع المرء نفسه موضع شخص آخر.

ـ يقع يوزف ك. تحت رحمة محكمة وعاجز أمام هذا القضاء والقدَر. نحن نعيش في ديموقراطية. هل يمكن تصور مثل هذه الحالة راهناً؟

لكنر: في المجتمع الراهن أيضاً يحدث مراراً وتكراراً أن يقع الناس في طواحين دوائر الدولة ولا يخرجون منها. أو يقعون في صراع مع الشركات العالمية في دوامة دون أن يتمكنوا من فعل شيء. لذا يظل هذا القدَر مفهوماً.

ـ حتى إن موضوع المراقبة في غاية الراهنية، أليس كذلك؟ بآلات تصوير مركبة في كل زاوية نقع تحت المراقبة الدائمة.

لكنر: بسبب الذعر المبالغ فيه الذي يسود منذ الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١ بات موضوع المسرحية يناسب أوضاعنا على نحو أفضل. في بعض البلدان جرى تركيب آلات تصوير في كل مكان. هذا الوجود تحت رحمة آخرين هو تماماً موضوع المسرحية.

ـ علاوة على ذلك هناك موضوع التكيف مع نظام. ما يضغط على الناس في هذه الأيام هو الخوف من فقدان مكان العمل.

لكنر: هذا هو الحال تماماً. يوزف ك. أيضاً يجب أن ينتبه أن تظل سمعته في البنك حميدة. المسرحية تعالج أيضاً موضوع المسؤولية. يوزف ك. لا يتحمل حقاً مسؤولية من أجل نفسه، وطبعاً ليس من أجل آخرين.

ـ تبغين إذاً أن تدفعي إلى التفكير؟

لكنر: المسرحية بطبيعتها تدفع إلى التأمل.

ـ اليوم تقوم القوانين الاجتماعية التي سرت في السنوات الأخيرة بدفع الناس للشعور بأنهم عاجزون ويقعون تحت الرحمة. من يفقد عمله مثلاً، لا يحصل على معونة اجتماعية من الدولة إلا بعد أن يبيع كل ما يملك ويستهلك ثمنه، إذا كان يملك شيئاً.

لكنر: تماماً. إننا ما زلنا حتى اليوم، في مجالات كثيرة، تحت رحمة آخرين يقررون مصائرنا.

ـ من فلسفتك المسرحية أنك تقدمين مسرحيات غير مريحة، في حين تعمد المسارح الأخرى إلى عرض مسرحيات للتسلية بزعم أن الجمهور يطلب ذلك.

لكنر: أعتقد أن الناس لا يريدون ثقافة مسطحة فقط. غير أننا نلاحظ حالياً أنهم يثقون لدى المسرحيات الجدية بالمسرحيات التي كانوا قد اطلعوا عليها. طبعاً من الصعب دائماً تقديم ما هو جديد. بصفتنا مسرحاً خاصاً نقف دائماً على حافة الهاوية. لذا لا نقدم مسرحيات مميزة إلا في مرات قليلة. في حالة كافكا حسبنا أيضاً أن نقدم مسرحية تدرس في المدارس لكي نثير اهتمام التلاميذ بكافكا وبالمسرح.

ـ هل المسرحية مقدمة للشبيبة أيضاً؟

لكنر: أيضاً. المسرحية مشوقة ولا عصر لها. ونحن نرمي إلى مساعدة المدرسين والتلاميذ في فهم المادة على نحو أفضل.

٢٠٠٩ (حوار) سوزانه سوبكو

Susanne Sobko

IV ـ من أخبار كافكا الأخيرة وتأثيره الراهن (٢)

كتب جديدة

إن كافكا هو الأكثر شهرة بين كتّاب العالم. وقد تُرجم من نصوصه إلى جميع لغات العالم المكتوبة. وليست راهنيته في تناقص، بل في ازدياد منذ عقود. وأصبح واحداً من المبدعين الذين لم يعودوا بحاجة إلى اسم أول، مثله مثل غوته، شكسبير، دانتي وديستويفسكي. وقد سحر عدداً كبيراً من الكتّاب، وكل الكتّاب الكبار الذين عاشوا بعده قرؤوه، لكن لا يوجد ورثة له. من اسم كافكا جرى اشتقاق ثلاث كلمات ألمانية: فعل kafkaen، صفة kafkaesk كافكاوي ومصطلح Kafkaologe كافكالوجي، أي عالِم من العلماء مختص في أدب كافكا. وصارت الدراسات عن كافكا تشكل شبه عِلْمٍ قائم بذاته.

كتب ألبير كامو: «هنا (في آثار كافكا الفنية) نُنقل إلى حدود الفكر البشري. كل شيء في هذه الآثار جوهري». وكتب ناقد الماني: «آب ١٩١٤: هذا هو الشهر الذي لم تبدأ فيه الحرب العالمية الكبرى وحسب، بل هو أيضاً الشهر الذي كتبت فيه الجملة الأولى الأكثر شهرة في العالم بإطلاق، الجملة الأولى في رواية **المحاكمة**». **لا بدّ أن أحداً قد افترى على يوزف ك.، إذ اعتقل ذات صباح دون أن يكون من شأنه أن يكون قد فعل شراً.**

في العقد الأول من القرن الواحد والعشرين صدر في اللغة الألمانية ما لايحصى من الكتب والدراسات والمقالات عن «أيقونة القرن العشرين». هنا لمحة موجزة عن بضعة كتب مما قرأته من هذه الكتب الجديدة:

١ ـ كافكا / أعوام الإدراك

خطوة من الخطوات الأولى على الطريق الطويل لفهم الأثر الفني العظيم هي معرفة الإطار، الفردي والاجتماعي، الذي نشأ فيه هذا الأثر. كتب السيرة التي توضع عن المبدعين الكبار تحاول تقديم هذا الإطار إلى القراء. في حالة كافكا لدينا في اللغة الألمانية عدة كتب سيرة عن حياة كافكا وآثاره. من أهم هذه الكتب هو الكتاب الذي وضعه راينر شتاخ، وصدر الجزء

الثاني منه في عام ٢٠٠٢ (*)، والثالث في عام ٢٠٠٨ (الأول يصدر لاحقاً).

لدى صدور الجزء الثاني كتب ناقد: «من الغريب أنه لا يوجد سيرة حياة كافكا ألمانية، من الغريب أكثر: الآن أصبحت متوفرة. الأكثر غرابة: إنها سيرة حياة عظيمة».

انتهى الجزء الثاني من كتاب شتاخ «أعوام القرارات» بمشهد الفراق بين كافكا وفيليس بتاريخ ١٢ تموز ١٩١٤. وقد افتتح هذا المشهد إحدى مراحل الإبداع الأكثر إنتاجاً في حياة كافكا.

الجزء الثالث من كتاب شتاخ يبدأ بمشهد «فسخ الخطوبة والحرب»، تليه محطات بقية حياة كافكا من عام ١٩١٦ حتى وفاته في عام ١٩٢٤. في تلك الأعوام زال العالم المألوف بالنسبة لكافكا، غاب سياسياً ونفسياً. أمسى كافكا ألمانياً يحمل جواز سفر تشيكوسلوفاكياً، وبات يعاني من مرض حال دون تأسيس وجود أدبي كان كافكا يحلم دائماً بتحقيقه. ذلك الزوال زاد من سداد بصيرته، حدة رؤيته وبُعد نظره. تلك الأعوام من عمره باتت «أعوام الإدراك»، حسبما يرى شتاخ.

كانت المحطات الظاهرية التالية في حياة كافكا: التقارب ثانية بينه وبين فيليس وخطوبتهما وفسخ الخطوبة الثانية أيضاً؛ علاقته بغريته بلوخ؛ خطوبة كافكا وابنة الإسكافي يولي فوريتسك، فسخ هذه الخطوبة أيضاً؛ علاقة كافكا بميلينا، التي هي أهم علاقة نسائية له، وحبه لها، هذا الحب الأكثر بؤساً. حب كافكا ودورا ورعايتها له في مرضه العضال؛ كفاحه من أجل الكتابة؛ موته بعد معاناة آلام شديدة. شتاخ يصف موت كافكا بطريقة مؤثرة للغاية.

عاش كافكا حياة عاطفية بائسة. يبرز شتاخ دور وأهمية النساء في حياة كافكا وكتابته، رغم عدم صلاحية تلك النساء حسب المقاييس البورجوازية آنذاك. كان ثمة همس يدور بأن يولي من بنات الهوى. ميلينا كانت معروفة في مقاهي المثقفين بأنها بوهيمية متمردة على المجتمع، وسرقت وتعاطت مخدرات، وأقامت علاقة حب مع كافكا وهي متزوجة. ودورا تصغره بواحد وعشرين عاماً وخارجة على والدها، الحَبر اليهودي، الذي رفض طبعاً طلب كافكا الزواج من ابنته. «كان كافكا يمثل بالنسبة لها مثلاً أعلى إنسانياً».

يزيل شتاخ الأسطورة التي تقول بأن كافكا كان يولّي ظهره للعالم. يقدم شتاخ صورة واضحة عن ظروف حياة كافكا. يصف الأوضاع العامة والأحداث السياسية والاقتصادية في براغ أثناء الحرب العالمية الأولى، هذه الكارثة التي هزّت كافكا وأثّرت في حياته على جميع المستويات. كان يجوع أحياناً، وفقد مدخراته القليلة. وهرباً من ظروف كثيرة (مثلاً كان

(*) راجع: فرانز كافكا: «الآثار الكاملة / مع تفسيراتها»، الجزء الثاني (المحاكمة)، ص ٣٦٣ - ٣٩٦.

دوامه الوظيفي ٥٠ ساعة في الأسبوع) أراد جاداً أن يصبح جندياً ويدخل إلى الحرب (ليس وطنية طبعاً). هنا فكر أيضاً بالهجرة إلى فلسطين (وليس صهيونية طبعاً). حتى إنه شعر براحة عندما أصيب بالسل ونزف دماً. نام في عدة ليال نوماً عميقاً.

يحوي الجزء الثالث هذا تفسيرات أكثر مما جاء في الجزء الثاني. تفسيرات حذرة تقوم على سيرة الحياة. يرى شتاخ أن ما يميز كتب كافكا هو أن هذه الكتب تصلح لكل عصر. ففي حين أن الكتّاب المعاصرين له لا يجدون قراء لهم في عصرنا، فإن رواياته وقصصه تُفهم «بطريقة تلقائية». وهذا يعود إلى أن ما تثيره نصوصه في نفوس القراء له علاقة قوية بالأوضاع في عصرنا. على سبيل المثال أننا نعيش في عالم تدار شؤونه بطرق بيروقراطية، أننا نعيش حياتنا «كما يفعل النمل»، وأن الهيئات والجهات التي تنظم كل شيء وتديره وتراقبه، لا تتجلى قط ولا تصبح مرئية.

اقترب شتاخ من شخص كافكا أكثر ربما مما استطاع أي آخر. يقدم الخلفيات والإطار، لكن هل نفهم الأثر الفني الذي كتب في هذا أو ذاك الإطار؟ طبعاً لا. إن الظن أن كتابات كافكا هي مجرد شهادات ووثائق عن حياته هو ظن خاطئ. لكن ما يوفق فيه شتاخ هو كشفه عن «شروط نصوص كافكا العبقرية» وخلفيات نشوء هذه النصوص، والعلاقة المتبادلة بين العالم الداخلي لكافكا والعالم الخارجي. يقول شتاخ: «أريد أن أبيّن كيف أتى كافكا إلى آثاره الفنية، ما هي الانطباعات والتجارب التي طبعته بطابعها».

في الختام نلقى كافكا مدركاً فشله. الهدوء الداخلي والوصول إلى وطن الذات يظل حلماً غائماً. المعاناة وحدها باقية كبريق. إن شتاخ على قناعة تامة أن كافكا ظل طوال حياته غير متديّن وغير مؤمن. موت كافكا في كتاب شتاخ يبدو مثل موت **الرجل من الريف** غير المرتاح، الذي يتعيّن عليه في نهاية حياته الموسومة بالانتظار القاسي والأمل أن يتحمّل صدّ حارس الباب. محصوراً، مضنى، مستنزَفاً يموت هذا العبقري بعد أن أدرك إدراكاً محزناً غاية الحزن أنه لم يصل قط.

رغم ذلك يتجلى في كتاب شتاخ اليقين بأن كافكا رغم موته الباكر سيبقى عنواناً سرمدياً لفن السرد. في أدبه ثمة سرّ لا شعوريّ من أسرار الكينونة البشرية لن يكتمل تقصّيه أبداً ولن تسبر أغواره.

يقرأ المرء سيرة كافكا هذه وهو متقطع الأنفاس مثلما يقرأ رواية مشوّقة للغاية. إنها أكثر تشويقاً من أية رواية قرأتها. شتاخ يدع الحياة تدبّ في كافكا ويحوّل سيرة حياته إلى متعة قراءة. يقدم هذه السيرة رواية ساحرة، كأنها رواية متخيلة كتبت طبقاً لكل قواعد الرواية. يبدو روائياً يسرد الأحداث التي ابتكرها بنفسه، أو شخصاً جرت في حضوره. إنه راو عارف

بكل شيء، يبدو وكأنه يبتدع كافكا شخصية روائية. ويبدو كأنه يفهم شخص كافكا أفضل مما يفهم نفسه. وما من أحد كتب عن حياة كافكا إيحاء هكذا وتفهماً في لغة جميلة وواضحة مثل شتاخ. لكن ليس هذا هو السبب الوحيد لنجاح كتاب شتاخ، بل إن هذا النجاح يعود أيضاً إلى اهتمام كثيرين بكافكا وحياته وإلى أن قوة جذب آثار كافكا لم تفتر.

طبعاً تظل ثغرات في حياة كافكا، وسوف تظل. شتاخ يعترف بذلك مرات عديدة: «لايمكن التوثيق»، «لا نعلم».

٢ ـ كافكا الابن الأبدي

«فرانز كافكا الابن الأبدي / سيرة حياة»، كتاب وضعه بيتر ـ أندريه ألت بروفسور الأدب الألماني الحديث في جامعة برلين والمختص في أدب كافكا. صدر الكتاب في عام ٢٠٠٥ وصدرت طبعته الثانية في عام ٢٠٠٨. يقع في ٧٦٧ صفحة من القطع الكبير (٣٥ يورو)، ويُعتبر أهم كتاب حتى الآن عن سيرة حياة كافكا.

يتألف من عشرين فصلاً، هذه عناوينها: في شبكة العلاقات، طفولة وسنوات المدرسة (١٨٨٣ ـ ١٩٠١)، سنوات الدراسة وصداقات حياة (١٩٠١ ـ ١٩٠٦)، كتابات أولى (١٩٠٠ ـ ١٩١١)، سنوات المهنة الأولى (١٩٠٦ ـ ١٩١٢)، بحثاً عن الآثار (١٩٠٨ ـ ١٩١٢)، فن التأمل (١٩٠٨ ـ ١٩١٣)، محبوبة كتابة: فيليس باور (١٩١٢ ـ ١٩١٣)، عمل ليلي أدبي (١٩١٢ ـ ١٩١٣)، المفقود (١٩١٢ ـ ١٩١٤)، المحاكمة (١٩١٤ ـ ١٩١٥)، سنوات الحرب بلا قرارات (١٩١٥ ـ ١٩١٧)، مرض ودروب فرار (١٩١٧ ـ ١٩١٨)، مَحاضر الرعب (١٩١٤ ـ ١٩١٩)، يولي فوريتسك وميلينا بولاك (١٩١٩ ـ ١٩٢١)، تصميمات ذات وأمثولات (١٩١٧ ـ ١٩٢٢)، القلعة (١٩٢٢)، بعد التقاعد (١٩٢٢ ـ ١٩٢٣)، قصص متأخرة (١٩٢٢ ـ ١٩٢٤)، السفرة قبل الأخيرة (١٩٢٣ ـ ١٩٢٤).

تضع هذه السيرة حياة كافكا وآثاره الفنية في إطار التيارات الثقافية الكبرى في عصره، تقدم المتسكع والمنفرد، المسافر والقلق، الزاهد والمحب، المنتشي والمتشكك، خبير الرعب وأستاذ السخرية. تفرّد كافكا الفني يُفهم فهماً جديداً انطلاقاً من الوضع الخاص لهذا التفرّد بين الأسطورة والحداثة ـ كملكية ابن أبدي يرى نفسه في بداية ونهاية كل ما هو متوارث.

تقدم هذه السيرة الكاتب كافكا مراقباً لعصره وشاهداً عليه، وتضيء خبرات وأحلام ورؤى وتخيلات كاتب ترتسم في عالمه الداخلي نزاعات القرن العشرين الكبرى.

انطلاقاً من أن كافكا كان يعتبر الحياة والكتابة وحدة متكاملة شكلت هويته، يربط ألت

قصة حياة كافكا بتفسيرات شاملة تتغلغل إلى آثار كافكا وظروفها النفسية. هنا يجري تفسير حياة كافكا ليس كمصدر بل كمرآة للمشاريع الأدبية. بهذه الطريقة ينال الواقع المبتدَع في قصصه ورواياته ضمن خطوط مشروع الحياة نتيجة آسرة ومقبضة في آن.

هذه زاوية نظر جديدة كل الجدة في كتابة سيرة حياة: ليست الحياة هي مصدر الكتب، بل الكتب هي مصدر الحياة. مرة أخرى، إن الأدب يساعد في فهم الحياة.

من المألوف القول بأن الفن هو تعبير عن الحياة. غير أن العكس أيضاً صحيح: غالباً ما تكون الحياة، في طريق بحثها عن شكل وتعبير، هي التي تحاكي الفن. ثمار مدهشة لهذه الفكرة نجدها في سيرة حياة كافكا التي وضعها ألت. مثال: فيليس باور تأخذ دور الحبيبة والخطيبة بعد كتابة قصة **الحكم**. يكتب ألت: «ليست فريدا هي فيليس، بل إن فيليس تمثل فريدا». إن نموذج الخطيبة ينبع من مخزن المخيلة قبل أن يصبح واقعاً. وهناك أحداث أخرى كثيرة في حياة كافكا مرسومة أدبياً قبل وقوعها، مثل مرضه، الذي توفي به، فبعد إصابته بمرض السل كتب كافكا إلى صديق: «**لقد تنبأت به بنفسي. هل تذكر جرح الدم في [طبيب ريفي]؟**». حتى موت كافكا يتبع نماذج شخصياته الأدبية: عندما يسلب سل الحنجرة صوته، ولا يعود يستطيع تناول الغذاء. هكذا مات الفنان جوعاً في قصة **فنان جوع**، التي كتبها كافكا قبل وفاته بعامين، وقام بتصحيح بروفتها وهو يتضور جوعاً في فراش الموت(*)

يوضح ألت أيضاً أن ذلك القانون السري الذي يحكم على علاقات حب كافكا بالفشل، ليس مع فيليس وحدها، بل مع يولي وميلينا أيضاً، إنما هو محاكاة دقيقة لتوقف تلك الدورات التي كانت تتحكم في إنتاجه الأدبي. في الحالتين، الحب والإنتاج الأدبي: مرحلة انتشاء، تتبعها مرحلة إخفاق وفشل. يفهم ألت علاقة كافكا بفيليس «كمخطوطة لا يمكن إتمامها، تماماً مثل روايات كافكا».

قيل عن كتاب ألت بأنه يعوّض عن رف كامل من كتب الدراسات عن كافكا. إن وسيلة التفسير التي يستخدمها ألت أكثر ما يستخدم هي كتابات فرويد، ويرى ألت أنه يمكن لكتابات فرويد أن تفسر كتابات كافكا، كما أنه يمكن لكتابات كافكا أن تفسر كتابات فرويد. فمثلاً يتعرف ألت في إدارة القلعة على النظام النفسي الذي يصفه فرويد. يرى في الموظفين الخجولين المهووسين بالجنس أفكار حلم غير واعية تختبئ عن أنظار الأنا.

وما يميز كتاب ألت عن كتاب شتاخ وكتب السيرة الأخرى هو احتوائه على تفسيرات كثيرة لآثار كافكا.

(*) راجع الجزء الأول من «الآثار الكاملة»، ص ٥٢١ ـ ٥٢٣.

في حين أن سيرة حياة كافكا التي كتبها راينر شتاخ موجهة إلى جمهور القراء العريض، فإن سيرة ألت موجهة إلى الأكاديميين والقراء المختصين. إن كتاب شتاخ يقتصر على سيرة الحياة، ولا يتعرض إلى الآثار وتفسيراتها إلا قليلاً. وكتب السيرة الأخرى التي وضعت عن كافكا تخلو من تفسيرات لآثاره الفنية.

قرأ ألت سيرة حياة كافكا ببصيرة عالم أدب، وهكذا وضع السيرة والآثار في سياق جديد. وهو يريد تطوير جنس السيرة الأدبي، حيث كان قد نشر في عام ٢٠٠٠ أيضاً سيرة حياة شيللر في جزأين من ١٤٢٣ صفحة.

تفيد نظرية ألت الأساسية بأن كافكا كان في حياته يحاكي الأدب. في «الحوار اللامتناهي» بين الحياة والأدب تتقدم المخيلة إلى المركز وترتّب المُعاش مثل حلم. من هذا يستنتج ألت أنه بالذات بسبب هذا الترابط بين الحياة والأدب، فإنه لا يمكن الاقتصار لدى آثار كافكا على بُعد واحد وتفسير واحد. وألت يطبّق هذه النظرية بأن يذكر تفسيرات متعددة لكل نص يحاول تفسيره من نصوص كافكا.

يرى ألت أن الوضع الرئيسي في حياة كافكا هو نموذج «الابن الأبدي» بمعنى الإنسان غير المكتمل، ناقص التكوين. فقد أمضى كافكا كامل حياته تقريباً في منزل أهله، ولم يتزوج قط، ولم يمتلك أي شيء، ولم ينجب. ولم يتمتع بحبه لخطيبته فيليس باور التي خطبها مرتين ولصديقته لاحقاً ميلينا بولاك، هاتين المرأتين اللتين كتب لهما رسائل أمست من أشهر الرسائل في تاريخ الأدب. يرى ألت أن كافكا عبّر سلفاً في آثاره عن هذا الوضع. في قصة **الحكم** سبّق كافكا على علاقته اللاحقة الخائبة مع فيليس، وفي قصة **طبيب ريفي** ألمح إلى مرض السل الذي أصابه بعد كتابة القصة وقضى عليه، ألمح إليه بمعنى نموذج حياة مدمّر.

وما يناسب أيضاً فهم الابن الأبدي غير المكتمل أن مجموع آثار كافكا الفنية ظلت غير مكتملة. **أنا نهاية أو بداية**، كتب كافكا عن نفسه.

رغم أن ألت يذكر أكثر من مرة أن بعض نصوص كافكا ظلت لغزاً بالنسبة له أيضاً هو عالم الأدب، فإن محاولته إضاءة حياة كافكا وآثاره الفنية من زوايا متباينة تبدو، نظراً للإبهام الذي يحيط بكافكا، المحاولة الأكثر إقناعاً.

رغم ذلك، إن السيرة التي كتبها ألت هي ولا ريب أفضل سيرة كتبت حتى الآن عن كافكا.

إن كتب السيرة هذه تعرض لنا حياة كافكا بكل تفاصيلها على نحو يبدو كاملاً. وإن كان من المحقق أنه لم يكن في مقدور كافكا أن يتصور في أسوأ كوابيسه، مجرد تصور، أن تأتي أجيال لاحقة وتهتم بحياته اليومية وتقتفي أثرها.

٣ ـ فرانز كافكا / صور من حياته

كتب الناشر كلاوس فاغنباخ (مواليد عام ١٩٣١) ونشر ستة كتب عن كافكا. وهو يملك أكبر مجموعة صور ووثائق مصورة وآثار تذكارية لكافكا في العالم. وقد بدأ بجمعها منذ عام ١٩٥١. وبهذا أصبح لديه أرشيف فريد من نوعه، لا أحد غيره يملك نظيراً له عن أي كاتب في العالم. من محتويات هذا الأرشيف على سبيل المثال: النسخة الأصلية من آخر صورة أخذت لكافكا (في محل تصوير فيرتهايم في برلين في تشرين الأول ١٩٢٣) قبل وفاة كافكا بثمانية أشهر، وهي الصورة المنشورة دائماً وتبيّن كافكا رجلاً مريضاً مرضاً شديداً. مثال ثان: دفتر أصلي يحوي تقارير عمل كتبها كافكا بخط يده في مكان عمله في «مؤسسة التأمين على حوادث العمال». مثال ثالث: سدادتا قطن كان كافكا يضعهما في أذنيه «ضد ضجيج العالم». مثال رابع: حجر جلخ كان جدّ كافكا، ياكوب كافكا، الجزار، يستخدمها في دكانه في قرية نائية في النصف الأول من القرن التاسع عشر (عندما كان كافكا في سن السادسة أخذه والده معه من براغ إلى جنازة جده في القرية. لاحقاً سيكون لتلك الزيارة شأن في كتابة رواية **القلعة**).

في عام ١٩٨٣ نشر فاغنباخ كتاباً مصوراً بعنوان «فرانز كافكا / صور من حياته» يحوي صوراً لكافكا ومن حياته من هذا الأرشيف. وقد اعتبر هذا الكتاب كتاباً أسطورياً. وفي عام ٢٠٠٨ صدرت طبعة رابعة منقحة وموسعة ضمت صوراً جديدة. ويبلغ عدد الصور المنشورة الآن في هذا الكتاب ٦٩٦ صورة (٢٥٦ صفحة، ٤٠ يورو). صور لكافكا طوال حياته، لأفراد أسرته، أصدقائه، أماكن سكنه، إجازاته، إقاماته، المصحات التي أقام فيها، المعامل التي قام بالتفتيش عليها مكلفاً، وغيرها كثير. وكتب فاغنباخ شروحات وافية للصور بالإضافة إلى اقتباسات من نصوص كافكا تطابق الصور.

٤ ـ عالم كافكا / تأريخ حياة في صور

المولع الرابع بحياة كافكا، هارتموت بيندر، بروفسور للأدب الألماني طوال ثلاثين عاماً أمضاها مع كافكا، نشر في عام ٢٠٠٠ كتاباً مصوراً بعنوان «أين كان كافكا وأصدقاؤه ضيوفاً»، يقع في ٢٦٢ صفحة من القطع الكبير جداً (٤٠ X ٢٣ سم، ٢٥ يورو سعر مخفض).

في عام ٢٠٠٧ نشر بيندر كتاباً مصوراً بعنوان «مع كافكا إلى الجنوب / رحلة تاريخية مصورة إلى سويسرا والبحيرات في شمال إيطاليا» (٤١٨ صفحة، ٨٠ يورو).

وفي عام ٢٠٠٨ نشر بيندر كتاباً مصوراً جديداً بعنوان «عالم كافكا / تأريخ حياة في صور» (٦٥٦ صفحة، يزن ٥ كيلو غرام، ٦٨ يورو). سيرة حياة مصورة في صور فاخرة.

١٢١٤ صورة، كثير منها ينشر لأول مرة، يستعرض فيها حياة كافكا وآثاره على نحو شامل قد يكون شبه كامل. صور المنازل التي سكن فيها كافكا وأقاربه؛ الفنادق التي بات فيها؛ المدارس والجامعات والمعابد والكنائس والمقاهي والمسارح والكباريهات والصالونات والمعارض التي زارها؛ الأماكن والمناظر الطبيعية التي قام فيها بمشاوير؛ المناطق التي قادته إليها مهماته الوظيفية وإجازاته؛ الناس الذين قاموا بأدوار مهمة بالنسبة له، أصدقاء، أساتذة، أطباء، زملاء؛ وطبعاً نساء.

يقدم بيندر عالم الحياة اليومية لكافكا، وقد سار على الطرق والدروب التي سار عليها كافكا عبر براغ، ونشر صور الشوارع التي مشى فيها كافكا والمنازل التي سكن فيها. على مدى ثلاثين صفحة يصف بيندر طريق كافكا من البيت إلى المكتب والعكس. نعلم كل مطعم، كل مقهى، كل محل بغاء زاره كافكا. كل كتاب مدرسي درسه، كل صحيفة قرأها، كل لوحة شاهدها. نعلم منه ماركة سائل الشعر الذي كان كافكا يستخدمه.

من يبدأ في تصفح وقراءة هذا الكتاب، لا يستطيع أن يتركه من يديه. ولا يستغرق الأمر طويلاً حتى يشعر المرء أنه اختطف إلى عالم مثير ومؤثر، عالم تعود الحياة إليه بهذا الكتاب البديع.

إن بيندر يقدم جردة حساب عن حياته مع كافكا، حياته في عالم كافكا.

لا يتألق هذا الكتاب بالصور وحسب. فتحت كل صورة نص من يوميات كافكا أو شروحات من بيندر. ما من سيرة حياة مصورة يمكنها أن تكون أكثر اكتمالاً.

طبعاً تتكرر صور كثيرة من حياة كافكا في كتابي فاغنباخ وبيندر. إنهما كتابان مصوران لا مثيل لهما عن كاتب آخر. وهما يكمّلان على خير وجه كتابي شتاخ وألت عن سيرة حياة كافكا، اللذين يخلوان من صور.

في هذين الكتابين المصورين يصبح كافكا الكاتب الأكثر توثيقاً. وفي ختام هذه الصور والمعلومات والتفاصيل في الكتابين يبدو أنه يمكن للقارئ ـ المشاهد أن يفهم الإنسان فرانز كافكا إلى حد ما.

لكن الغريب: إن المرء لم يقترب خطوة واحدة من فهم آثار كافكا الفنية. كافكا يظل لغزاً. ليست هذه هزيمة لبيندر وفاغنباخ، إنه نصر للأدب.

٥ ـ «انمساخ» كافكا / نشوء، تفسير، تأثير

في عام ٢٠٠٤ صدر كتاب للبروفسور هارتموت بيندر يمثل خلاصة أبحاثه عن كافكا التي استمرت طوال حياته العلمية: «الانمساخ / نشوء، تفسير، تأثير». وهو يقع في ستمائة صفحة

من القطع الكبير (٢٨ X ١٧ سم). أي ما يعادل ما يقرب من خمسة عشر ضعفاً من حجم القصة نفسها. ثمن النسخة الواحدة منه ٤٨ يورو، يزن كيلو غرام ونصف الكيلو ويحوي ١٦٥٠ حاشية. يتألف الكتاب من خمسة أقسام: ١ ـ نشوء القصة، ٢ ـ الطباعة، ٣ ـ الشكل، ٤ ـ المضمون، ٥ ـ التأثير.

في القسم الأول يحدد بيندر بدقة «الفرق الجمالي» بين الواقعي والمتخيل في هذه القصة، وذلك بناء على التقدم الكبير الذي حصل في الدراسات التي وضعت في العقود الأخيرة عن ظروف حياة كافكا. لقد عثر، على سبيل المثال، على المسقط الأفقي للشقة التي كتب فيها كافكا قصة **الانمساخ**. ومن هنا أمكن تحديد النقاط التي حاد فيها كافكا لدى تصويره لمكان الحدث عن الواقع الحقيقي.

يقلّب بيندر هذه القصة جملة جملة، ويعثر في كل موضع من مواضعها على مقابل له في حياة كافكا اليومية، ويذكر اقتباساً مطابقاً له من رسائل ويوميات كافكا. وبهذا يقدم «القاعدة المادية» لهذه القصة، التي يُجمع كثير من الكتّاب وعلماء الأدب على أنها نص أساسي في الآداب العالمية.

في القسم الثاني يعرض بيندر رسالتين إلى كافكا من روبرت موزيل، الذي كان مسؤولاً في دار النشر، توضحان بدقة وتفصيل كيف طبعت القصة فعلاً وبعدة خطوات.

يمثل القسم الثالث مركز ثقل الدراسة، لأنه يجسّد طريقة السرد التي حاول كافكا أن يحققها في رواياته، ويسمح بدراسة جمالية كافكا ومبادئه في القص من خلال نص مكتمل ومنشور من قبل الكاتب نفسه.

في القسم الرابع يعرض بيندر مضمون القصة بالتفصيل على أنها قصة أسرية. وهو يقتصر بهذا على تفسير يراعي ظروف حياة كافكا وقناعاته.

وفي القسم الخامس تاريخ تلقي القصة وتأثيرها على كتّاب آخرين. إنه كتاب مخصص للمختصين في أدب كافكا وللكتّاب والنقاد(*).

٦ ـ كافكا رائي الحداثة

«فرانز كافكا رائي الحداثة» كتاب صدر عام ٢٠٠٨ (١٧٠ صفحة) يضم ١٢ مقالة من علماء أدب كبار يعالجون فيها مدى راهنية آثار كافكا، ويقدمون للقارئ المعاصر عدة مداخل

(*) لبيندر عدة كتب أخرى عن كافكا نشرت في ثمانينات القرن العشرين، أهمها كتاب «كافكا: شروحات مجموع القصص» و«كافكا: شروحات الروايات» و«كتاب مرجع عن كافكا».

جديدة إلى آثار كافكا وقراءات متباينة لهذه الآثار، ويكشفون من يومياته وآثاره عن تفاصيل مهمة وذات دلالات كبيرة، ويُجمعون على أن كافكا ذو راهنية كبيرة في القرن الواحد والعشرين أيضاً، وذلك من خلال عبقريته اللغوية وتعبيره عن أزمات الحداثة.

في المقالة الأولى تدرس البروفسورة أنكي تومسن يوميات كافكا وتؤكد اضطرار كافكا لمراقبة الذات، وترى أن هذه اليوميات، بالإضافة إلى أهميتها المعروفة بصفتها وثيقة سيرة حياة، ذات أهمية أدبية فائقة وتتيح دخولاً جديداً إلى بقية الآثار. وتدعو تومسن إلى تقييم يوميات كافكا تقييماً أكثر دقة مما جرى حتى الآن.

يعالج القسم الرئيسي في الكتاب تلقي آثار كافكا. في مقالة من عالمة أدب تشيكية عن هذا التلقي في اللغة التشيكية نعلم أن تلقي آثار كافكا عرف عدة تقلبات، حيث استخدمت في عهد دولة تشيكوسلوفاكيا أداة سياسية. من هذه المقالة نعلم فيضاً من المعلومات عن مترجمي آثار كافكا إلى اللغة التشيكية وتقييماً جديداً عن المؤتمر المشهور الذي عقد في تشيكوسلوفاكيا في عام ١٩٦٣ بمبادرة وحضور جان بول سارتر، هذا المؤتمر الذي دعا إلى إدخال كافكا إلى العالم الشيوعي آنذاك.

من مقالة من مترجمة فرنسية عن تلقي كافكا في فرنسا نعلم عن الاهتمام الكبير الذي أبدته هيئات التعليم المدرسي بآثار كافكا منذ وقت باكر، الأمر الذي سرعان ما أفضى إلى تلقٍ واسع من قبل جمهور القراء. كما أن المقالة تذكر معضلات وسلبيات الترجمات الفرنسية العديدة لآثار كافكا، وتتقصى مسألة مدى كون الترجمة تفسيراً أيضاً.

مقالة أخرى من ناقد بولندي تشرح مشكلات تلقي كافكا في بولندا، حيث جرى حتى ستينات القرن العشرين إبراز المكوّن السياسي في آثاره، الأمر الذي لم يجر التخلص منه إلا بعد سقوط الشيوعية.

وثمة مقالة تعالج دور مدينة براغ في الآثار الأدبية لكافكا. وتحاول بقية المقالات تقديم تفسيرات جديدة لآثار كافكا من وجهة نظر الحداثة.

مقالة من أهم كاتب لسيرة حياة كافكا، بروفسور بيتر ـ أندريه ألت، كتب فيها عن العلاقة بين الفنان والجمهور واهتمامات الطرفين المتباينة، ووصل إلى نتيجة مفادها عدم إمكانية الوصول إلى تفاهم حقيقي وأن العمل الأدبي يظل كفاحاً مرتبطاً بالألم.

د. شتيفانه رينكه تحلل في مقالتها أهمية الأحلام في كتابات كافكا وحياته، وتبرز تعارض كيان الكاتب مع الحياة البورجوازية، هذا التعارض الذي وسم أيضاً علاقة كافكا بوالده المتسلط.

ناشر مجلة «النقد الأدبي» بروفسور توماس أنز يدرس شخصيات كافكا ويميزها بصفتها

نماذج خاسرة مغلوبة على أمرها، شخصيات «مفككة» تكافح كفاحاً ميؤساً منه من أجل الحصول على اعتراف، وكفاحاً ضد السلطة، كل سلطة. وفي الوقت نفسه يجري في مسار الأحداث الأدبية تصغير هذه الشخصيات والتقليل من شأنها فتقف عاجزة في مواجهة شخصيات مضادة في غاية القوة لا قبل لها بها.

في ختام الكتاب حديث الناشرة ماري هالر ـ نيفرمان مع الكاتبة الحاصلة على جائزة معرض الكتاب في لايبزغ سيبيلّن ليفيتشَروف، التي تبرز راهنية كافكا وصلاحيته بالنسبة للمجتمع الحالي(*).

كافكا في سن الخامسة والعشرين بعد المئة

كان موت كافكا بعثاً له. إذ طوال حياته لم ينشر أكثر من خمسة بالمئة مما كتبه. ولم تنشر البقية سوى بعد موته، وبعد خيانة ماكس برود وصيته بحرق مخطوطاته.

كان عام ١٩٨٣ عاماً مهماً في «حياة» كافكا بعد مماته. فقد احتفل العالم الأدبي في بلدان عديدة في ذلك العام بمناسبة مرور مئة عام على ميلاد كافكا احتفالات كبيرة.

وكان عام ١٩٩٤ أيضاً عاماً مهماً في انتشار آثار كافكا، حيث سقطت في ذلك العام حقوق النشر عن كتب كافكا بعد مرور سبعين عاماً على وفاته. وفي نهاية عام ١٩٩٤ بدأت في ألمانيا وحدها سبع دور نشر بنشر كتب كافكا بمختلف الأوصاف والأحجام.

في العقد الأول من القرن الواحد والعشرين كتب عن فرانز كافكا أكثر مما كتب عن أي كاتب آخر في العالم.

وأكثر ما كتب عن كافكا صدر في عام ٢٠٠٨ بمناسبة مرور مئة وخمسة وعشرين عاماً على ميلاده (عام ١٨٨٣). إن عام ٢٠٠٨ هو أيضاً العام المئة على نشر كافكا لأول نص من نصوصه (عام ١٩٠٨). ففي عامه الخامس والعشرين ظهر اسم كافكا لأول مرة في مطبوعة، فقد نشر في ذلك العام بضع قطع نثرية في إحدى المجلات.

هدايا في عيد الميلاد

في عام ٢٠٠٨ صدر في ألمانيا وحدها معظم الكتب التالية عن كافكا وآثاره (عدد قليل منها صدر في الأعوام السابقة، ولا شك أن هذه القائمة عن عام ٢٠٠٨ غير كاملة):

(*) راجع ص ٣٢١ من هذا الكتاب.

١ ـ راينر شتاخ: «كافكا / سنوات الإدراك» (٧٣٠ صفحة، ٣٠ يورو).

٢ ـ بيتر ـ أندريه ألت: «فرانز كافكا الابن الأبدي / سيرة حياة» (طبعة ثانية ٧٦٧ صفحة، ٣٥ يورو).

٣ ـ كلاوس فاغنباخ: «فرانز كافكا. صور من حياته» (طبعة ثالثة، ٢٥٦ صفحة، ٣٩ يورو).

٤ ـ هارتموت بيندر: «عالم كافكا / تأريخ حياة في صور» (٦٥٦ صفحة، ٦٨ يورو).

٥ ـ أنّا نيفيرمان + ديتر ريفينكل (ناشران) «فرانز كافكا رائي الحداثة» (١٧٠ ص، ١٤ يورو)

٦ ـ برند نويمان: «فرانز كافكا / محارب مجتمع / سيرة حياة» (٦٦٢ ص، ٤٠ يورو).

٧ ـ بيتينا ياكوف: «مرجع عن كافكا / حياة ـ آثار ـ تأثير» (٥٧٦ ص، ٥٠ يورو). يضم هذا الكتاب مقالات كتبها ٣٢ من المختصين الألمان في أدب كافكا، القراء الموجه لهم: «مطلعون على أدب كافكا، علماء أدب، علماء ثقافة».

٨ ـ أندرياس كيلشر: «فرانز كافكا / حياته، آثاره، تأثيره» (١٤٠ ص، ١٤ يورو).

٩ ـ كلاوديا ليبرند (ناشرة): «فرانز كافكا / أساليب جديدة في الأبحاث (٢٥٦ ص، ٤٠ يورو).

١٠ ـ ماريك نيكولا: «فرانز كافكا في سياق عصره» (٢٦٦ ص، ٣٣ يورو).

١١ ـ مانفريد إنغل: «فرانز كافكا والأدب العالمي» (٢٠٠٦، ٣٨٠ ص، ٥٠ يورو).

١٢ ـ لويس بيغلي و كريستا كريغر: «العالم الهائل الذي أحمله في رأسي / عن فرانز كافكا» (٢٢٤ ص، ٢٠ يورو).

١٣ ـ فلوريان كرايتسي: «تأثير النساء على آثار كافكا» (٢٠١ ص).

١٤ ـ فيليكس فلتش: «الدين والفكاهة في آثار فرانز كافكا» (طبعة جديدة).

١٥ ـ نوربغ فانك: «فرانز كافكا» (١٦٠ ص).

١٦ ـ يانكو فرك: «كيف يصبح المرء فرانز كافكا» (٧٢ ص).

١٧ ـ رومان هوفمان: «كافكا يمكنه أن يشلّ كاتباً / نماذج: كامو، روت، هندكه، وبرنهارد (٢٥٦ ص).

١٨ ـ إلكه زيغل: «أصدقاء بعيدون. نيتشه، فرويد، كافكا وصداقة الحداثة» (٢٤٠ ص).

١٩ ـ بيآتي سيفلد: «قصص حيوانات عند روبرت موزيل وفرانز كافكا».

٢٠ - أوليفر يارآوس وشتيفان نويهاوس: «قصة [الحكم] لكافكا ونظرية الأدب / عشرة نماذج تفسيرات» (طبعة جديدة).

٢١ - توماس أنز: «ممارسات ومشكلات التلقي الأدبي طبقاً للتحليل النفسي - قصة [الحكم] لكافكا نموذجاً».

٢٢ - تيودور بلستر: «مفتاح قراءة لفرانز كافكا: رسالة إلى الوالد / الحكم» (مواد تعليمية) (١١٥ ص).

٢٣ - إنغيبورغ شولتس: «فرانز كافكا - القصص: الحكم / الانمساخ / فنان جوع / أمام القانون / رسالة قيصرية / تقرير إلى أكاديمية / في مستعمرة العقاب / تفسيرات وإشارات للتلاميذ» (١١٢ ص).

٢٤ - تيودور بلستر: «مفتاح قراءة لفرانز كافكا: رسالة إلى الوالد / الحكم» (مواد تعليمية) (١١٥ ص).

٢٥ - أندرياس هكرت: «في مستعمرة العقاب لفرانز كافكا».

٢٦ - توماس كوريانوفيتس: «[معاناة أولى] قصة لفرانز كافكا».

٢٧ - هانز - غرد كوخ: «كافكا في برلين / جولة تاريخية في المدينة» (١٤٤ صفحة، ١٦ يورو).

٢٨ - سابينه روتيمان: «الأم الصغيرة ذات المخالب - فرانز كافكا وبراغ القديمة» (١٣٠ ص، ١٣ يورو).

٢٩ - راينهارد بابست: «كافكا في براغ» (٣٠٠ ص، ١٠ يورو).

٣٠ - هارتموت بيندر: «براغ: مشاوير أدبية عبر المدينة الذهبية» (١٥ يورو).

٣١ - هارتموت بيندر: «كافكا في باريس» (٢٥٣ ص، ٣٦ يورو).

٣٢ - هارتموت بيندر: «مع كافكا إلى الجنوب / رحلة تاريخية مصورة إلى سويسرا والبحيرات في شمال إيطاليا» (٤١٨ ص، ٨٠ يورو).

٣٣ - ألفونس شفايغرت: «فرانز كافكا في ميونيخ / بين الإضاءة والعتمة» (١٨٠ صفحة، ١٣ يورو).

٣٤ - كلاوس هرمسدورف: «كافكا في جمهورية ألمانيا الديموقراطية» (٢٨٥ صفحة، ١٦ يورو).

٣٥ ـ تيودور بيلستر: «مفتاح قراءة رسالة إلى الوالد / الحكم» (١١٥ ص).

٣٦ ـ هانز ديتر تسمرمان: «كافكا للمتقدمين» (٢١٦ ص).

٣٧ ـ كارلا رايمرت: «كافكا للمستعجلين» (٢٢٤ ص).

٣٨ ـ كارل هاينز فينغرهوت: «هل تعرف فرانز كافكا؟» (كتاب للفتيات والفتيان، ١٢٤ ص، ١٣ يورو).

٣٩ ـ غرد شنايدر: «دمية كافكا»، رواية للأطفال والفتيات والفتيان (٢٢٤ ص).

والجدير بالذكر أنه تُترجم إلى الألمانية كتب عديدة تُكتب في شتى اللغات الحية عن كافكا وآثاره وتفسيراتها.

عناوين مقالات

في عيد ميلاد كافكا الخامس والعشرين بعد المئة كتبت بالألمانية مئات المقالات، هذه أمثلة من عناوين بعض ما قرأته منها:

«اكتشاف كافكا دائماً من جديد»

«هل كان كافكا فوضوياً؟»

«فهم كافكا سياسياً»

«كافكا والسلطة»

«كافكا الضحية الفاعل»

«كل قارئ يرى رعبه الخاص به»

«الجمهور ترك نص كافكا يعضّه»

«فرانز ك. المسكين»

«احتساء بيره مع كافكا: آخر رسالة»

«كافكا يمرّن المهارات»

«أقوى من كل قوة جاذبية»

«عالم هائل في الرأس»

«موهبة استثنائية»

«القارة كافكا»

«الفأس في جليد روحنا: لماذا تحرك قصص كافكا بعيدة الغور العالَمَ حتى اليوم؟»

«حقوقي التأمين في براغ غيّر نظرتنا للعالم»

«كافكا في العالم الرقمي»

«كافكا في القرن الواحد والعشرين»

«كافكا يبدو لنا الآن أكثر وضوحاً»

«لا خوف بعد الآن من نصوص كافكا»

«دعوة لقراءة كافكا».

طبعات

بعد أن سقطت حقوق الطبع عن آثار كافكا الفنية في عام ١٩٩٤، باتت هذه الآثار تنشر في سبع دور نشر مختلفة. تقوم الدار الأم، دار فيشر، بنشر الطبعة التاريخية ـ النقدية لهذه الآثار، وذلك في طبعات متعددة. وتنشر خمسة دور أخرى كتب كافكا مفردة بطبعات متفرقة وأسعار متباينة. وكتب الدراسات عن كافكا تصدر أيضاً في دور أخرى متفرقة.

أما دار نشر شترومفلد، فإنها تنشر طبعة تاريخية ـ نقدية أخرى لآثار كافكا، هي طبعة خط اليد. ولا تقدم هذه الطبعة مجرد نصوص للقراءة، بل تقدم ورشة عمل كافكا. وعندما يتم إنجاز هذا المشروع كاملاً في أجزائه الثلاثين، تتوفر للقارئ صورة طبق الأصل عن كل صفحة كتبها كافكا بخط يده، وتصبح عملية الكتابة لدى كافكا معروفة للقارئ. لكن كتب طبعة خط اليد هي باهظة الثمن، فمثلاً سعر النسخة الواحدة من كتاب **الانمساخ** هو مئة وثمانية وعشرون يورو، وهو يحوي أولاً: صور طبق الأصل لصفحات القصة بخط يد كافكا، ثانياً «الترجمة الدبلوماسية» لهذه الصفحات، أي الطباعة العادية لها، ثالثاً صور طبق الأصل عن كافة طبعات القصة التي صدرت أثناء حياة كافكا.

حفظ للأبدية

من أجل الحفاظ على تركة كافكا الأدبية على نحو دائم وجعلها متاحة بشكل أفضل للدارسين المختصين، جرى تحويل كافة مخطوطات كافكا إلى صيغ رقمية،

وتبلغ نحو خمسة آلاف صفحة بخط يد كافكا، وقد جرى تصويرها صفحة صفحة بالماسحة الضوئية بأفضل تقنية عالية وحوّلت إلى صيغة رقمية. توجد المخطوطات الأصلية في مكتبة Bodleian Library في جامعة اكسفورد في بريطانيا وفي «أرشيف الأدب الألماني» في مارباخ في ألمانيا. لن يمكن مشاهدة هذه الصيغة الرقمية في الإنترنت، بل فقط في هاتين المكتبتين. ويستطيع علماء الأدب أن يعملوا الآن بسهولة دون الرجوع إلى المخطوطات الأصلية الورقية الحساسة. وقد بدأ العمل في هذا المشروع منذ عام ٢٠٠١ وبلغت تكاليفه ١٦٩ ألف يورو (أي أكثر من عشرة ملايين ليرة سورية) منحتها مؤسسة كروب، وذلك في إطار مشروع ضخم يرمي إلى تأمين التركات الأدبية والمخطوطات والحفاظ عليها.

كافكا جملة جملة

الملحق الثقافي لصحيفة «فرانكفورتر ألغماينه» هو أهم ملحق ثقافي في صحيفة ألمانية. بتاريخ ٣ تموز ٢٠٠٨ نشر ناشر هذه الملحق، فرانك شيرماخر، مقالة على مدى ثلاثة أرباع الصفحة الأولى بعنوان «تسع عشرة كلمة من كلمات كافكا»، مع المقدمة التالية: «تحتوي بعض جُمَل كافكا، الذي يصادف اليوم ميلاده قبل مئة وخمسة وعشرين عاماً، على ما يعادل روايات كاملة لكتّاب آخرين. [فرانكفورتر ألغماينه] تبدأ اليوم بنشر سلسلة من المقالات تعالج كل منها جملة واحدة من جمل كافكا». وتحت صورة كافكا كتب شيرماخر: «كلما كان كافكا يتقدم في السن، كان يركّز كل طاقته على الجملة المفردة، ونحن لا نستطيع تقديره حق قدره بأفضل من أن نقدّر جُمله». وبدأ شيرماخر مقالته بجملة: **لا بدّ أن أحداً قد افترى على يوزف ك.، إذ اعتقل ذات صباح دون أن يكون من شأنه قد فعل شراً.** وتابع: «هذه هي الجملة الأولى من رواية كافكا المحاكمة. إنها في الحقيقة جملة متعددة المعاني والتفسيرات والاستعمال. وليس علينا سوى استنطاق هذه الكلمات التسع عشرة».

وهكذا يستنطق شيرماخر معاني واستدلالات هذه الكلمات على مدى ثلاثة أرباع الصفحة من صفحات الجريدة اليومية. وينهي مقالته بالجملة التالية: «بعد مضيّ خمسة وثمانين عاماً على وفاة كافكا ما زالت آثاره جديدة كما كانت في اليوم الأول. هذا أيضاً كان كافكا يعرفه».

وكانت الصحيفة قد كلفت ثلاثة وسبعين من المختصين في أدب كافكا ونقاد الأدب وعلماء الأدب الألماني والكتاب المحدثين، بأن يكتب كل منهم شرحاً لجملته المفضلة من جمل كافكا. وجاءت المقالات الثلاث والسبعون من روايات كافكا وقصصه ويومياته ورسائله. ونشرت الصحيفة هذه المقالات بالتسلسل، كل يوم مقالة.

وفي عام ٢٠٠٩ نشرت هذه المقالات في كتاب بعنوان «جُمل كافكا» يقع في ٢٤٠ صفحة من القطع الكبير، أي بمعدل أكثر من ثلاث صفحات عن كل جملة (ثمن النسخة ٢٠ يورو). يمثل هذا الكتاب معرضاً لقراءات كافكا الأكثر تبايناً واختلافاً. «جملة واحدة. أثر فني»، يكتب أحد الكتّاب ويسمّي بهذا المبدأ الأساسي لهذه السلسلة، التي شارك فيها بعض أهم الكتّاب في ألمانيا، مثل هانز ماغنوس إنسسبرغر، ومعظم المختصين في أدب كافكا.

يُعتبر كافكا الأكثر تأثيراً من كتّاب القرن العشرين في الآداب العالمية. وفي العقد الأول من القرن الواحد والعشرين ازداد اقتباس آثاره لوسائط الفنون غير الكتابية ازدياداً كبيراً. هنا يُذكر بعض الأمثلة من أمثلة كثيرة في كل مجال:

مسرح

حين دخل كارل روسمان ذو الستة عشر عاماً، الذي أرسله والداه الفقيران إلى أمريكا لأن خادمةً كانت قد أغوته وأنجبت منه طفلاً، على ظهر السفينة، التي أصبحت تسير ببطء، إلى ميناء نيويورك، رأى تمثال إلهة الحرية، التي كان قد لاحظه منذ مدة طويلة، في ضوء شمس زادت قوته فجأة. وكان ذراع التمثال الذي يحمل سيفاً يرتفع وكأنه رفع حديثاً، تلفّه نسائم طليقة.

أمريكا كافكا ليست بلداً واقعياً محدداً، بل صورة تتوضع فيها وتتقاطع أساطير وإسقاطات ووقائع وتخيلات. هذه السفرة التي يقوم بها المهاجر كارل روسمان تجري في الرأس، منذ الدخول إلى ميناء نيويورك وحتى الرحلة الأخيرة بالقطار إلى مسرح أوكلاهاما الطبيعي الكبير. إنها أوديسة الباحث عن الاتصال بالناس، الذي يظل حتى النهاية لا يصيبه القنوط ويظل يحدوه أمل بأن يعثر في نهاية المطاف في مسرح أوكلاهاما على بيت ووطن بحث عنهما على الدوام.

رواية كافكا **المفقود**، هذا الأثر الأدبي الخالد، تصف في بداية القرن العشرين، على نحو تنبؤي، شخصية **المطرود** ـ المطرود من قبل الوالدين، المطرود من أوروبا. إنها قصة مشرد لا تصبح أمريكا بالنسبة له مكان أمل واستبشار، مثلما هي بالنسبة لمئات آلاف المهاجرين إليها طوعاً، بل بلاد الانحدار والهبوط الاجتماعي. يصف كافكا عالم الحداثة بمواصلاته الهائلة وعالم العمل المحموم، وبهذا يذكّرنا وهو يثير دهشتنا، بأن كل ما نحسّه عادياً الآن، لم يتحقق سوى قبل مدة قصيرة.

هذا هو مغزى المسرحية التي قدمها مسرح تاليا في هامبورج في ١١ أيلول ٢٠٠٩، واستمر العرض لغاية تشرين الثاني.

وفي مانهايم قدم مسرح في نيسان ٢٠٠٩ مسرحية «أمريكا» اقتباساً عن رواية كافكا.

في شباط ٢٠٠٩ قدمت مسرحية «المحاكمة» اقتباساً عن رواية كافكا على ثلاثة مسارح في درسدن وكارلسروه وبفورزهايم.

في أيار ٢٠٠٩ اشترك مسرح الجيب في ميونيخ في مهرجان المسرح في فيينا بمسرحية «المحاكمة».

في الحادي عشر من أيلول ٢٠٠٩ قدمت مسرحية «المحاكمة» في فيينا أيضاً من إخراج آخر وذلك في «قصر العدل» بالذات، الذي يُعتبر «معقل الموظفين». وقد استخدم المخرج كامل المبنى كمسرح أحداث الرواية. وقال بأن «العدالة هي الموضوع الرئيسي» لمسرحيته وبأن «المشاهد الكافكاوية تتكاثر وتتراكم في عصرنا».

وفي تشرين الأول ٢٠٠٩ قدمت «المحاكمة» في شتوتغارت في إخراج آخر، شارك فيه ثمانية ممثلين وممثلات متشابهي المظهر تماماً يتداولون الأدوار، وذلك دلالة على أن المحاكمة إنما تجري في ذات يوزف ك.. وقد استمر العرض طوال ثلاث ساعات، واعتبر أفضل عرض مسرحي «لأمثولة» رواية **المحاكمة**. وكتب عنه بأنه عرض بديع، «أوركسترا»، «سيمفونية» و«مثل سحر». ووصف المخرج بأنه «شاعر مسرحي». كتب ناقد: «كتب كافكا ذات مرة في رسالة: **على الكتاب أن يكون الفأس التي تكسر البحر المتجمد فينا**. مُخرج هذه المسرحية سنّ هذه الفأس سَنّاً حادّاً. مسرحه يكسر جليد القساوة حتى نعود إلى الإحساس».

في كانون الثاني ٢٠٠٩ قدم أحد المسارح في مدينة لايبزغ مسرحية اقتباساً عن قصة **في مستعمرة العقاب**.

في نيسان ٢٠٠٩ قدم «مسرح الرقص» في مدينة لايبزغ عرضاً راقصاً مستقى من قصة كافكا **الانمساخ**. عن هذا العرض كتب ناقد: «في القصة الأكثر شهرة في القرن العشرين يعالج كافكا الشاب مشاعر النبذ والغربة والخرس التي كان يعاني منها. يعالجها في رمزية جميلة على نحو مخيف». وكتب ناقد آخر: «متعة للجميع اعتباراً من سن الرابعة عشرة».

مشكلة أب ـ ابن العالمية لا يخلو منها مجتمع ولا تخلو منها طبقة. هذه المشكلة قد تصيبك سواء كنتَ ابن رئيس أقوى دولة في العالم أو ابن أقل أب. **رسالة إلى الوالد**، قدمت في عام ٢٠٠٩، بعد كتابتها بتسعين عاماً، على خشبة المسرح في مدينة كارلسروه في مشروع مسرحي يرمي إلى الوصول إلى الشبيبة ولا سيما تلاميذ المدارس الثانوية، الذين يعانون من مشكلة أب ـ ابن ويرغبون في معالجتها. وقد تمّ إعداد رسالة كافكا إلى المسرح وتقريبها

إلى الحاضر، حيث يدور الموضوع حول الكفاح من أجل إيجاد الذات وإثباتها، وذلك في جو تسوده الحرية الاجتماعية. وبالإضافة إلى أشكال التعبير الكلاسيكية في المسرح العادي جرى استخدام تقنيات جديدة مثل الآلات الموسيقية الإلكترونية وصور الفيديو (ثمن بطاقة الدخول ١٢ يورو).

في سالزبورغ قدم أحد المسارح مسرحية بعنوان «الباب»، توالت فيها مشاهد من قصص كافكا تعكس لحظات حميمة في جو يظن المرء فيه أنه يتنفس هواء هذا الكاتب. على خشبة المسرح يسيطر باب يقوم في كل مشهد بوظيفة أخرى. مرة يحرسه حارس باب، ومرة يكون تابوتاً، ومرة يرمز إلى الفرقة بين الأب والابن. قدمت المسرحية ٦٠ دقيقة مكثفة مؤثرة تثير رغبة في العودة إلى قراءة كافكا.

في توبينغن قدمت مسرحية بعنوان «فرانز فرانز فرانز» قام فيها ثلاثة ممثلين بتمثيل كافكا في ثلاثة شخوص تمثل «أسرة داخلية» تعرض شخصاً واحداً في جوانبه المتعددة.

أوبرا

كل سلطة تنبع من الشعب؟ الحقيقة هي أكثر بساطة وشبحية: كل سلطة تنبع من البوابين. كما يعرف كل فرد عن تجربة كئيبة، يستطيع البوابون أن يسمحوا للفرد بالدخول، يهينونه، يعتبرونه صغير السن، يصرفونه، يأمرونه باللحاق بصف المنتظرين، يرفضون التعليل كلياً. يجوّعونه. في قصة كافكا **أمام القانون** تستغرق لعبة التسلط هذه أطول مدة ممكنة: طوال حياة مقدم الالتماس. **هذا المدخل**، يصرخ البواب في وجه المشرف على الموت، **كان مخصصاً لك وحدك. سأذهب الآن وأغلقه.»**

لم يدرك أحد بعد ما هو القانون. هيئة رسمية؟ سجل الحياة؟ نبع المعرفة؟ على كل حال شيء ضخم يعلو على الإنسان الصغير كما تعلو كاتدرائية. ربما لم يكن كافكا نفسه يعلم، وربما ضحك في سرّه عندما تصور مفسريه المقبلين.

الملحن الإيطالي سلفاتور سكيارينو قدّم **أمام القانون** أوبرا يستعيد فيها محتضر المحاولة الجنونية لحياته. كان العرض (في مدينة فوبرتال الألمانية في نيسان ٢٠٠٩) عرضاً رائعاً ساحراً استغرق نحو ثمانين دقيقة لا يريد المشاهد أن يفتقد واحدة منها. الموسيقى والغناء الأوبرالي وحوارات كافكا تندغم في أثر فني مكتمل. في البداية لا يوجد على خشبة المسرح سوى رجل، حارس باب، وكرسي وباب. ببطء شديد يروح الباب يتسع بأن تنسحب أجزاء من الجدار إلى الأعلى وإلى الجانب ـ حتى لا يبقى في النهاية سوى أن يروح الرجل ينظر في هذا الضوء ذي الألوان المتبدلة الذي يتأرجح بينه وبين القانون. عند الرجل الثاني تتراجع أجزاء من

الجدار ببطء، لكنها تقف هذه المرة بين المشاهدين وخشبة المسرح. وتعود التقويرة لتصبح باباً، وفي النهاية لا يبقى سوى نوع من الفتحة من أجل محتضر يقترب منه الحارس كي نستطيع أن نراه في الحفرة. هذه الصورة خانقة. لكنها ليست النهاية بعد. ثمة خاتمة تظهر فيها على الحائط صور توابيت تقترب من المشاهدين وتبتعد.

هذه الرغبة للدخول، التي تستغرق مدى الحياة، تجري في الأوبرا مرتين. ورسالة هذا العرض هي أن هذه القصة يمكن أن تحدث لكل فرد مفكر. كما أنها تعبّر عن عجز الفرد أيضاً وعدم الخلاص من المعاناة.

فيلم

من المعروف أن كل تقنية جديدة كانت تسحر كافكا. وكان شغوفاً بالفيلم ومن رواد السينما المواظبين في براغ وفي المدن التي سافر إليها، وكان يرى أن السينما هي يوميات الحياة العصرية. في عام ١٩٩٦ صدر كتاب يقع في ١٦٠ صفحة بعنوان «كافكا يذهب إلى السينما» من إعداد هانس تسيشلر. وقد تقصى فيه المؤلف مجموع الأفلام التي كان كافكا قد شاهدها وربما تكون قد ألهمته بعض نصوصه.

من هذه الكلمات الأخيرة ينطلق أهم كتّاب سيرة حياة كافكا، البروفسور بيتر ـ أندريه ألت، في كتابه الصادر عام ٢٠٠٩ بعنوان «كافكا والسينما» (٢٤٠ صفحة، ٢٠ يورو). هنا يتقصى المؤلف «السرد السينمائي» لدى كافكا، لا سيما في **المحاكمة**. كما أن ألت يربط بين رواية **القلعة** وفيلم تمّ إخراجه وعرضه في عام ١٩٢١.

المخرج السينمائي يوخن فرايدانك، الذي حاز أحد أفلامه على جائزة أوسكار، وضع مشروعاً لإخراج فيلم سينمائي اقتباساً من قصة كافكا **البناء**، «البطل» فيها هو خُلْدٌ أرضي يبني بيته تحت الأرض. وقد قيل بأن المخرج لن يجد بسهولة من (أو ما) يقوم بالدور الرئيسي في الفيلم الذي سيستغرق عرضه مدة ساعة ونصف الساعة.

رسم

نيكولاوس هايدلباخ رسام كتب ذو سمعة فائقة وخبير في أدب كافكا أصدر كتاباً بعنوان «هايدلباخ يلتقي كافكا» رسم فيه ٢٦ مقطعاً من نصوص كافكا، من اليوميات والقصص، فنشأ مزيج «كافكاوي» يضم نصوصاً تراوح أحجامها بين سطرين و٢٨ صفحة مثل قصة **بلومفِلد**. إن هايدلباخ هو مفسر كبير لكافكا. على غلاف الكتاب نرى صورة واقعية لفرانز كافكا مرتدياً معطفاً وقبعة وهو ينظر هذه النظرة المباشرة والحزينة في آن. لكن من الكمّ الأيسر

لمعطفه يدع هايدلباخ يد قرد تنبت. كافكا أيضاً غطى في نصوصه العبثي والغرائبي تحت معطف العاديّ. في داخل الكتاب يقدّم هايدلباخ صورة بورتريه ثانية لكافكا ليست أقل إثارة للرهبة. مع كلمات كافكا: **أرفق لك صورة شمسية، ربما كنت في سن الخامسة، كان الوجه الكالح آنذاك لهواً، الآن أعتبره جدّيّة سرية،** نرى الصبي كافكا بلباس صبية. هذا التعاون بين الكلمة والصورة ينجلي عن رمز على حياة كافكا وآثاره، رمز يبدو أنه لا يمكن سبر أغواره. قيل بأن هايدلباخ في كتابه هذا يقدم سمواً وهاوية في آن.

أقامت الرسامة مفيرينا شونهوفر معرضَ رسم في مدينة باساو في حزيران ٢٠٠٩ تحت عنوان «سامسا يبحث عن السعادة»، يضم رسوماً كبيرة ومجسمات متنوعة، تقدم فيه الناس في بحثهم عن هوياتهم ومحاولاتهم كي لا ينمسخوا إلى حشرات. الفكرة الرئيسية في هذا المعرض، وفي قصة كافكا كما ترى الرسامة هي: هل نحن ضائعون عندما نكون وحيدين؟

باليه

في عام ٢٠٠٩ قدم مسرح المقاطعة في مدينة لينز النمساوية باليه درامياً بعنوان «كافكا أمريكا» اقتباساً عن مخطوطة رواية **المفقود**. وقد شارك في العرض، الذي استغرق ساعتين ونصف الساعة، عشرون راقصاً وراقصة يمثلون جميع شخصيات الرواية. وكتب عن هذا العرض، بعنوان «اكتشاف أمريكا كافكا» وبعنوان «هل يمكن رقص فرانز كافكا؟ في لينز يمكن»، بأنه «مشوّق وبديع» يتفوق درامياً على كثير من الأوبرات. وقد لاقى من الجمهور تصفيقاً حاداً.

معارض

في عام ١٩٠٣ أقام كافكا في ميونيخ مدة أسبوعين ونصف بغرض الدراسة في جامعتها. فيما بعد أمضى فيها يوماً برفقة ماكس برود، وفي عام ١٩١٦ أقيمت له أمسية أدبية قرأ فيها قصة **في مستعمرة العقاب**. وكانت تلك الأمسية هي أمسية القراءة الثانية والأخيرة طوال حياته، وكانت أمسية فاشلة أثارت الإحباط في نفسه وندم على المشاركة فيها.

في عام ٢٠٠٨ احتفلت به ميونيخ بصفته عبقرياً. في «بيت الأدب»، الذي يجاور الغاليري الذي قرأ فيه كافكا قصته، والذي ما زال قائماً حتى الآن، أقيم لكافكا معرض تحت عنوان «عالم كافكا»، بإشراف هارتموت بيندر وسيدة اسمها أليس هرتس ـ سومر يبلغ عمرها مائة عام وخمسة أعوام، عرض فيه ١٤٠ صورة بعضها جديد حتى بالنسبة للمختصين في أدب كافكا. كما عرض فيلم فيديو كان مفقوداً يحوي حديثاً تلفزيونياً مع ماكس برود جرى في عام وفاته ١٩٦٨ قال فيه مما قال بأن كافكا كان، عندما يكون في حلقة خاصة، ذا ظرف

فكه ساحر وخفة روح بديعة، ولم يكن مكتئباً كما يقال عنه اليوم. وقالت سومر بأن كافكا كان مزيجاً من اليأس والدعابة، وما من قصة من قصصه تخلو من الفكاهة، وبأنها ترى في نصوصه رسالة مفادها بأنه لا يتعيّن على المرء أن يأخذ الحياة على محمل الجد كثيراً. وتضيف بأن كافكا كان محاطاً دائماً بنساء جميلات وكانت مشكلته معهن واحدة: لم يستطع أن يتخذ قراراً. في هذا المعرض تبدو الصور شاهداً على صحة هذا الكلام. نرى الرياضي كافكا الذي كان يحب السباحة، وبطل النساء كافكا، الذي أقام علاقات كثيرة خلال عشرين عاماً(*).

في نيسان وأيار ٢٠٠٨ نظمت «جمعية كافكا الألمانية» معرضاً متجولاً تحت عنوان «كافكا في الفن المعاصر».

كافكا سماعاً

لا يوجد في العالم أي تسجيل لصوت كافكا (كافكا لا يتحدث سوى في رأس القارئ). لكن يمكن سماع معظم آثار كافكا.

في عام ٢٠٠٧ قدمت إذاعة شمال ألمانيا رواية **المفقود** إذاعياً. قام ممثل معروف بقراءة كامل الرواية على حلقات.

كما قدمت محطة الإذاعة نفسها قصة **الانمساخ** في عام ٢٠٠٩.

في عام ٢٠٠٨ صدرت على أقراص ثلاثة كتب مسموعة:

«تشكيلة كافكا. قصص قصيرة».

«فرانز كافكا. مدخل إلى الحياة والآثار».

«براغ كافكا».

كل رواية من روايات كافكا الثلاث تباع في المكتبات كتاباً مسموعاً سجله أحد الممثلين بصوته على قرص. مثل: «فرانز كافكا: **القلعة**، مقروءة من قبل أولريش ماتّس. ثمن القرص الواحد ٢٤ يورو.

في عام ٢٠٠٩ صدرت في فيينا **رسالة إلى الوالد** في كتاب مسموع مدته ساعتان.

(*) أليس هرتس ـ سومّر عازفة بيانو ومربية موسيقية ألمانية ـ تشيكية مشهورة ولدت في براغ عام ١٩٠٣، وهي ابنة أخت زوجة الكاتب والفيلسوف فيليكس فلتش صديق كافكا، وتعرف كافكا معرفة شخصية جيدة، كما تعرف صديقيه ماكس برود وأوسكار باوم. كان كافكا يأتي مع صهرها إلى منزل والديها اللذين كانا على علاقة قوية بالموسيقار المشهور غوستاف مالر.

في مدينة بيليفلد قدم مسرح المدينة في أيار ٢٠٠٩ قراءة لرواية **المفقود**، تلا فيها ممثلان وممثلة نص الرواية بالكامل. الدخول ببطاقات يحصل عليها مسبقاً.

في مدينة صغيرة قرأ أحد الممثلين قصة **في مستعمرة العقاب**، وفي ختام القراءة صفق الجمهور طويلاً، أي أنه «ترك القصة تعضّه»، كما كتب كافكا: **أظن أنه على المرء أن لا يقرأ سوى الكتب التي تعضّ وتخز. إذا لم يوقظنا الكتاب بلكمة على الجمجمة، لماذا نقرأ الكتاب إذاً. على الكتاب أن يكون الفأس التي تكسر البحر المتجمد فينا.**

في عشرات المدن الألمانية نُظمت قراءات مماثلة من آثار كافكا الفنية.

كافكا في المدرسة

«تصفيق حاد واستقبال رائع للعرض الأول لفيلم [المحاكمة] من إخراج فينّ درووده».

ليس في دار سينما، بل في مدرسة ثانوية، اشتغل فيها تلاميذ الصف الثالث عشر «طوال أشهر» على كافكا. قُسم الصف إلى عدة مجموعات، اشتغل كل منها على موضوع واحد، مثل: «كافكا والكتابة: أدب أم لا شيء». أما التلميذ درووده فقد أخرج فيلم الفيديو بممثلين من الصف.

هكذا تدرّس رواية **المحاكمة** في المدارس الثانوية الألمانية أكثر من أي كتاب آخر(*).

(*) منذ المرحلة الابتدائية يتاح للتلميذ مدخل للأدب. معلم اللغة الألمانية يتلو في الصف نصاً أدبياً بسيطاً ويطلب من التلاميذ أن يقولوا بلغتهم ما فهموه من النص. وينشأ حوار بين المعلم والتلاميذ. هناك مقالة بديعة تقع في عدة صفحات مخصصة للأطفال في سن العاشرة تشرح لهم قصة كافكا **حكاية صغيرة**، التي تتألف من سبعة أسطر.

وفي المدرسة الثانوية يحدد مدرس اللغة الألمانية كتاباً أدبياً على التلاميذ قراءته في البيت ثم مناقشته في الصف. وهكذا في كل صف. كما أنه على كل تلميذ أن يختار كتاباً بنفسه ويكتب عنه مقالة نقدية. وفي الصفوف العليا ثمة مشروع مشترك في كل صف حول كتاب أدبي أخرج للمسرح أو السينما يجري الإعداد له من قبل كامل الصف أثناء حصص اللغة وفي ساعات إضافية في المدرسة، ويقدم في بسهرة لكل المدرسة. وإذا حدث أن قدمت في المدينة مسرحية أو عرض فيلم عن كتاب جرت معالجته في الصف، يشاهد التلاميذ مع المدرس المسرحية أو الفيلم سوية. وفي مادة اللغة الأجنبية يتعين على كل تلميذ اختيار كتاب أدبي من هذه اللغة ويكتب عنه بهذه اللغة مقالة مطولة قد يصل حجمها إلى عشرين صفحة. يظل الهدف المعلن عنه هو أن يتعلم التلميذ في المدرسة كيفية قراءة كتاب أدبي ألماني وكتاب بلغة أخرى وفهمه والكتابة عنه بلغته.

في المكتبات عشرات الكتب تحوي تفسيرات لآثار كافكا ومواد تعليمية عنه مخصصة لتلاميذ المدارس الثانوية الألمانية. وكتب كافكا هي أكثر الكتب التي تدرّس في المدارس الثانوية لأنها تدعو دائماً إلى محاولات إيجاد تفسيرات لها، تحفّز الدماغ وتساعد في التعلم.

قال تلميذ بأنه قرأ «الانمساخ» وهو في سن الرابعة عشرة ومجموع «الآثار الكاملة» قبل حصوله على شهادة الدراسة الثانوية، وقال: «هذا ممكن، إنها نحو ١٥٠٠ صفحة فقط».

منذ الصف الابتدائي الأول يقوم كل صف مدرسي في ألمانيا برحلة مدرسية، وفي العام الدراسي الأخير قبيل امتحانات شهادة الدراسة الثانوية يجب أن تكون الرحلة إلى خارج ألمانيا لمدة أسبوع. وكثيرون من مدرّسي الأدب الألماني ينظّمون رحلات مدرسية لتلاميذهم إلى براغ، يزورون فيها الأماكن التي عاش فيها كافكا وما زالت موجودة، ويستمعون إلى محاضرات عن حياته وآثاره.

كافكا شخصية في أعمال إبداعية

شاعر ودمية: إنه لقاء غريب: شاعر مشرف على الموت يلتقي في حديقة عامة طفلة يائسة أضاعت دميتها. مواساة للطفلة يحكي لها أن الدمية قد سافرت وسوف تكتب رسائل لصاحبتها. وفعلاً تكتب الدمية رسالة كل يوم، وكل يوم يقرأ الشاعر الرسالة الجديدة على مسامع الطفلة المتشوقة، وهما يجلسان على مقعد في الحديقة العامة في حي شتِغليتست في برلين. الشاعر المشرف على الموت يدعى فرانز كافكا، و«بعينيه السوداوين تقريباً وأذنيه الواقفتين يكاد مظهره يبدو مثل وطواط حزين». وفوق ذلك، إنه شاحب اللون، «وجهه مائل للصفرة»، إذ إن مرض السل كان في خريف عام ١٩٢٣ قد دمّر صحته كلياً.

بمثل هذه الوقائع يظل الكاتب غِرد شنايدر في روايته للصغار «دمية كافكا» قريباً ما أمكن من الحقائق التاريخية. حتى إن رسائل الدمية هي رسائل حقيقية، كما روت حبيبة كافكا الأخيرة دورا ديامَنت. بيد أن تلك الرسائل جميعها ضاعت نهائياً. لكن شنايدر يبتدعها من جديد، وهكذا يسافر القراء مع الدمية عبر عوالم خيالية، بالمنطاد أو بالقارب. ليس الدمية وحدها تنمو من خلال تجاربها، بل المستمعة لينا أيضاً، التي تحتاج هذه المعونة الكتابية أكثر مما قد قُدّر لكافكا أن يعلم في ساعات الظهيرة المشتركة في الحديقة العامة. إذ إن العالَمَين اللذين يأتي هو والطفلة منهما، لا يمسّان بعضهما سوى في هذه اللحظات القصيرة التي تدور فقط حول الدمية ولا أهمية لشيء آخر فيما عدا ذلك. لا الأم كرالّ، التي ترعى في منزلها الطفلة اليتيمة لينا، ولا الغرفة الصغيرة التي يقطنها كافكا وصديقته، ولا نوبات السعال والحمى، التي تقضي عليه بعد بضعة أشهر من ذلك. غِرد شنايدر يصف العالَمَين المتباينين

ونقطة تماسّهما على مقعد الحديقة العامة بحب كبير للتفاصيل ولغة محكمة مفعمة بأجواء كافكاوية. غير أن أكبر مهارة يُظهرها الخبير في أدب كافكا هي في ربطه بين عناصر الواقع والمتخيل. لا يقتبس مرة علناً ومرة خفية نصوصاً من كافكا وحسب، بل يروي بشكل جانبيّ عن حياة الشاعر الصعبة، الذي قام قبيل وفاته بحرق كافة مخطوطاته. وفقط لصديقه ماكس برود، الذي كان يحتفظ ضد إرادة الشاعر بصور طبق الأصل، يعود الفضل لأن يُعتبر اليوم أهم كاتب من كتّاب اللغة الألمانية في القرن العشرين.

مقاربة شنايدر تقدم كافكا إنساناً يبدو غريب الأطوار بعض الشيء، لكنه لطيف المعشر للغاية، وكافكا كاتباً عليه أن يرتضي بأن الناس لا يفهمونه، ولا حتى صديقته دورا. بهذا يصبح كافكا أكثر قرباً وعالم فكره أكثر وضوحاً من مجرد قراءة نصوصه قراءة مدرسية. إن دمية كافكا هي تكملة جيدة لهذه القراءة. وحتى إذا كانت هذه القصة لا تجد في الواقع نهاية طيبة، فإنها تجد ذلك في الخيال. إذ إن العالم حلم والحلم هو العالم، والدمى المسافرة هي بالضرورة من هذا العالم. («دمية كافكا»: مخصص للقراء اعتباراً من سن الرابعة عشرة، ١٣ يورو).

تركة برود

عندما توفي ماكس برود في فلسطين عام ١٩٦٨ بعد بلوغه سن الرابعة والثمانين كان قد أهدى كامل مخطوطات كافكا التي كانت في حوزته إلى سكرتيرته إستر هوفّه التي هي إبنة لصديق له، وترك لها حرية التصرف بهذه المخطوطات أثناء حياتها وتحديد مكان حفظها بعد مماتها. كما أنه كان قد ورّثها في وصية له كامل أرشيفه وتركته الأدبية التي يقدّر حجمها بنحو عشرين ألف ورقة معظمها مراسلات باللغة الألمانية مع كتّاب وناشرين وأصدقاء، بالإضافة إلى يومياته. وقد صدّت هوفّه أثناء حياة برود وبعد مماته كل محاولات علماء الأدب المختصين في أدب كافكا لإطلاعهم على مخطوطات كافكا وتركة برود.

في عام ١٩٥٦ نقلت هوفّه مخطوطات كافكا إلى سويسرا وحفظتها في خزانة بنك في زيوريخ (رقمها ٦٥٨٨). كما حفظت تركة برود في خزائن بنوك في (تل أبيب).

في عام ١٩٧٠ أقام المستشار القانوني للحكومة (الإسرائيلية) دعوى طعن في وصية برود، لكن هوفّه ربحت الدعوى في عام ١٩٧٤، حيث صادقت المحكمة على صحة الوصية.

فيما بعد باعت هوفّه عدة مخطوطات أُصلية من مخطوطات كافكا أهمها مخطوطة رواية **المحاكمة**، التي حصلت في عام ١٩٨٨ على ما يعادل ١,٨ مليون يورو ثمناً لها. وكانت في عام ١٩٧٤ قد باعت ٢٢ رسالة و١٠ بطاقات بريدية من كافكا إلى برود بمبلغ

يعادل ٤٦ ألف يورو. وفي عام ١٩٧٩ باعت مخطوطة **وصف كفاح** (نحو ٥٠ صفحة) بمبلغ يعادل نحو مائة ألف يورو. وفي عام ١٩٨٥ باعت رسالة من كافكا إلى فيليس باور بمبلغ يعادل ستة آلاف يورو. وفي عام ١٩٩٩ باعت رسالة من كافكا إلى صديقه الكاتب فرانز فرفل بمبلغ يعادل ٢٨ ألف يورو.

وظل أرشيف الأدب الألماني طوال ٥٣ عاماً يحاول أن يبتاع منها كامل مخطوطات كافكا، لكن الأثمان التي كانت تطلبها كانت خيالية لا تصدّق.

في عام ٢٠٠٧ توفيت هوفّه بعد أن عاشت مئة عام وعامين. ورثتها ابنتاها روت وإيفا (٧٥ و٨٠ عاماً) بناء على وصية منها. وقد وافقتا على بيع مخطوطات كافكا وكامل تركة برود إلى أرشيف الأدب الألماني في مارباخ، لأن هذا الأرشيف هو «أفضل مكان في العالم لكافكا»، كما قالت إيفا هوفّه، وأضافت أن هذا كان رأي ماكس برود وأمها أيضاً.

لكن هنا وقعت مفاجأة أدهشت العالم الأدبي، حيث رفضت محكمة أسرة في (تل أبيب) حق الوريثتين بوراثة أمهما، وتمّ منعهما من فتح خزائن البنوك، التي تتواجد فيها تركة برود، كما إنها تحوي مجوهرات. فاستأنفت الوريثتان الدعوى.

ورفعت المكتبة العامة في (تل أبيب) مطلباً بإعادة محتويات خزانة البنك في زيوريخ، بل وحتى إعادة مخطوطة **المحاكمة** من مارباخ. قال كلاوس فاغنباخ: «لقد جنّ جنون الإسرائليين». وقال راينر شتاخ بأنه ليس لديهم لا علماء أدب ولا جمهور قراء في الألمانية. لكن هناك خلفيات عديدة للموضوع: مالية وشخصية وسياسية وثقافية.

وهكذا باتت مخطوطات كافكا موضوع نزاع قضائي سيستمر طويلاً بين هيئتين رسميتين تابعتين لدولتين مختلفتين تأسستا بعد ربع قرن من وفاة كافكا، الذي كان، فوق ذلك، مواطناً من مواطني دولة ثالثة هي النمسا. إنه لموقف كافكاوي بامتياز(*).

لكن ثمة أصوات هناك أيضاً تدعو إلى حفظ هذه التركة في مارباخ، مثل شيمون ساندبنك، الذي ترجم نصوصاً من كافكا إلى العبرية، الذي يرى أن (إسرائيل) لم تأخذ أية أهمية في حياة كافكا، وأنه لا يوجد سبب للتمسك بالقوة بهذه التركة. كما أن ظروف حفظها في مارباخ أفضل وأحدث بكثير. كان ماكس برود قد زار قبيل وفاته أرشيف مارباخ، وفيما بعد زارت إستر هوفّه هذا الأرشيف عدة مرات.

(*) عبقري يشعر طوال حياته أن أسرته تعامله كأنه حشرة. عندما يصبح مشهوراً بعد وفاته، لا يستولي عليه من بقي من أسرته ومعارفه وحسب، بل كل من عرفه بل وحتى من لم يعرفه، كل من وما انتمى إليه بالولادة، بل الآن (دولة) تكومت (بالميم) بعد وفاته بربع قرن. إن الديانة هنا وسيلة استغلال بامتياز؛ كما كانت وستبقى، في كل مكان وزمان.

يأمل المختصون في أدب كافكا أن تضم هذه التركة مواداً مجهولة ومراسلات بين كافكا وبرود، كما أن بعضهم يتوقع وجود مخطوطة كافكا **استعدادات زفاف في الريف** ضمن هذه التركة وبضع رسومات له. لكن هذه التركة لا تحوي مخطوطات لكافكا غير معروفة.

جمعيات كافكا

في عام ٢٠٠٥ تأسست في بون «جمعية كافكا الألمانية» (انتقل مقرها لاحقاً إلى مدينة ماربورغ). وهي تكرّس عملها في سبيل آثار كافكا وحياته والخلفية التاريخية لزمن إبداعاته. وتضم أكثر من مئة عضو من ألمانيا، هولندا، اليابان، أمريكا، بولندا، كوريا وسويسرا. عبر موقعها على الإنترنت تصدر رسائل دورية إلى أعضائها والمهتمّين بكافكا من القراء حول المواضيع الراهنة والكتب الجديدة عن كافكا. وتنظم قراءات ومحاضرات ومعارض متنقلة حول كافكا. كما أنها تنظّم كل عام مؤتمراً دولياً تصدر المحاضرات التي تلقى فيه في كتاب سنوي توزعه على أعضائها.

وهناك جمعيات كافكا في كل من النمسا وتشيكيا وهولندا والولايات المتحدة الأمريكية وكوريا.

في عام ٢٠٠٨ نظمت جمعية كافكا التشيكية رحلة بالباص من ألمانيا إلى براغ تحت عنوان «اقتفاء خطوات فرانز كافكا في براغ / رحلة أدبية بمناسبة عيد ميلاده الخامس والعشرين بعد المئة». استغرقت الرحلة خمسة أيام وبلغت تكاليفها ٨٧٤ يورو للفرد الواحد (مع إضافة ١٠٠ يورو لليلة الواحدة في غرفة مفردة).

مؤتمرات عن كافكا

في عام ١٩٦٣ عقد، بناء على مبادرة من جان بول سارتر، أول مؤتمر عالمي عن كافكا، وقد عقد في قلعة ليبليس بالقرب من براغ، واعتبر مؤتمراً تاريخياً كان له تأثير كبير في الجو الثقافي في أوروبا الشرقية.

وفي عام ٢٠٠٨ عقد، استمراراً لذلك المؤتمر الشهير، في المكان نفسه مؤتمر بعنوان «كافكا والسلطة» (حسب رأي إلياس كانِتّي: «إن كافكا هو أكبر خبير في السلطة»). وقد حضر هذا المؤتمر نحو ثمانين من علماء الأدب والتاريخ ناقشوا أهمية كافكا في الأحداث السياسية في تشيكوسلوفاكيا والمعسكر الشيوعي سابقاً، ومدى راهنية تحليل كافكا للنظام بعد سقوط الديكتاتوريات في أوروبا الشرقية. حيث إن كافكا عالج في آثاره الفنية فشل الفرد

نتيجة تحكّم قوى مجهولة في مصيره، وحيث إن كلاً من ممارسة السلطة والخضوع للسلطة هو شأن سرمديّ. وعقد هذا المؤتمر بمبادرة من ناشر الطبعة التاريخية النقدية لآثار كافكا بخط اليد، رولاند رويس، مع مدير معهد براغ للتاريخ المعاصر. قال رويس: «كان مؤتمر عام ١٩٦٣ [اختبار صبغة]. وقد ارتابت به القيادة الشيوعية لتشيكوسلوفاكيا وراقبته بشدة. وثمة شهود عصر يتذكرونه [انتفاضة فكرية] شكلت لغاية عام ١٩٦٨ قاعدة لحركة الإصلاح (ربيع براغ)، وكانت رمزاً لانبعاث الحرية الفنية داخل النظام الشيوعي». وقال رويس: «لكن من الصعب التدليل على تأثير كافكا على السياسة تأثيراً مباشراً».

في عام ٢٠٠٩ نظمت «جمعية كافكا الألمانية» مؤتمرها السنوي في مدينة غيسّن تحت عنوان «مؤتمر كافكا عبر ثقافي».

أقوال في كافكا

- «لقد عاش حقاً، ولم يكن اختراعاً من قبل ماكس برود. هكذا يتحدث المرء عن ملك الأدب العالمي، اللغز فرانز كافكا».
- «تشيخوف، بروست، جويس، توماس مان، برشت، بيكيت، بورغس، نابوكوف، وماركيز هم كتّاب القرن العشرين، لكن كافكا هو جزء من الأبدية».
- «آثار كافكا هي الانفجار الكبير الأول للحداثة الأدبية».
- «من يقرأ كافكا ويلعب بفصول رواية **المحاكمة**، عليه أن يتخطى قوانين قوة الجاذبية».
- «في عام ١٩٢٢ كتب كافكا رواية **القلعة** أيضاً علاجاً لمرض السل الذي كان قد أصيب به في عام ١٩١٧».
- «رواية **القلعة** هي أثره الفني الأكثر عبقرية».
- «ما يجذبني إلى كافكا بشكل خاص هو الراهنية الشديدة لموضوعاته التي كتبت قبل ثمانين وتسعين عاماً».
- «تنعكس في حياته رغبة وحيدة: التوق إلى الحب».
- «كاتب الحداثة».
- «كاتب عبقري».
- «كافكا هو واحد من أكبر عباقرة العالم الأدبي».
- «ظاهرة القرن العشرين».

- «عالمنا - وليس الأدبي وحده - لم يعد هو العالم نفسه بعد أن ألقى فيه كافكا شخصياته: هذه القرود، الحشرات، المسّاحون، الجوّالة التجاريون، وكلاء البنوك، فنانو الجوع، التجار وبنّاؤو الأسوار. نحن أيضاً خلفاء غريغور سامسا وروت بيتر ويوزف ك. لا نفهم ما يحدث لنا أكثر مما يفهمون ما يحدث لهم، ونقرأ كتب كافكا بدهشة متواصلة وعدم فهم لا يتغير. لغة كافكا الصافية على نحو مؤلم وفكاهته التي تنغرس تحت الجلد والبنية الصارمة لقصصه القصيرة تُظهر شيئاً واحداً: هذا العالم يتوارى عنا أكثر كلما حاولنا فتح مغاليقه وفهمه».
- «علينا أن نعتاد على أن كافكا نفسه قلعة زاخرة بالأسرار لا يحصل كل قارئ على تصريح بالدخول إليها».
- «اللغز هو الحل».
- «لقد عمل كافكا، دون أن يعلم وطبعاً دون أن يرغب، على أن تجد البشرية أخيراً تعبيراً مناسباً عن المقبض: كافكاوي. وأفضل مثال على هذه الكلمة المستخدمة في سائر أنحاء العالم هو الشعور الحياتي لكافكا نفسه. كان طوال حياته مستسلماً بعجز للشعور المقبض بالقلق والاغتراب والوحدة. فمثلاً كان كافكا يقف إلى جانب أخته أوتلا، التي كانت تتمرد على الأسرة. ذات مرة صرخ والده بأن أوتلا ليست طبيعية في رأسها. أجاب فرانز كافكا بهدوء: [غير الطبيعي ليس هو الأسوأ، إذ إن الحرب على سبيل المثال هي طبيعية]».
- «ليست كتابة كافكا متعبة ولا معتمة ولا صعبة».
- «من لم يقرأ كافكا قط، لا يموت أقل سعادة، لكنه يعيش أكثر فقراً».

متفرقات عن كافكا

- نظمت لكافكا طوال حياته أمسيتان أدبيتان، الأولى في براغ عام ١٩١٣ وقرأ فيها قصة **الحكم**، والثانية عام ١٩١٦ في ميونيخ وقرأ فيها قصة **في مستعمرة العقاب**.
- لم يعط كافكا طوال حياته أي حديث صحفي.
- لا أحد يعرف كم أتلف كافكا من مخطوطاته.
- المبنى الذي أقام فيه كافكا الشهرين الأخيرين من حياته وتوفي فيه عام ١٩٢٤، أصبح من الأبنية التي تحت حماية الآثار. في عام ٢٠٠٥ قام صاحب المبنى بتغيير نوافذ المبنى القديمة بناء على طلب المستأجرين، فحكمت عليه محكمة بغرامة قدرها ٥٥٠٠ يورو وإصلاح الواجهة بحيث تعود كما كانت.

- بعد الحرب العالمية الثانية لم يكن لكافكا ذكر في مدينته براغ. لكنه الآن يجري تقديره وتكريمه بطرق متنوعة، فقد أطلقوا اسمه على ميدان وعلى محطة قطارات. وهناك متحف له وحده. وهو متحف فريد من نوعه لا يشعر فيه الزائر بأنه في متحف وحسب، بل في عمارة أفكار كافكا. وفي براغ أيضاً محل لبيع الآثار التذكارية المتعلقة بكافكا. وبهذا الاسم يمكن الإعلان عن كل شيء وبيع كل شيء. هناك ماركة من الشوكولاته اسمها «حشرات كافكا».

- آخر من كان على قيد الحياة من أقارب كافكا هي ابنة شقيقته أوتلا. وقد أصبحت طبيبة ريفية وعاشت في ظروف فقيرة للغاية في منطقة نائية. قابلها أحدهم فرأى «ملامح كافكا وقد تحولت في وجهها إلى ملامح أنثوية».

- قام خمسة علماء إدارة في هولندا بتشكيل منظمة أهلية مستقلة باسم «لواء كافكا» وضعت لنفسها هدفاً هو مساعدة الأهالي الذين يتعرضون لحالات بيروقراطية معقدة في حل مشكلاتهم مع الدوائر الرسمية. وبعد أن نجحت المنظمة في حل حالات عديدة أطلقت عليها «حالات كافكا»، تولت الحكومة الهولندية، التي من أهدافها الأولى مكافحة البيروقراطية، تمويل هذه المنظمة الطوعية من أجل تبادل الدعم بين الطرفين.

- بلومفِلد Blumfeld فرقة موسيقية ألمانية مشهورة تشكلت في عام ١٩٩٢ باسم مأخوذ من اسم قصة لكافكا - كصوت ثقافة مضادة، ثقافية، أكاديمية، مضادة للرأسمالية، يسارية. لها أغنية بعنوان «عدم إمكانية قول كلمة لا دون انتحار»، وأغنية باسم «حوار قضيب». رئيس الفرقة لم يدرس في جامعة، لكنه قرأ كافكا وأدورنو.

٢٠٠٩ (إعداد) ا. و

أسماء المشاركين في الدراسات والأحاديث

Verfasser der Studien

1 . Peter - Andrè Alt	١ - بيتر - أندريه ألت
2 . Hartmut Binder	٢ - هارتموت بيندر
3 . Max Brod	٣ - ماكس برود
4 . Roberto Calasso	٤ - روبرتو كالاسّو
5 . Wilhelm Emrich	٥ - فيلهلم إمريش
6 . Hans Paul Fiechter	٦ - هانس باول فيشتر
7 . Sibylle Lewitscharoff	٧ - سيبيله لِفيتشَرف
8 . Alexandra Oswald	٨ - ألكسندرا أوسفَلد
9 . Steffi Lackner	٩ - شتيفي لكنر
10. Frank Schirrmacher	١٠ - فرنك شيرماخر
11. Gerd Schneider	١١ - غرد شنايدر
12. Reiner Stach	١٢ - راينر شتاخ
13. Jean - Marie Straub	١٣ - جان - ماري شتراوب
14. Klaus Wagenbach	١٤ - كلاوس فاغنباخ

في المكتبات

فرانز كافكا

الآثار الكاملة

مع تفسيراتها

٢

(الذات)

المحاكمة

رواية

الطبعة الثالثة عام ٢٠٠٨

ترجمها عن الالمانية ابراهيم وطفي

يصدر لاحقاً

فرانز كافكا

الآثار الكاملة

مع تفسيراتها

٤

(الكون البشري)

القلعة

رواية

ترجمها عن الالمانية ابراهيم وطفي

كافكا

في النقد العربي

(البداية)

(١٩٩٤ ـ ٢٠٠٥)

عدد من النقاد والكتّاب

هنا أشكر صديقتي وزوجتي أنّي لدعمها ورعايتها لي، إذ لولا مساعدتها، لما نشأ هذا الكتاب (ا.و).

Hier danke ich meiner Freundin und Ehefrau Anne für ihre Unterstuetzung und Fuersorge, denn ohne ihre Hilfe waere dieses Buch nicht entstanden (I.W.).

للمترجم

الكتـــاب	الكاتـب	النـاشـر
١ ـ حديث عن فيتنام (مسرحية)	بيتر فايس	وزارة الثقافة/ دمشق ١٩٧٠
٢ ـ لعبة حلم (مسرحية)	أوغست سترندبرغ	وزارة الثقافة/ دمشق ١٩٧٢
٣ ـ القضية (مسرحية عن رواية كافكا)	بيتر فايس	مجلة الحياة المسرحية/ دمشق ١٩٨١
٤ ـ الليلة التي نبح فيها الرئيس (مسرحية)	هاينر كيبهارت	مجلة الحياة المسرحية/ دمشق ١٩٨٣
٤ ـ ليلة جمعة (المسرحية السابقة)	هاينر كيبهارت	وزارة الثقافة/ دمشق ١٩٨٤
٥ ـ أحاديث مع غابرييل غارسيا ماركيز	بلينيو ميندوزا	دار طلاس/ دمشق ١٩٨٦
٦ ـ مرتس (مسرحية)	هاينر كيبهارت	ابراهيم وطفي/ دمشق ـ بون ١٩٩٠ (ط٢: ١٩٩٧)
٧ ـ معركة منزلية (مسرحية)	مارتن فالزر	ابراهيم وطفي/ دمشق ـ بون ١٩٩٤
٨ ـ الحكم	فرانز كافكا	ابراهيم وطفي/ دمشق ـ بون ١٩٩٤
٩ ـ رسالة إلى الوالد	فرانز كافكا	ابراهيم وطفي/ دمشق ـ بون ١٩٩٦
١٠ ـ حرب الشمال على شعوب الجنوب	عدد من الكتاب	ابراهيم وطفي/ دمشق ـ بون ١٩٩٦
١١ ـ ثلاثة كتاب من الألمانية	فايس. كيبهارت. فالزر	ابراهيم وطفي/ دمشق ـ بون ٢٠٠٠
١٢ ـ ١٣ ـ الآثار الكاملة (١) [الحكم/ الوقاد/ الانمساخ/ رسالة إلى الوالد]	فرانز كافكا	ابراهيم وطفي/ دمشق ـ بون ٢٠٠٠ (ط٣ عام ٢٠٠٨)
١٤ ـ الآثار الكاملة (٢) المحاكمة	فرانز كافكا	ابراهيم وطفي/ دمشق ـ بون ٢٠٠٢ (ط٣ عام ٢٠٠٩)
١٥ ـ الآثار الكاملة (٣) المفقود	فرانز كافكا	ابراهيم وطفي / دمشق ـ بون ٢٠١٠

أخطاء مطبعية وردت في هذا الكتاب

صفحة	سطر	خطـأ	صـواب
١٣	١٣	مظلته	شمسيته
١٤	٢١	مظلتي	شمسيتي
١٥	٢	مظلتك	شمسيتك
٣٧	١٢	أنه من	بأنه من
٣٧	١٥	أنه،	أنه
٤٢	١٦	حتى إن	حتى أنْ
٦١	٢	البنطلون	السروال
٨٠	١٧	كانا يقولونه	كانوا يقولونه
٨٤	٢٥	إزاءه	إزاءهم
٨٨	٢	أوكتسيتندال	أوكتسيدنتال
٩٧	١٧	كان كل فرد كان	كان كل فرد
١١٣	١٠	هات ما عنك	هات ما عندك
١١٣	١٢	كبيرالنادلين	كبير النُدُل
١١٤	٢٠	النادلين	النُدُل
١٢١	١٧	إليه	إليها
١٢٤	٩	السيد كبيرة	السيدة كبيرة
١٢٦	٢٣	دقيقة»،	دقيقة؟»،
١٣٥	٦	شمسية	مظلة
١٣٥	١١	الشمسية	المظلة

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٤٣	١٧	ثلاث علب ثلاثة صناديق	ثلاث خزائن
١٤٧	٥	برولیندا	برونيلدا
١٤٧	١٠	قالت.	قالت».
١٤٩	١٦	بالمظلة	بالشمسية
١٥٥	٣٠	مثلم	مثل
١٨٨	١٥	الشركة	المحل
١٩٢	١٣	دعهم يقبلوك	دعهم يقبلونك
١٩٤	٤	رئيس قلم المستخدمين	مدير إدارة العاملين
٢١٠	٢٨	البسكويت،	البسكويت (ص ١٨١ ـ ١٨٢)،
٢١٠	٢٠	(ص ١٩٨ س ٢٣ من	(ص ١٨١ س ٢١ من
٢٢١	٢٠	(ص ٣٧).	(ص ٣٥).
٢٣٢	٣	(ص ١٠٣)	(حذف)
٢٣٢	١	(ص ١١٥).	(ص ١٠٦).
٢٣٩	٧	الإعلان لا يلقى	اللافتة لا تلقى
٢٤٣	١٥	الآخرين	الآخرون
٢٦٠	٣	إلى سفينة	في سفينة
٢٨٣	١٢	هذا اللعبة	هذه اللعبة
٣٠٤	١	لم يكن مراسلات	لم يكن ثمة مراسلات
٣٣٣	٢٥	ص ٣٢١	ص ٢٩٥



الكاتب والكتاب

قيل عن فرانز كافكا (١٨٨٣ ـ ١٩٢٤) بأنه «مفسر بعيد النظر للواقع في العصر الحديث»، «جدّ أعلى» لكتّاب القرن العشرين، «أب الأدب الغربي الحديث»، «أكبر كاتب ألماني في عصرنا»، «عبقرية لا يجود بها الزمن سوى مرة واحدة كل قرن» و «واحد من أعظم الكتّاب في تاريخ الأدب».

«رواية [المفقود] هي من أهم الآثار الأدبية في الأدب العالمي التي تكشف المجتمع الصناعي الحديث. هنا يجري فضح الآليات الاقتصادية والبسيكولوجية لهذا المجتمع وعواقبها الشيطانية فضحاً لا هوادة فيه. كما أن هذه الرواية هي الشرط الذي لا يستغنى عنه لفهم رواية [المحاكمة] ورواية [القلعة]». فيلهلم إمريش

«إن آثار كافكا الفنية ليست أبحاثاً حول معضلات دينية أو ميتافيزيقية أو أخلاقية، بل هي إبداعات شعرية. من هو قادر على قراءة شاعر قراءة حقة، أي دون أن يتوقع أسئلة، نتائج فكرية أو أخلاقية، في استعداد يسير لتلقي ما يعطيه الشاعر، هذا القارئ تمنحه هذه الآثار في لغتها كل جواب يمكنه أن يتمناه. ليس لدى كافكا ما يقوله لنا بصفته لاهوتياً أو فيلسوفاً، بل بصفته شاعراً وحسب. إن إبداعاته الشعرية العظيمة تقدم لنا أحلام ورؤى حياته الصعبة المتوحدة، أمثولات على تجاربه ومتاعبه ومسراته، وهذه الأحلام والرؤى هي وحدها التي يتعيّن علينا أن نبحث عنها لديه ونتلقاها». هرمان هسّه

(الحائز على جائزة نوبل للأدب في عام ١٩٤٦)

يضم هذا الجزء الثالث من «الآثار الكاملة» لكافكا:

١ ـ نص رواية «المفقود» طبقاً للطبعة التاريخية ـ النقدية.

٢ ـ عشر دراسات عن الرواية.

٣ ـ أربعة أحاديث عن كافكا وآثاره الفنية.

٤ ـ دراسة عن التأثيرات الراهنة لآثار كافكا.

يمثل هذا الكتاب طريقة جديدة في تقديم كاتب عالمي إلى الكاتب والناقد والقارئ العربي. كما أنه يتطلب طريقة جديدة في القراءة.